﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة] فماذا يقول هذا المعاند ؟ ﴿ فَبُهِتَ[1] الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

كذلك كان فرعون يلجأ إلى هذا الأسلوب في حواره مع موسى وهارون عليهما السلام ، ففي كل موقف كان يقول : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) ﴾ [طه] إنه الجدل العقيم ، يلجأ إليه مَنْ أفلس ، فلم يجد حجة يستند إليها .

ونلحظ في أسلوب الآية صيغة الإفراد في ﴿ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ .. (٥٨) ﴾ [الروم] ثم تنتقل إلى صيغة الجمع في ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) ﴾ [الروم] فلم يقولوا لرسولهم مثلاً : أنت مبطل ، فلماذا ؟ قالوا : لأن الرسول حين يُكذِّبه قومه فيقولون : أنت مبطل ، فلعل من أتباعه المؤمنين به مَنْ يدافع عنه ويشهد بصدقه ، فجاءت صيغة الجمع لتفيد الشمول ، فكأنهم يقولون : أنت مبطل وكل مَنْ (يتشدد لك) .

أو : يكون المعنى ﴿ إِنْ أَنتُمْ .. (٥٨) ﴾ [الروم] يعني : كل الرسل ﴿ مُبْطِلُونَ (٥٨) ﴾ [الروم] أي : كاذبون تختلقون من عند أنفسكم وتقولون : هو من عند الله . وعجيب من هؤلاء أن يؤمنوا بالله ويُكذِّبوا رسله ، ككفار مكة الذين شمتوا في رسول الله حين فتر عنه الوحي فقالوا : « إن رب محمد قلاه »[2] .

---

(١) بُهِتَ : دهش وتحير . [القاموس القويم ١/٨٦] قال ابن منظور في لسان العرب - مادة : بهت : « انقطع وسكت متحيراً » .

(٢) عن جندب بن عبد الله البجلي قال : اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين ، فأتت امرأة فقالت : يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، فأنزل الله ﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى] رواه البخاري ومسلم ، وفي رواية قال جندب : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودع محمداً ربه . قاله ابن كثير في تفسيره (٤/٥٢٢) .

وهم لا يدرون أن الوحي كان يجهد رسول الله ، وكان يشقّ عليه في بداية الأمر ، حتى جاء زوجه خديجة يقول : زملوني زملوني ، دثروني دثروني ، وكان جبينه يتفصد عرقاً ، وكان ﷺ يقول عن الملك : « وضمني حتى بلغ مني الجهد »[1] .

وما ذاك إلا لالتقاء الملكية بالبشرية ؛ لذلك كان جبريل عليه السلام يتمثل لسيدنا رسول الله في صورة بشر ، ليس عليه غبار السفر ولا يعرفه أحد ، كما جاء لرسول الله وهو في مجلس الصحابة يسأله عن الإيمان والإسلام والإحسان[2] .

إذن : مسألة فتور الوحي وانقطاعه مدة عن رسول الله أراد الله به أن يستريح رسول الله من مشقة الوحي حتى يزول عنه الألم والعناء ، وعندها يشتاق للوحي من جديد ، ويهون عليه فيتحمله ويصير له دُرْبة على تلقيه من الملك ، فشَوْق الإنسان إلى الشيء يجعله يتحمل المشاقّ في سبيله ، ويُهوّن عليه الصعاب ، كالذي يسير إلى محبوبه

---

(١) قالت عائشة رضي الله عنها : « لقد رأيته ﷺ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصّد عرقاً » أخرجه البخاري في صحيحه (٢) كتاب بدء الوحي . قال ابن حجر في الفتح (١/٢١) : « شبه جبينه بالعرق المفصود مبالغة في كثرة العرق ، والفصد هو قطع العرق لإسالة الدم .

(٢) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد ، أخبرني عن الإسلام (فيجيبه) ، فأخبرني عن الإيمان (فيجيبه) ، فأخبرني عن الإحسان (فيجيبه) ، فأخبرني عن الساعة (فيجيبه) قال عمر : ثم قال ﷺ : أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « فإنه جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم » . أخرجه مسلم في صحيحه (٨) كتاب الإيمان ، وكذا البخاري في صحيحه (٥٠) ولكن من حديث أبي هريرة .

فلا يبالي حتى لو سار على الشوك ، أو اعترضته المخاوف والأخطار.

والوحي لقاء بشري بملكي ، فإما أنْ ينتقل الرسول إلى مرتبة الملَك ، أو ينتقل الملك إلى مرتبة البشر ، وهذا التقارب لم يحدث في بداية نزول الوحي فأجهد رسول الله واحتاج إلى هذه الراحة بانقطاع الوحي .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ ﴾ [الشرح] أي : جعلناه خفيفاً لا يجهدك . ويقول سبحانه في الرد عليهم : ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾ [الضحى]

فعجيب أنْ يقولوا « إن رب محمد قلاه » فيعترفون برب محمد ساعة الشدة والضيق الذي نزل به ، فأشمتهم فيه حتى قالوا : إن رب محمد جفاه ، فلما وصله ربه بالوحي ودعاهم إلى الإيمان كفروا وكذَّبوا .

﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٩ ﴾

قوله سبحانه : ﴿ كَذَٰلِكَ .. ۝٥٩ ﴾ [الروم] أي : كتكذيبهم لكل آية تأتيهم بها ﴿ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٩ ﴾ [الروم] أي ختمها وأغلقها .

فإنْ قلتَ : فمن المصلحة أنْ تظل قلوبهم مفتوحة لعلها تستقبل شيئاً من الهداية والنور . تقول : الخَتْم على قلوب هؤلاء لا يكون إلا بعد استنفاد كل وسائل الدعوة ، فلم يستجيبوا فلا أملَ في هدايتهم ولا جدوى من سماعهم .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ ربٌّ يعين عبده على ما يحب ويلبى له رغبته ، حتى وإنْ كانت الكفر ، وهؤلاء أرادوا الكفر وأحبوه ، فأعانهم الله على ما أرادوا ، وختم على قلوبهم حتى لا يدخلها إيمان ، ولا يفارقها كفر .

لذلك سبق أنْ حذَّرنا أصحاب المصائب ، أو الذين يفقدون عزيزاً ، حذرناهم أنْ يستديموا الحزن ، وأنْ يألفوه مخافة أنْ يوافقكم الله على هواكم فى محبة الحزن وعشْقه ، فتتوالى عليكم الأحزان وتتتابع المصائب ، إياكم أن تدعوا باب الحزن موارباً ، بل أغلقوه بمسمار الرضا ، فالحزن إنْ ظلَّ بك فلن يدعَ لك حبيباً .

وكذلك نقول : إن شُغل عنك شخص فلا تُذكِّره بنفسك ، بل أعنْهُ على هجرك ، وساعده بألاَّ تذكره .

فإذا قلتَ : إذا كان الحق سبحانه قد وصفهم بأنهم لا يعلمون ، فلماذا يختم على قلوبهم ، ولماذا يحاسبهم ؟ نقول : لأن عدم العلم نتيجة تقصيرهم ، فالحق سبحانه أقام لهم الأدلة والآيات الكونية الدالة على وجوده تعالى ، فلم ينظروا فى هذه الآيات ولم يستدلوا بالأدلة على وجود الخالق القادر سبحانه ، وضرورة البلاغ عن الله ، إذن : فعدم علمهم نتيجة غفلتهم وتقصيرهم .

لكن ، ماذا بعد أنْ كذَّبوا الرسل وأنكروا الآيات ، أتتوقف مسيرة الدعوة ، لأنهم صمُّوا آذانهم عنها ؟ لقد خلق الله الكون ونثر فيه الآيات التى تدل على وجود الإله الواحد الأحد ، وجعل فيه المعجزات التى تثبت صدْق الرسل فى البلاغ عن الله ، والحق سبحانه لا ينتفع بهذه الآيات : لأن مُلْكه تعالى لا يزيد بطاعتنا ، ولا ينقص بمعاصينا ، فالمسألة تعود إلينا نحن أولاً وآخراً ، إذن : فالحسم فى هذه

المسألة : دَعْكَ من هؤلاء المكذِّبين يا محمد ، واثْبتْ على ما أنت عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠ ﴾

اصبر على كرههم ، واصبر على لَدَدهم وعنادهم ، واصبر على إيذائهم لك ولمن يؤمن بك ، اصبر على هذا كله : لأن العاقبة في صالحك ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .. ۝٦٠ ﴾ [الروم] وقد وعد الله رسله بالنصرة والغَلَبة ، ووَعْدُ الله حق ، فتأكد أن النصر آتٍ .

لكن ما دام النصر آتياً ، فلماذا هذا الصراع بين المؤمنين والكافرين ؟ ولماذا كل هذه المشقة والعناء في سبيل الدعوة ؟ قالوا : لأن الله تعالى يريد أنْ يُمحِّص أتباع محمد ، وأن يُدرِّبهم على مسئولية حمل أمانة الدعوة وشعلة النور من بعد رسول الله ، لا إلى أهل الجزيرة العربية وحدها ، إنما إلى الكون كله .

فلا بُدَّ أنْ يكونوا من أهل الثبات على المبدأ الذين لا تزعزعهم الشدائد ، والدليل على ذلك أنهم يُؤذَوْن ويُضطهدون فيصبرون ، وهذه أهم صفة فيمن يُعَدُّ لتحمُّل الأمانة .

لذلك نقول : إذا رأيتَ منهجاً أو مبدأ يغدق على أصحابه أولاً ، فاعلم أنه مبدأ باطل ؛ لأن المبدأ الحق يضحي أهله من أجله بأنفسهم وبأموالهم ، يعطونه قبل أنْ يأخذوا منه ، لماذا ؟ لأن صاحب المبدأ الباطل لن يجد مَنْ يناصره على باطله إلا إذا أغراهم بالمال أولاً

واشترى ذممهم ، وإلا فماذا يلجئه إلى مبدأ باطل ، ويحمله على اتباعه ؟ إذن : لابد أن يقبض الثمن أولاً .

أما المبدأ الحق فيعلم صاحبه أن الثمن مُؤجَّل للآخرة ، فهو ممنًّى بأشياء فوق هذه الدنيا يؤمن بها ويعمل من أجلها ، فتهون عليه نفسه ، ويهون عليه ماله فى سبيل هذا المبدأ .

وفى رحلة الدعوة ، رأينا الكثيرين يتساقطون بالردة عندما تَحْدثُ لرسول الله آية أو هزة تهزُّ الناس ، وكأن الشدة غربال يميز هؤلاء وهؤلاء ، حتى لا يبقى تحت راية لا إله إلا الله إلا الصناديد الأقوياء القادرون على حمل هذا اللواء إلى العالم كله .

فالله يقول لنبيه : اصبر على تكذيبهم وعلى إنكارهم وعلى ائتمارهم عليك ، فنحن مُؤيدوك ، ولن نتخلى عنك ، وقد وضح لك هذا التأييد حين جاهروك فانتصرت على جهرهم وبيَّتوا لك فى الخفاء فانتصرتَ على تبييتهم ، واستعانوا حتى بالجن ليفسدوا عليك أمرك ، ففضح الله تدبيرهم ونجاك منهم .

إذن : فاطمئن ، فنحن لهم بالمرصاد ، ولن نُسلْمك أبداً ، بل وسوف نريك فيهم ما يستحقون من العقاب فى الدنيا ، وتراه بعينك ، أو فى الآخرة بعد موتك : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر]

ومن هذا العقاب الذى نزل بهم فى الدنيا ورآه سيدنا رسول الله ما حاق بهم يوم بدر من قَتْل وأسْر وتشريد ، وقلنا : إن عمر رضى الله عنه وما أدراك ما عمر ، فقد كان القرآن ينزل على وَفْق رأيه ، ومع ذلك لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] تعجب وقال : أيُّ جمع هذا الذى سيُهزم ، ونحن عاجزون حتى عن حماية

أنفسنا ، فلما كانت بدر ، ورأى ما رأى قال : صدق الله ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر]

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .. (٦٠)﴾ [الروم] الوعد : هو البشارة بخير لم يأت زمنه الآن ، وفَرْق بين الوعد بالخير من إنسان ، والوعد من الله تعالى ، فوَعْدكَ قد يتخلف لأنك ابن أغيار ، ولا تملك كل عناصر الوفاء بالوعد ، وربما جاء وقت الوفاء فلم تقدر عليه أو تتغير نفسك من ناحيته فتبخل عليه ، أو تراه لا يستحق ... إلخ .

إذن : الأغيار التى تنتابك أو تنتابه أو تنتاب قيمة ما تؤديه من الخير موجودة ، وقد تحول بينك وبين الوفاء بما وعدتَ .

لذلك يعلمنا الحق سبحانه أنْ نحتاط لهذا الأمر ، فيقول سبحانه : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ..(٢٤)﴾ [الكهف] فاربط فعلك بمشيئة الله التى تُيسِّر لك الفعل ، ولا ينبغى أنْ تجزم بشىء أنت لا تملك شيئاً من أسبابه .

قلنا : هَبْ أنك قلتَ : سألقاك غداً فى المكان الفلانى ، وسأعطيك كذا وكذا ، فأنت قلتَ هذه المقولة ووعدتَ هذا الوعد وأنت لا تضمن أن تعيش لغد ، ولا تضمن أنْ يعيش صاحبك ، وإنْ عشْتُما لغد فقد يتغير رأيك ، أو يصيبك شىء يعوقك عن الوفاء ، إذن : فقولك إنْ شاء الله يحميك أنْ تُوصف بالكذب فى حالة عدم الوفاء ؛ لأنك وعدتَ ولم يشأ الله ، فلا دخلَ لك فى الأمر .

فالوعد الحق يأتى ممَّنْ ؟ منَ الذى يملك كُلَّ أسباب الوفاء ، ولا يمنعه عنه مانع .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠)﴾ [الروم] خفّ الشىء : لم يَعُدْ له ثقل ، واستخفَّ غيره : طلب منه أنْ يكون خفيفاً ،

فمثلاً حين تقسو على شخص يأتي آخر فيقول لك : خف عنه . واستخفه مثل استفزه يعني : حركه وذبذبه من ثباته ، فإنْ كان قاعداً مثلاً هَبَّ واقفاً .

لذلك نقول في مثل هذه المواقف (خليك ثقيل .. فلان بيستفزك يعني : يريد أنْ يُخرجك عن حلمك وثباتك .. متبقاش خفيف .. إلخ) ونقول للولد (فز) يعني قفْ انهض ، ومنه قوله تعالى ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ[1] .. (٦٤)﴾ [الإسراء]

إذن : فالمعنى استخفه : حمله على الخفة وأن يتحول عن الثبات الذي هو عليه .

فالمعنى : إياك يا محمد أنْ يستفزك القوم ، أو يُخرجوك عن ثباتك ، فتتصادم معهم ، لكن ظلّ على ثباتك في دعوتك ولا تقلق ؛ لأن الله وعدك بالنصرة ووَعْد الله حَقٌّ . والحق سبحانه ساعة يُرخي العنان لمن كفر به إنما يريد أنْ يُخرج كل ما عندهم حتى لا يبقى لهم عذر ، ثم يقابلهم ببعض ما عنده مما يستحقون في الدنيا ، والباقي سيرونه في الآخرة .

والله يقول : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

ومن سيرة الإمام علي ـ رضي الله عنه وكرَّم الله وجهه ـ علمنا أنه ابتُلي بجماعتين : الخوارج الذين يُكفِّرونه ، والشيعة الذين يُؤلهونه ويصلون به إلى درجة النبوة ، حتى صدق فيه قول رسول الله :

---

(١) أي : بكل قوتك وبجنودك كلهم راكبين أو مشاة غير راكبين . [القاموس القويم ٢٥٧/١] .

« هلك فيك اثنان : مُحب غالٍ ، ومبغض قالٍ[1] »[2] .

ويروى[3] أنه ـ رضي الله عنه ـ كان يصلي يوماً الفجر بالناس ، فلما قرأ : (ولا الضالين) اقترب منه أحد الخوارج وقرأ : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) ﴾ [الزمر] يريد أن يقول له : أنت كافر ولن يقبل منك عملك .

وسرعان ما فطن علي لما أراده الرجل ، فقرأ بعدها مباشرة : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (٦٠) ﴾ [الروم] يعني : لن تُخرجني عن ثباتي وحلْمي ولن تستفزني .

والعظمة في هذا الموقف أنْ يرد علي لتوِّه بالقول الشافي من كتاب الله دون سابق إعداد أو ترتيب ، ولِمَ لا ، وهو علي بن أبي طالب الذي أُوتي باعاً طويلاً في البلاغة والفصاحة والحجة .

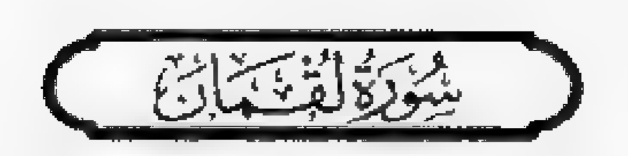
ومعنى : ﴿ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (٦٠) ﴾ [الروم] من اليقين ، وهو الإيمان الثابت الذي لا يتزعزع ، فيصير عقيدة في القلب لا تطفو إلى العقل لتناقش من جديد .

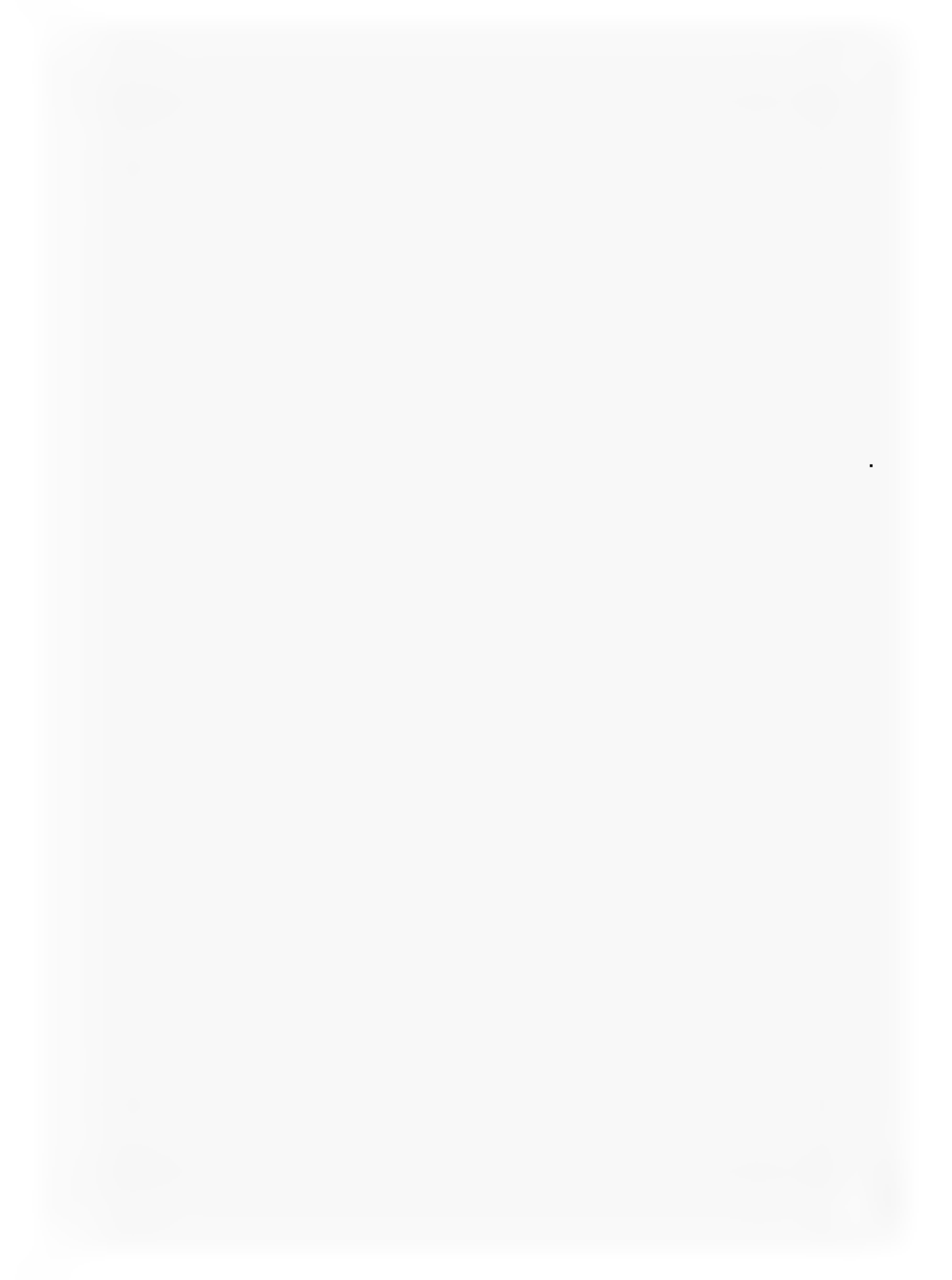
---

(١) القِلَى : البغض . قال ابن سيده : قليته قلى وقلاء : أبغضته وكرهته غاية الكراهة فتركته . [لسان العرب ـ مادة : قلي] .

(٢) عن علي بن أبي طالب قال : دعاني رسول الله ﷺ فقال : « إن فيك مثلاً من عيسى أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه ، وأحبته النصارى حتى أنزلوه بالمنزل الذي ليس به . ألا وإنه يهلك فيَّ اثنان : محب مفرط يقرظني بما ليس فيَّ ، ومبغض يحمله شنآني على أن يبهتني . ألا وإني لست بنبي ولا يُوحى إليَّ . ولكني أعمل بكتاب الله وسنة نبيه ما استطعت » أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٣/٩) وعزاه للبزار وأبي يعلى الموصلي .

(٣) أورده ابن كثير في تفسيره (٤٤٠/٣) من عدة طرق :
- من طريق قتادة . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم .
- من طريق علي بن ربيعة . رواه ابن جرير .
- من طريق أبي يحيى . رواه ابن أبي حاتم .


سورة لقمان



سـورة لقمـان[1]



﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ﴾

سبق أنْ فصَّلنا القول فى الحروف المقطَّعة فى بدايات السور ، وذكرنا كل ما يمكن أنْ يقوله بشر ، وبعد هذا كله نقول : والله أعلم بمراده ؛ لأننا مهما أوتينا من العلم فلن نصل إلى غاية هذه الحروف ، وسيظل فيها من المعانى ما نعجز نحن عن الوصول إليه .

فإنْ قلتَ : فما فائدة هذه الحروف المقطعة إنْ كانت غير معلومة المعنى ؟ نقول : نحن نناقشكم بالعقل وبالمنطق ، فالقرآن نزل بأسلوب عربى ، وتحدى العرب وهم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان

---

(١) سورة لقمان هى السورة رقم (٣١) فى ترتيب المصحف الشريف عدد آياتها ٣٤ آية . وهى سورة مكية نزلت بعد سورة الصافات ، وقبل سورة سبأ . قال القرطبى فى تفسيره : « هى مكية ، غير آيتين . قال قتادة : أولهما ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [لقمان] إلى آخر الآيتين . وقال ابن عباس : ثلاث آيات ، أولهن هذه الآية إلى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [لقمان] .

وأصحاب التعبير الجميل والأداء الرائع ، ونزل في قريش التي جمعتْ في لغتها كل لغات القبائل العربية ، وقد خرج منها صناديد كذبوا محمداً ، وكفروا بدعوته ، فهل سمعنا منهم مَنْ يقول مثلاً . ما معنى (الم) أو (حم) .

والله لو كان فيها مطعن ما تركوه ، إذن : فهذا دليل على أنهم فهموا هذه الحروف ، وعرفوا أن لها معنى أبسطها أن نقول : هي من حروف التنبيه التي كان يستخدمها العرب في كلامهم ، فهي مثل (ألا) في قول الشاعر[1] .

ألاَ هُبِّي بِصحْنك فَاصْبِحينا ... ولاَ تُبْقِ خُمور الأنْدرينَا[2]

فـألا أداة للتنبيه ، وتأتي أهمية التنبيه في أول الكلام من أن المتكلم يملك زمام منطقه فيرتبه ويُعده ، ويدير المسائل بنسب ذهنية في ذهْنه ، لكن السامع قد يكون غافلاً ، فيُفاجأ بالكلام دون استعداد ، فيفوته منه شيء ، فتأتي حروف التنبيه لتُخرجه من غفلته ، وتسترعي انتباهه ، فلا يفوته من كلامك شيء ، إذن : أبسط ما يقال في هذه الحروف أنها للتنبيه على طريقة العرب في كلامهم .

وسبق أنْ بيَّنا أن القرآن مبني كله على الوصل في آياته وسوره ، بل في آخره وأوله نقول : (من الجنة والناس بسم الله الرحمن

---

(١) هو عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب أبو الأسود ، شاعر جاهلي ، ولد في شمال جزيرة العرب في بلاد ربيعة ، وتجول فيها وفي الشام والعراق ونجد ، هو من الفتاك الشجعان ، أشهر شعره معلقته التي فيها هذا البيت : توفي نحو ٤٠ ق هـ . [الأعلام للزركلي ٥/٨٤]

(٢) الصحن : القدح العظيم . والأندرون . قرى بالشام . ومعنى البيت : ألا استيقظي من نومك أيتها الساقية ، واسقني الصبوح بقدحك العظيم ولا تدخري خمر هذه القرى . [شرح المعلقات السبع للزوزني ص ١٦٥] .

الرحيم الحمد لله رب العالمين) وكذلك في الآيات والسور . وكأن الله تعالى يريد منك ألاَّ تفصل آية من القرآن عن التي بعدها ؛ لذلك يقولون عن قارىء القرآن : هو الحالّ المرتحل ، فهو حالٌّ في آية أو سورة ، مرتحل إلى التي تليها .

إذن : الوصْل سِمَة عامة في القرآن كله لا يستثنى من ذلك إلا الحروف المقطعة في بدايات السور ، فهي قائمة على القطع ، فلا نقول هنا ألفٌ لامٌ ميمٌ ، لكن نقول ألفْ لامْ ميمْ ، فلماذا اختلفت هذه الحروف عن السمة العامة للقرآن كله ؟

قالوا : ليدلّك على أن الألف أو اللام أو الميم ، لكل منها معناه المستقل ، وليست مجرد حروف كغيرها من حروف القرآن ؛ لذلك خالفتْ نسق القرآن في الوصل ؛ لأن لها معنىً مستقلاً تؤديه .

ويفسر هذا قول النبي ﷺ : « مَنْ قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ ﴾

تلك : اسم إشارة للمؤنث مثل ذلك للمذكر ، وهي عبارة عن التاء للإشارة ، واللام للبُعْد ، سواء أكان في المكان أو في المكانة والمنزلة ، ثم الكاف للخطاب ، وتأتي بحسب المخاطب مذكراً أو مؤنثاً ، مفرداً أو مثنىً أو جمعاً .

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٩١٠) من حديث عبد الله بن مسعود ، وقال : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

فتقول فى خطاب المفرد المذكر : تلك . وللمفردة المؤنثة : تلك . وللمثنى تلكما .. إلخ ، ومن ذلك قول امرأة العزيز فى شأن يوسف عليه السلام : ﴿فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ .. (٣٢)﴾ [يوسف] فذا اسم إشارة ليوسف ، واللام للبُعْد وكُنَّ ضمير لمخاطبة جمع المؤنث .

ويقول تعالى فى خطاب موسى : ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ .. (٣٢)﴾ [القصص] أى : اليد والعصا ، فذان اسم إشارة للمثنى ، والكاف للخطاب .

والإشارة هنا ﴿تِلْكَ آيَاتُ.. (٢)﴾ [لقمان] لمؤنث وهى الآيات ، والمخاطب سيدنا رسول الله ﷺ وأمته تبع له ، والقرآن الكريم مرة يشير إلى الآيات ، ومرة يشير إلى الكتاب نفسه ، فيقول : الكتاب أو الفرقان ، أو القرآن ولكل منها معنى .

فالكتاب دلَّ على أنه يُكتب وتحويه السطور ، والقرآن دلَّ على أنه يُقرأ وتحويه الصدور ، أما الفرقان فهذه هى المهمة التى يقوم بها : أنْ يفرق بين الحق والباطل .

وهنا قال ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢)﴾ [لقمان] فوصفه بالحكمة ، أما فى أول البقرة فقال : ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى.. (٢)﴾ [البقرة] فلم يُوصَف بالحكمة ، إنما نفى عنه أن يكون فيه ريب، أى : شك .

وكلمة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ .. (٢)﴾ [البقرة] تؤكد لنا صدْق الرسول فى البلاغ عن الله ، وصدْق الملَك الذى حمله من اللوح المحفوظ إلى رسول الله ، وقد مدحه الله بقوله : ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠)﴾ [التكوير]

وقال عن سيدنا رسول الله فى شأن تبليغ القرآن : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ

عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)﴾ [الحاقة]

إذن : فالقرآن كما نزل من عند الله ، لم يُغيَّر فيه حرف واحد ، وسيظل كذلك محفوظاً بحفظ الله له إلى أنْ تقوم الساعة ، وسنظل نقرأ ﴿لا رَيْبَ فِيهِ .. (٢)﴾ [البقرة]

ويقرؤها مَنْ بعدنا إلى قيام الساعة ، فقد حكم الحق سبحانه بأنه لا ريْب فى هذا القرآن منذ نزل إلى قيام الساعة ، فإنْ شككونا فى شىء من كتاب ربنا فعلينا أن نقرأ ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢)﴾ [البقرة]

فهذه قضية حكم الله بها ، وهى ممتدة وباقية ما بقيتْ الدنيا ، كما سبق أنْ قُلْنا ذلك فى قوله تعالى : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ .. (٥٣)﴾ [فصلت] فالآية تستوعب المستقبل كله ، مستقبل مَنْ عاصر نزول القرآن ، ومستقبل مَنْ يأتى بعد إلى قيام الساعة ، بل مستقبل مَنْ تقوم الساعة عليهم .

فالقرآن لم ينزله الله ليُفرغ كل أسراره وكل معجزاته فى قَرْن واحد ، ولا فى أمة واحدة ، ثم يستقبل القرون والأمم الأخرى دون عطاء ، الله يريد للقرآن أنْ يظل جديداً تأخذ منه كل الأمم وكل العصور ، وتقف على أسراره ومعجزاته وآياته فى الكون .

ومعنى ﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢)﴾ [لقمان] الكتاب لا يُوصَف بالحكمة إنما يُوصَف بالحكمة مَنْ يعلم ، فالمعنى : الكتاب الحكيم أى : الموصوف بالحكمة ، أو الحكيم قائله ، أو الحكيم مُنزله . ومعنى حكيم : هو الذى يضع الشىء فى موضعه ، ولا يضع الشىء فى موضعه إلا الله ؛ لأنه هو الذى يعلم صدْق الشىء فى موضعه .

أما نحن فنهتدى إلى موضع الشىء ، ثم يتبين لنا خطؤه فى

موضعـه ، ونضطر إلى تغييره أو تعـديله ككثير من المخـترعات التى ظننا أنها تخدم البشرية قد رأينا مضارها ، واكتوينْا بنارها فيما بعد .

فكل آية ذكرت ناحية من نواحى كمـال القرآن وجهة من جـهات عظمتـه ، إذن : فهى لقطات مـختلفة لشىء واحـد متعـدد الملكات فى الكمال ، وكذلك تجد تعدد الكمالات فى الآية بعدها :

﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ﴾

هنا يقول سـبحانه ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ﴾ [لقمان] أما فى صدر سـورة البقرة فيـقول ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ [البقرة] وفَرْق بين المـعنيين ، فـالتقـوى تقتـضى الإيمان ، ومطلوب الإيـمان الافـتراض يعنى : أنْ تؤدى ما فرضه الله عليك .

أما مطلوب الإحســان ففوق ذلك ، فالإحـسان فى الأداء أن تُحسن فى كَمِّه ، وأن تحسن فى كيفه : تحـسن فى كيفه بأن تستصحب مع العمل الإخلاصَ للمعمول له ، وهو الحق سبحانه ، وتحـسن فى كَمِّه بأنْ تعشق التكليف حتى تؤدى فوق مـا فُرِض عليك ، فبدل أنْ تصلى ركعتين تصلى ثلاثاً أو أربعاً ، هذا إحسانٌ فى الكم .

والتقوى من عـجائب التأويل القرآنى كما سـبق أنْ قلنا ، فالقرآن يقـول (اتقوا الله) ويقـول (اتقوا النار) ، والـمعنى عند التـحقيق واحد ؛ لأن اتق النار يعنى : اجعل بينك وبينهـا وقاية وحاجزاً يمنعك منهـا ، كـذلك اتق الله ، لا أن تجـعل بـينك وبين ربك حـاجزاً ؛ لأن المؤمن دائماً يكون فى معية الله .

إنما اجـعل بينك وبين صفات الجـلال ومتعلقاتهـا من الله وقاية ، اتق صـفات المنتـقم الجبـار القـهار .. الخ ؛ لأنك لستَ مطيـقاً لهـذه

الصفات ، ولا شكَّ أن النار جندي من جند الله ، ومتـعلق من متعلقات صفات الجلال إذن : فالمعنى واحد .

والبعض يأخـذون بالظاهر فيقـولون : كيف نتقي الله ، والتـقوى أن تبعد شيئاً ضاراً عنك ؟ نقول : نعم أنت تبعد عنك الكفر ، وهذا هو عين التقوى ، والمتقون هم الذين يحبون أنْ يتقوا الله بألاَّ يكونوا كافرين به ، وما دام الإنســان اتقى الكفر فهـو مُحســن ومؤمن ، فالقـرآن مرة يأتي باللازم ، ومرة بالملزوم ، ليؤدي كل منهما معنى جديداً .

لذلك لما سُئِل سيدنا رسول الله عن الإحسان - في حديث جبريل - قال : « أنْ تعبد الله كأنك تراه ، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك »[1]

فـحين نوازن بين صـدر سـورة البقـرة ، وبين هذه الآية ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣﴾ [لقمان] نرى أن القرآن لا يقوم على التكرار ، إنما هي لقطات إعـجازية كل منها يؤدي مـعنى ، وإنْ ظن البعض في النظرة السطحية أنه تكـرار ، لكن هو في حقـيقـة الأمر عطاء جـديد لو تأملته .

فهنا وصـف الكتـاب بأنه حكيم ، وأنه هدى ورحمـة : والهدى هو الدلالة على الخـير بأقـصر طريق ، وقـد نزل القرآن لهـداية قـوم قد ضلوا ، فلما هداهم إلى الصـواب وأراهم النور أراد أنْ يحفظ لهم هذه الهداية ، وألاَّ يخـرجوا عنها فـقال ﴿وَرَحْمَةً ۝٣﴾ [لقمان] يعني : من رحمة الله بهم ألاَّ يعودوا إلى الضلال مرة أخرى .

---

(١) حديث متفـق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠) وكذا مسلم في صـحيحه (٨) من حديث عـمر بن الخطاب . وهو حديث جـبريل الطويل الذي تمثل في صـورة رجل « شديد بياض الثياب ، شـديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفـه منا أحد » فسأل رسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان .

كما في قوله سبحانه : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٨٢) ﴾ [الإسراء] فالمعنى : شفاء لمن كان مريضاً ، ورحمة بألاَّ يمرض أبداً بعد ذلك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) ﴾

جاءت هذه الآية كوصف للمحسنين ، فهل هذه هي كل صفاتهم ، أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، وبالآخرة هم يوقنون ؟ قالوا : لا لكن هذه الصفات هي العُمد الأساسية ، والحق سبحانه يريد من خَلْقه سواسية في العبودية ، وهذه السواسية لا تتأتى إلا إذا تساوى الجميع .

وفي الصلاة بالذات تتجلى هذه المساواة ، وفيها يظهر عِزّ الربوبية وذل العبودية ، وفيها منتهى الخضوع لله عزوجل ، ثم هي تتكرر خمس مرات في اليوم والليلة .

أما الفرائض الأخرى فلا تأخذ هذه الصورة ، فالزكاة مثلاً تجب مرة واحدة في العام ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ (١٤١) ﴾ [الأنعام] وتجب على القادر فقط دون غيره ، كذلك الصوم والحج ، فكأن الصلاة هي عمدة العبادات كلها ، ولشرفها ومنزلتها جعلها الله لازمة للعبد ولا تسقط عنه بحال أبداً ؛ لذلك شُرعت صلاة المريض والمسافر والخائف ... الخ.

وفي الصلاة استطراق للعبودية في الخَلْق جميعاً ، حيث نخلع

أقدارنا حين تخلع نعالنا على باب المسجد ، ففي الصف الواحد ، الرئيس والمرءوس ، والكبير والصغير ، والرفيع والوضيع - نقصد الوضيع في نظر الناس ، وربما لا يكون وضيعاً عند ربه - فالجميع هنا سواء ، ثم حين نرى الكبار والرؤساء والسادة معنا في الصفوف خاضعين لله أذلاء تزول بيننا الفوارق ، ويدكُّ في نفوسهم الكبرياء ، فلا يتعالى أحد في مجتمع المسلمين على أحد .

ولمنزلة الصلاة وأهميتها رأينا كيف أنها الفريضة الوحيدة التي فرضها الله علينا بالمباشرة ، أما باقي التكاليف فقد فُرِضَتْ بواسطة الوحي ، وسبق أنْ ضربنا مثلاً لذلك برئيس العمل حينما يأتيه أمر هام ، فلا يأمر به بمكاتبة أو بالتليفون ، إنما يستدعي الموظف المختص إلى مكتبه ، ويلقي إليه الأمر مباشرة .

وكذلك رسول الله استدعاه ربه إلى السماء ، وأخذ حظاً بالقُرْب من الله تعالى ، والله سبحانه يعلم حب الرسول لأمته وحرصه عليهم ، وعلى أنْ ينالوا هم أيضاً هذا القرب من حضرته تعالى ، فأجابه ربه ، وجعل الصلاة حضوراً للعبد في حضرته تعالى ، وقرباً كقرب رسول الله في رحلة المعراج .

لذلك خاطبه ربه بقوله :﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) ﴾ [الضحى]

فقال سيدنا رسول الله : « إذن ، لا أرضى وواحد من أمتي في النار »[1]

وكما تُحدِث الصلاة استطراق عبودية تُحدِث الزكاةُ في المجتمع

(١) أخرج الخطيب في « تلخيص المتشابه » عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لا يرضى محمد ، وواحد من أمته في النار . وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس أيضاً أنه قال : رضاه أن تدخل أمته الجنة كلهم

استطراقاً اقتصادياً ، فيعيش الجميع الغني والفقير عيشة كريمة مُيسَّرة ، فلا يشبع واحد حتى التخمة ، والآخر يموت جوعاً . وما بالك بمجتمع لا يتعالى فيه الكبير على الصغير ولا يبخل فيه الغنى على الفقير ؟ إذن : في الصلاة والزكاة ما يكفل سعادة المجتمع كله .

وقد فرض الله الزكاة للفقراء ؛ لأن الله سبحانه حين يستدعي عبده إلى كونه لا بُدَّ أنْ يضمن له مُقومات الحياة ، ولم لا وأنت إذا دعوْتَ شخصاً إلى بيتك لابُدَّ أنْ تكرمه ، وأنْ تُعد له على الأقل ضروريات ما يلزمه فضلاً عن الإكرام والحفاوة ورفاهية المأكل والمشرب .. الخ.

فالله سبحانه استدعى عباده إلى الوجود مؤمنهم وكافرهم ، وعليه سبحانه أنْ يوفر لهم القوت ، بل كل مقومات حياتهم ، كذلك يضمن للعاجز غير القادر قوته ، لذلك يفرض الزكاة حقاً معلوماً للسائل والمحروم ، فهي صلاتٌ والأولى صلاة .

ولهذه المسألة قصة في الأدب العربي ، فيُرْوى أن ابن المدبر وكنيته أبو الحسن ، كان الشعراء يقصدونه للنيل من عطاياه ، يقولون : إن اللُّها تفتح اللَّها[1] ، أي : أن العطايا تفتح الأفواه بالمدح والثناء .

لكن ، كان ابن المدبر إذا مدحه شاعر بشعر لم يعجبه يأمر رجاله أنْ يأخذوه إلى المسجد ولا يتركوه حتى يصلي لله مائة ركعة ، وبذلك خافه الشعراء وتحاشوْا الذهاب إليه إلا أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام البشرى ، ذهب إليه وقال : عندى شعر أحب أنْ أنشده لك ،

---

(١) اللُّها : أفضل العطايا وأجزلها . ويقال : إنه لمعطاء للُّها إذا كان جواداً يعطي الشيء الكثير. واللَّهاة : لحمة حمراء في الحنك في أقصى سقف الفم . [لسان العرب - مادة لها] .

فقال : أتدرى ما الشرط ؟ قال : نعم ، قال : قُلْ ما عندك ، فقال :

أَرَدْنَا فِى أَبِى حَسَنٍ مَدِيحاً كَمَا بِالمدْحِ تُنْتَجَعُ الوُلاَةُ

يعنى : يذهب الشعراء إليهم لينالوا من خيراتهم .

فَقُلْنَا أَكْرَمُ الثَّقَلَيْنِ طُراً وَمَنْ كَفَّيْهِ دجلَةُ والفُرَاتُ
وقَالُوا يَقبل المدحَاةَ لكِنْ جَوَائِزُهُ عليهنَّ الصَّلاَةُ
فقُلْتُ لهم ومَا تُغْنِى صَلاَتى عيَالى إنما الشَّأنُ الزَّكَاةُ
فَيأمُر لى بكسْرِ الصَّادِ منها فَتُصبح لى الصِّلاتُ هى الصَّلاةُ

فلما تجرأ عليه أحدهم وسأله : لماذا تعاقب مَنْ لم يعجبك شعره بصلاة مائة ركعة ؟ فقال : لأنه إما مسيء وإما محسن ، فإنْ كان مسيئاً فهى كفارة لإساءته فى شعره ، وإنْ كان محسناً فهى كفارة لكذبه فىَّ .

ثم يقول سبحانه فى وصفهم : ﴿ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④ ﴾ [لقمان] لأن الإيمان باليوم الآخر يقتضى أنْ نعمل بمنهج الله فى (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) ، ونحن على يقين من أننا لن نفلت من الله ولن نهرب من عقابه فى الآخرة ، وأننا مُحَاسبون على أعمالنا ، فلم نُخلق عبثاً ، ولن نُتْرك سدى ، كما قال سبحانه : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ⑪⑤ ﴾ [المؤمنون]

ونلحظ هنا فى الأسلوب تكرار ضمير الغيبة (هم) فقال :﴿ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④ ﴾ [لقمان] وهذا يدلُّنا على أن الإيمان بالآخرة أمر مؤكد لا شكَّ فيه ، ومع أن الناس يؤمنون بهذا اليوم ، ويؤمنون أنهم محاسبون ، وأن الله لم يكلفهم عبثاً – مع هذا – يؤكد الحق سبحانه على أمر الآخرة ؛ لأنها مسألة بعيدة فى نظر الناس ، وربما غفلوا عنها لبُعْدها عنهم ، ولم لا وهم يغفلون حتى عن الموت الذى يرونه

أمامهم كل يوم ، ولكن عادة الإنسان أن يستبعده فى حق نفسه .

لذلك يقول الحسن البصرى [١]: ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت .

أما الكفار فينكرون هذا اليوم ، ولا يؤمنون به ؛ لذلك أكد الله عليه .

ولما سأل النبى ﷺ حذيفة [٢] رضى الله عنه : « كيف أصبحتَ يا حذيفة ؟» قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، فقال : « لكلِّ حقٍّ حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ قال : عزفتُ نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها ومدرها [٣]، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار فى النار يُعذَّبون » فقال ﷺ : « عرفتَ فالزم »

وقوله ﴿ يُوقِنُونَ (٤) ﴾ [لقمان] من اليقين ، وهو الإيمان الراسخ الذى لايتزعزع ، ولا يطرأ عليه شكٌّ فيطفو إلى العقل ليناقش من جديد ، وسبق أنْ قُلْنا : إن المعلومة تتدرج على ثلاث مراحل : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين .

علم اليقين إذا أخبرك به مَنْ تثق به ، فإذا رأيتَ ما أخبرك به

---

(١) هو : الحسن بن أبى الحسن أبو سعيد البصرى ، نشأ بالمدينة ، وحفظ كتاب الله فى خلافة عثمان ، وسمعه يخطب مرات ، كان عالماً رفيعاً ثقة حجة مأموناً عابداً ناسكاً كثير العلم فصيحاً جميلاً وسيماً ، مات سنة عشر ومائة ، وله ثمان وثمانون سنة . [تذكرة الحفاظ للذهبى ١/ ٧١] .

(٢) ما ورد كان فى حق الحارث بن مالك الانصارى . أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١/ ٥٧) وعزاه للطبرانى فى المعجم الكبير (٣/ ٣٠٢) وقال الهيثمى : « فيه ابن لهيعة » . وكذا أورده عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ لقى رجلاً يقال له حارثة فى بعض سكك المدينة فقال : كيف أصبحت يا حارثة ؟ الحديث وعزاه للبزار وفيه يوسف بن عطية لا يحتج به

(٣) المدر : قطع الطين اليابس . وهو الطين المتماسك . [لسان العرب ـ مادة مدر]

فهو عين اليقين ، فإذا باشرتَ ذلك بنفسك فهو حَقُّ اليقين .

وضربنا لذلك مثلاً إذا قلت لك : إن البيت الحرام في مكة وصفته كذا وكذا ، وقد حدثت فيه توسعات كذا وكذا ، فهذه المعلومات بالنسبة لك علم يقين ، فإذا رأيتَ الحرم فهي عَيْن يقين ، فإذا يسَّر الله لك الحج أو العمرة فباشرْتَه بنفسك ، فهو حَقُّ اليقين .

والحق سبحانه وتعالى عالج هذه المراتب في سورتين : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨) ﴾ [التكاثر]

وذلك حين يمرون على الصراط ويروْنَ النار بأعينهم رأى العين .

أما حق اليقين بالنسبة للنار ، فقد جاء في قوله تعالى :﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾ [الواقعة]

لكن ، هل القرآن نزل هُدى للمتقين ، وهدى للمحسنين فحسب ؟ قلنا : إن الهداية تأتي بمعنيين : هداية دلالة وإرشاد ، وهداية توفيق ومعونة ، فإن كانت هداية دلالة فقد دلّ الله المؤمن والكافر بدليل قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ (١٧) ﴾ [فصلت]

فالحق سبحانه دلَّ الجميع لأنهم عباده ، فمنهم من قَبِل الدلالة واقتنع بها فآمن ، ومنهم مَنْ رفضها فكفر ، أما الذي قَبِل دلالة الله وآمن به فيزيده الله هداية أخرى ، هي المعونة على الإيمان ، فيُحبِّبه

إليه حتى يعشقه ، ثم يعينه عليه ، كما قال سبحانه : ﴿ والَّذين اهْتَدَوْا زادهم هدى وآتاهم تقواهم (١٧) ﴾ [محمد]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥ ﴾

وصف الحق سبحانه قرآنه بأنه هدى ، أما هنا فيقول : ﴿ أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى (٥) ﴾ [لقمان] والمتكلم هو الله - عز وجل - فلا بُدَّ أنْ نتأمل المعنى ، ربنا عزوجل يريد أنْ يقول لنا نعم القرآن هُدى ، لكن إياك أنْ تظن أنك حين تتبع هذا الهدى تنفعه بشيء ، إنما المنتفع بالهداية أنت ، فحين تكون على الهدى يدلُّك ويسير بك إلى الخير ، فالهدى كأنه مطية يُوصلك إلى الخير والصلاح ، فأنت مُسْتعلٍ على الهدى إنْ قَبِلْتَه ، وإنْ كان هو مُسْتَعلياً عليك تشريعاً .

ثم هو هدى ممَّنْ ؟ ﴿ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ (٥) ﴾[لقمان] ممن لا يستدرك عليه ، فإنْ دلَّك دلَّك بحق ، وهَبْ أن البشر اهتدوْا إلى شيء فيه خير ، لكن بعد فترة يعارضون هم أنفسهم هذا الطريق ، ويكتشفون له مضارّ ومثالب ، ويستدركون عليه ، وربما يعدلون عنه إلى غيره ، وكم هي القوانين البشرية التي أُلغيت أو عُدِّلت ؟

إذن : الهداية والدلالة الحقة لا تكون إلا لله ، والقانون الذي ينبغي أن يحكمنا ونطمئن إليه لا يكون إلا لله ، لماذا ؟ لأن البشر ربما ينتفعون من قوانينهم ، وقد تتحكم فيهم الأهواء أو يميلون لشخص

على حساب الآخر ، أما الحق - سبحانه وتعالى - فهو وحده سبحانه الذى لا ينتفع بشىء مما شرع لعباده ، ولا يحابى أحداً على حساب أحد ، والعباد كلهم عباده وعنده سواء .

لذلك يطمئننا الحق سبحانه على تشريعه وعدالته سبحانه ، فيقول ﴿ ما اتَّخَذَ صاحِبَةً وَلا وَلَدًا ③ ﴾[الجن] يعنى : اطمئنوا ، فربكم ليس له صاحبة تؤثر عليه ، ولا ولد يظلم الناس فيحابيه ، فأنتم جميعاً عنده سواسية .

ثم هناك فَرْق بين هُدى من الله ، وهدى من الرب ، فالرب هو الذى ربَّاك ، هو الذى أوجدك من عَدم ، وأمدك من عُدْم ، وأعطاك قبل أنْ تعرف السؤال ، وتركك تربع فى كونه وتتمتع بنعمه .

لذلك يُعلمك ربك : إياك أنْ تسألنى عن رزق غد ؛ لأننى رزقْتُك قبل أنْ تعرف أن تسأل ، ثم لم أطالبك بعبادة غد ، إذن : ليكُنْ العبد مؤدباً مع ربه عزوجل .

وهكذا نتبين أن الربوبية عطاء ، أما الألوهية فتكليف .

ثم يخبر الحق سبحانه عنهم بخبر آخر ﴿ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑤ ﴾ [لقمان] فالفلاح نتيجة الهدى الذى ساروا عليه واتبعوه ، كما قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① ﴾ [المؤمنون]

الفلاح أصله من فلاحة الأرض بالحرث والبَذْر والسَّقْى .. الخ ، فاستعارها أسلوب القرآن للعمل الصالح ، ووجه الشبه بين الأمرين واضح ، فالفلاح يلقى الحبة فيضاعفها له ربه سبعمائة حبة ، كذلك العمل الصالح يُضَاعَف لصاحبه ، فالحسنة عند الله بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ٢٦١ ﴾ [البقرة]

واقرأ فى كتاب الله هذا المثل : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾ [البقرة]

وتأمل الاستدلال هنا : إذا كانت الأرض وهى مخلوقة لله تعطى كل هذا العطاء ، فكيف يكون عطاء مَنْ خلقها ؟ إذن : فهم لاشكَّ مفلحون أى . فائزون بالثمرة الطيبة التى تفوق ما بذلوه من مشقة ، كما يزرع الفلاح الأرض فتعطيه أضعاف ما وُضِع فيها .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ ﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه الكتاب وآياته ، وأن فيه هدى ورحمة لمن اتبعه وفلاحاً لمن سار على هديه يبين لنا أن هناك نوعاً آخر من الناس ينتفعون بالضلال ويستفيدون منه ، وإلا ما راجتْ سوقه ، ولما انتشر بين الناس أشكالاً وألواناً .

لذلك نرى للضلال فئة مخصوصة حظهم أن يستمر وأن ينتشر

---

(١) سبب نزول الآية قال الكلبى ومقاتل : نزلت فى النضر بن الحارث ، وذلك أنه كان يخرج تاجراً إلى فارس فيشترى أخبار الأعاجم فيرويها ويحدث بها قريشاً ويقول لهم : إن محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحدثكم بحديث عاد وثمود ، وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة ، فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن ، فنزلت فيه هذه الآية

وقال مجاهد نزلت فى شراء القيان والمغنيات . [أسباب النزول للواحدى ص ١٩٧] .

لتظل مكاسبهم ، ولتظل لهم سيادتهم على الخَلْق وعبوديتهم لهم واستنزاف خيراتهم .

وطبيعى إنْ وُجِد قانون يعيد توازن الصلاح للمجتمع لا يقف فى وجهه إلا هؤلاء يحاربونه ويحاربون أهله ويتهمونهم ويُشككون فى نواياهم ، بل ويواجهونهم بالسخرية والاستهزاء مرة وبالتعدى مرة أخرى .

وربما قطعوا عليهم سبل الحياة ، كما عزلوا رسول الله ﷺ فى شِعْب أبى طالب ، ثم يُكرهون أهل الحق على الهجرة والخروج من أموالهم وأهلهم إلى الحبشة مرة ، وإلى المدينة مرة أخرى . لماذا ؟ لأن حياتهم تقوم على هذا الضلال فلا بُدَّ أنْ يحافظوا عليه .

والحق سبحانه يبين لنا أن هؤلاء الذين يحاربون الحق ويقفون فى وجه الدعوة إلى الإيمان يعرفون تماماً أنهم لو تركوا الناس يسمعون منهج الله وداعى الخير لا بُدَّ أنْ يميلوا إليه ؛ لذلك يَحُولُون بين آذان الناس ومنطق الحق ، فهم الذين قالوا للناس : ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ .. (٢٦)﴾ [فصلت]

وما ذلك إلا لأنهم واثقون من لغة القرآن وجمال أسلوبه ، واستمالته للقلوب بحلو بيانه ، فلو سمعتْه الأذن العربية لابُدَّ وأنْ تتأثر به ، وتقف على وجوه إعجازه ، وتنتهى إلى الإيمان .

فإذا ما أفلتَ منهم أحد ، وانصرف إلى سماع الحق أتوْهُ بصوارف أخرى وأصوات تصرفه عن الحق إلى الباطل .

وقوله سبحانه : ﴿وَمِنَ النَّاسِ (٦)﴾ [لقمان] من هنا للتبعيض أى : الناس المستفيدون من الضلال ، والذين يسوؤهم أنْ يأتم الناس

جميعاً بمنطق واحد ، وهدف واحد ، وهدى واحد ؛ لأن هذه الوحدة تقضى على تميزهم وجبروتهم وظلمهم فى الأرض ؛ لذلك يبذلون قصارى جهدهم فى الضلال ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. ۝ ﴾ [لقمان]

قوله تعالى : ﴿ يَشْتَرِي ۝ ﴾ [لقمان] من الشراء الذى يقابله البيع ، والشراء أنْ تدفع ثمناً وتأخذ فى مقابله مُثمناً ، وهذا بعدما وُجِد النقد ، لكن قبل وجود النقد كان الناس يتعاملون بالمقايضة والتبادل سلعة بسلعة ، وفى هذه الحالة فكل سلعة مباعة وكل سلعة مشتراة ، وكل منهما بائع ومُشْتر .

ومن ذلك قوله تعالى فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ۝ ﴾ [يوسف]

والمعنى : شروه أى : باعوه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ .. ۝ ﴾ [البقرة]

أى : يبيعها ، إذن : الفعل (شَرَى) يأتى بمعنى البيع ، وبمعنى الشراء .

أما إذا جاء الفعل بصيغة (اشترى) فإنه يدل على الشراء الذى يُدفع له ثمن ، ومن ذلك قوله تعالى :﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً .. ۝ ﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۝ ﴾ [التوبة]

وعادة تدخل الباء على المتروك تقول : اشتريتُ كذا بكذا

وحين نتأمل قوله تعالى . ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ (٦) ﴾ [لقمان] نجد أن هذه عملية تحتاج إلى طلب للشيء المشترَى ، ثم إلى ثمن يُدفع فيه ، وليست الشراء لشيء مفيد إنما ﴿ لَهْوَ الْحَدِيثِ (٦) ﴾[لقمان] وهذه سلعة خسيسة .

إذن : هؤلاء الذين يريدون أنْ يصدوا عن سبيل الله تحملوا مشقة الطلب ، وتحملوا غُرْم الثمن ، ثم وُصفوا بالخيبة لأنهم رَضُوا بسلعة خسيسة ، والأدهى من ذلك والأمرّ منه أن يضعوا هذا في مقابل الحق الذي جاءهم من عند الله على يد رسوله بلا تعب وبلا مشقة وبلا ثمن ، جاءهم فضلاً من عند الله وتكرماً :﴿ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ (٢٣) ﴾ [الشورى]

فأيُّ حمق هذا الذي يوصفون به ؟

وكلمة اللهو : ذكر القرآن اللهو وذكر اللعب في عدة آيات ، قدَّمت اللعب على اللهو في قوله تعالى : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢) ﴾ [الأنعام]

وفي قوله تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ (٢٠) ﴾ [الحديد]

وقدمت اللهو في قوله تعالى :﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

فقدمت الآيات اللعب في آيتين ؛ لأن اللعب أن تصنع حركة غير مقصودة لمصلحة ، كما يلعب الأطفال ، يعني : حركة لا هدفَ لها ، ونقول عنها (لعب عيال) وسُمِّيت لعباً ؛ لأن الطفل يلعب قبل أنْ يُكلَّف بشيء ، فلم يشغل باللعب عن غيره من المهمات .

لكن إذا انتقل إلى مرحلة التكليف ، فإن اللعب يشغله عن شيء طُلب منه ، ويُسمَّى في هذه الحالة لهواً ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴿١١﴾﴾ [الجمعة]

إذن : فاللهو هو الشيء الذي لا مصلحة فيه ، ويشغلك عن مطلوب منك .

فآية سورة العنكبوت التي قدمت اللهو على اللعب تعني أن أمور الاشتغال بغير الدين قد بلغت مبلغاً ، وأن الفساد قد طمَّ واستشرى الانشغال بغير المطلوب عن المطلوب ، فهذه أبلغ في المعنى من تقديم اللعب ؛ لأن اللعب لم يُلهه عن شيء .

لكن ، ما اللهو الذي اشتروه ليصرفوا الناس به عن الحق وعن دعوة الإسلام ؟ إنهم لما سمعوا القرآن سمعوا فيه قصصاً عن عاد وثمود ، وعن مدين وفرعون .. الخ ، فأرادوا أنْ يشغلوا الناس بمثل هذه القصص .

وقد ذهب واحد منهم وهو النضر بن الحارث إلى بلاد فارس وجاءهم من هناك بقصص مسلية عن رستم وعن الأكاسرة وعن ملوك حِمْيَر ، اشتراها وجاء بها ، وجعل له مجلساً يجتمع الناس فيه ليقصَّها عليهم ، ويصرفهم بسماعها عن سماع منطق الحق في رسول الله .

وآخر يقول : بل جاء أحدهم بمغنية تغنيهم أغانيَ ماجنة متكسرة .

ومعنى : ﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴿٦﴾﴾ [لقمان] قال العلماء : هو كل ما يُلهي عن مطلوب لله ، وإنْ لم يكُنْ في ذاته في غير مطلوب الله لَهْواً ، وعليه فالعمل الذي يُلهي صاحبه من صناعة أو زراعة .. الخ يُعَدُّ من اللهو إنْ شغله مثلاً عن الصلاة ، أو عن أداء واجب لله تعالى .

ومن التصرفات ما يُعَدُّ لهواً ، وإنْ لم يشغلك عن شيء كالغناء ،

وللعلماء فيه كلام كثير خاصة بعد أنْ صاحبته الموسيقى وآلات الطرب والحركات الخليعة الماجنة ، ولفقهائنا القدامى رأيهم فى هذا الموضوع ، لكن العلماء المحدثين والذين يريدون أنْ يُجيزوا هذه المسألة يأخذون من كلام القدماء زاوية ويُطبِّقونها على غير كلامهم .

نعم ، أباح علماؤنا الأُنْس بالغناء فى الأفراح وفى الأعياد اعتماداً على قول النبى ﷺ لأبى بكر الصديق الذى رأى جاريتين تغنيان فى بيت رسول الله فنهرهما ، وقال : أمزمار الشيطان فى بيت رسول الله ، فقال ﷺ : « دعهما ، فإننا فى يوم عيد »[1]

وكذلك أباحوا الأناشيد التى تقال لتلهب حماس الجنود فى الحرب، أو التى ينشدها العمال ليطربوا بها أنفسهم وينشغلوا بها عن متاعب العمل ، أو المرأة التى تهدهد ولدها لينام .

ومن ذلك حداء[2] الإبل لتسرع فى سيرها ، وقد قال النبى ﷺ لأنجشة[3] : « رفقاً بالقوارير »[4] فشبَّه النساء فى لُطْفهن ورقّتهن

---

(١) حديث متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (٩٨٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨٩٢) كتاب العيدين من حديث عائشة رضى الله عنها ، وفى لفظ مسلم أنهما كانتا « تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث » أى « كان غناء فى الشجاعة والقتل والحذق فى القتال ونحو ذلك مما لا مفسدة فيه » قاله النووى فى شرح مسلم . وكذلك فى لفظه « وليستا بمغنيتين » قال النووى : « أى : ليستا ممن يتغنى بعادة المغنيات من التشويق والهوى والتعريض بالفواحش والتشبيب بأهل الجمال وما يحرك النفوس » .

(٢) الحَدْو : سَوْق الإبل والغناء لها ، فإنه من أكبر الأشياء على سَوْقها وبَعْثها . [لسان العرب ـ مادة حدا]

(٣) قال البلاذرى : كان أنجشة حبشياً يكنى أبا مارية ، وقد كان حسن الصوت بالحداء . [الإصابة فى تمييز الصحابة ٦٨/١] ترجمة (٢٥٩) .

(٤) أخرج البخارى فى صحيحه (٦٢٠٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٣٢٣) من حديث أنس ابن مالك قال : كانت أم سليم مع نساء النبى ﷺ ، وهن يسوق بهن سوّاق ، فقال نبى الله ﷺ « أى أنجشة ، رويداً سوقك بالقوارير » .

بالقوارير ، فإذا مسا أسرعتْ بهن الإبل هُزَّت بهن الهوادج ، وهذا يشقُّ على النساء .

إذن : لا مانع من كل نصٍّ له غـرض نبيل ، أمـا إنْ أهاج الغرائز فهو حرام - والكلام هنا عن مجرد النص - لأن الخالق سبحانه يعلم طبيعة الغرائز فى البشر ؛ لذلك نسميها غريزة ؛ لأن لها عملاً وتفاعلاً فى نفسك بدون أىِّ مؤثـرات خارجية ، ولها طاقـة لا بُدَّ أنْ تتحرك ، فإنْ أثرْتَها أنت ثارتْ ونزعتْ إلى ما لا تُحمَد عُقْباه .

وسبق أن أوضحنا أن مراتب الشـعور ثلاث : يدرك بحواسه ، ثم وجـدان يتكوَّن فى النفس نتـيـجـة للإدراك ، ثم النزوع والعمل الذى يترجم هذا الوجدان

ومن رحمـة الله بنا أن الشرع لا يتـدخل فى هذه المسـألة إلا فى مرحلة النزوع ، فيقـول لك : قفْ لا تمدّ يدك إلى ما ليس لك ، ومثَّلْنا لهذه المسألة بالوردة تراها فى البسـتان ، ويُعجبك منظرها ، وتجذبك رائحـتهـا فتـعشـقهـا وهذا لك ، فإنْ مـددْتَ يدك لتقطفـهـا يقـول لك الشارع : قفْ ليس من حقِّك .

إذن : فـالشـارع الحكيم لا يتـدخَّل فى مـرحلة الإدراك ، ولا فى المـواجيـد إلا فى مسـألة واحدة لا يمـكن الفصل فيهـا بين الإدراك والوجدان والنزوع ، لأنها جميعـاً شىء واحد ، إنها عملية نظر الرجل إلى المرأة التى لا تحل له ، لماذا هذه المسألة بالذات ؟

قالوا : لأنهـا لا تقف عند حَدِّ الإعجاب بـالمنظر ، إنما يُورثك هذا الإعجاب انفعالاً خاصاً فى نفسك ، ويُورثك تشكلاً خاصاً لا يهدأ ، إلا بأن تنزع ، فرحمةً بك يا عـبدى أنا سأتدخل فى هذا الأمر بالذات من أوله ، وأمنعـك من مـجـرد الإدراك ، لأنك إنْ أدركتَ وجـدتَ ، وإنْ

وجدتَ نزعتَ إلى ما تجد فأثمت في أعراض الناس أو كبت في نفسك ، فأضررتَ بها ، وربك يريد أنْ يُبرئك من الإثم ومن الإضرار بالنفس ، فالأسلم لكم أنْ تغضُّوا أبصاركم .

إذن : لا تقُل الغناء لكن قُلْ النص نفسه : إنْ حثَّ على فضيلة فهو حلال ، وإنْ أهاج الغرائز فهو حرام وباطل ، كالذي يُشبِّب بالمرأة ويذكر مفاتنها ، فهذا حرام حتى في غير الغناء ، فإذا ما أضفتَ إليه الموسيقى والألحان والتكسر والميوعة ازدادت حرمته وتضاعف إثمه.

أما ما نراه الآن وما نسمعه مما يُسمُّونه غناء ، وما يصاحبه من حركات ورقصات وخلاعات وموسيقى صاخبة ، فلا شكَّ في حرمته .

فكل ما يُخرِج الإنسان عن وقاره ورزانته وكل ما يجرح المشاعر المهذبة فهو حرام ، ثم إن الغناء صوت فإنْ خرج عن الصوت إلى أداء آخر مُهيِّج ، تستعمل فيه الأيدي والأرجل والعينان والوسط .. الخ فهذا كله باطل ومحرم .

ولا ينبغي للمؤمن الذي يملك زمام نفسه أن يقول : إنهم يفرضون ذلك علينا ، فالمؤمن له بصيرة يهتدي بها ، ويُميز بين الغثِّ والسمين ، والحق والباطل . فكُنْ أنت حكماً على ما ترى وما تسمع ، بل ما يرى وما يسمع أهلك وأولادك ، وبيدك أنت الزمام إنْ شئت سمعتَ ، وإنْ شئتَ أغلقتَ الجهاز ، فلا حجة لك لأن أحداً لا يستطيع أنْ يجبرك على سماع أو رؤية ما تكره .

ففي رمضان مثلاً ، وهو شهر للعبادة نصوم يومه ، ونقوم ليله ، وينبغي أن نكرمه ، ونحتفظ فيه بالوقار والروحانية ، ومع ذلك يخرجون علينا بألوان اللهو الذي يتنافى والصيام ، فإنْ سألتهم قالوا : الناس مختلفو الأمزجة ، وواجبنا أن نوفر لهم أمزجتهم ، لكن للمؤمن

ولاية على نفسه وهو يملك زمامها ، فلا داعى أن تتهم أحداً ما دام الأمر فى يدك ، وعليك أن تنفذ الولاية التى ولاك الله ، فإنْ فعلتَ ففى يدك خمسة وتسعون بالمائة من حركة الحياة ، ولغيرك الخمسة الباقية .

ثم إن ما يحلّ من الغناء مشروط بوقت لا يكون سمة عامة ولا عادة مُلحّة على الإنسان يجعلها ديدنه ؛ لذلك يقول النبى ﷺ : « روِّحوا القلوب ساعة بعد ساعة »[1].

وهؤلاء المغنون والمغنيات الذين يُدخلون فى الغناء ما ليس منه من الحركات والرقصات لا يدرون أنهم يثيرون الغرائز ، ويستعدون على الشباب غير القادر على الزواج ، ويلهبون مشاعر الناس ويثيرون الغيرة .. الخ

إذن . القضية واضحة لا تحتاج منا إلى فلسفة حول حكم الغناء أو الموسيقى ، فكل ما يثير الغرائز ، ويُخرجك عن سَمْت الاعتدال والوقار فهو باطل وحرام ، سواء أكان نصاً بلا لحن ، أو لحناً بدون أداء ، أو أداء مصحوباً بما لا دخلَ له بالغناء .

لكن ، لماذا يكلفون أنفسهم ويشترون لهو الحديث ؟

العلة كما قال الحق سبحانه : ﴿ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ (٦) ﴾ [لقمان] وفَرْق بين مَنْ يشترى اللهو لنفسه يتسلى به ، ويقصر ضلاله على نفسه وبين مَنْ يقصد أن يَضلّ ويُضل غيره ؛ لذلك فعليه تبعة الضَّلالَيْن : ضلاله فى نفسه ، وإضلاله لغيره .

وقوله : ﴿ لَهْوَ الْحَدِيثِ (٦) ﴾ [لقمان] لا يقتصر على الغناء

---

(١) أورده العجلونى فى كشف الخفاء (١/ ٥٢٤) وعزاه للديلمى وأبى نعيم والقضاعى عن أنس رفعه . وقال : ويشهد له ما فى مسلم وغيره من قوله ﷺ « يا حنظلة ساعة وساعة » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥٠) عن حنظلة الأسيدى

والكلام ، إنما يشمل الفعل أيضاً ، وربما كان الفعل أغلب .

وقوله تعالى : ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ ۝٦﴾ [لقمان] يدل على عدم معرفتهم حتى بأصول التجارة في البيع والشراء ، فالتاجر الحق هو الذي يشتري السلعة ، بحيث يكون نفعها أكثر من ثمنها ، أما هؤلاء فيشترون الضلال ؛ لذلك يقول الحق عنهم : ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ ۝١٦﴾ [البقرة]

والسبيل : هو الطريق الموصل إلى الخير من أقصر طريق ، وهو الصراط المستقيم الذي قال الله تعالى عنه ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة] لذلك نقول في علم الهندسة : المستقيم هو أقصر بُعد بين نقطتين .

وقوله : ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۝٦﴾ [لقمان] أي : السبيل ؛ لأن السبيل تُذكَّر وتؤنث ، تُذكَّر باعتبار الطريق ، كقوله تعالى : ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۝١٤٦﴾ [الأعراف]

وتُؤنَّث على اعتبار الشِّرْعة ، كقوله تعالى : ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ۝١٠٨﴾ [يوسف]

هؤلاء الذين يشترون الضلال لإضلال الناس لا يكتفون بذلك ، إنما يسخرون من أهل الصلاح ، ويهزأون من أصحاب الطريق المستقيم والنهج القويم ، ويُسفِّهون رأيهم وأفعالهم .

ثم يذكر الحق سبحانه عاقبة هذا كله : ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾ [لقمان] أولئك : أي الذين سبق الحديث عنهم ، وهم أهل الضلال ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦﴾ [لقمان] ووصْف العذاب هنا بالمهانة دليل على أن من العذاب ما ليس مُهيناً ، بل ربما كان تكريماً لمن وقع عليه كالرجل الذي يضرب ولده ليُعلِّمه ويُربِّيه ، فهو يضربه لا ليعذبه ويؤلمه ويهينه ، إنما لكي لا يعود إلى الخطأ مرة أخرى . على حدِّ قول الشاعر :

فَقَسَا لِيَزْدجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِماً   فَلْيقسُ أحيَاناً على مَنْ يَرْحَمُ

إذن: فمن العذاب ما هو تذكير وتطهير أو ترضية وتكريم لمستقبل ، وإنما سُمِّى عذاباً تجاوزاً ، فهو فى هذه الحالة لا يُعَدُّ عذاباً.

وفى هذا المعنى قال الزمخشرى[1] رضى الله عنه : الملك يكون عنده الخادم ، فيفعل ما لا يُرضى سيده ، فيأمر صاحب الشرطة أنْ يأخذه ويعذبه جزاء ما فعل ، فيأخذه الشرطى ويُعذِّبه بقدر لا يتعداه ، لأنه يعلم أنه سيعود مرة أخرى إلى خدمة السيد ، فالعذاب فى هذه الحالة يكون بقدر ما فعل الخادم ليس مهيناً له . لكن إنْ قال له : خُذْ هذا الخادم واقْصه عن الخدمة أو افصله ، يعنى : ليست له عودة فلا شكَّ أن العذاب سيكون مهيناً واليماً .

فالعذاب إنْ سمَّيناه عذاباً يكون إكراماً لمن تحب وتريد أن تطهره ، أما العذاب المهين فهو لمن لا أملَ فى عودته ، والإهانة تقتضى الأبدية والخلود .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧ ﴾

---

(١) هو : جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى (توفى عام ٥٣٨ هـ) صاحب « الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل » وهو من تفاسير المعتزلة الذين قالوا بالمنزلة بين المنزلتين فى حق العصاة والمذنبين فاعتبروهم لا مؤمنين ولا كافرين ، وقالوا بأنه يجب على الله إدخال المؤمنين الجنة ، والكافرين النار ، وقالوا بنفى صفات الله ، وكلها قضايا خالفوا فيها أهل السنة .

قوله تعالى : ﴿ وإذا تُتْلَىٰ عليه آياتنا ولَّىٰ مُستكبراً .. ﴿٧﴾ ﴾ [لقمان] بعد قوله : ﴿ ومن النَّاسِ من يشتري لهو الحديث ليُضِلَّ عن سبيل الله ﴿٦﴾ ﴾ [لقمان] يدلنا على حرص النبى ﷺ على تبليغ أمر دعوته ، حتى لمن يعلم عنه أنه ضَلَّ فى نفسه ، بل ويريد أنْ يُضل غيره .

ومعنى ﴿ ولَّىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [لقمان] يعنى : أعرض وأعطانا (عرض أكتافه) كما نقول ، وتولى وهو مستكبر ﴿ ولَّىٰ مُستكبراً ﴿٧﴾ ﴾ [لقمان] أى : تكبُّر على ما يُدْعى إليه ، أنت دُعيت إلى حق فاستكبرت ، ولو كنت مستكبراً فى ذاتك لما لجأتَ إلى باطل لتشتريه ، إذن : فكيف تستكبر عن قبول الحق وأنت محتاج حتى إلى الباطل ؟

ولماذا تتكبَّر وليس عندك مُقوِّمات الكِبْر ؟ ومعلوم أنك تستكبر عن قبول الشيء إنْ كان عندك مثله ، فكيفَ وأنت لا تملك لا مثله ولا أقل منه ؟

إذن : فاستكبارك فى غير محله ، والمستكبر دائماً إنسان فى غفلة عن الله ؛ لأنه نظر إلى نفسه بالنسبة للناس ـ وربما كان لديه من المقومات ما يستكبر به على الناس ـ لكنه غفل عن الله ، ولو استحضر جلال ربه وكبرياءه سبحانه لاستحى أنْ يتكبَّر . فالكبرياء صفة العظمة وصفة الجلال التى لا تنبغى إلا لله تعالى ، فكبرياؤه سبحانه شرف لنا وحماية تمنعنا أن نكون عبيداً لغيره سبحانه .

لذلك تسمع فى الأمثال العامية (اللى ملوش كبير يشترى له كبير) فإنْ كان لى كبير خافنى الناس واحتميتُ به ، كذلك المؤمن يحتمى بكبرياء ربه ؛ لأن كبرياء الله على الجميع والكل أمامه سواسية ، لا أحد يستطيع أن يرفع رأسه أمام الحق سبحانه .

إذن : فكبرياؤه تعالى لصالحنا نحن .

وهذا المستكبر استكبر عن سماع الآيات ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا (٧)﴾ [لقمان] أى : ثقل وصمم ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧)﴾ [لقمان] ونحن نعلم أن البشارة لا تكون إلا فى الخير ، فهى الإخبار بأمر سارٍّ لم يأت زمنه ، كما تبشر ولدك بالنجاح قبل أنْ تظهر النتيجة .

أما البشارة بالعذاب فعلى سبيل التهكّم بهم والسخرية منهم ، كما تتهكم من التلميذ المهمل فتقول له : أبشرك رسبتَ هذا العام . واستخدام البُشْرى في العذاب كأنك تنقله فجأة من الانبساط إلى الانقباض ، وفى هذا إيلام للنفس قبل أنْ تُقاسى ألم العذاب ، فالتلميذ الذى تقول له : أبشّرك يستبشر الخير بالبشرى ، ويظن أنه نجح لكن يُفاجأ بالحقيقة التى تؤلمه .

والشاعر يُصوِّر لنا هذه الصدمة الشعورية بقوله :

كَمَا أبرقَتْ يَوْمًا عِطَاشًا غَمَامَةٌ ... فَلَمَّا رأوْهَا أقْشَعَتْ وتجلَّتِ[1]

ويقول آخر :

فَأصْبحتُ من ليلى الغَدَاةَ كقَابِضٍ ... علَى الماءِ خَانتْه فُرُوجُ الأصَابِعِ

لذلك يقولون : ليس أشرّ على النفس من الابتداء المطمع يأتى بعده الانتهاء الموئس ، وسبق أن مثلنا لذلك بالسجين الذى بلغ به العطش منتهاه ، ورجا السجان ، إلى أنْ جاء له بكوب من الماء ، ففرح واستبشر ، وظن أن سجانه رجل طيب أصيل فلما رفع الكوب إلى فيه ضربه السجان من يده فأراقه على الأرض .

---

(١) انقشع الغيم وأقشع وتقشع الريح أى : كشفته فانقشع . وتقشَّع السحاب أى تصدع وأقلع . [لسان العرب - مادة : قشع] . والبيت لكثير عزة فى ديوانه (ص ١٠٧) وعزاه له شهاب الدين محمود الحلبى فى « حسن التوسل » (ص ١٢٦)

ولا شكَّ أن هذا ألم وأشدّ على نفس السجين ، ولو رفض السجان أنْ يأتى له بالماء من البداية لكان أخفَّ ألماً . وهذا الفعل يسمونه « يأس بعد إطماع » فقد ابتدأ معه بداية مُطمعة ، وانتهى به إلى نهاية موئسة ، نعوذ بالله من القبض بعد البسط .

ثم يذكر الحق سبحانه عقوبة الإضلال عن سبيل الله والتولّى والاستكبار ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٧) ﴾ [لقمان] فعذابهم مرة (مهين) ومرة (أليم) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) ﴾

وهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى مقابل الذين يشترون لهو الحديث ليضلوا عن سبيل الله ، وهذه سمةٌ من سمات الأسلوب القرآنى ؛ لأن ذكر الشىء مع مقابله يُوضّح المعنى ويعطيه حُسْناً ، كما فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

فالجمع بين المتقابلات يُفرح المؤمن بالنعيم ، ثم يفرحه بأنْ يجد أعداءه من الكفار الذين غاظوه واضطهدوه وعذّبوه يجدهم فى النار .

وقلنا : إن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يتكلم عن الإيمان يردفه بالعمل الصالح ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (٨) ﴾ [لقمان] لأن الإيمان أن تعلم قضايا غيبية فتُصدّق بها ، لكن ما قيمة هذا الإيمان إذا لم تنفذ مطلوبه ؟

وكذلك في سورة العصر : ﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ③﴾ [العصر] ففائدة الإيمان العمل بمقتضاه ، وإلا فما جدوى أن تؤمن بأشياء كثيرة ، لكن لا تُوظف ما تؤمن به ، ولا تترجمه إلى عمل وواقع ؛ لذلك إنْ اكتفيتَ بالإيمان ككلمة تقال دون عمل ، فقد جعلت الإيمانَ حجة عليك لا حجةً لك .

ومعنى ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ⑧﴾ [لقمان] أى : الصالح ، والحق سبحانه خلق الكون على هيئة الصلاح ، فالشيء الصالح عليك أنْ تزيد من صلاحه ، فإنْ لم تقدر فلا أقلَّ من أنْ تدعَ الصالح على صلاحه فلا تفسده .

ثم يذكر سبحانه جزاء الإيمان والعمل الصالح : ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ⑧﴾ [لقمان] فهى جنات لا جنة واحدة ، ثم هى جنات النعيم أى : المقيم الذى لا تفوته ولا يفوتك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑨﴾

حين نتأمل هذه الآيات نلمس رحمة الله بعباده حتى الكافر منهم الذى ضلَّ وأضلَّ ، ومع ذلك فالله رحيم به حتى فى تناول عذابهم ، ألا ترى أن الله تعالى قال فى عذابهم أنه مهين ، وأنه أليم ، لكن لم يذكر معه خلوداً كما ذكر هنا الخلود لنعيم الجنات ، كما أن العذاب جاء بصيغة المفرد ، أما الجنة فجاءت بصيغة الجمع ، ثم أخبر عنها أنها ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ⑨﴾ [لقمان]

والوعد يستخدم دائماً لعدَة بخير يأتيك ، وقلنا : إن العبد يعد ، وقد لا يفي بوعده ؛ لأنه لا يملك كل مُقوِّمات الوفاء ، أما الوعد إنْ كان من الله فهو محقق لأنه سبحانه يملك كل أسباب الوفاء ، ولا يمنعه أحد عن تحقيق ما أراد ؛ لأنه سبحانه ليس له شريك ، كالرجل الذي أراد أنْ يذم آخر فقال له : الدليل على أن الله ليس له شريك أنه خلقك ، فلو كان له شريك لقال له : لا داعي لأنْ تخلق هذا.

لذلك يعلمنا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أنْ نردف وَعْدنا بقولنا : إن شاء الله حتى نكون منصفين لأنفسنا من الناس ، ولا نُتهم بالكذب إذا لم نَفِ ، وعندها لي أن أقول : أردت ولكن الله لم يُرِد ، فجعلت المسألة في ساحة ربك عز وجل .

وبهذه المشيئة رحم الله الناس من ألسنة الناس ، فإذا كلفتني بشيء فلم أقضه لك فاعلم أن له قدراً عند الله لم يأتِ وقته بعد ، واعلم أن الأمر لا يُقْضى في الأرض حتى يُقْضى في السماء ، فلا تغضب ولا تتحامل على الناس ، فالأمور ليست بإرادة الناس ، وإنما بإرادة الله .

لذلك حين تتوسط لأخيك في قضاء مصلحة وتُقْضى على يديك ، المؤمن الحق الذي يؤمن بقدر الله يتأدب مع الله فيقول : قُضِيَتْ معي لا بي ، يعني : شاء الله أنْ يقضيها فأكرمني أن أتكلم فيها وقت مشيئته تعالى ، كذلك يقول الطبيب المؤمن : جاء الشفاء عندي لا بي .

ولو فهم الناس معنى قدر الله لاستراحوا ، فحين ترى المجدّ العامل يُقْصى ويُبعد ، وحين ترى الخامل والمنافق يُقرَّب ويعتلي أرفع المناصب فلا تغضب ، وإذا لم تحترمه لذاته فاحترم قدر الله فيه .

فالمسائل لا تجري في كَوْن الله بحركة (ميكانيكية) ، إنما بقدر الله الذي يرفع مَنْ يشاء ويضع مَنْ يشاء ، وله سبحانه الحكمة البالغة

فى هذه وتلك ، وإلا لقلنا كما يقول الفلاسفة : إن الله تعالى خلق القضايا الكونية ثم تركها للناس يُسيِّرونها .

والحق سبحانه ما ترك هذه القضايا ، بدليل قوله تعالى : ﴿يخلُقُ ما يشاءُ يهبُ لمن يشاءُ إناثًا ويهبُ لمن يشاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أو يُزوِّجُهُم ذُكرانًا وإناثًا ويجعلُ من يشاءُ عقيمًا (٥٠)﴾ [الشورى]

فبعد هذه الآية لا يقل أحد : إن فلاناً لا ينجب أو فلانة لا تنجب ؛ لأن هذه مرادات عليا لله تعالى ، ولو أن العقيم احترم قَدَر الله فى العقم لجعل الله كل مَنْ يراهم من الأولاد أولاده ، وما دام الله تعالى قال ﴿يهبُ (٤٩)﴾ [الشورى] فالمسألة فى كل حالاتها هبة من الله تعالى لا دَخْلَ لأحد فى الذكورة أو الأنوثة أو العقم . فلماذا - إذن - قبلتَ هبة الله فى الذكور ، ولم تقبل هبة الله فى العقم ؟

وسبق أن تحدثنا عن وأد البنات قبل الإسلام ؛ لأن البنت كانت لا تركب الخيل ، ولا تدافع عن قومها ، ولا تحمل السلاح .. الخ ، فلما جاء الإسلام حرم ذلك وكرَّم المرأة ، وأعلى من شأنها ، لكن ما زالت المفاضلة قائمة بين الولد والبنت .

والآن احتدم صراع مفتعل بين أنصار الرجل وأنصار المرأة ، والإسلام برىء من هذا الصراع ؛ لأن الرجل والمرأة فى الإسلام متكاملان لا متضادان ، وعجيب أنْ نرى من النساء مَنْ تتعصب ضد الرجال وهى تُجَنّ إنْ لم تنجب الولد ، وهذه شهادة منهن بأفضليته .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يعلمنا أن مَنْ يحترم قدره فى إنجاب البنات يقول الله له : لقد احترمتَ قدرى فسوف أعطيك على قدْرى ، فيعطيه الله البنين . أو يُيسِّر لبناته أزواجاً يكونون أبرَّ به من أولاده وأطوع .

ثم ألاَ ترى أن الله تعالى قدم البنات فى الهبة ، فقال :﴿يهبُ لمن يشاءُ إناثًا ويهبُ لمن يشاءُ الذُّكُور ﴿٤٩﴾﴾ [الشورى] لماذا ؟ لأنه سبحانه يعلم محبة الناس للذكور :﴿وإذَا بُشِّرَ أحدُهُم بالأُنثَىٰ ظَلَّ وجْهُهُ مُسْودًا وهُو كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يتوارَىٰ من القَوْمِ من سُوءِ ما بُشِّرَ به ﴿٥٩﴾﴾ [النحل]

وقوله تعالى : ﴿ وهُو الْعزِيزُ الْحكِيمُ ﴿٩﴾﴾ [لقمان] العزيز الذى لا يغلب ، ولا يستشير أحداً فيما يفعل ﴿الْحكِيمُ ﴿٩﴾﴾ [لقمان] أى : حين يعد ، وحين يفى بالوعد .

ثم تنتقل الآيات إلى دليل من أدلة الإيمان الفطرى بوجود الإله :

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ[1] بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾

أولاً . ذكر الحق سبحانه آية كونية لم يدَّعها أحد لنفسه من الكفار أو من الملاحدة ، وهى آية موجودة ومُشَاهدة ، وبعد أن قال سبحانه أنا خالق السماء والأرض لم يعارضه أحد ، ولم يأتِ مَنْ يعارضه فيقول : بل أنا خالق السماء والأرض .

وسبق أنْ قلنا : إن القضية تسلم لصاحبها ومدعيها إذا لم يقُمْ لها معارض ، فإن كانت هذه القضية صحيحة ، والحق سبحانه هو

---

(١) ماد يميد : تحرك واهتزَّ . ومادت الأرض : اضطربت وزلزلت . يقول تعالى . ﴿وألقَى فى الأرضِ رواسِى أن تَميد بكُمْ .. ﴿١٠﴾﴾ [لقمان] لئلاَّ تميل وتضطرب فالجبال العالية توازن البحار العميقة . [القاموس القويم ٢/٢٤٦] .

الخالق فقد انتهت المسألة ، وإذا كان هناك خالق غيره سبحانه فأين هو ؟ هل درى أن واحداً آخر أخذ منه الخَلْق ، ولماذا لم يعارض ويدافع عن حقِّه ؟ أو أنه لم يَدْرِ بشيء فهو إله (نائم على ودنه) ، وفى كلا الحالين لا يصلح أن يكون إلهاً يُعبد .

لذلك قال تعالى ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ (١٨)﴾ [آل عمران] ، فهذه شهادة الذات للذات ، ولم يعارضها معارض فصَحَّتْ لصاحبها إلى أنْ يوجد معارض .

وسبق أن مثَّلنا لذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ بجماعة جلسوا فى مجلس فلما انفضَّ مجلسهم وجد صاحب البيت حافظة نقود لا يعرف صاحبها ، فاتصل بمن كانوا في مجلسه ، وسألهم عنها فلم يقُلْ واحد منهم أنها له ، إلى أن طرق الباب أحدهم وقال : والله لقد نسيت حافظة نقودي هنا ، فلا شكَّ إذن أنها له وهو صاحبها حيث لم يدَّعها واحد آخر منهم .

والحق سبحانه يقول فى إثبات هذه القضية : ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢)﴾ [الإسراء] أى : لذهبوا يبحثون عمَّنْ أخذ منهم الخَلْق والناس ، وأخذ منهم الألوهية .

فإنْ قالوا نحن آلهة لكن فوقنا إله أكبر يردُّ الحق عليهم : ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١)﴾ [الكهف]

وقوله تعالى : ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا (١٠)﴾ [لقمان] حين تدور فى أنحاء الكرة الأرضية من شمالها إلى جنوبها ، ومن شرقها إلى غربها تجد السماء تظلّك ، ومع سعة السماء لا تجد لها عمداً ترفعها ، وكلمة ﴿تَرَوْنَهَا (١٠)﴾ [لقمان] تحمل معنيين : إما هى فعلاً بغير عمد ، أو لها عمد لكن لا تراها ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا (١٠)﴾ [لقمان] يعنى : لا ترى لها

عمداً ، لكن الحقيقة أن لها عمداً لا ترونها بإحساسكم ومقاييسكم .

فإنْ قلت ، فما هذه العمد التى لا تراها ؟ البعض يقول : هى الجاذبية ، وهذا القول مجانب للصواب ، والحق سبحانه يكفينا مؤنة البحث فى هذه المسألة ، فيقول سبحانه : ﴿ .. وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ (٦٥) ﴾ [الحج]

إذن :لا نملك إلا أنْ نقول إنها ممسوكة بقدرة الله ، ولكى لا نحار فى كيفية ذلك يُقرِّب الله لنا هذه المسألة بمثال مُشَاهد لنا ، فالطير يمسكه الله فى جو السماء : ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ ..(٧٩) ﴾ [النحل]

وفى موضوع آخر يقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا (٤١) ﴾ [فاطر] إذن فهو سبحانه يمسكها بقانون ، لكن لا نعرفه نحن ولا ندركه .

والسماء فى اللغة : كل مَا علاك فأظلَّك ، فالغيم الذى يعلوك وتراه قريباً منك يُعد من السماء بدليل قول الله تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً (١٠) ﴾ [لقمان] والماء ينزل من الغيم ، لا من السموات العلا ، والفرق بينهما أن الغيم تراه فى مكان دون آخر ، وتراه مُتقطعاً منقطراً ، أمَّا السماء العليا فهى بشكل واحد ، لا ترى فيها من فطور .

وحين تكلم الحق سبحانه عن الأرض والسماء قال : إنها سبع سماوات ، ولم يقُلْ سبع أراضين ، بل ﴿وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ (١٢) ﴾ [الطلاق] فدلَّ على أن الأرض سبع كالسماء ، وإنْ كانت السماء كل ما أظلَّك ، فالأرض كل ما أقلَّك ، لكن أين هذه الأرَضين السبع ؟

لقد أخبرنا القرآن الكريم أن السماوات سبع ، وأخبرنا النبى ﷺ أنه مرَّ بها فى رحلة المعراج فقال فى الأولى كذا وكذا ، وفى الثانية كذا وكذا ، وما دامتْ السماء كل ما أظلك ، والأرض كل ما أقلك فالخَلْق

فى السماء الأولى مثلاً سماؤهم السماء الثانية ، وأرضهم سماؤنا الأولى ، وهكذا وهكذا .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ (١٠) ﴾ [لقمان] أى : الجبال الراسية الثابتة المتصلة بالأرض اتصالاً وثيقاً بحيث لا تتخلخل منها ، والعلة فى خَلْق الجبال الرواسى على الأرض ﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ (١٠) ﴾ [لقمان] أى تميل وتضطرب بكم ، ولو أن الأرض مخلوقة على هيئة الثبات لما احتاجت إلى ما يثبتها .

إذن : فالأرض متحركة ، وما خُلقت الجبال إلا لتثبيتها وضبط حركتها ، فدلَّت هذه الآية على صدْق النظرية القائلة بدوران الأرض ، كذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ (٨٨) ﴾ [النمل]

إذن : فللجبال حركة مرتبطة بحركة الأرض ، فإنْ قُلْتَ : ولماذا لا نراها ؟ نقول : لأن وحدة المكان تجعلك لا تدرك هذه الحركة ، فالمتحد فى مكان لا تختلف مرائى الأشياء بالنسبة له .

فلو تصوَّرنا أن هذا المسجد الذى يجمعنا صُمِّم على هيئة رَحَىً تدور بنا ، فهل نشعر بدورانه ونحن ندور بدورانه ؟ لا نشعر ، لماذا ؟ لأن مواقعنا من بعض ثابتة لا تتغير ، كذلك موقعنا من المكان ؛ لذلك لا نشعر بالحركة ، لكن نشعر بالحركة حين نقيس متحركاً بثابت ، فلو فتحنا الباب مثلاً أو الشباك ورأينا ما هو خارج المسجد ، عندها نشعر أننا نتحرك .

إذن : لا يمكن لمَنْ على الأرض أن يشعر بحركتها ؛ لأنه يتحرك معها ، وما دامت الجبال أوتاداً فى الأرض وهى - أى الجبال - تمر مرَّ السحاب فلا بُدَّ أن الأرض كذلك تمر وتتحرك بنفس الحركة ،

وحركة الجبال ليست ذاتية ، إنما هى تابعة لحركة الأرض ، والحق سبحانه شبَّه حركة الجبال بحركة السحاب ، والسحاب حركته غير ذاتية ، إنما هى تابعة لحركة الرياح .

ثم يذكر الحق سبحانه علة أخرى لخَلْق الجبال : ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ (١٠)﴾ [لقمان] وسبق أنْ أوضحنا أن الجبال تمثل مخازن للقوت الذى به قوام الحياة للإنسان وللحيوان والذى ينشأ من الزرع ، وبيَّنا أن الطبقةَ الخارجية للجبال تتفتتْ بعوامل التعرية ، ثم يحملها ماء المطر إلى الوديان فتزيد من خصوبة الأرض بمقدار كل عام ، ومن الجبال أيضاً يتكون الماء فى الأنهار أو فى مسارب الأرض فتخرجه حين الحاجة إليه .

ومن حكمته تعالى أنْ جعل الجبال راسية ثابتة ، وجعلها صلدة وإلا لو كانت هشَّة لأذابتها الأمطار وفتتتها فى عدة سنوات ، ثم حرمت الأرض من الخصوبة التى تستمدها من الجبال ؛ لذلك يقول الله تعالى : ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١)﴾ [الحجر] فمع زيادة السكان تزداد المساحة الخِصْبة التى يُكوِّنها الغِرْين الذى يتفتت من الجبال عاماً بعد عام .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠)﴾ [فصلت]

فالجبال جعلها الله راسية حتى لا تضطرب بنا الأرض ، وجعلها صلبة لأنها مخزن الخِصْب الذى يُمدُّنا بالزرع الذى به قِوَام حياتنا .

ومن رحمة الله بالإنسان أنْ جعل فيه ذاتية استبقاء الحياة ، فإن مُنِع عنه الطعام أو الشراب تغذَّى من المخزون فى جسمه ، فيأخذ

أولاً من الدهن ، ثم من اللحم ، ثم من العظم ؛ لذلك قلنا : إن العظم هو آخر مخازن القوت في جسم الإنسان ، وفي ضوء ذلك نفهم قول سيدنا زكريا : ﴿إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي (٤)﴾ [مريم]

يعني : قد بلغتُ آخر مرحلة من مراحل استبقاء الحياة .

فكان من رحمة الله بالخَلْق أنْ جعل حتى شرَه الإنسان للطعام والشراب رحمة به ، حيث يتحول الزائد عن طاقته وحاجته إلى مخزون في جسمه ، فإذا انقطعتْ به السُّبُل أو تعذَّر عليه الطعام والشراب استمد مما في جسمه .

كذلك من رحمة الله بالإنسان أنْ جعله يصبر على الطعام إلى شهر ، ويصبر على الماء من ثلاثة أيام إلى عشرة بحسب ما في جسمه من مخزون الطعام والشراب ، أما الهواء فلا يصبر عليه إلا بمقدار شهيق وزفير ؛ لذلك تتجلى رحمته تعالى وحكمته في خَلْقه بألاَّ يُملِّك الهواء لأحد ، فلو ملكه عدوك لمتَّ قبل أن يرضى عنك .

وقوله : ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ (١٠)﴾ [لقمان] بث أي . نشر ، والدابة : كل ما له دبيب على الأرض ، والدبيب بحسب ما يدبّ على الأرض ، وكل ما يمشي على الأرض له دبيب نسمعه في الحيوان الضخم مثلاً ، لكن لا نسمعه في النملة مثلاً ، فهي أيضاً لها دبيب بدليل قولنا : فلان يسمع دبّة النملة ، إذن : لها دبيب على الأرض ، لكن أذن مَنْ التي تستطيع أنْ تسمعه ؟

وقوله تعالى : ﴿مِن كُلِّ دَابَّةٍ (١٠)﴾ [لقمان] كل تعني سوراً كلياً يضم كل ما له حركة ودبيب على الأرض ، يعني : كل ما يقال له دابة بداية من النملة أو الفيروسات الآن إلى أكبر حيوان على الأرض . وقوله (من) تتدرج من الصغير إلى الكبير فتدلُّ على الشمول .

ومن هذه الدواب ما أحله الله ومنها ما حرمه ؛ لذلك يقول البعض : ما دام الله حرَّم هذه الحيوانات ، فما الضرورة فى خَلْقها ؟ وهل كل شيء مخلوق يُؤكل ؟

لا ، ليس كل مخلوق من الحيوانات يؤكل ؛ لأن له مهمة أخرى يؤديها .

ولو تأملت ما حُرِّم عليك لوجدته يخدمك فى ناحية أخرى ، فمنه ما يمد الحيوانات التى تأكلها ، ومنه ما فيه خاصية تحتاج إليها فى غير الأكل ، فالثعبان مثلاً لا نرى فيه إلا أنه مخلوق ضار ، لكن ألم نحتَجْ إلى سُمِّه الآن ، ونجعله مَصْلاً نافعاً ؟ ألسنا ننتفع بجلوده ؟ الخ ، فإذا كنا لا نأكله فنحن نستفيد من وجوده فى نواحٍ أخرى .

كذلك الخنزير مثلاً ، البعض يقول : ما دام الله تعالى حرمه ، فلماذا خلقه ؟ سبحان الله ، هل خلق الله كل شيء لتأكله أنت ؟ ليس بالضرورة أنْ تأكل كل شيء ، لأن الله جعل لك طعامك الذى يناسبك ، أتأكل مثلاً البترول ؟ كيف ونحن نرى حتى السيارات والقطارات والطائرات لكل منها وقوده المناسب له ، فالسيارة التى تعمل بالبنزين مثلاً لا تعمل بالسولار .. الخ ، فربك أعطاك قُوتك كما أعطى لغيرك من المخلوقات أقواتها .

لذلك ؛ إذا نظرت فى غابة لم تمتد إليها يد الإنسان تجد فيها جميع الحيوانات والطيور والدواب والحشرات .. الخ دون أنْ تجد فيها رائحة كريهة أو منظراً مُنفِّراً ، لماذا ؟

لأن الحيوانات يحدث بينها وبين بعضها توازن بيئى ، فالضعيف منها والمريض طعام للقوى ، والخارج من حيوان طعام لحيوان آخر. وهكذا ، فهى محكومة بالغريزة لا بالعقل والاختيار .

وكل شيء لا دَخْلَ للإنسان فيه يسير على أدقِّ نظام فلا تجد فيه فساداً أبداً إلا إذا طالتْه يد البشر ، ولك أنْ تذهب إلى إحدى الحدائق أو المتنزهات في شم النسيم مثلاً لترى ما تتركه يد الإنسان في الطبيعة .

لكن ، لماذا وُصِف الإنسان بهذا الوصف ؟ ولماذا قُرِن وجوده بالفساد ؟ نقول : لأنه يتناول الأشياء بغير قانون خالقها ، ولو تناول الأشياء بقانون الخالق عز وجل ما أحدث في الطبيعة هذا الفساد .

وسبق أنْ بيَّنا أن الإنسان لا قدرةَ له على شيء من مخلوقات الله إلا إذا ذلَّلها الله له ويسَّرها لخدمته ، بدليل أن الولد الصغير يركب الفيل ويسحب الجمل ويُنيخه ويحمله الأثقال في حين لا قدرةَ لأحدنا على ثعبان صغير ، أو حتى برغوث ، لماذا ؟ لأن الله تعالى ذلَّلَ لنا هذا ، ولم يُذلِّل لنا هذا .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [لقمان] من السماء : أي من جهة العلو ومن ناحية السماء ، وإلا فالمطر لا ينزل من السماء ، إنما من الغمام ﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [لقمان] أي : في الأرض ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [لقمان] زوج أي : نوع من النبات ، فهي كلمة تدل على مفرد ، لكن معه مثله ، والبعض يظن أنها تعني اثنين وهذا خطأ ؛ لذلك نقول عن الرجل زوج ، وعن المرأة زوج رغم أنه مفرد ، لكن قُرِن بغيره .

وقال تعالى عن التكاثر . ﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [الذاريات] فسمَّى الذكر (زوج) وسمَّى الأنثى (زوج) .

ومثلها كلمة (توأم) فهي تدل على مفرد ، لكن مفرد لم يُولَد

وحده إنما معه غيره ، والبعض يقول (توأم) ويقصد الاثنين ، إنما الصواب أن تقول هما توأمان .

ووصف الحق سبحانه الزوج أي النوع من النبات بأنه ﴿ كَرِيمٍ ۝١٠ ﴾ [لقمان] لأنه يعطيك بكرم وسخاء ، فالحبة تعطيك سبعمائة حبة ، وهذا عطاء المخلوق لله ، فما بالك بعطاء الخالق عز وجل ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١١ ﴾

والكلام هنا مُوجَّه للمكابرين وللمعاندين الجاحدين لآيات الله . ﴿ هَٰذَا .. ۝١١ ﴾ [لقمان] أي : ما سبق ذِكْره لكم من خَلْق السماوات بغير عمد ، ومن خَلْق الجبال الرواسي والدواب وإنزال المطر وإحياء النبات .. الخ .

هذا كله ﴿ خَلْقُ اللَّهِ .. ۝١١ ﴾ [لقمان] فلم يدَّعه أحد لنفسه ، وليس لله فيه شريك ﴿ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ .. ۝١١ ﴾ [لقمان] أي : الذين اتخذتموهم شركاء مع الله ، ماذا خلقوا ؟

وليس لهذا السؤال إجابة عندهم ، حيث لا واقع له يستدلون به ، ولا حتى بالمكابرة ؛ لأن الحق أبلج[1] والباطل لجلج[2] ، لذلك لم

---

(١) أبلج الحق : ظهر . ويقال : هذا أمر أبلج أي واضح . والبلوج : الإشراق وصبح أبلج بيِّن البلج أي مشرق مضيء . وكذلك الحق إذا اتضح . [لسان العرب - مادة : بلج] .

(٢) اللجلج : المختلط الذي ليس بمستقيم . [لسان العرب - مادة لجج] .

نسمع لهم صوتاً ولم يجرؤ واحد منهم مثلاً على أن يقول آلهتنا خلقت الجبال مثلاً أو الشمس أو القمر ، فلم يستطيعوا الردّ رغم كفرهم وعنادهم .

والحق سبحانه في الرد عليهم يبين لهم أن المسألة لا تقف عند عدم قدرتهم على الخَلْق ، إنما لا يعرفون كيف خُلِقُوا هم أنفسهم . ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١)﴾ [الكهف]

وفي قول الله ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١)﴾ [الكهف] دليل على صِدْق القرآن ومظهر من مظاهر إعجازه ، فقد أخبرنا الحق سبحانه أنه سيُوجد مُضِلون يضلون الناس في مسألة الخَلْق ، ويصرفونهم عن الحق بكلام باطل .

وفعلاً صدق الله وسمعنا من هؤلاء المضلين مَنْ يقول : إن الأرض قطعة من الشمس انفصلتْ عنها ، وسمعنا مَنْ يقول إن الإنسان في أصله قرد .. الخ ، ولولا هذه الأقاويل وغيرها ما صدقت هذه الآية ، ولجاء أعداء الإسلام يقولون لنا : أين المضلون الذين أخبر عنهم القرآن ؟

فكأن كل كلام يناقض ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ .. (١١)﴾ [لقمان] هو كلام مُضِل ، وكأن هؤلاء المضلين - في غفلة منهم ودون قصد - يؤيدون كلامَ الله ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١)﴾ [الكهف]

ونجد هذه المسألة أيضاً في سنة رسول الله ﷺ ، حيث يطلع

علينا من حين لآخر مَنْ ينكر سنة رسول الله ويقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما كان فيه من حلال حللناه ، ومما كان فيه من حرام حرمناه .

وعندها نقول : سبحان الله ، كأن الله تعالى أقامكم دليلاً على صِدْق رسوله ، فقد أخبر الرسول عنكم ، وعما تقولونه في حَقّ سنته ، حيث قال : « يوشك رجل يتكيء على أريكته ، يُحدِّث بالحديث عني فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال حللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه »[1] .

ومعنى : ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ ..(١١)﴾ [لقمان] أي : مخلوقاته ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ .. (١١)﴾ [لقمان] ولن نطلب منه خَلْقاً كخَلْق السماء والأرض والجبال ، ولا إنزال المطر وإحياء الأرض بالنبات ، بل اخلقوا أقلّ شيء في الموجودات التي تروْنها ، وليس هناك أقل من الذباب : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣)﴾ [الحج] بل وأبلغ من ذلك ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج]

ثم يختم الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١١)﴾ [لقمان] أي : ضلال محيط بهم من كل اتجاه ، والضلال المبين المحيط لا تُرْجى معه هداية ، فلن يهتدي هؤلاء ، وما عليك إلا أنْ تصبر على دعوتك يا محمد حتى يُبدلك الله خيراً من هؤلاء ، ويكونون لك جنوداً يؤمنون بك ، وينصرون دعوتك . وقد كان .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٣٢/٤) والترمذي في سننه (٢٦٦٤) وابن ماجة (١٢) والدارقطني (٢٨٦/٤) في سننهم من حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ[1] ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾

الحق سبحانه آتانا قبل أنْ يخلقنا ، وآتانا بعد أن خلقنا بالمنهج ثم وَالَى إلينا بمواكب الرسالات التي تحمل إلى كل بيئة المنهج الذي يناسبها ، وقبل أن يخرج آدم عليه السلام لتحمُّل عِبء هذه الخلافة أعطى الله له تجربة ، هذه التجربة مفادها أن يحافظ على منهج ربه في (افعل) و (لا تفعل) وأن يحذر كيد الشيطان .

وقد مرَّ آدم بهذه التجربة البيانية قبل أن يجتبيه الله للنبوة وكثيرون يظنون أن عصيان آدم جاء بعد أنْ كُلِّف بالنبوة فيقولون : كيف يعصي آدم ربه ، وهو نبي والنبي معصوم ؟

ونقول : نعم ، عصى آدم ربه ، لكن قبل النبوة ، وهو ما يزال بشراً عادياً ؛ لذلك قال سبحانه في حقه : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [طه]

---

(١) كان لقمان عليه السلام عبداً حبشياً نجاراً . قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه الإمام أحمد في الزهد وابن أبي شيبة وغيرهما . وقال سعيد بن المسيب . إن لقمان عليه السلام كان أسود من سودان مصر ، ذا مشافر ، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة . أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم في تفاسيرهم . أورد السيوطي هذه الآثار في الدر المنثور (٥٠٩/٦ ، ٥١٠) . وقال القرطبي : هو لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارح . قال وهب ابن منبه : كان ابن اخت أيوب . وقال مقاتل : ذكر أنه كان ابن خالة أيوب . انظر تفسير القرطبي (٥٣١٦/٧) .

إذن : جاء الاجتباء بعد المعصية ، فإنْ قلتَ : فما الداعي للعصيان يصدر من آدم ، وهو يُعد للنبوة ؟ قالوا : لأنه أبو البشر ، والبشر قسمان : بشر معصومون ، وهم الأنبياء ، وبشر ليست لهم عصمة وهم عامة الناس غير الأنبياء ، ولا بُدَّ لآدم أنْ يمثل النوعين لأنه أبو الجميع ، فمثَّل البشر عامة حين وقع في المعصية ، ومثَّل الأنبياء حين اجتباه ربه وتاب عليه ، فجمع بذلك بين الملحظين .

هنا يقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا .. (١٢) ﴾ [لقمان] والإيتاء يُطلَق على الوحي مع الفارق بينهما ، فإنْ أطلق الوحي فإنه ينصرف إلى الوحي للرسول بمنهج من الله ، ويُعرَّف الوحي عامة بأنه إعلام بخفاء.

ومن ذلك قوله تعالى في الوحي للملائكة : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٢) ﴾ [الأنفال]

ويُوحِي للبشر ، قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ .. (٧) ﴾ [القصص]

ويوحي للحيوان ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا .. (٦٨) ﴾ [النحل]

ومن ذلك أيضاً يوحي الشياطين بعضهم إلى بعض من شياطين الإنس أو الجن : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. (١٢١) ﴾ [الأنعام]

كذلك يوحي الله إلى أهل الخير من أتباع الرسل : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي .. (١١١) ﴾ [المائدة]

هذا في المعنى اللغوي للوحي وهو : إعلام بخفاء ، فإنْ قصدت الوحي الشرعي الاصطلاحي : فهو إعلام من الله لرسوله بمنهجه .

وهذا التعريف يُخرج كل الأنواع السابقة .

والحق سبحانه عبَّر عن الإيتاء العام بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ .. (٥١) ﴾ [الشورى]

والإيتاء يُقصد به الإلهام ، ويكون حين تتوفر للإنسان آلة استقبال سليمة صالحة لاستقبال الإلهام والخاطر من الحق سبحانه وتعالى ، وآلة الاستقبال لا تصلح للاستقبال عن الله تعالى إلا إذا كانت على مواصفات الخالق سبحانه صانعها ومبدعها ، كما يلتقط (الراديو أو التليفزيون) الإرسال ، فإن انقطع عنك الإرسال فاعلم أن جهاز استقبالك به عطب ، أما الإرسال فموجود لا ينقطع ، ولله تعالى المثل الأعلى .

وله سبحانه إرسال دائم إلى عباده ، لا يلتقطه إلا مَنْ صفَتْ آلة استقباله ، وصلحت التلقي عن الله ، وهذه الآلة لا تصلح إلا إذا كانت على المنهج في افعل ولا تفعل ، لا تصلح إذا تكونت من الحرام وتغذَّتْ به ؛ لأن الحرام يفسد كيماوية الفطرة التي خلقها الله في عباده يوم أن أخذ عليهم العهد :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

فهذه الذرية لو ظلتْ على حالها من الصفاء يوم كانت في ظهر آدم ويوم أخذ الله عليها العهد ، ولو التزمتْ منهج ربها في (افعل) و (لا تفعل) لكانت أهلاً لإلهام الله ؛ لأن آلة استقبالها عن الله سليمة .

وتأمل في وحي الله إلى أم موسى : ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ

فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي .. (٧)﴾ [القصص]

فأيُّ آلة استقبال هذه التي استقبلتْ هذا الأمر ونفذته دون أنْ تناقشه، واطمأنتْ إليه قبل أنْ تفكر فيه ؟ وكيف تقتنع الأم أن الموت المحقق يُنجي وليدها من موت مظنون ؟

لذلك نقول : إذا صادف الإلهام آلة استقبال سليمة فإنه لا يوجد في النفس ما يصادره، ولا ما يبحث عن دليل، فقامت أم موسى ونفذت الأمر كما أُلقي إليها، هذا هو الإيحاء.

ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥)﴾ [الكهف] والعبد الصالح[1] لم يكن نبياً، ومع ذلك آتاه الله بدون واسطة، فكان هو مُعلِّماً للنبي، وما ذلك إلا لأنه عبد لله على منهج موسى، وأخلص لله تعالى فآتاه الله من عنده.

واقرأ قول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. (٢٩)﴾ [الأنفال] وقال سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد]

إذن كلُّ ما علينا لنأخذ إلهامات الحق سبحانه أنْ نحتفظ بصفاء

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٣/٩٣) : « هذا هو الخضر عليه السلام كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ ». وأخرج البخاري (٣٤٠٢) وأحمد والترمذي (٣١٥١) وابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إنما سُمِّي الخضر، لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء ». أورده السيوطي في الدر المنثور (٥/٤٢٠) قال ابن حجر في فتح الباري (٦/٤٣٤) : « قال الطبري في تاريخه - كان الخضر في أيام أفريدون في قول عامة علماء الكتاب الأول، وكان على مقدمة ذي القرنين الأكبر ». وأخرج النقاش أخباراً كثيرة تدل على بقائه لا تقوم بشيء منها حجة. قاله ابن عطية ».

البنية التي خلقها الله لتظل بمواصفات خالقها ، ثم نسير بها على منهجه تعالى في افعل ولا تفعل ، وكان سيدنا لقمان من هذا النوع الصافي الطاهر النقي ، الذي لم يخالط جسمه حرام ، والذي لا يغفل عن منهج ربه ؛ لذلك آتاه الله الحكمة ، وقال فيه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ .. (١٢) ﴾ [لقمان]

وقد اختلف العلماء فيه : أهو نبي أم غير نبي ، والغالب أنه غير نبي[١] ؛ لأن القائلين بنبوته ليس لهم سند صحيح ، والجمهور اجتمعوا على أنه رجل صالح مرهف الحس ، دقيق الإدراك ، والحسّ كما قلنا هو الأصل الأول في المعلومات ، وكان لقمان لا يمر على الأشياء إلا بهذا الحسّ المرهف والإدراك الدقيق العميق ، فتتكون لديه مُدْركات ومواجيد دقيقة تختمر في نفسه ، فتتجمع لديه مجموعة من الفضائل والقيم التي تسوس حركة حياته ، فيسعد بها في نفسه ، بل ويسعد غيره من حوله بما يملك من المنطق المناسب والتعبير الحسن ، كذلك كان لقمان[٢] .

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه قال . خيَّر الله تعالى لقمان بين الحكمة والنبوة ، فاختار الحكمة على النبوة ، فأتاه جبريل عليه السلام وهو نائم ، فذرّ عليه الحكمة ، فأصبح ينطق بها فقيل له : كيف اخترت الحكمة على النبوة ، وقد خيَّرك ربك ؟ فقال : لو أنه أرسل إليّ بالنبوة عزمة لرجوت فيها العون منه ، ولكنت أرجو أن أقوم بها ، ولكنه خيَّرني ، فخفت أن أضعف عن النبوة ، فكانت الحكمة أحب إليّ . أورده السيوطي في الدر المنثور (٥١١/٦) والقرطبي في تفسيره (٥٢١٧/٧) .

(٢) عن أبي الدرداء أنه ذكر لقمان الحكيم فقال : ما أوتي ما أوتي عن أهل ، ولا مال ، ولا حسب ولا خصال ، ولكنه كان رجلاً صمصامة (الشديد الصلب المجتمع الخَلْق) سكّيتا ، طويل التفكر عميق النظر ، لم ينم نهارا قط ، ولم يره أحد يبزق ولا يتنحنح ولا يبول ولا يتغوط ولا يغتسل ولا يعبث ولا يضحك ، كان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيدها . [عزاه السيوطي في الدر المنثور (٥١٢/٦) لابن أبي حاتم]

وللعلماء أبحاث حول شخصيـة لقمان وجنسيته ، فمنهم مَنْ ذهب إلى أنه كان أسود اللون غليظ الشفتين كأهل جنوب إفريقيا ، لكنه مع ذلك كان أبيض القلب نقي السريرة ، تخرج من بين شفتيه الغليظتين الحِكَم الرقيقة والمعاني الدقيقة[١] .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم »[٢] .

لذلك حين ترى مَنْ هـو أقل منك في مال ، أو صحـة ، أو جاه ، أو منظر فلا تغتر بذلك ، وانظر وتأمل مـا تميَّز به عليك ؛ لأن الخالق سبحانه ـ كما قلنا ـ وزَّع فضله بين عباده بالتساوي ، بحيث يكون مجموع كل إنسان يساوي مجموع الآخر ، ولا تفاضلَ بين المجموعات إلا بالتـقـوى : « لا فضل لعـربي على أعـجـمي إلا بالتقـوى والعـمل الصالح »[٣] .

فالذين يحلو لهم أنْ يقسـموا المهن مثلاً إلى مهن شـريفة وأخرى حقيرة نقول : ليست هناك مهنة حقيرة ما دام المجتمع في حاجة إليها ولا تستقيم حركة الحياة إلا بهـا ، فكيف تحقرها ؟ وكيف تحقر أهلها ؟

---

(١) مما يُروى من أخبار لقمان الحكيم أنه قال لرجل ينظر إليه : إن كنت تراني غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق ، وإن كنت تراني أسود فقلبي أبيض . [تفسير القرطبي ٧/٥٣١٧] .

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (٢٥٦٤) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٨٥ ، ٥٣٩) وابن ماجة في سننه (٤١٤٣) واللفظ لمسلم

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/٤١١) ، عن أبي نضرة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ ، وأخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣/١٠٠) عن أبي نضرة عن جابر بن عبد الله قال : خطبنا رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق ، فقال : « يأيها الناس ، ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى »

والله لو قعد الوزراء في بيوتهم أسبوعاً ما حدث شيء ، لكن لو تعطل عمال النظافة مثلاً أو الصرف الصحي ليوم واحد لحدثتْ مشكلة ، ولأصبحت الدنيا (خرارة) .

وكيف نحقر هذه المهن ونحقر أصحابها ، وهم يرضَوْنَ باليسير ، ويتحملون ما لا يطيقه غيرهم ؟ كيف نحقرهم ، والله تعالى يقول :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ .. (١١) ﴾ [الحجرات]

فإن قلت : ما دام ليس نبياً ، فكيف يؤتيه الله ؟ نقول : بالمدد والإلهام الذي قال الله فيه : ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا (٢٩) ﴾ [الأنفال] فمَنْ يحافظ على مواصفات التكوين بمنطق الله يأخذ من الله مباشرة .

كما لو طلب منك ولدك مبلغاً من المال يتاجر به في السوق ، فتعطيه مبلغاً يسيراً تُجربه به ، فإنْ أفلح وربحت تجارته يطمئن قلبك فتزيده أضعاف ما أخذ في المرة الأولى ، كذلك الإنسان إن أحسن صحبته لربه داوم الله عليه فضله ووالى إليه فيضه .

لذلك يقول سيدنا عمر بن عبد العزيز[1] : ما قصر بنا في علم ما نجهل إلا عدم عملنا بما علمنا - يعني : لو كنا أهلاً للزيادة لزادنا ، لو كنا مأمونين على ما علمنا فوظَّفناه في حركة حياتنا لجاءتنا فيوضات إشراقية وعطاءات من ربنا ممتدة لا تنتهي ، أما إنْ أخذنا

(١) هو : عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموي ، أبو حفص ، ولد بالمدينة (٦١هـ) ونشأ بها ، وولي إمارتها للوليد ، ثم استوزره سليمان بن عبد الملك بالشام ، وولي الخلافة بعهد من سليمان سنة ٩٩ هـ ، فبويع في مسجد دمشق ، ومنع سبَّ علي بن أبي طالب وكان مَنْ سبقه من الأمويين يسبونه على المنابر ، توفي وهو في الأربعين من عمره عام (١٠١هـ) . مدة خلافته سنتان ونصف .

العلم فألقيناه جانباً ولم نعمل به ، فما الداعي للزيادة ، وأنت لم تستفدْ بما عندك ؟

وكما تكلم العلماء في شخصية لقمان وجنسيته تكلموا في حكمته ، فسأله أحدهم وقد تبسَّطَ معه في الحديث . ألم تكُنْ عبداً تخدم فلاناً ؟ قال . بلى ، قال : فَبِمَ أوتيتَ الحكمة ؟ قال : باحترامي قدر ربي ، وأدائي الأمانة فيما وليت من عَمل ، وصدق الحديث ، وعدم تعرُّضي لما لا يعنيني[1] .

وهذه الصفات كافية لأنْ تكون منهجاً لكل مؤمن ، ولأنْ ينطق صاحبها بالحكمة ، والله لو كانت فيه صفة الصدق في الحديث لكانت كافية .

لذلك وصل لقمان إلى هذه المرتبة وهو العبد الأسود ، فآتاه الله الحكمة مباشرة ، وهو ليس نبياً ولا رسولاً ، وسُمِّيت إحدى سور القرآن باسمه ، وهذا يدلك على أن الإنسان إذا اعتدل مع الله وأخلص في طاعته فإن الله يعطيه من فيضه الواسع ، فيكون له ذِكْر في مصافِّ الرسل والأنبياء .

ويُرْوَى من حكمة لقمان أن سيده أمره أن يذبح له شاة ثم يأتيه بأطيب مُضْغتين فيها ، فذبح الشاة وجاءه بالقلب واللسان ، وفي اليوم التالي قال له : اذبح لي شاة وأتني بأخبث مُضْغتين فيها ، فجاءه أيضاً بالقلب واللسان فسأله : ألم تأتِ بهما بالأمس على أنهما

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في « كتاب الصمت » (حديث رقم ٦٧٥) ط . دار الاعتصام ١٩٨٦ م وابن جرير عن عمرو بن قيس قال : مرَّ رجل بلقمان عليه السلام والناس عنده ، فقال : ألست عبد بني فلان ؟ قال : بلى . قال : ألست الذي كنت ترعى عند جبل كذا وكذا ؟ قال : بلى . قال : فما الذي بلغ بك ما أرى ؟ قال : تقوى الله ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وطول السكوت عما لا يعنيني . وأورده السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٦/٥١٢) .

أطيب مضغتين في الشاة ؟ قال : بلى فليس شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا شيء أخبث منهما إذا خَبُثا[1]

وبعد لقمان جاء سيدنا رسول الله ﷺ يُعلِّمنا هذا الدرس فيقول : « ... ألا إن في الجسد مضغة إذا صلُحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب »[2] .

ويقول ﷺ في حديث آخر : « من حفظ ما بين لحييه[3] وما بين رجْليه دخل الجنة »[4] .

ويُروى أن لقمان كان يفتي الناس ، وكانوا يثقون بكلامه ، وكان ذلك قبل داود عليه السلام ، فلما جاء داود كفَّ لقمان عن الفُتْيا ، فلما سألوه : لماذا امتنعتَ عن الفُتْيا ؟ فقال - وهذه أيضاً من حكمته : ألاَ اكتفى إذا كُفيت ؟

يعني : لماذا أتمسك بها وقد بعث الله لي مَنْ حملها عني ، وهو يعلم تماماً أنه مجرد عبد صالح (أي : أنه أخذ الحكمة من منازلهم

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد وابن جرير عن خالد الربعي ، فيما ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/٥١٦) .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٢٠٥١) . وكذا مسلم في صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه ، وتمام الحديث : « إن الحلال بيِّن ، وإن الحرام بيِّن ، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى ، يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمىً ، ألا وإن حمى الله محارمه ، الحديث .

(٣) اللحيان : حائطا الفم ، وهما العظمان اللذان فيهما الأسنان من داخل الفم من كل ذي لَحْي [لسان العرب - مادة لحا] .

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٣/٢٥٢) من حديث سهل بن سعد بهذا اللفظ ، وأصله في البخاري (٦٤٧٤) عن سهل بلفظ « من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة » .

كما يقال) ، أما داود فرسول من عند الله ، ومن الحكمة أنْ يُفسح له هذا المجال ، ويترك لـه ساحة الفُتْيا في القوم لعله يـأتي بأفضل مما عند لقمان : لذلك تركها له عن رضاً وطيب خاطر .

والبعض يقول : إن الله خيَّره بين أن يكون نبياً أو حكيماً ، فقال : أما وقد خيَّرتني يا رب ، فأنـا أختار الراحة ، وأترك الابتلاء ، أما إنْ أردتها يا رب عـزمة فأنا سـأقبلها سمعاً وطاعة ؛ لأني أعلم أنك لن تخذلني [1] .

والحق سبحانه يُنطق لقمان بأشياء من الحكمة يسبق بها النبوة ؛ ليـبين لنا أن الإنسـانَ من الممـكن أن يكون ربانيـاً ، كمـا جـاء في الحـديث القـدسي . « عبدي ، أطعني تكُنْ ربانيـاً ، تقـول للشيء كُنْ فيكون » [2] .

ذلك لأن فـضل الله ليس له حـدود ، ولـيس عليـه حـرج ، وبابه تعالى مـفتـوح ، المهم أن تكون أهلاً لأنْ تلِجَ هذا البـاب ، وأنْ تكون

---

(١) أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي مسلم الخولاني رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لقمان كـان عبداً كثير التفكر ، حسن الظن ، كـثير الصمت ، أحب الله فأحبـه الله تعالى ، فمنّ عليه بالحكمة ، نـودي بالخلافة قبل داود ، فقـيل له : يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة تحكم بين الناس بالحق ؟ قال لقمان : إن أجبرني ربي قبلت ، فإني أعلم أنه إن فعل ذلك أعـانني وعلمني وعصمني ، وإن خيّـرني ربي قبلت العافـية ولم أسـأل البلاء » أورده السيوطي في الدر المنثور (٦/٥١١)

(٢) أخرج البخاري في صحيحه (٦٥٠٢) نحو هذا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال ﷺ : « إن الله قال : من عادى لي ولياً فقد آذنتـه بالحرب ، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصـر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها » الحديث . قـال الطوفي (سليمان عبـد القوي الصرصري ت ٧١٦ هـ) : اتفق العلمـاء ممن يعتد بقوله أن هذا مجاز وكناية عن نصرة العبد وتأييده وإعانته ، حتى كأنه سبحانه ينزل نفسه من عبده منزلة الآلات التي يستعين بها » .

فى معية ربك دائماً .

ومما يُرْوَى من حكمة لقمان أنه غاب فى سَفْرة ، ثم عاد فلقيه تابعه ، فقال له : مَا حال أبى ؟ فقال : مات ، فقال لقمان : الآن ملكْتُ أمرى ، ثم سأل : فما حال زوجتى ؟ فقال : ماتت ، فقال : جدَدتُ فراشى ، ثم سأل عن أخته ، فقال : ماتت ، فقال : سَتَر الله عِرْضى ، ثم سأل عن أخيه ، فقال : مات ، فقال : انقصم ظهرى[1] .

وهذا الكلام لا يصدر إلا عن حكمة ، فكثيراً ما يفرح الابن - خاصة العاق - بموت أبيه ؛ لأنه سيترك له المال يتمتع به ، أما لقمان فيقول عندما علم بموت أبيه : الآن ملكْتُ أمرى ؛ لأنه فى حياة أبيه كان له أمر ، لكن أمره ليس فى يده إنما فى يد أبيه ، فلما مات أبوه صار أمره بيده .

وهذه الحكمة توضح لنا قول النبى ﷺ : « أنت وما ملكت يداك لأبيك »[2] كأنه من العيب أن تقول فى حياة أبيك : أنا أملك كذا وكذا . أما الآن فقد تجاوز الأبناء كل هذه القيم ، ونسمع الابن يقول لأبيه : اكتب لى كذا وكذا .

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل فى زوائده عن عبد الله بن دينار . إن لقمان قدم من سفر فلقيه غلام فى الطريق فقال : ما فعل أبى ؟ قال : مات . قال : الحمد لله ملكت أمرى . قال : ما فعلت أمى ؟ قال : ماتت . قال : ذهب همى . قال : ما فعلت امرأتى ؟ قال : ماتت قال : جُدِّدَ فراشى . قال : ما فعلت أختى ؟ قال : ماتت . قال : سترت عورتى . قال : ما فعل أخى ؟ قال : مات . قال : انقطع ظهرى . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٥١٩) .

(٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : أتى أعرابى رسول الله ﷺ فقال : إن أبى يريد أن يجتاح مالى . قال : « أنت ومالك لوالدك . إن أطيب ما أكلتم من كسبكم ، وإن أموال أولادكم من كسبكم فكلوه هنيئاً » أخرجه أحمد فى مسنده (٢/١٧٩، ٢١٤) . وأبو داود فى سننه (٣٥٣٠)

أما قوله : « جددت فراشي » فهي كلمة لها معنى كبير : أنا لا أُدخل الجديدة على فراش القديمة حتى لا أجرح مشاعرها ، أو أنني لا أتزوج إلا بعد وفاة زوجتي الأولى ؛ ذلك لأن الغيرة طبع في النساء .

وكانت أم المؤمنين عائشة تغار حتى من ذكر السيدة خديجة ، فقد دخلت فاطمة بنت محمد ﷺ على أبيها مُغْضبة فقال ﷺ : « ما أغضبك يا أم أبيها » فقالت . والله إن عائشة قالت لي : إن رسول الله تزوج أمك ثيِّباً ، ولم يتزوج بِكْراً غيري ، فقال لها رسول الله : « إذا أعادت عليك هذا القول ـ وانظر هنا إلى أدب النبوة في الردِّ وفي سرعة الخاطر ـ فقولي لها : ولكن أمي تزوجتْ رسول الله وهو بكر ، وتزوجتيه أنت وهو ثيِّب »[1] هذا كلام النبوة ، ومن بعدها لم تُعدْها عائشة مرة أخرى .

وقد يقول قائل : وكيف تغار عائشة ، وهي أم المؤمنين وزوج رسول الله ؟ قالوا : هذه الغيرة لها معنى ، لقد عقد رسول الله عليها وهي بنت السادسة ، ودخل بها وهي بنت التاسعة[2] ، وقد جاوز ﷺ الخمسين من عمره ، ومع فارق السن بينهما رضيتْ عائشة برسول الله ؛ لأنها رأتْ فيه من مزايا نوره ما جعلها تَغَار عليه رغم كِبَر سنّه وصِغَر سنها . فلم تنظر إليه على أنه رجل عجوز يكبرها ، بل رأَتْ

---

(١) لقد كانت عائشة تغار من خديجة رضي الله عنهما ، رغم أن رسول الله ﷺ ما تزوج عائشة إلا بعد وفاة خديجة ، ومن هذا ما أخرجه مسلم في صحيحه (٢٤٣٧) باب فضائل خديجة : أن عائشة قالت لرسول الله ﷺ : « ما تذكر من عجوز من عجائز قريش ، حمراء الشدقين ، هلكت في الدَّهر ، أبدلك الله خيراً منها » فتغير وجهه ﷺ وزجر عائشة غاضباً « والله ما أبدلني الله خيراً منها آمنت بي حين كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء » .

(٢) عن عائشة رضي الله عنها قالت : تزوجني رسول الله ﷺ وأنا بنت ست سنين ، ودخل عليَّ وأنا بنت تسع سنين . ولقد دخلت عليه وإني لألعب بالبنات مع الجواري فيدخل فينقمعن منه صواحبي فيخرجن فيخرج رسول الله ﷺ فيسربهن عليَّ . أخرجه ابن سعد في كتاب الطبقات الكبير (٥٩/١٠) ـ ط مكتبة الخانجي ـ هيئة الكتاب .

فيه ما يفوق ويعلو على مجرد الشباب .

إذن : فمعنى : « جددت فراشى » أننى أراعى مشاعر الزوجة الجديدة ، فلا أدخلها على فراش القديمة فأصدمها به ، وأُلهب مشاعر الغيرة عندها ، حتى من التى ماتت ، وأنا أريد أن تكون صافية التكوين لذاتى ، راضية عن كل تصرفاتى ، أريد أن أمنع كل شبهة تقلق كونها سكناً لى ، وأنا سكَن لها .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿ولَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ .. (١٢)﴾ [لقمان] فالذى آتى هو الله عز وجل ، والحكمة : مادة حكَم تدل على وَضْع الشيء فى موضعه ، ومنها الحاكم ؛ لأنه يضع الحق فى نصابه ، حتى فى الدواب نسمى الحديدة التى توضع فى فم الفرس لأتحكم فى حركته (حكَمه) ؛ لأن الهدف من ركوب الخيل مختلف ، فمرة أركبه للنزهة ، ومرة أركبه لأدرك به صَيْداً ، ومرة للكرِّ وللفرِّ فى المعركة . فكُلُّ هدف من هذه له حركة ، وينبغى أنْ أتحكم فى حصانى ليؤدى لى ما أريده منه .

إذن : فالحكمة تعنى فى معناها العام وَضْع الشيء فى موضعه ، وهى مجموعة من ملَكات الفضائل تصدر عنها الأشياء التى تضع كل أمر فى محله لكنْ بيُسْر وبلا مشقة ولا تعب ، كالشيخ الذى ظل يدرس فى الأزهر مثلاً عشرين أو ثلاثين سنة تذهب إليه ، وتستفتيه فى أمر من الأمور ، فيجيبك بيُسْر وسهولة ، وبدون تفكير أو إعداد ، لماذا ؟ لأن الفُتْيا أصبحت ملَكة عنده لا تحتاج منه إلى مجهود ولا مشقة .

ومن الحكمة أنْ يخلق الله لك أشياءً ، ويهديك لأنْ تستنبط منها أشياءً أخرى .

وساعة تسمع من الله تعالى ﴿وَلَقَدْ .. ﴿١٢﴾﴾ [لقمان] فاعلم أن هنا قَسَماً فالواو واو القسم ، والمقسَم عليه مُؤكّد باللام ومُؤكّد بقد التي تفيد التحقيق .

قوله سبحانه : ﴿آتَيْنَا .. ﴿١٢﴾﴾ [لقمان] الحق ـ سبحانه وتعالى ـ في إتيانه للأشياء يعني تعدّي ما قدره لمن قدره من خير ظاهر ومن خير مستور . وقبل أنْ يخلق الله الإنسان خلق له ، فجاء الإنسان الأول (آدم عليه السلام) وطرأ على كون فيه كل مُقوِّمات حياته من هواء وماء وأرض وسماء وطعام وشراب .. الخ .

وكل ذلك مُسخَّر له تسخيراً لا دَخْلَ للمنتفع به فيه ، وهذا أول الإيتاء ، بل قبل ذلك ، وفي الأزل قبل أن يخلق الإنسان خلق له مُقوِّمات مادته ومُقوِّمات قيمه وروحه ـ أي : أوجدها .

لأننا نعلم أن كل صانع قبل أن يُقدم على صَنْعة لا بُدَّ أن يُحدِّد الغاية ، ويضع الهدف منها أولاً ، لا أنْ يصنع الشيء ثم ينظر فيه : لأيّ شيء يصلح هذا الشيء ، كذلك لا بُدَّ أنْ يسبق الصنعةَ منهجُ صيانتها .

فالحق سبحانه قبل أنْ يخلق الإنسان وضع له مُقوِّماته المادية والمعنوية ، والمنهج الذي يُصلحه وحدّد الهدف من وجوده ؛ لذلك يُنبِّهنا الحق سبحانه إلى هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾﴾ [الرحمن] فقبل أنْ يخلق اللهُ الإنسانَ وضع المنهج الذي به صيانته ، وهو القرآن الكريم .

إذن : فمعنى الإيتاء أنْ يعدي الله ما قدره من خير ظاهر أو خير مستور لمن قدره ، والخير يكون على نوعين : خير يقيم المادة ، وخير يقيم القيم الروحية ، المادة تقوم بالهواء وبالطعام وبالشراب .. الخ ، والقيم تقوم بالوحي وبالمنهج الذي حمله الرسل بافعل ولا تفعل.

والله تعالى آتى كثيراً من خلقه ، فلماذا خَصَّ لقمان بالذات ، فقال ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ .. (١٢) ﴾ [لقمان] ؟ قالوا : لأن الله تعالى حين يأمر الرسل بأمر ليُبلِّغوه يُعد الرسل لهذا الأمر ، وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يقول لنا : إن الفطرة السليمة تهتدى إلى الله ، وإلى المطلوب من الله بدون وحى ، وبدون إعداد .

ومن ذلك ما رُوِى عن سيدنا عمر - رضى الله عنه - من أنه كان يُحدِّث سيدنا رسولَ الله بالأمر ، ويقترح عليه فيأتى الوحى موافقاً لرأيه ، فكيف يتسنى لعمر أن يقترح على رسول الله وفى وجوده ، وهو المشرع الثانى بعد القرآن ؟

نقول : لأن الله تعالى يريد أنْ يثبت لنا أن الفطرة السليمة إذا صفَتْ لله تستطيع أنْ تهتدى إلى الأشياء ، وتصل إلى الحق قبل أنْ ينزل الوحى به .

إذن : فالإيتاء من الله لا يأتى عبثاً ، فالإيتاء الأول كان لآدم عليه السلام ، وآدم شاء الله أنْ يجعله خليفة له فى الأرض ، ولا يعنى هذا أنه أول المخلوقات فى الأرض ، والحق سبحانه لم يَقُلْ إننى أول ما خلقتُ خلقتُ آدم ، وبدليل قوله تعالى : ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) ﴾ [الحجر]

ومسألة الخلْق هذه هيِّنة على الله ، بدليل قوله تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) ﴾ [إبراهيم] فالمسألة ليست نادرة حدثت مرة واحدة ، ولن تحدث بعد ذلك .

وللعلماء كلام طويل فى عوالم أخرى غير عالمنا كعالم الحن[١] ،

---

(١) قال ابن سيده : الحن نوع آخر غير الجن . ويقال : الحن خَلْق بين الجن والإنس . وقال الفراء : الحنّ كلاب الجن . [لسان العرب ـ مادة : حنن] .

وعالم الينّ ، وعالم الجن وغيرها مما لا يعلمه إلا الله ، لكن إنْ حدَّثك المضللون الذين يريدون أنْ يستدركوا على الدين ويقولون : إن الحفريات أثبتت وجود مخلوقات قبل آدم ، فكيف تقولون : إن آدم أول مخلوق ؟

ونقول لهؤلاء : لم يقُلْ أحد : إن آدم أول مخلوق على الأرض ، إنما هو أول هذا الجنس البشرى الذى نسميه « إنسان » لكن سبقته أجناس أخرى ، وشاء الله أنْ يجعل آدم خليفة فى الأرض ، ثم أخبر الملائكة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠)﴾ [البقرة]

والله حين يخبر الملائكة هذا الخبر لا يستشيرهم ، إنما ليبين لهم أمراً واقعاً ، وخصَّ الملائكة بهذا الإخبار ؛ لأنه سيكون لهم دور مع هذا الخليفة الجديد . إذن : فالذين قال الله لهم : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠)﴾ [البقرة] ليسوا كل الملائكة ، إنما الذين لهم دور ومهمة مع هذا المخلوق ، أما باقى الملائكة فلا يدرون بآدم ، ولا يعرفون عنه شيئاً ، وليس فى بالهم إلا الله .

والقرآن الكريم يشير لنا إلى هذه المسألة إشارةً دقيقة فى قوله تعالى مخاطباً إبليس لما رفض السجود لآدم : ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾ [ص] والعالون هم الملائكة الذين لم يشملهم الأمر بالسجود .

وقلنا : إن الله تعالى كرَّم آدم حين خلقه تعالى ، وباشر خَلْقه بيده سبحانه ، ولم يخلقه كباقى المخلوقات (بكُنْ) ؛ لذلك جاء فى حيثية النقد على إبليس : ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ .. (٧٥)﴾ [ص]

إذن : مباشرة الخَلْق باليد دليل على العناية بالمخلوق ؛ لأن اليد هي الآلة الفاعلة لأكثر الأشياء ، وحتى الآن نفخر بعمل اليد فنقول (هذا الشيء يدويّ) يعني : لم تصنعه آلة صماء ، إنما يد مفكر يتقن الصنعة .

وفي مسألة خَلْق آدم - عليه السلام - يحلو للبعض أن يقول : هو الذي أخرجنا من الجنة ، فهل قال الله تعالى قبل أن يصدر أول بيان عن آدم أنني خلقتُه للجنة ، ثم عصى آدم ربه وتسبب في أنْ نخرج منها ؟

لم يقُلْ ذلك ، إنما قال : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠) ﴾ [البقرة] فهو - إذن - مخلوق للأرض ، وما الجنة التي دخلها إلا جنة التجربة لا جنة الخلد ، والبعض يظن أن كلمة الجنة إذا أُطلقَتْ تعني جنة الآخرة ، وهذا خطأ بدليل قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) ﴾ [القلم]

وقوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ .. (٣٢) ﴾ [الكهف]

فالجنة في اللغة هي المكان المليء بالأشجار الكثيفة التي تستر مَنْ يسير فيها ، كما تستره أيضاً عن البيئة الخارجية ؛ لأنها تكفيه بما فيها عن الاحتياج إلى غيرها ، ففيها كل مُقوِّمات الحياة ، ومن ذلك الجنة التي دخلها آدم ؛ لأن الله تعالى أراد أنْ يصنع لآدم تدريباً على مهمة الخلافة ، ولم لا ونحن نُدرِّب كل صاحب مهمة على مهمته قبل أنْ يقوم بها ، حتى لاعب الكرة .

وحين نأخذ المتدرب لتدريبه على أداء مهمته لا بُدَّ أن نوفر له كل مُقوِّمات حياته ، ونتكفل له بكل ما يعينه على أداء مهمته ، فنقدم له

إقامة كاملة من طعام وشراب ومسكن .. إلخ وكذلك فعل الله تعالى لآدم فقال له ﴿ يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٣٥) ﴾ [البقرة]

وحين نقارن بين ما أباحه الله لآدم وما حظره عليه نجد أنه تعالى أباح له كُلَّ ما في الجنة ولم يحرم عليه إلا هذه الشجرة التي أوضحها وبيَّنها له . كما نلحظ قوله تعالى : ﴿ لَا تَقْرَبَا .. (٣٥) ﴾ [البقرة] ولم يقُلْ . لا تأكلا ؛ لأن القرب من الشيء قد يُغرى بمزاولته ، فاحتطْ أنت لنفسك بعدم القرب منه .

وهذا التدريب لآدم فيه إشارة رمزية لكل تكليف من الله لخَلْقه في (افعل) و (لا تفعل) .

ثم يذكِّر الحق سبحانه آدم بالمقدمة العدائية التي حدثتْ بينه وبين إبليس ، وينصحه بأنْ يحذر هذا العدو ؛ لأنه أبى أنْ يسجد له لما أمره الله بالسجود استكباراً وعُتواً .

والله حين يأمر بالسجود لآدم إنما يريد السجود للأمر والانصياع له ، لا السجود لآدم في ذاته ؛ لذلك نجد الأمر من الله تعالى يختلف باختلاف المأمورين ، فمرة ينهى عن شيء ويأمر بمثله ليرى مدى انضباطك للأمر والنهي .

ففي الحج مثلاً ، يأمرك أنْ تُقبِّل حجراً ، وأنْ ترمي حجراً آخر وترجمه ، وهذا حجر وذاك حجر ، إذن : فالحجرية غير منظورة ، لكن المنظور فيه إلى الأمر أو النهي .

وبصرف النظر عن المصلحة أو الحكمة من الأمر أو النهي ، فمثلاً حينما يتعذر الماء يشرع التيمم بدلاً من الوضوء ، فيأتي مَنْ يقول :

الوضوء للنظافة ، فما النظافة في التيمم ، وهو يُلوِّث الجسم ؟

ونقول فَرْق بين النظافة والتطهير ، والمراد من التيمم التطهير بشيء هو أصل في مادتك وتكوينك ، فالمسألة انضباط في طاعة الأمر بأن تفعل شيئاً تجعله مقدمة لصلاتك ، كأنك لا تُقبل على الصلاة إلا بتهيئة ، وأيضاً لأن الصلاة بها قوام روحك وحياتك ، وحياتك في الأصل ومادتك من الماء الذي تستخدمه في الوضوء والتراب الذي تستخدمه في التيمم .

إذن : لهاتين المادتين رمزية يجب أنْ تُلحظ في الدخول على الله في الصلاة ، ولا يليق بالمؤمن أنْ يُفلسف أمور العبادات ويبحث عن علّتها والحكمة أو المصلحة من أدائها ، إنما يكفي أن يقول : علَّة هذا الأمر أن الله أمر به أنْ يفعل ، وعلة هذا الحكم أن الله أمر به ألاَّ يُفعل .

لذلك ورد عن الإمام علي رضي الله عنه أنه قال : لو كانت المسألة بالعقل لكان أسفل الخُفِّ أوْلَى بالمسح من أعلاه[1] ، إذن : المسألة طاعة والتزام للأمر وللنهي ؛ لذلك من غير المناسب أن تقول : إن من حكمة الصوم : أنْ يَشعر الغني بألم الجوع ، فيعطف على الفقير ؛ لأنني سأقول لك إذن : لماذا يصوم الفقير ؟

ولتوضيح هذه المسألة ضربنا مثلاً وما زلنا نكرره . قلنا : إن أعز شيء على المرء صحته ، فإنْ أصابته علة ، فأول ما يُعمل عقله

---

(١) عن علي رضي الله عنه قال : « لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أوْلَى بالمسح من أعلاه ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خفيه » أخرجه أبو داود في سننه (١٦٢) .

يبحث عن الطبيب المتخصص في مرضه فيذهب إليه ، ثم يسلم له نفسه ليفحصه ، ثم يكتب له الدواء فيأخذه ويتناوله دون أنْ يسأل عن علَّته ، أو لماذا وصفه الطبيب ، لماذا ؟

لأن الطبيب مؤتمن بعد أنْ تعلَّم ودرس وتخصَّص ، فأنت لا تسأله ولا تناقشه : لماذا كتب لك هذا الدواء ، وهو مع ذلك إنسان وعُرْضة للخطأ وللسهو وللنسيان ، ومع ذلك لا يناقش . إذن : علة تناول الدواء أن الطبيب وصفه لي ، وعلة كل أمر عند الآمر به .

والآمر في العبادات هو الحق - سبحانه وتعالى - فلا يليق بالمؤمن بعد أنْ آمن بالله وبحكمته وقدرته أنْ يبحث ليعلم الحكمة من كل أمر يأتيه من ربه عز وجل .

نعود إلى آدم - عليه السلام - وأن الجنة التي دخلها كانت للتدريب والتجربة ولم تكُنْ جنة الخلد ، تدرَّب فيها آدم على : كل (افعل) وعلى : لا تقرب (لا تفعل) واحذر الشيطان فإنه عدو لك ، وسوف يوسوس لك ، ويغويك ؛ لأنه لا يريد أنْ يكونَ عاصياً وحده ، يريد أنْ يجرك معه إلى حمأة المعصية .

وظل آدم وزوجته يأكلان كما قال تعالى من الجنة رغداً حيث شاءا ، دون أنْ يقربا هذه الشجرة التي بيَّنها الله لهما إلى أنْ وسوس لهما الشيطان وأغراهما بالأكل منها ، مع أن الله تعالى حذَّرهما ، وأعطاهما حقنة مناعة ضد الشيطان ووسوسته ، ومع ذلك حدثتْ من آدم الغفلة .

وهذه الغفلة الله يُنبِّه بها ذرية آدم من بعده : أن الشيطان لن يدعكم ، وسوف يدخل عليكم بألاعيبه وحيله ، كما دخل على أبيكم آدم ، فكونوا منه على حذر ، وابحثوا بعقولكم ما يلقيه إليكم من وساوس .

بالله ، ماذا قال إبليس لآدم حين أغواه بالأكل من الشجرة ؟ قال : ﴿ ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين (٢٠) ﴾ [الأعراف]

أليس من المنطق أن نقول : ولماذا لم تأكل أنت منها يا إبليس فتصير ملكاً ، وتصير من الخالدين ، ولا تتمحك فتقول : ﴿ فأنظرني إلى يوم يبعثون (٣٦) ﴾ [الحجر] إذن : كان على آدم أن يتنبه إلى مكايد الشيطان وألاعيبه .

ثم ينبهنا الحق - سبحانه وتعالى - من خلال هذه القصة إلى أن الشيطان سيأتينا في مقام الطاعة ، فلو أن آدم وزوجه ذهبا إلى هذه الشجرة وأكلا منها ما وسوس لهما ، فهذا دليل على أنهما احتاطا للأمر ، فلم يقربا من الشجرة تنفيذاً لأمر الله ؛ لذلك تدخَّل الشيطان .

إذن : نقول إن الشيطان لا يتدخل إلا في مجال الطاعة ، أما المعصية فصاحبها كفاه مؤنة الوسوسة ، الشيطان يذهب إلى المسجد لا يذهب إلى الخمارة ؛ لأن الذي يذهب إلى الخمارة صار شيطاناً في ذاته ، فما حاجته لإبليس ؟

لذلك يقول تعالى حكاية عن إبليس : ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم (١٦) ﴾ [الأعراف] أي : في مواضع الخير وطرق الصلاح والهداية لأبطل أعمالهم ، وأفسد عليهم أمرهم ، ونحن نلحظ ذلك في صلاتنا مثلاً ، فقد تنسى شيئاً ، وتحاول أن تتذكره فلا تستطيع ، وفجأة وأنت تصلي تتذكره .

فلو أننا أخذنا (الروشتة) من خالقنا عز وجل وبمجرد أن ينزغنا الشيطان نقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لتنبَّه الشيطان .

وعلم أننا لسنا فى غفلة ، وأننا نكشف ألاعيبه ، ونعرف حيله ، وصدق الله العظيم حين قال ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

وقد وصف الله الشيطان بأنه خنَّاس ، يعنى : إذا ذُكر الله خنس وتضاءل ، فإنْ جاءك هذا الخاطر الشيطانى - حتى وإنْ كنتَ تقرأ القرآن - قُلْ بجراءة وقوة : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ ليعلم أن ألاعيبه لا تخفى عليك فينصرف عنك ، أما أن تخضع له فإنه يعطيك فقط طرف الخيط ، ويفتح لك باباً يشغلك به ، ثم يتركك أنت (تكُرُّ) هذا الخيط من نفسك ، ويذهب هو (يستغفل) واحداً غيرك .

والشيطان رغم علْمه ، إلا أن فيه تغفيلاً بدليل أنه أعلن عن خطته ، وأظهر لنا مكايده قبل أنْ يكيدنا بها ، فقال : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف] وقال ﴿ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ .. (١٧) ﴾ [الأعراف] ، فالذى يدبر المكايد ويتآمر على غيره لا يعلن عن مكايده مُقدماً ، ونحن أيضاً كان علينا أنْ نحذر هذه المكايد خاصة ، وقد أعلن عدونا عنها .

ولك أنْ تلحظ فى خطة إبليس أنه يأتيك من جهاتك الأربع ، ومعلوم أن الجهات ست ، فلماذا لم يذكر فوقنا وتحتنا ؟ قالوا : لأن هاتين الجهتين محلُّ نظر إلى الله عز وجل ، فالعبد ينظر إلى عزّ الربوبية فى عليائه وذُلّ العبودية إذا اتجه فى سجوده إلى أسفل .

إذن : فأنت فى معية ربك فى هاتين الجهتين ، والشيطان لا ينال منك إلا وأنت بعيد عن معية ربك . ومثَّلْنا لذلك ، ولله المثل الأعلى ؛ قلنا : إن الغلام إذا كان يسير فى يد أبيه وفى صحبته ، لا يجرؤ أحد من أمثاله على الاعتداء عليه ، إنما إنْ سار وحده فهو عُرْضة للإيذاء .

وهذا دليل على علم إبليس وعلى ذكائه ، ونلحظ هذا أيضاً في قوله . ﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص] كأنه يقول لربه : أنا لا أقترب من عبادك الذين هم في حضانتك ، وفي معيتك .

والتغفيل الأكبر في إبليس أنه مع علمه بمقام ربه يتمرد على أمره ، حين يأمره بالسجود فلا يسجد .

إذن : نبَّه الله تعالى آدم وحذره من كَيْد إبليس ، وكان عليه أنْ يحذر وألاَّ تدخل عليه حيلة الأكل من الشجرة إلا أنه في غفلة منه عن أمر ربه أكل من الشجرة ، فلما خالف الأمر اختلفتْ طبيعته ، وبدَتْ له ولزوجه السَّوْءة ، وكانت المرة الأولى التي يشعر فيها آدم بعورته عند خروج الغائط .

لكن ، ما الفرق بين فتحة دخول الطعام (الفم) وفتحة خروجه ؟ ولماذا أصبحت هذه عورة ، وهذه غير عورة ؟

قالوا : لأن آدم حال طاعته لأمر ربه في الأكل من ثمار الجنة كان يأكل بطهي ربه ، وهو طهي بحكمة وبقدر معلوم ، يكفي مقومات الحياة ولا يزيد عنها ، لذلك لم يَبْق في بطن آدم فضلات ، ولم توجد عنده غازات أو أرياح ، فلم يشعر في هذه الحالة بحاجة إلى التغوط ، فكانت الفتحتان متساويتين ، هذه فتحة ، وهذه فتحة .

فلما خالف آدم أمر ربه وذاق الشجرة اختلفتْ الأغذية في بطنه ، وحدث لها تفاعلات ، ونتج عنها فضلات وأرياح ، ولما أحسَّ بها آدم نفر منها وأصابه الخجل ، وشعر أنها عورة ينبغي أنْ تُستر ، فالطبع السليم لا بُدَّ أنْ ينفر منها ؛ لذلك أخذ يزيل هذا الأذى عن نفسه ،

ويستره بأوراق الشجر ، ومنذ ذلك الحين لم يستطع آدم أن يسدَّ هذه الفتحة ، ولن تُسَدَّ .

إذن : الحق سبحانه جعل الدُّرْبة لآدم في الجنة هذه ، وهيَّأ له فيها طعامه ، ونهاه عن نوع بعينه[1] ، فأمره ونهاه وعلَّمه وحذَّره ، فلما وقع في المخالفة وأغواه الشيطان ، ولم يعمل بنصيحة ربه أخرجه إلى الأرض بهذه التجربة ، لتكون رمزاً له ولذريته من بعده : إنْ سِرْتَ على منهجي ووفَّقْ أوامري في (افعل) و (لا تفعل) فلن تجد عورة في الكون كله ، ونحن نرى ذلك فعلاً في حركة حياتنا في الكون ، فلا نرى عورة في المجتمع ولا خللاً إلا إذا خُولِفَتْ أوامر الله .

هذا هو الإتيان الأول ، بعد ذلك قدَّر الله غفلة البشر ، فأرسل إليهم الرسل بالمنهج ، فكان إتيان آخر ، كما قال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) ﴾ [النساء] وقال في عيسى عليه السلام : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ (٢٧) ﴾ [الحديد]

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) ﴾ [البقرة] قال ابن كثير في تفسيره (١/٧٩) « اختلف في هذه الشجرة ما هي ؟

- الكرم (العنب) . قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وغيرهما .
- الحنطة . زعمته اليهود
- التينة . قاله مجاهد وقتادة وابن جريج .
- السنبلة . قاله ابن عباس .
- النخلة . قاله أبو مالك
- البر . قاله وهب بن منبه .

قال ابن كثير : فهذه أقوال ستة في تفسير هذه الشجرة . قال الإمام العلامة أبو جعفر ابن جرير رحمه الله : والصواب في ذلك أن يقال : إن الله عز وجل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين ؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة ، وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه وإن جهله جاهل لم يضره جهله به .

وهذا الإيتاء من الله يتم في خفاء ؛ لذلك يُسمونه وحياً ، وهو من الغيبيات ، فالله تعالى لا يمدُّ يده فيعطي النبي أو الرسول شيئاً حسِّياً ، ومن هنا ارتبط الإيمان بالغيبيات دون المحسَّات ، فأنا لا أقول مثلاً : آمنتُ بأنني قاعد في مسجد الشيخ سليمان وأمامي جَمْع من الإخوة .. الخ . إذن : لا بُدَّ أنْ يكون الإيمان بأمر غيبي .

الحق - سبحانه وتعالى - يُؤتِي على توالي العصور أنبياءه معجزات ، ويؤتيهم منهجاً يسوس حركة الحياة ، ولا يقتصر إيتاء الله على الرسل ، إنما يؤتي غير الرسل ، ويؤتي الحيوان .. الخ .

ثم يعطينا الحق سبحانه نموذجاً للحكمة التي آتاها لقمان : ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ .. (١٢)﴾ [لقمان] هذه هي الحكمة الأولى في الوجود ؛ لأنك إنْ شكرتَ الله على ما قدَّم لك قبل أنْ توجد ، وعلى ما أعطاك قبل أن تسأل ، وعلى ما هدى جوارحك لتؤدي مهمتها حتى وأنت نائم ، كأنه تعالى يقول لعباده : ناموا أنتم فربكم لا تأخذه سنة ولا نوم .

فإن شكرك لله يهدم أول لبنة من لبنات الاغترار ، فالذي يفسد خلافة الإنسان في الأرض أنْ يغترَّ بما أعطاه الله وبما وهبه ، وينسى أنه خليفة ، ويعتبر نفسه أصيلاً في الكون ، والشكر لله تعالى يكون على ما قدَّم لك من نعم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النحل] أي : تشكر الله على ما سبق ، فقد وُلدتَ لا تعلم شيئاً ، ثم تكونت عندك آلات الإدراك والعلم ، فعلمتَ وملأت قلبك بالمعاني الجميلة ؛ لذلك تشكر الله عليها ، فجَعْل هذه الآلات لك ، علَّته أنْ تشكر أي : على ما مضى .

ثم هناك شكر آخر ، لا على ما فات ، لكن شكر هو في ذاته نعمة جديدة ، وتأمل في ذلك قول الله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٤٦)﴾ [الروم] هذه كلها نِعَم يعطف عليها بقوله ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦)﴾ [الروم]

فعطف الشكر على النعم السابقة يعني أنه في ذاته نعمة ، وإلا لقال كما في الآية السابقة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النحل]

والشكر بهذا المعنى هو المراد في قوله تعالى : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ .. (٧)﴾ [إبراهيم] فهذا شكر لما سبق ، وهذا شكر لما هو آتٍ .

والشكر في قوله تعالى ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ .. (١٢)﴾ [لقمان] مُوجه إلى الله تعالى ، فكيف إذا توجه الشكر في أسباب تناوله إلى غير الله ، كأنْ تشكر صاحبك الذي قدم لك معروفاً مثلاً ؟ قالوا : لو تأملتَ شكر غير الله ممن قدَّم لك معروفاً يستوجب الشكر لوجدته يؤول إلى شكر الله في النهاية .

لذلك قالوا : لا تشكر الله إلا حين تشكر مَنْ ساق لك الجميل على يديه ، يعني : جعله سبباً في قضاء حاجتك ، ثم إن الذي قدَّم لك جميلاً ، ما قدَّمه لك وما آثرك على نفسه إلا لأن الله أمره بذلك ، ودعاه إليه ، وأثابه على فعله ، فإذا سلسلتَ الشكر لانتهى إلى شكر الله تعالى .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢)﴾ [لقمان] علمنا أن الشكر لله هو أول الحكمة ، فلماذا ؟

لأن مَنْ يشكر تعود إليه ثمرة شكره .

وإياك أن تظن أن من مقومات قيومية ربك أنْ تشكره ، فشكْرك وعدمه سواء بالنسبة لله تعالى ، كيف وقد وسع سبحانه الكافر الذي كفر به ، ولم يقطع عنه نعمه ؛ ذلك لأنه سبحانه غني عن خَلْقه ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢)﴾ [لقمان] لأنه سبحانه يعرف أنه رب ، حتى للكافر الجاحد .

ونلحظ في الأسلوب هنا عظمة وروعة ، ففي الشكر قال سبحانه ﴿وَمَن يَشْكُرْ .. (١٢)﴾ [لقمان] أما في الكفر فقال ﴿وَمَن كَفَرَ .. (١٢)﴾ [لقمان] ولم يقل : ومَنْ يكفر ، وفَرْق بين الأسلوبين ، والكلام هنا كلام ربٍّ ، ففي الشكر جاء بالفعل المضارع ﴿يَشْكُرْ .. (١٢)﴾ [لقمان] الدال على الحال والاستقبال ، فالشكر متجدد ودائم على خلاف الكفر.

وكأنه - سبحانه وتعالى - لا يريد من عبده الدوام على كفره ، فلعله يتوب ويرجع إلى ساحة الإيمان ، فجاء بالفعل الماضي ﴿كَفَرَ .. (١٢)﴾ [لقمان] أي : في الماضي فحسب ، وقد لا يعود في المستقبل ، وهذا مظهر من مظاهر الإعجاز البياني في القرآن الكريم .

ومعنى ﴿حَمِيدٌ (١٢)﴾ [لقمان] من صيغ المبالغة على وزن « فعيل » وتأتي مرة بمعنى « فاعل » مثل رحيم ، ومرة بمعنى « مفعول » مثل قتيل أي : مقتول ، والمعنى هنا ﴿حَمِيدٌ (١٢)﴾ [لقمان] أي محمود وجاءت هذه الصفة بعد ﴿غَنِيٌّ .. (١٢)﴾ [لقمان] لأن الكافر لو كان يعلم أن الله لم يقطع عنه نعمه رغم كفره به لحمد هذا الإله الذي حلم عليه ، ولم يعامله بالمثل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾

يعطينا الحق سبحانه طرفاً من حكَم لقمان التى رواها القرآن الكريم : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان] قوله : ﴿ وَإِذْ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان] أى : اذكر يا محمد حين قال لقمان لابنه ، وتوجيه حكمة لقمان ونصيحته لابنه يدلُّنا على صدق ما رُوى عنه أنه كان يفتى الناس ويعظهم قبل سيدنا داود عليه السلام ، فلما جاء داود أمسك لقمان وقال : ألا أكتفى وقد كُفِيت ، ثم وجه نصائحه لمن يحب وهو ولده .

ولذلك ، فالإمام أبو حنيفة - رضوان الله عليه - عندما شكاه القاضى ابن أبى ليلى[1] إلى الخليفة أنه يفند شكاواه وأحكامه ، فأرسل إليه الخليفة بأنْ يترك الفتوى ، وبينما هو فى بيته إذ جاءته ابنته وقالت له : يا أبى حدث لى كذا وكذا - تريد أن تستفتيه - فماذا قال لها وهى ابنته ؟ قال : سلِى أخاك حماداً ، فإن أمير المؤمنين نهانى عن الفُتْيا .

وفَرْق بين أنْ يتكلم الإنسان مع عامة الخلْق ، وبين أنْ يتكلم مع

---

(١) هو : محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، الأنصارى الكوفى ، قاضٍ ، فقيه ، من أصحاب الرأى ، ولد ٧٤ هـ ، ولى القضاء والحكم بالكوفة لبنى أمية ، ثم لبنى العباس ، واستمر ٣٣ سنة ، له أخبار مع الإمام أبى حنيفة وغيره ، مات بالكوفة عام ١٤٨ هـ عن ٧٥ عاماً . (الأعلام للزركلى ٦/١٨٩) ، (تذكرة الحفاظ للذهبى ١/١٧١) .

ولده ، فالابن هو الإنسان الوحيد في الوجود الذي يودُّ أبوه أن يكون الابن أفضلَ وأحسن حالاً منه ، ويتمنى أن يُعوِّض ما فاته في نفسه في ولده ويتدارك فيه ما فاته من خير .

ومعنى ﴿وَهُوَ يَعِظُهُ .. (١٣)﴾ [لقمان] الوعظ : هو التذكير بمعلومة عُلمت من قبل مخافة أنْ تُنْسى ، فالوعظ لا يكون بمعلومة جديدة ، إنّما يُنبه غفلتك إلى شيء موجود عندك ، لكن غفلت عنه ، فهناك فَرْق بين عالم يُعلم ، وواعظ يعظ ، والوعظ للابن يعني أنه كان على علم أيضاً بالمسائل ، وكان دور الوالد أنْ يعظه ويُذكِّره .

ونلحظ في أسلوب الآية أن الله تعالى لما أخبر عنه قال ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ .. (١٣)﴾ [لقمان] ولما تكلم لقمان عن ابنه قال ﴿يَا بُنَيَّ .. (١٣)﴾ [لقمان] ولم يقل يا ابني ، فصغَّره تصغير التلطف والترقيق ، وليوحي له إنك لا تزال في حاجة إلى نصائحي ، وإياك أنْ تظن أنك كَبِرت وتزوجت فاستغنيتَ عني .

وأول عظة من الوالد للولد ﴿لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ .. (١٣)﴾ [لقمان] وهذه قمة العقائد ؛ لذلك بدأ بها ؛ لأنه يريد أنْ يُصحِّح له مفهومه في الوجود ، ويلفت نظره إلى أن الأشياء التي نعم بها آباؤك وأجدادك لا تزال تعطي في الكون ، ومن العجيب أنها باقية ، وهي تعطي في حين يموت المعطَى المستفيد بها .

وتأمل منذ خلق الله الكون كم جيل من البشر انتفع بالشمس ؟ ومع ذلك اندثروا جميعاً ، وما زالت الشمس باقية ، كذلك القمر والهواء والجبال .. الخ . فكيف وأنت سيد هذا الكون يكون خادمك أطول عمراً منك ؟

إذن : على العاقل أن يتأمل ، وعلى الإنسان الذي كرَّمه الله على

سائر المخلوقات أن يقول : لا بُدَّ أن لى عمراً أطول من عمر هذه المخلوقات التى تخدمنى ، وهذا لا يتأتى إلا حين تصل عمرك فى الدنيا بعمرك فى الآخرة ، وهذا يستدعى أن تؤمن بالله وألاَّ تشرك به شيئاً ، فهو وحده سبحانه الذى خلق لك هذا كله ، وأعدَّه لخدمتك قبل أن توجد .

واقرأ : ﴿هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ..(١١)﴾[لقمان]

فكيف تدعى أن لله شركاء فى الخَلْق ، وهم أنفسهم لم يدَّعوا أنهم آلهة ، أو أنهم خلقوا شيئاً فى كون الله ؟ كيف وأنت تسير فى الصحراء ، فترى الحجر يعجبك فتأخذه وتُسوِّيه وتجعله إلهاً ولو هبَّتْ الريح لأطاحتْ به ؟

ثم ما المنهج الذى جاءتكم به هذه الآلهة بِمَ أمرتكم وعَمَّ نهتكم ؟ ماذا أعدت من نعيم لمن عبدها ، وماذا أعدَّت من عذاب لمن كفر بها ؟ إذن : فهذه آلهة بلا تكليف ، والعبادة فى حقيقتها أنْ يطيع العابد أمر معبوده ، إذن : هى آلهة باطلة لا يخفى بطلانها على العاقل .

لذلك يقول لقمان ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان] نعم الشرك ظلم ؛ لأن الظلم يعنى : نَقْل حق الغير إلى الغير ، وقمة الظلم ومنتهاه أن تأخذ حق الله ، وتعطيه لغير الله ، ألا ترى أن الصحابة ضجُّوا لما نزل قوله تعالى[1] : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَـٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢)﴾ [الأنعام]

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ .. (٨٢)﴾ [الأنعام] شق ذلك على الناس فقالوا : يا رسول الله وأينا لم يظلم نفسه ؟ قال : « إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا العبد الصالح ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان] إنما هو الشرك » حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٧٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٢٤) كتاب الإيمان .

وقالوا : يا رسول الله ، ومَنْ منا لم يخالط إيمانه ظلم ؟ فهدَّأ رسول الله من رَوْعهم وطمأنهم أن المراد بالظلم هنا ظلم القمة أى : الشرك بالله ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣ ﴾ [لقمان]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ۝١٤ ﴾

أهذه وصية من وصايا لقمان لابنه ، أم هى كلام جديد من الله تعالى جاء فى سياق كلام لقمان ؟ قالوا[1] : هو من كلام الحق تبارك وتعالى ، بدليل قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا .. ۝١٥ ﴾ [لقمان]

ومن التكريم للقمان أن الله تعالى ساق هذه الوصية بعد وصيته لابنه ، فجاءت وكأنها حكاية عنه .

ومعنى ﴿ وَوَصَّيْنَا .. ۝١٤ ﴾ [لقمان] يعنى : علّمنا ووعظنا ، وهما يدلان على معلومات تبتدىء بعلمنا ويذكر بها فى وعظنا ، ويُوفَّى بها

---

(١) قيل : إن هذا مما أوصى به لقمان ابنه ، أخبر الله به عنه ، أى : قال لقمان لابنه : لا تشرك بالله ولا تطع فى الشرك والديك ، فإن الله وصى بهما فى طاعتهما مما لا يكون شركاً ومعصية لله تعالى .
وقيل : وإذ قال لقمان لابنه لا تشرك ، ونحن وصينا الإنسان بوالديه حسناً ، وأمرنا الناس بهذا ، وأمر لقمان به ابنه .
قال القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥٣٢٠) : « ذكر هذه الأقوال القشيرى ، والصحيح أن هاتين الآيتين نزلتا فى شأن سعد بن أبى وقاص وعليه جماعة المفسرين »

حين جمعنا كل الخير فى كلمة واحدة ؛ لذلك فالنبى ﷺ عندما خطب الناس فى حجة الوداع[1] ذكر أمهات الفضائل ، لماذا ؟ لأنه آخر كلامه إليهم ، والموقف لا يناسب أنْ يذكر فيه تفاصيل الدين كله ، فاكتفى بذكر أسسه وقواعده ، كالرجل منَّا حين تحضره الوفاة يجمع أولاده ، ويوصيهم ، فيختار الأمور الهامة والخلاصة فى أضيق نطاق.

الله تعالى يقول : ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ .. (١٤)﴾ [لقمان]

والوصية بالوالدين بالذات أخذتْ رقعة واسعة فى كتاب الله ، فى هذه الآية ذكر علة الوصية ، فقال ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ .. (١٤)﴾ [لقمان]

وفى خمس آيات أخرى وردتْ كلمة (إحساناً) ، فى قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٨٣)﴾ [البقرة]

وفى سورة النساء : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٣٦)﴾ [النساء]

وفى الأنعام : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (١٥١)﴾ [الأنعام]

وفى الإسراء : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. (٢٣)﴾ [الإسراء]

---

(١) وذلك أن رسول الله ﷺ قال فى خطبة هذه الحجة : أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم ، فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تُظلمون .. » الخطبة بتمامها أوردها ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/٦٠٣ ، ٦٠٤) .

وفي الأحقاف : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. (١٥) ﴾ [الأحقاف]

وفي آية واحدة وردت كلمة (حسناً) في سورة العنكبوت : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا .. (٨) ﴾ [العنكبوت]

وفي آية واحدة أيضاً جاءت الوصية بالوالدين دون ذكر لهاتين الكلمتين : (حُسْناً وإحساناً) في الآية التي نحن بصدد الحديث عنها .

لكن ، ما الفرق بين (إحساناً) و (حُسناً) ؟ الفرق أن الإحسان مصدر أحسن ، وأحسن حدث ، تقول : أحسن فلان إحساناً . أما حُسناً فمن الحسن وهو المصدر الأصيل لهذه المادة كما تقول : فلان عادل ، فوصفته بالعدل ، فإنْ أردتَ أنْ تبالغ في هذا الوصف تقول : فلان عَدْل أي : في ذاته ، لا مجرد وَصْف له .

إذن : فحُسْناً آكد في الوصف من إحساناً ، فلماذا جاءت في هذه الآية بالذات : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا (٨) ﴾ [العنكبوت] قالوا : لأن هذه الآية تتعرض لمسألة صعبة تمسُّ قمة العقيدة ، فسوف يطلب الوالدان من الابن أنْ يشرك بالله .

لذلك احتاج الأمر أنْ نوصي الابن بالحُسْن في ذاته ، وفي أسمى توكيداته فلم يقُلْ هنا (إحْسَاناً) إنما قال (حُسْناً) حتى لا يظن أن دعوتهما إياه إلى الشرك مبرر لإهانتهما ، أو التخلي عنهما ؛ لذلك يُعلِّمنا ربنا : ﴿ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا (١٥) ﴾ [لقمان]

وإنْ كانت الوصية هنا بالوالدين إلا أن حيثيات الوصية خاصة بالأم ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ (١٤) ﴾ [لقمان] فلم

يذكر شيئاً عن دور الأب ، لماذا ؟ قالوا : لأن الكلام هنا كلام رب ، وما عليك إلا أنْ تُعمل فيه فكرك وقلبك لتصل إلى دقائقه .

الله تعالى يُذكِّرنا هنا بدور الأم خاصة ، لأنها تصنع لك وأنت صغير لا تدرك صُنْعها ، فهو مستور عنك لا تعرفه ، أما أفعال الأب وصنعه لك فجاء حال كِبَرك وإدراكك للأمور من حولك ، فالابن يعرف ما قدَّم أبوه من أجله .

فكأن أفعال الأب وُجدت حين تم تكوين العمر العقلي الواعي ، ففهم الابن ما فعل أبوه ، وكثيراً ما سمع الابن : أبوك ذهب إلى كذا ، أبوك أحضر لك كذا ، وهذا الأمر عندما يأتي أبوك .. الخ ، فدوْر الأب ظاهر على خلاف دور الأم ؛ لذلك ذكره الحق تبارك وتعالى هنا ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ (١٤)﴾ [لقمان]

ويأتي مَنْ يقول : أليس الابن نتيجة التقاء الأب والأم ، فهما فيه سواء ؟ ونقول . بلى ، لكن مشقة الأم فيه أوضح أثناء الحمل وعند الولادة ، ولولا أن الله تعالى ربط النسل بالشهوة لَزهِدَ الناس فيه لما تتحمله الأم من مشاق ، ولما يتحمله الأب من تبعات الأولاد .

ونعرف قصة المرأة التي ذهبت تقاضي زوجها لأنه يريد أنْ يأخذ ولدها منها ، فقالت للقاضي وقد قال لها : أليس الولد ولدكما معاً ؟ قالت : بلى ، ولكنه حمله خفّاً ووضعه شهوة ، وحملته وهناً على وهن ، فحكم لها .

ومعنى : ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ .. (١٤)﴾ [لقمان] أي : ضعفاً على ضعف ، والمرأة بذاتها ضعيفة ، فاجتمع لها ضعفها الذاتي مع ضعف بسبب الجنين الذي يتغذى منها ، ويكبر في أحشائها يوماً بعد يوم ؛ لذلك قلنا . إن من حكمة الله تعالى في خَلْق الرحم أنْ جعله قابلاً

للتمدد والاتساع ليحتوى الجنين فى مراحل الحمل المختلفة إلى أنْ يزيد الجنين زيادةً لا يتحملها اتساع الرحم فينفجر إيذاناً بولادة إنسان جديد وخَلْق آخر كما قال تعالى : ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ⑭﴾ [المؤمنون]

فالجنين كان خَلْقاً تابعاً لأمه في غذائه وفي تنفسه وحركته ، لكن حينما جاء أمر الله وإذن بميلاده أنشأه خَلْقاً آخر له مُقوِّمات حياة مستقلة غير متصل بأمه .

ويقولون في هذه العملية (القرن طش) كما تنفجر البالونة إذا نُفخت لدرجة أكثر مما تتحمل ، ومن العجيب أن الرحم يتسع بقدرة الله لعدة توائم كما نرى ونسمع .

ومن عظمة الخالق سبحانه في مسألة الرزق أن رزق الجنين يأتيه منفصلاً عن رزق أمه ، فلكل منهما رزق لا يأخذه الآخر ، ومعلوم أن المرأة حين يُقدَّر لها حَمْلٌ ينقطع عنها الدم الذى كان ينزل بصفة دورية حال فراغ الرحم من الحمل ، هذا الدم هو الذى جعله الله غذاءً للجنين الجديد .

أما إذا لم يُقدَّر لها حمل فإنَّ جسمها يطرد هذا الدم ويتخلص منه ولا يستفيد به ، لماذا ؟ لأنه ليس غذاءها ، وكأن الخالق - عز وجل - يُنبِّهنا أن لكل منا رزقه الذى لا يتعدَّاه إلى غيره .

وأيضاً من حكمته تعالى فى وَضْع الجنين فى بطن أمه عند الولادة أنْ ينزل برأسه ، وهذا هو الوضع الطبيعي لولادة طفل سليم ؛ لأن أول ضروريات الحياة للطفل ساعةَ ينفصل عن أمه أنْ يتنفس ، فإذا نزل برأسه - وهذا الوضع يحاول أطباء الولادة التأكد منه - استطاع التنفس حتى وإنْ تعسر نزول باقى جسمه ، أمَّا إنْ نزل

الطفل بعكس هذا الوضع فإنه يختنق ويموت قبل أنْ يتم نزوله .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ .. (١٤)﴾ [لقمان] الفصال : أى الانفصال عن الأم في مسألة الرضاعة ، ومنه : يسمون ولد الناقة الذى استغنى عن لبنها : الفصيل أى الذى فُصِل عن أمه ، وأصبح قادراً على أنْ يأكل ، وأن يعيش دون مساعدتها ، وحتى عملية فصال الولد عن أمه فيها مشقة وألم للأم .

أما العملية الجنسية التى أثمرتْ الولد فكانت شركة بينهما ، وبذلك لا بُدَّ أن نعترف أن للأم الدور الأكبر وعليها العبء الأكبر فى مسألة الأولاد ؛ لذلك كان لها الحظ الأوفر فى وصية النبى ﷺ للصحابى الذى سأله : مَنْ أحق الناس بحُسْن صحابتى يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أبوك[1] ، فأعطى كلاً منهما على قدر ما قدَّم .

ومسألة الفصال هذه شُرحت فى آيات أخرى ، ففى سورة البقرة : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ .. (٢٣٣)﴾ [البقرة] وهذه تؤكد ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ .. (١٤)﴾ [لقمان]

وفى آية أخرى تجمع الحمل والرضاعة معاً : ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. (١٥)﴾ [الأحقاف] وبخصم العامين من الثلاثين شهراً يكون الباقى ستة أشهر ، وهى أقلّ مدة للحمل .

وهذه المسألة اعتمد عليها الإمام على ـ رضى الله عنه ـ حينما

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩٧١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٥٤٨) كتاب البر والصلة ، من حديث أبى هريرة قال : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، من أحق بحسن صحابتى ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال . ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : ثم أبوك » .

رأى عُمَر رضي الله عنه يريد أن يُقيم الحد على امرأة ولدتْ لستة أشهر ؛ لأنه يعتقد أن مدة الحمل تسعة أشهر ، فقال لعمر : يا أمير المؤمنين ، الله يقول غير ذلك ، فقال : وماذا يقول الله ؟ فذكر عليٌّ الآيتين السابقتين[1] :

﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. (١٥)﴾ [الأحقاف]

والأخرى : ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤)﴾ [لقمان]

ثم بيَّن له عليٌّ أن أقلَّ مدة للحمل بناءً على هاتين الآيتين ستة أشهر ، فقال عمر : بئس المقام بأرض ليس فيها أبو الحسن[2] .

وقوله تعالى : ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤)﴾ [لقمان] فالله تعالى هو المستحق للشكر أولاً ؛ لأنه سبحانه هو الذى أنشأ من عدم ، وأمدَّ من عُدْم ، ثم الوالدان لأنهما السبب فى الإيجاد وإنشاء الولد .

فكأن الحق سبحانه مسبِّب أعلى ؛ لأنه خلق من لا شيء ، والوالدان سبب من أسباب الله فى الوجود . إذن : لا تُحسن شكر الله

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٤/١٥٧) : « قد استدل على رضي الله عنه بهذه الآية ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. (١٥)﴾ [الأحقاف] مع التي في لقمان ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ .. (١٤)﴾ [لقمان] على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر وهو استنباط قوى صحيح ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة .

(٢) أخرج الحاكم فى مستدركه (١/٤٥٧) والبيهقى في شعب الإيمان عن أبي سعيد الخدرى قال « حججنا مع عمر رضي الله عنه ، فلما دخل الطواف استقبل الحجر فقال : إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، وهو حديث طويل وفيه أن عمر رضي الله عنه قال : « أعوذ بالله تعالى أن أعيش فى قوم لست فيهم يا أبا الحسن » ، وذلك بعد أن قال له على : بل إنه يضر وينفع !! أليس يشهد يوم القيامة لمن قبله ؟

الخالق الأول والمسبِّب الأعلى حتى تُحسِن شكر الوالدين ، وهما السبب الثاني في وجودك .

فقوله سبحانه : ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤)﴾ [لقمان] أي : على الإيجاد ، لكن في موضع آخر : ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)﴾ [الإسراء] وهذه للإيجاد وللتربية وللرعاية ، فكما أن هناك أبوةً للإيجاد هناك أبوة للتربية ، فكثيراً ما تجد الطفل يربيه غير أبيه وغير أمه ، ولا بُدَّ أنْ يكون لهؤلاء نصيب من الشكر ومن الولاء والبرِّ ما دام أن الله تعالى ذكرهم في العلة ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤)﴾ [الإسراء]

والعلة تدور مع المعلول وجوداً وعدماً ، فإذا لم يكُنْ للأب الحقيقي وجود ، فالأبوة لمن ربَّى ، وله نفس حقوق الأب من حيث الشكْر والبر والمودة ، بل ينبغي أن يكون حقُّه مضاعفاً ؛ لأن في الأب الحقيقي عطف البُضع على البُضع ، وفي الأب المربِّي عطف الدين على الدين ، وهذه مسألة أخرى غير مجرد الأبوة .

لكن ، هل شكر الله أولاً دُرْبة على أنْ تشكر الوالدين ، وهما السبب المباشر في وجودك ؟ أم أن شكرَ الوالدين دربةٌ على أن تشكر الله الذي خلقك وأوجدك ؟ نقول : هما معاً ، فشُكْر الله يستلزم شكْر الوالدين ، وشكر الوالدين ينتهي إلى شُكْر الله .

وقوله : ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤)﴾ [لقمان] أي : المرجع ، والمعنى : أنني أوصيك بأهم شيء فاحذر أنْ تخالف وصيتي ؛ لأنني أقدر على أنْ أعاقب مَنْ خالف .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

يؤكد الحق سبحانه على أمر الوالدين ، وكأنه سبحانه استدرك غير مُستدَرك ، فليس لأحد أنْ يستدرك على الله ، وكأن واحداً كان يناقش رسول الله ﷺ في أمر الوالدين وما نزل في شأنهما ، فسأل : كيف لو أمراني بالكفر ، أأكفر طاعةً لهما ؟ لذلك جاء الحكم من الله في هذه المسألة .

وفي آية العنكبوت : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) ﴾ [العنكبوت]

---

(١) سبب نزول الآية : قال سعد بن أبي وقاص : نزلت فيَّ هذه الآية ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥) ﴾ [لقمان] كنت رجلاً براً بأمي ، فلما أسلمتُ قالت : يا سعد ، ما هذا الذي أراك قد أحدثت ؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتُعيَّر بي ، فيقال يا قاتل أمه . قلت : يا أمه لا تفعلي فإني لا أدع ديني هذا لشيء ، فمكثت يوماً وليلة لا تأكل ، فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوماً آخر وليلة وقد اشتد جهدها ، فلما رأيت ذلك قلت : يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء ، فإن شئت فكلي وإن شئت فلا تأكلي ، فلما رأت ذلك أكلت ، فنزلت هذه الآية . أورده السيوطي في الدر المنثور (٦/٥٢١) وعزاه لأبي يعلى والطبراني وابن مردويه وابن عساكر عن أبي عثمان النهدي .

فذكر فيها (حُسْنًا) ولم يقل فيها ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥)﴾ [لقمان] فكأن كلمة الحُسْن ، وهي الوصف الجامع لكلِّ مدلولات الحُسْن أغنتْ عن المصاحبة بالمعروف .

ومعنى ﴿جَاهَدَاكَ .. (١٥)﴾ [لقمان] نقول : جاهد وجهد ، جهد أي في نفسه ، أما جاهد ففيها مفاعلة مع الغير ، نقول : جاهد فلان فلاناً مثل قاتل ، فهي تدل على المشاركة في الفعل ، كما لو قلت : شارك عمرو زيداً ، فكل منهما فاعل ، وكل منهما مفعول ، لكن تغلب الفاعلية في واحد ، والمفعولية في الآخر .

فمعنى ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ .. (١٥)﴾ [لقمان] لا تعني مجرد كلمة عَرَضاً فيها عليك أن تشرك بالله ، إنما حدث منهما مجهود ومحاولات لجذبك إلى مجاراتهما في الشرك بالله ، فإن حدث منهما ذلك فنصيحتي لك ﴿فَلا تُطِعْهُمَا .. (١٥)﴾ [لقمان]

ثم إياك أنْ تتخذ من كفرهما ودعوتهما لك إلى الكفر سبباً في اللدد معهما ، أو قطع الرحم ، فحتى مع الكفر يكون لهما حق عليك ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥)﴾ [لقمان] ثم إنهما كفرا بي أنا ، وأنا الذي أوصيك بهما معروفاً .

وقوله تعالى : ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ .. (١٥)﴾ [لقمان] أي : لن تكون وحدك ، إنما سبقك أناسٌ قبلك تابوا وأنابوا فكُنْ معهم ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ .. (١٥)﴾ [لقمان] أي : مأواكم جميعاً .

قالوا : إن هذه الآية نزلت في سعد بن أبي وقاص ، الذي قال

فيه رسول الله ﷺ : « خالي سعد ، فليُرني امرؤ خاله »[1] ولما أسلم سعد غضبت أمه[2] ـ وكانت شديدة الحب له ـ فكادت تُجَنُّ وحلفتْ لا تأكل ولا تشرب ولا تغتسل ، وأنْ تتعرَّى فى حَرِّ الشمس حتى يرجع عن دينه ، فلما علم سعد بذلك قال : دعوها والله لو عضَّها الجوع لأكلتْ ، ولو عضَّها العطش لشربتْ ، ولو آذاها القمل لاغتسلتْ ، أما أنا فلن أحيد عن الدين الذى أنا عليه ، فنزلت ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ .. (١٥)﴾ [لقمان]

ولو أن الذى يكفر بالله ويريد لغيره من المؤمنين أنْ يكفر معه كابن أو غيره ، ثم يرى وصية الله به رغم كفره لعلم أن الله تعالى رب رحيم لا يستحق منه هذا الجحود .

وسبق أن ذكرنا الحديث القدسى الذى قالت فيه الأرض : « رب ائذن لى أنْ أخسف بابن آدم ، فقد طعم خيرك ، ومنع شكرك ، وقالت السماء : رب ائذن لى أن أسقط كسفاً على ابن آدم فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : ياً رب ائذن لى أن أغرق ابن آدم فقد طعم خيرك ، ومنع شكرك .. الخ ، فقال الحق تبارك وتعالى : لو خلقتموهم لرحمتموهم »[3] .

---

(١) ذكره ابن حجر العسقلانى في « الإصابة » (ترجمة ٣١٨٧) وعزاه للترمذى من حديث جابر قال : أقبل سعد فقال النبى ﷺ : « هذا خالى فليرنى امرؤ خاله » . وأخرجه الحاكم فى مستدركه (٤٩٨/٣) وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وابن سعد فى الطبقات (١٢٨/٣) .

(٢) هى : حمنة بنت سفيان بن أمية قال ابن حجر العسقلانى فى « الإصابة فى تمييز الصحابة » (ترجمة ٣١٨٧) فى ترجمة ابنها سعد . « هى بنت عم أبى سفيان بن حرب ابن أمية » .

(٣) أورده الإمام الغزالى فى إحياء علوم الدين (٥٢/٤) من قول بعض السلف ولفظه « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات » .

ذلك لأنهم عباد الله وصَنْعته ، وهل رأيتم صاحب صنعة يُحطِّم صنعته ، وجاء في الحديث النبوي « الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره ، وقد أضله في أرض فلاة »[1] .

إذن : فنِعْمَ الرب هو .

ويُروى أن سيدنا إبراهيم – عليه السلام – جاءه ضيف ، فرأى أن سَمْتَه غير سَمْت المؤمنين ، فسأله عن دينه فقال : إنه من عُبَّاد النار ، فردَّ إبراهيم الباب في وجهه ، فانصرف الرجل ، فعاتب الله نبيه إبراهيم في شأن هذا الرجل فقال : يا إبراهيم ، تريد أن تصرفه عن دينه لضيافة ليلة ، وقد وَسِعْتُه طوال عمره ، وهو كافر بي ؟

فأسرع إبراهيم خلف الرجل حتى لحق به ، وأخبره بما كان من عتاب الله له ، فقال الرجل : نِعْم الرب ربٌّ يعاتب أحبابه في أعدائه ، ثم شهد ألاَّ إله إلا الله .

فلو أن الكافر الذي يريد الكفر لغيره يعرف أن الله يوصي به وهو كافر ، ويُرقِّق له القلوب لَعاد إلى ساحة الإيمان بالله ؛ لذلك كثيراً ما نقابل أصحاب ديانات أخرى يعشقون الإسلام فيختارونه ، فيغضب عليهم أهلهم فنقول للواحد منهم : كُنْ في دينك الجديد أبرَّ بهم من دينك القديم ، ليعلموا محاسن دينك ، فضاعف لهم البر ، وضاعف لهم المعروف ، لعل ذلك يُرقِّق قلوبهم ويعطفهم نحو دينك .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٣٠٩) وكذا مسلم في صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه . وفي لفظ عند مسلم « لله أشد فرحاً بتوبة عبده ، حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح . اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » .

وتأمل عظمة الأسلوب في ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .. (١٥)﴾ [لقمان] فلم يقل مثلاً أعطهم معروفاً ، إنما جعل المعروف مصاحبة تقتضي متابعتهما وتفقُّد شأنهما ، بحيث يعرف الابن حاجة أبويْه ، ويعطيهما قبل أنْ يسألا ، فلا يلجئهما إلى ذُلّ السؤال ، وهذا في ذاته إحسان آخر .

كالرجل الذي طرق بابه صديق له ، فلما فتح له الباب أسرَّ له الصديق بشيء فدخل الرجل وأعطى صديقه ما طلب ، ثم دخل بيته يبكي فسألته زوجته : لم تبكي وقد وصلْته ؟ فقال : أبكي لأنني لم أتفقد حاله فأعطيه قبل أن يذلَّ نفسه بالسؤال .

والحق - تبارك وتعالى - حين يقول بعد الوصية بالوالدين : ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥)﴾ [لقمان] إنما ليثبهنا أن البرَّ بالوالدين ومصاحبتهما بالمعروف لن يُنسى لك ذلك ، إنما سيُكتب لك ، وسيكون في ميزانك ؛ لأنك أطعتَ تكليفي وأمري ، وأدَّيْتَ ، فلك الجزاء لأنك عملتَ عملاً إيمانياً لا بُدَّ أن تُثاب عليه .

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ
فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ
يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦)﴾

﴿يَٰبُنَيَّ .. (١٦)﴾ [لقمان] نداء أيضاً للتلطف والترقيق ﴿إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ .. (١٦)﴾[لقمان] يريد لقمان أن يدل ولده على صفة من صفات الحق سبحانه ، هي صفة العلم المطلق الذي لا تخفى عليه خافية ، وكأنه يقول له : إياك أن تظن أن ما يخفى على الناس

يخفى على الله تعالى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك]

وكما أن الله تعالى لا يخفى عليه مثقال حبة من خردل ، حتى إن كانت فى باطن صخرة ، أو فى السموات ، أو فى الأرض ، كذلك لا تخفى عليه حسنة ولا سيئة مهما دَقَّتْ ، ومهما حاول صاحبها إخفاءها .

وقلنا : إن المستشرقين وقفوا عند مسألة علم الله الخفى بخفايا خَلْقه ، وعند قوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ١١٠﴾ [الأنبياء] يقولون : الله يمتنُّ بعلم ما نكتُم ، فكيف يمتنُّ بعلم الجهر ، وهو معلوم للجميع ؟

ونقول : الحق سبحانه فى قوله . ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ١١٠﴾ [الأنبياء] لا يخاطب فرداً ، إنما يخاطب جماعة ، فهو يعلم جَهْر الجماعة فى وقت واحد ، ومثَّلْنا لذلك بمظاهرة مثلاً ، فيها الآلاف من البشر يهتفون بأصوات مختلفة وشعارات شتى ، منها ما يعاقب عليه القانون ، فهل تستطيع مع اختلاط الأصوات وتداخلها أنْ تُميِّز بينها ، وتُرجع كل كلمة إلى صاحبها ؟

إنك لا تستطيع ، مع أن هذا جهر يسمعه الجميع ، أما الحق ـ تبارك وتعالى ـ فيعلم كل كلمة ، ويعلم مَنْ نطق بها ويردّ كل لفظ إلى صاحبه . إذن : من حقه تعالى أن يمتنَّ بعلم الجهر ، بل إن عِلْم الجهر أعظم من علْم السرِّ وأبلغ .

وقوله تعالى ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ .. ١٦﴾ [لقمان] أى : وزن حبة الخردل ، وكانت أصغر شىء وقتها ، فجعلوها وحدة قياس للقلة ، وليس لك الآن أن تقول : وهل حبة الخردل أصغر شىء فى

الوجود ؟ فالقرآن ذكرها مثالاً للصِّغَر على قدر معرفة الناس بالأشياء عند نزوله ، أما من حيث التحقيق فقد ذكر القرآن الذرة والأقلّ منها .

لذلك لما اخترعوا فى ألمانيا أسطوانة تحطيم الجوهر الفرد (أى الجزء الذى لا يتجزأ) ، واستطاعوا تفتيت الذرة ، ظنوا أن فى هذه العملية مأخذاً على القرآن ، فقد ذكر القرآن الذرة ، وجعلها مقياساً دينياً فى قوله تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾ [الزلزلة] لكن لم يذكر الأقلّ منها ، ومعلوم أن الجزء أصغر من كله .

ونقول : قرأتم شيئاً وغابت عنكم أشياء ، ولو كان لديكم إلمام بكلام الله لعلمتم أن فيه احتياطاً لما توصلتم إليه ، ولما ستتوصلون إليه فيما بعد ، واقرأوا إن شئتم قول الله تعالى عن الذرة : ﴿وَلا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١)﴾ [يونس]

بل نقول : إن الاحتياط هنا احتياط مركب ، فلم يقل صغير إنما قال (أصغر) وهذا يدل على وجود رصيد فى كلام الله لكل مُفتَّت من الذرة .

وقوله : ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ .. (١٦)﴾ [لقمان] ﴿فِي صَخْرَةٍ .. (١٦)﴾ [لقمان] أى : على حبكة الوجود ، وفى أضيق مكان ﴿أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ .. (١٦)﴾ [لقمان] يعنى : فى المتسع الذى لا حدود له ، فلا فى الضيِّق المحكم ، ولا فى المتسع يخفى على الله شىء ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ .. (١٦)﴾ [لقمان] واستصحب حيثيات الإتيان بها بوصفين لله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦)﴾ [لقمان]

وجمع بين هاتين الصفتين ؛ لأنك قد تكون خبيراً بالشيء عالماً بمكانه ، لكنك لا تستطيع الوصول إليه ، كأنْ يكون في مكان ضيق لا تنفذ إليه يدك ، وعندها تستعين بآلة دقيقة كالملقاط مثلاً ، فالخبرة موجودة ، لكن ينقصك اللطف في الدخول .

والحق - سبحانه وتعالى - لطيف ، فمهما صَغُرت الأشياء ودقَّتْ يصل إليها ، فهو إذن عليم خبير بكل شيء مهما صغر ، قادر على الإتيان به مهما دقَّ ؛ لأنه لطيف لا يمنعه مانع ، فصفة اللطف هذه للتغلغل في الأشياء .

ونحن نعلم أن الشيء كلما دقَّ ولَطُف كان أعنف حتى في المخلوقات الضارة ، وسبق أن أوضحنا هذه المسألة بِمَنْ بنى بيتاً في الخلاء ، وأراد أنْ يُؤمِّن نوافذه من الحيوانات والحشرات الضارة ، فوضع على النوافذ شبكة من الحديد تمنع اللصوص والحيوانات الكبيرة ، ثم تذكّر الفئران والثعابين فضيَّق الحديد ، ثم تذكَّر الذباب والناموس فاحتاج إلى شيء أضيق وأدقَّ ، إذن : كلما كان عدوك لطيفاً دقيقاً كان أعنف ، واحتاج إلى احتياط أكثر .

فقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦)﴾ [لقمان] يعني : لا يعوزه علم بالمكان ، ولا سهولة ويُسْر في الوصول إلى الأشياء .

كانت هذه بعض وصايا لقمان ومواعظه لولده ، ولم يأمره حتى الآن بشيء من التكاليف ، إنما حرص أنْ يُنبهه : أنك قد آمنت بالله وبلغك منهجه واستمعت إليه ، فأطع ذلك المنهج في افعل ولا تفعل ، لكن قبل أنْ تباشر منهج ربك في سلوكك اعلم أنك تتعامل مع إله قيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يغيب عنه شيء ، فادخل على المنهج بهذا الاعتقاد .

وإياك أنْ تتغلَّب عليك شبهة أنك لا ترى الله ، فإنك إنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك ، واعلم أن عملك محسوب عليك ، وإنْ كان في صخرة صماء ضيقة ، أو في سماء ، أو في أرض شاسعة .

ويؤكد هذه المسألة قوله تعالى في الحديث القدسي : « يا عبادي : إنْ كنتم تعتقدون أني لا أراكم فالخلل في إيمانكم ، وإنْ كنتم تعتقدون أنّي أراكم ، فلِمَ جعلتموني أهونَ الناظرين إليكم ؟ »[1] .

بعد ذلك يدخل لقمان في وعظه لولده مجال التكليف ، فيقول له :

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾

هذه مسائل أربع بدأها لقمان بإقامة الصلاة ، والصلاة هي الركن الأول بعد أنْ تشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وعلمنا أن الصلاة لأهميتها فُرِضت بالمباشرة ، ولأهميتها جُعِلت ملازمة للمؤمن لا تسقط عنه بحال ، أما بقية الأركان فقد تسقط عنك لسبب أو لآخر ، كالصوم والزكاة والحج ، فإذا سقطت عنك هذه الأركان لم يبْقَ معك إلا الشهادتان والصلاة ؛ لذلك جعلها النبي ﷺ عماد الدين[2] .

---

(١) ثبتت جملة من هذا الحديث على لسان بعض العارفين ، حيث جاء في حلية الأولياء (١٤٢/٨) أن رجلاً قال لوهيب بن الورد : عظني ، قال : اتق الله أن يكون الله أهون الناظرين إليك .

(٢) حديث . « الصلاة عماد الدين . من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين » قال الحافظ العراقي في تخريجه للإحياء (١٤٧/١) . « رواه البيهقي في الشُّعَب بسند ضعفه من حديث عمر » وقال الملا علي القاري في « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٧٨) . « قال ابن الصلاح في مشكل الوسيط : إنه غير معروف » .

ولذلك بدأ بها لقمان ﴿يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ .. (١٧)﴾ [لقمان] لأنها استدامة إعلان الولاء لله تعالى خمس مرات في اليوم والليلة ، فحين يناديك ربك (الله أكبر) فلا ينبغي أن تنشغل بمخلوق عن نداء الخالق ، وإلا فما موقف الأب مثلاً حين ينادي ولده فلا يجيبه ؟ فاحذر إذا ناداك ربك ألا تجيب .

ثم تأمل النداء للصلاة الذي اهتدتْ إليه الفطرة البشرية السليمة ، وأقرّه سيدنا رسول الله : الله أكبر الله أكبر ، يعني أكبر من كل ما يشغلك عنه ، فإياك أن تعتذر بالعمل في زراعة أو صناعة أو تجارة عن إقامة الصلاة .

وقد ناقشتُ أحد أطباء الجراحة في هذه المسألة ، فقال : كيف أترك عملية جراحية من أجل الصلاة ؟ فقلت له : بالله لو اضطررتَ لقضاء الحاجة تذهب أم لا ؟ فضحك وقال . أذهب ، فقلت : فالصلاة أَوْلَى ، ولا تعتقد أن الله تعالى يكلِّف العبد تكليفاً ، ثم يضنّ عليه باتساع الزمن له ، بدليل أنه تعالى يراعي وقت العبد ومصالحه وإمكاناته ، ففي السفر مثلاً يشرع لك الجمع والقصر .

فبإمكانك أنْ تُوفِّق صلاتك حسب وقتك المتاح لك ، إما بجمع التقديم أو التأخير ، وكم يتسع وقتك ويخلو من مشغولية العبادة إذا جمعتَ الظهر والعصر جمعَ تقديم ، والمغرب والعشاء جَمْع تأخير في آخر وقت العشاء ؟ أو حين تجمع الظهر والعصر جمعَ تأخير ، فتصليهما قبل المغرب ، ثم تصلي المغرب والعشاء جمع تقديم ؟

إذن . المسألة فيها سعة ، ولا حجة لأحد في تَرْك الصلاة بالذات ، أما الذين يقولون في مثل هذه الأمور ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا .. (٢٨٦)﴾ [البقرة] وأن هذا ليس في وُسْعي .. فنقول لهم :

لا ينبغي أنْ تجعل وُسْعك هو الحكم ، إنما التكليف هو الحكم في الوُسْع ، وما دام ربك - عز وجل - قد كلَّفك فقد علم سبحانه وُسْعك وكلَّفك على قدره بدليل ما شرعه لك من رُخَص إذا خرجتْ العبادة عن الوُسْع .

وقال : ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ .. (١٧)﴾ [لقمان] لأن الصلاة أول اكتمال في الإجماع لمنهج الله ، وبها يكتمل إيمان الإنسان في ذاته ، وسبق أن قلنا : إن هناك فرقاً بين أركان الإسلام وأركان المسلم ، أركان الإسلام هي الخمس المعروفة ، أمَّا أركان المسلم فهي الملازمة له التي لا تسقط عنه بحال ، وهي الشهادتان والصلاة ، وإنْ كان على المسلم أنْ يؤمن بها جميعاً ، لكن في العمل قد تسقط عنه عدا الصلاة والشهادتين .

ثم يبين لقمان لولده : أن الإيمان لا يقف عند حدِّ الاستجابة لهذين الركنين الأساسيين ، إنما من الإيمان ومن كمال الإيمان أنْ تحب لأخيك ما تحب لنفسك ، فيقول له : ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ .. (١٧)﴾ [لقمان] فانشغل بعد كمالك بإقامة الصلاة ، بأنْ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فبالصلاة كَمُلْتَ في ذاتك ، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تنقل الكمال إلى الغير ، وفي ذلك كمال الإيمان .

وأنت حين تأمر بالمعروف ، وحين تنهى عن المنكر لا تظن أنك تتصدَّق على الآخرين ، إنما تؤدي عملاً يعود نفعه عليك ، فبه تجد سعة الراحة في الإيمان ، وتجد الطمأنينة والراحة الذاتية ؛ لأنك أديْتَ التكاليف في حين قصَّر غيرك وتخاذل .

ولا شك أن في التزام غيرك وفي سيره على منهج الله راحة لك أنت أيضاً ، وإلا فالمجتمع كله يَشْقَى بهذه الفئة القليلة الخارجة عن منهج الله .

ومن إعزاز العلم أنك لا تنتفع به الانتفاع الكامل إلا إذا عدَّيته للغير ، فإنْ كتمته انتفع الآخرون بخيرك ، وشقيتَ أنت بشرِّهم . إذن . لا تنتفع بخير غيرك إلا حين تؤدى هذه الفريضة ، فتأمر غيرك بالمعروف ، وتنهاه عن المنكر ، وتحب لهم ما تحب لنفسك ، وبذلك تنال الحظين ، حظك عند الله لأنك أديتَ ، وحظك عند الناس لأنك فى مجتمع متكامل الإيمان ينفعك ولا يضرك .

ولك هنا أن تلحظ أن هذه الآية لم تقرن إقامة الصلاة بإيتاء الزكاة كعادة الآيات ، فغالباً ما نقرأ : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ .. (٤٣)﴾ [البقرة]

وحين نستقرىء كلمة الزكاة فى القرآن الكريم نجد أنها وردت اثنتين وثلاثين مرة ، اثنتان منها ليستا فى معنى زكاة المال المعروفة النماء العام إنما بمعنى التطهر ، وذلك فى قوله تعالى فى قصة الخضر وموسى عليهما السلام : ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ .. (٧٤)﴾ [الكهف]

ثم قوله تعالى : ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١)﴾ [الكهف]

والمعنى : طهرناهم حينما رفعنا عنهم باباً من أبواب الفتنة فى دين الله .

والموضع الآخر فى قوله تعالى : ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً .. (١٣)﴾ [مريم] فالمعنى : وهبنا لمريم شيئاً نُزكيها به ؛ ذلك لأن الزكاة

أول ما تتعدى تتعدَّى من واجد لمعدم ، ومريم لم تتزوج فهى مُعْدَمة فى هذه الناحية ؛ لذلك وهبها الله النماء الخاص من ناحية أخرى حين نفخ فيها الروح من عنده تعالى .

وفى موضع واحد ، جاءت الزكاة بمعنى زكاة المال ، لكن غير مقرونة بالصلاة ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿وما آتيْتُم مِّن رِّبًا لِّيرْبُوَ فِي أمْوالِ النَّاسِ فَلا يرْبُو عِند اللَّهِ وما آتيْتُم مِّن زكاةٍ تُرِيدُون وجْه اللَّهِ فأُولَـٰئِك هُمُ الْمُضْعِفُون (٣٩)﴾ [الروم]

وفى هذه الآية قال لقمان لولده : ﴿يـٰبُنيَّ أقِمِ الصَّلاة وأْمُرْ بِالْمعْرُوفِ .. (١٧)﴾ [لقمان] ولم يقل : وآت الزكاة ، فلماذا ؟

ينبغى أن نشير إلى أن القرآن جمع بين الصلاة والزكاة ؛ لأن الصلاة فيها تضحية بالوقت ، والوقت زمن العمل ، والعمل وسيلة الكسب والمال ، إذن ، ساعة تصلى فقد ضحيْتَ بالوقت الذى هو أصل المال ، فكأن فى الصلاة تصدقت بمائة فى المائة من المال المكتسب فى هذا الوقت ، أمَّا فى الزكاة فأنت تتصدَّق بالعُشْر ، أو نصف العشر ، أو رُبْع العشر ، ويبقى لك معظم كسبك ، فالواقع أن الزكاة فى الصلاة أكبر وأبلغ من الزكاة نفسها .

إذن : لما كانت الزكاة فى كل منهما ، قرن القرآن بينهما إلا فى هذا الموضع ، ولما تتأمله تجده من دقائق الأسلوب القرآنى ، فالقرآن يحكى هذه الوصايا عن لقمان لولده ، ولنا فيه ملحظان :

الأول : أن الله تعالى لم يكلِّف العبد إلا بعد سنِّ البلوغ إلا فى

الصلاة ، وجعل هذا التكليف مُوجهاً إلى الوالد أو ولى الأمر ، فأنابه أن يكلف ولده بالصلاة ، وأن يعاقبه إنْ أهمل فى أدائها ، ذلك ليربى عند ولده الدُّرْبة على الصلاة ، بحيث يأتى سنّ التكليف ، وقد ألفَها الولد وتعوَّد عليها ، فهى عبادة تحتاج فى البداية إلى مران وأخذ وردّ ، وهذا أنسب للسنّ المبكرة .

والوالد يُكلِّف ولده على اعتبار أنه الموجد الثانى له ، والسبب المباشر فى وجوده ، وكأن الله تعالى يقول : أنا الموجد لكم جميعاً وقد وكَّلتك فى أنْ تكلِّف ولدك ؛ لأن معروفك ظاهر عنده ، وأياديك عليه كثيرة ، فأنت القائم بمصالحه المُلبِّى لرغباته ، فإنْ أمرته قَبِل منك وأطاعك ، فهى طاعة بثمنها .

وطالما وكلتك فى التكليف فطبيعى أنْ أُوكِّلك فى العقوبة ، فإنْ حدث تقصير فى هذه المسألة فالمخالفة منك ، لا من الولد ؛ لأننى لم أكلِّفه إنما كلَّفْتُك أنت .

لذلك بدأ لقمان أوامره لولده بإقامة الصلاة ، لأنه مُكلَّف بهذا الأمر ، فولده ما يزال صغيراً بدليل قوله ﴿ يَٰبُنَيَّ .. (١٧) ﴾ [لقمان] فالتكليف هنا من الوالد ، فإنْ كان الولد بالغاً حال هذا الأمر فالمعنى لاحظ التكليف من الله بإقامة الصلاة .

أما الزكاة ، وهى تكليف من الله أيضاً فلم يذكرها هنا - وهذه من حكمة لقمان ودقَّة تعبيره ، وقد حكاها لنا القرآن الكريم لنأخذ منها مبادىء نعيش بها .

ثانياً : إنْ كلَّفه بالزكاة فقال : أقم الصلاة وآتِ الزكاة فقد أثبت لولده ملكية ، ومعروف أن الولد لا ملكيةَ له فى وجود والده ، بدليل

قول الرسول ﷺ : « أنت ومالك لأبيك »[1] وذكرنا أن لقمان لما علم بموت أبيه قال : إذن ملكتُ أمرى[2] فأمره ليس ملْكاً له فى حياة أبيه ؛ لذلك لم يأمر ولده بالزكاة ، فالزكاة فى ذمته هو ، لا فى ذمة ولده .

وتتأكد لدينا هذه المسألة حين نقرأ قول الله تعالى :

﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور]

فالله تعالى رفع عنَّا الحرج أنْ نأكل من هذه البيوت ، ونلحظ أن الآية ذكرتْ الأقارب عدا الأبناء ، وكان الترتيب المنطقى أن يقول بعد أمهاتكم : أو بيوت أبنائكم ، فلماذا لم يذكر هنا بيوت الأبناء ؟ قالوا : لأنها داخلة فى قوله : بيوتكم ، فبيت الابن هو بيت الأب ، والولد وما ملكتْ يداه ملْكٌ لأبيه .

ثم يقول لقمان لولده : ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ .. (١٧)﴾ [لقمان]

---

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إن أبى اجتاح مالى ، فقال : « أنت ومالك لأبيك » وقال رسول الله ﷺ : « إن أولادكم من أطيب كسبكم ، فكلوا من أموالهم » أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٢٩٢) وأحمد فى مسنده (١٧٩/١) . واللفظ لابن ماجه .

(٢) أخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل فى زوائد الزهد عن عبد الله بن دينار : إن لقمان قدم من سفر فلقيه غلام فى الطريق فقال : ما فعل أبى ؟ قال : مات . قال : الحمد لله ملكت أمرى . [الدر المنثور ٥١٩/٦] .

الصبر : حَمْل النفس على التجلُّد للأحداث ، حتى لا تعينَ الأحداث على نفسك بالجزع ، فأنت أمام الأحداث تحتاج إلى قوة مضاعفة ، فكيف تُضعِف نفسك أمامها ؟

والمصيبة تقع إما لك فيها غريم ، أو ليس لك فيها غريم ، فالذى يسقط مثلاً ، فتنكسر ساقه ، أو الذى يفاجئه المرض .. الخ هذه أقدار ساقها الله إليك بلا سبب فلا غريمَ لك فيها ؛ لذلك يجعلها فى ميزانك : إما أنْ يعلى بها درجاتك ، وإما أنْ يُكفِّر بها سيئاتك ؛ لذلك كان الكفار يفرحون إذا أصاب المسلمين مصيبة ، كما فرحوا يوم أُحُد ، وقد ردَّ الله عليهم وبيَّن غباءهم ، وقال سبحانه : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا .. (٥١) ﴾ [التوبة] وتأمل الجار والمجرور (لنا) ولم يقُلْ كتب علينا ، إذن : فالمصيبة فى حساب (له) لا (عليه) فلماذا تفرحون فى المصيبة تقع بالمسلمين ؟

وأوصى بالصبر بعد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ لأن الذى يتعرض لهذين الأمرين لا بُدَّ أن يصيبه سوء من جراء أمره بالمعروف أو نَهْيه عن المنكر ، فإنْ تعرضْتَ للإيذاء فاصبر ؛ لأن هذا الصبر يعطيك جزاءً واسعاً .

وتغيير المنكر له مراحل وضحها النبى ﷺ فى قوله : « مَنْ رأى منكم منكراً فليُغيِّره بيده ، فإنْ لم يستطع فبلسانه ، فإنْ لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »[(1)] .

فالله أمرك أنْ تُغيِّر المنكر ، لكن جعل لك تقدير المسألة ومدى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٩) كتاب الإيمان ، وأحمد فى مسنده (٣/٢٠ ، ٤٩ ، ٥٢) ، والترمذى فى سننه (٢١٧٢) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

إمكانك فيها ، فالدين يريدك مُصلحاً لكن لا يريد أنْ تلقي بنفسك إلى التهلكة ، فلك أنْ تُغيِّر المنكر بيدكَ فتضرب وتمنع إذا كان لك ولاية على صاحب المنكر ، كأن يكون ولدك أو أخاك .. إلخ .

فلك أن تضربه مثلاً إنْ رأيتَ سيجارة في فمه ، أو أنْ تكسر له كأس الخمر إنْ شربها أو تمزق له مثلاً ورق « الكوتشينة » ، فإنْ لم تكُنْ لك هذه الاستطاعة فيكفي أنْ تُغيِّر بلسانك إنْ كانت لديك الكلمة الطيبة التي تداوي دون أن تجرح الآخرين ، ودون أنْ يؤدي النصح إلى فتنة ، فيكون ضرره أكثر من نفعه .

فإنْ لم يكُنْ في استطاعتك هذه أيضاً ، فليكُنْ تغيير المنكر بالقلب ، فإنْ رأيتَ منكراً لا تملك إلا أنْ تقول: اللهم إنَّ هذا منكر لا يرضيك لكن أيُعَدُّ عمل القلب تغييراً للمنكر وأنت مطالب بأنْ تُغيِّره بيدك يعني : إلى ضده ؟ وهل هذه الكلمة تغير من الواقع شيئاً ؟

قالوا : لا يحدث التغيير بالقلب إلا إذا كان القالب تابعاً للقلب ، فالقلب يشهد أنَّ هذا منكر لا يُرضي الله ، والقالب يساند حتى لا تكون منافقاً ، فأنت أنكرتَ عليه الفعل ، ولا استطاعة لك على أنْ تمنعه ، ولا أن تنصحه ، فلا أقلَّ من أنْ تعزله عن حياتك وتقاطعه ، وإلاَّ فكيف تُغيِّر بقلبك إنْ أنكرتَ عليه فعله وأبقيتَ على وُدِّه ومعاملته ؟

إذن : لا يكون التغيير بالقلب إلا إذا أحسَّ صاحب المنكر أنه في عزلة ، فلا تهنئه في فرح ، ولا تعزيه في حزن ، وإنْ كنتَ صاحب تجارة ، فلا تَبِعْ له ولا تشتر منه .. الخ .

وما استشرى الباطل وتبجح أهل الفساد وأهل المنكر إلا لأن الناس يحترمونهم ويعاملونهم على هذه الحال ، بل ربما زاد احترام

الناس لهم خوفاً من باطلهم ومن ظلمهم .

فالتغيير بالقلب ليس كلمة تقال إنما فعل وموقف ، وقد علَّمنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ هذه القضية في قوله سبحانه : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) ﴾ [النساء]

ويقول سبحانه في آية أخرى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) ﴾ [الأنعام]

والنبي ﷺ في قصة الثلاثة[1] الذين خُلِّفوا بغير عذر في غزوة تبوك ، يُعلِّمنا كيف نعزل أصحاب المنكر ، لا بأن نعزلهم في زنزانة كما نفعل الآن ، إنما بأن نعزل المجتمع عنهم ، ليس المجتمع العام فحسب ، بل عن المجتمع الخاص ، وعن أقرب الناس إليه .

وقد تخلف عن هذه الغزوة عدة رجال اعتذروا لرسول الله فقَبِل علانيتهم وترك سرائرهم لله ، لكن هؤلاء الثلاثة لم يجدوا لأنفسهم عذراً ، ورأوا أنهم لا يستطيعون أنْ يكذبوا على رسول الله ، ولم يحبسهم الرسول ، إنما حبس المجتمع عنهم حتى الأقارب ، فكان الواحد منهم يمشي و (يتمحك) في الناس ليكلمه أحد منهم ، فلا يكلمه أحد ، وكعب بن مالك[2] يتسوَّر على ابن عمه الحديقة ، ويقول

(١) الثلاثة هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع العامري .

(٢) هو : كعب بن مالك بن أبي كعب الأنصاري ، شاعر رسول الله ﷺ ، أمه ليلى بنت زيد من بني سلمة ، كنيته أبو عبد الرحمن ، شهد العقبة مع السبعين من الأنصار ، شهد أحداً والخندق والمشاهد كلها ، ما خلا تبوك ، وتاب الله عليه ، ذهب بصره في آخر حياته ، وتوفي عام ٥٠ هـ في خلافة معاوية ، وهو يومئذ ابن ٧٧ عاماً أي أنه ولد ٢٧ ق هـ .

له : تعلم أنى أحب الله ورسوله فلا يجيبه . ويصلى بجوار الرسول يلتمس أنْ ينظر إليه ، فلا ينظر إليه[١] .

ولما نجحت هذه المقاطعة على هذا المستوى أعلاها الشرع وتسلسل بها إلى الخصوصيات فى البيت ، فعزل هؤلاء الثلاثة عن زوجاتهم ، فأمر كلاً منهن ألاَّ يقربها زوجها إلى أن يحكم الله فى أمرهم[٢] ، حتى أن واحدة[٣] من هؤلاء جاءت لرسول الله وقالت : يا رسول الله ، إن زوجى رجل كهدبة الثوب (يعنى : ليست له رغبة فى أمر النساء) فأذن لها رسول الله فى أن تخدمه على ألاَّ يقربها .

ظل هؤلاء الثلاثة ثلاثين يوماً فى هذا الامتحان العام وعشرة أيام فى الامتحان الخاص ، ونجح المجتمع العام ، ونجح المجتمع الخاص، وهكذا علَّمنا الشرع كيف نعزل أصحاب المنكر وأهل الجريمة ، فعزل

---

(١) يروى لنا كعب بن مالك هذه الأيام العصيبة ، فيقول : « أما هلال بن أمية ومرارة بن الربيعة فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى هل حرَّك شفتيه برد السلام أم لا ، ثم أصلى قريباً منه وأسارقه النظر فإذا أقبلتُ على صلاتى نظر إلىَّ ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عنى [صحيح مسلم حديث ٢٧٦٩] كتاب التوبة .

(٢) جاء رسول من عند رسول الله ﷺ إلى كعب بن مالك يقول له : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : لا بل اعتزلها فلا تقربنَّها (صحيح مسلم حديث ٢٧٦٩) .

(٣) هى : خولة بنت عاصم ، امرأة هلال بن أمية أحد الثلاثة الذين خلفوا [قاله ابن حجر فى الفتح ٨/١٢١] ويروى مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) والبخارى فى صحيحه (٤٤١٨) أن امرأة هلال بن أمية جاءت رسول الله ﷺ وقالت : « يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ولكن لا يقربنك فقالت : إنه والله ما به حركة إلى شىء ، ووالله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا » .

المجتمع عنهم أبلغ من عزلهم عن المجتمع ، لذلك كان وَقْع هذه العزلة قاسياً على هؤلاء .

فهذا كعب بن مالك يحكى قصته ويقول : لقد ضاقت بى الأرض على سعتها ، والحق يقول فى وصف حالهم . ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)﴾ [التوبة]

فلما استوى المجتمع العام والمجتمع الخاص على منهج الله فرَّج الله عن هؤلاء الثلاثة ، ونزل قوله تعالى : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)﴾ [التوبة]

فأسرع أحدهم[1] يبشر كعباً بهذه البشرى فطار كعب فرحاً بها ، وقال : فوالله ما ملكتُ أنْ أخلع عليه ثيابى كلها ، ثم أستعير ثياباً أذهب بها إلى رسول الله[2] .

إذن : ينبغى أن نعزل المجتمع كله عن أصحاب المنكر ، لا أن نعزلهم هم فى السجون ، لكن مَنْ يضمن لنا استقامة المجتمع فى تنفيذ هذه العزلة كما نفذها المجتمع المسلم على عهد رسول الله ؟

نعود إلى ما كنا نتحدث عنه من أن المصيبة إذا كانت قدراً من الله ليس لك فيها غريم ، فإن الصبر عليها هيِّن ، فالأمر بينك وبين ربك ، أما إنْ كان لك فى المصيبة غريم كأن يعتدى عليك أحد فيحرق

---

(١) هو : حمزة بن عمرو الأسلمى ، ذكره ابن حجر العسقلانى فى الفتح (شرح حديث رقم ٤٤١٨) .

(٢) قطعة من حديث كعب بن مالك الذى أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٤١٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩)

زرعك أو يقتل ولدك ، فهذه تحتاج إلى صبر أشد ، فكلما رأيت غريمك هاجتْ نفسك وغلى الدم فى عروقك ، فيحتاج إلى طاقة أكبر ليحمل نفسه على الصبر .

لذلك يقول سبحانه فى هذه المسألة : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣)﴾ [الشورى] فأكَّدها باللام ؛ لأنها تحتاج إلى طاقة أكبر من الصبر وضبط النفس حتى لا تتعدى كلما رأيت الغريم ، وهذا من المواضع التى وقف عندها المستشرقون يلتمسون فيها مأخذاً على كلام الله .

يقولون : ما الفرق بين قول القرآن ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧)﴾ [لقمان] وقوله : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣)﴾ [الشورى]

ثم أيهما أبلغ من الأخرى ، فإنْ كانت الأولى بليغة فالأخرى غير بليغة .

ونقول فى الرد عليهم : كل من الآيتين بليغة فى سياقها ، فالتى أُكِّدت باللام جاءت فى المصيبة التى لك فيها غريم وتحتاج إلى صبر أكبر ، أما الأخرى ففى المصيبة التى ليس لك فيها غريم ، فهى بينك وبين ربك ، والصبر عليها هيِّن يسير .

لذلك ، فالحق سبحانه يعالج هذه المسألة ليُصفِّى النفس ويمنع ثورتها ، فيقول : ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠)﴾ [الشورى] لتقف النفس عند حدِّ الرد بالمثل ، ثم يُرقِّى المسألة ، ويفتح باباً للعفو ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. (٤٠)﴾ [الشورى] وقال فى موضع آخر ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦)﴾ [النحل]

فحين يبيح لك ربك أنْ تأخذ بحقك تهدأ نفسك ، وربما تتنازل عن هذا الحق بعد أن أصبح فى يدك ؛ لذلك كثيراً ما نرى - خاصة فى صعيد مصر حيث توجد عادة الأخذ بالثأر - القاتل يأخذ كفنه على يديه ، ويدخل به على ولى الدم ، ويُسلِّم نفسه إليه ، وعندها لا يملك ولى الدم إلا أن يعفو .

حتى فى مسألة القتل والقصاص يجعل الحق سبحانه مجالاً لترقية النفس البشرية وأريحيتها ، بل ويُسمِّى الطرفين إخوة فى قوله تعالى : ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ .. (١٧٨)﴾ [البقرة]

ففى هذا الجو وفى أثناء ما تسيل الدماء يُحدِّثنا ربنا عن العفو والإحسان والأخوة ، ومعلوم أن هناك فَرْقاً بين أن تأخذ الحق ، وبين أنْ تنفذ أخذ الحق بيدك .

فالله تعالى خالق النفس البشرية ويعلم ما جُبلَتْ عليه من الغرائز وما تُكنّه من العواطف ، وما يستقر فيها من القيم والمبادىء ، لكنه - سبحانه وتعالى - لا يبنى الحكم على ارتفاع المناهج فى الإنسان ، إنما على ضوء هذه الطبيعة التى خلقه عليها ، فليس الخَلْق كلهم على درجة من الورع تدعوهم إلى العفو والصفح ؛ لذلك أعطاك حقَّ الرد بالمثل على مَنْ اعتدى عليك ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠)﴾ [الشورى] وقال ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦)﴾ [النحل]

ومع ذلك حين تتأمل هذه الآيات تجد أن تنفيذها من الصعوبة بمكان ، فمَنْ لديه القدرة والمقاييس الدقيقة التى تُوقفه عند حدِّ المثلية التى أمر الله بها ؟

وسبق أنْ بيَّنا : أنه إذا اعتدى عليك شخص وضربك مثلاً ، أتستطيع أنْ تضربه مثل ضربته لا تزيد عليها ، لأنك إنْ زدتَ صرْتَ ظالماً ، واقرأ بقية الآية ﴿فمنْ عفا وأصلح فأجْرُهُ على الله إنَّهُ لا يُحبُّ الظَّالمين ﴿٤٠﴾﴾ [الشورى]

وسبق أنْ ذكرنا قصة المرابي اليهودي الذي اتفق مع مدينه على أنْ يقطع من جسمه رطلاً ، إذا لم يُؤدِّ في الموعد المحدد ، وفعلاً جاء موعد السداد ، ولم يَفِ المدين ، فرفع اليهودي أمره إلى القاضي وأخبره بشرطه ـ وكان القاضي مُوفَّقاً قد نوَّر الله بصيرته ، فقال لليهودي : نعم لك حَقٌّ في أن تُنفذ ما اتفقنا عليه ، وسأعطيك السكين على أنْ تأخذ من المدين رطلاً من لحمه في ضربة واحدة ، بشرط إذا زدتَ عنها أو نقصتَ أخذناه من لحمك .

وعندها انصرف اليهودي ؛ لأن المثلية لا يمكن أن تتحقق ، فكأن الله تعالى بهذا الشرط ـ شرط المثلية في الردِّ ـ يلفت انتباهك إلى أن العفو أوْلَى بك وأصلح .

إذن : يُحدِّثنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن العفو وعن الإحسان في المصيبة التي لك فيها غريم ، ويبين لنا أنك إذا أخذتَ حقك الذي قرره لك فقد أرحتَ نفسك ، لكن حرمتها الأجر الذي تكفَّل الله لك به إنْ أنت عفوتَ .

وكان الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أنْ يولد من أسباب البغضاء أسباباً للولاء ، فالذي كان من حقك أنْ تقتله ثم عفوتَ عنه أصبحتْ حياته ملْكاً لك ، فهل يفكر لك في سوء بعدها ؟

لذلك يُعلِّمنا ربنا : ﴿ادْفعْ بالَّتي هي أحْسنُ فإذا الَّذي بيْنك وبيْنهُ عداوةٌ كأنَّهُ وليٌّ حميمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت]

وأذكر أنني جاءني مَنْ يقول : والله أنا دفعتُ بالتي هي أحسن مع خصمي ، فلم أجده ولياً حميماً كما قال الله تعالى ، فقلت له : عليك أن تراجع نفسك ؛ لأنك ظننتَ أنك دفعتَ بالتي هي أحسن ، لكن الواقع غير ذلك ، ولو دفعتَ بالتي هي أحسن لَصدق الله معك ، ورأيت خَصْمك ولياً حميماً ، إنما أنت تريد أنْ تُجرِّب مع الله والتجربة مع الله شكٌّ .

والنبي ﷺ يُعلِّمنا أنْ نبقى على يقين التوكل سارياً دون أنْ نفكر كيف يحدث ، وقصة الصحابية أم مالك[1] شاهدة على ذلك ، فقد كان عندها غنم تحلب لبنها ، فتصنع مما زاد عن حاجتها وحاجة أولادها زبداً ، وكانت تهدى منه إلى رسول الله في عكة[2] عندها ، فكان أهل بيت رسول الله يُفرغون هذه العكة في آنيتهم ، ثم يعيدونها إليها وهكذا .

حتى قالت أم مالك[3] : والله ما أصبتُ إداماً إلا من هذه العكة ، وكانت كلما احتاجت الإدام أفرغتْ العكة ، فوجدت بها الإدام حتى بعد أن أفرغها أهل بيت الرسول ، لكن خُيِّل لها في يوم من الأيام أنها أسرفت في استعمال هذه العكة ، وظنت أن ما بها من إدام قد نفد ، فأخذتها وعصرتها ، فلم تجد فيها شيئاً ، فظنت أن رسول الله غاضب

---

(١) هي : أم مالك الأنصارية ـ ذكرها ابن حجر العسقلاني في « الإصابة في تمييز الصحابة » (٢٧٨/٨) .

(٢) العكة : أصغر من القربة للسمن ، وهو زُقَيْق صغير . [لسان العرب ـ مادة : عكك]

(٣) حديث مسلم (٢٢٨٠) عن جابر بن عبد الله أن أم مالك كانت تهدى للنبي ﷺ في عكة لها سمناً ، فيأتيها بنوها فيسألون الأدْم ، وليس عندهم شيء ، فتعمد إلى الذي كانت تهدى فيه للنبي ﷺ ، فتجد فيه سمناً ، فما زال يقيم لها أدم بيتها حتى عصرته ، فأتت النبي ﷺ فقال : عصرتيها ؟ قالت : نعم . قال : لو تركتيها ما زال قائماً .

منها ، فذهبت إليه وقصصْتُ عليه هذه المسألة ، فقال لها ﷺ : « أعَصرتيها يا أم مالك ؟ » فقالت : نعم يا رسول الله ، فأخبرها أن التجربة مع الله شكٌّ وأنها لو لم تعصرها ولم تظن هذا الظن لبقيتْ العُكَّة على حالها ، وكما تعودت منها[1] .

وتلحظ أن كلمة (أصابك) والمصيبة تدل على أنها واقعة بك ولن تنجو منها ؛ لأنها قدر أرسل إليك بالفعل ، وسيصيبك لا محالة ، والمسألة مسألة وقت إلى أنْ يصلك هذا السهم الذى أُطلق عليك ، فإياك أنْ تقول : لو أنى فعلت كذا لكان كذا ، فما سُمِّيت المصيبة بهذا الاسم إلا لأنها صائبتك لا تستطيع أنْ تفرَّ منها كما يقولون عن الموت : تأكد أنك ستموت ، وعمرك بمقدار أنْ يصلك سهم الموت .

وكلمة ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان] نقول : فلان له عزم ، وتسمع القرآن يقول : ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ .. ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران] العزم : الفرض المقطوع به ، والذى لا مناصَ عنه ، ومنه ما جاء فى قول لقمان لما خيَّره ربه بين أن يكون رسولاً أو حكيماً ، فاختار الراحة وترك الابتلاء ، لكنه قال : يا رب إنْ كانت عزمةٌ منك فسمعاً وطاعة ، يعنى : أمراً مفروضاً ينبغى ألاَّ تحيد عنه .

والعزم يعنى شحن كل طاقات النفس للفعل والقطع به ، فالصلاة على الميت مثلاً لا تُسمَّى عزيمة ؛ لأنها فرض كفاية إنْ فعلها البعض سقطتْ عن الباقين ، على خلاف الصلاة التامة فى السفر مثلاً حيث يعتبرها الإمام أبو حنيفة عزيمة لا رخصة ، فإن أتممت الصلاة فى

---

(١) قال النووى فى شرحه لصحيح مسلم (١٥/٤٦) : « قال العلماء : الحكمة فى ذلك أن عصرها مضاد للتسليم والتوكل على رزق الله تعالى ويتضمن التدبير والأخذ بالحول والقوة وتكلُّف الإحاطة بأسرار حكم الله تعالى وفضله فعوقب فاعله بزواله »

السفر أسأت[1] ، عملاً بقول النبى ﷺ : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه »[2] .

والمعنى : لا ترد يد الله المبسوطة لك بالتيسير فى الصلاة أثناء السفر .

ثم يعتمد فى هذا الرأى على دليل آخر من علم الأصول هو أن الصلاة فُرِضَتْ فى الأصل مثنى مثنى ، ثم أقرت فى السفر وزيدت فى الحضر . إذن : فصلاة السفر مع الأصل ، فلو أتممتَ الصلاة فى السفر أسأتَ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾

معنى . تصعر من الصَّعَر ، وهو فى الأصل داء يصيب البعير يجعله يميل برقبته ، ويشبه به الإنسان المتكبر الذى يميل بخدِّه ، ويُعرض عن الناس تكبّراً ، وتسمع فى العامية يقولون للمتكبر (فلان ماشى لاوى رقبته) .

فقول الله تعالى ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ..﴿١٨﴾ ﴾ [لقمان] واختيار

---

(١) الحنفية والمالكية متفقون على أن قصر الصلاة الرباعية فى السفر سنة مؤكدة ، ولكنهم مختلفون فى الجزاء المترتب على تركه ، فالحنفية يقولون : من أتم يكون مسيئاً بترك الواجب ، وهو إن كان لا يعذب على تركه بالنار ، ولكنه يُحرم من شفاعة النبى ﷺ يوم القيامة . أما المالكية فيقولون : إذا تركه المسافر فلا يُؤاخذ على تركه ، ولكنه يحرم من ثواب السنة المؤكدة فقط ، ولا يحرم من شفاعة النبى » [الفقه على المذاهب الأربعة ٤٧١/١] دار إحياء التراث العربى .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١٠٨/٢) وابن حبان (٥٤٥ ، ٩١٤) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

هذا التشبيه بالذات كأن الحق سبحانه يُنبِّهنا أن التكبُّر وتصعير الخدِّ داء ، فهذا داء جسدى ، وهذا داء خلقى . وقد تنبه الشاعر إلى هذا المعنى فقال :

فَدَعْ كُلَّ طَاغِيةٍ للزَّمانِ فإنَّ الزمانَ يُقيم الصَّعَر

يعنى : إذا لم يستطع أبناء الزمان تقويم صعر المتكبر ، فدعْه للزمان فهو جدير بتقويمه ، وكثيراً ما نرى نماذج لأناس تكبروا وتجبروا ، وهم الآن لا يستطيع الواحد منهم قياماً أو قعوداً ، بل لا يستطيع أنْ يذب الطير عن وجهه .

والإنسان عادة لا يتكبر إلا إذا شعر فى نفسه بميزة عن الآخرين ، بدليل أنه إذا رأى مَنْ هو أعلى منه انكسر وتواضع وقوَّم من صَعره ، ومثَّلنا لذلك بـ (فتوة) الحارة الذى يجلس على القهوة مثلاً واضعاً قدماً على قدم ، غير مُبَال بأحد ، فإذا دخل عليه (فتوة) آخر أقوى منه نجده تلقائياً يعتدل فى جلسته .

وهذه المسألة تفسر لنا الحكمة التى تقول (اتق شر من أحسنت إليه) لماذا ؟ لأن الذى أحسنت إليه مرتْ به فترة كان ضعيفاً محتاجاً وأنت قوى فأحسنتَ إليه ، وقدَّمْتَ له المعروف الذى قوَّم حياته فأصبح لك يَدٌ عليه ، وكلما رآك ذكَّرته بفترة ضعفه ، ثم إن الأيام دُوَل تدور بين الخَلْق ، والضعيف يصبح قوياً ويحب أنْ يُعلى نفسه بين معارفه ، لكنه لا بُدَّ أن يتواضع حينما يرى مَنْ أحسن إليه ، وكأن وجود منْ أحسن إليه هو العقبة أمام عُلُوِّه وكبريائه ؛ لذلك قيل : (اتق شر من أحسنت إليه) .

ثم إن الذى يتكبر ينبغى أنْ يتكبَّر بشىء ذاتى فيه لا بشىء موهوب له ، وإذا رأيتَ فى نفسك ميزة عن الآخرين فانظر فيما تميزوا هم به عليك ، وساعة تنظر إلى الخَلْق والخالق تجد كل مخلوق لله جميلاً .

لذلك تروى قصة الجارية التى كانت تداعب سيدتها ، وهى تزينها وتدعو لها بفارس الأحلام ابن الحلال ، فقالت سيدتها : لكنى مشفقة عليك ؛ لأنك سوداء لن ينظر أحد إليك ، فقالت الجارية : يا سيدتى ، اذكرى أن حُسْنك لا يظهر لأعين الناس إلا إذا رأوا قُبْحي - فالذى تراه أنت قبيحاً هو فى ذاته جميل ، لأنه يبدى جمال الله تعالى فى طلاقة القدرة - ثم قالت : يا هذه ، لا تغضبى الله بشىء من هذا ، أتعيبين النقش ، أم تعيبين النقاش ؟ ولو أدركت ما فىَّ من أمانة التناول لك فى كل ما أكلف به وعدم أمانتك فيما يكلفك به أبوك لعلمت فى أى شىء أنا جميلة .

ويقول الشاعر فى هذا المعنى :

فَالوَجْه مثْلُ الصُّبْح مُبيضٌ ... والشَّعْر مثْل الليْل مُسْوَدُّ
ضِدَّانِ لما استْجمعَا حَسُنَا ... والضِّدّ يُظْهر حُسْنَهُ الضِّدُّ

والله تعالى يُعلّمنا هذا الدرس فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ .. (١١) ﴾ [الحجرات]

فإذا رأيتَ إنساناً دونك فى شىء ففتش فى نفسك ، وانظر ، فلا بُدَّ أنه متميز عليك فى شىء آخر ، وبذلك يعتدل الميزان .

فالله تعالى وزَّع المواهب بين الخَلْق جميعاً ، ولم يحابِ منهم أحداً على أحد ، وكما قلنا : مجموع مواهب كل إنسان يساوى مجموع مواهب الآخر .

وسبق أن ذكرنا أن رجلاً قال للقمان : لقد عرفناك عبداً أسود غليظ الشفاه ، تخدم فلاناً وترعى الغنم ، فقال لقمان : نعم ، لكنى

أحمل قلباً أبيض ، ويخرج من بين شفتيّ الغليظتين الكلام العذب الرقيق[1] .

ويكفي لقمان فخراً أن الله تعالى ذكر كلامه ، وحكاه في قرآنه وجعله خالداً يُتلى ويُتعبد به ، ويحفظه الله بحفظه لقرآنه .

ولنا ملحظ في قوله تعالى ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ .. (١٨)﴾ [لقمان] فكلمة للناس هنا لها مدخل ، وكأن الله تعالى يقول لمن يُصعِّر خده . لا تَدْعُ الناس إلى العصيان والتمرد على أقدار الله بتكبُّرك عليهم وإظهار مزاياك وستْر مزاياهم ، فقد تصادف قليلَ الإيمان الذي يتمرد على الله ويعترض على قدره فيه حينما يراك متكبراً متعالياً وهو حقير متواضع ، فإنْ كنت محترف صَعَر و (كييف) تكبُّر ، فليكُنْ ذلك بينك وبين نفسك ، كأن تقف أمام المرآة مثلاً وتفعل ما يحلو لك مما يُشبع عندك هذا الداء .

فكأن كلمة ﴿لِلنَّاسِ .. (١٨)﴾ [لقمان] تعني : أن الله تعالى يريد أنْ يمنع رؤية الناس لك على هذا الحال ؛ لأنك قد تفتن الضعاف في دينهم وفي رضاهم عن ربهم .

ثم يقول لقمان : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا .. (١٨)﴾ [لقمان] المرح هو الاختيال والتبختر ، فربُّكَ لا يمنعك أنْ تمشي في الأرض ، لكن يمنعك أنْ تمشي مشْيَة المتعالي على الناس ، المختال بنفسه ، والله تعالى يأمرنا : ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥)﴾ [الملك]

---

(١) أورده القرطبي في تفسيره (٧/٥٢١٧) : « قال لرجل ينظر إليه : إن كنت تراني غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق ، وإن كنت تراني أسود فقلبي أبيض » .

فالمشى فى الأرض مطلوب ، لكن بهيئة خاصة تمشى مَشْياً سوياً معتدلاً ، فعمر ـ رضى الله عنه ـ رأى رجلاً يسير متماوتاً فنهره ، وقال : ما هذا التماوت يا هذا ، وقد وهبك الله عافية ، دَعْها لشيخوختك[1] .

ورأى رجلاً يمشى مشية الشطار[2] ـ يعنى : قُطَّاع الطرق ـ فنهاه عن القفز أو الجرى والإسراع فى المشى .

إذن : المطلوب فى المشى هيئة الاعتدال ، لذلك سيأتى فى قول لقمان ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ .. ⑲ ﴾ [لقمان] يعنى : لا تمشِ مشية المتهالك المتماوت ، ولا تقفز قفز أهل الشر وقُطَّاع الطريق .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ⑱ ﴾ [لقمان] المختال : هو الذى وجد له مزية عند الناس ، والفخور الذى يجد مزية فى نفسه ، والله تعالى لا يحب هذا ولا ذاك ؛ لأنه سبحانه يريد أنْ يحكم الناس بمبدأ المساواة ليعلم الناس أنه تعالى ربُّ الجميع ، وهو سبحانه المتكبِّر وحده فى الكون ، وإذا كان الكبرياء لله وحده فهذا يحمينا أنْ يتكبَّر علينا غيره ، على حدِّ قول الناظم :

والسُّجُود الذِى تَجْتويه   من أُلُوفِ السُّجُودِ فيه نَجَاةُ

فسجودنا جميعاً للإله الحق يحمينا أن تسجد لكل طاغية ولكل

---

(١) أورده الغزالى فى الإحياء (٢٩٦/٣) أنه يُروى عن عمر بن الخطاب « أنه رأى رجلاً يطأطىء رقبته ، فقال : يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ، ليس الخشوع فى الرقاب إنما الخشوع فى القلوب » .

(٢) الشطار : جمع شاطر ، وهو الذى أعيا أهله ومؤدبه خبثاً . قال أبو إسحاق : قول الناس فلان شاطر معناه أنه أخذ فى نحو غير الاستواء ، ولذلك قيل له شاطر لأنه تباعد عن الاستواء . [لسان العرب ـ مادة : شطر] .

متكبر متجبر ، فكان كبرياء الحق - تبارك وتعالى - فى صالح العباد .

ثم يقول الحق سبحانه على لسان لقمان عليه السلام :

﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾

القصد : هو الإقبال على الحدث ، إقبالاً لا تفيضَ فيه لطرفين ، يعنى : توسطاً واعتدالاً ، هذا في المشى ﴿ وَاغْضُضْ من صَوْتك .. ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان] أى : اخفضه وحَسْبك من الأداء ما يلغ الأذن .

لكن ، لماذا جمع السياق القرآنى بين المشى والصوت ؟ قالوا : لأن للإنسان مطلوبات فى الحياة ، هذه المطلوبات يصل إليها ، إما بالمشى - فأنا لا أمشى إلى مكان إلا إذا كان لى فيه مصلحة وغرض - وإما بالصوت فإذا لم أستطع المشى إليه ناديته بصوتى .

إذن : إما تذهب إلى مطلوبك ، أو أنْ تستدعيه إليك . والقصد أى التوسط فى الأمر مطلوب فى كل شيء ؛ لأن كل شيء له طرفان لا بُدَّ أن يكون فى أحدهما مبالغة ، وفى الآخر تقصير ؛ لذلك قالوا : كلا طرفي قصد الأمور ذميم .

ثم يقول سبحانه مُشبِّهاً الصوت المرتفع بصوت الحمار : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان] والبعض يفهم هذه الآية فهماً يظلم فيه الحمير ، وعادة ما يتهم البشرُ الحميرَ بالغباء وبالذلة ، لذلك يقول الشاعر :

وَلاَ يُقيم علَى ضَيْمٍ يُرَادُ به إلاَّ الأذلاَّنِ عَيْرُ الحىِّ والوَتِدُ

هذا على الخسْف مربوطٌ برمته وذا يُشَدُّ فلاَ يَرْثِي لَهُ أحَدُ

وتعيب على الشاعر أن يصف عيرَ الحي ـ والمراد الحمار ـ بالذلة ، ويقرنه في هذه الصفة بالوتد الذي صار مضرب المثل في الذلة حتى قالوا (أذلّ من وتد) لأنك تدقّ عليه بالآلة الثقيلة حتى ينغلق تصفين ، فلا يعترض عليك ، ولا يتبرم ولا يغيثه أحد ، فالحمار مُسخَّر ، وليس ذليلاً ، بل هو مذلَّل لك من الله سبحانه .

ولو تأملنا طبيعة الحمير لوجدنا كم هي مظلومة مع البشر ، فالحمار تجعله لحمل السباخ والقاذورات ، وتتركه ينام في الوحل فلا يعترض عليك ، وتريده دابة للركوب فتنظفه وتضع عليه السَّرْج ، وفي فمه اللجام ، فيسرع بك إلى حيث تريد دون تذمر أو اعتراض .

وقالوا في الحكمة من علو صوت الحمار حين ينهق : أن الحمار قصير غير مرتفع كالجمل مثلاً ، وإذا خرج لطلب المرعى ربما ستره تلّ أو شجرة فلا يهتدي إليه صاحبه إلا إذا نهق ، فكأن صوته آلة من آلات البادية الطبيعية ولازمة من لوازمه الضرورية التي تناسب طبيعته .

لذلك يجب أن نفهم قول الله تعالى : ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)﴾ [لقمان] فنهيق الحمار ليس مُنكَراً من الحمار ، إنما المنكر أن يشبه صوت الإنسان صوت الحمار ، فكأن نهيق الحمار كمال فيه ، وصوتك الذي يشبهه مُنكَر مذموم فيك ، وإلا فما ذنب الحمار ؟

إنك تلحظ الجمل مثلاً وهو أضخم وأقوى من الحمار إذا حمَّلته حمْلاً فإنه (ينعّر) إذا ثقل عليه ، أما الحمار فتُحمِّله فوق طاقته فيحمل دون أنْ يتكلم أو يبدي اعتراضاً . الحمار بحكم ما جعل الله فيه من الغريزة ينظر مثلاً إلى (القناة) فإنْ كانت في طاقته قفز ،

وإنْ كانت فوق طاقته امتنع مهما أجبرته على عبورها .

أما الإنسان فيدعوه غروره بنفسه أنْ يتحمّل مَالا يطيق . ويُقال إن الحمار إذا نهق فإنه يرى شيطاناً[1] . وعلمنا بالتجربة أن الحيوانات ومنها الحمير تشعر بالزلزال قبيل وقوعه ، وأنها تقطّع قيودها وتفرّ إلى الخلاء ، وقد لوحظ هذا في زلزال أغادير بالمغرب ، ولاحظناه في زلزال عام ١٩٩٢ م عندما هاجت الحيوانات في حديقة الحيوان قبيل الزلزال .

ثم إن الحمار إنْ سار بك في طريق مهما كان طويلاً فإنه يعود بك من نفس الطريق دون أنْ تُوجِّهه أنت ، ويذهب إليه مرة أخرى دون أنْ يتعدّاه ، لكن المتحاملين على الحمير يقولون : ومع ذلك هو حمار لأنه لا يتصرف ، إنما يضع الخطوة على الخطوة ، ونحن نقول : بل يُمدح الحمار حتى وإنْ لم يتصرف ؛ لأنه محكوم بالغريزة .

كذلك الحال في قول الله تعالى . ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا .. ۝ ﴾ [الجمعة]

فمتى نثبت الفعل وننفيه في آن واحد ؟ المعنى : حملوها أي : عرفوها وحفظوها في كتبهم وفي صدورهم ، ولم يحملوها أي : لم يؤدوا حق حملها ولم يعملوا بها ، مثلهم في ذلك ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا .. ۝ ﴾ [الجمعة] فهل يُعدُّ هذا ذَمّاً للحمار ؟ لا ، لأن الحمار مهمته الحمل فحسب ، إنما يُذَمّ منهم أنْ يحملوا كتاب الله

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله فإنها رأت ملكاً ، وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان فإنه رأى شيطاناً » أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٠٣) ، وأحمد في مسنده (٢/٣٠٧ ، ٣٢١ ، ٣٦٤) .

ولا يعملوا به ، فالحمار مهمته أنْ يحمل ، وأنت مهمتك أنْ تفقه ما حملت وأنْ تؤديه .

فالاعتدال في الصوت أمر ينبغي أن يتحلى به المؤمن حتى في الصلاة وفي التعبد يُعلِّمنا الحق سبحانه : ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء] أما ما تسمعه من (الجعر) في مكبرات الصوت والنُّواح طوال الليل فلا ينالنا منه إلا سخط المريض وسخط صاحب العمل وغيرهم ، ولقد تعمدنا عمل إحصاء فوجدنا أن الذين يأتون إلى المسجد هم هم لم يزيدوا شيئاً بـ (الميكروفونات) .

كذلك الذين يرفعون أصواتهم بقراءة القرآن في المساجد فيشغلون الناس ، وينبغي أن تترك كل إنسان يتقرب إلى الله بما يخفّ على نفسه : هذا يريد أنْ يصلي ، وهذا يريد أن يُسبِّح أو يستغفر ، وهذا يريد أنْ يقرأ في كتاب الله ، فلماذا تحمل الناس على تطوعك أنت ؟

بعد أنْ عرضتْ لنا الآيات طرفاً من حكمة لقمان ووصاياه لولده تنقلنا إلى معنى كوني جديد :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً
وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ
بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

التسخير : هو الانقياد للخالق الأعلى بمهمة يؤديها بلا اختيار في

التنقُّل منها ، كما سخر الله الشمس والقمر .. إلخ ، فعلى الرغم من أن كثيراً من الناس منصرفون عن الله وعن منهج الله لم تتأبَّ الشمس في يوم من الأيام أنْ تشرق عليهم ، ولا امتنع عنهم الهواء ، ولا ضنَّتْ عليهم الأرض بخيراتها ولا السماء بمائها . لماذا ؟ لأنها مُسخَّرة لا اختيارَ لها .

ولا تفهم من ذلك أن الله سخَّر هذه المخلوقات رغماً عنها ، فهذا فهم سطحي لهذه المسألة ، حيث يرى البعض أن الإنسان فقط هو الذي خُيِّر ، إنما الحقيقة أن الكون كله خُيِّر ، وهذا واضح في قول الله تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

إذن : فالجميع خُيِّر ، خُيِّرت السموات والأرض والجبال فاختارت أن تكون مُسخَّرة لا إرادةَ لها ، وخُيِّر الإنسان فاختار أنْ يكون مختاراً ؛ لأن له عقلاً يفكر به ويقارن بين البدائل .

ومعنى التسخير أنك لا تستطيع أن تخضع ما ينفعك من الأشياء في الكون بعقلك ولا بإرادتك ولا بالمنهج ، والدليل على ذلك أنك إذا صدْتَ طيراً وحبسته في قفص ومنعته من أنْ يطير في السماء وتريد أنْ تعرف : أهو مُسخَّر لك أم غير مسخر وحبسه حلال أم حرام ؟ فافتح له باب القفص ، فإنْ ظلَّ في صحبتك فهو مُسخَّر لك ، راضٍ عن بقائه معك باللقمة التي يأكلها أو المكان الذي أعددتَهُ له ، وإنْ خرج وترك صحبتك فاعلم أنه غير مُسخَّر لك ، ولا يحقُّ لك أنْ تستأنسه رغماً عنه .

لذلك سيدنا عمر - رضي الله عنه - لما مرَّ بغلام صغير يلعب بعصفور أراد أنْ يُعلِّمه درساً وهو ما يزال (عجينة) طيِّعة ، فأقنعه

أنْ يبيعه العصفور ، فلما اشتراه عمر وصار في حوزته أطلقه ، فقال الغلام : فو الله ما قَصَّرْتُ بعدها حيواناً على الأنس به .

وسبق أنْ تكلمنا عن مسألة التسخير ، وكيف أن الله سخر الجمل الضخم بحيث يسوقه الصبي الصغير ولم يُسخِّر لك مثلاً البرغوث فلو لم يُذلِّل الله لك هذه المخلوقات ويجعلها في خدمتك ما استطعت أنت تسخيرها بقوتك .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً .. (٢٠) ﴾ [لقمان] أسبغ : أتمّ وأكمل ، ومنها قوله تعالى عن سيدنا داود : ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ .. (١١) ﴾ [سبأ] أي : دروعاً ساترة محكمة تقي لابسها من ضربات السيوف وطعنات الرماح ، والدروع تُجعل على الأعضاء الهامة من الجسم كالقلب والرئتين ، وقد علَّم الله تعالى داود أن يصنع الدروع على هيئة الضلوع ، ليست ملساء ، إنما فيها نتوءات تتحطم عليها قوة الضربة ، ولا تتزحلق فتصيب مكاناً آخر .

ورُوِي أن لقمان رأى داود - عليه السلام - يعجن الحديد بين يديه فتعجب ، لكنه لم يبادره بالسؤال عما يرى وأمهله إلى أن انتهى من صنعته للدرع ، فأخذه ولبسه وقال : نِعْمَ لَبُوس الحرب أنت ، فقال لقمان : الصمت حُكْمٌ وقليل فاعله[1] فظلت حكمة تتردد إلى آخر الزمان .

فمعنى أسبغ علينا النعمة : أتمها إتماماً يستوعب كل حركة

---

(١) أخرج العسكري في الأمثال والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس أن لقمان عليه السلام كان عبداً لداود ، وهو يسرد الدرع ، فجعل يفتله هكذا بيده ، فجعل لقمان عليه السلام يتعجب ويريد أن يسأله وتمنعه حكمته أن يسأله . فلما فرغ منها صبها على نفسه وقال : نِعْمَ درع الحرب هذه . فقال لقمان : الصمت من الحكمة وقليل فاعله . كنت أردت أن أسألك فسكت حتى كفيتني

حياتكم ، ويمدكم دائماً بمقوِّمات هذه الحياة بحيث لا ينقصكم شيء ، لا في استبقاء الحياة ، ولا في استبقاء النوع ؛ لأن الذي خلق سبحانه يعلم كل ما يحتاجه المخلوق .

أما إذا رأيتَ قصوراً في ناحية ، فالقصور من ناحية الخَلْق في أنهم لم يستنبطوا من معطيات الكون ، أو استنبطوا خيرات الكون ، لكن بخلوا بها وضنُّوا على غيرهم ، وهذه هي آفة العالم في العصر الحديث ، حيث تجد قوماً قعدوا وتكاسلوا عن البحث وعن الاستنباط ، وآخرين جدُّوا ، لكنهم بخلوا بثمرات جدهم ، وربما فاضتْ عندهم الخيرات حتى ألقَوْها في البحر ، وأتلفوها في الوقت الذي يموت فيه آخرون جوعاً وفقراً .

إذن : فآفة العالم ليس في أنه لا يجد ، إنما في أنه لا يحسن استغلال ما يجد من خيرات ، ومن مُقوِّمات لله تعالى في كونه . فقوله تعالى : ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً .. (٢٠)﴾ [لقمان] هذه حقيقة لا ينكرها أحد ، فهل تنكرون أنه خلقكم ، وخلق لكم من أنفسكم أزواجاً منها تتناسلون ؟

هل تنكرون أنه خلق السموات بما فيها من الكواكب والمجرّات ، وخلق الليل فيه منامكم ، والنهار وفيه سعيكم على معايشكم ؟ ثم في أنفسكم وما خلقه فيكم من الحواس الظاهرة وغير الظاهرة ، وجعل لكل منها مجالاً ومهمة تؤديها دون أنْ تشعر أنت بما أودعه الله في جسمك من الآيات والمعجزات ، وكل يوم يطلع علينا العلم بجديد من نِعَم الله علينا في أنفسنا وفي الكون من حولنا .

فمعنى ﴿ظَاهِرَةً .. (٢٠)﴾ [لقمان] أي : التي ظهرتْ لنا ﴿وَبَاطِنَةً .. (٢٠)﴾ [لقمان] لم نصل إليها بعد ، ومن نِعَم الله علينا ما ندركه ، ومنها ما لا ندركه .

تأمل في نفسك مثلاً الكليتين وكيف تعمل بداخلك وتصفى الدم من البولينا ، فتنقيه وأنت لا تشعر بها . وأول ما فكر العلماء في عمل بديل لها حال فشلها صمموا جهازاً يملأ حجرة كبيرة ، كانت نصف هذا المسجد من المعدات لتعمل عمل الكليتين ، ثم تبين لهم أن الكُلْيَة عبارة عن مليون خلية لا يعمل منها إلا مائة بالتناوب .

وقالوا : إن الفشل الكُلَوى عبارة عن عدم تنبه المائة خلية المناط بها العمل في الوقت المناسب يعني المائة الأولى أدَّتْ مهمتها وتوقفت دون أنْ تتنبه المائة الأخرى ، ومن هندسة الجسم البشرى أن خلق الله للإنسان كليتين ، حتى إذا تعطلت إحداهما قامت الأخرى بدورها

أما النعم الباطنة فمنه ما يُكتشف في مستقبل الأيام من آيات ونِعَم ، فمنذ عدة سنوات أو عدة قرون لم نكُنْ نعرف شيئاً عن الكهرباء مثلاً ، ولا عن السيارات وآلات النقل وعصر العجلة والبخار .. إلخ .

كلها نِعَم ظاهرة لنا الآن ، وكانت مستورة قبل ذلك أظهرها النشاط العلمي والبحث والاستنباط من معطيات الكون ، وحين تحسب ما أظهره العلم من نِعَم الله تجده حوالى ٣٪ ونسبة ٩٧٪ عرفها الإنسان بالصدفة .

وقلنا : إن أسرار الله ونعمه في كونه لا تتناهى ، وليس لأحد أن يقول : إن ما وضعه الله في الأرض من آيات وأسرار أدى مهمته ؛ لأنه باق ببقاء الحياة الدنيا ، ولا يتوقف إلا إذا تحقَّق قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا

أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً[1] كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ .. ﴿٢٤﴾ [يونس]

وفي الآخرة سنرى من آيات الله ومن عجائب مخلوقاته شيئاً آخر ، وكأن الحق تعالى يقول لنا : لقد رأيتُم آياتي في الدنيا واستوعبتموها ، فتعالوا لأريكم الآيات الكبرى التي أعددتها لكم في الآخرة .

ففي الآخرة سأنشئكم نشأة أخرى ، بحيث تأكلون ولا تتغوَّطون ولا تتألمون ، وتمر عليكم الأعوام ولا تشيبون ، ولا تمرضون ، ولا تموتون ، لقد كنتم في الدنيا تعيشون بأسبابي ، أما في الآخرة فأنتم معي مع المسبِّب سبحانه ، فلا حاجة لكم للأسباب ، لا لشمس ولا لقمر ولا .. إلخ .

لذلك نقول : من أدب العلماء أنْ يقولوا اكتشفنا لا اخترعنا ؛ لأن آيات الله ونعَمه مطمورة في كونه تحتاج لمن يُنقِّب عنها ويستنتجها مما جعله الله في كونه من معطيات ومقدمات .

وسبق أنْ قلنا : إن كل سرٍّ من أسرار الله في كونه له ميلاد كميلاد الإنسان ، فإذا حان وقته أظهره الله ، إما ببحث العلماء وإلا جاء مصادفة تكرُّماً من الله تعالى على خَلْقه الذين قَصُرَت جهودهم عن الوصول إلى أسراره تعالى في كونه .

وفي هذا إشارة ومقدمة لأنْ نؤمن بالغيب الذي أخبرنا الله به ، فما دُمْنا قد رأينا نعَمه التي كانت مطمورة في كونه فينبغي علينا أنْ نؤمنَ بما يخبرنا به من الغيب ، وأنْ نأخذَ من المُشاهَد دليلاً على ما غاب .

---

(١) من هذا قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء] أي كالزرع المحصود أي : أهلكناهم . [القاموس القويم ١/١٥٦]

واقرأ فى هذه المسألة قول الله تعالى : ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة] أى : شاء سبحانه أنْ يوجد هذا الغيب ، وأن يظهر للناس بعد أنْ كان مطموراً ، فإنْ صادف بحثاً جاء مع البحث ، وإنْ لم يصادف جاء مصادفة وبلا أسباب ، بدليل أنه نسب إحاطة العلم لهم .

أما الغيب الذي ليس له مُقدِّمات توصل إليه ، ولا يطلع عليه إلا الله فهو المعنيّ بقوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. (٢٧) ﴾ [الجن]

وقال سبحانه ﴿ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً .. (٢٠) ﴾ [لقمان] لأن الظاهرة تلفتنا إلى الإيمان بالله واجب الوجود الأعلى ، والباطنة يدخرها الله لمن يأتي بعد ، ثم يدخر ادخاراً آخر ، بحيث لا يظهر إلا حين نكون مع الله فى جنة الله .

وقد حاول العلماء أن يُعدِّدوا النعم والآيات الظاهرة والباطنة ، فالظاهرة ما يعطيه لنا فى الدنيا ظاهراً ، والباطنة ما أخبرنا الله بها ، فمثلاً حين تريد الجهاد فى سبيل الله تُعدُّ لذلك عُدَّته من سلاح وجنود .. الخ وتأخذ بالأسباب ، فيؤيدك الله بجنود من عنده لم تروْها ، كما قال سبحانه : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ .. (١٢) ﴾ [الأنفال]

والرسول ﷺ يخبرنا ببعض هذه النعم الباطنة ، فيقول : « للمؤمن ثلاثة هي له وليست له - يعني ليست من عمله - أما الأولى : أن المؤمنين يصلون عليه ، وأما الثانية فجعل الله له ثلث ماله يوصي به - يعني : لا يتركه للورثة إنما يتصرف هو فيه ، وكان المنطق أن تستفيد بما لك وأنت حيٌّ ، فإذا ما انتهيت فليس لك منه شيء وينتقل إلى الورثة يوزعه الله تعالى بينهم بالميراث الذى

شرعه ، فمن النعم أن يباح لك التصرف في ثلث ما لك توصي به لتُكفِّر به عن سيئاتك وتُطهِّر به ذنوبك - أما الثالثة : أن الله تعالى ستر مساويك عن خَلْقه ، ولو فضحك بها لنبذك أهلك وأحبابك وأقرباؤك »[1] .

إن من أعظم النعم علينا أن يحجب الله الغيب عن خَلْق الله ، ولو خيَّرتَ أيَّ إنسان : أتحب أن تعرف غَيْب الناس ويعرفوا غيبك ؟ فلا شكَّ في أنه لن يرضى بذلك أبداً .

والنبي ﷺ يوضح هذه المسألة في قوله : « لو تكاشفتم ما تدافنتم » يعني : لو ظهر المستور من غيب الإنسان ، واطلع الناس على ما في قلبه لتركوه إنْ مات لا يدفنونه ، ولقالوا دَعُوه للكلاب تأكله ، جزاءً له على ما فعل .

لكن لما ستر الله غيوب الناس وجدنا حتى عدو الإنسان يُسرع بحمله ودفنه ، كما قال القائل : محا الموت أسباب العداوة بيننا . لكن من غباء الإنسان أن ينبشَ عن عيوب الآخرين ، وأنْ يتتبعَ عوراتهم ، فهل ترضى أنْ يعاملك الناس بالمثل ، فيتتبعون عوراتك ، ويبحثون عن عيوبك ؟

ثم إن سيئة واحدة يعرفها الناس عنك كفيلة بأن تُزهِّدهم في كل

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « سألت رسول الله ﷺ عن قوله ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً .. (٢٠)﴾ [لقمان] قال : أما الظاهرة فالإسلام وما سوَّى من خلقك وما أسبغ عليك من رزقه . وأما الباطنة فما ستر من مساوىء عملك . يا ابن عباس إن الله تعالى يقول : ثلاث جعلتهن للمؤمن : صلاة المؤمنين عليه من بعده ، وجعلت له ثلث ماله أكفر عنه من خطاياه ، وسترت عليه من مساوىء عمله فلم أفضحه بشيء منها ، ولو أبديتها لنبذه أهله فمن سواهم » أخرجه ابن مردويه والبيهقي والديلمي وابن النجار . [ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٥٢٥]

حسناتك ، والله تعالى يريد أنْ ينتفع الناس بعضهم ببعض ليثرى حركة الحياة .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) ﴾ [لقمان]

المجادلة : الحوار في أمر ، لكل طرف فيه جنود ، وكل منهم لا يؤمن برأى الآخر ، والجدل لا يكون إلا في سبيل الوصول إلى الحقيقة ، ويسمونه الجدل الحتمى ، وهذا يكون موضوعياً لا لَدَدَ فيه ، ويعتمد على العلم والهدى والكتاب المنير ، وفيه نقابل الرأى بالرأى ليثمر الجدال .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٤٦) ﴾ [العنكبوت] أما الجدل الذى يريد فيه كل طرف أنْ يُعلى رأيه ولو بالباطل فهو مماراة وسفسطة لا توصل إلى شيء .

والجدل مأخوذ من الجَدْل أى الفَتْل ، والشيء حين يُفتل على مثله يقويه ، كذلك الرأى فى الجدل يُقوِّى الرأى الآخر ، فإذا ما انتهيا إلى الصواب تكاتفا على إظهاره وتقويته ، فالجدل المراد به تقوية الحق وإظهاره .

فإنْ كان الجدل غير ذلك فهو مماراة يحرص فيها كل طرف على أن يعلى رأيه ولو بالباطل .

والحق سبحانه يبين لنا أن من الناس من أَلِفَ الجدل فى الله على غير علم ولا هُدىً ولا كتاب منير ، فيقولون مثلاً فى جدالهم : أللكون إله موجود ؟ وإنْ كان موجوداً ، أهو واحد أم متعدد ؟ وإنْ كان موجوداً أيعلم الجزئيات أم الكليات ؟ أيزاول مُلْكه كل وقت ؟ أم أنه

خلق القوانين ، ثم تركها تعمل فى الكون وتُسيِّره ؟ كأن الله تعالى زاول سلطانه فى المُلْك مرة واحدة .

ومعلوم أن الله تعالى قيُّوم أى : قائم على أمر الخَلْق كله فى كل وقت ، والدليل على ذلك هذه المعجزات التى خرقتْ النواميس لتدلَّ على صِدْق الرسل فى البلاغ عن الله ، كما عرفنا فى قصة إحراق إبراهيم ـ عليه السلام ـ فلو أن المسألة إنجاء إبراهيم من النار لما مكَّنهم الله منه ، أو مكَّنهم منه ومن إلقائه فى النار ، ثم أرسل على النار سحابة تُطفئها .

لكن أراد سبحانه أن يشعلوا النار ، وأنْ يُلقوا بإبراهيم فيها ، ومع ذلك يخرج منها سالماً ليروْا بأعينهم هذه المعجزة الخارقة لقانون النار ليكبتهم الله ، ولا يعطيهم الفرصة ليخدعوا الناس ، ولو أفلتَ إبراهيم من قبضتهم لوجدوا هذه الفرصة ولقالوا : لو أمسكنا به لفعلنا به كذا وكذا .

ومعنى ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٠)﴾ [لقمان] العلم أن تعرف قضية وتجزم بها ، وهى واقعة وتستطيع أنْ تُدلِّل عليها ، فإنْ كانت القضية التى تؤمن بها غير واقعة ، فهذا هو الجهل ، فالجاهل لا يوضع فى مقابل العالم ؛ لأن الجاهل لديه علم بقضية لكنها باطلة ، وهذا يتعب فى الإقناع ؛ لأنه ليس خالى الذهن ، فيحتاج أولاً لأنْ تُخرج من ذهنه القضية الباطلة وتُحل محلها القضية الصحيحة ، أما الأُميّ فهو خَالى الذِّهن من أى قضيةَ .

فإنْ كانت القضية التى تجزم بها واقعة لكن لا تستطيع أنْ تُدلِّل عليها ، كالولد الصغير الذى علمناه أن (الله أحد) واستقرتْ فى ذهنه هذه المسألة ؛ لأن أباه أو معلمه لقَّنه هذه القضية حتى أصبحتْ

عقيدة عنده ، فالذى يُدلِّل عليها مَنْ لقّنها لـه إلى أنْ يكبر ، ويستطيع هو أن يُدلِّل عليها .

والعلم أنواع ، منها وأولها : العلم البدهى الذى نصل إليه بالبديهة دون بحث ، فمثلاً حين ترى الإنسان يتنفس نعلم أنه حيٌّ بالبديهة ، ونعلم أن الواحد نصف الاثنين ، وأن السماء فوقنا ، والأرض تحتنا .. الخ .

وإذا نظرتَ إلى معلومات الأرض كلها تجد أن أم هذه المعلومات البديهة . فعلم الهندسة مثلاً يقوم على نظريات تستخدم الأولى منها مقدمة لإثبات الثانية ، والثانية مقدمة لإثبات الثالثة وهكذا .

فحين تعيد تسلسل النظريات الهندسية فإنك لا بُدَّ عائد إلى النظرية الأولى وهى بديهة تقول : إذا التقى مستقيم بآخر نتج عن هذا الالتقاء زاويتان قائمتان .

إذن : فاعقد النظريات لا بُدَّ أن تعود إلى أمر بدهى منثور فى كون الله . المهم مَنْ يلتفت إليه ، وقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

فقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ .. (٢٠) ﴾ [لقمان] أى : وجوداً وصفاتاً ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٢٠) ﴾ [لقمان] يعنى : أن الجدل يصحّ إنْ كان بعلم وهدى وكتاب منير ، فإنْ كان بغير ذلك فلا يُعَدُّ جدلاً إنما مراء لا طائلَ من ورائه .

ومعنى الهدى : أى الاستدلال بشىء على آخر ، كالعربى الذى ضلَّ فى الصحراء ، فلما رأى على الرمال بعْراً وأثراً لأقدام استأنس

بها ، وعلم أنه على طريق مطروق ولا بُدَّ أن يمرَّ به أحد ، فلما عرضتْ له قضية الإيمان استدل عليها بما رأى فقال[1] :

البعرة تدل على البعير ، والقدم تدل على المسير ، سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، نجوم تزهر ، وبحار تزخر[2] .. ألاَ يدل ذلك على اللطيف الخبير ؟

فالإنسان حين ينظر فى الكون وفى آياته لا بُدَّ أنْ يصل من خلالها إلى الخالق عز وجل ، فما كان لها أنْ تتأتى وحدها ، ثم إنه لم يدَّعِها أحدٌ لنفسه ممَّنْ ينكرون وجود الله ، وقلنا : إن أتفه الأشياء التى نراها لا يمكن أن توجد هكذا بدون صانع ، فمثلاً الكوب الذى نشرب فيه ، هل رأينا مثلاً شجرة تطرح لنا أكواباً ؟

إذن : لا بُدَّ أن لها صانعاً فكر فى الحاجة إليها ، فصنعها بعد أنْ كان الإنسان يشرب الماء عباً[3] أو نزحاً بالكف ، وما توصلنا إلى هذا الكوب الرقيق النظيف إلا بعد بحث العلماء فى عناصر الوجود ، أيها يمكن أنْ يعطينى هذه الزجاجة الشفافة ، فوجدوا أنها تُصنَع من الرمل بعد صَهْره تحت درجة حرارة عالية ، فهذا الكوب الذى يمكن

---

(١) هو : قس بن ساعدة بن عمرو الإيادى ، أحد حكماء العرب ، ومن كبار خطبائهم فى الجاهلية ، كان أسقف نجران ، طالت حياته وأدركه النبى ﷺ قبل النبوة ، ورآه فى سوق عكاظ . توفى نحو ٢٣ ق هـ . [الأعلام للزركلى ٥/١٩٦] .

(٢) هذا الجزء من خطبة خطبها قس فى سوق عكاظ : أيها الناس ، اسمعوا وعُوا ، فإذا وعيتم فانتفعوا ، إنه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آتٍ آت ، مطر ونبات ، وأرزاق وأقوات .. إن فى السماء لخبراً ، وإن فى الأرض لعبراً ، ليلٌ داج ، وسماء ذات أبراج ، وأرض ذات رتاج ، وبحار ذات أمواج . [ذكرها البيهقى فى دلائل النبوة ٢/١٠٨] .

(٣) العب : شرب الماء من غير مصٍّ . وقيل : أن يشرب الماء ولا يتنفس . [لسان العرب ـ مادة : عبب] .

أنْ نستغني عنه آخذ منا خبرة وقدرة وعلماً .. إلخ .

فما بالك بالشمس التي تنير الكون كله منذ خلق الله هذا الكون دون أنْ تكلّ أو تملّ أو تتخلف يوماً واحداً ، وهي لا تحتاج إلى صيانة ولا إلى قطعة غيار ، أليست جديرة بأنْ نسأل عمَّنْ خلقها وأبدعها على هذه الصورة ؟ خاصة وأنها فوق قدرتنا ولا تنالها إمكاناتنا .

هذه هي الآيات التي نأخذها بالأدلة ، لكن هذه الأدلة لا تُوصِّلنا إلا إلى أن لهذا الكون بآياته العجيبة خالقاً مبدعاً ، لكن العقل لا يصل بي إلى هذا الخالق : مَنْ هو ، وما اسمه ، إذن : لا بُدَّ من بلاغ عن الله على يد رسول يبلغنا مَنْ هذا الخالق وما اسمه وما مطلوباته ، وماذا أعدّ لمن أطاعه ، وماذا أعدّ لمن عصاه .

وفَرْق بين التعقُّل والتصوُّر ، والذي أتعب الفلاسفة أنهم خلطوا بينهما ، فالتعقل أن أنظر في آيات الكون ، وأرى أن لها موجداً ، أمّا التصور فبأنْ أتصور هذا الموجِد : شكله ، اسمه ، صفاته .. إلخ وهذه لا تتأتى بالعقل ، إنما بالرسول الذي يأتي من قِبَل الإله الموجِد .

وسبق أن ضربنا مثلاً ـ ولله تعالى المثل الأعلى ـ قلنا : لو أننا نجلس في مكان مغلق ، وطرق الباب طارق ، فكلنا يتفق على أن طارقاً بالباب لا خلاف في هذه ، لكن نختلف في تصوُّره ، فواحد يتصور أنه رجل ، وآخر يقول : طفل . وآخر يتصوَّره امرأة ، وواحد يتصوره بشيراً ، وآخر يتصوره نذيراً .. إلخ .

إذن : اتفقنا في التعقُّل ، واختلفنا في التصور ، ولكي نعرف مَن الطارق فعلينا أن نقول : من الطارِق ؟ ليعلن هو عن نفسه ويخبرنا

مَنْ هو ؟ ولماذا جاء ؟ ويُنهى لنا هذا الخلاف .

كذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ هو الذى يخبرنا عن نفسه ، لكن كيف يتم ذلك ؟ من خلال رسول من البشر يستطيع أنْ يتجلى الله عليه بالخطاب ، بأن يكون مُعداً لتلقّى هذا الخطاب ، لا أنْ يخاطب كل الناس .

وقد مثّلنا لذلك أيضاً (بلمبة) الكهرباء الصغيرة أو (الراديو) الذى لا يتحمل التيار المباشر ، بل يحتاج إلى (ترانس) أو منظم يعطيه الكهرباء على قَدْره وإلا حُرق ، فحتى فى الماديات لابد من قوى يستقبل ليعطى الضعيف .

والحق سبحانه يُعد من خَلْقه مَنْ يتلقى عنه ، ويُبلّغ الناس ، فيكلم الله الملائكة ، والملائكة تكلم الرسل من البشر ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا .. (٥١) ﴾ [الشورى]

وإلا لو كلّم الله جميع البشر ، فما الحاجة للرسل ؟ لذلك لما سُئل الإمام على رضى الله عنه : أعرفتَ ربك بمحمد ، أم عرفتَ محمداً بربك ؟ فقال : لو عرفتُ ربى بمحمد لكان محمد أوثقَ عندى من ربى ، ولو عرفتُ محمداً بربى ، فما الحاجة إذن للرسل ؟ لكن عرفتُ ربى بربى ، وجاء محمد ، فبلّغنى مراد ربى منى . إذن : لا بُدَّ من هذه الواسطة .

والحق سبحانه يعطينا فى القرآن مثالاً يوضح هذه المسألة فى قوله تعالى عن سيدنا موسى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] فبماذا أجابه ربه ؟ ﴿ قَالَ لَن تَرَانِي .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] ولم يقل سبحانه : أنا لا أُرَى ، والمعنى : لو أعددتُك الإعدادَ المناسب لهذه الرؤية لرأيتَ بدليل أننا سنُعَدُّ فى الآخرة على هيئة نرى فيها الله عز وجل : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة]

وفي المقابل يقول عن الكفار الذين سيُحرمون هذه الرؤية : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ﴾ [المطففين]

ثم لما تجلى الحق سبحانه للجبل ، وهو الجنس الأقوى من موسى مادةً وصلابة اندكَّ الجبل ، ونظر موسى إلى الجبل المتجلَّى عليه فخرَّ صَعقاً ، فما بالك لو نظر إلى المتجلِّي سبحانه ؟

إذن : الحق سبحانه حينما يريد أنْ يخاطب أحداً من خَلْقه ، أو يتجلى عليه يُعدُّه لذلك ، ويُربِّيه على عينه ، كما قال عن موسى ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ۝٣٩ ﴾ [طه] وقال في موضع آخر : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ۝٤١ ﴾ [طه] ثم يقوم هذا المربي الذي رباه الله بتربية الخَلْق .

وقد ربى محمد ﷺ أمته في ثلاث وعشرين سنة ، ولو أن الله تعالى خاطب كل إنسان بالمنهج لاستغرقتْ تربية الناس وقتاً طويلاً ؛ لذلك يصطفي الله الرسل ، ويعطيهم من الخصائص ما يُمكِّنهم من تربية الأمم بعد أنْ ربَّاهم الله ، واصطنعهم على عينه .

إذن : كان ولا بُدَّ من إرسال الرسل للبلاغ عن الله : مَنْ هو ، ما اسمه ؟ ما صفاته ؟ ما مطلوباته ؟ ماذا أعدَّ لمن أطاعه ؟ وماذا أعد لمن عصاه .. إلخ . لذلك فأول دليل على بطلان الشرك أنْ تقول للذي يشرك الشمس أو القمر أو الأصنام مع الله في العبادة : وماذا قالت لك هذه الأشياء ؟ ما مطلوباتها ؟ ما مرادها منك ؟ وإلا ، فلماذا تعبدها والعبادة في أوضح معانيها : طاعة العابد لأمر المعبود ونهيه ؟

فإنْ قُلْتَ : إذن لماذا قَبِلَتْ عقول هؤلاء القوم أنْ يعبدوا هذه الأشياء ؟ نقول : لأن التديُّن طبيعة في النفس البشرية ومركوز في الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وسبق أنْ أوضحنا أن كلاً منا فيه ذرة حية من أبيه آدم ـ عليه السلام ـ لم يطرأ عليها الفناء ، وإلا لما وُجِد الإنسان ، وهذه الذرة في كل منا هي التي شهدتْ الفطرة ،

وشهدتْ الخلقَ ، وشهدتْ العهد الذي أخذه الله علينا جميعاً ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢)﴾ [الأعراف]

فإنْ حافظتَ على إشراقية هذه الذرة فيك ، ولم تُعرِّضها لما يطمس نورها ـ ولا يكون ذلك إلا بالسير على منهج خالقك وبناء لبنات جسمك مما أحل الله ـ إنْ فعلتَ ذلك أنار الله وجهك وبصيرتك .

لذلك جاء في الحديث أن العبد يشكو : يقول « دعوتُ فلم يُستجب لي . لكن أنَّى يستجاب له ، ومطعمه من حرام ، ومشربه من حرام ، وملبسه من حرام؟ »[1] كيف وقد طمس الذرة النورانية فيه ، وغفل عن قانون صيانتها ؟ واقرأ قوله تعالى : ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤)﴾ [طه]

فالمعيشة الضنك والعياذ بالله تأتي حين تنطمس النورانية الإيمانية ، وحين لا تحافظ على إشراقية هذه الذرة التي شهدتْ خَلْق الله ، وشهدتْ له بالربوبية ، ولو حافظت عليها لظلّتْ كل التعاليم واضحة أمامك ، وما غفلت عن منهج ربك هذه الغفلة التي جرَّتْ عليك المعيشة الضنك . واقرأ قول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. (٢٩)﴾ [الأنفال] أي : نوراً يهديكم وتُفرِّقون به بين الحق والباطل .

والحق سبحانه يوضح لنا ما يطمس الفطرة الإيمانية ، وهما

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠١٥) عن أبي هريرة قال قال ﷺ : « أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً . وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١)﴾ [المؤمنون] وقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (١٧٢)﴾ [البقرة] ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء ، يا رب ، يا رب ومطعمه حرام ، ومشربه حرام وملبسه حرام ، وغذي بالحرام ، فأنى يُستجاب لذلك ! » .

أمران : الغفلة والتى قال الله عنها : ﴿ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف] والقدوة التى قال الله عنها : ﴿ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ .. (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

فالذى يطمس الفطرة الإيمانية الغفلة عن المنهج ، هذه الغفلة تُوجِد جيلاً لا يتمسك بمنهج الحق ، وبذلك تكون العقبة فى الجيل الأول الغفلة ، لكن فى الأجيال اللاحقة الغفلة والقدوة السيئة ، وهكذا كلما تنقضى الأجيال تزداد الغفلة ، وتزداد القدوة السيئة ؛ لذلك يوالى الحق سبحانه إرسال الرسل ليزيح عن الخَلْق هذه الغفلة ، وليوجد لهم من جديد قدوةً حسنة ، ليقارنوا بين منهج الحق ومنهج الخَلْق .

فمَنْ أراد أنْ يجادل فى الله فليجادل بعلم وبهدى وبكتاب منير مُنزَّل من عند الله ، ووَصْف الكتاب بأنه منير يدلُّنا على أن الكتاب المنسوب إلى الله تعالى لا بُدَّ أن يكون منيراً ؛ لكنه قد يفقد هذا النور بما يطرأ عليه من تحريف وتبديل ونسيان وكتمان .. إلخ .

وقد أوضح الله تعالى هذه المراحل فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ .. (٤٤) ﴾ [الأنعام]

ثم : ﴿ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ .. (١٥٩) ﴾ [البقرة]

وإن كان الإنسان يُعذَر فى النسيان ، فلا يُعذَر فى الكتمان ، ثم الذى نجا من النسيان ومن الكتمان وقع فى التحريف ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ .. (١٣) ﴾ [المائدة] ولَيْتهم اقتصروا على ذلك ، إنما اختلقوا من عند أنفسهم كلاماً ، ثم نسبوه إلى الله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ .. (٧٩) ﴾ [البقرة] فأنواع الطمس هذه أربعة ظهرت كلها فى اليهود .

إذن : فالكتب التي بأيديهم لا تصلح للجدل في الله ؛ لأنها تفتقد العلم والحجة والهدى ، ولا تُعَدُّ من الكتاب المنير المشرق الذي يخلو من التضبيبات والفجوات ، فجوات النسيان والكتمان ، والتحريف والاختلاق .

فمَنْ يريد أنْ يجادل في الله فليجادل بناء على علم بدهيٍّ أو هدى استدلالي ، أو كتاب منير . والكتب المنزلة كثيرة ، منها صحف إبراهيم وموسى ، ومنها زُبُر[1] الأولين ، والزبور نزل على سيدنا داود ، والتوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى - عليهم جميعاً السلام - وهذه كلها كتب من عند الله ، لكن هل طرأ عليها حالة عدم الإنارة ؟

نقول : نعم ، لأنها انطمست بشهوات البشر فيها وبأهوائهم التي شوَّهتها وأخرجتها عن الإشراقية والنورانية التي كانت لها ، وهذا نتيجة السلطة الزمنية وهي أقسى شيء في تغيير المناهج .

هذه السلطة الزمنية هي التي منعتْ اليهود أن يؤمنوا برسول الله ، وهم يعلمون بعثته في بلاد العرب ، ويعلمون موعده وأوصافه ، وأنه ﷺ خاتم الرسل ؛ لذلك يقول القرآن عنهم : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. (٢٠) ﴾ [الأنعام]

ويقول عنهم : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) ﴾ [البقرة] لذلك ، سيدنا عبد الله بن سلام يقول عن سيدنا رسول الله : والله لقد عرفتُه حين رأيته كمعرفتي لابني ، ومعرفتي لمحمد أشد[2] .

---

(١) الزُّبُر : جمع زبور ، وهو الكتاب . زَبَر الكتاب يزبره : كتبه فهو مزبور ، وزبور : أي مكتوب . [القاموس القويم ١/٢٨٣]

(٢) يُروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر . نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته ، وإني لا أدري ما كان من أمه » ذكره ابن كثير في تفسيره (١/١٩٤)

ويحكي القرآن عن أهل الكتاب أنهم كانوا يستفتحون برسول الله على الكفار فيقولون لهم : لقد أظل زمان نبي جديد نسبقكم إليه، ونقتلكم به قتل عاد وإرم[1] ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة]

لماذا ؟ لأنهم يعلمون أنه سيسلبهم المكانة التي كانت لهم، والريادة التي أخذوها في العلم والاقتصاد والحرب .. إلخ، لقد كانوا يُعِدُّون واحداً[2] منهم ليُنصِّبوه ملكاً عليهم في المدينة ليلة هاجر إليها رسول الله، فلما دخلها رسول الله لم تَعُد لأحد مكانة الريادة بعد رسول الله، فرفض هذا الملك الجديد.

إذن : فكل الكتب السماوية لحقها التحريف والتغيير، فلم يضمن لها الحق سبحانه الصيانات التي تحميها كما حمى القرآن، وما ذاك إلا ليظهر شرف النبي الخاتم، فالكتب السابقة للقرآن جاءت كتبَ أحكام، ولم تكن معجزة في ذاتها، فالرسل السابقون كانت لهم معجزات منفصلة عن الكتب وعن المنهج، فموسى عليه السلام معجزته : العصا واليد .. إلخ وكتابه ومنهجه التوراة، وعيسى عليه السلام معجزته أنْ يُبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله وكتابه ومنهجه الإنجيل.

أما محمد ﷺ فمعجزته وكتابه ومنهجه هو القرآن، فهو منهج

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (١/١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق عن أشياخ من الأنصار.

(٢) هو عبد الله بن أبيّ بن سلول. قال سعد بن عبادة لرسول الله ﷺ : إنا والله يا رسول الله، لقد كنا قبل الذي خصنا الله به منك، ومَنَّ علينا بقدومك، أردنا أن نعقد على رأس عبد الله بن أبيٍّ التاج، ونملكه علينا. [أورده البيهقي في دلائل النبوة (٢/٥٠٠)]

ومعجزة ستصاحب الزمان إلى أنْ تقوم الساعة ؛ لأن رسالته هى الرسالة الخاتمة . فلا بُدَّ أن يكون كتابه ومعجزته كذلك فنقول . هذا محمد وهذه معجزته .

أما الرسالات السابقة فكانت المعجزة وقتية لمن رآها وعاصرها ، ولولا أن الله أخبرنا بها ما عرفنا عنها شيئاً ، وما صدَّقنا بها ، وسبق أنْ شبَّهناها بعود الكبريت الذى يشعل مرة واحدة رآه مَنْ رآه ، ثم يصبح خبراً ؛ لذلك لا نستطيع أن نقول مثلاً . هذا موسى عليه السلام وهذه معجزته ؛ لأننا لم نَرَ هذه المعجزة .

ولما كانت الكتب السابقة كتباً تحمل المنهج ، وليست معجزة فى ذاتها ترك الله تعالى حفظها لأهلها الذين آمنوا بها ، وهذا أمر تكليفى عُرْضة لأنْ يُطاع ، ولأنْ يُعصَى ، فكان منهم أنْ عصوا هذا الأمر فحدث تضبيب فى هذه الكتب .

يقول تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ .. (٤٤)﴾ [المائدة]

وساعة تسمع الهمزة والسين والتاء ، فاعلم أنها للطلب : استحفظتُك كذا يعنى : طلبتُ منك حفْظه ، مثل : استفهمتُ يعنى طلبت الفهم ، واستخرجت ، واستوضحت .. إلخ .

فلما جُرِّب الخَلْق فى حفظ كلام الخالق فلم يؤدوا ، ولم يحفظوا ، تكفَّل الله سبحانه بذاته بحفظ القرآن . وقال . ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر]

لذلك ظلَّ القرآن كما نزل لم تَنَلْه يد التحريف أو الزيادة

أو النقصان ، وصدق الله تعالى حين قال فى أول سورة ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ .. (٢) ﴾ [البقرة] لا الآن ، ولا بعد ، ولا إلى قيام الساعة ، حتى أن أعداء القرآن أنفسهم قالوا : لا يوجد كتاب مُوثَّق فى التاريخ إلا القرآن .

والعجيب فى مسألة حِفْظ القرآن أن الذى يحفظ شيئاً يحفظه ليكون حجة له ، لا حجة عليه ، كما تحفظ أنت الكمبيالة التى لك على خصمك ، أما الحق - سبحانه وتعالى - فقد ضمن حِفْظ القرآن ، والقرآن ينبىء بأشياء ستوجد فيما بعد ، والحق سبحانه لا يحفظ هذا ويُسجِّله على نفسه ، إلا إذا ضمن صدْق وتحقُّق ما أخبر به وإلا لما حفظه ، إذن : فحِفْظ الحق سبحانه للقرآن دليل على أنه لا يطرأ شىء فى الكون أبداً يناقض كلام الله فى القرآن : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ [النساء]

وسبق أنْ قُلنا : إن القرآن حكم فى أشياء مستقبلية للخلق فيها اختيار ، فيأتى اختيار الخَلْق وفق ما حكم ، مع أنهم كافرون بالقرآن، مكذبون له ، ومع ذلك لم يحدث منهم إلا ما أخبر الله به ، وكان بإمكانهم أنْ يمتنعوا ، لكن هيهات فلا يتم فى كون الله إلا ما أراد .

لكن ، ماذا نفعل فيمَنْ يجادل فى الله بغير علم ولا هُدىً ولا كتاب منير ؟ نلفته إلى العلم ، وإلى الهدى ، وإلى الكتاب المنير .

ندعوهم إلى النظر فى الآيات الكونية ، وفى البدهيات التى تثبت وجود الخالق عز وجل ، ندعوهم إلى الهدى ، والاستدلال وإلى النظر فى المعجزة التى جاء بها رسول الله ، ألم يخبر وهو فى شدة الحصار الذى ضربه عليه وعلى آله كفار مكة حتى اضطروهم إلى أكل الميتة وأوراق الشجر .. إلخ.

ألم يُخبر القرآن في هذه الأثناء بقوله تعالى : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] حتى أن سيدنا عمر ليتعجب : أيُّ جمع هذا ؟ ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا ؟ فلما جاء يوم بدر ورأى بعينه ما حاق بالكفار قال : صدق الله ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر]

ألم يقل القرآن عن الوليد بن المغيرة[1] ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦)﴾ [القلم] وفعلاً ، لم يعرفوا الوليد يوم بدر بين القتلى إلا بضربة على خرطومه[2] . ألم يُشِرْ رسول الله قبل المعركة إلى مصارع القوم ، فيقول وهو يشير إلى مكان بعينه : هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان[3] ، ثم تأتي المعركة ويُقتل هؤلاء في نفس الأماكن التي أشار إليها سيدنا رسول الله ﷺ .

والحق سبحانه أعطانا في القرآن أشياء تدل على أنه كتاب يُنَوِّر لنا الماضي ، ويُنَوِّر لنا الحاضر والمستقبل . وسبق أنْ قُلْنا : إن

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (٨/٦٦٢) : « اختلف في الذي نزلت فيه ، فقيل هو الوليد بن المغيرة وذكره يحي بن سلام في تفسيره ، وقيل : الأسود بن عبد يغوث ذكره سنيد بن داود في تفسيره ، وقيل : الأخنس بن شريق وذكره السهيلي عن القتيبي »

(٢) عن ابن عباس في قوله ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣)﴾ [القلم] قال . رجل من قريش كانت له زنمة زائدة مثل زنمة الشاة يعرف بها قال السيوطي في الدر المنثور (٨/٢٤٩) . أخرجه البخاري والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم » وعن ابن عباس أيضاً في قوله ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦)﴾ [القلم] : قاتل يوم بدر فخطم بالسيف في القتال ولم يذكر أنه الوليد بن المغيرة

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٧٩) من حديث أنس رضي الله عنه . وأحمد في مسنده (٣/٢١٩ ، ٢٥٨) أن رسول الله ﷺ قال : « هذا مصرع فلان » ويضع يده على الأرض هاهنا وهاهنا ، قال : فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ .

الغيب دونه حجب الزمان ، أو حجب المكان ، فما سبقك من أحداث يحجبها عنك حجاب الزمان الماضي ، وما سيحدث في المستقبل يحجبه عنك حجاب الزمان المستقبل ، أما الحاضر الذي تعيشه فيحجبه عنك المكان ، بل وقد تكون في نفس المكان وتجلس معي ، لكنك لا تعرف ما في صدري مثلاً .

وكل هذه الحجب خرقها الحق سبحانه لرسوله ﷺ ، فمثلاً في غزوة مؤتة[1] لما بعث النبي ﷺ جيشه إليها ، وبقي هو في المدينة قال : حين وزَّع القيادة . يحمل الراية فلان ، فإذا قُتل يحملها فلان ، فإذا قُتل يحملها فلان وسمَّى هؤلاء الثلاثة . ثم قال : فإذا قُتل الثالث فاختاروا من بينكم مَنْ يحملها[2] .

وجلس النبي ﷺ بين أصحابه في المدينة ، وأخذ يصف لهم المعركة وصفاً تفصيلياً ، فلما عاد الجيش من مؤتة وجدوا واقع المعركة وفق ما أخبر به النبي ﷺ وهو في المدينة .

وقد نبهتنا هذه المسألة إلى السر في تسمية مؤتة (غزوة) وكانوا لا يقولون غزوة إلا للتي شهدها رسول الله بنفسه ، أما التي لا يخرج فيها فتسمَّى (سرية) فلما أخبر ﷺ بما يدور في المعركة مع بُعد المسافات اعتبرها المسلمون غزوة .

بل وأبلغ من ذلك ، فالحق سبحانه كشف لرسوله ﷺ ما يدور

---

(١) وقعت غزوة مؤتة في جمادي الأولى عام ٨ هجرية ، ومؤتة : قرية من أرض البلقاء من الشام . وتسمى أيضاً غزوة جيش الأمراء ، وقد كانت غزوة شديدة ، استشهد فيها جعفر ابن أبي طالب ، وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ، قاتلوا فيها الروم .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٢٦٢) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/٣٦٦) وفيه أن رسول الله ﷺ نعاهم قبل أن يجيء الخبر .

فى نفوس قومه[1] : ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. ⑧﴾ [المجادلة]

هذه كلها من آيات الإنارة فى القرآن التى استوعبتْ الماضى والحاضر والمستقبل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

كلمة ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ .. ﴿٢١﴾﴾ [لقمان] عامة تشمل كل الكتب المنزَّلة ، وأقرب شىء فى معناها أن نقول . اتبعوا ما أنزل الله على رسلكم الذين آمنتم بهم ، ولو فعلتم ذلك لَسلَّمتم بصدق رسول الله وأقررتم برسالته .

أو . يكون المعنى ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ .. ﴿٢١﴾﴾ [لقمان] أى تصحيحاً للأوضاع ، واعرضوه على عقولكم وتأملوه .

لكن يأتى ردهم : (بَلْ) وبل تفيد إضرابهم عما أنزل الله ﴿نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ﴿٢١﴾﴾ [لقمان] وفى آية أخرى ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية (٤/٣٢٣) : أى يفعلون هذا ويقولون ما يحرفون من الكلام وإيهام السلام وإنما هو شتم فى الباطن ومع هذا يقولون فى أنفسهم : لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول له فى الباطن لأن الله يعلم ما نسره ، فلو كان هذا نبياً حقاً لأوشك أن يعجلنا الله بالعقوبة فى الدنيا فقال الله تعالى : ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ⑧﴾ [المجادلة]

فما الفرق بين (وجدنا) و (ألفينا) وهما بمعنى واحد ؟ قالوا: لأن أعمار المخاطبين مختلفة في صُحْبة آبائهم والتأثر بهم ، فبعضهم عاش مع آبائه يُقلِّدهم فترة قصيرة ، وبعضهم عاصر الآباء فترة طويلة حتى ألف ما هم عليه وعشقه ؛ لذلك قال القرآن مرة (أَلْفَيْنَا) ومرة (وَجَدْنَا) .

والاختلاف الثاني تلحظه في اختلاف تذييل الآيتين ، فمرة يقول : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة] ومرة أخرى يقول : ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [المائدة]

فما الفرق بين : يعقلون ويعلمون ؟

الذي يعقل هو الذي يستطيع بعقله أنْ يستنبط الأشياء ، فإذا لم يكن لديه العقل الاستنباطي عرف المسألة ممَّنْ يستنبطها ، وعليه فالعلم أوسع دائرة من العقل ؛ لأن العقل يعلم ما عقله ، أما العلم فيعلم ما عقله هو وما عقله غيره ، فقوله (يَعْلَمُونَ) تشمل أيضاً (يَعْقِلُونَ) .

إذن : إذا نُفي العقل لا يُنْفي العلم ؛ لأن غيرك يستنبط لك فالرجل الريفي البسيط يستطيع أن يدير التلفزيون مثلاً ويستفيد به ويتجول بين قنواته ، وهو لا يعرف شيئاً عن طبيعة عمل هذا الجهاز الذي بين يديه ، إنما تعلَّمه من الذي يعلمه ، فالإنسان يعلم ما يعقله بذاته ، ويعلم ما يعقله غيره ، ويؤديه إليه ؛ لذلك فنَفْي العلم دليل على الجهل المطبق الذي لا أملَ معه في إصلاح الحال .

ونلحظ أيضاً أن القرآن يقول هنا : ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ﴿٢١﴾ ﴾ [لقمان] ، وفي موضع آخر يقول : ﴿ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ﴿١٠٤﴾ ﴾ [المائدة] فقولهم : نتبع ما وجدنا عليه آباءنا

فيه دلالة على إمكانية اتباعهم للحق ، فالإنكار هنا بسيط ، أما الذين قالوا ﴿حَسْبُنَا.. (١٠٤)﴾ [المائدة] يعنى : يكفينا ولا نريد غيره ، فهو دلالة على شدة الإنكار ؛ لذلك فى الأولى نفى عنهم العقل ، أما فى الأخرى فنفى عنهم العلم ، فعَجُز الآيات يأتى مناسباً لصدرها .

وهنا يقول تعالى فى تذييل هذه الآية ﴿أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٢١)﴾ [لقمان] لأن آباءهم ما ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه من عبادة الأصنام والكفر بالله إلا بوسوسة الشيطان ، فالشيطان قَدْر مشترك بينهم وبين آبائهم .

وهذا يدلنا على أن منافذ الإغواء مرة تأتى من النفس ، ومرة تأتى من الشيطان ، وبهما يُطمس نور الإيمان ونور المنهج فى نفس المؤمن .

وسبق أنْ بينًا أنك تستطيع أن تفرق بين المعصية التى تأتيك من قِبَل الشيطان ، والتى تأتيك من قِبَل نفسك ، فالشيطان يريدك عاصياً على أىِّ وجه من الوجوه ، فإذا تأبيْتَ عليه فى ناحية نقلك إلى ناحية أخرى .

أما النفس فتريد معصية بعينها تقف عندها لا تتحول عنها ، فالنفس تميل إلى شىء بعينه ، ويصعب عليها أنْ تتوبَ منه ، ولكل نفس نقطة ضعف أو شهوة تفضلها ؛ لذلك بعض الناس لديهم كما قلنا (طفاشات) للنفوس ؛ لأنهم بالممارسة والتجربة يعرفون نقطة الضعف فى الإنسان ويصلون إليه من خلالها ، فهذا مدخله كذا ، وهذا مدخله كذا .

لكن نرى الكثيرين ممن يقعون فى المعصية يُلْقون بالتبعة على

الشيطان ، فيقول الواحد منهم : لقد أغواني الشيطان ، ولا يتهم نفسه ، وهذا يكذّبه الحديث النبوى فى رمضان :

« إذا جاء رمضان فُتحت أبواب الجنة ، وغُلّقت أبواب النار ، وصُفّدت الشياطين »[1] .

فلو أن المعاصى كلها من قِبَل الشيطان ما رأينا معصية فى رمضان ، ولا ارتكبت فيه جريمة ، أما وتقع فيه المعاصى وتُرتكب الجرائم ، فلا بُدَّ أن لها سبباً آخر غير الشيطان ؛ لأن الشياطين مُصفَّدة فيه مقيدة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾

يعنى : مَنْ أراد أن يُخلِّص نفسه من الجدل بغير علم ، وبغير هدى ، وبغير كتاب منير ، فعليه أنْ يُسلم وجهه إلى الله ؛ لأن الله تعالى قال فى آية أخرى : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [ص] ثم استثنى منهم ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحجر]

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الإسراء]

ومعنى ﴿ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ.. ﴿٢٢﴾ ﴾ [لقمان] أخلص وجهه فى

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٧٩) ، والإمام أحمد فى مسنده (٢/٣٥٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه

عبادته لله وحده ، وبذلك يكون فى معية الله ، ومَنْ كان فى معية ربه فلا يجرؤ الشيطان على غوايته ، ولا يُضيع وقته معه ، إنما ينصرف عنه إلى غافل يستطيع الدخول إليه ، فالذى ينجيك من الشيطان أنْ تُسلم وجهك لله .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بالولد الصغير حينما يسير فى صحبة أبيه فلا يجرؤ أحد من الصبيان أن يعتدى عليه ، أما إنْ سار بمفرده فهو عُرْضة لذلك ، لا يَسْلَم منه بحال ، كذلك العبد إنِ انفلتَ من يد الله ومعيته .

وهذا المعنى ورد أيضاً فى قوله سبحانه : ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ .. (١١٢)﴾ [البقرة] وهنا قال ﴿إِلَى اللَّهِ.. (٢٢)﴾ [لقمان] فما الفرق بين حرفى الجر : إلى ، اللام ؟

استعمال (إلى) تدل على أن الله تعالى هو الغاية ، والغاية لا بُدَّ لها من طريق للهداية يُوصِّل إليها . أمَّا (اللام) فتعنى الوَصْل لله مباشرة دون قطع طريق ، وهذا الوصول المباشر لا يكون إلا بدرجة عالية من الإخلاص لله .

فقوله تعالى : ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ .. (٢٢)﴾ [لقمان] يعنى : أنك على الطريق الموصِّل إلى الله تعالى ، وأنك تؤدى ما افترضه عليك .

ومن إسلام الوجه لله قَوْل ملكة سبأ : ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾ [النمل] الكلام هنا كلام ملكة ، فلم تقل : أسلمتُ لسليمان ، لكن مع سليمان لله ، فلا غضاضة إذن .

وإسلام الوجه لله ، أو إخلاص العمل لله تعالى عملية دقيقة تحتاج

من العبد إلى قدر كبير من المجاهدة ؛ لأن النفس لا تخلو من هفوة ، وكثيراً ما يبدأ الإنسان العمل مخلصاً لله ، لكن سرعان ما تتدخل النفس بما لها من حب الصِّيت والسمعة ، فيخالط العملَ شيء من الرياء ولو كان يسيراً .

لذلك ؛ فإن سيدنا رسول الله ﷺ يتحمل عنا هذه المسألة ويطمئن المسلم على عمله ، فيقول في دعائه : « اللهم إني أستغفرك من كل عمل أردتُ به وجهك ، فخالطني فيه ما ليس لك »[1] .

والنبي ﷺ ليس مظنة ذلك ، لكن الحق سبحانه علَّمه أن يتحمل عن أمته كما تحمَّل الله عنه في قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ .. (٣٣) ﴾ [الأنعام] أي : أنك أسمى عندهم من أن تكون كاذباً .

﴿ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى : ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ .. (٢٢) ﴾ [لقمان] كلمة استمسك تدلُّ على القوة في الفعل والتشبُّث بالشيء ؛ كما تقول (تثبَّت فيه) ، وهي تعني : طلب أنْ يمسك ؛ لذلك لم يَقُل مسك إنما (استمسك) .

وأول مظاهر الاستمساك أنك لا تطمئن إلى ضعف نفسك ، فيكون تمسكك بالعروة الوثقى أشدَّ ، كما لو أنك ستنزل من مكان عالٍ على حبل مثلاً فتتشبث به بشدة ؛ لأنك إنْ تهاونت في الاستمساك به

---

(١) قال سفيان بن عيينة : كان من دعاء مطرف بن عبد الله : « اللهم إني أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسي ، ثم لم أفِ لك به ، وأستغفرك مما زعمت أني أردت به وجهك ، فخالط قلبي منه ما قد علمت » ذكره ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم (ص ٢٧) وانظر حلية الأولياء (٢٠٧/٢) .

سقطت ، وهذا دليل على ثقتك بضعف نفسك ، وأنه لا يُنجيك من الهلاك ، ولا واقيَ لك إلا أنْ تستمسك بهذا الحبل .

كذلك الذي يُسلِم وجهه لله ويُمسك بالعروة الوثقى ، فليس له إلا هذه مُنْجية وواقية .

وكلمة ﴿ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ..(٢٢)﴾ [لقمان] العروة : هي اليد التي نمسك بها الكوز أو الكوب أو الإبريق ، وهي التي تفرق بين الكوب والكاس ، فالكاس لا عروة لها ، إلا إذا شُرِب فيها الشراب الساخن ، فيجعلون لها يداً .

ومعنى ﴿ الْوُثْقَىٰ ..(٢٢)﴾ [لقمان] أي : المحكمة ، وهي تأنيث أوثق ، نقول : هذا أوثق ، وهذه وُثْقى ، مثل أصغر وصُغْرى ، وهي تعني الشيء المرتبط ارتباطاً وثيقاً بأصله ، فإنْ كان دَلْواً فهي وُثْقى بالدلو ، وإنْ كان كوباً فهي وُثْقى بالكوب ، فهي الموثقة التي لا تنقطع ، ولا تنفصل عن أصلها .

والعُرْوة تختلف باختلاف الموثِّق ، فإنْ صنع العروة صانع غاشٌ ، جاءت ضعيفة هشَّة ، بمجرد أنْ تمسك بها تنخلع في يدك ، وهذا ما تسميه « الغش التجاري » وهو احتيال لتكون السلعة رخيصة يقبل عليها المشتري ، ثم يكون المعوَّض في ارتفاع قطع الغيار ، كما نرى في السيارات مثلاً ، فترى السيارة رخيصة وتنظر إلى ثمن قطع الغيار تجده مرتفعاً .

إذن . إرادة عدم التوثيق لها مقصد عند المنتفع ، فإذا كان الموثِّق هو الله تعالى فليس أوثق من عُرْوته .

وفي موضع آخر يقول الحق عنها ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا

تفرَّقُوا .. ﴿١٠٣﴾ [آل عمران] فالعروة الوُثْقى هى حبل الله المتين الذى يجمعنا فلا نتفرق ؛ لذلك فى الاصطلاح تسمى الفتحة فى الثوب والتى يدخل فيها الأزرار (عروة) لماذا ؟ لأنها هى التى تجمع الثوب ، فلا يتفرق .

وفى آية أخرى وصفَ العروة الوثقى بقوله سبحانه : ﴿ لا انفِصَامَ لَهَا .. ﴿٢٥٦﴾ [البقرة]

ثم يقول سبحانه : ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴿٢٢﴾ [لقمان] أى : مرجعها ، فلا تظن أن الله تعالى خلقنا عبثاً ، أو أنه سبحانه يتركنا سُدًى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ [المؤمنون] . ولو تركنا الله تعالى بلا حساب لكان المنحرف الذى أعطى لنفسه شهواتها فى الدنيا أوفر حظاً من المستقيم ، وما كان الله تعالى ليغشَّ عبده الذى آمن به ، وسار على منهجه ، أو يسلمه للظلمة والمنحرفين .

وإذا كانت لله تعالى عاقبة الأمور أى : فى الآخرة ، فإنه سبحانه يترك لنا شيئاً من ذلك فى الدنيا تصنعه بذواتنا لتستقيم بنا مسيرة الحياة وتثمر حركتها ، ومن ذلك مثلاً ما نجريه من الامتحانات للطلاب آخر العام لنميز المجدَّ من الخامل ، وإلا تساوى الجميع ولم يذاكر أحد ، ولم يتفوق أحد ؛ لذلك لابُدَّ من مبدأ الثواب والعقاب لتستقيم حركة الحياة ، فإذا كنا نُجرى هذا المبدأ فى دنيانا ، فلماذا نستنكره فى الآخرة ؟

فهل يليق بهذا العالَم الذى خلقه الله على هذه الدقة ؛ وكوْنه بهذه الحكمة أن يتركه هكذا هَمَلاً يستشرى فيه الفساد ، ويرتع فيه المفسدون ، ثم لا يُحاسبون ؟ إن كانت هذه هى العاقبة ، فيا خسارة كل مؤمن ، وكل مستقيم فى الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) ﴾

بعد أن بيَّن الحق سبحانه أن إليه مرجع كل شيء ونهاية الأمور كلها ، أراد أن يُسلِّي رسوله ﷺ فقال : ﴿ وَمَن كَفَرَ .. (٢٣) ﴾ [لقمان] أي : بعدما قلناه من الجدل بالعلم وبالهدى وبالكتاب المنير ، وبعدما بيناه من ضرورة إسلام الوجه لله ، مَنْ يكفر بعد ذلك ﴿ فَلا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ .. (٢٣) ﴾ [لقمان]

وهذا القول من الله تعالى لرسوله ﷺ يدل على أن الله علم أن رسوله يحب أن تكون أمته كلها مؤمنة ، وأنه يحزن لكفر من كفر منهم ويؤلمه ذلك ، وقد كرر القرآن هذا المعنى في عدة مواضع ، منها قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف] ويقول : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء]

فالله تعالى يريد أنْ يقول لرسوله : أنا أرسلتُك للبلاغ فحسب ، فإذا بلَّغْت فلا عليك بعد ذلك ، وكثيراً ما تجد في القرآن عتاباً لرسول الله في هذه المسألة ، وهو عتاب لصالحه لا عليه ، كما تعاتب ولدك الذي أجهد نفسه في المذاكرة خوفاً عليه .

ومن ذلك قوله تعالى معاتباً نبيه ﷺ : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣) ﴾ [عبس]

والعتاب هنا لأن رسول الله ﷺ ترك الرجل المؤمن الذى جاءه يستفهم عن أمور دينه ، وذهب يدعو الكفار والمكذِّبين به ، فكأنه اختار الصعب الشاق وترك السهل اليسير ، إذن : فالعتاب هنا عتاب لصالح الرسول لا ضده ، كما يظن البعض فى فهمهم لهذه الآيات .

كذلك الأمر فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ .. ① ﴾ [التحريم] فالله يعاتب رسوله لأنه ضيَّق على نفسه ، فحرَّم عليها ما أحله الله لها[1] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ .. ㉓ ﴾ [لقمان] يعنى : إذا لم تَرَ فيهم عاقبة كفرهم ، وما ينزل بهم فى الدنيا ، فسوف يرجعون إلينا ونحاسبهم فى الآخرة ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ .. ㊆㊆ ﴾ [غافر] أى : ترى بعينك ما ينزل بهم من العقاب ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ㊆㊆ ﴾ [غافر]

إذن ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ .. ㉓ ﴾ [لقمان] هذه هى الغاية النهائية ، وهذه لا تمنع أن نُريك فيهم أشياء تُظهر عزتك وانتصارك عليهم وانكسارهم وذلَّتهم أمامك ، وهذا ما حدث يوم أنْ دخل النبى مكة منتصراً ومتواضعاً يطأطىء رأسه[2] بأدب وتواضع ؛ لأنه

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٣٨٦) : « اختلف فى سبب نزول صدر هذه السورة (التحريم) فقيل نزلت فى شأن مارية ، فعن أنس أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها . والصحيح أن ذلك كان فى تحريمه العسل ، فعن عائشة قالت : كان النبى ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ، ويمكث عندها فتواطأت أنا وحفصة على أينما دخل علينا فلتقل له : أكلت مغافير فقال : لن أعود له ولا تخبرى بذلك أحداً » اهـ بتصرف .

(٢) يذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٤٠٥/٤) « أن رسول الله ﷺ لما انتهى إلى ذى طوى وقف على راحلته معتجراً بشقة برد حبرة حمراء ، (أى : أنه كان متعمماً بنصف برد من برود اليمن ، عمامة بغير ذؤابة) ، وإن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى إن عثنونه ليكاد يمسّ واسطة الرحل » . والعثنون : هو ما نبت على الذقن وتحته سفلاً . وقيل : هو طولها وما تحتها من شعرها

يعلم أن النصر من الله ، وكأنه ﷺ يقول لأهل مكة : لقد كنتم تريدون الملك لتتكبروا به ، وأنا أريده لأتواضع به ، وهذا هو الفرق بين عزّة المؤمن وعزّة الكافر .

لذلك لما تمكن رسول الله من رقابهم - بعد أنْ فعلوا به ما فعلوا - جمعهم وقال قولته المشهورة : « يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم ؟» قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء »[1] .

ولك أنْ تلحظ تحوُّل الأسلوب من صيغة الإفراد في ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ .. ﴿٢٣﴾﴾ [لقمان] إلى صيغة الجمع في ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ .. ﴿٢٣﴾﴾ [لقمان] ولم يقل : إليَّ مرجعه ؛ لأن مَنْ في اللغة تقوم مقام الأسماء الموصولة كلها ، فإنْ أردتَ لفظها فأفردها ، وإن أردتَ معناها فاجمعه .

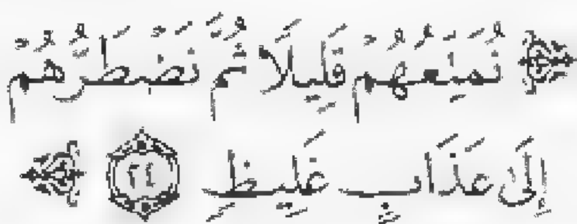
وقوله تعالى : ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا .. ﴿٢٣﴾﴾ [لقمان] لأننا نُسجِّله عليهم ونحصيه ، كما قال سبحانه : ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ .. ﴿٦﴾﴾ [المجادلة] ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾ [لقمان] أي : بنات الصدر ومكنوناته يعلمها الله ، حتى قبل أنْ تُترجم إلى نزوع سلوكي عملي أو قَوْلي ، فالله يعلم ما يختلج في صدورهم من حقد أو غلٍّ أو حسد أو تآمر .

و ﴿عَلِيمٌ .. ﴿١١٩﴾﴾ [آل عمران] صيغة مبالغة من العلم ، وفَرْق بين عالم وعليم : عالم : ذاتٌ ثبت لها العلم ، أما عليم فذات علْمها ذاتي ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف]

---

(١) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٤١٢/٤) أن رسول الله ﷺ قال بعد أن فتح الله عليه مكة : يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ثم يقول الحق سبحانه :



الحق سبحانه يُبيِّن لكل مؤمن ألاَّ يغتر بحال الكفار حين يراهم فى حال رَغَد من العيش ، وسعة وعافية وتمكُّن ؛ لأن ذلك كله متاع قليل ، والحق سبحانه يريد من أتباع الأنبياء أنْ يدخلوا الدين على أنه تضحية لا مغنم .

وسبق أن أوضحنا أنك تستطيع أن تُفرِّق بين مبدأ الحق ومبدأ الباطل بشىء واحد ، هو استهلال الاثنين ، فالداخل فى مبدأ الحق مستعد لأنْ يُضحِّى ، والداخل فى مبدأ الباطل ينتظر أنْ يأخذ المقابل ؛ لذلك ضحَّى المسلمون الأوائل فى سبيل دينهم بالأنفس والأموال ، وتركوا بلادهم وأبناءهم لماذا ؟ لأنهم مُكلَّفون بأداء مهمة إنسانية عالمية ، لا يحملها إلا مَنْ كان مستعداً للعطاء ، أما أصحاب الدعوات الباطلة كالشيوعية وغيرها فلا بُدَّ أنْ يأخذوا أولاً .

لذلك رُوى أن صحابياً حين سمع من رسول الله ﷺ البشرى بالجنة ، وأنه ليس بينه وبينها إلا أنْ يحارب فيُقتل ألقى تمرات كانت فى يده[1] ، ولم ينتظر حتى يمضغها ، وأسرع إلى المعركة مُبتغياً الشهادة وطامعاً فيما عند الله ، وقد سُمع منهم فى ساحة القتال أنْ ينادى أحدهم : هُبِّى يا رياحَ الجنة ، وآخر يقول : إنى لأجد ريح

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال : قال رجل للنبى ﷺ يوم أُحُد : أرأيت إن قتلت فأين أنا ؟ قال فى الجنة . فألقى تمرات فى يده ، ثم قاتل حتى قُتل . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦)

الجنة دون أُحُد[1]

فقوله تعالى : ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤)﴾ [لقمان] هذا التمتُّع بزينة الحياة الدنيا ما هو إلا استدراج لهم لا تكريم ، وقلنا : إنك لا تلقى بعدوك من على الحصيرة مثلاً ، إنما تعليه وترفعه ليكون أَخْذه أليماً وشديداً ، كذلك الحق سبحانه يُمتِّعهم ، لكنّ لفترة محدودة لتكون حسرتهم أعظم إذا ما أخذهم من هذا النعيم .

واقرأ في هذا المعنى قول الله تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤)﴾ [الأنعام] أي : يائسون .

وكلمة الفتح لا تؤدي نفعاً إلا إذا جاءت معرفة (الفتح) وقلنا : هناك فرق بين فتح لك وفتح عليك ، فتح لك أي : لصالحك ، أمّا فتح عليك أي : أعطاك الدنيا لتكون حِمْلاً فوق رأسك .

إذن : فإذا رأيتَ لهم هذا الفتح فلا تغترّ به ، واعلم أنهم نَسُوا ما ذُكِّروا به . وقد ورد في الأثر أن الله تعالى إذا غضب من المرء رزقه من الحرام ، فإذا اشتد غضبه عليه بارك له فيه .

ذلك ليظل في سَعة ورَغَد عيش وعُلو مكان ، حتى إذا أخذه الله آلمه الأخذ واشتد عليه ، فأخْذُ الكافر وهو في أَوْج قوته وجبروته يدل

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٨٠٥) من حديث أنس بن مالك قال : غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال : يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت فيه المشركين ، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع ، فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعني أصحابه وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين . ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ ، فقال : يا سعد بن معاذ ، الجنة ورب النضر ، إني أجد ريحها من دون أحد . الحديث .

على قوة الأخْذ وقدرته ، أما الضعيف فلا مزيّة فى أخْذه ، كالذى يريد أنْ يحطم الرقم القياسي مثلاً ، فإنه يعمد إلى أعلى الأرقام فيحطمها ليثبت جدارته .

ومن ذلك أيضاً نرى أن القرآن لما أراد التحدى ببلاغته وفصاحته تحدَّى العرب ، وهم أهل الفصاحة والبلاغة وفن الأداء البيانى ، ولا معنى لأنْ يتحدى عَيِيّاً لا يقدر على الكلام .

ومعنى ﴿ نَضْطَرُّهُمْ .. (٢٤) ﴾ [لقمان] نلجئهم أى : نُضيِّق عليهم الخناق ، بحيث لا يجدون إلا العذابَ الغليظ ، أو : أن فترة الحساب وما قبل العذاب أشدّ من العذاب نفسه ، كما جاء فى الحديث من « أن الشمس تدنو من الرؤوس ، حتى ليتمنى الناسُ الانصرافَ ولو إلى النار »[1] .

ووصف العذاب هنا بأنه ﴿ غَلِيظٍ (٢٤) ﴾ [لقمان] والغلظ يعنى السُّمْك ، فالمعنى أنه عذاب كبير يصعب قلقلة النفس منه ، فلو كان رقيقاً لربما أمكن الإفلات منه .

ثم يعود السياق إليهم :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥) ﴾

(١) فى صحيح مسلم من حديث المقداد بن الأسود قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل ، فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه إلجاماً » . التذكرة للقرطبى ص ٢٧٤ .

هذا إفحام لهم ، حيث شهدوا بأنفسهم أن الله تعالى هو خالق السموات والأرض ، وتعجب بعد ذلك لأنهم ينصرفون عن عبادة الخالق سبحانه إلى عبادة مَنْ لا يخلق ولا يرى ولا يسمع .

لذلك بعد هذه الشهادة منهم ، وبعد أنْ قالوا (الله) يُتبعها الحق سبحانه بقول ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٢٥)﴾ [لقمان] أي الحمد لله ؛ لأنهم أقروا على أنفسهم ، ونحن في معاملاتنا نفعل مثل هذا ، فحين يعترف لك خَصْمك تقول : الحمد لله .

وهذه الكلمة تُقال تعليقاً على أشياء كثيرة ، فحين يعترف لك الخَصْم بما تريد تقول : الحمد لله ، وحين يُخلِّصك الله من أذى أحد الأشرار تقول . الحمد لله أي : الذي نجانا من فساد هذا المفسد .

فلو بلغنا خبر موت أحد الأشقياء أو قُطَّاع الطرق نقول : الحمد لله أي : الذي خلصنا من شره ، وأراح منه البلاد والعباد ، ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥)﴾ [الأنعام]

كذلك تقال حينما يُنصَف المظلوم ، وتُرَدُّ إليه مظلمته ، أو تظهر براءته ، كما سنقول - إنْ شاء الله - في الآخرة : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤)﴾ [فاطر]

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤)﴾ [الزمر]

فالحمد لله تُقال أيضاً عند خلوصك إلى غاية تُخرجك مما كنتَ فيه

من الضيق ، ومن الهمِّ ، ومن الحزن ، وتقال حين ندخل الجنة ، وننعم بنعيمها ونعلم صدْق الله تعالى فيما أخبرنا به من نعيمها .

هذا كله حَمْدٌ على نعمه ، وهناك الحمد الأعلى : ألم تقرأ الحديث القدسي : « إن الله يتجلى على خَلْقه المؤمنين في الجنة فيقول : يا عبادي ، ألا أزيدكم ؟ فيقولون : وكيف تزيدنا وقد أعطيْتنا مَا لا عَيْن رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ؟ قال ، أُحلُّ عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم بعدها أبداً »[1] فماذا بعد هذا الرضوان ؟

يقول تعالى : ﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥) ﴾ [الزمر]

هذا هو الحمد الأعلى ، فقد كنت في الحمد مع النعمة ، وأنت الآن في الحمد مع المنعم سبحانه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٥) ﴾ [لقمان] وهم أهل الغفلة عن الله ، أو ﴿ لا يَعْلَمُونَ (٢٥) ﴾ [لقمان] أي : العلم الحقيقي ، النافع ، وإنْ كانوا يعلمون العلم من كتاب غير منير ، أو : يعلمون العلم الذي يُحقِّق لهم شهواتهم .

ثم ينتقل السياق إلى آيات كونية فيقول سبحانه :

﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) ﴾

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٥٤٩) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٨٢٩) من حديث أبي سعيد الخدري ، ولفظه : إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة . فيقولون : لبيك ربنا وسعديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحداً من خلقك . فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك . قالوا : يا رب وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً .

بعد أن سجَّل الله تعالى عليهم اعترافهم وشهادتهم بأنه سبحانه خالق السموات والأرض ، أراد سبحانه أنْ يُبيِّن لنا أن السموات والأرض ظرف لما فيهما ، وفيهما أشياء كثيرة ، منها ما نعرفه ، ومنها ما لا نعرفه ، والمظروف دائماً أغلى من المظروف فيه ، فما فى (المحفظة) من نقود عادة أغلى من المحفظة ذاتها ، وما فى الخزانة من جواهر وأموال أو أوراق هامة أنفَسُ من الخزانة وأهمّ .

لذلك قلنا : إياك أنْ تجعل كتاب الله حافظة لشيء هام عندك ؛ لأنه أغلى من أىِّ شيء فينبغى أنْ تحفظه ، لا أنْ تحفظ فيه .

وكأن فى الآية إشارة إلى أنهم كما أقرُّوا لله تعالى بخَلْق السموات والأرض ينبغى أنْ يُقروا كذلك بأن له سبحانه ما فيهما ، وهذه مسألة عقلية يهتدى إليها كل ذى فكر سليم ، فما دامت السموات والأرض لله ، فله ما فيهما ، وهَبْ أن لك قطعة أرض تمتلكها ، ثم عثرتَ فيها على شيء ثمين ، إنه فى هذه الحالة يكون مِلكك شرعاً وعقلاً .

وينبغى للعاقل أنْ يتأمل هذه المسألة : لله تعالى ما فى السموات وما فى الأرض ، ومن هذه الأشياء الإنسان الذى كرَّمه الله ، وجعله سيداً لجميع المخلوقات وأعلى منها ، بدليل أنها مُسخَّرة لخدمته : الحيوان والنبات والجماد ، فهل يصح أن يكون الخادم أعظم من سيده أو أطول عمراً منه ؟

فعلى العاقل أن يتأمل هذه المسألة ، وأن يستعرض أجناس الكون ويتساءل : أيكون الجماد الذى يخدمنى أطول عمراً منى ؟

إذن : لابد أن لى حياة أخرى تكون أطول من حياة الشمس والقمر وسائر الجمادات التى تخدمنى ، وهذا لا يكون إلا فى الآخرة

حيث تتكدر الشمس ، وتتلاشى كل هذه المخلوقات ويبقى الإنسان .

إذن : أنت محتاج لما في الأرض ولما في السماء من مخلوقات الله ، وبه وحده سبحانه قوامها مع أنه سبحانه غنيٌّ عنها لا يستفيد منها بشيء ، فالله سبحانه خلق ما هو غنيٌّ عنه ؛ لذلك يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) ﴾ [لقمان] لأنه سبحانه بصفات الكمال خلق ، فلم يزده الخلق صفة كمال لم تكنْ له ، فهو مُحْيٍ قبل أنْ يوجد مَنْ يُحييه ، مُعِزٌّ قبل أنْ يوجد من يعزه .

وقلنا : إنك لا تقول فلان شاعر لأنك رأيته يقول قصيدة ؛ بل لأنه شاعر قبل أن يقولها ، ولولا أنه شاعر ما قال .

فمعنى ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ .. (٢٦) ﴾ [لقمان] أي : الغني المطلق ؛ لأن له سبحانه كل هذا المُلْك في السموات وفي الأرض ، بل جاء في الحديث القدسي أن السماء والأرض بالنسبة لمُلْك الله تعالى كحلقة ألقاها مُلْقٍ في فلاة[1] ، فلا تظن أن مُلْك الله هو مجرد هذه المخلوقات التي نعلمها ، رغم ما توصَّل إليه العلم من الهندسة وحساب المسافات الضوئية .

فالله سبحانه هو الغنيُّ الغنيّ المطلق ؛ لأنه خلق هذا الخَلْق وهو غني عنه ، ثم أعطاه لعبيده وجعله في خدمتهم ، فكان من الواجب لهذا الخالق أن يكون محموداً ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦) ﴾ [لقمان] وحميد فعيل بمعنى محمود ، وهو أيضاً حامد كما جاء في قوله تعالى . ﴿ إِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨) ﴾ [البقرة] لكن ، شاكر لمن ؟

---

(١) عن أبي ذر الغفاري أنه سأل رسول الله ﷺ عن الكرسي ، فقال ﷺ : « والذي نفسي بيده ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة » أخرجه ابن جرير الطبري في تاريخه (١/ ١٥٠) وابن حبان (ص ٥٢ موارد الظمآن) ، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦) .

قالوا : إذا كان العبد يشكر ربه ، وقد علَّمه الله : أن الذى يحيِّيك بتحية ينبغى عليك أنْ تُحيِّيَه بأحسن منها ، فربُّك يعاملك هذه المعاملة ، فإنْ شكرْتَهُ يزدك ، فهذه الزيادة شُكْر لك على شُكْرك لربك . أى : مكافأة لك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ مِن شَجَرَةٍ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [لقمان] مِنْ . هنا تفيد العموم أى : من بداية ما يُقال له شجرة . وفرق بين أنْ تقول : ما عندى مال ، وما عندى من مال ، فالأولى لا تمنع أن يكون عندك القليل من المال الذى لا يُعتدُّ به ، أمَّا (من مال) فقد نفيتَ جنس المال قليله وكثيره . وتقول : ما فى الدار أحد . وربما يكون فيها طفل مثلاً أو امرأة ، أمَّا لو قلْتَ : ما فى الدار من أحد ، فهذا يعنى خُلوها من كل ما يُقال له أحد .

والشجرة : هى النبات الذى له ساق ، وقد تشابكتْ أغصانها ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء]

أما النبات الذى ليس له ساق فهو العُشْب أو النجم الذى ينتشر على سطح الأرض ، خاصة بعد سقوط الأمطار ، وهذا لا تُؤخذ منه الأقلام ، إنما من الشجرة ذات الغصون والفروع .

وقد ذكر القرآن الكريم هذين النوعين في كلام معجز ، فقال سبحانه : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ ﴾ [الرحمن] فالشمس والقمر ﴿ بِحُسْبَانٍ ۝ ﴾ [الرحمن] أي : حساب دقيق محكم ؛ لأن بهما حساب الزمن ، ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ ﴾ [الرحمن] أي : في خضوع لله تعالى .

وكلمة النجم هنا يصح أنْ تُضاف إلى الشمس والقمر ، ويصح أنْ تضاف للشجر ، فهو لفظ يستخدم في معنى ، ويؤدي معنى آخر بضميمة ضميره .

وقد تنبه الشاعر إلى هذه المسألة ، فقال :

أُرَاعِي النجْمَ في سَيْرِي إليكُمْ ويرعَاهُ مِنَ البَيْدا جَوَادِي

فهو ينظر إلى نجم السماء ليهتدي به في سيره ، ويرعى جواده نَجْم الأرض ، ومن ذلك أيضاً كلمة العين ، فتأتي بمعنى الذهب والفضة ، وبمعنى الجاسوس ، وبمعنى عين الماء ، وبمعنى العين المبصرة .

ومعنى : ﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ .. ۝ ﴾ [لقمان] أي : يُعينه ويساعده إنْ نفد ماؤه . ولك هنا أن تسأل : لماذا جعل الإمداد للماء ، ولم يجعله للشجر ؟ قالوا : لأن القلم الواحد يكتب بحبر كثير لا حَصْرَ له ، فالحبر مظنة الانتهاء ، كما أن الشجر ينمو ويتجدد ، أما ماء البحر فثابت لا يزيد .

واقرأ أيضاً في هذه المسألة : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ۝ ﴾ [الكهف]

والعدد سبعة هنا ﴿ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ .. ۝ ﴾ [لقمان] لا يُراد به العدد ،

إنما يراد به الكثرة كما فى قوله تعالى . ﴿سبع سموات.. (١٢)﴾ [الطلاق] فهذه فى مجرتنا الشمسية ، فما بالك بالسموات فى المجرات الأخرى ، وقد علمنا أن السماء هي كل ما علاك فاظلك .

إذن : يرد العدد سبعة على سبيل الكثرة ، والعرب كانوا يعتبرون هذا العدد نهاية للعدد ؛ لأن العدد معناه الأرقام التى تبين المعدود ، فهناك فرق بين العدد والمعدود ، ولما تبينّا هذا الفرق استطعنا أنْ نرد على المستشرقين فى مسألة تعدد الزوجات ، فالعدد يعنى ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ . أما المعدود ، فما يميز هذه الأعداد .

والرسول ﷺ حينما أراد أنْ يُنهى التعدد المطلق للزوجات لما أنزل الله عليه أنْ يأمر الناس أن مَنْ معه أكثر من أربع زوجات أنْ يُمسك أربعاً منهن ويفارق الباقيات[1] .

وكان عند رسول الله فى هذا الوقت تسع زوجات لم يشملهُنّ هذا الحكم ، فقالوا : لماذا استثنى الله محمداً من هذا الحكم ؟ وكيف يكون عنده تسع ، وعند أمته أربع ؟ ولم يفطنوا إلى مسألة العدد والمعدود : هل استثنى الله تعالى رسوله فى العدد ، أم فى المعدود ؟

نقول : استثناه فى المعدود ؛ لأنه تعالى خاطب نبيه فى آية أخرى : ﴿لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ .. (٥٢)﴾ [الأحزاب] ففرض على رسول الله أنْ يقتصر على هؤلاء ، لا يزيد عليهن ، ولا يتزوج بعدهن حتى لو مُتْنَ جميعاً .

---

(١) أخرج الإمام مالك فى الموطأ (ص ٥٨٦) كتاب الطلاق بلاغاً أن رسول الله ﷺ قال لرجل من ثقيف ، أسلم وعنده عشر نسوة حين أسلم الثقفى : « أمسك منهن أربعاً ، وفارق سائرهن » ووصله الترمذى فى سننه (١١٢٨) من حديث ابن عمر أن النبى ﷺ أمره أن يتخير أربعاً منهن ، وسمَّى الرجل « غيلان بن سلمة الثقفى » .

إذن : لم يستثنه في العدد ، وإلا لكان من حقِّه إذا ماتت واحدة من زوجاته أنْ يتزوج بأخرى ، وإنْ مُتْن جميعاً يأتي بغيرهن

ولك أن تقول : ولماذا جعل الله الاستثناء في المعدود لا في العدد ؟ قالوا : لأن زوجات غير النبي ﷺ إذا طلَّقها زوجها لها أن تتزوج بغيره ، لكن زوجات النبي ﷺ أمهات للمؤمنين ومحرمات عليهم ، فإنْ طلَّق رسول الله إحدى زوجاته بقيت بلا زواج .

لذلك أمر رسول الله أنْ يمسك زوجاته التسع ، شريطة ألاَّ يزيد عليهن ، في حين يُباح لغيره أن يتزوج بأكثر من تسع ، بشرط ألاَّ يبقى معه أكثر من أربع ، وعليه ، فهذا الحكم ضيَّق على رسول الله في هذه المسألة في حين وسَّع على أمته .

ونعلم أنَّ معظم زوجات النبي كُنَّ كبيرات في السِّن ، وبعضهن كُنَّ لا إرْبة لهن في مسألة الرجل ، لكنهن يحرصن على شرف الانتساب لرسول الله ، وعلى شرف كَوْنهن أمهات المؤمنين ؛ لذلك كانت الواحدة منهن تتنازل عن قَسْمها في البيتوتة لضرتها مكتفية بهذا الشرف[1] .

إذن : التفريق بين العدد والمعدود خلَّصنا من إفك المستشرقين ، ومن تحاملهم على رسول الله واتهامهم له بتعدد الزوجات ، وأنه ﷺ وسَّع على نفسه وضيَّق على أمته .

ومسألة العدد والمعدود هذه مسألة واسعة حيَّرت حتى الدارسين للنحو ، فلا إشكالَ في العدد واحد والعدد اثنان ؛ لأننا نقول في المفرد المذكر : واحد والمؤنث : واحدة ، وللمثنى المذكر : اثنان ،

---

(١) فعلت هذا سودة بنت زمعة زوجة رسول الله ، وقد وهبت ليلتها لعائشة رضي الله عنها في مقابل ألا يطلقها رسول الله ﷺ ، قائلة للنبي ﷺ : « أبقني يا رسول الله وأهب ليلتي لعائشة ، وإني لا أريد ما تريد النساء » الإصابة لابن حجر (١١٧/٨) .

وللمؤنث اثنتان . فالعدد يوافق المعدود تذكيراً وتأنيثاً ، لكن الخلاف يبدأ من العدد ثلاثة ، حيث يذكَّر العدد مع المعدود المؤنث ، ويُؤنَّث مع المعدود المذكَّر ، فمن أين جاء هذا الاختلاف ؟

قالوا : لاحظ أن التذكير هو الأصل ؛ ولذلك احتاج التأنيث إلى علامة ، أما المذكَّر وهو الأصل فلا يحتاج إلى علامة ، تقول : قلم ، وتقول : دواة . فاحتاجت إلى علامة للتأنيث فهي الفرع والمذكر هو الأصل .

وتعالَ إلى الأعداد من ثلاثة إلى عشرة ، تقول : ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ... إلخ فالعدد نفسه مبنيٌّ على التاء ، وليست هي تاء التأنيث ؛ لأنها أعداد مجردة بلا معدود ، فإذا أردنا تأنيث هذا العدد وبه تاء لا نضيف إليه تاءً أخرى ، إنما نحذف التاء فيكون الحذف هو علامة التأنيث ويبقى العدد مع المذكر على الأصل بالتاء .

فما حكاية العدد سبعة بالذات ؟ قالوا : إن العدد واحد هو الأصل في الأعداد ؛ لأن العدَّ ينشأ من ضم واحد إلى آخر ، فواحد هو الخامة التي تتكون منها الأعداد فتضم واحداً إلى واحد وتقول اثنان وتضم إلى الاثنين واحداً ، فيصير العدد ثلاثة .. وهكذا .

ومعلوم أن أقلَّ الجمع ثلاثة ، والعدد إما شفع وإما وتر ، الشفع هو الذي يقبل القسمة على الاثنين ، والوتر لا يقبل القسمة على الاثنين ، والله تعالى يقول : ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣)﴾ [الفجر] فبدأ بالشفع وأوله الاثنان ثم الثلاثة ، وهي أول الوتر ، أما الواحد فقد تركناه لأنه كما قلنا الخامة التي يتكون منها جميع الأعداد .

وما دام الله تعالى قال : ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣)﴾ [الفجر] فالاثنان أول الشفع ، والثلاثة أول الوتر ، وأربعة ثاني الشفع ، وخمسة ثاني

الوتر ، وستة ثالث الشفع ، وسبعة ثالث الوتر .

وقلنا : إن الجمع أقلُّه ثلاثة ، فاعتبرت العرب العدد سبعة أقصى الجمع وتراً وزوجاً ، وانتهت عند هذا العدد ، فإذا أرادوا العدَّ أكثر من ذلك أتوْا بواو يسمونها واو الثمانية ، وقد سار القرآن الكريم في أحكام العدد هذه على ما سارت عليه العرب .

واقرأ إنْ شئت هذه الآيات ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. (٧١)﴾ [الزمر]

أما في الجنة فيقول سبحانه : ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. (٧٣)﴾ [الزمر]

فما الفرق بين الآيتين ؟ ولماذا جاءت الواو في الثانية ، ولم تُذْكر في الأولى ؟

قالوا : لأن ﴿فُتِحَتْ .. (٧١)﴾ [الزمر] في الأولى جواب شرط ، وهذا الجواب كانوا يُكذِّبونه وينكرونه . والشرط تأسيس ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا .. (٧١)﴾ [الزمر] ماذا حدث ؟ ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا .. (٧١)﴾ [الزمر] إنما هل كان المؤمنون المتقون الذين يذهبون إلى الجنة يُكذِّبون بهذا اليوم ؟

إذن فـ : ﴿فُتِحَتْ .. (٧١)﴾ [الزمر] هنا لا تكون جواباً ؛ لأنهم يعلمون يقيناً أنها ستفتح ، أما الجواب فسيأتي في . ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤)﴾ [الزمر]

ولما كانت أبواب النار سبعة لم يذكر الواو ، أما في الجنة فذكر

الواو ، لأن أبوابها ثمانية .

كذلك اقرأ قول الله تعالى ولاحظ متى تستخدم الواو : ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ[1] تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ[2] ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥)﴾ [التحريم]

تجد الواو قبل الثمانية ، ذلك لأن العرب تعتبر السبعة منتهى العدد بما فيه من زوج وفرد .

وقوله تعالى : ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ .. (٢٧)﴾ [لقمان] أي : يُجعل مداداً لكلمات الله ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ .. (٢٧)﴾ [لقمان] كلمات الله هي السبب في إيجاد المقدورات العجيبة ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس] فكل مراد من شيء سببه كن .

وهنا عجيبة ينبغي أنْ نتأملها : فالله تعالى يقول للشيء وهو لم يُخْلَق بعد (كن) ، كأن كل الأشياء موجودة في الأزل ومكتوبة ، تنتظر هذا الأمر (كن) ، فتبرز إلى الوجود ، كما يقول أهل المعرفة : أمور يبديها ولا يبتديها .

إذن : ﴿كَلِمَاتُ اللَّهِ .. (٢٧)﴾ [لقمان] هي كن وكل مرادات الله في كونه ، ما علمنا منه وما سنعلم ، وما لم نعلم إلا حين تقوم الساعة .

ألم يَقُلْ في العجيب من أمر عيسى عليه السلام : ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ .. (١٧١)﴾ [النساء] والمعنى أنه لم يُخلق بالطريق

---

(١) القانت : المطيع الذاكر لله تعالى العابد . والقانت : القائم بجميع أمر الله تعالى [لسان العرب ـ مادة : قنت] .

(٢) السائحات : الصائمات . وسياحة هذه الأمة الصيام ولزوم المساجد . [لسان العرب ـ مادة : سيح]

الطبيعي في خَلْق البشر من أب وأم ، إنما خُلِق بهذه الكلمة (كن) . لماذا ؟

لأن الله تعالى يريد أنْ يثبت لنفسه طلاقة القدرة في الإيجادات ، وأنه سبحانه يخلق كما يشاء ، فمرة يخلق بلا أب وبلا أم ، كما خلق آدم عليه السلام ، ومرة يخلق بأم دون أب كما خلق عيسى عليه السلام ، ومرة يخلق بأب وأم ، ويخلق بأب دون أم كما خلق حواء . إذن : القسمة العقلية موجودة بكل وجوهها .

إذن : مع طلاقة القدرة لا اعتبار للأسباب ، فأنت إنْ أردتَ أنْ تكوِّن مثلاً قطرة الماء ، فعليك أنْ تأتي بالأكسوجين والأيدروجين بطريقة معينة ليخرج لك الماء وإلا فلا ، أما الخالق - عز وجل - فيخلق بالأشياء وبدون شيء ، لأن الأشياء بالنسبة لله تعالى ليست فاعلة بذاتها ، وإنما هي فاعلة بمراد الله فيها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [لقمان] والعزيز هو الذي يَغلب ولا يُغلب ويَقْهر ولا يُقهر ، ولا يستدرك أحد على فعله حتى لو كان مخالفاً لعقله هو ، وتأمل معنى العزة ، وكيف وردت في هذا الموقف من قوله تعالى لسيدنا عيسى عليه السلام :

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [المائدة] إلى أن يقول : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة]

والمنطق العقلي يقتضي أن نقول في عرف البشر : فإنك أنت الغفور الرحيم ، فالمقام مقام مغفرة ، لكن عيسى عليه السلام يأتي

بها ، لا من ناحية الغفران والرحمة ، وإنما من ناحية طلاقة القدرة والعزة التي لا يستدرك عليها أحد .

﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ [المائدة] والمعنى : لو قال الناس لماذا غفرتَ لهم مع أنهم قالوا كذا وكذا ؟ فالإجابة أننى أنا العزيز الذى أغلب ولا أُغلب ، ولا يستدرك أحد على حكمى ، إذن : ذيَّل الآية بالعزة لعزة الله تعالى فى خَلْقه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨)﴾

الحق سبحانه وتعالى يؤكد دائماً على قضية البعث والقيامة ، ويريد سبحانه أنْ ينصب للناس فى حركة حياتهم موازين الجزاء ؛ لأن كل عمل لا توجد فيه موازين للجزاء يعتبر عملاً باطلاً ، ولا يمكن أنْ يستغنى عن الجزاء ثواباً وعقاباً إلا مَنْ كان معصوماً أو مُسخَّراً ، فالمعصوم قائم دائماً على فِعْل الخير ، والمسخَّر لا خيارَ له فى أنْ يفعل أو لا يفعل .

إذن : إذا لم يتوفر مبدأ الجزاء ثواباً وعقاباً فى غير هذين لا بُدَّ أنْ يوجد فساد ، إذا لم يُثب المختار على الفعل ، ويعاقب على الترك اضطربت حركة الحياة ، حتى فى المجتمعات التى لا تؤمن بإله وضعت لنفسها هذا القانون ، قانون الثواب والعقاب .

والحق - سبحانه وتعالى - يعطينا مثالاً لهذا المبدأ فى قوله تعالى من قصة ذى القرنين : ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ

شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥)﴾ [الكهف]

أراد الحق سبحانه أن يبين أن الرجل الممكّن في الأرض له مهمة ، هذه المهمة هي شكر الله على التمكين ولا يكون إلا بإقامة ميزان العدالة في الكون ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ .. (٨٦)﴾ [الكهف] أي : في رأي العين ، وإلا فهي لا تغرب أبداً ، إنما تغرب عن جماعة في مكان ، وتشرق على جماعة في مكان آخر .

﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦)﴾ [الكهف]

ولا يُفوّض إنسان في أنْ يُعذِّب أو يتخذ الحسنى إلا إذا كانت لديه مقاييس وميزان العدالة ، وقد قال الله عنه : ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤)﴾ [الكهف] أي : نعمة وميزاناً لتوزيع هذه النعمة ، فلم تقتصر نعمة الله عليه في أنه صاحب سلطان وجبروت ، إنما عنده المقوّمات الحياتية ، وعنده ميزان العدالة الذي يضبط استطراق النِّعَم في الكون كله .

فالذي خُيِّر في أنْ يفعل أو لا يفعل أراد أنْ يبين منهجه في أنه لم يأخذ الاختيار وسيلة لتثبيت الأهواء ؛ لذلك قال بعدها : ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧)﴾ [الكهف] هذا هو العقاب ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨)﴾ [الكهف] أي : بعد أنْ ينال ثوابه ، نعطيه فوق ذلك حوافز تشجيعه ، ونقيم له حفلة تكريم لنغري غيره بأن يسلك مسلكه .

إذن : فقضية الثواب والعقاب أمر لازم ، وإذا كان هذا في الأمور الحياتية الجزئية ، فهو أوْلى في أمور الدين والقيم التي تسيطر على كل موازين الحياة ، لا بُدَّ من وقت للثواب وللعقاب ، وإلا استشرى

الظلم واغتيال الناس ، وقضى عليهم ، وأخذ منهم كل مُتع الحياة ، فانتفع بذلك المفسد ، وخاب كل مَن التزم بدين الله وقيم منهجه .

لذلك تجد الحق - تبارك وتعالى - يؤكد دائماً على مسألة البعث والقيامة والحساب ، وترى أعداء الدين يحاولون أنْ يُشككوا في هذه القضية ، وأنْ يُزحزحوا الناس عن الإيمان بها بطرق شتى .

فالفلاسفة لهم في ذلك دور ، وللملاحدة دور ، ولأهل الكتاب دور ؛ لذلك تجد التوراة مثلاً تكاد تخلو من إشارة عن اليوم الآخر ، وهذا أمر غريب لا يمكن تصوره في كتاب ودين سماوي ومنهج حياة .

وما ذلك إلا لأن أهل التوراة أرادوا أنْ يُزحزحوا الناس عن أمور عدة ليثبتوا لأنفسهم سلطة زمنية مادية ، حتى إنهم طمعوا في أنْ يرتقوا بهذه السلطة حتى يصلوا إلى الله تعالى ، كما حكى القرآن عنهم : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً .. (٥٥)﴾ [البقرة]

ولما أنزل الله عليهم المنّ ، وهو مادة حُلْوة كطعم القشدة جعلها تتساقط عليهم ، وأنزل عليهم السلوى ، وهي طيور مثل السمان تنزل عليهم جاهزة مُعدّة للتناول رفضوا عطية الله لهم ، وطعامه الذي أعدّ من أجلهم ، وقالوا : بل نريد طعاماً نصنعه بأيدينا ، وقالوا : ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ ..(٦١)﴾ [البقرة] ، فقال لهم : ﴿ٱهْبِطُوا مِصْرًا[1] فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ..(٦١)﴾ [البقرة]

وما دام الأمر بالنسبة لهؤلاء مادياً فلا بُدَّ أنْ يزحزح نفسه عن

---

(١) المصر ـ واحد الأمصار ـ ومصّروا الموضع : جعلوه مصْراً . وقال الليث ـ المصر في كلام العرب كل كورة تقام فيها الحدود ويقسم فيها الفيء والصدقات . [لسان العرب ـ مادة مصر]

الآخرة وعن القيامة والحساب ، لذلك راحوا يُشكِّكون فيها ، أما الفلاسفة فقالوا : حين يبعث الله إنساناً بعد الموت وقد تحللتْ أعضاؤه وصارت تراباً ، ثم غرست في هذا المكان شجرة فتغذتْ من هذا التراب ، وأكل إنسان آخر من ثمارها وانتقلتْ إليه بعض خلايا وجزئيات الأول . فإذا كان هناك بعث أتُبعث هذه الجزئيات مع الأول أم مع الآخر ؟ فإنْ كانت مع الأول فهي نقص في الآخر والعكس . هذه هي شبهة الفلاسفة .

وقد تخبَّط الفلاسفة هذا التخبُّط ؛ لأنهم لم يفطنوا إلى شيء في الوجود يعطي قيماً للغيبيات ، وقد أوضحنا هذه المسألة فقلنا لهم : لو أن إنساناً يزن مائة كيلو مثلاً أصيب بمرض أفقده أربعين كيلو من وزنه ، فماذا يعني هذا النقص بالنسبة للشخص نفسه ؟

هذه المسألة يتحكم فيها أمران : الغذاء والإخراج ، ففي فترة النمو يكون الداخل للجسم أكثر من الخارج ، أما في فترة الشيخوخة مثلاً فالخارج أكثر ، فإنْ توازن الأمران كانت حالة من الثبات لا يزيد فيها الشخص ولا ينقص ، وهي فترة الثبات .

فالشخص الذي نقص من وزنه أربعون كيلو ، ثم شفاه الله وعادت إليه عافيته حتى زاد وزنه وعاد إلى حالته الطبيعية ، فهل تغيَّر الشخص حال نقصان وزنه ؟ وهل تغيَّر حال عودته إلى طبيعته ؟ أم ظلت الشخصية والذاتية هي هي ؟

إذن ، المسألة في تكوين الجسم ليست ذرات وجزيئات ، إنما هي شخصية معنوية خاصة وإنْ تكوَّنت من جزيئات المادة وهي الستة عشر عنصراً التي تكوِّن جسم الإنسان ، والتي تبدأ بالأكسوجين وتنتهي بالمنجنيز ، وهي نفس العناصر المكوِّنة لتربة

الأرض التى نأكل منها ، وهذه العناصر بنسب تختلف من شخص لآخر .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ④﴾ [ق] يعنى : نعرف ما نقص من كل إنسان : كذا من الحديد ، وكذا من الأكسوجين ، وكذا من الفسفور .. إلخ .

إذن : حين يبعث الله الإنسان بعد الموت يبعث هذه الشخصية المعنوية بهذه الأجزاء المعروفة ، فيأتى الشخص هو هو .

ومن القضايا التى أثاروها فى مسألة البعث والالتباسات التى يحاولونها يقولون : الله تعالى يخلق الإنسان فى مدة تسعة أشهر ، أو ستة أشهر ، يمر خلالها بعدة مراحل : نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظاماً ، ثم يكسو هذه العظام لحماً ، هذا للإنسان الواحد ، فكم تستغرق إعادة خَلْق البشر من لَدُن آدم عليه السلام حتى قيام الساعة ؟

ونقول : لقد ذكرتم كيفية خَلْق سلالة الإنسان والتى تستغرق تسعة أو ستة أشهر ، لكن لم تذكروا خَلْق الأصل ، وهو آدم عليه السلام ، وقد خلقه الله على هيئته وصورته التي كان عليها ، فلم يكُنْ صغيراً وكبر ، إنما خُلِق كبيراً مستوياً كاملاً ، ثم نُفِخت فيه الروح .

ثم إن عناصر الفعل هى : الفعل ، والفاعل ، والمنفعل ، يُضاف إليها الزمن الذى سيتم فيه الفعل ، فأنا أريد أنْ أنقل هذه (الحملة) من هنا إلى هناك ، فنقلنا فعل ، وأنا الفاعل ، والحملة هى المنفعل ، ثم الزمن الذى يستغرقه الحدث ، والزمن يعنى توزيع جزئيات الحدث على جزئيات الزمن ، فإذا أردتَ أنْ تخيط ثوباً بطريقة يدوية فإنه يأخذ منك وقتاً طويلاً ، فإن خِطْته بالماكينة أخذ وقتاً أقلّ بكثير .

إذن : فزمن الفعل يتناسب مع قوة الفاعل ، وتذكرون أنه في الماضي كانت الشوارع تضاء بمصابيح الزيت ، وكان لكل منطقة عامل يصعد على سلم إلى كل فانوس ليشعله ، أما الآن فتستطيع أن تنير مدينة بأكملها بضغطة زر واحد . إذن : كلما زادتْ القوة قلَّ الزمن .

فتعال إذن إلى مسألة البعث والإعادة بعد الموت : أهي بقوتك أنت لتحسبها بما يناسب قوتك وقدرتك ؟ إنها بقوة الله عز وجل ، والله لا يعالج الأمور كما نفعل ولا يزاولها ، إنما يفعل سبحانه بكُنْ . إذن : فالفعل بالنسبة لله تعالى لا يحتاج إلى زمن تُوزَّع فيه جزئيات الفعل على جزئيات الزمن

ولمَ تستبعد هذا في حقِّ الله تعالى ، وقد أعطاك ربك طرفاً منه رغم قدرتك المحدودة ؟ ألستَ تجلس في مثل هذا المجلس فترانا جميعاً مرة واحدة في نظرة واحدة ، كذلك تسمع الجميع دفعة واحدة ؟ ألستَ تقوم بمجرد أن تريد أنْ تقوم ، وتنفعل جوارحك لك بمجرد أنْ يخطر الفعل على بالك ؟ أتفكر أنت في العضلات التي تحركتْ والإشارات التي تمتْ بداخلك لتقوم من مجلسك ؟

وقد سبق أنْ أوضحنا هذه المسألة حين قارنَّا حركة الإنسان في سلاستها وطواعية الجوارح لمراد صاحبها بحركة الحفار مثلاً ، فهو لا يؤدي حركة إلا بالضغط على زر خاص بها .

فإذا كنت أنت أيها العبد تنفعل لك جوارحك وأعضاؤك بمرادك في الأشياء ، فهل تستبعد في حق الله أنْ يفعل بكلمة كُنْ ؟ كيف وأنت ذاتك تفعل بدون أنْ تقولها ، مجرد الإرادة منك تفعل ما تريد .

فإنْ قلتَ : كيف يفعل الحق سبحانه بكلمة كُنْ ، وأنا أفعل بدون أنْ أقولها ؟ نقول : نعم أنت تفعل بدون كُنْ ؛ لأن الأشياء ليست

منفعلة لك أنت ، إنما هي مُسخَّرة بكُنْ الأولى حين قال الله لها كوني مُسخَّرة لإرادته ، إذن : أنا أفعل بدون كُنْ ؛ لأنها ليست في مقدوري أنا ، فكأن كُنْ الأولى من الله تعالى هي كُنْ لنا جميعاً .

وبهذا الفهم استطعنا تفسير حادثة الإسراء والمعراج ، واستطعنا الرد على منكريها ، فالله يقول : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا .. ①﴾ [الإسراء]

فلما سمع الكفار بالحادثة أنكروها وقالوا : كيف ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟ نعم أنتم تضربون إليها أكباد الإبل شهراً ؛ لأن فعلكم يحتاج إلى زمن ومزاولة نوزع فيها جزئيات الفعل على جزئيات الزمن ، أمَّا محمد فلم يقُلْ سريتُ ، فيكون في الفعل كأحدكم إنما قال : أُسرِي بي[1] .

إذن : فهو محمول على قدرة أخرى ، فالفعل لا يُنسب إليه إنما إلى حامله إلى الله ، وقلنا : كلما زادتْ القوة قلَّ الزمن ، فإذا كانت القوة قوة الحق ـ تبارك وتعالى ـ فلا زمن ؛ لذلك يقول سبحانه في مسألة الخَلْق والإعادة : ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ .. ㉘﴾ [لقمان]

فالأمر يسير على الله ؛ لأن خَلْق النفس الواحدة وخَلْق جميع الأنفس يتم بكُنْ ، فالمسألة لا تحتاج إلى تسعة أو ستة أشهر .

وضربنا مثلاً لتوضيح هذه المسألة بصناعة الزبادي مثلاً ، فأنت تأتي باللبن وتضع عليه المادة المعروفة وتتركه في درجة حرارة معينة فيتحول تلقائياً إلى الزبادي الذي تريده ، فهل جلستَ أمام كل

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧١٠) ، ومسلم في صحيحه (١٧٠) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

علبة تُحوِّلها بنفسك ، أم أنك عملت العملية المعروفة فى هذه الصناعة ، ثم تركت هذه المواد تتفاعل بذاتها ؟

كذلك شاء الله تعالى أنْ يوجد الإنسان جنيناً فى بطن أمه ، وأن تجرى عليه أمور النمو بطبيعتها ، إذن : خَلْق الإنسان لا يقاس بالنسبة لله تعالى بالزمن ، وقد حلَّ لنا الإمام على كرم الله وجهه هذه القضية حينما سُئل : كيف يحاسب الله الناس جميعاً من لَدُن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة فى وقت واحد ؟

فقال : يحاسبهم جميعاً فى وقت واحد ، كما أنه يرزقهم جميعاً فى وقت واحد[1] ؛ لأنه سبحانه لا يشغله شأن عن شأن .

ثم يذيل الحق سبحانه هذه الآية بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان] سميع وبصير صيغة مبالغة من السمع والبصر ، وقلنا : إنك وأنت العبد المخلوق تستطيع أن ترى هذا الجمع مرة واحدة فى نظرة واحدة ، وكذلك تسمعه ، فما بالك بسَمْع الله تعالى وبصره ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

(١) سئل الإمام على بن أبى طالب : كيف يحاسب الله الخلق على كثرتهم ؟ فقال : كما يرزقهم على كثرتهم . [شرح نهج البلاغة - للشريف الرضى - طبعة دار الشعب ص ٤٠٤ فقرة ٢٩٨]

هذه آيات كونية واضحة مرئيـة للجميع : للمؤمن وللكافر ، للطائع وللعاصي ، ، فـالحق سبـحانه يوزع لنا الوقت بين ليل ونـهار ، لكنه ليس توزيعـاً متسـاوياً (ميكانيكياً) ، بحيث يـكون كل منهمـا أربعاً وعشـرين ساعة ثابتـة على التقدير الجـبرى كمـا يقولون ؛ لذلك نرى اليوم ينقص مـثلاً عن الأربع وعشـرين ساعة عدة دقـائق تُضاف إلى زمن الليل أو العكس .

لذلك قالوا من أيام بطليموس : السنة ٣٦٥ يوماً وخمس ساعات ، وخمس وخمسون دقيقة ، واثنتا عشرة ثانية بالدقة . بعدها انتهوا إلى أن السنة ٣٦٥ يومـاً وربع يوم عن طـريق الجـبر ، فـكل ثلاث سنين نجبر الرابعـة ، ويقولون : سنة بسيطة ، وسنة كبـيسة أى : طويلة ، فالتى تقبل القسمة على أربعة سنة كبيسة ، لذلك نجد شهر فبراير فى هذه السنة ٢٩ يوماً ، ذلك لتعوض اليوم .

وكلمـة يوم تعنى الليـل والنهـار ، لكن القـسمـة بينهـمـا ليـست متـساوية ، فالحق ـ تبارك وتعـالى ـ بصنعته الحكيـمة أراد أنْ يُوزع الحـرارة والبـرودة على كل مناطق المـعـمـورة ، ويعطى لكل منطقـة ما تحتاجه لتنبت أرضها ، وتعطينا نحن مقومات حياتنا ، بدليل أن من النباتات ما لا ينمو إلا فى الصيف ، ومنها ما لا ينمو إلا فى الشتاء ، كذلك فى الاعتدال الربيعى والاعتدال الخريفى .

لذلك ، عرفنا أخيـراً أن الخالق سبحانه جعل لمـحور الأرض ميلاً بمقدار ٢٣,٥ درجة عن مستوى مدارها فـهى إذن غير مستوية ، ففى فصل الشتـاء يكون القسم الكبير منهـا مواجهاً لليل ، والآخر مـواجهاً للنهار ، فتجد ليل الشتاء أطول من ليل الصيف وأبرد منه ، ويبلغ ليل الشتـاء أقصى مـا يمكن من الطول وهو ١٢ ساعة فـى شهر كـيهك ،

حتى أن الفلاحين يقولون في كيهك (كياك صباحك مساك قوم من نومك حضر عشاك) .

ومقابل ذلك في فصل الصيف ، فكأن ميل محور الأرض سرٌّ من أسرار هندسة هذا الكون ، ففي الحادي والعشرين من حزيران (يونيو) يبدأ الانقلاب الصيفي ، وفي الثالث والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) يبدأ الانقلاب الشتوي ، ثم الاعتدال الربيعي في الحادي والعشرين من آذار (مارس) ، والاعتدال الخريفي في الثاني والعشرين من أيلول (سبتمبر) . وفي الاستواء الربيعي والاستواء الخريفي تجد أن الليل مساوٍ للنهار ، وجوّهما معتدل لا حر ولا برد .

فقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ .. (٢٩) ﴾ [لقمان] يعني : لا تظن أن الليل والنهار قسمة متساوية ؛ لأن الله تعالى بحكمته يُدخل جزءاً من الليل في النهار ، أو جزءاً من النهار في الليل ، فيزيد في أحدهما ، وينقص من الآخر لحكمة أرادها سبحانه وتعالى لصالح الإنسان ، وإعداداً له بمقوّمات حياته ، لتعلم أن ما يطرأ على الليل أو النهار من تغيير الأشياء لها مناط في الحكمة الإلهية العليا .

وحين نُقسِّم اليوم إلى ليل ونهار - وهي قسمة كما قلنا ليست رتيبة ولا متساوية - فإن لليل مهمة في الحياة وللنهار مهمة ، كما بيّن لنا سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) ﴾ [النبأ]

معنى اللباس أن تسكن فيه وتكنّ وتستر نفسك ؛ لذلك عرفنا فيما بعد أن الضوء أثناء النوم أمر غير صحي ، وفهمنا قول رسول الله : « أطفئوا المصابيح إذا رقدتم »[1] .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٢٩٤) وأحمد في مسنده (٣/٣٨٨) عن جابر بن عبد الله ، واللفظ للبخاري .

والحق سبحانه يوضح لنا هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿والضُّحَىٰ (١) واللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢)﴾ [الضحى] ويقول : ﴿واللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) والنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢)﴾ [الليل] ليبين لك أن لكل منهما مهمة فى حركة حياتك ، فالنهار للحركة ، والليل للسكون ، وعليك ألا تخلط بين هاتين المهمتين دون داع ، وقد استثنينا من هذه القاعدة مَنْ تحتم عليهم طبيعة عملهم أنْ يعملوا بالليل ويرتاحوا بالنهار .

والخالق عز وجل جعل فى حركة الليل والنهار أسراراً وعجائب ينبغى أن تتنبه إليها بمعطيات العلم ، ومن حكمة الخالق سبحانه أنْ جعل لكل سر فى الكون ميلاداً يولد فيه ، ونشر أسرار كونه على خَلْقه ولم يُظهرها لجيل واحد ، وإلا لو كشف القرآن كل أسراره للأمة الأمية التى عاصرتْ نزوله لانصرفتْ عن الدعوة الجديدة بتكذيب هذه القضايا التى لم تصدقها العقول حتى فى العصر الحديث ورغم تقدم العلوم ، فمثلاً لما قال العلماء بكروية الأرض ودورانها حول الشمس لم نصدق هذه الحقائق حتى جاءتنا الصور الفضائية التى تؤكد ذلك .

وقلنا : إن ميلاد سرٍّ من أسرار الكون قد يصادف بحثاً من البشر ، فيأتى السر ويظهر على أنه نتيجة لهذا البحث ، وإلا أظهره الله للناس بالمصادفة رحمة بهم وتفضُّلاً عليهم ؛ لذلك نجد أن معظم الاكتشافات جاءت صدفة ، لم يَسْعَ إليها البشر ، ولم يذهبوا إليها بمقدمات .

والقرآن الكريم حين يتحدث عن الليل والنهار يقول كلاماً عاماً يفهمه كل معاصر لمرحلة من مراحل التقدم العلمى : ﴿وجَعَلْنَا اللَّيْلَ والنَّهَارَ آيَتَيْنِ .. (١٢)﴾ [الإسراء]

ويقول : ﴿وهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ والنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ

شُكُوراً (٦٢)﴾ [الفرقان] ومعنى خلفة يعني : يخالف أحدهما الآخر ويأتي بعده ، وهذا صحيح الآن ، فنحن نرى الليل يخلف النهار ، والنهار يخلف الليل ، لكن كيف نتصور هذه المسألة في بَدْء الخَلْق ؟

لو أن البداية كانت بخَلْق الأرض مواجهة للشمس ، فالنهار إذن أولاً ليس خِلْفة لشيء قبله ، ثم تغيب الشمس فينشأ الليل ليكون خِلْفة للنهار ، وفي المقابل إن وجدت الأرض غير مقابلة للشمس ، فالليل هو الأول ليس خِلْفة لشيء قبله

إذن . لا يحل لنا هذه المسألة إلا قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً .. (٦٢)﴾ [الفرقان] أي : من بداية الخَلْق وهما خِلْفة ، وهذا لا يتأتى ولا يسوغ إلا إذا كانت الأرض مكوَّرة ، بحيث يكون الجزء المقابل للشمس منها مكوِّناً للنهار ، والجزء الآخر لليل في وقت واحد ، فلما تحركت الأرض في دورانها صار كل منها خِلْفة للآخر ، إذن : معطيات القرآن يهضمها العقل ، ولا يعارضها أبداً .

تذكرون في الثلاثينيات وبالتحديد عام ١٩٢٨ فسروا السموات السبع بأنها الكواكب السبعة السيارة التي تدور حول الشمس ، ذلك ليقربوا العلم للناس ، ويشاء الله - سبحانه وتعالى - أن يكتشفوا بعدها (نبتون) ثم (بلوتو) فصاروا تسعة كواكب ، وأظهر الله لهم فساد هذا التأويل .

وفي الكون عجائب كثيرة نعرفها حتى عن طريق الكفار ، وكأن الله سخَّر حتى الكافر ليُثبت إيمان المؤمن ، فإذا كنا قد عرفنا اليوم عندنا على الأرض ، وأنه ليل ونهار يُكوِّنان أربعاً وعشرين ساعة ، فماذا يعني اليوم بالنسبة للكواكب الأخرى ؟

لما عرفوا أفلاك الكواكب الأخرى التي تدور حول الشمس وجدوا

أقربها للشمس عطارد ، ثم الزهرة ، ثم الأرض ، ثم المريخ ، ثم المشترى ، ثم زحل ، ثم نبتون ، ثم بلوتو ، وهو أبعد الكواكب عن الشمس .

ومن عجائب اليوم فى هذه الكواكب أن يوم الزهرة مثلاً ٢٤٤ يوماً بيومنا نحن ، أما العام فيساوى ٢٢٥ يوماً بيومنا ، فكأن يوم الزهرة أطول من عامها ، كيف ؟ قالوا : لأن المدار مختلف عن مدار الأرض ، فاليوم نتيجة دورة الكوكب حول نفسه ، والعام نتيجة دورة الكوكب حول الشمس .

وقوله تعالى : ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. (٢٩)﴾ [لقمان] ولك أن تلحظ دقة الأداء القرآنى فى الانتقال من الفعل المضارع ﴿يُولِجُ .. (٢٩)﴾ [لقمان] إلى الماضى ﴿سَخَّرَ .. (٢٩)﴾ [لقمان] ففى الكلام عن حركة الليل والنهار قال ﴿يُولِجُ .. (٢٩)﴾ [لقمان] ولما تكلم عن الشمس والقمر قال : ﴿سَخَّرَ .. (٢٩)﴾ [لقمان] لماذا ؟

قالوا : لأن التسخير تم مرة واحدة ، ثم استقر على ذلك ، أما إيلاج الليل فى النهار ، وإيلاج النهار فى الليل فأمر مستمر يتكرر كل يوم ، فناسبه المضارع الدالّ على التكرار .

وقوله تعالى : ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٢٩)﴾ [لقمان] أى : إلى غاية محدودة ؛ لذلك نسمى العمر النهائى : الأجل . والمراد بالأجل المسمى يوم القيامة ، فكأن الخالق سبحانه ضمن لنا استمرار الشمس والقمر إلى قيام الساعة ، فاطمئنوا .

ثم أىُّ عظمة هذه فى كوكب مضيء ينير العالم كله منذ خلقه الله وإلى قيام الساعة ، دون صيانة ودون قطعة غيار ؛ ذلك لأنه مبنى على التسخير القهرى الذى يمنع الاختيار ، فليس للشمس أنْ تمتنع

عن الشروق وكذلك القمر ، ومن العظمة في الألوهية هذه الرحمانية الرحيمة التي تحتضن الجميع المؤمن بها والكافر .

وفي هذه الآية ورد التعبير بلفظ ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ..(٢٩)﴾ [لقمان] وفي مواضع أخرى ورد بلفظ ﴿لأَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٢)﴾ [الرعد] باللام بدلاً من إلى ، وكذلك في سورتي فاطر (١٣) والزمر (٥) ، ولكل من الحرفين معنى : ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ .. (٢٩)﴾ [لقمان] تعطينا الصورة لمشية الشمس والقمر قبل وصولهما الأجل ، إنما ﴿لأَجَلٍ مُّسَمًّى .. (١٣)﴾ [فاطر] أي : الوصول المباشر للأجل .

وكما أن لليل مهمة وللنهار مهمة ، كذلك للشمس مهمة ، وللقمر مهمة بيَّنها الله في قوله : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً .. (٥)﴾ [يونس]

وفي موضع آخر قال سبحانه : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً (٦١)﴾ [الفرقان] فالضياء للشمس فيه نور وحرارة ، على خلاف نور القمر الذي يناسب حالماً لا حرارة فيه .

ومن عجائب أمر القمر أننا كُنَّا نحسبه قطعة من اللؤلؤ مضيئة في السماء ، حتى إن الشعراء درجوا على تشبيه المحبوبة بالقمر ، ولو عرفوا حقيقة القمر التي عرفناها نحن اليوم ما صحَّ منهم هذا التشبيه ، فقد أطلعنا العلم أن القمر ما هو إلا حجارة وجسم معتم لا يضيء بذاته ، إنما يعكس فقط ضوء الشمس ؛ لذلك لما شبَّه أحد الشعراء محبوبته بالقمر أنكرتْ عليه هذا الشبه :

شَبَّهْتُها بالبدْرِ فَاسْتَضْحكتْ   وقابَلَتْ قَوْلِي بالنُّكْرِ

أي : تكلفت الضحك

وَسفَّهَتْ قولي وقَالَتْ متَى   سَمُجْتُ حتى صِرْتُ كالبدْرِ

ولك أن تسأل فمن أين عرفت سماجة البدر ، وأنه حجارة لا جمالَ فيها ؟ تجيب هي حين تقول

البَدْرُ لاَ يرنُو بعيْنٍ كَمَا   أرنُو ولاَ يَبْسِمُ عَنْ ثَغْرِ

ولاَ يُمِيطُ المِرْطَ عن نَاهِدٍ   ولا يشُدُّ العقد في نَحْرِ

مَنْ قَاسَ بالبَدْرِ صِفَاتِي فَلا   زَالَ أسِيراً في يَدِي هَجْرِي

إذن . فحقيقة القمر التي عرفناها أخيراً آية من آيات الله الظاهرة والباطنة في الكون أطلعنا الله عليها بسلطان العلم ، فلما تيسَّر للبشر الصعود إلى سطحه عرفنا أنه جسم مُعْتم ، وصخور لا تنير بذاتها ، إنما تعكس أشعة الشمس ، فتصل إلينا هادئة حالمة ، وكأن القمر كما يقولون : (يصنع من الفسيخ شربات) .

ومن حكمة الخالق سبحانه في خَلْق الشمس والقمر أن تكون الشمس ميزاناً لمعرفة اليوم ، والقمر لمعرفة الشهر ، وهو الأصل في التكليفات ، لأن له شكلاً مميزاً في أول الشهر على خلاف الشمس ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ .. (٥) ﴾ [يونس]

وتتجلى عظمة التكليف الإلهي وارتباطه بالقمر في فريضة الحج مثلاً ، بحيث يتنقل موعد الحج على مدار العام كله ، فمرة يأتي في الصيف ، وأخرى في الشتاء .. إلخ مما يُيسِّر للحجاج ما يناسب كلاً

منهم من الجو الملائم ، ويقطع الأعذار فى التخلف عن أداء هذه الفريضة .

إذن . بالتوقيت القمرى يأتى الحج فى كل أوقات السنة ؛ لذلك قال البعض : إن ليلة القدر دائرة في العام كله إذا ما قارنا التوقيت الشمسى بالتوقيت القمرى ، فإن اتفقنا على أن ليلة القدر فى السابع والعشرين من رمضان ، فإنها ستوافق أول يناير مثلاً ، وفي العام التالى توافق الثانى ، ثم الثالث وهكذا .. وهذا من رحمة الله تعالى بعباده ..

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩)﴾ [لقمان] وما دام أنه سبحانه خبير بما تعملون ، فهو الذى يهيىء لكم صلاح العمل بخبرته وحكمته وقدرته وقيوميته ؛ لذلك شرع لكم الأعمال التى تنظم حركة حياتكم وحركة عبادتكم ؛ لذلك نجد رمضان مثلاً يدخل بالليل فنقول هذه الليلة من رمضان ، أما يوم عرفة فيدخل بيومه لأنه يوم مجموع له الناس .

وقوله : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩)﴾ [لقمان] معطوفة على ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ .. (٢٩)﴾ [لقمان] فالتقدير : وألم تر أن الله بما تعملون خبير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠)﴾

قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ .. ۝٣٠﴾ [لقمان] إشارة إلى ما تقدم ذكْره من دخول الليل فى النهار ، ودخول النهار فى الليل ، وتسخير الشمس والقمر ، ذلك كله ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ .. ۝٣٠﴾ [لقمان] فكل ما تقدم نشأ عن صفة من صفات الله وهو الحق ، والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ، فكان ناموس الكون بكل أفلاكه وبكل المخلوقات فيه له نظام ثابت لا يتغير ؛ لأن الذى خلقه وأبدعه حق ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ .. ۝٣٠﴾ [لقمان]

وما دام الله تعالى هو (الحق) فما يدْعونه من الشركاء هم الباطل ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ .. ۝٣٠﴾ [لقمان] ، فلا يوجد فى الشىء الواحد حقَّان ، فإنْ كان أحدهما هو الحق فغيره هو الباطل ، فالحق واحد ومقابله الباطل . وأىُّ باطل أفظع من عبادتهم للأصنام واتخاذها آلهة وشركاء مع الله عز وجل ؟

كيف وهى حجارة صوَّروها بأيديهم وأقاموها ليعبدوها من دون الله ، والحجارة جماد من جمادات الأرض ، والجماد هو العبد الأول لكل المخلوقات ، عبد للنبات ، وعبد للحيوان ، وعبد للإنسان ؛ لأنه مُسخَّر لخدمة هؤلاء جميعاً .

فكيف بك وأنت الإنسان الذى كرَّمك ربك وجعل لك عقلاً مفكراً تتدنى بنفسك وترضى لها أنْ تعبد أدنى أجناس الوجود ، وتتخذها شريكاً مع الله ، وأنت ترى الريح إذا اشتدتْ أطاحتْ باللات أو بالعزى ، وألقتْه على الأرض ، وربما كُسرت ذراعه ، فاحتاج لمن يصلح هذا الإله ، إذن ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ .. ۝٣٠﴾ [لقمان]

لذلك ؛ قلنا فى الحروب التى تنشب بين الناس : إنها لا تنشب بين حقين ؛ لأن الحقيقة لا يوجد فيها حقَّان ، إنما هو حق واحد ،

والآخر لا بُدَّ أن يكون باطلاً ، أو تنشأ بين باطلين ، أما نشأتها بين حق وباطل فإنها في الغالب لا تطول ؛ لأن الباطل زهوق .

والعاقبة لا بُدَّ أنْ تكون للحق ولو بعد حين ، أما الباطل فإنه زَهُوق ، إنما تطول المعركة إنْ نشبت بين باطلين ، فليس أحد الطرفين فيها أهلاً لنصرة الله ، فتظل الحروب بينهما حتى يتهالكا ، وتنتهي مكاسب طغيان كل منهما ، ولا يردهما إلا مذلَّة اللجوء إلى التصالح بعد أنْ فقدا كل شيء .

لذلك نرى هذه الظاهرة أيضاً في توزيع التركات والمواريث بين المستحقين لها ، حيث ينشب بينهم الخلاف والطعن واللجوء إلى القضاء والمحامين حتى يستنفد هذا كله جزءاً كبيراً من هذه التركة ، حتى إذا ما صَفَتْ مما كان بها من أموال جُمعتْ بالباطل ترى الأطراف يميلون إلى الاتفاق والتصالح وتقسيم ما بقي .

واقرأ إنْ شئت حديث رسول الله ﷺ : « مَنْ أصاب مالاً من مهاوش[1] أذهبه الله في نهابر[2] »[3] ومعنى : مهاوش يعني بالتهويش أو كما نقول (بيهبش) من هنا ومن هنا ، وطبيعي أن يُذهِب الله هذا المال في الباطل وما لا فائدة منه .

وسبق أن أعطينا مثلاً لمصارف المال الحرام بالأب يرجع إلى بيته ، فيجد ابنه مريضاً حرارته مرتفعة ، فيسرع به إلى الطبيب

---

(١) المهاوش : مكاسب السوء ، فهو كل مال يُصاب من غير حلّه ولا يُدْرى ما وجهه كالغصب والسرقة ونحو ذلك . [لسان العرب ـ مادة : هوش] .

(٢) النهابر : المهالك . أي : أذهبه الله في مهالك وأمور متبددة . [لسان العرب ـ مادة : نهبر] .

(٣) أورده العجلوني في كشف الخفاء (٢/٢١٣) وعزاه للقضاعي عن أبي سلمة الحمصي مرفوعاً ، وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له . قال التقي السبكي: لا يصح .

ويصيبه الرعب ، ويتراءى له شبح المرض ، فينفق على ابنه المئات ، أما الذى يعيش على الكفاف ويعرق فى كسب عيشه بالحلال فيكفيه فى مثل هذه الحالة قرص أسبرين وكوب ليمون ، فالأول أصاب ماله من مهاوش ، والآخر أصابه من الحلال .

فقول الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [لقمان] يعنى : أن الحق هو الظاهر وهو الغالب ، فإنْ قلتَ كيف ونحن نرى الباطل قد يعلو على الحق ويظهر عليه ؟ ونقول : نعم ، قد يعلو الباطل لكن إلى حين ، وهو فى هذه الحالة يكون جندياً من جنود الحق ، كيف ؟ حينما يعلو الباطل وتكون له صَوْلَة لا بُدَّ أن يعض الناس ويؤذيهم ويذيقهم ويلاته ، فيلتفتون إلى الحق ويبحثون عنه ويتشوقون إليه .

إذن : لولا الباطل ما عرفنا ميزة الحق ، ومثال ذلك الألم الذى يصيب النفس الإنسانية فينبهها إلى المرض ، ويظهر لها علتها ، فتطلب الدواء ، فالألم جندى من جنود الشفاء ، وقلنا سابقاً : إن الكفر جندى من جنود الإيمان .

لذلك لا تحزن إنْ رأيتَ الباطل عالياً ، فذلك فى صالح الحق ، واقرأ قول ربك عز وجل : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد] يعنى : يأخذ كل واد على قدره وسعته من الماء ﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد] وهو القش والفتات الذى يحمله الماء ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد] أى : مثلاً لكل منهما .

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد] يعنى : مطروداً مُبْعداً من الجفوة ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد]

وبعد أن بيَّن الحق سبحانه وتعالى أنه ﴿الْحَقُّ .. (٣٠)﴾ [لقمان] وأن غيره من آلهة المشركين هو الباطل ذكر لنفسه سبحانه صفتين أخريين ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٣٠)﴾ [لقمان] العلى الكبير يقولها الله تعالى ، ويقولها رسوله ﷺ ، ونقولها نحن ؛ لأن الله قالها ؛ ولأن النبى الصادق أخبرنا بها ، لكن المسألة أن يشهد بها مَنْ كفر بالله .

لذلك يعلمنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ أن نحمد الله حينما يشهد الكافر لله رغم كفره به ، كما ورد فى الآيات السابقة : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٥)﴾ [لقمان]

فهذه الشهادة منهم تستحق من المؤمن أن يقول : الحمد لله ؛ لأنها شهادة جاءت ممَّنْ كفر بالله وكذَّب رسوله وحاربه ، وأيضاً تنظر إلى هذا الكافر الذى تأبَّى على منهج الله وكذَّب رسوله حين يصيبه مرض مثلاً ، أيستطيع أنْ يتأبى على المرض كما تأبَّى على الله ؟ هذا الذى ألف التمرد على الله : أيتمرد إنْ جاءه الموت .

واقرأ قوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧)﴾ [الإسراء] أى : لا يجدون أمامهم ساعة الكرب والهلاك إلا الله ؛ لأن الإنسان فى هذه الحالة لا يخدع نفسه ولا يكذب عليها ، بالله أرأيتم إنساناً أحاطتْ به الأمواج ، وأشرف على الهلاك يدعو يقول : يا هبل ؟ إذن : الله هو العلى وهو الكبير ، وغيره شرك وباطل.

وسبق أن ضربنا مثلاً للإنسان ، وأنه لا يغشُّ نفسه ، ولا يخدعها خاصة إذا نزلتْ به ضائقة بالحلاق أو حكيم الصحة كما كانوا يطلقون عليه ، فهو يداوى أهل القرية ويسخر من طبيب الوحدة

الصحية ، ويتهمه بعدم الخبرة ، لكن حين مرض ولده وأحسَّ بالخطر أخذ الولد وتسلَّل به فى ظلام الليل ، وذهب إلى الطبيب .

فلله وحده العلو ، ولله وحده الكبرياء ، بدليل أن الكافر حين تضطره أمور الحياة وتُلجئه إلى ضرورة لا مخرجَ منها لا يقول إلا : يا الله يا رب .

فالله هو العليُّ بشهادة مَنْ كفر به ، ثم أردف صفة (العلى) بصفة (الكبير) ؛ لأن العلى يجوز أنه علا بطغيان وعدم استحقاق للعلو ، لكن الحق سبحانه هو العلى ، وهو الكبير الذى يستحق هذا العلو .

ثم يلفتنا الحق سبحانه إلى آية أخرى من آياته فى الكون :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١) ﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه بعض الآيات الكونية البعيدة عنا أراد سبحانه أنْ يعطينا نموذجاً آخر للآيات التى بيْن أيدينا فى الأرض فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ .. (٣١) ﴾ [لقمان] ألم تر : يعنى ألم تعلم ﴿ أَنَّ الْفُلْكَ .. (٣١) ﴾ [لقمان] أى : السفن .

وربما أن سيدنا رسول الله لم يَرَ هذه السفن فى البحار ، ولم تكن قد ظهرت السفن العملاقة التى نراها اليوم كالأعلام ، كما فى قوله

سبحانه : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٢٤) ﴾ [الرحمن]

ومتى وُجدت البوارج العالية التى تشبه الجبال والمكوَّنة من عدة أدوار ؟ لم توجد إلا حديثاً ، إذن : فهذا مظهر من مظاهر إعجاز القرآن ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) ﴾ [الزخرف]

ومَنْ يبحث فى القرآن يجد فيه الكثير من هذه الآيات التى تثبت صِدْق القرآن وصِدْق رسول الله فى البلاغ عن الله .

وذكرنا قصة المرأة التى أسلمت لما قرأت التاريخ الإسلامى ، وقرأت فى سيرة رسول الله أن المؤمنين به كانوا يجعلون عليه حراسة دائمة يتبادلونها حماية له من أعدائه ، وفجأة صرف رسول الله هؤلاء الحرس من حوله وقال لهم لقد أنزل الله علىَّ : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ .. (٦٧) ﴾ [المائدة] فوقفت المرأة عند هذه الآية وقالت : والله لو أن هذا الرجل كان يخدع الناس جميعاً ما خدع نفسه فى حياته .

وقلنا فى معنى ﴿ أَلَمْ تَرَ .. (٣١) ﴾ [لقمان] أنها بمعنى ألم تعلم ، لأن إعلام الله لك أوثق من رؤية عينيك .

وكلمة ﴿ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ .. (٣١) ﴾ [لقمان] الجرى : حركة تودع فيها مكاناً إلى مكان آخر ، هذا التوديع إما أن تمشى الهُوَيْنَا أو تجرى ، لكن ما هى نعمة الله فى جريها ؟ أولاً كانت أول سفينة من الخشب المربوط إلى بعضه بالحبال والدُّسُر[1] ، وكان

---

(١) الدسر : مسامير السفينة وشرطها التى تشد بها . والدسار : المسمار ويقول تعالى ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) ﴾ [القمر] .

الغاطس منها في الماء حوالي شبر واحد يزيح من الماء بحجم وزن السفينة ، فإذا ما وضعت عليها ثقلاً فإنها تغطس بمقدار هذا الثقل ، حتى إذا ما زاد وزن الماء المزاح عن وزن السفينة وحمولتها فإنها تغرق .

وهذه الفكرة هي التي تُستخدم في الغواصات ، فبالوزن يتم التحكم في حركة الغواصة تحت الماء والآن نرى السفن العملاقة والتي تُصنع من الحديد ، والعجيب أن هذا الحديد الصلب يحمله الماء السائل اللّيِّن ويجري به ، ثم تأتي الريح فتدفع السفن إلى حيث تريد ، حتى وإنْ كانت تسير عكس جريان الماء . ويتمكن ربان السفينة من التحكم في حركتها باستخدام بعض الآلات البسيطة وبتوجيه الشراع بطريقة معينة فتسير السفينة حسب ما أراد حتى لو كان اتجاهها عكس اتجاه الريح ، ويسمون هذه الحركة (تسفيح).

لذلك يقول سبحانه عن حركة السفن ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ .. (٣٣) ﴾ [الشورى]

وكأن الحق سبحانه يريد أن يُبيِّن لنا أن أقل الأشياء كثافة بقوة الحق له يحمل أكثر الأشياء كثافة ، وانظر إنْ شئتَ إلى جرارات النقل الثقيل ، هذه الجرارات العملاقة التي تحمل عدة أطنان من الحديد مثلاً على أي شيء تسير وتتحرك ؟ إنها تسير وتتحرك على الهواء المضغوط في عجلاتها ، والذي يأخذ قوته من هذا الضغط ، بحيث إذا زدتَ في ضغط هذه العجلات تقوى على نفسها فتنفجر .

وقوله تعالى : ﴿ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ .. (٣١) ﴾ [لقمان] أي : من عجائبه في كونه خاصة في البحار ، ففي الماضي كنا لا نرى من المخلوقات في الأعماق إلا السمك الذي يصطاده الصيادون ، أما الآن ومع تطور

علوم البحار وطرق التصوير تحت الماء أصبحنا نرى في أعماق البحار عجائب أكثر مما نراه على اليابسة .

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١)﴾ [لقمان] قوله تعالى : ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ .. (٣١)﴾ [لقمان] توحي بأن آيات الله في كونه كثيرة ، لكن على الإنسان أنْ يبذل جهداً في البحث عنها واكتشافها ، وعليه أن يكون صبَّاراً على مشقة البحث والغوص تحت الماء ، فإذا ما رأينا ما في أعماق البحار من عجائب مخلوقات الله فقد وجب علينا الشكر ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣١)﴾ [لقمان] والشكر لا يكون إلا عن نعمة جدَّت لم تكنْ موجودة من قبل .

إذن : الحق - تبارك وتعالى - يريد منا أن نستقبل آياته في الكون استقبالَ بحث وتأمل ونظر ، لا استقبال غفلة وإعراض ، كما قال سبحانه : ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥)﴾ [يوسف]

وتقديم صبَّار على شكور دليل على أن الصبر على مشقات العمل والبحث والاستنباط والاكتشاف يُؤتي نعمة كبيرة تدعو الإنسان إلى شكرها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ[1] كَفُورٍ (٣٢)﴾

(١) ختره : غدر به أقبح الغدر فهو خاتر وختَّار : صيغة مبالغة . [القاموس القويم ١٨٧/١] .

معنى ﴿ غَشِيَهُم مَّوْجٌ .. (٣٢) ﴾ [لقمان] يعني : غطاهم واحتواهم ؛ لذلك قال ﴿ كَالظُّلَلِ .. (٣٢) ﴾ [لقمان] جمع ظُلَّة . وهي التي تعلو الإنسان وتظلله ، ولا يكون الموج كذلك إلا إذا علا عن مستوى الإنسان ، وخرج عن رتابة الماء وسجسجته . ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا[1] الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ .. (١٧١) ﴾ [الأعراف]

وأنت تشاهد هذه المظاهر إذا كنتَ في عرض البحر ، فترى الموجة من بعيد أعلى منك ، وأنها حتماً ستطمسك ، حتى إذا ما وصلتْ إليك شاهدتَ فيها مظهراً من لطف الله بك ، حيث تتلاشى وتمر من تحتك بسلام ، وهذا شيء عجيب ونعمة تستوجب الشكر .

فالموج إذن شيء مخيف ؛ لذلك لما غشيهم وأيقنوا الهلاك ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ .. (٣٢) ﴾ [لقمان] دعوا الله رغم أنهم كافرون به ، لكن المرء في مثل هذه الحال لا يخدع نفسه ولا يكذب عليها ، فالأمر جد ، فلم يدعوا اللات أو العزى ، ولم يقُلْ أحد منهم يا هبل ، إنما دعوا الله بإخلاص لله ، فإنْ كانوا ملتفتين لدين آخر في عبادة الأصنام ، ففي هذا الموقف لا بُدَّ أن يُخلصوا لله ؛ لأنهم واثقون أن الأصنام لن تنفعهم ، وأنها لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً ، ولن يكون النفع وكشف البلاء إلا من الله الحق .

فإنْ قلْتَ : ما دام الأمر كذلك ، فما الذي صرفهم عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام ؟

---

(١) النتق : الزعزعة والهز والجذب والنفض . ونتق الشيء : جذبه واقتلعه . [لسان العرب - مادة : نتق] .

قلنا : إن التديُّن طبيعة في النفس البشرية ، وهذه الطبيعة باقية في ذرات كل إنسان منذ خلق الله آدم ، وأخذ من صُلْبه ذريته ، وأشهدهم على أنفسهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢)﴾ [الأعراف] فشهدوا .

فكل واحد منا فيه ذرة شهدتْ هذا العهد ، وهذه الذرة هي مصدر الإشراقات في نفس المؤمن ، وعليه أنْ يحافظ عليها بأن يأخذ قانون صيانة هذه الذرة ممن خلقها ، لا أنْ يطمس نورها بمخالفة قانون صيانته الذي وضعه له ربه - عز وجل - فيكون كمَنْ قال الله فيه : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤)﴾ [طه]

النبي ﷺ يُوضح لنا هذه المسألة بقوله : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يُهوِّدانه ، أو يُنصِّرانه أو ، يُمجِّسانه »[1] .

فالنفس الإنسانية بخير ما دام فيها الإشراقيات الإلهية الأولى التي شهدتْ أن الله هو الرب ، لكن إذا تضبَّبت فلا بُدَّ أن تحدث الخيبة ويدخل الفساد .

إذن : التديُّن طَبْع في النفس ، لكن التديُّن الحق له مطلوبات ومنهج بافعل كذا ، ولا تفعل كذا ، وهذا يريد أنْ يُرضي نفسه بأن يكون مُتديناً ، لكن يريد أنْ يريح نفسه من مطلوبات هذا التدين ، فماذا يفعل ؟ يلجأ إلى عبادة إله لا مطلوبات له ، وقد توفرت هذه في عبادة الأصنام .

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧٧٥) . وكذا مسلم في صحيحه (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة » الحديث .

لكن نقول لمن عبد الأصنام : لا بُدَّ أنْ يأتي عليك الوقت الذى لا تلتفت فيه إلى الأصنام ، بل إلى الإله الحق الذى هربتْ من مطلوباته وانصرفت عن عبادته ، لا بُدَّ أن تُلجئك الأحداث إلى أنْ تلوذ به ؛ لذلك يقولون فى المثل (اللى متحبش تشوف وجهه ، يُحوجك الزمن لقفاه) .

فأنتم أعرضتم عن الله وكفرتم به ، فلما نزلت بكم الأحداث وأحاطت بكم الأمواج صرْتم أرانب ، فلماذا الآن تلجئون إلى الله ؟ لماذا لم تستمروا على عنادكم وتكبُّركم حتى على الله ؟

ثم يقول تعالى ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ .. (٣٢)﴾ [لقمان] وكان ينبغي عليهم بعد أن اعترفوا أن الله هو الإله الحق الذى يُلْجأ إليه ويُستغاث به ، وبعد أنْ نجاهم وأسعفهم ، كان ينبغى عليهم أن يؤمنوا به ، وأنْ يطيعوه ، وأن تؤثر فيهم هذه الهزة التى زلزلتهم ، إلا أنهم عادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والإعراض عن الله ، وطاوع نفسه وشهوته .

هذه هى حال الكافر حينما يتعرض للابتلاء والتمحيص ، فإنه ينتكس ولا يرعوى على خلاف المؤمن ، فإنه إن تعرَّض لمثل هذا الاختبار يزداد إيماناً ويقيناً .

والمقتصد هو البين بين ، تأخذه الأحداث والخطوب ، فتردُّه إلى الله حال الكرب والشدة ، لكنه إذا كشف عنه تردد وضعفتْ عنده هذه الروح ، بدليل أن الله تعالى يذكر فى مقابل المقتصد نوعاً آخر منهم غير مقتصد ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢)﴾ [لقمان]

فمنهم من بهت كفره حينما تنبه فيه الوازع الإيمانى ، لكنه لما نجا غرَّته الدنيا من جديد ، ومنهم الجاحد الختَّار أى : الغادر .

ولك أنْ تلحظ المقابلة بين صبَّار وختَّار ، وبين شكور وكفور .

ثم يخاطب الحق سبحانه الناس ، فيقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾

خطاب الحق سبحانه لعباده بيأيها الناس يدل على أنه تعالى يريد أنْ يُسعدهم جميعاً في الآخرة ، وسبق أنْ ذكرنا الحديث القدسي الذي تقول فيه الأرض : يا رب ائذن لي أنْ أخسف بابن آدم . وقالت البحار : نغرقه ... إلخ ، فكان الرد من الخالق عز وجل « دعوني وخلقي ، فلو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إليَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم»[1] .

وقوله تعالى : ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [لقمان] التقوى أنْ تجعل بينك وبين ما يضرك وقاية تقيك وتحميك ؛ لذلك يقول تعالى في آية

---

(١) أورده الغزالي في إحياء علوم الدين (٥٢/٤) من قول بعض السلف ، ولفظه : « ما من عبد يعصي إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله للأرض والسماء : كفَّا عن عبدي وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إليَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدل له حسنات » .

أخرى ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ .. (١٣١)﴾ [آل عمران] وهما بمعنى واحد ؛ لأن معنى اتقوا الله : اجعلوا بينكم وبين صفات جلال ربكم وانتقامه وجبروته وقاية ، وكذلك في : اتقوا النار .

فالخطاب هنا عام للناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم ، فالله تعالى يريد أن يُدخلهم جميعاً حيِّز الإيمان والطاعة ، ويريد أنْ يعطيهم ويمنَّ عليهم ويعينهم ، وكأنه سبحانه يقول لهم : لا أريد لكم نِعَم الدنيا فحسب ، إنما أريد أنْ أعطيكم أيضاً نعيم الآخرة .

وكذلك النبي ﷺ ، كان رحيماً حتى بالكافرين والمعاندين له ، كما ذكرنا في قصة اليهودي الذي اتهموه ظلماً بسرقة درع أحد المسلمين ، وقد عزَّ على المسلمين أنْ يُرمى واحد منهم بالسرقة ، فجعلوها عند اليهودي ، وعرضوا الأمر على سيدنا رسول الله ، فأداره في رأسه : كيف يتصرف فيه ؟

فأسعفه الله ، وأنزل عليه : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ .. (١٠٥)﴾ [النساء] لا بين المؤمنين فحسب ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)﴾ [النساء] أي : لا تخاصم لصالح الخائن ، وإنْ كان مسلماً ، فالناس جميعاً سواء أمام مسئولية الإيمان .

وفَرْق بين : اتقوا ربكم واتقوا الله ؛ لأن عطاء الربوبية غير عطاء الألوهية ، عطاء الربوبية إيجاد من عَدَم ، وإمداد من عُدْم ، وتربية للمؤمن وللكافر ، أما عطاء الألوهية فطاعة وعبادة وتنفيذ للأوامر ، فاختار هنا الرب الذي خلق وربَّى ، وكأنه سبحانه يقول للناس جميعاً : من الواجب عليكم أن تجعلوا تقوى الله شكراً لنعمته عليكم ، وإنْ كنتم قد كفرتُم بها .

ولا تنتهي المسألة عند تقوى الرب في الدنيا ، إنما ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا

﴿لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ .. (٣٣)﴾ [لقمان] أى : خافوا يوماً تُرجعون فيه إلى ربكم ، وكلمة (يوم) تأتى ظرفاً ، وتأتى اسماً مُتصرِّفاً ، فهى ظرف إذا كان هناك حدث سيحدث فى هذا اليوم كما تقول : خفْتُ شدة الملاحظة يوم الامتحان ، فالخوف من الحدث ، لا من اليوم نفسه ، أمَّا لو قلت خفت يوم الامتحان ، فالخوف من كل شىء فى هذا اليوم ، أى من اليوم نفسه .

فالمعنى هنا ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا .. (٣٣)﴾ [لقمان] لأن اليوم نفسه مخيف بصرف النظر عن الجزاء فيه ، وفى هذا اليوم ﴿لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ .. (٣٣)﴾ [لقمان] خصَّ هنا الوالد والولد ؛ لأنه سبحانه نصح الجميع ، ثم خصَّ الوالدين فى الوصية المعروفة ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ .. (١٤)﴾ [لقمان]

ثم ذكر حيثيات هذه الوصية وقال ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ .. (١٤)﴾ [لقمان] فجعل لهما فضلاً ومَيْزة ومنزلة عند الله ، حتى أصبحا مظنة النفع حتى يوم القيامة ، فأراد سبحانه أنْ يُبيِّن لنا أن نفع الوالد لولده ينقطع فى الآخرة ، فكلٌّ منهما مشغول بنفسه ، فلا ينفع الإنسان حتى أقرب الناس إليه

وفى سورة البقرة : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا .. (٤٨)﴾ [البقرة] أى : مطلق النفس ، لا مجرد الوالد والولد ، إنما عامة الناس لا ينفع أحد منهم أحداً أيّاً كان .

والآية بهذا اللفظ وردت فى موضعين : اتفقا فى الصدر ، واختلفا فى العَجُز ، وهى تتحدث عن نَفْسين : الأولى هى النفس الجازية أى : التى تتحمل الجزاء ، والأخرى هى النفس المجزيَّة التى تستحق العقوبة .

فالآية التى نظرت إلى النفس المجزىّ عنها ، جاء عَجُزها ﴿وَلاَ يُقْبَلُ

مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ .. ﴿١٢٣﴾ [البقرة]

ومعنى : عَدْل أى فدية ، فالنفس المجزىّ عنها أول مرحلة عندها لتدفع عن نفسها العذاب أن تعرض الفدية ، فلا يقبل منها فدية ، لكنها لا تيأس ، بل تبحث عَمَّنْ يشفع لها من أصحاب الجاه والمنزلة يتوسط لها عند الله ، وهذه أيضاً لا تنفع .

أما النفس الجازية ، فأول ما تعرض تعرض الشفاعة ، فإنْ لم تُقبل عرضت العدل والفدية ؛ لذلك جاء عَجُز الآية الأخرى الذى اعتبر النفس الجازية بتقديم الشفاعة على العدل . إذن : ذَيْل الآية الأولى عائد على النفس المجزىّ عنها ، وذيل الآية الثانية يعود على النفس الجازية .

وهنا ﴿ لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [لقمان] لأن الوالد مظنَّة الحنان على الولد ، وحين يرى الوالد ولده يُعذَّب يريد أنْ يفديه ، فقدَّم هنا (الوالد) ثم قال : ﴿ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [لقمان] فقدم المولود ، وكان مقتضى الكلام أنْ نقول : ولا يجزى ولد عن والده ، فلماذا عدل عن ولد إلى مولود ؟

الكلام هنا كلام رب ، وفَرْق كبير بين ولد ومولود ؛ لأن المسلمين الأوائل كان لهم آباء ماتوا على الكفر ، فظنوا أن وصية الله بالوالدين تبيح لهم أنْ يجزوا عنهم يوم القيامة ، فأنزل الله هذه الآية تبين لهؤلاء ألاَّ يطمعوا فى أنْ يدفعوا شيئاً عن آبائهم الذين ماتوا على الكفر .

لذلك لم يقل هنا ولد ، إنما مولود ؛ لأن المولود هو المباشر للوالد ، والولد يقال للجد وإنْ علا فهو ولده ، والجد وإنْ علا والده ، فإذا كانت الشفاعة لا تُقبل من المولود لوالده المباشر له ، فهى من

باب أَوْلَى لا تُقبل للجدِّ ؛ لذلك عَدل عن ولد إلى مولود ، فالمسألة كلام رب حكيم ، لا مجرد رَصْف كلام .

لكن ، متى يجزى الوالد عن الولد ، والمولود عن والده ؟ قالوا : الولد ضعيف بالنسبة لوالده يحتاج منه العطف والرعاية ، فإذا رأى الوالد ولده يتألم سارع إلى أنْ يشفع له ويدفع عنه الألم ، أما الولد فلا يدفع عن أبيه الألم لأنه كبير ، إنما يدفع عنه الإهانة ، فالوالد يشفع في الإيلام ، والولد يشفع في الإهانة ، فلكل منهما مقام .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ .. (٣٣)﴾ [لقمان] عرفنا أن الوعد : إخبار بشيء يسر لم يأت وقته ، وضده الوعيد ، وهو إخبار بشيء يؤذى لم يأتِ وقته بعد ، لكن ما فائدة كل منهما ؟

فائدة الوعد أنْ تستعدَّ له ، وتأخذ فى أسبابه ، فهو يشجعك على العمل والسعى الذى يُحقِّق لك هذا الوعد كأنْ تَعِد ولدك مثلاً بجائزة إنْ نجح فى الامتحان ، وعلى العكس من ذلك الوعيد ؛ لأنه يُخوِّفك من عاقبته فتحترس ، وتأخذ بأسباب النجاة منه .

إذن : الوعد حق ، وكذلك الوعيد حق ، لكنه خصَّ الوعد لأنه يجلب للنفس ما تحب ، أمَّا الوعيد فقد يمنعها من شهوة تحبها ، ووضحنا هذه المسألة بأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يتكلم فى النعم أن منها نِعَم إيجاب ، ونِعَم سلب .

واقرأ فى ذلك قول ربك : ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦)﴾ [الرحمن]

فإذا كانت الجنة وما فيها نعماً تستحق الشكر ، ويمتنّ الله بها علينا ، فأىُّ نعمة فى الشواظ والنار والعذاب ؟ قالوا : هى نعمة من حيث هى تحذير وتخويف من العذاب لتبتعد عن أسبابه ، وتنجو منه

قبل أنْ تقع فيه ، نعمة لأن الله لم يأخذنا على غِرَّة ، ونبهنا إلى الخطر قبل أنْ نقع فيه .

ووَعْد الله حقٌّ ؛ لأنه وعد ممَّنْ يملك الوفاء بما وعد ، وإنفاذ ما وعد به ، أما غير الله سبحانه فلا يملك أسباب الوفاء ، فوعده لا يُوصَف بأنه حق ؛ لذلك قال سبحانه في سورة الكهف : ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾ [الكهف]

فأنت وإنْ كنتَ صادقاً فيما وعدتَ به إلا أنك لا تضمن البقاء إلى أنْ تفي بما وعدتَ ، فإنْ بقيت فقد تتغير الأسباب فتحول بينك وبين الوفاء ، وأنت لا تملك سبباً واحداً من هذه الأسباب .

إذن : تأدب ودَع الأمر لمَنْ يملك كل أسباب إنفاذ الوعد ، وقُلْ سأفعل كذا إن شاء الله ، حتى إذا لم تنفذ يكون لك حجة فتقول : أردتُ لكن الله لم يشأ .

وكأن ربنا - عز وجل - يريد أنْ يداري كذبنا ويستره علينا ، يريد ألاَّ يفضحنا به ، وأخرجنا من هذه المسئولية بترك المشيئة له سبحانه ، وكأن قدر الله في الأشياء صيانة لعبيده من عبيده . لذلك كثيراً ما نقول حينما لا نستطيع الوفاء : هذا قدر الله ، وماذا أفعل أنا ، والأمر لا يُقضى في الأرض حتى يُقضى في السماء .

وما دمنا قد آمنا بقدر الله والحكمة منه ، فلا تغضب مني إنْ لم أفِ لك وأنت كذلك ، والعاقل يعلم تماماً حين يقضي أمراً لأحد أن قضاء الأمر جاء معه لا به ، فالقدر قضاء ، ووافق قضاؤه قضاء الله للأمر ، فكأن الله كرَّمه بأنْ يقضي الأمر على يديه ، لذلك قلنا : إن الطبيب المؤمن يقول : جاء الشفاء معي لا بي ، وأن الطبيب يعالج والله يشفي . إذن : لا يُوصَف الوعد بأنه حقٌّ إلا وعد الله عز وجل .

وما دام وعد الله حقاً فعليك أنْ تفعل ما وعدك عليه بالخير وتجتنب ما توعَّدك عليه بشرٍّ ، وألاَّ تغرك الحياة ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا .. (٣٣)﴾ [لقمان] أى : بزينتها وزُخْرفها ، فهى سراب خادع ليس وراءه شيء ، واقرأ قول الله تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾ [المؤمنون]

والحق سبحانه يضرب لنا مثلاً للدنيا ، لا ليُنفِّرنا منها ، وإنما لنحتاط فى الإقبال عليها ، وإلا فحبُّ الحياة أمر مطلوب من حيث هى مجال للعمل للآخرة ومضمار للتسابق إليها .

يقول تعالى فى هذا المثل ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٤٥)﴾ [الكهف] فسماها دنيا ، وليس هناك وصف أبلغ فى تحقيرها من أنها دنيا ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ .. (٤٥)﴾ [الكهف] نعم ، كذلك الدنيا تزدهى ، لكن سرعان ما تزول ، تبدأ ابتداءً مقنعاً مغْرياً ، وتنتهى انتهاءً مؤسفاً .

وقوله تعالى : ﴿وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣)﴾ [لقمان] والغَرور بالفتح الذى يغرُّك فى شيء ما ، والغرور يوضحه لنا الشاعر الجاهلى[1] وهو يخاطب محبوبته فيقول :

أَفَاطِمُ مَهْلاً بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّلِ ... وإنْ كُنْتِ قَدْ أَزْمعتِ صَرْمى[2] فأجْمِلى

أَغَرَّكِ منّى أنَّ حبَّكِ قَاتِلى ... وَأنَّكِ مَهْمَا تأمُرى القَلْبَ يفعَلِ

فمعنى غرَّك : أدخل فيك الغرور ، بحيث تُقبل على الأشياء ،

---

(١) هو الشاعر امرؤ القيس ، والأبيات من معلقته التى أولها :

قِفَا نَبْكِ منْ ذِكرى حبيبٍ وَمنْزِلِ ... بسقْطِ اللِّوَى بين الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

(٢) الصرم : القطع مادياً ، كقطع الثمار ، ويكون القطع معنوياً بمعنى الهجر وقطع صلة المودة [القاموس القويم ١/ ٣٧٥] .

وتتصرف فيها في كنف هذا الغرور وعلى ضوئه .

والغَرُور بالفتح هو الشيطان ، وله في غروره طرق وألوان ، فغرور للطائعين وغرور للعاصين ، فلكل منهما مدخل خاص ، فيغرّ العاصي بالمعصية ، ويوسوس له بأن الله غفور رحيم ، وقد عصا أبوه فغفر الله له . لذلك أحد الصالحين سمع قول الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ ﴾ [الانفطار] فأجاب هو : غرّني كرمه ، لأنه خلقني وسوّاني في أحسن صورة ، وعاملني بكرم ودلّلني ، حتى أصابني الغرور بذلك ، ولو أنه عز وجل قسا علينا ما اغتررنا .

وكان لأحدهم دَيْن خمسة صاغ فضة عند آخر ، فردّها إليه ، فلما نظر فيها الدائن وجدها ممسوحة فأعادها إليه ، فقال المدين : والله لو كنت كريماً لقبلتها دون أنْ تنظر فيها .

فأخذ الواعظ هذه الواقعة وأراد أنْ يعظ بها الدائن ، وكان يصلي صلاةً لا خشوعَ فيها ، فقال له : إن صلاتك هذه لا تعجبني ، فهي نَقْر لا خشوع فيها ، أرأيت لو أن لك دَيْناً فأعطاك صاحب الدين نقوداً ممسوحة قديمة أكنت تقبلها ؟ فقال الرجل : والله لو كنتُ كريماً أقبلها ولا أردها .

ثم يقول الحق سبحانه مختتماً سورة لقمان :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ۝٣٤ ﴾

بعد أن حذرنا ربنا - تبارك وتعالى - من الغرور في الحياة الدنيا يُذكِّرنا أن بعد هذه الحياة حياة أخرى ، وقيامة وساعة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ .. (٣٤) ﴾ [لقمان] والساعة لا تعني القيامة فحسب ، إنما لكل منا ساعته ، لأنه مَنْ مات فقد قامت قيامته .

لماذا ؟ لأنه انقطع عمله ، ولا يمكنه تدارك ما فاته من الإيمان أو العمل الصالح ، فكأن قيامته قامت بموته .

وقلنا : إن عمر الدنيا بالنسبة لك هو مقدار عمرك فيها ، وإنْ كان عمر الدنيا على الحقيقة من لَدُن آدم - عليه السلام - إلى قيام الساعة ، لكن ماذا استفدتَ أنت من عمر غيرك ؟

إذن : لا ينبغي أن تقول : إن الدنيا طويلة ؛ لأن عمرك فيها قصير ، ثم إنك لا تعلمه ، ولا تستطيع أنْ تتحكم فيه ، وكما أبهم الله الساعة أبهم الأجل ؛ لأن في إبهامه أنفع البيان ، فلما أبهم الله الأجل جعل النفس البشرية تترقبه في كل لحظة ، فكل لحظة تمر عليك يمكن أن يأتيك فيها الموت .

وهكذا أشاع الموت في كل الزمن ، وما دام الأمر كذلك فلا بُدَّ أن ينتبه الإنسان ويخشى أن يموت وهو على معصية ، فالإبهام هنا هو عَيْن البيان .

وقلنا : إن الذين ماتوا من لَدُن آدم عليه السلام يلبثون في قبورهم طوال هذه المدة ، فإذا ما قامت القيامة ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾ [النازعات] لماذا ؟ قالوا : لأن قياس الزمن إنما يتأتى بالأحداث ، فحيث لا توجد أحداث لا يوجد زمن .

ومثَّلْنا لذلك بأهل الكهف الذين مكثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ، ومع ذلك لما سأل بعضهم بعضاً ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا

يوماً أو بعض يوم .. ﴿١٩﴾﴾ [الكهف]

لماذا ؟ لأن النوم يخلو من الأحداث ، فلا يشعر النائم فيه بالزمن ، كما أنهم لما رأى بعضهم بعضاً بعد هذه الفترة رآه على حالته التي نام عليها لم يتأثر بمرور هذه المدة ، ولم تتغير هيئته ، فأقصى ما يمكن تصوره أن يقول : لبثنا يوماً أو بعض يوم .

وكذلك الحال في قصة العُزَير الذي قال الله عنه . ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة] ؛ لأن هذه هي أطول مدة يمكن أن ينامها الإنسان .

ثم أخبره ربه ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ .. ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة] ويريد الحق سبحانه أن يُدلِّل على صدق الرجل في قوله يوماً أو بعض يوم ، وعلى صدقه تعالى في قوله مائة عام ، فيقول سبحانه : ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ .. ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة] أي : لم يتغير .

وهذا دليل على صدقه في يوم أو بعض يوم ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ .. ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة]

وهذا دليل على صدق الحق - تبارك وتعالى - في قوله ﴿مِائَةَ عَامٍ .. ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة] فكلا القولين صادق ؛ لأن الله تعالى هو القابض الباسط ، يقبض الزمن في حق قوم ، ويبسطه في حق آخرين .

وهذه الآية جمعت خمسة أمور استأثر الله تعالى بعلمها : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان]

فهل هذه هي كل الغيبيات في الكون ؟ نقول في الكون غيبيات

كثيرة لا نعرفها ، فلا بُدَّ أن هذه الخمس هي المسئول عنها ، وجاء الجواب على قدر السؤال ، بالله لو هَبَّتْ الريح ، وحملتْ معها بعض الرمال ، أنعرف أين ذهبت هذه الذرات ؟ وفي أي ناحية ؟ أنعرف ورق الشجر كم تساقط منها ؟

هذه كلها غيبيات لا يعلمها أيضاً إلا الله ، أما نحن فلا نعلم حتى عدد النِّعَم التي أنعم الله بها علينا ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم]

إذن : فهذه نماذج لما استأثر الله بعلمه ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧)﴾ [لقمان]

فلله تعالى في كونه أسرار لا تُحصى ، أجَّل الله ميلادها ؛ لنعلم أننا في كل يوم نجهل ما عند الله ، وكل يوم يطلع علينا العلماء والباحثون بجديد من أسرار الكون ـ هذا ونحن لا نزال في الدنيا ، فما بالنا في الآخرة ، وفي الجنة إن شاء الله ؟

وقد أخبر النبي ﷺ عنها فقال : « فيها ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[1] .

والإنسان يكتسب المعلومات ، إما برؤية العين ، أو بسماع الأذن ، ومعلوم أن رقعة السمع أوسع من البصر ؛ لأنك لا ترى إلا ما تراه عيناك ، لكنك تسمع لمرائي الآخرين ، ثم أنت تسمع وترى موجوداً ،

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : قال الله عز وجل : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، مصداق ذلك في كتاب الله : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)﴾ [السجدة] أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٢٤) ، وأحمد في مسنده (٢/٤٦٦) ، وأبو نعيم في الحلية (٢/٢٦٢) من حديث أبي هريرة .

لكن هناك ما لا يخطر على قلب بشر يعني : أشياء غيبية لم تطرأ على بال أحد ، وفي ذلك يقول سبحانه : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾ [السجدة]

وقد ورد في أسباب نزول مفاتح الغيب هذه ، أن رجلاً من محارب ، اسمه الحارث بن عمرو بن حارثة[1] أتى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله : أريد أنْ أعرف متى الساعة ، وقد بذرْت بذري ، وأنتظر المطر فمتى ينزل ؟ وامرأتي حامل ، وأريد أن تلد ذكراً ، وقد أعددت لليوم عُدَّته ، فماذا أُعِد لغد ؟ وقد عرفت موقع حياتي ، فكيف أعرف موقع مماتي ؟

هذه خمس مسائل مخصوصة جاء بها الجواب من عند الله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. (٣٤) ﴾ [لقمان]

وعجيب أنْ ترى من خَلْق الله مَنْ يحاول أن يستدرك على مقولة الله في هذه الغيبيات الخمس ، كالذين حاولوا أنْ يتنبأوا بموعد قيام الساعة ، وقد كذبوا جميعاً ، ولو قُدِّر لهم الإيمان بالله ، والعلم بما قاله الله في قيام الساعة ما تجرأ منهم أحد على هذه المسألة .

وقلنا : إن الحق سبحانه أخفى موعد الساعة لكي نستشعرها دائماً ، وفي كل وقت ، حتى الذين لا يؤمنون بها ويشكُّون فيها ، وإذا ما استشعرها الناس عملوا لها ، واستعدوا لأهوالها ، كما أخفى الله عن الإنسان ساعة موته ومكان أجله ، وجعل الموت يدور على

---

(١) قال الواحدي في أسباب النزول (ص ١٩٨) : « نزلت آية ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ .. (٣٤) ﴾ [لقمان] - في الحارث بن عمرو بن حارثة بن محارب بن حفصة من أهل البادية أتى النبي ﷺ فسأله عن الساعة ووقتها وقال - إن أرضنا أجدبت ، فمتى ينزل الغيث ، وتركت امرأتي حُبْلَى فماذا تلد ؟ وقد علمت أين ولدت فبأيِّ أرض أموت ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية

العباد على غير قاعدة .

فمنهم مَنْ يموت بعد دقائق من مولده ، ومنهم مَنْ يعمر مئات السنين . كما أنه سبحانه لم يجعل للموت مقدمات من مرض أو غيره ، فكم من مريض يُعافى ، وصحيح يموت ، كما يقولون : كيف مريضكم ؟ قال : سليمنا مات ، وصدق القائل :

فَلا تَحْسَبِ السُّقْم كأْسَ الممات وإنْ كَانَ سُقْماً شَدِيد الأثَر
فَـرُبَّ عليـل تَـرَاهُ اسْتَفَاق ورُبَّ سليم تَـرَاه اسْـتتر

كذلك الموت لا يرتبط بالسِّن :

كم بُودرت غـادة كعَـابٌ وغُـودِرَتْ أمُّهـا العَجُـوزُ
يجـوزُ أنْ تبطىء المنَـايَا والخُلْدُ فى الدَّهْر لا يَجُوزُ

إذن : أخفى الله القيامة وأخفى الموت ؛ لنظل على ذُكْر له نتوقعه في كل لحظة ، فنعمل له ، ولنتوقع دائماً أننا سنلقى الله ، فنعد للأمر عُدته ؛ لأن مَنْ مات فقد قامت قيامته ؛ لأنه انقطع عمله ، ففى إبهام موعد القيامة وساعة الموت عَيْن البيان لكل منهما ، فالإبهام أشاعه فى كل وقت .

وقوله : ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ .. (٣٤)﴾ [لقمان] وهذا أيضاً ، ومع تقدُّم العلوم حاول البعض التنبؤ به بناء على حسابات دقيقة لسرعة الرياح ودرجة الحرارة .. إلخ ، وربما صَحَّتْ حساباتهم ، لكن فاتهم أن لله أقداراً فى الكون تحدث ولا تدخل فى حساباتهم ، فكثيراً ما تُفَاجأ بتغيُّر درجة الحرارة أو اتجاه الريح ، فتنقلب كل حساباتنا .

لذلك من عجائب الخَلْق أنك كلما اقتربتَ من الشمس وهى مصدر الحرارة تقلُّ درجة الحرارة ، وكلما ابتعدت عنها زادت درجة

الحرارة ، إذن : المسألة ليست روتينية ، إنما هى قدرة لله سبحانه ، والله يجمع لك الأسباب ليثبت لك طلاقة قدرته التى تقول للشىء : كُنْ فيكون .

ألسنا نُؤمر فى الحج بأن نُقبِّل حجراً ونرمى آخر ، وكل منهما إيمان وطاعة ، هذا يُباس[1] وهذا يُداس ، هذا يُقبَّل وهذا يقتبل ، لماذا ؟ لأن الله تعالى يريد منا الالتزام بأمره ، وانصياع النفس المؤمنة للرب الذى أحيا ، والرب الذى كلَّف .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ .. (٣٤) ﴾ [لقمان] هذه أيضاً من مفاتح الغيب ، وستظل كذلك مهما تقدمت العلوم ، ومهما ادَّعى الخَلْق أنهم يعلمون ما فى الأرحام ، والذى أحدث إشكالاً فى هذه المسألة الآن الأجهزة الحديثة التى استطاعوا بها رؤية الجنين ، وتحديد نوعه أذكر أم أنثى ، فهذه الخطوة العلمية أحدثتْ بلبلة عند بعض الناس ، فتوهموا أن الأطباء يعلمون ما فى الأرحام ، وبناءً عليه ظنوا أن هذه المسألة لم تَعُدْ من مفاتح الغيب التى استأثر الله بها .

ونقول : أنتم بسلطان العلم علمتم ما فى الأرحام بعد أن تكوَّن ووضحتْ معالمه ، واكتملتْ خلْقته . أما الخالق - عز وجل - فيعلم ما فى الأرحام قبل أنْ تحمل الأم به ، ألم يُبشِّر الله تعالى نبيه زكريا عليه السلام بولده يحيى قبل أن تحمل فيه أمه ؟ ونحن لا نعلم هذا الغيب بذواتنا ، إنما بما علَّمنا الله ، فالطبيب الذى يُخبرك بنوع الجنين لا يعلم الغيب ، إنما مُعلَّم غيب .

والله - تبارك وتعالى - يكشف لبعض الخلق بعض الغيبيات ،

---

(١) قال ابن منظور فى [لسان العرب - مادة : بوس] : « البَوْس التقبيل ، فارسى معرب ، وقد باسه يبوسه » .

ومن ذلك ما كان من الصِّدِّيق أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ حين أوصى ابنته عائشة ـ رضى الله عنها ـ قبل أن يموت وقال لها : يا عائشة إنما هما أخواك وأختاك ، فتعجبت عائشة حيث لم يكن لها من الإخوة سوى محمد وعبد الرحمن ، ومن الأخوات أسماء ، لكن كان الصِّدِّيق فى هذا الوقت متزوجاً من بنت خارجة ، وكانت حاملاً وبعد موته ولدتْ له بنتاً[1] ، فهل نقول : إن الصِّدِّيق كان يعلم الغيب ؟ لا ، إنما أُعلِم من الله . إذن : الممنوع هنا العلم الذاتى أن تعلم بذاتك .

ثم إن الطبيب يعلم الآن نوع الجنين ، إما من صورة الأشعة أو التحاليل التى يُجريها على عينة من الجنين ، وهذا لا يُعتبر علماً للغيب ، و (الشطارة) أن تجلس المرأة الحامل أمامك وتقول لها : أنت إنْ شاء الله ستلدين كذا أو كذا ، وهذا لا يحدث أبداً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا .. (٣٤) ﴾ [لقمان] الإنسان يعمل ، إما لدنياه ، وإما لأُخْراه ، فالمعنى إما تكسب من الخير المادى لذاتك لتعيش ، وإن كان من مسألة التكليف ، فالنفس إما تعمل الخير أو الشر ، الحسنة أو السيئة ، والإنسان فى حياته عُرضَة للتغيُّر

لذلك يقال فى الأثر : « يا ابن آدم ، لا تسألنى عن رزق غدٍ ، كما لم أطالبك بعمل غد » .

وقوله تعالى . ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. (٣٤) ﴾ [لقمان] وهذه المسألة حدث فيها إشكال ؛ لأن رسول الله ﷺ أخبر الأنصار

---

(١) هى : أم كلثوم بنت أبى بكر ، أمها حبيبة بنت خارجة بن زيد ، وكانت حاملاً بها عند وفاة أبى بكر وولدت بعده [ابن سعد فى الطبقات ٣/١٥٥] .

أنه سيموت بالمدينة حينما وزع الغنائم على الناس جميعاً ما عدا الأنصار ؛ لذلك غضبوا ووجدوا في أنفسهم شيئاً ؛ لأن رسول الله حرمهم ، لكن سيدنا رسول الله جمعهم وتلطَّف معهم في الحديث واعترف لهم بالفضل فقال : والله لو قلتم أني جئت مطروداً فآويتموني فأنتم صادقون ، وفقيراً فأغنيتموني فأنتم صادقون .. لكن ألا تحبون أن يرجع الناس بالشاة والبعير ، وترجعون أنتم برسول الله »[1] ، وقال في مناسبة أخرى « المحيا محياكم ، والممات مماتكم »[2] .

إذن : نُبِّئَ رسول الله أنه سيموت بالمدينة ، والله يقول ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. (٣٤) ﴾ [لقمان] نقول : الأرض منها عام وخاصّ ، فأرض المدينة شيء عام ، نعم سيموت بالمدينة ، لكن في أيِّ بقعة منها ، وفي أي حجرة من حجرات زوجاته ؟ إذن : إذا علمتَ الأرض العامة ، فإن الأرضَ

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه (٤٣٣٠) عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال : « لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يُعْطِ الأنصار شيئاً ، فكأنهم وجدوا إذ لم يُصبهم ما أصاب الناس ، فخطبهم فقال : يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله بي ؟ كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمنُّ . قال : ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ ؟ قال : كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله أمنُّ . قال : لو شئتم قلتم : جئتنا كذا وكذا ، ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم ؟ لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبها ، الأنصار شعار ، والناس دثار » .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٨٠) رواية (٨٦) كتاب الجهاد والسير أنه قال للأنصار في حديث طويل : « أنا محمد عبد الله ورسوله ، هاجرت إلى الله وإليكم ، فالمحيا محياكم والممات مماتكم »

الخاصة ما زالت مجهولة لا يعلمها أحد .

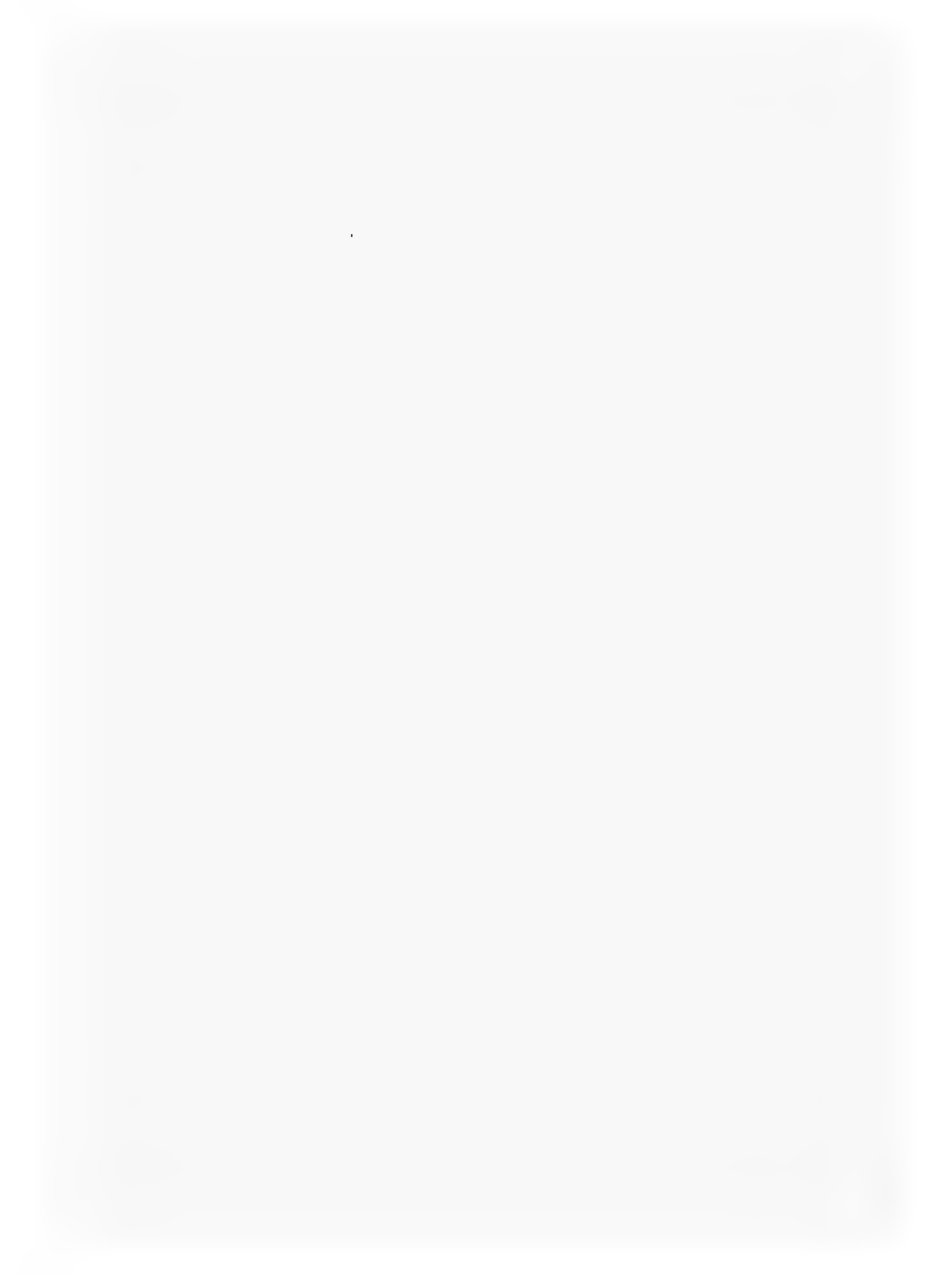
يُرْوى أن أبا جعفر المنصور الخليفة العباسي كان يحب الحياة ويحرص عليها ، ويخاف الموت ، وكان يستشير في ذلك المنجِّمين والعرافين ، فأراد الله أنْ يقطع عليه هذه المسألة ، فأراه في المنام أن يداً تخرج من البحر وتمتد إليه ، وهي مُفرَّجة الأصابع هكذا ، فأمر بإحضار مَنْ يُعبِّر له هذه الرؤيا ، فكان المتفائل منهم ، أو الذي يبغي نفاقه يقول له : هي خمس سنوات وآخرون قالوا : خمسة أشهر ، أو خمسة أيام أو دقائق .

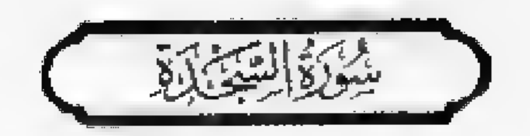
إلى أن انتهى الأمر عند أبي حنيفة رضي الله عنه فقال له : إنما يريد الله أن يقول لك : هي خمسة لا يعلمها إلا الله ، وهي : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. (٣٤)﴾ [لقمان]

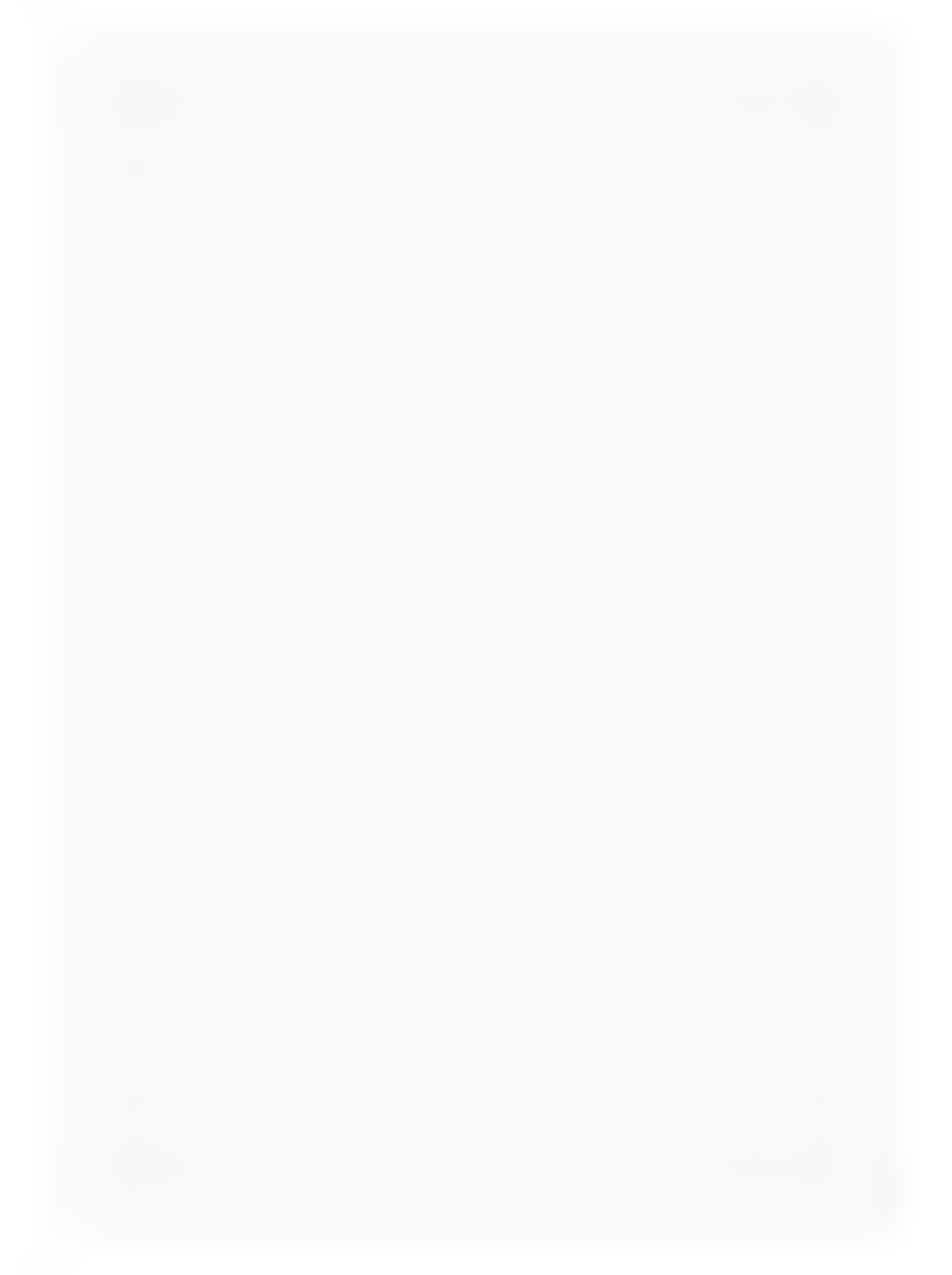
وما دامت هذه المسائل كلها مجهولة لا يعلمها أحد ، فمن المناسب أن يكون ختام الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)﴾ [لقمان]

إذن : الحق سبحانه يريد أنْ يُريح خَلْقه من الفكر في هذه المسائل الخمس ، وكل ما يجب أن نعلمه أن المقادير تجري بأمر الله لحكمة أرادها الله ، وأنها إلى أجل مسمى ، وأن العلم بها لا يُقدِّم ولا يُؤخِّر ، بالله ماذا يحدث لو علمت ميعاد موتك ؟ لا شيء أكثر من أنك ستعيش نكداً حزيناً طوال الوقت لا تجد للحياة لذة .

لذلك أخفى الله عنَّا هذه المسألة لنُقبِل على الله بثقتنا في مجريات قدر الله فينا .




سورة السجدة



سورة السجدة[1]



﴿الٓمٓ ۝١﴾

هذه من الحروف المقطَّعة المبنية على الوقف ، على خلاف آيات القرآن التى بُنِيتْ كما قُلْنا على الوصل من أول القرآن إلى آخره ، بل على وصل آخره بأوله ؛ لذلك ينبغى أن تقرأ القرآن على الوصل ، ما دام نَفَسُكَ يساعدك ، ولا تقف إلا إذا انقطع النفَس ، فتقف وتُسكِّن الحرف الذى وقفتَ عليه .

وقد قال علماء القراءات : وليس فى القرآن مِنْ وقف وجب ؛ لأنه

(١) سورة السجدة هى السورة رقم (٣٢) فى ترتيب المصحف الشريف ، وهى سورة مكية ، إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة ، وهى قوله تعالى ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ۝١٨ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٩ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ .. ۝٢٠﴾ [السجدة] . عدد آياتها ٣٠ آية . نزلت بعد سورة المؤمنين وقبل سورة الطور

بُنى على الوصل ، فلا تقف إلا إذا ضاق نَفَسُك ؛ لذلك جعلوا في القرآن مواضع للوقف ، وتُرسم في المصحف (صلى ، قلى ، ج) ، لكن الأصل الوصل .

وقلنا : إن أوضح مثال على الوصل في القرآن أن كلمة الناس في آخر سورة الناس ، وهي آخر القرآن لم تأت ساكنة ، إنما متحركة بالكسر (الناسِ) ؛ لأن الله تعالى قدَّر حلَّك في الناس فجعلك ترحل إلى بسم الله الرحمن الرحيم في أول الفاتحة ، فلا تقطع الصلة بين آخر القرآن وأوله ، وسمَّيْنا قارىء القرآن لذلك « الحالّ المرتحل » .

وهنا تأتي ﴿الٓمٓ ۝١﴾ [السجدة] بعد مفاتح الغيب الخمسة التي سبقتْ في آخر سورة لقمان ، وكأنها مُلْحقة بها ، فهي سرٌّ استأثر الله تعالى بعلمه ، ونحن في تفسيرنا لها نحوم حولها ؛ لذلك كل مَنْ فسَّر الحروف المقطَّعة في بدايات السور لا بُدَّ أن يقول بعدها : والله أعلم بمراده ؛ لأن تفسيراتنا كلها اجتهادات تحوم حول المعنى المراد ؛ لذلك نحن لا نقول هذه الكلمة في كل آيات القرآن ، إنما في هذه الآيات والحروف بالذات .

وكيف بنا حين يجمعنا الله تعالى إنْ شاء الله في مقعد صدْق عند مليك مقتدر ، كيف بنا حين نسمع هذا القرآن مباشرة من الله عز وجل ؟ لا شكَّ أننا سنسمع كلاماً كثيراً غير الذي سمعناه ، ومعاني كثيرة غير التي توصَّلنا إليها في اجتهاداتنا ، وعندها سنعرف مرادات الله تعالى في هذه الحروف ، وسنعرف كم قَصُرَتْ عقولنا عن فهمها ، وكم كنا أغبياء في فَهْمنا لمرادات ربنا .

وقوله تعالى ﴿الٓمٓ ۝١﴾ [السجدة] عادةً يأتي بعد هذه الحروف المقطعة أمر يخصُّ الكتاب العزيز .

وهنا يقول سبحانه :

﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ ﴾

مادة (نزل) وردتْ في القرآن بلفظ : نزل ، ونزَّل ، وأنزل . أنزل تدل على التعدية ، يعني : أن الله تعالى عدَّى القرآن من اللوح المحفوظ ، إلى أنْ يباشر مهمته في السماء الدنيا ، وهذا الإنزال من الله تعالى .

أما نزَّل فالتنزيل مهمة الملائكة ؛ لذلك يقول تعالى في الإنزال : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ ﴾ [القدر] أي : من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، ثم تتنزَّل به الملائكة مُنجَّماً حسب الأحداث ، وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۝١٩٣ ﴾ [الشعراء]

ويقول سبحانه : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. ۝١٠٥ ﴾ [الإسراء] فقد كان محفوظاً عندنا في اللوح المحفوظ ﴿ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ ﴾ [الواقعة] ثم نزل به الروح الأمين جبريل .

وما دام ﴿ نَزَلَ بِهِ .. ۝١٩٣ ﴾ [الشعراء] فهذا يعني أن القرآن نزل معه . فقوله : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۝١٩٣ ﴾ [الشعراء] تساوي تماماً ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. ۝١٠٥ ﴾ [الإسراء] ، فالنزول يُنسب مرة إلى القرآن ، ومرةً إلى الروح الأمين .

ومادة نزل وما يُشتق منها من إنزال وتنزيل تفيد كلها أنه جاء من جهة العلو إلى جهة أسفل منه ، كأنك تتلقَّى من جهة أعلى منك وأرفع ، وما دُمْتَ تتلقى من جهة أعلى منك ، فإيَّاك أنْ يضل بك الفكر لناحية أخرى .

لذلك يقول تعالى مخاطباً رسوله ﷺ فى أمر التكليف : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. (١٥١)﴾ [الأنعام] فنحن نفهم أن تعالوا بمعنى تعالَ . أى : أقبل ، لكنها تحمل مع هذا المعنى معنى العلو : أقبل دانياً إلى متعالٍ ، تعالَ من أوضاعك الأرضية إلى عُلُو ربك فى الملأ الأعلى.

تعالَ يعنى : لا تأخذ من نفسك ولا من مُسَاوٍ لك ، إنما ارتفع وخُذْ من الأعلى ، ارتفع عن مستوى الأرض وعقولهم وأفكارهم ، وخُذْ من الذى شرَّع لك ؛ لأنه لا بُدَّ أن تكون عنده أمور ومواصفات آمن لك واسلم ؛ لأن علمه أوسع ، فلا يُشَرِّع لك اليوم ما ينقضه غداً

ثم إنْ شرعه لك يستوعب كل نواحى حياتك وأقضيتها ، وهذه المواصفات لا تكون إلا فى الحق - تبارك وتعالى - وهو سبحانه أرحم بك من الوالدة بولدها ، فلا يُشرِّع لك إلا ما يُصلحك ، ثم هو سبحانه ليس له غرض أو مصلحة ذاتية من وراء هذا التشريع ، كما ترى فى تشريعات البشر للبشر .

وقد رأينا الرأسماليين حينما شرّعوا قانوناً جاء يخدمهم ، وليكونوا هم أول المنتفعين به ؛ لذلك سرعان ما تهاوى ؛ لأن شرط المشرِّع الحق ألاَّ ينتفع هو بما يُشرِّع ، وعليه فلا مشرِّع حقٌّ إلا الله .

لذلك رأينا حتى غير المؤمنين بالله من الكافرين أو المشركين بعد أنْ تعضّهم الأحداث ، وتخفق قوانينهم فى حَلِّ مشاكلهم يلجئون إلى حلول لها من قوانين الإسلام .

ولما سُئلنا فى سان فرانسيسكو عن قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾ [التوبة] وفى موضع آخر ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨)﴾ [الصف]

قالوا لنا : هذا يعنى أن الإسلام ظاهر على الأديان منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، فما بالنا نرى الآن أكثر أهل الأرض من غير المسلمين ؟

فقلت في الرد عليهم : والله لو فهمتُم أسرار اللغة ، وتأملتُم هذه الآية لوجدتم أن الردَّ فيها ، فواحدة تقول ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨)﴾ [الصف] ، والأخرى تقول ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾ [التوبة]

إذن : فالكفر والشرك موجودان مع وجود الإسلام ، وليس معنى الظهور هنا أن يطمس هؤلاء ، أو أنْ يُقْضَى عليهم قضاء مبرماً ، إنما يظهر عليهم بحيث يُضطرون إليه ، ويلجئون إلى أحكامه ، رغم عدم إيمانهم به ، وهذا أبلغ في الظهور ، أنْ تأخذ بما في القرآن وأنت غير مؤمن به ؛ لأنك لا تجد حلاً لقضاياك إلا فيه .

وأوضح مثال على ذلك أنهم هاجموا شرع الله في مسألة الطلاق ، وفي مسألة تعدُّد الزوجات ، واتهموا الإسلام بالوحشية .. إلخ ، ثم تضطرهم أقضية الحياة ومشاكلها أنْ يشرِّعوا الطلاق ، وأنْ يأخذوا به على مرأى ومَسْمع من الفاتيكان ، فماذا جرى ؟ فنقول لهم : هل أسلمتم وآمنتم ؟ لا ، إنما لجأنا إليه ؛ لأن فيه الحل لهذه المشاكل التي أحاطتْ بنا .

فهذه إذن شهادة العدو لدين الله ، وهذا هو أعظم الإظهار للإسلام على هذه الأديان ؛ لأنهم لو أسلموا لقالوا عنهم : أخذوا بهذا الشرع لأنهم أسلموا ، إنما ها هم يأخذون به وهم به كافرون مشركون .

ومعنى ﴿لا رَيْبَ فِيهِ .. (٢)﴾ [السجدة] أي : لا شكَّ فيه . وقلنا : إن النسب في القضايا ، أي : نسبة شيء لشيء إما مجزوم بها أو غير مجزوم بها ، فلو قُلْنا : الأرض كروية هذه قضية جزم بها

الآن ، ونستطيع التدليل على صحتها دليلاً حسياً ، فهذه قضية واقعة ومجزوم بصحتها ، وعليها دليل من الكون .

فإنْ كانت القضية غَيْرَ مجزوم بها ، فهي بين ثلاث حالات : إما فيها شكٌّ ، أو ظنٌّ ، أو وهم . الشك أنْ تتساوى الكفّتان : الإثبات والنفي ، والظن أن تغلب جانب الإثبات فلا تجزم به إنما ترجِّحه ، فإنْ غلّبْتَ الأخرى وجعلتها هي الراجحة ، فهذا توهم .

وهنا قال سبحانه ﴿لا رَيْبَ فِيهِ .. ②﴾ [السجدة] لا شكَّ فيه ، فنفى الشكَّ ، وهو تساوي النفي والإثبات ، وما دام قد نفى التساوي ، فهذا يعني أنه أراد أنْ يثبت الأعلى ، أي : أنه حقٌّ لا يرقى إليه الشك .

وجملة ﴿لا رَيْبَ فِيهِ .. ②﴾ [السجدة] جملة اعتراضية بين ﴿الْكِتَابِ .. ②﴾ [السجدة] ، وبين ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ②﴾ [السجدة] وما دام أنه ﴿مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فلا بُدَّ أنه حقٌّ لا ريب فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ③﴾

عجيب أنْ يقابلَ العربُ كلامَ الله بهذا الاتهام ، وهم أمة فصاحة وبلاغة وبيان ، وقد بلغوا في هذا شأناً عظيماً ، حتى جعلوا للكلام معارض وأسواقاً ، كما نقيم الآن المعارض لمنتجاتنا ، ولا يُعرض في المعارض هذه إلا السلع الجيدة محلّ الفخر ، فقبل الإسلام كان في عكاظ وذي المجاز مضمار للقول ، وللأداء البياني بين الأدباء والشعراء .

فعجيبٌ منهم ألاَّ يميزوا كلام الله عن كلام البشر ، خاصة وقد تحدَّاهم وتحدَّى فصاحتهم وبلاغتهم أنْ تأتى بآية واحدة من مثله ، ومعلوم أن التحدى يكون للقوى لا للضعيف ، فتحدِّى القرآن للعرب يُحسَبُ لهم ، وهو اعتراف بمكانتهم ومكانة لغتهم ، فهو - إذن - شهادة لهم ، ويكفيهم أن الله تعالى أدخلهم معه فى مجال التحدى .

ولما عجزوا عن الإتيان بمثله راحوا يتهمونه ويتهمون رسول الله ، فمرة يقولون : شاعر ، ومرة : ساحر ، وأخرى يقولون : مجنون ، ومرة يقولون : بل يُعلِّمه ذلك أحد الأعاجم .. إلخ ، وهذا كله إفلاس فى الحجة ، فهم يريدون أنْ يُكذِّبوا رسول الله ﷺ ، أما القرآن فى حدِّ ذاته ، فلا يَخْفى عليهم أنه كلام الله ، وأن البشر لا يقولون مثل هذا الكلام ، بدليل أن الوليد بن المغيرة لما سمعه قال : « والله ، إن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغْدِق ، وأنه يعلو ولا يُعلى عليه »[1] .

لذلك لما لم يجدوا فى القرآن مطعناً اعترفوا بأنه من عند الله ، لكن كان اعتراضهم أنْ ينزل على هذا الرجل بالذات : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ[2] مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف] فكانوا

---

(١) اجتمع نفر من قريش إلى الوليد بن المغيرة ، فقال لهم : يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا (يقصد محمداً) فاجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً . فمن قائل : إنه كاهن. وقائل : مجنون . وقائل : إنه شاعر . وقائل : إنه ساحر . فردَّ كل أقوالهم . ثم قال : والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك « السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٨٤) » .

(٢) اختلف العلماء فى تحديد الرجل العظيم المقصود ، فمن مكة : الوليد بن المغيرة أو عتبة ابن ربيعة ، ومن الطائف : عروة بن مسعود أو عمير بن عبد ياليل . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٢٧) : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان ، والقريتان هنا مكة والطائف .

ينتظرون أنْ يُنزَّل القرآن على عظيم من عظمائهم أو ملك من الملوك ، لكن أنْ ينزل على محمد هذا اليتيم الفقير ، فهذا لا يُرضيهم ، وقد ردَّ القرآن عليهم : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢)﴾ [الزخرف]

يعني : إذا كنا قد قسمنا بينهم أمور الدنيا وما يتفاضلون به من عرضها ، فهل نترك لهم أمور الآخرة يُقسمونها على هواهم وأمزجتهم ؟ والرسالة رحمة من الله يختصُّ بها مَنْ يشاء من عباده ﴿و اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. (١٢٤)﴾ [الأنعام]

وهذا يعني أنهم انتهوا إلى أن القرآن مُعْجِز ، وأنه من عند الله لا غُبَار عليه ، والذي قرأه منهم ، وأيقن أنه حق قال : ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ [الأنفال]

وهذا الكلام لا يقول به عاقل ، وقد دلَّ على غبائهم وحُمْقهم ، وكان الأوْلَى بهم أنْ يقولوا : اللهم إنْ كان هذا هو الحق من عندك فاهْدنا إليه .

وقد ردَّ القرآن على كل افتراءاتهم على رسول الله ، وفنَّدها جميعاً ، وأظهر بطلانها ، لما قالوا عن رسول الله إنه مجنون ردَّ الله عليهم : ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم]

والمجنون لا يكون أبداً على خلق عظيم ؛ لأنه محكوم بالغريزة لا يختار بين البدائل والتصرفات كالحيوان ، ولا ينشأ عن ذلك خُلُق كريم .

أما الإنسان السَّوِيُّ فإنه يختار بين البدائل المتعددة ، فلو اعتدى عليه إنسان فقد يردُّ عليه . بمثل هذا الاعتداء ، وقد يفكر في المثلية ، وأن اعتداءه قد يزيد فيميل إلى التسامح ، واحد يكظم غيظه وآخر يزيل كل أثر للغيظ ، ويبغي الأجر على ذلك من الله ، عملاً بقوله تعالى[1] : ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢٢)﴾ [النور] وكأن الله يشجعنا على عمل الخير .

لذلك لما سُئِل الحسن البصري : كيف يطلب الله منَّا أنْ نُحسن إلى مَنْ أساء إلينا ؟ قال : هذه مَرَاقٍ في مجال الفضائل ، وقد أباح الله لك أنْ تردَّ الإساءة بمثلها ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠)﴾ [الشورى] لكن يترك الباب مفتوحاً أمام أريحية النفس المؤمنة ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. (٤٠)﴾ [الشورى]

ثم إذا حسبنا هذه المسألة بمقاييس العقل ، فإن الخَلْق كلهم عيال الله ، وهم عنده سبحانه سواء ، فماذا لو اعتدى أحد عيالك على الآخر ؟ لا شكَّ أنك ستكون في جانب المظلوم ، فتأخذه في حضنك وترعاه وتعطف عليه ، وكذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ يكون في جانب عبده إذا ظلم ، وقد قال أحدهم : ألاَ أُحسن إلى مَنْ جعل الله في جانبي ؟

من هنا يقولون : أنت لا تكسب كثيراً من الأخيار ، إنما كل كسب

---

(١) نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق حين حلف أن لا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة أبداً بعدما قال في عائشة ، فلما أنزل الله براءة عائشة رضي الله عنها شرع الله يعطف الصِّديق على قريبه ونسيبه مسطح وكان ابن خالة الصديق وكان مسكيناً لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر ، وقد ضرب الحد على الزلة التي زلها في حق عائشة ، فنزل قوله تعالى : ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢٢)﴾ [النور] ، عند ذلك قال الصديق : بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا ، ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة . [تفسير ابن كثير ٣/٢٧٦] .

لك يأتى من الأشرار حين يسيئون إليك وتحسن إليهم ؛ لذلك يقولون : فلان هذا رجل طيب ، لكن مَنْ يمشى معه لا يستفيد منه حسنة أبداً ، لماذا ؟ يقولون : لأنه خادم للجميع ، وجعل خدَّه (مداساً) لمن معه ، فلا يجعل أحداً (يستفتح) منه بحسنة .

ورُوى عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه تبسَّم فى مجلس مع أصحابه ، فقالوا . ما يُضحكك يا رسولَ الله ؟ فقال : « رأيتُ ربى ، وقد أجلس بين يديه خَصْمين ، فقال أحدهما : يا ربِّ إن هذا ظلمنى فخُذْ لى حقّى منه ، فقال : كيف آخذ لك حقك منه ؟ قال : أعطنى من حسناته بقدر ما أساء إلىّ ، فقال . ليست له حسنات ، فقال : فخُذْ من سيئاتى واطرح عليه ، فقال : أوَيرضيك ألاَّ تكونَ لك سيئة ؟ قال : إذن ، يا رب كيف أقضى حقى منه ؟ قال : انظر يمينك ، فنظر الرجل يمينه ، فوجد قصوراً وبساتين وجنَاناً ، مما لا عَيْنٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ، فقال : لمَنْ هذه يا ربِّ ؟ قال : لمن يدفع ثمنها ، فقال : وما ثمنها يا رب ؟ قال : أنْ تأخذَ بيد أخيك إلى الجنة ، فعجبتُ من ربٍّ يُصلح بين عباده »[1] .

هذا عن قولهم عن رسول الله : مجنون ، أما قولهم : ساحر . فالردُّ عليها ميسور ، فإذا كان محمد ساحراً ، سحر مَنْ آمن به ، فلماذا لم يَسْحركم أنتم أيضاً ؟ فكونكم سالمين من السحر دليل على أنه ﷺ ليس ساحراً ، بل هذا كذب وافتراء على رسول الله .

أما قولهم : شاعر ، فهذا عجيب منهم ، وهم أمة كلام وبلاغة ،

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٥٧٦/٤) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه . قال الذهبى : « عباد ضعيف وشيخه لا يعرف » وكذا أخرجه أبو بكر بن أبى داود السجستانى فى « البعث والنشور » (ص ٤٩ ، ٥٠) كلاهما من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

وهم أكثر خَلْق الله تمييزاً للشعر من النثر، وخير مَنْ يفرق بين الأساليب وطرق الأداء، وقد تولى الله تعالى الردَّ عليهم، فقال:

﴿وما علَّمناه الشعر وما ينبغي له .. (٦٩)﴾ [يس]

وفي سورة الحاقة، يقول سبحانه: ﴿وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون (٤١) ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون (٤٢)﴾ [الحاقة]

فلما خابتْ كلُّ هذه الحيل، وكذبتْ كل هذه الافتراءات قالوا: بل له شيطان يُعلِّمه، وكانوا يقولون ذلك للشاعر البليغ الذي لا يُشَقُّ له غبار في الفصاحة وحُسْن الأداء، حتى جعلوا لهؤلاء الجن مكاناً خاصاً بهم، فقالوا (وادي عبقر)، وهو مسكن هؤلاء الجن الذين يُلْهمون البشر ويُعلِّمونهم.

والشعر كلام موزون مُقفًّى، وله بحور معروفة، فهل القرآن على هذه الشاكلة؟ لا، إنما هو افتراء على رسول الله، كافترائهم عليه هنا:

﴿أم يقولون افتراه .. (٣)﴾ [السجدة]

فقوله تعالى: ﴿أم يقولون.. (٣)﴾ [السجدة] أم تعني أن لها مقابلاً، يعني: أيقولون كذا؟ أم يقولون: افتراه، فماذا هذا المقابل؟ المقابل ﴿تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين (٢)﴾ [السجدة] فالمعنى: أيصدِّقون بأن هذا الكتاب من عند رب العالمين، وأنه لا ريْبَ فيه؟ أم يقولون افتراه محمد، فأمْ هنا جاءت لتنقض ما يُفهَم من الكلام السابق عليها.

وقوله: ﴿بل هو الحق من ربك .. (٣)﴾ [السجدة] تعرف أن (بل) تأتي للاستدراك، لكنها هنا ليست للاستدراك، إنما لإبطال قولهم ﴿افتراه .. (٣)﴾ [السجدة] كما لو قلْت: زيد ليس عندي بل

عمرو ، فأفادتْ الإضراب عما قبلها ، وإثبات الحكم لما بعدها ، وهم يقولون افتراه والله يقول : ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ .. (٣)﴾ [السجدة] فكلامهم واتهامهم باطل ، والقرآن هو الحق من عند الله .

وقُلْنا : إن ﴿الْحَقُّ.. (٣)﴾ [السجدة] هو الشيء الثابت الذي لا يطرأ عليه التغيير ؛ لذلك فالحقائق ثابتة لا تتغير أبداً ، كيف ؟ هَبْ أن حادثة وقعتْ نتج عنها مُدَّعٍ ومُدَّعىً عليه وشهود ، واجتمعوا جميعاً أمام القاضي ، وقد يحدث أن يُغيِّر أحدهم أقواله ، أو يشهد الشهود شهادة زور .

لكن خبرة القاضي ودُرْبته تكشف الحقائق وتُظهر كذبهم حين يضرب أقوال بعضهم ببعض ، ويسألهم ويحاورهم إلى أنْ يصل إلى الحقيقة ؛ ذلك لأن الواقع شيء واحد ، ولو أنهم يصفون واقعاً لاتفقوا فيه ، ولباقة القاضي هي التي تُظهر الباطل المتناقض وتُبطله وتُحقّ وتغلب الحق الذي لا يمكن أن يتناقض .

كالقاضي الذي اجتمع أمامه خَصْمان ، يدَّعي أحدهما على الآخر أنه آخذ منه مالاً ولم يردّه إليه ، فقال المدَّعَى عليه : بل رددته إليه في مكان كذا وكذا ، فأنكر المدَّعي ، فقال القاضي للمدَّعَى عليه : اذهب إلى هذا المكان ، فلعل هذا المال وقع منك هناك ، فذهب الرجل وأبطأ بعض الوقت ، فقال القاضي للمدعي : لقد أبطأ صاحبك ، فقال : أبطأ ؛ لأن المكان بعيد ، فوقع في الحقيقة التي كان ينكرها .

ثم يقول سبحانه : ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ .. (٣)﴾ [السجدة] ومعلوم أن سيدنا رسول الله جاء بشيراً ونذيراً ، لكن خصَّ هنا النذير ؛ لأنه جاء ليصلح معتقدات فاسدة ، وإصلاح الفاسد لا بُدَّ أن يسبق ما يُبشر به ، ولم يأتِ ذكر البشارة هنا ؛ لأنهم

ما سمعوا للنذارة ، وما استفادوا بها .

لكن قوله تعالى : ﴿ مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ .. (٣) ﴾ [السجدة] تصطدم لفظياً بقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ [فاطر] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) ﴾ [الإسراء] وليس بين هذه الآيات تناقض ؛ لأن المعنى : ما أتاهم من نذير قريب ، ولا مانع من وجود نذير بعيد ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ .. (١٩) ﴾ [المائدة]

وإلا ، فمن أين عرفوا أن الله تعالى خالق السموات والأرض ، كما حكى القرآن عنهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٢٥) ﴾ [لقمان] فهذا أثر من آثار الرسل السابقين ، كما كان فيهم أناس متبعون لمنهج الدين الحق ، والذين سماهم الله الحنفاء ، وهم الذين لم يسجدوا لصنم ، ولم ينحرفوا عن الفطرة السوية .

وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣) ﴾ [السجدة] لعل تفيد الرجاء ، والرجاء من الله كأنه واقع متحقق ؛ لأن الله تعالى يحب لعباده جميعاً أنْ يؤمنوا به ؛ ليأخذوا جميل عطائه في الآخرة ، كما أخذوا عطاءه في الدنيا ، وهم جميعاً خَلْقه وصَنْعته ، وسبق أن ذكرنا الحديث القدسي : « ... دعوني وما خلقت ، إنْ تابوا إليَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا إليَّ فأنا طبيبهم .. »[1] .

(١) أورده الغزالي في إحياء علوم الدين (٥٢/٤) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصي إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدي وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إليَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات » .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى قضية من قضايا أصول الكون .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ ﴾

يخبرنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ أنه خلق السموات والأرض وما بينهما لخدمة الإنسان ، وهو المكرَّم الأول في هذا الكون ، وجميع الأجناس في خدمته حيواناً ونباتاً وجماداً ، فهو سيد في هذا الكون ، لكن هل أخذ هذا السيد سيادته بذاته وبفعله ؟ لا إنما أخذها بفضل الله عليه ، فكان عليه أولاً أنْ يشكر مَنْ أعطاه هذه السيادة على غيره .

وهذا السيد عمره ومروره في الحياة عبور ، فعمره فيها يطول أو يقصر ينتهي إلى الموت ، في حين أن الجمادات التي تخدمه عمرها أطول من عمره ، وهي خادمة له ، فكان لزاماً عليه أنْ يتأمل هذه المسألة : كيف يكون عمر الخادم أطول وأبقى من عمر السيد المخدوم ؟

إذن : لابد أن لي عمراً آخر أطول من هذا ، عمراً يناسب تكريم الله لي ، ويناسب سيادتي في هذا الكون ، إنها الآخرة حيث تندثر هذه المخلوقات التي خدمتني في الدنيا وأبقى أنا ، لا أعيش مع الأسباب ، إنما مع المسبب سبحانه ، فلا أحتاج إلى الأسباب التي خدمتني في الدنيا ، إنما أجد كل ما أشتهيه بين يديَّ دون تعب ودون سَعْي ، وهذه ارتقاءات لا تكون إلا لمَنْ يطيع المرقى المعطي .

لذلك ، الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يلفتنا ويقول : صحيح أنت أيها الإنسان سيد هذا الكون وكل مخلوقاتي في خدمتك ، لكن خَلْقها أكبر من خَلْقك :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. ۝٥٧ ﴾ [غافر]

لماذا ؟ لأن للناس أعماراً محددة ، مهما طالت لا بُدَّ أنْ تنتهي إلى أجل ، ثم إن هذه الأعمار لا تَسْلَم لهم ، إنما تنتابها الأغيار ، فالغنيّ قد يفتقر ، والصحيح قد يمرض ، والقوى قد يضعف ، أمّا الشمس والقمر والنجوم والكون كله فلا يتعرض لهذه الأغيار ، فما رأينا الشمس أو القمر أو النجوم أصابتها علة وانتهت كانتهاء الإنسان ، ثم أنت لستَ مثلها في العظمة المستوعبة ؛ لأن قصارى ما فيك أنك تخدم نفسك أو تخدم البيئة التي حولك ، أمّا هذه المخلوقات فتخدم الكون كله .

فإذا أقرَّ ـ حتى الكفار ـ بأن الله تعالى هو خالق السماء والأرض إذن : فهي دليل أول على وجود الحق تبارك وتعالى .

ومسألة خَلْق السماوات والأرض من الأشياء التي استأثر الله بعلمها وليس لأحد أنْ يقول : كيف خُلِقت ولا حتى كيف خُلِق الإنسان ؛ لأن مسائل الخَلْق لم يشهدها أحد فيخبرنا بها ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝٥١﴾ [الكهف]

فسماهم الله مُضلِّين ، والمضلّ هو الذي يجنح بك إلى طريق باطل ، ويصرفك عن الحق ، وقد رأينا فعلاً هؤلاء المضلِّين وسمعنا افتراءاتهم في مسألة خَلْق السموات والأرض .

إذن : خَلْق السماوات والأرض مسألة لا تُؤخَذ إلا ممَّنْ خلق ؛

لذلك قَصَّ لنا ربنا - تبارك وتعالى - قصة خَلْق آدم ، وقصَّ لنا قصة خلق السماوات والأرض ، لكن الخَلْق حدث وفعل ، والفعل يحتاج إلى زمن تعالج فيه الحدث وتزاوله ، والإشكال هنا فى قوله تعالى ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. (٤)﴾ [السجدة] ، فهل الحدث بالنسبة لله تعالى يحتاج إلى زمن ؟

الفعلُ من الإنسان يحتاج إلى علاج يستغرق زمناً ، حيث نوزع جزئيات الفعل على جزئيات الزمن ، أما فى حقه تعالى فهو سبحانه يفعل بلا علاج للأمور ، إنما يقول : للشيء كن فيكون ، أما قوله تعالى ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. (٤)﴾ [السجدة] فقد أوضحناها بمثال ، ولله المثل الأعلى .

قلنا : أنت حين تصنع الزبادى مثلاً تأتى بالحليب ، ثم تضع عليه خميرة زبادى سبق إعداده ، ثم تتركه فى درجة حرارة معينة سبع أو ثمانى ساعات بعدها تجد الحليب قد تحوَّل إلى زبادى ، فهل تقول : إن صناعة الزبادى استغرقت منى سبعاً أو ثمانى ساعات ؟ لا ، إنها استغرقتْ مجرد إعداد المواد اللازمة ، ثم أخذت هذه المواد تتفاعل بعضها ببعض ، إلى أن تحولت إلى المادة الجديدة .

كذلك الحق - تبارك وتعالى - خلق السموات والأرض بأمره (كُنْ) ، فتفاعلت هذه الأشياء مُكوِّنة السماوات والأرض .

ومسألة خلق السموات والأرض فى ستة أيام عُولجت فى سبع سور من القرآن ، أربع منها تكلمْ عن خلق السماوات والأرض ولم تتعرض لما بينهما ، وثلاث تعرضتْ لخَلْق السماوات والأرض وما بينهما ، ففى الأعراف مثلاً ، وفى يونس ، وهود

والحديد[1] . تعرضت الآيات لخلق السماوات والأرض فقط .

وفي الفرقان والسجدة وق[2] . فتكلَّمتْ عن البينية ، فكان السماوات والأرض ظرف خُلِق أولاً ، ثم خُلِق المظروف في الظرف ، وهذا هو الترتيب المنطقي أنْ تُعِدَّ الظرفَ أولاً ، ثم تضع فيه المظروف .

وقوله تعالى : ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ④﴾ [السجدة] الله يخاطب بهذه الآيات العرب ، واليوم له مدلول عند العرب مرتبط بحركة الشمس والقمر ، فكيف يقول سبحانه ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ④﴾ [السجدة] ولم تخلق بعد لا الشمس ولا القمر ؟

نقول : المعنى خلقها في زمن يساوي ستة أيام بتقديرنا نحن الآن ، وإلا فاليوم عند الله تعالى يختلف عن يومنا ، ألم يقل سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج] أي : في الدنيا .

وقال عن اليوم في الآخرة : ﴿تَعْرُجُ[3] الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ

---

(١) هذه الآيات الأربعة هي

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف]

- ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ﴿٣﴾﴾ [يونس]

- ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ﴿٧﴾﴾ [هود]

- ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ﴿٤﴾﴾ [الحديد]

(٢) أما الآيات التي أضيف فيها ما بين السماوات والأرض فهي :

- ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان]

- ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ﴿٤﴾﴾ [السجدة]

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ﴿٣٨﴾﴾ [ق]

(٣) عرج يعرج : صعد وعلا وارتفع . [القاموس القويم ٢/ ١٣] .

كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ④﴾ [المعارج] فلله تعالى تقدير لليوم فى الدنيا ، ولليوم فى الآخرة .

والحق سبحانه لم يُفصِّل لنا مسألة الخَلْق هذه إلا فى سورة (فُصِّلَت) فهى التى فصَّلَتْ القول فى خَلْق السماوات والأرض ، وهذه من عجائب هذه السورة .

فقال تعالى : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ⑨ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. ⑩﴾ [فصلت] هذه ستة أيام .

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ⑪ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ .. ⑫﴾ [فصلت] وهكذا يصبح المجموع ثمانية أيام .

إذن : كيف نُوفِّق بين ستة أيام فى الإجمال ، وثمانية أيام فى التفصيل ؟ قالوا : الأعداد يُحمل مُجْملها على مفصَّلها ؛ لأن المفصَّل تستطيع أن تضم بعضه إلى بعض ، أما المجمل فهو النهاية

وأَعِدْ معى قراءة الآيات :

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ⑨ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ⑩﴾ [فصلت] وهذا كله من لوازم الأرض ﴿فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. ⑩﴾ [فصلت] أى : أن هذه اللوازم تابعة لما قبلها .

فالمعنى : فى تتمة أربعة أيام ، فاليومان الأولان داخلان فى الأربعة ، كما لو قلت : سرْتُ من القاهرة إلى طنطا فى ساعة ، وإلى الإسكندرية فى ساعتين ، فالساعة الأولى محسوبة من هاتين الساعتين .

فالحق سبحانه خلق الأرض فى يومين ، وخلق ما يلزمها فى تتمة الأربعة الأيام ، فالزمن تتمة للزمن ؛ لأن الحدث يُتمِّم الحدث ، إذن : المحصلة النهائية ستة أيام ، وليس هناك خلاف بين الآيات ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ [النساء] ومن العجيب أن يأتى هذا التفصيل فى (فُصِّلت) .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. (٤)﴾ [السجدة] الحق - تبارك وتعالى - يخاطب الخَلْق بما يُقرِّب الأشياء إلى أذهانهم ؛ لأن الملوك أو أصحاب الولاية فى الأرض لا يستقرون على كراسيهم إلا بعد أنْ يستتبَّ لهم الأمر .

فمعنى ﴿اسْتَوَىٰ .. (٤)﴾ [السجدة] صعد وجلس واستقر ، كل هذه المعانى تناسب الآية ، لكن فى إطار قول الحق سبحانه وتعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١)﴾ [الشورى]

فكما أن لله تعالى وجوداً ليس كوجودك ، وسَمْعاً ليس كسمعك ، وفعلاً ليس كفعلك ، فكذلك له سبحانه استواء ، لكن ليس كاستوائك ، وإذا دخلت حجرة الجلوس مثلاً عند شيخ البلد وعند العمدة والمحافظ ورئيس الجمهورية ستجد مستويات متباينة ، كلٌّ على حسب ما يناسبه ، فإذا كان البشر يتفاوتون فى الشيء الواحد ، فهل نُسوِّى بيننا وبين الخالق عز وجل ؟

فالمعنى إذن ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. (٤)﴾ [السجدة] استتبَّ له أمر الخَلْق ، ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ .. (٤)﴾ [السجدة] الولىُّ : مَنْ يليك ، ويكون قريباً منك ، وإليه تفزع فى الأحداث ، فهو ملجؤك الأول . والشفيع : الذى يشفع لك عند مَنْ يملك أمرك ، فالولىُّ هو الذى ينصرك بنفسه ، أمَّا الشفيع فهو يتوسط لك عند مَنْ

ينصرك ، فليس لك وليٌّ ولا شفيع من دون الله عز وجل .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٦٧) ﴾ [الإسراء] فلا أحدَ ينجيكم ، ولا أحدَ يُسْعفكم إلا الله ﴿ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (٤) ﴾ [السجدة]

كان هذه المسألة يجب أنْ تكون على بالك دائماً ، فلا تغفل عن الله ؛ لأنك ابْنُ أغيار ، والأحداث تتناوبك ، فلا يستقرُّ بك حال ، فأنت بين الغنَى والفقر ، والصحة والمرض ، والقوة والضعف .

لذلك تذكَّر دائماً أنه لا وليَّ ولا نصيرَ لك إلا الله ، وإذا استحضرتَ ذلك دائماً اطمأنَّ قلبك ، ولِمَ لا وأنت تستند إلى وليٍّ وإلى نصير لا يخذلك أبداً ، ولا يتخلَّى عنك لحظة ، فإذا خالط هذا الشعورُ قلبَك أقبلتَ على الأحداث بجسارة ، وإذا أقبلتَ على الحدث بجسارة لم يأخذ الحدث من قوتك شيئاً ؛ لأن الذي يخاف الأحداث يُضعف قوته الفاعلة .

فمثلاً صاحب العيال الذي يخاف الموت فيتركهم صغاراً لا عائلَ لهم لو راجع نفسه لقال لها : ولِمَ الخوفُ على العيال من بعدي ، فهل أنا خلقتُهم ، أم لهم خالق يرعاهم ويجعل لهم من المجتمع الإيماني آباءً متعددين ؟ لو قال لنفسه ذلك ما اهتم لأمرهم ، وصدَق الذي قال مادحاً : أنتَ طِرْتَ باليُتْم إلى حَدِّ الكَمال

وقال آخر :

* قَالَ ذُو الآبَاءِ لَيْتَنِي لاَ أَبَا لِي *

ولِمَ لا ؟ وقد كفل الإسلام للأيتام أنْ يعيشوا في ظل المجتمع المسلم أفضل مما يعيش مَنْ له أب وأم .

إذن : فالإنسان حينما يعلم أن له سنداً من ألوهية قادرة وربوبية لا تُسلمه يستقبل الحوادث بقوة ، ويقين ، ورضا ، وإيمان بأنه لن يُسلَم أبداً ما دام له إيمان برب ، وكلمة رب هذه ستأتى على باله قَسْراً فى وقت الشدة ، حين يخذله الناس وتُعْييه الأسباب ، فلا يجد إلا الله ـ حتى لو كان كافراً لقال فى الشدة : يا رب .

وقوله تعالى ﴿مِّن دُونِهِ .. ④﴾ [السجدة] يعنى . لا يوجد غيره ، وإنْ وُجِد غَيْرٌ فبتحنين الله للغير عليك ، فالخير أيّاً كان فمردُّه إلى الله .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ⑤﴾

فى هذه الآية ردٌّ على الفلاسفة الذين قالوا بأن الله تعالى قادر وخالق ، لكنه سبحانه زاول سلطانه فى مُلْكه مرة واحدة ، فخلق النواميس ، وخلق القوانين ، ثم تركها تعمل فى إدارة هذا الكون ، ونقول : لا بل هو سبحانه ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ .. ⑤﴾ [السجدة] أى : أمْر الخَلْق ، وهو سبحانه قيُّوم عليه .

وإلا فما معنى ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ .. (٢٥٥)﴾ [البقرة] إن قُلْنا بصحة ما تقولون ؟ بل هو سبحانه خلق الكون ، ويُدبِّر شئونه على عينه عز وجل ، والدليل على قيوميته تعالى على خَلْقه أنه خلق الأسباب على رتابة خاصة ، فإذا أراد سبحانه خَرْق هذه الرتابة

بشواذ تخرج عن القوانين المعروفة كما خرق لإبراهيم ـ عليه السلام ـ قانون الإحراق ، وكما خرق لموسى ـ عليه السلام ـ قانون سيولة الماء ، ومسألة خَرْق القوانين فى الكون دليل على قيوميته تعالى ، ودليل على أن أمر الخَلْق ما يزال فى يده سبحانه .

ولو أن المسألة كما يقول الفلاسفة لكان الكون مثل المنبه حين تضبطه ثم تتركه ليعمل هو من تلقاء نفسه ، ولو كان الأمر كذلك لانطفأتْ النار التى أُلقِى فيها إبراهيم عليه السلام مثلاً .

لذلك لما سُئِل أحد العارفين عن قوله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحمن] ما شأن ربك الآن ، وقد صحَّ أن القلم قد جفَّ ؟ قال : أمور يبديها ولا يبتديها ، يرفع أقواماً ويضع آخرين[1] .

إذن : مسألة الخَلْق إبداء لا ابتداء ، فأمور الخَلْق مُعدَّة جاهزة مُسْبقاً ، تنتظر الأمر من الله لها بالظهور .

وقلنا هذا المعنى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس] فكلمة ﴿ يَقُولَ لَهُ .. (٨٢) ﴾ [يس] تدل على أن هذا الشىء موجود بالفعل ينتظر أنْ يقول الله له : اظهر إلى حيِّز الوجود .

---

(١) عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قول الله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحمن] قال : « من شأنه أن يغفر ذنباً ، ويُفرِّج كربا ، ويرفع قوماً ويضع آخرين » قال السيوطى فى الدر المنثور (٧/٦٩٩) : « أخرجه الحسن بن سفيان فى مسنده والبزار وابن جرير والطبرانى وأبو الشيخ فى العظمة وابن مردويه والبيهقى فى شُعَب الإيمان وابن عساكر » .

فالحق سبحانه ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ .. (٥)﴾ [السجدة] ثم تعود إليه سبحانه النتائج ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ .. (٥)﴾ [السجدة] فالله سبحانه يرسل إلى الأرض ، ثم يستقبل منها ؛ لأن المدبِّرات أمراً من الملائكة لكل منهم عمله واختصاصه ، وهذه المسألة نسميها فى عالمنا عملية المتابعة عند البشر ، فرئيس العمل يكلف مجموعة من موظفيه بالعمل ، ثم لا يتركهم إنما يتابعهم ليستقيم العمل ، بل ويحاسبهم كلاً بما يستحق .

والملائكة هى التى تعرج بالنتائج إليه سبحانه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥)﴾ [السجدة] فالعود سيكون للملائكة ، وخَطْو الملائكة ليس كخَطْوك ؛ لذلك الذى يعمله البشر فى ألف سنة تعمله الملائكة فى يوم .

ومثال ذلك ما قرأناه فى قصة سليمان - عليه السلام - حين قال : ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨)﴾ [النمل]

وهذا الطلب من سليمان - عليه السلام - كان على ملأ من الإنس والجن ، لكن لم يتكلم بشرىٌّ ، ولم يتصدَّ أحد منهم لهذا العمل ، إنما تصدَّى له عفريت ، وليس جنِّياً عادياً ، والعفريت جنى ماهر له قدراته الخاصة ، وإلا ففى الجن أيضاً من هو (لبخة) لا يجيد مثل هذه المهام ، كما فى الإنسان تماماً .

قال العفريت : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ .. (٣٩)﴾ [النمل] وهذا يعنى أنه سيستغرق وقتاً ، ساعة أو ساعتين ، أما الذى عنده علم من الكتاب ، فقال : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠)﴾ [النمل]

يعنى : فى طرفة عين لما عنده من العلم ؛ لذلك لما رأى سليمانُ العرشَ مستقراً عنده فى لمح البصر ، قال : ﴿قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ .. ﴿٤٠﴾﴾ [النمل]

إذن : الفعل يستغرق من الزمن على قَدْر قوة الفاعل ، فكلما زادتْ القوة قلّ الزمن ، وقد أوضحنا هذه المسألة فى كلامنا على الإسراء والمعراج .

ومعنى : ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ [السجدة] أى : من سنينكم أنتم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ .. ﴿٦﴾﴾ [السجدة] إشارة إلى تدبير الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم متابعة الأمر ونتائجه ، هذا كله لأنه سبحانه ﴿عالمُ الغَيْب والشَّهادةِ .. ﴿٦﴾﴾ [السجدة] وأنه سبحانه ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾﴾ [السجدة] فالحق سبحانه يُعلِّمنا أن الأمر لا بد أنْ يتابع المأمور

وقلنا : إن عالم الغيب تعنى أنه بالأَوْلى يعلم الشهادة ، لكن ذكر الحق سبحانه علمه بالشهادة حتى لا يظن أحد أن الله غَيْب ، فلا يعلم إلا الغيب ، وقد بيَّنا معنى الشهادة هنا حينما تكلَّمنا عن قول الله تعالى : ﴿يعلَمُ الْجهْرَ من الْقَوْلِ ويعلَمُ ما تكْتُمونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنبياء]

والجهر أو الشهادة يعنى الجهر المختلط حين تتداخل الأصوات ، فلا تستطيع أنْ تُميِّزها ، مع أنها جهر أمامك وشهادة ، أما الحق سبحانه فيعلم كل صوت ، ويردُّه إلى صاحبه ، فعِلْم الجهر هنا أقوى من علم الغيب .

ومعنى ﴿ٱلْعَزِيزُ .. ⁦(٦)⁩﴾ [السجدة] أى : الذى لا يُغلَب ولا يُقهر ، فلا يلويه أحد عن علمه ، ولا عن مراداته فى كَوْنه ، ومع عِزّته فهو سبحانه (الرحيم) .

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ⁦(٧)⁩﴾

الخَلْق إيجاد من عدم بحكمة ، ولغاية ومهمة مرسومة ، وليس عَبَثاً هكذا يخلق الأشياء كما اتفق ، فالخالق ـ عز وجل ـ قبل أنْ يخلق يعلم ما يخلق ، ويعلم المهمة التى سيؤديها ؛ لذلك يخلق سبحانه على مواصفات تحقق هذه الغاية ، وتؤدى هذه المهمة .

وقد يُخيَّل لك أن بعض المخلوقات لا مهمةَ لها فى الحياة ، أو أن بعضها كان من الممكن أنْ يُخلَق على هيئة أفضل مما هى عليها .

ونذكر هنا الرجل الذى تأمل فى كون الله فقال : ليس فى الإمكانِ أبدعُ مما كان . والولد الذى رأى الحداد يأخذ عيدان الحديد المستقيمة ، فيلويها ويُعْوجها ، فقال الولد لأبيه : لماذا لا يترك الحداد عيدان الحديد على استقامتها ؟ فعلّمه الوالد أن هذه العيدان لا تؤدى مهمتها إلا باعوجاجها ، وتأمل مثلاً الخطّاف وآلة جمع الثمار من على الأشجار ، إنها لو كانت مستقيمة لما أدَّتْ مهمتها .

وفى ضوء هذه المسألة نفهم الحديث النبوى الذى قال فيه النبى ﷺ ـ عن النساء : « إنهن خُلِقْنَ من ضلع ، وإن أعوج ما فى

الضلع أعلاه ، فإنْ ذهبتَ تقيمه كسرته ، وإنْ تركته لم يَزَلْ أعوج ، فاستوصوا بالنساء »[1] .

وحين تتأمل الضلوع في قفصك الصدري تجد أنها لا تؤدي مهمتها في حماية القلب والرئتين إلا بهذه الهيئة المعْوَجة التي تحنو على أهم عضوين في جسمك ، فكأن هذا الاعوجاج رأفة وحُنُو وحماية ، وهكذا مهمة المرأة في الحياة ، ألاَ تراها في أثناء الحمل مثلاً تترفق بحملها وتحافظ عليه ، وتحميه حتى إذا وضعتْه كانت أشدّ رفقاً ، وأكثر حناناً عليه ؟

إذن هذا الوصف من رسول الله ليس سُبَّة في حق النساء ، ولا إنقاصاً من شأنهن ؛ لأن هذا الاعوجاج في طبيعة المرأة هو المتمم لمهمتها : لذلك نجد أن حنان المرأة أغلب من استواء عقلها ، ومهمة المرأة تقتضي هذه الطبيعة ، أما الرجل فعقله أغلب ليناسب مهمته في الحياة ، حيث يُنَاط به العمل وترتيب الأمور فيما وُلِّي عليه .

إذن : خلق الله كلاً لمهمة ، وفي كل منَّا مهما كان فيه من نقص ظاهر ـ ميْزة يمتاز بها ، فالرجل الذي تراه لا عقلَ له ولا ذكاءَ عنده تقول : ولماذا خلق الله مثل هذا ؟ لكن تراه قويَّ البنية ، يحمل من الأثقال والمشاقِّ ما لا تتحمله أنت ، والرجل القصير مثلاً ، ترى أنت عيبه في قِصَرِ قامته ، لكن يراها غيرك ميزة من مزاياه ، وربما استدعاه للعمل عنده لهذه الصفة فيه .

وحين تتأمل مثلاً عملية التعليم ، وتقارن بين أعداد التلاميذ في

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٣٣١) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٤٦٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . قال النووي في شرحه لمسلم : « يعني أنها خُلقت من أعوج أجزاء الضلع ، فلا يتهيأ الانتفاع بها إلا بالصبر على تعوجها » .

المرحلة الابتدائية ، وكم منهم يصل إلى مرحلة التعليم العالى ؟ وكم منهم يتساقطون فى الطريق ؟ ولو أنهم جميعاً أخذوا شهادات عليا لما استقام الحال ، وإلاَّ فمَنْ للمهن المتواضعة والحرف وغيرها ؟ إذن : لا بُدَّ أنْ يوجد هذا التفاوت ؛ لأن العقل الواحد يحتاج إلى آلاف ينفذون خطته ، وقيمة كل امرىء ما يُحسنه مهما كان عمله .

لذلك قلنا : إنه لا ينبغى لأحد أنْ يتعالى على أحد ؛ لأنه يمتاز عنه فى شىء ما ، إنما ينظر فيما يمتاز به غيره ؛ لأن الخالق عز وجل وزَّع المواهب بين الخَلْق جميعاً ، ويكفى أن تقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ .. (١١) ﴾ [الحجرات]

فالله تعالى : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ .. (٧) ﴾ [السجدة] لأن لكل مخلوق مهمة مُهيَّأً لها ، وتعجب من تصاريف القدر فى هذه المسألة فتجد أخوين ، يعمل أحدهما فى العطور ، ويعمل الآخر فى الصرف الصحى ، وتجد هذا راضياً بعمله ، وهذا راضٍ بعمله .

حتى أنك تجد الناس الذين خلقهم الله على شىء من النقص أو الشذوذ حين يرضى الواحد منهم بقسمة الله له وقدره فيه يسود بهذا النقص ، أو بهذا الشذوذ ، وبعضنا لاحظ مثلاً الأكتع إذا ضرب شخصاً بهذه اليد الكتعاء ، كم هى قوية ! وكم يخافه الناس لأجل قوته ! وربما يجيد من الأعمال ما لا يجيده الشخص السَّوِى .

فإنْ قلتَ : إذا كان الخالق سبحانه أحسن كل شىء خلقه ، فما بال الكفر ، خلقه الله وما يزال موجوداً ، فأىُّ إحسان فيه ؟

نقول : والله لولا طغيان الكافرين ما عشق الناسُ الإيمانَ ، كما أنه لولا وجود الظلم والظالمين لما شعر الناس بطَعْم العدل . إذن :

فالحق سبحانه يخلق الشيء ، ويخلق من ضده دافعاً له .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧﴾ [السجدة] فالإنسان الذي كرَّمه الله على سائر المخلوقات بدأه الله من الطين ، وهو أدنى أجناس الوجود ، وقلنا : إن جميع الأجناس تنتهي إلى خدمة الإنسان : الحيوان وهو أقربها للإنسان ، ثم النبات ، ثم الجماد ، ومن الجماد خُلِق الإنسان .

وقد عوَّض الله عز وجل الجماد الخادم لباقي الأجناس حين أمر الإنسان المكرَّم بأنْ يُقبِّله في فريضة كُتبت عليه مرة واحدة في العمر ، وهي فريضة الحج ، فأمره بأن يُقبِّل الحجر الأسود ، وأنْ يتعبد لله تعالى بهذا التقبيل ؛ لذلك يتزاحم الناس على الحجر ، ويتقاتلون عليه ، وهو حجر ، وهم بشر كرَّمهم الله ، وما ذلك إلا ليكسر التعالي في النفس الإنسانية ، فلا يتعالى أحد على أحد .

وسبق أنْ بيَّنا أن المعترضين الذين يحبون أنْ يستدركوا على كلام الله قالوا : إن الله تعالى قال في مسألة الخَلْق مرة ﴿مِّن مَّاءٍ .. ۝٣٠﴾ [المرسلات] ومرة ﴿مِن تُرَابٍ .. ۝٣٧﴾ [الكهف] ومرة ﴿مِّن طِينٍ ۝١٢﴾ [المؤمنون] ومرة ﴿مِن صَلْصَالٍ .. ۝٢٦﴾ [الحجر] ومرة ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦﴾ [الحجر] .. الخ ، فأيُّ هذه العناصر أصل للإنسان ؟

وقلنا : إن هذه مراحل مختلفة للشيء الواحد ، والمراحل لا تقتضي النية الأولية ، فالماء والتراب يُكوِّنان الطين ، فإذا تُرِك الطين حتى تتغير رائحته فهو الحمأ المسنون ، فإذا تُرِك حتى يجفَّ ويتجمد فهو الصلصال ، فهذه العناصر لا تعارضَ بينها ، ويجوز لك أنْ تقول : إن الإنسان خُلِق من ماء ، أو من تراب ، أو من طين ... الخ .

والمراد هنا الإنسان الأول ، وهو سيدنا آدم - عليه السلام - ثم

أخذ الله سلالته من ماء مهين ، والسلالة هي خلاصة الشيء ، فالخالق سبحانه خلقنا أولاً من الطين ، ثم جعل لنا الأزواج والتناسل الذي نتج عنه رجال ونساء .

ثم يحتفظ الخالق سبحانه لنفسه بطلاقة القدرة في هذه المسألة ، وكأنه يقول لك : إياك أنْ تفهم أنني لا أخلق إلا بالزوجية ، إنما أنا أستطيع أنْ أخلق بلا زوجية كما خلقتُ آدم ، وأخلق من رجل بلا امرأة كما خلقتُ حواء ، وأخلق من امرأة بلا رجل كما خلقتُ عيسى عليه السلام .

وقد تتوفر علاقة الزوجية ويجعلها الله عقيماً لا ثمرةَ لها ، وهكذا تناولت طلاقة القدرة كل ألوان القسمة العقلية في هذه المسألة ، واقرأ إنْ شئتَ : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى]

إذن : هذه مسألة طلاقة قدرة للخالق سبحانه ، وليست عملية (ميكانيكية) ، لأنها هبَة من الله ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا .. ﴿٤٩﴾﴾ [الشورى] ولاحظ أن الله قدَّم هنا الإناث ، وهم الجنس الذي لا يفضِّله الناس أن يُولد لهم ، ولكن تجد الذي يرزقه الله بالبنت فيفرح بها ، ويعلم أنها هبَة من الله يُعوِّضه الله بزوج لها يكون أطوعَ له من ولده .

كما أنه لو رضى صاحب العُقْم بعُقْمه ، وعلم أنه هبَة من الله لَعوَّضه الله في أبناء الآخرين ، وشعر أنهم جميعاً أبناؤه ، ولماذا نقبل هبة الله في الذكور وفي الإناث ، ولا نقبل العقم ، وهو أيضاً هبة الله ؟

ثم ألستَ ترى من الأولاد مَنْ يقتل أباه ، ومَنْ يقتل أمه ؟ إذن :

المسألة تحتاج منّا إلى الرضا والتسليم والإيمان بأن العُقْم هبة ، كما أن الإنجاب هبة .

ثم إن خَلْق الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام من طين جاء من البداية على صورته التامة الكاملة ، فخلقه الله رجلاً مستوياً ، فلم يكُنْ مثلاً طفلاً ثم كبر وجرتْ عليه سنة التطور ، لا إنما خلقه الله على صورته ، أي : على صورة آدم .

والبعض يقول : خلق الله آدم على صورته أي على صورة الحق[1] ، فالضمير يعود إلى الله تعالى ، والمراد : على صورة الحق لا على حقيقة الحق ، فالله تعالى حيٌّ يَهَب من حياته حياة ، والله قوى يهَبُ من قوته قوة ، والله غنيٌّ يهب من غنَاه غنى ، والله عليم يَهبُ من علمه علماً .

لذلك قيل : « تخلَّقوا بأخلاق الله » ؛ لأنه سبحانه وهبكم صفات من صفات تجلِّيه ، وقد وهبكم هذه الصفات ، فاجعلوا للصفة فيكم مزية وتخلَّقوا بها ، فمثلاً كُنْ قوياً على الظالم ، ضعيفاً متواضعاً للمظلوم ، على حَدِّ قول الله تعالى في صفات المؤمنين :

﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

وقال : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .. (٥٤) ﴾ [المائدة]

وهذه الصفات المتناقضة تجتمع في المؤمن ؛ لأنه ليس له طبع واحد ، إنما الموقف والتكليف هو الذي يصبغه ويلويه إلى الصفة المناسبة .

---

(١) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « خلق الله آدم على صورته ، طوله ستون ذراعاً » أخرجه البخاري في صحيحه (٦٢٢٧) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٨٤١) أي : خلقه على صورته التي استمر عليها إلى أن أُهْبِطَ وإلى أن مات ، دفعاً لتوهم من يظن أنه لما كان في الجنة كان على صفة أخرى (نقله ابن حجر في فتح الباري ٣/١١)

وقلنا : إن علماء التحاليل فى معاملهم أثبتوا صدق القرآن فى هذه الحقيقة ، وهى خَلْق الإنسان من طين حينما وجدوا أن العناصر المكوِّنة لجسم الإنسان هى ذاتها العناصر الموجودة فى التربة ، وعددها ١٦ عنصراً ، أقواها الأكسوجين ، ثم الكربون ، ثم الهيدروجين ، ثم النيتروجين ، ثم الصوديوم ، ثم الماغنسيوم ، ثم البوتاسيوم .. الخ .

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ﴾

النسل هو الأنجال والذرية . والسلالة : خلاصة الشيء تُسلُّ منه كما يُسلُّ السيف من غمده ، فالسلالة هى أجود ما فى الشيء ، ولذلك نقول : فلان من سلالة كذا ، وفلان سليل المجد . يعنى : فى مقام المدح . حتى فى الخيل يحتفظون لها بسلالات معروفة أصيلة ويُسجلون لها شهادات ميلاد تثبت أصالة سلالتها .

هذا النسل وهذه السلالة خلقها الله من ماء ، وهو منىُّ الرجل وبويضة المرأة .

هذا الماء وصفه الله بأنه ﴿ مَّهِينٍ (٨) ﴾ [السجدة] لأنه يجرى فى مجرى البول ، ويذهب مذهبه إذا لم يصل إلى الرحم ، وفى هذا الماء المهين عجائب ، ويرحم الله العقاد[1] حين قال : إن أصول ذرات العالم

---

(١) هو : عباس محمود إبراهيم العقاد ، أصله من دمياط بمصر ، انتقل أسلافه إلى المحلة الكبرى ، وكان أحدهم يعمل فى « عقادة الحرير » فعرف بالعقاد ولد بأسوان عام ١٨٨٩ من أم كردية ، تعلم فى مدرستها الابتدائية ، وكان موظفاً بالسكة الحديد وبوزارة الأوقاف بالقاهرة ثم معلماً فى بعض المدارس الأهلية وانقطع إلى الكتابة فى الصحف والتأليف ، ظل اسمه لامعاً مدة نصف قرن ألف خلالها ٨٢ كتاباً أشهرها العبقريات . توفى بالقاهرة عام ١٩٦٤ عن ٧٥ عاماً [الأعلام ٣/٢٦٦] .

كله يمكن أن تُوضع في نصف كستبان الخياطة ، وتأمل كم يقذف الرجل في المرة الواحدة من هذا المقدار ؟ إذن : المسألة دقة تكوين وعظمة خالق ، ففي هذه الذرة البسيطة خصائص إنسان كامل ، فهي تحمل : لونه ، وجنسه ، وصفاته .. الخ .

وسبق أن قلنا في عالم الذر : إن في كل منا ذرة وجزيئاً حياً من لَدُنْ أبيه آدم عليه السلام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ[1] وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

وهذه التسوية كانت أولاً للإنسان الأول الذي خلقه الله من الطين ، كما قال سبحانه : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر] وقد مرَّ آدم - عليه السلام - في هذه التسوية بالمراحل التي ذكرت ، كذلك الأمر في سلالته يُسوِّيها الخالق - عز وجل - وتمر بمثل هذه المراحل : من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة .. الخ ، ثم تُنفخ فيه الروح .

وإذا كان الإنسان لم يشهد كيفية خَلْقه ، فإن الله تعالى يجعل من المشَاهَد لنا دليلاً على ما غاب عنَّا ، فإنْ كنَّا لم نشهد الخَلْق فقد شاهدنا الموت ، والموت نَقْضٌ للحياة وللخَلْق ، ومعلوم أن نَقْض

---

(١) قال الشيخ أبو يحي زكريا الأنصاري في كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن » (ص ٣٢٤) « المراد بـ (روحه) جبريل ، وإلا فالله منزه عن الروح الذي يقوم به الجسد وتكون به الحياة ، وأضافه إلى نفسه تشريفاً وإشعاراً بأنه خَلْق عجيب مناسب للمقام » .

الشيء يأتي على عكس بنائه ، فإذا أردنا مثلاً هدم عمارة من عدة أدوار فإن آخر الأدوار بناءً هو أول الأدوار هدماً .

كذلك الحال فى الموت ، أول شيء فيه خروج الروح ، وهى آخر شيء فى الخَلْق ، فإذا خرجت الروح تصلَّب الجسد ، أو كما يقولون (شضَّب) ، وهذه المرحلة أشبه بمرحلة الصلصالية ، ثم يُنتن وتتغير رائحته ، كما كان فى مرحلة الحمأ[1] المسنون ، ثم يتحلل هذا الجسد ويتبخر ما فيه من مائية ، وتبقى بعض العناصر التى تتحول إلى تراب ليعود إلى أصله الأول .

إذن : خُذْ من رؤيتك للموت دليلاً على صِدْق ربك - عز وجل - فيما أخبرك به من أمر الخَلْق الذى لم تشهده .

وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ .. ۝٩﴾ [السجدة] سبق أن تكلمنا عن هذه الأعضاء ، وقد قرر علماء وظائف الأعضاء مهمة كل عضو وجارحة ، ومتى تبدأ هذه الجارحة فى أداء مهمتها ، وأثبتوا أن الأذن هى الجارحة الأولى التى تؤدى مهمتها فى الطفل ، بدليل أنك إذا وضعتَ أصبعك أمام عين الطفل بعد ولادته لا (يرمش) ، فى حين يفزع إنْ أحدثتَ بجواره صوتاً ؛ ذلك لأنه يسمع بعد ولادته مباشرة ، أما الرؤية فتتأخر من ثلاثة إلى عشرة أيام .

لذلك كانت حاسة السمع هى المصاحبة للإنسان ، ولا تنتهى مهمتها حتى فى النوم ، وبها يتم الاستدعاء ، أما العين فلا تعمل أثناء النوم .

---

(١) الحمأ : الطين الأسود ، ومسنون أى : مصبوب فى قالب إنسانى ، أو مصوَّر بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل . [القاموس القويم ١/٣٣١] .

وهذه المسألة أوضحها الحق سبحانه فى قصة أهل الكهف ، فلما أراد الحق سبحانه أنْ يُنيم أهل الكهف هذه المدة الطويلة ، والكهف فى صحراء بها أصوات الرياح والعواصف والحيوانات المتوحشة ؛ لذلك ضرب الله على آذانهم وعطَّل عندهم هذه الحاسة كما قال سبحانه : ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١)﴾ [الكهف]

إذن : الأذن هى أول الأعضاء أداءً لمهمتها ، ثم العين ، ثم باقى الأعضاء ، وآخرها عملاً الأعصاب ، بدليل أن الطفل تصل حرارته مثلاً إلى الأربعين درجة ، ونراه يجرى ويلعب دون أن يشعر بشىء ، لماذا ؟ لأن جهازه العصبى لم ينضج بَعْد ، فلا يشعر بهذه الحرارة .

لذلك نجد دائماً القرآن يُقدِّم السمع على البصر ، ويتقدم البصرَ إلا فى آية واحدة هى قوله تعالى : ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. (١٢)﴾ [السجدة] لأنها تصور مشهداً من مشاهد القيامة ، وفيه يفاجأ الكفار بأهوال القيامة ، ويأخذهم المنظر قبل أنْ يسمعوا الصوت حين ينادى المنادى .

ومن عجائب الأداء البيانى فى القرآن أن كلمة أسماع يقابلها أبصار ، لكن المذكور هنا ﴿السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ.. (٩)﴾ [السجدة] فالسمع مفرد ، والأبصار جمع ، فلماذا أفرد السمع وجمع البصر ؟

قالوا : لأن الأذن ليس لها غطاء يحجب عنها الأصوات ، كما أن للعين غطاءً يُسْدل عليها ويمنع عنها المرئيات ، فإذن فهو سمع واحد لى ولك وللجميع ، الكل يسمع صوتاً واحداً ، أما المرئيات فمتعددة ، فما تراه أنت قد لا أراه أنا .

ولم يأت البصر مفرداً - في هذا السياق - إلا في موضع واحد هو قوله تعالى : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً (٣٦)﴾ [الإسراء] ذلك لأن الآية تتكلم عن المسئولية ، والمسئولية واحدة ذاتية لا تتعدى ، فلا بُدَّ أنْ يكون واحداً .

ومن المناسب أن يذكر الحق سبحانه السمع والأبصار والأفئدة بعد الحديث عن مسألة الخَلْق ؛ لأن الإنسان يُولَد من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، وبهذه الأعضاء والحواس يتعلَّم ويكتسب المعلومات والخبرات كما قال سبحانه : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النحل]

إذن : فهذه الأعضاء ضرورية لوجود الإنسان الخليفة في الأرض ، وبها يتعايش مع غيره ، ولا بُدَّ له من اكتساب المعلومات ، وإلاَّ فكيف سيتعايش مع بيئته ؟

وقلنا : إن الإنسان لكي يتعلم لا بُدَّ له من استعمال هذه الحواس المدركة ، كل منها في مناطه ، فاللسان في الكلام ، والعين في الرؤية ، والأذن في السمع ، والأنف في الشم ، والأنامل في اللمس .

وقلنا : إن هذه الحواس هي أمهات الحواس المعروفة ، حيث عرفنا فيما بعد حواسَّ أخرى ؛ لذلك احتاط العلماء لهذا التطور ، فأطلقوا على هذه الحواس المعروفة اسم « الحواس الظاهرة » ، وبعد ذلك عرفنا حاسة البَيْن التي نعرف بها رقَّة القماش وسُمْكه ، وحاسة العضل التي نعرف بها الثقل .

إذن : حينما يُولَد الإنسان يحتاج إلى هذه الحواس ليتعايش بها ويدرك ويتفاعل مع المجتمع الذي يعيش فيه ، ولو أن الإنسان يعيش وحده ما احتاج مثلاً لأنْ يتكلم ، لكنه يعيش بطبيعته مع الجماعة ،

فلا بُدَّ له أن يتكلم ليتفاهم معهم ، وقبل ذلك لا بُدَّ له أنْ يسمع ليتعلم الكلام .

وعرفنا سابقاً أن اللغة وليدة السماع ، فالطفل الذى يُولَد فى بيئة عربية ينطق بالعربية ، والذى يعيش فى بيئة إنجليزية ينطق الإنجليزية وهكذا ، فما تسمعه الأذن يحكيه اللسان ، فإذا لم تسمع الأذن لا ينطق اللسان .

لذلك سبق أن قلنا فى سورة البقرة فى قول الله تعالى : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ .. (١٨)﴾ [البقرة] أن البَكَم وهو عدم الكلام نتيجة الصمم ، وهو عدم السماع ، فالسمع ـ إذن ـ هو أول مهمة فى الإنسان ، وهو الذى يعطينى الأرضية الأولى فى حياتى مع المجتمع من حولى .

ومعلوم أن تعلُّم القراءة مثلاً يحتاج إلى معلم أسمع منه النطق ، فهذه ألف ، وهذه باء ، هذه فتحة ، وهذه ضمة .. الخ ، فإذا لم أسمع لا أستطيع النطق الصحيح ، ولا أستطيع الكتابة .

وبالسماع يتم البلاغ عن الله من السماء إلى الأرض ؛ لذلك تقدَّم ذكْرُ السمع على ذكْر البصر .

والحق سبحانه لما تكلَّم عن السمع بهذه الصورة قال : أنا سأُسْمِع أسماء الأشياء ، فهذه أرض ، وهذه سماء .. الخ ؛ لذلك حينما نُعلِّم التلميذ نقول له : هذه عين ، وهذه أذن .

وبعد أنْ يتعلم التلميذ من مُعلِّمه القراءة يستطيع بعد ذلك أنْ يقرأ بذاته ، فيحتاج إلى حاسَّة البصر فى مهمة القراءة ، فإذا أتم تعليمه واستطاع أن يصحح قراءته بنفسه ، واختمرت عنده المعلومات التى اكتسبها بسمعه وبصره استطاع أنْ يقرأ أشياء أخرى غير التى قرأها

له معلمه ، واستطاع أن يربى نفسه ويُعلِّمها حتى تتكون عنده خلية علمية يستحدث من خلالها أشياء جديدة ، ربما لا يعرفها معلمه ، وهذه مهمة الفؤاد ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ..(٩)﴾[السجدة]

فالمعانى تتجمع بهذه الحواس ، حتى يصير الإنسان سَوِياً لديه الملَكة التى يتعلم بها ، ثم يُعلِّم هو غيره .

واللغة المنطوقة لا تُتعلَّم إلا بالسماع ، فأنا سمعت من أبى ، وأبى سمع من أبيه ، وتستطيع أنْ تسلسل هذه المسألة لتصل إلى آدم عليه السلام أبى البشر جميعاً ، فإنْ قلتَ : فممَّنْ سمع آدم ؟ نقول : سمع الله حينما علَّمه الأسماء كلها : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا[1] ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١)﴾ [البقرة]

وهذا أمر منطقى ؛ لأن اللغة المسموعة بالأذن لا يمكن لأحد اختراعها ، ومع ذلك يوجد مَنْ يعترض على هذه المسألة ، يقول : هذا يعنى أن اللغة توقيفية ، لا دخْلَ لنا فيها . بمعنى : أننا لا نستحدث فيها جديداً .

ونقول : نعم ، اللغة أمر توقيفى ، لكن أعطى الله آدم الأسماء وعلَّمه إياها ، وبهذه الأسماء يستطيع أنْ يتفاهم على وضع غيرها من الأسماء فى المعلومات التى تستجد فى حياته .

---

(١) عن ابن عباس قال : علم الله آدم الأسماء كلها ، وهى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس : إنسان ، ودابة ، وأرض ، وبحر ، وسهل ، وجبل ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ١/١٢١ وعزاه لابن جرير الطبرى]

قال ابن كثير فى تفسيره (١/٧٣) : « علَّمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها كما قال ابن عباس - حتى الفسوة والفسية . يعنى : أدوات الأسماء والأفعال المكبَّر والمصغر » .

وإلا ، فكيف سمَّيْنا (الراديو والتليفزيون .. الخ) وهذه كلها مُستجدات لا بُدَّ لها من أسماء ، والاسم لا يوجد إلا بعد أنْ يوجد مُسمَّاه ، وهذه مهمة المجامع اللغوية التي تقرر هذه الأسماء ، وتوافق على استخدامها ، وقد اصطلح المَجْمع على تسمية الهاتف : مسرة . والتليفزيون : تلفاز .. الخ .

إذن . أتينا بهذه الألفاظ واتفقنا عليها ؛ لأنها تعبر عن المعاني التي نريدها ، وهذه الألفاظ وليدة الأسماء التي تعلمها آدم عليه السلام ، فاللغة بدأت توقيفية ، وانتهت وضعية .

وقوله تعالى بعد هذه النعم : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٩) ﴾ [السجدة] دليل على أن هذه النعم تستوجب الشكر ، لكن قليل منَّا مَنْ يشكر ، وكان ينبغي أن نشكر المنعم كلما سمعنا ، وكلما أبصرنا ، وكلما عملتْ عقولنا وتوصلتْ إلى جديد .

لذلك ، كان شكر المؤمن لربه لا ينتهي ، كما أن أعياده وفرحته لا تنتهي ، فنحن مثلاً نفرح يوم عيد الفطر بفطرنا وبأدائنا للعبادة التي فرضها الله علينا ، وفي عيد الأضحى نفرح ؛ لأن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - تحمَّل عنَّا الفداء بولده ، لكي يعفينا جميعاً من أنْ يفدي كل منَّا ، ويتقرب إلى الله بذبح ولده ، وإلا لكانت المسألة شاقة علينا ؛ لذلك نفرح في عيد الأضحى ، ونذبح الأضاحي ، ونؤدي النُّسُك في الحج .

وما دام المؤمن ينبغي له أن يفرح بأداء الفرائض وعمل الطاعات ، فلماذا لا نفرح كلما صلَّينا أو صُمْنا أو زكَّيْنا ؟ لماذا لا نفرح عندما نطيع الله بعمل المأمورات ، وترْك المنهيات ؟ لماذا لا نفرح في الدنيا حتى يأتي يوم الفرح الأكبر ، يوم تتجمع حصيلة هذه الأعمال ، وننال ثوابها الجنة ونعيمها ؟

واقرأ إن شئت قول ربك : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [يونس]

﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠)﴾

معنى ﴿ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ .. (١٠)﴾ [السجدة] أى : غِبْنا فيها ، واندثرتْ ذراتنا ، بحيث لا نعرف أين ذهبت ، وإلى أيِّ شيء انتقلت ، إلى حيوان أم إلى نبات ؟ إذا حدث هذا ﴿أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠)﴾ [السجدة] يعني : أيخلقنا الله من جديد مرة أخرى ؟

والحق سبحانه يرد عليهم : ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠)﴾ [السجدة] بل تفيد الإضراب عن كلامهم السابق ، وتقرير حقيقة أخرى ، هي أنهم لا ينكرون البعث والحشر ، إنما ينكرون لقاء الله ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠)﴾ [السجدة] لأن مسألة الحشر مستحيل أنْ ينكروها ؛ لأن الدليل عليها واضح .

كما قال سبحانه : ﴿أَفَعَيِينَا[1] بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)﴾ [ق] والذى خلق من العدم أولاً قادر على الإعادة من موجود ؛ لأن ذراتك وخاماتك موجودة ، فالإعادة أسهل من البدْء ؛

---

(١) عَيَّ عن الأمر يعيا : عجز عن النهوض به . فقوله ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ .. (١٥)﴾ [ق] أى : لم نعجز ولم نَعْيَ بالخلق الأول ، وكذلك لن نعجز عن الخلق الثانى يوم القيامة ، وهو برهان على إمكان البعث بعد الموت ، فإن من قدر على الخلق أول مرة يكون قادراً من باب أوْلَى على الخلق مرة ثانية . [القاموس القويم ٢/٤٦] .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. (٢٧) ﴾ [الروم]

إذن : تكذيبهم ليس للبعث في حَدِّ ذاته ، إنما للقاء الله وللحساب ، لكنهم ينكرون البعث ؛ لأنه يؤدي إلى لقاء الله ، وهم يكرهون لقاء الله ، فينكرون المسألة من بدايتها .

﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١) ﴾

نلحظ هنا أنهم يتكلمون عن البعث ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠) ﴾ [السجدة] ومعلوم أن البعث إيجاد حياة ، فإذا بالقرآن يُحدِّثهم عن الوفاة ، وهي نقْضٌ للحياة ، ليُذكِّرهم بهذه الحقيقة .

ومعنى ﴿ يَتَوَفَّاكُم .. (١١) ﴾ [السجدة] من توفيت دَيْناً من المدين . أي : أخذتُه كاملاً غيرَ منقوص ، والمراد هنا الموت ، والتوفِّي يُنسَب مرة إلى الله عز وجل : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا (٤٢) ﴾ [الزمر]

ويُنسَب لملك الموت ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ .. (١١) ﴾ [السجدة] ويُنسب إلى أعوانه من الملائكة ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ﴾ [الأنعام]

لأن مسألة الموت أمرها الأعلى بيد الخالق سبحانه ، فهو وحده واهب الحياة ، وهو وحده صاحب الأمر في نَقْضها وسَلْبها من صاحبها ؛ لذلك حرَّم الله القتل ، وجعل القاتل ملعوناً ؛ لأنه يهدم

بنيان الله ، فإذا قدَّر الله على إنسان الموت أذن لملك الموت في ذلك ، وهو عزرائيل .

إذن : هذه المسألة لها مراحل ثلاث : التوفِّي من الله يأمر به عزرائيل ، ثم يأمر به عزرائيلُ ملائكته الموكَّلين بهذه المسألة ، ثم ينفذ الملائكةُ هذا الأمر .

وتأمل لفظة ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا .. (٦١) ﴾ [الأنعام] أي : أخذتْه كاملاً ، فلم يقُلْ : أعدمتْه مثلاً ؛ لذلك نقول قُبِضت روحه أي : ذهبتْ إلى حيث كانت قبل أن تُنفخ فيه ، ذهبت إلى الملأ الأعلى ، ثم تحلَّل الجسد وعاد إلى أصله ، وذاب في الأرض ، جزئية هنا وجزئية هناك، كما قالوا ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠) ﴾ [السجدة]

فالذي يُتوفَّى لم يُعدم ، إنما هو موجود وجوداً كاملاً ، روحه وجسده ، والله قادر على إعادته يوم القيامة ؛ لذلك لم يقُلْ أعدمنا . وهذه المسألة تحلُّ لنا إشكالاً في قصة سيدنا عيسى - عليه السلام - فقد قال الله فيه : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ .. (٥٥) ﴾ [آل عمران]

فالبعض يقول : إنه عليه السلام تُوفِّي أولاً ، ثم رفعه الله إليه . والصواب أن واو العطف هنا تفيد مطلق الجمع ، فلا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً ، واقرأ إنْ شئتَ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ .. (٧) ﴾ [الأحزاب]

والخطاب هنا للنبي محمد ﷺ ونوح عليه السلام قبله .

فالمعنى هنا أن الله تعالى قدَّم الوفاة على الرفع ، حتى لا يظن أحد أن عيسى - عليه السلام - تبرأ من الوفاة ، فقدَّم الشيء الذي فيه شكٌّ أو جدال ، وما دام قد توفَّاه الله فقد أخذه كاملاً غير منقوص ، وهذا يعنى أنه لم يُصلَب ولم يُقتل ، إنما رفعه الله إليه كاملاً .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ .. (١١)﴾ [السجدة] جاءت ردّاً على قولهم ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ.. (١٠)﴾ [السجدة] فالحق الذى قال أنا خلقتُ الإنسان لم يقُلْ وأنا سأعدمه إنما سأتوفاه ، فهو عندى كاملٌ بروحه وبذراته التكوينية ، والذى خلق فى البَدْء قادر على الإعادة ، وجمع الذرات التى تشتتت .

وقوله عن ملك الموت ﴿الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ .. (١١)﴾ [السجدة] أى : يرقبكم ولا يغفل عنكم ، يلازمكم ولا ينصرف عنكم ، بحيث لا مهربَ منه ولا فكاك ، كما قال أهل المعرفة : الموت سهم انطلق إليك فعلاً ، وعمرك بمقدار سفره إليك ، فهو واقع لا محالة . كما قلنا فى المصيبة وأنها ما سُمِّيت مصيبة إلا لأنها ستصيبك لا محالة .

وقوله : ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١)﴾ [السجدة] أى : يوم القيامة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)﴾

تصوِّر لنا هذه الآية مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، يوم يُساق

المجرم ذليلاً إلى ما يستحق من العذاب ، كأنْ ترى مجرماً مثلاً تسوقه الشرطة وهو مُكبَّل بالقيود يذوق الإهانة والمذلّة ، فتشفى نفسك حين تراه ينال جزاءه بعد أنْ أتعب الدنيا وأداخ الناس .

وفي هذا المشهد يخاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ ، وهو أول مخاطب ، ثم يصبح خطاباً لأمته : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ .. (١٢)﴾ [السجدة] أي : حالة وجودهم أنهم ناكسو رءوسهم . وتقدير جواب الشرط . لرأيتَ أمراً عجيباً يشفى صدرك مما فعلوه بك .

ونلحظ في هذا الأسلوب دقة الأداء في قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ .. (١٢)﴾ [السجدة] فلم يقل مثلاً : ولو تعلم ؛ لأن إخبار الله كأنه رؤيا العين ، فحين يخبرك الله بأمر ، فاعلم أنه أصدق من عينك حين ترى ؛ لأن عينك قد تخدعك ، أما إخبار الله لك فهو الحق .

ومعنى ﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ .. (١٢)﴾ [السجدة] النكس هو جَعْل الأعلى أسفل ، والرأس دائماً في الإنسان أعلى شيء فيه .

وقد وردتْ هذه المادة في قوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام حين حطم الأصنام ، وعلَّق الفأس على كبيرهم : ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥)﴾ [الأنبياء]

فبعد أنْ عادوا إلى رشدهم واتهموا أنفسهم بالظلم انتكسوا وعادوا إلى باطلهم ، فقالوا : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥)﴾ [الأنبياء]

وورد هذا اللفظ أيضاً في قوله تعالى : ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨)﴾ [يس]

والمعنى : نرجعه من حال القوة والفتوة إلى حال الضعف والهرم وعدم القدرة ، كما قال سبحانه : ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا .. ﴿٧٠﴾﴾ [النحل]

فبعد القوة يتكئ على عصا ، ثم لا يستطيع السير فيحبو ، أو يُحمل كما يُحمل الطفل الصغير ، هذا هو التنكيس في الخَلْق ، وحين نتأمله نقول : الحمد لله لو عافانا من هذه الفترة وهذه التنكيسة ، ونعلم أن الموت لُطْف من الله ورحمة بالعباد ، ألاَ ترى أن مَنْ وصل إلى هذه المرحلة يضيق به أهله ، وربما تمنَّوْا وفاته ليستريح وليستريحوا ؟

وتنكيس رءوس المجرمين فيه إشارة إلى أن هذه هي العاقبة فاحذر المخالفة ، فمَنْ تكبر وتغطرس في الدنيا نُكِّسَتْ رأسه في الآخرة ، ومَنْ تواضع لله في الدنيا رُفعت رأسه ، وهذا معنى الحديث الشريف : « من تواضع لله رفعه »[1] .

وفي تنكيس رءوس المجرمين يوم القيامة معنى آخر ؛ لأن الحق - سبحانه وتعالى - سيفعل في كل مخالف في الآخرة من جنس ما فعل في الدنيا ، وهؤلاء الذين نكَّس الله رءوسهم في الآخرة فعلوا ذلك في الدنيا ، واقرأ إن شئتَ قول ربك : ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ .. ﴿٥﴾﴾ [هود]

أي : يطأطئون رءوسهم ؛ لكي لا يواجهوا رسول الله ، فللحق صَوْلة وقوة لا يثبت الباطل أمامها ؛ لذلك تسمع من أصحاب الحق :

---

(١) أخرج أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/٤٦) من حديث أبي هريرة قال : قال ﷺ : « من تواضع لله رفعه الله » ، وكذا (٧/١٢٩) عن عمر بن الخطاب أنه قال يأيها الناس ، تواضعوا فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من تواضع لله رفعه الله » .

تعالَ واجهني ، هات عيني في عينك . ولا بُدَّ أنْ يستخزي أهل الباطل ، وأنْ يجبنوا عن المواجهة ؛ لأنها ليست في صالحهم .

وهذا العجز عن المواجهة يدعو الإنسان إلى ارتكاب أفظع الجرائم ، ويصل به إلى القتل ، والقتل لا يدل على القوة ، إنما يدل على عجز وضعف وجُبْن عن المواجهة ، فالقاتل أقرَّ بأنه لا يستطيع أنْ يواجه حياة عدوه فقتله ، ولو كان قوياً لواجه حياته .

ومن العذاب الذي يأتي من جنس ما فعل الإنسان في الدنيا قول الله تعالى في الذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها في سبيل الله : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾ [التوبة]

سبحان الله ، كأنها صورة طبق الأصل مما فعلوه في الدنيا ، فالواحد منهم يأتيه طالب العطاء فيعبس في وجهه ، ثم يُعرض عنه ، ويعطيه جنبه ، ثم يعرض عنه ويعطيه ظهره ، ويأتي العذاب بنفس هذا التفصيل . إذن : فعلى العاقل أن يحذر هذه المخالفات ، فمن جنسها يكون العذاب في الآخرة .

وهؤلاء المجرمون حال تنكيسهم يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. (١٢) ﴾ [السجدة] هذا كلامهم ، ومع ذلك لم يقل القرآن قالوا أبصرنا وسمعنا ، فحَذْف الفعل هنا يدل على أن القول ليس سهلاً عليهم ؛ لأنه إقرار بخطئهم الأول وإعلان لذلَّة التوبة .

وقلنا : إن هذه هي الآية الوحيدة التي تقدَّم فيها البصر على السمع ؛ لأن الساعة حين تأتي بأهوالها ترى الهول أولاً ، ثم تسمع ما تراه .

لذلك يقول تعالى مُصوِّراً أثر هذا الهول : ﴿وترى النَّاس سُكارى وما هُم بسُكارى ولَـكنَّ عذاب اللَّه شديدٌ (٢)﴾ [الحج]

وفي معرض حديثنا السابق عن الحواس : السمع والبصر والفؤاد فاتنا أنْ نذكر آية مهمة جاءت على غير هذا الترتيب ، وهي قول الله تعالى : ﴿ختم [1] اللَّهُ علىٰ قُلُوبِهِمْ وعلىٰ سمْعِهِمْ وعلىٰ أبْصارِهِمْ غِشاوةٌ ولهُمْ عذابٌ عظِيمٌ (٧)﴾ [البقرة]

فجاء الفؤاد هنا أولاً ، وجمع الفؤاد مع السمع في الختم لأنهما اشتركا فيه ، أما البصر فاختص بشيء آخر ، وهو الغشاوة التي تُغطِّي أبصارهم ؛ ذلك لأن الآية السابقة في السمع والبصر والفؤاد كانت عطاءً من الله ، فبدأ بالسمع ، ثم البصر ، ثم ترقى في العطاء إلى الفؤاد ، لكن هنا المقام مقام سلب لهذه النعم ، فيسلب الأهم أولاً ، فأتى بالفؤاد ثم السمع ثم الأبصار .

لكن أي شيء أبصروه ؟ وأي شيء سمعوه في قولهم ﴿ربَّنا أبْصرْنا وسمِعْنا .. (١٢)﴾ [السجدة] ؟ أول شيء يبصره الكافر يوم القيامة ﴿ووجد اللَّه عِنْدهُ .. (٣٩)﴾ [النور] وحده سبحانه ليس معه شريك من الشركاء الذين عبدوهم في الدنيا ، وليس لهم من دونه سبحانه وليٌّ ، ولا شفيع ، ولا نصير .

ومعنى ﴿سمِعْنا .. (١٢)﴾ [السجدة] أي : ما أنزلته يا رب على رسولك ، ونشهد أنه الحق وصدَّقنا الرسول في البلاغ عنك ، وأنه

---

(١) أي : غطاها فأحكم غطاءها فهم لا يفهمون ولا يسمعون . [القاموس القويم ١/١٨٧] قال أبو إسحاق : معنى ختم وطبع في اللغة واحد ، وهو التغطية على الشيء والاستيثاق من أن لا يدخله شيء . [لسان العرب ـ مادة : ختم] .

ليس مُفْترياً ، ولا هو شاعر ، ولا هو ساحر ، ولا هو كاذب[1] .

لكن ، ما فائدة هذا الاعتراف الآن ؟ وبماذا ينفعهم[2] وهم فى دار الحساب ؟ لا فى دار العمل والتكليف ؟! وما أشبه هذا الاعتراف باعتراف فرعون قبل أنْ يغرق . ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ .. (٩٠)﴾ [يونس] لذلك ردَّ الله عليه : ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١)﴾ [يونس]

فقولهم : ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. (١٢)﴾ [السجدة] إقرار منهم بأنهم كانوا على خطأ ، وأنهم يرغبون فى الرجوع إلى الصواب ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ .. (١٠٠)﴾ [المؤمنون] ، وردَّ الله عليه : ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا (١٠٠)﴾ [المؤمنون]

ثم كشف حقيقة أمرهم : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)﴾ [الأنعام]

وهنا يقولون ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)﴾ [السجدة] وهل يكون اليقين فى هذا الموقف ؟ اليقين إنما يكون بالأمر الغيبى ، وأنتم الآن فى اليقين الحسىّ المشاهَد ، فهو إذن يقين لا يُجدى[3] .

---

(١) قال القرطبي فى تفسيره (٧/٥٣٥٣) : « أى أبصرنا ما كنا نكذِّب ، وسمعنا ما كنا ننكر . وقيل . أبصرنا صدق وعيدك وسمعنا تصديق رسلك » .

(٢) قال قتادة : أبصروا حين لم ينفعهم البصر ، وسمعوا حين لم ينفعهم السمع . [أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/٥٤٤ وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم] .

(٣) قال القرطبي في تفسيره (٧/٥٣٥٤) : « قيل : معنى ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)﴾ [السجدة] أى قد زالت عنا الشكوك الآن ، وكانوا يسمعون ويبصرون فى الدنيا ، ولكن لم يكونوا يتدبرون . وكانوا كمن لا يبصر ولا يسمع ، فلما تنبهوا فى الآخرة صاروا حينئذ كأنهم سمعوا وأبصروا » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) ﴾

هنا قد يسأل سائل : لماذا جعل الله الناسَ : مؤمناً وكافراً ، وطائعاً وعاصياً ؟ لماذا لم يجعلنا جميعاً مهتدين طائعين ؟ أهذا صعب على الله سبحانه ؟ لا ، ليس صعباً على الله تعالى ، بدليل أنه خلق الملائكة طائعين مُنفِّذين لأوامره سبحانه ﴿ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم]

كذلك الأرض والسماء والجبال .. الخ ، كلها تُسبِّح الله وتعبده ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١) ﴾ [النور]

وقال : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] ، وبعد ذلك يعطى الله تعالى لبعض خَلْقه معرفة هذا التسبيح ، كما قال فى حق داود عليه السلام : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ .. (٧٩) ﴾ [الأنبياء]

نعم ، هى تُسبِّح أيضاً مع غير داود ، لكن الميزة أنها تشترك معه فى تسبيح واحد ، كأنهم (كورس) يرددون نشيداً واحداً .

وعرفنا فى قصة الهدهد وسليمان - عليه السلام - أنه كان يعرف قضية التوحيد على أتمِّ وجه ، كأحسن الناس إيماناً بالله ، وهو الذى قال عن بلقيس ملكة سبأ : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ (٢٤) ﴾ [النمل]

وقال ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ[1] فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) ﴾ [النمل]

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما يريد أنْ يُدلِّل لخَلْقه على قدرته يجعل من الضعف قوة ، ومن القوة ضعفاً ، وانظر إلى حال المؤمنين الأوائل ، وكم كانوا أذلة مستضعفين ، فلما أسلموا رفعهم الله بالإسلام وجعلهم سادة .

ومشهورة قصة الصِّدِّيق أبى بكر لما أدخل عليه المستضعفين أمثال : عمار وبلال .. وترك صناديد قريش بالباب ، فعاتبه أبوه على ذلك : كيف يُدخِل العبيد ويترك هؤلاء السادة بالباب ؟ فقال أبو بكر : يا أبى ، لقد رفع الإسلام الخسيسة ، وإذا كان هؤلاء قد ورمتْ أنوفهم أن يدخل العبيد قبلهم ، فكيف بهم حين يُدخِلهم اللهُ الجنةَ قبلهم؟ .

وعجيب أن يصدر هذا الكلام من الصِّدِّيق أبى بكر ، مع ما عُرِف عنه من اللين ورِقَّة القلب والحلم .

وهذا لون من تبديل الأحوال واجتماع الأضداد ، وقد عرض الحق ـ تبارك وتعالى ـ لهذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) ﴾ [المطففين] يعني : يسخرون منهم ويهزأون بهم ، كما نسمع من أهل الباطل يقولون للإنسان المستقيم (خدنا على جناحك) .

(١) الخبء : كل ما غاب ، وهو كل شيء غائب مستور ، والخبء الذي في السماوات هو المطر ، وفي الأرض هو النبات . [لسان العرب ـ مادة : خبأ] .

وليت الأمر ينتهي عند هذا الحد ، إنما إذا عادوا إلى أهلهم كرروا هذا الاستهزاء ، وتبجحوا به ، وفرحوا لإيذائهم لأهل التقوى والاستقامة : ﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣)﴾ [المطففين] لكن يُنهي الحق سبحانه هذا الموقف بقوله : ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥)﴾ [المطففين] ثم يسألهم الله : ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [المطففين]

فهنا يقول الحق سبحانه : لا تفهموا أن أحداً تأبى عليَّ ، من خَلْقي . إنما أردتُ لهم الاختيار ، ثم أخبرتهم بما أحبّ أنْ يفعلوه ، فيريد الله أن يعلم علم وقوع بمَنْ آمن به ، وهو يملك ألاّ يؤمن . وإلا فهو سبحانه عالم أزلاً ؛ ليكون الفعل حجة على أصحابه ، إذن : إياك أنْ تظنَّ أنك باختيارك كسرت قهر العلي .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الذين ألفوا التمرد على الله إيماناً به ، فكفروا وتمردوا على طاعته فعصوه .. الخ نقول لهم : ما دُمْتم قد تعودتم التمرد على أوامر الله ، فلماذا لا تتمردون على المرض مثلاً أو على الموت ؟ إذن : أنت عبد رغم أنفك .

يقول سبحانه هنا : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا .. (١٣)﴾ [السجدة] أي : لَجعل الناس كالملائكة ، وكالمخلوقات المسيَّرة التي لا اختيار لها ، وسبق أنْ قُلْنا : إن المخلوقات كلها خُيِّرت في حمل الأمانة ، وليس الإنسان وحده ، لكن الفرق أن ابن آدم أخذ الاختيار مُفصَّلاً ، وبقية الخَلْق أخذوا الاختيار جملة ، بدليل قوله تعالى : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢)﴾ [الأحزاب]

ومعنى الهداية في ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا .. ⑬﴾ [السجدة] أي : هدى المعونة ، وإلا فقد هدى الله جميعَ الناس هُدى الدلالة على طريق الخير ، فالذي أخذ بهدى الدلالة وقال على العين والرأس يأخذ هدى المعونة ، كما قال سبحانه ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ⑰﴾ [محمد]

ولكي نفهم الفرق بين الهديين ، اقرأ : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ .. ⑰﴾ [فصلت] أي : دللناهم وأرشدناهم ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ .. ⑰﴾ [فصلت]

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ⑬﴾ [السجدة]

الحق سبحانه يريد أنْ يثبت لخَلْقه انه هو الأَوْلَى بالحكمة في الخَلْق ، بدليل أن الذي يشذ عن مراد الله لا بُدَّ أن يفسد به المجتمع ، كما نرى المجتمعات تشقى بكفر الكافر ، وبعصيان العاصي .

والحق سبحانه يترك الكافر يكفر باختياره ، والعاصي يعصي باختياره ليؤذي الناس بإثم الكافر وبإثم العاصي ، وعندها يعودون إلى تشريع الله ويلجئون إلى ساحته سبحانه ، ولو أن الناس عملوا بشرع الله ما حدث فساد في الكون ولا خَلَلٌ في حياتهم أبداً .

لذلك نفرح حينما ينتقم الله من أهل الكفر ومن أهل المعصية ، ونقول : الحمد لله الذي أراح منهم البلاد والعباد .

إذن : مخالفة منهج الله في القمة كفراً به سبحانه ، وفي غيرها معصيةٌ لأمره هو الذي يبين مزايا الإيمان وحلاوة التشريع . وقلنا :

إن التشريع يجب أنْ يأخذه المكلَّف أخْذاً كاملاً بما له وبما عليه ، فالله كَلَّفك ألاَّ تسرق من الناس ، وكلَّف الناسَ جميعاً ألاَّ يسرقوا منك .

ومعنى ﴿ وَلَـٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي .. (١٣) ﴾ [السجدة] أى : وقع وثبت وقُطع به ، ويأتى هذا المعنى بلفظ سبق ، كما فى ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) ﴾ [الصافات] وفى قصة نوح عليه السلام : ﴿ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ .. (٢٧) ﴾ [المؤمنون]

وقال تعالى حكاية عن الكفار فى حوارهم يوم القيامة : ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) ﴾ [الصافات]

ومعنى ﴿ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) ﴾ [السجدة] عرفنا أن الله تعالى خلق الجنة ، وخلق لها أهلاً يملأونها ، وخلق النار وخلق لها أهلاً يملأونها ، فليس فيهما أزمة أماكن ، فالجنة أُعدَّتْ لتسع جميع الخَلْق إنْ آمنوا ، وكذلك النار أُعدَّتْ لتسع الخَلْق جميعاً إنْ كفروا .

لذلك حين يذهب أهل الجنة إلى الجنة يرثون أماكن أهل النار فيها[1] ، كما قال سبحانه : ﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) ﴾ [الأعراف]

والجِنَّة : أى الجنّ والعفاريت .

(١) أخرج ابن ماجة فى سننه (٤٣٤١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال ، قال ﷺ : « ما منكم من أحد إلا له منزلان : منزل فى الجنة ، ومنزل فى النار ، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله . فذلك قوله تعالى ﴿ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) ﴾ [المؤمنون] » . قال البوصيرى فى الزوائد : هذا إسناده صحيح على شرط الشيخين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

والتقدير : ذوقوا العذاب ، كما جاء فى آية أخرى ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [القمر] ويُقال هذا لزعماء ورءوس الكفر ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان]

واختار حاسة التذوق ؛ لأن كل وسيلة إدراك قد تتصل بلون من ألوان الترف فى الحياة ، أمَّا الذوق فيتصل بإمداد الحياة ، وهو الأكل والشرب ، وبهما قوام حياة الإنسان ، فهما ضرورتان للحياة لا مجردَ ترف فيها .

وفى موضع آخر ، يُبيِّن لنا الحق سبحانه أثر الإذاقة ، فيقول عن القرية التى كفرت بربها : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل] وتصور أن يكون الجوع لباساً يستولى على الجسم كله ، وكأن الله تعالى يريد أنْ يُبين لنا عضة الجوع ، التى لا تقتصر على البطن فحسب ، إنما على كل الأعضاء ، فقال ﴿ لِبَاسَ الْجُوعِ .. ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل] لشمول الإذاقة ، فكأن كل عضو فى الجسم سيذوق ألم الجوع ، وهذا المعنى لا يؤديه إلا اللفظ الذى اختاره القرآن .

وقد فطن الشاعر إلى هذه الشمولية التى تستولى على الجسم كله ، فقال عن الحب الإلهى حين يستشرف فى القلب ويفيض منه ليشمل كلَّ الجوارح ، فقال :

خَطَرَاتُ ذِكْرِكَ تَسْتَثِيرُ مودَّتى ... فأُحسُّ منها فى الفُؤادِ دَبيبَا

لاَ عُضْوَ لى إلاَّ وَفيه صَبَابَةٌ[1] ... فكَأنَّ أعْضَائى خُلقْنَ قُلُوبَا

وعلَّة هذه الإذاقة ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا .. (١٤)﴾ [السجدة] أى: يوم القيامة الذى حدَّثناكم عنه، وحذَّرناكم من أهواله، فلم نأخذكم على غِرَّة، لكن نبهناكم إلى سوء العاقبة، فلا عذرَ لكم الآن، وقد ضخَّمنا لكم هذه الأهوال، فكان من الواجب أن تلتفتوا إليها، وأنْ تعتبروا بها، وتتأكدوا من صدْقها.

أما المؤمنون فحين يروْنَ هذا الهول وهذا العذاب ينزل بالكفرة والمكذِّبين يفرحون؛ لأن الله نجاهم بإيمانهم من هذا العذاب.

وتكون عاقبة نسيان لقاء الله ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ .. (١٤)﴾ [السجدة] فأنتم نسيتم لقاء الله، ونسيتم توجيهاته، وأغفلتم إنذاره وتحذيره لكم، ونحن تركناكم ليس هملاً، إنما تركناكم من امتداد الرحمة بكم، فقد كانت رحمتى تشملكم فى الدنيا، ولم أخصَّ بها المؤمنين بى، بل جعلتُها للمؤمن وللكافر.

فكل شىء فى الوجود يعطى الإنسان مطلق الإنسان طالما أخذ بالأسباب، لا فرق بين مؤمن وكافر، هذا فى الدنيا، أما فى الآخرة فننساكم من هذه الرحمة التى لا تستحقونها، بل: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٤)﴾ [السجدة]

فإنْ كنتم قد تمردتم على الله وكفرتم به فى دنيا محدودة، وعمرك فيها محدود، فإن العذاب الواقع بكم اليوم خالد باقٍ دائم، فخسارتكم كبيرة، ومصيبتكم فادحة.

---

(١) الصبابة: الشوق. والصَّبُّ: العاشق المشتاق. [لسان العرب - مادة: صبب].

وقلنا : إن العمل في الدنيا للآخرة يمثل معادلة ينبغي أنْ تُحلّ حلاً صحيحاً ، فأنت في الدنيا عمرك لا يُحسب بعمرها ، إنما بمدة بقائك فيها ، فهو عمر محدود ، أما الآخرة فخلود لا ينتهي ، فلو أن النعيم فيهما سواء لكان امتداد الزمن مرجحاً للآخرة .

ثم إن نعيمك في الدنيا على قدر إمكاناتك وحركتك فيها ، أما نعيم الآخرة فعلى قدر إمكانات الله في الكون ، نعيم الدنيا إما أنْ يفوتك أو تفوته أنت ، ونعيم الآخرة باقٍ لا يفوتك أبداً لأنك مخلد فيه .

إذن : هي صفقة ينبغي أنْ تُحْسبَ حساباً صحيحاً ، وتستحق أن نبيع من أجلها الدنيا بكل ما فيها من غالٍ ونفيس : لذلك سماها رسول الله تجارة رابحة .

وقال سبحانه وتعالى عن الكافرين ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)﴾ [البقرة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ (١٥)﴾

الخرور : السقوط بغير نظام ولا ترتيب ، كما جاء في قوله تعالى ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ .. (٢٦)﴾ [النحل] وفي موضع آخر قال سبحانه في هذا المعنى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ .. (١٠٧)﴾ [الإسراء] أي : من قبل القرآن ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨)﴾ [الإسراء]

فالخرور أنْ تهوى إلى الأرض ساجداً دون تفكير ، وكل سجود

فى القرآن يتلو هذه المادة (خرَّ) دليل على أنها أصبحت ملَكة وآلية فى المؤمن ، بل ويؤكدها الحق سبحانه بقوله . ﴿يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧)﴾ [الإسراء] لأنه سجود يأخذ الذقن ، فهو متمكن فى الذلة ، وهو فوق السجود الذى نعرفه فى الصلاة على الأعضاء السبعة المعروفة .

ولم يُذكر الخرور مع الركوع إلا فى موضع واحد ، هو قوله تعالى فى شأن سيدنا داود : ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤)﴾ [ص]

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)﴾ [الإسراء] فكلما ازدادوا ذلَّة ازدادوا خشوعاً ، فكأنهم عشقوا التكليف ، وأحبوا أوامر الله ؛ لذلك بالغوا فى الذلة والعبودية لله تعالى ، وهذه المسألة تفسر لنا قول النبى ﷺ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا من الدعاء »[1] .

ففى السجود تضع وجهك وجبهتك ، وهى رمز العلو والرِّفْعة تضعها على الأرض خضوعاً لله عز وجل

ثم يقول الحق سبحانه عنهم[2] :

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦)﴾

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٤٨٢) كتاب الصلاة . وكذا أحمد فى مسنده (٢/٤٢١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه

(٢) سبب نزول الآية : أخرج البزار (٢٢٥٠ - كشف الأستار للهيثمى) عن بلال بن رباح أنه قال . كنا نجلس فى المجلس وناس من أصحاب النبى ﷺ يصلون بعد المغرب إلى العشاء ، فنزلت هذه الآية ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع .. (١٦)﴾ [السجدة] . وأورده السيوطى فى أسباب النزول (ص ١٣٦) وعزاه للبزار وضعَّفه بشيخه عبد الله بن شبيب.

التجافي يعني الترك ، لكن الترك قد يكون معه شوق ويصاحبه ألم ، كما تودع حبيباً وتتركه وأنت غير زاهد فيه ولا قَالٍ[1] له ، أما الجفوة فترك فيه كراهية للمتروك ، فهؤلاء المؤمنون الذين يتركون مضاجعهم كأن جنوبهم تكره المضجع وتجفوه ؛ لأنها تتركه إلى لذة أبقى وأعظم هي لذة الاتصال بالله ومناجاته .

ونذكر هنا أن الإمام علياً رضي الله عنه حينما ذهب ليدفن فاطمة بنت رسول الله ﷺ رضي الله عنها وقف عند قبر رسول الله وقال : السلام عليك يا سيدي يا رسول الله ، قَلَّ عن صفيتك صبري ، ورقَّ عنها تجلُّدي ، إلا أن لي في التعزي بعظيم فُرْقتك وفادح مصيبتك موضع تأسٍّ - يعني : الذي تحمَّل فَقْدك يا رسول الله يهون عليه أيُّ فَقْد بعدك - فلقد وسدتُك يا رسول الله في ملحودة قبرك ، وفاضت بين سَحْري[2] ونَحْري نفسك ، أما ليلي فمُسهَّد ، وأما حزني فسَرْمَد[3] ، إلى أنْ يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم ، هذا وستخبرك ابنتك عن حال أمتك وتضافرها على هضمها .. فأَصْغِها السؤال ، واستخبرها الحال . هذا ولم يَطُل منك العهد ، ولم يخْلُ منك الذكر .

ثم لما أراد أنْ ينصرف عن قبر حبيبه قال : والسلام عليك سلام

---

(١) قلَيته قلًى : أبغضته وكرهته غاية الكراهة فتركته . والقِلَى : البُغْض . [اللسان - مادة : قلى] .

(٢) السَّحْر : الرئة والقلب . أي : أنها ماتت وهي مستندة إلى صدره . والنحر : الصدر وهو موضع القلادة منه . [اللسان] .

(٣) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . والسرمد : الدائم الذي لا ينقطع . [اللسان - مادة : سرمد] .

مُودِّع ، لا قالٍ ولا سئم ، فإنْ انصرف فلا عن ملالة ، وإنْ أقِم فلا عن سوء ظن بما وعد الله به عباده الصابرين .

فقوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ .. (١٦) ﴾ [السجدة] أى : تكرهها وتجفوها ، مع أنها أعزُّ ما يركن إليه الإنسان عند راحته ، فالإنسان حين تدبّ فيه الحياة ، ويستطيع أنْ تكون له قوة ونشاط يعمل فى الحياة ، فالعمل فرع وجود الحياة ، وبالقوة يمشى ، وبالقوة يحمل الأثقال .

فإذا ما أتعبه الحمْل وضعه عن نفسه ليستريح ، لكنه يستطيع أن يمشى بدون حمل ، فإنْ أتعبه المشي وقف ، فإذا أتعبه الوقوف جلس ؛ لذلك يحدث أن تقول لصاحبك : لو سمحت احمل عنى هذا الحملَ فيقول : يا شيخ ، هل أنا قادر أن أحمل نفسى ؟

إذن : التعب فى هذه الحالة ناشىء من ثِقَل الجسم على القدمين فيتعبه الوقوف ، ألاَ ترانا إذا أطال الإمام فى الصلاة مثلاً نراوح بين القدمين مرة على هذه ، ومرة على هذه ، أما القعود فيريح الإنسان ؛ لأنه يُوسِّع دائرة العضو المحتمل ، فثقَل الجسم فى حالة القعود يُوزَّع على المقعدة كلها ، فإذا بلغ به التعَب جداً بحيث أتعبه القعود فإنه يستلقى على جنبه ، ويمد جسمه كله على الأرض فيتوزع الثقل على كل الأعضاء ، فلا يحمل العضو إلا ثقله فقط .

فإنْ شعر الإنسان بتعب بعد هذا كله تقلَّب على جنبه الآخر أو على ظهره ، هذه كلها ألوان من الراحة لجسم الإنسان ، لكنه لا يرتاح الراحة الكاملة إلا إذا استغرق فى النوم ، ويُسمُّون هذا التسلسل متواليات عضلية .

والدليل على أن النوم راحة تامة أنك لا تشعر فيه بالألم الذى تشعر به حال اليقظة - إنْ كنت تتألم من مرض مثلاً - وهذه كلها متواليات يمر بها المؤمن ، وبالتالى إذا مات استراح أكثر ، ثم إذا بُعث يوم القيامة ارتاح الراحة الكبرى ، فهى مراحل نمرُّ بها إلى أنْ نرتمى فى حضن خالقنا عز وجل .

إذن : فالمضاجع آخر مرحلة في اليقظة ، ولم تأْتِ إلا بعد عدة مراحل من التعب ، ومع ذلك شوق المؤمنين إلى ربهم ورغبتهم فى الوقوف بين يديه سبحانه يُنسيهم هذه الراحة ، ويُزهِّدهم فيها ، فيجفونها ليقفوا بين يدى الله .

وفى موضع آخر قال تعالى عنهم : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) ﴾ [الذاريات] ثم يقول سبحانه : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ .. (١٦) ﴾ [السجدة] أى : يدعون ربهم وهم على حال التعب ، كأن الدعاء مجرد الدعاء يريحهم ، لماذا ولم يُجَابوا بعد ؟ قالوا : لأنهم وضعوا حاجاتهم وطلبهم عند قادر على الإنفاذ ، ثم إن حلاوة لقائهم بربهم فى الصلاة تُنسيهم التعب الذى يعانون .

والمؤمنون يدعون ربهم ﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا .. (١٦) ﴾ [السجدة] أى : خوفاً مما حدث منهم من تقصير فى حق الله ، وأنهم لم يُقدِّموا لله تعالى ما يستحق من التقوى ومن الطاعة ﴿ وَطَمَعًا .. (١٦) ﴾ [السجدة] أى : فى المغفرة ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) ﴾ [السجدة] والمراد هنا الزكاة .

لذلك ترى فى قوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ..

(١٦)﴾ [السجدة] أن هذا التجافى كان بقصد الصلاة ؛ لأن القرآن عادةً ما يقرن الصلاة بالزكاة ، فقال بعدها : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) ﴾

[السجدة]

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ[1] أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾

قلنا : إن الحق سبحانه أخفى أسرار الخير عن الخَلْق ، ولم يُعْطهم منها إلا على قدر حاجتهم منها ، فإذا أراد سبحانه أنْ يُجازى عباده المؤمنين لا يجازيهم بما يعلمون من خيرات الدنيا وإمكاناتهم فيها ، إنما يجازيهم بما يعلم هو سبحانه ، وبما يتناسب مع إمكانات قدرته .

وهذه الإمكانات لا نستطيع نحن التعبير عنها ؛ لأن ألفاظ اللغة لا تستطيع التعبير عنها ، ومعلوم أن الإنسان لا يضع الاسم إلا إذا وُجِد المسمى والمعنى أولاً ؛ لذلك قال تعالى فى التعبير عن هذا النعيم : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ .. (١٧) ﴾ [السجدة]

وقال النبى ﷺ عن الجنة : « فيها ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[2] إذن : كيف نُسمِّى هذه الأشياء ؟ وكيف نتصوَّرها وهى فوق إدراكاتنا ؟ لذلك سنفاجأ بها حين نراها إنْ شاء الله .

---

(١) القرة : كل شيء قرَّتْ به عينك . ويقال : أقرَّ الله عينك ، أى : بلَّغك أمنيتك حتى ترضى نفسك وتسكن عينك فلا تستشرف إلى غيره . [لسان العرب - مادة : قرر]

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) ، وأحمد فى مسنده (٢/٤٦٦) ، وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٢/٢٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ثم ألاَ ترى أن الحق سبحانه حينما يعرض علينا طرفاً من ذكر الجنة لا يقول لنا الجنة كذا وكذا ، إنما يقول : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ .. (٣٥)﴾ [الرعد] أى : أن ما نعرضه عليك ليس هو الجنة ، إنما شبيه بها ، أما هى على الحقيقة ففوق الوصف الذى تؤديه اللغة ، فأنا أعطيكم الصورة القريبة لأذهانكم .

ثم يُنقى الحق سبحانه المثل الذى يضربه لنا من شوائبه فى الدنيا ، وتأمل فى ذلك قول الله تعالى عن نعيم الجنة ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ .. (١٥)﴾ [محمد] وكانت آفة الماء عندهم أن يأسن ويتغير فى الجرار ، فنقَّاه الله من هذه الآفة .

وكذلك فى ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ (١٥)﴾ [محمد] وكان العربى إذا سار باللبن يحمض فيعافه ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ .. (١٥)﴾ [محمد] وآفة خمر الدنيا أنها تغتال العقل ، وتذهب به ، وليس فى شربها لذة ؛ لذلك نرى شاربها والعياذ بالله يتجرَّعها مرة واحدة ، ويسكبها فى فمه سكْباً ، دليلاً على أنها غير طيبة ، وهل رأيت شارب الخمر يمتصُّها مثلاً كما تمتص كوباً من العصير ، وتشعر بلذة شربه ؟

وقد وصف الله خمر الآخرة بقوله : ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ[1] وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ[2] (٤٧)﴾ [الصافات]

---

(١) الغَوْل : الصداع . وقيل - السُّكر . وقال أبو عبيدة : الغَوْل أن تغتال عقولهم . [لسان العرب ـ مادة : غول]

(٢) أنزف القوم : نفد شرابهم . وانزف القوم إذا ذهب ماء بئرهم وانقطع [لسان العرب ـ مادة : نزف] . قال الضحاك عن ابن عباس : فى الخمر أربع خصال : السُّكْر والصداع والقيء والبول فذكر الله تعالى خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال . [نقله ابن كثير فى تفسيره ٤/٧] .

ثم يقول سبحانه . ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى .. (١٥)﴾ [محمد] فوصف العسل بأنه مُصفًّى ؛ لأن آفة العسل عندهم ما كان يعلَق به من الحصى والشوائب حين ينحدر من بيوت النحل فى الجبال ، فصفَّى الله عسل الآخرة من شوائب العسل فى الدنيا .

ومهما بلغ بنا ترف الحياة ونعيمها ، ومهما عَظُمَتْ إمكاناتنا فى الدنيا ، فلن ترى فيها نهراً من الخمر ، أو من اللبن ، أو من العسل ، ثم إن هذه الأنهار تجرى فى الجنة بلا شطآن ، بل ويتداخل بعضها فى بعض دون أن يطغى أحد منها على الآخر ، وهذه طلاقة القدرة التى لا حدود لها .

إذن : الحق سبحانه حين يشرح لنا نعيم الجنة ، وحين يَصِفُها يعطينا المثال لا الحقيقة ، ثم يُنقِّى هذا المثال مما يشوبه فى الدنيا .

ومن ذلك أن العربى كان يحب شجرة السِّدْر أى النبق ، فيستظل بظلها ، ويأكل ثمرها ، لكن كان ينغص عليه هذه اللذة ما بها من أشواك لا بُدَّ أنْ تؤذى مَنْ يقطف ثمارها ، فلما ذكرها الله تعالى فى نعيم الجنة قال عنها : ﴿فِي سِدْرٍ[1] مَخْضُودٍ (٢٨)﴾ [الواقعة] أى : منزوع الشوك ، فالمتعة به تامة لا يُنغِّصها شىء .

ولما تكلم عن نساء الجنة قال سبحانه عن الحور العين : ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ[2] إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٧٤)﴾ [الرحمن] فنفى عنهن ما يُنغِّص على

---

(١) السدر : شجر النبق والسدر من الشجر سدران : أحدهما برى لا يُنتفع بثمره ، وثمره لا يسوغ فى الحلق ، والسدر الثانى ينبت على الماء ، وثمره النبق أصفر مُزٌّ . [لسان العرب - مادة : سدر] . المخضود : هو الذى خُضد شوكه فلا شوك فيه

(٢) طمثت المرأة : حاضت ، فهى طامث . والطمث : الافتضاض وهو النكاح بالتدمية . فمعنى لم يطمثهن إنس أى : لم يمسسهن أحد .

الرجل جمال المرأة فى الدنيا ، وطمأنك أنها بِكْر لم ينظر إليها أحد قبلك .

لهذا قال تعالى عن نعيم الجنة ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ .. (١٧)﴾ [السجدة] والقرة والقُرور أى : السكون ، ومنه قَرَّ فى المكان أى : استقر فيه ، والمعنى أن الإنسان لا يستقر فى المكان إلا إذا وجد فيه راحته ومُقوِّمات حياته ، فإذا أردتَ أنْ تستقر فى مكان أو تشترى شقة مثلاً تسأل عن المرافق والخدمات من ماء وكهرباء وطرق .. الخ .

حتى نحن فى تعبيراتنا العامية وفى الريف الذى يحتفظ لنا بخصائص الفطرة النقية التى لم يَشُبْها زيف الحضارات ولا زخرفة المدينة ، وهذه الفطريات تستهوى النفوس وتجذبها ، بدليل أن الإنسان الحضارى مهما بلغ القمة وسكن ناطحات السحاب ، وتوفرتْ له كل كماليات الحياة لا بُدَّ أنْ يأتى اليوم الذى يلجأ فيه إلى أحضان الطبيعة ، فلا ترتاح نفسه ، ولا تستقر إلا فى الريف ، فيقضى هناك عدة أيام حيث تهدأ هناك نفسه ، وتستريح من ضوضاء المدينة ، والبعض يسمونها (الويك إند) .

فمعنى (قرة العين) أى : استقرارها على شىء بحيث لا تتحول عنه إلى غيره ، والعين لا تستقر على الشىء إلا إذا أعجبها ، ورأتْ فيه كل ما تصبو إليه من متعة .

ومن ذلك قولنا (فلان عينه مليانة) يعنى : لا يحتاج مزيداً من المرائى غير ما يراه (وفلان عينه فارغة) يعنى : لا يكتفى بما يرى ، بل يطلب المزيد ، فينظر هنا وهناك .

ففى الجنة تقرّ العيون بحيث لم يَعُدْ لها تطلعات ، فقد كَمُلَتْ لها المعانى ، فلا ينبغى لها أنْ تطمع فى شىء آخر إلا الدوام .

لذلك يخاطب الله رسوله ﷺ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ .. (١٣١) ﴾ [طه]

فالإنسان إذا كانت عينه فارغة تراه زائغ العينين ، ينظر هنا وهناك ، ولو كانت عينه (مليانة) لانتهى عندها .

ومن معانى مادة (قرّ) القُرُّ وهو البرد الشديد ، وهذا المعنى يَكْنُون به عن سرور النفس ، فالعين الباردة أى : المسرورة ، أما العين الساخنة فهى الحزينة المتألمة .

ومن المعانى أيضاً لقرور العين سكونها وعدم حركتها لعلّة أو عمى ، ومن ذلك قول المرأة التى دخلتْ على الخليفة فقالت : أقرَّ الله عينك ، وأتمَّ عليك نعمتك ، ففهم الحاضرون أنها تدعو له ، فقال : والله ما دعتْ لى ، إنما دعتْ علىَّ ، فهى تقصد أقرَّ الله عينك يعنى : أسكنها فلا تتحرك ، وأتمَّ عليك نعمتك ، أى ، أزالها ؛ لأن النعمة إذا تمتْ زالت ، فلا شىء بعد التمام إلا النقصان .

ثم يُعلِّل الحق سبحانه هذا النعيم الذى أخفاه لعباده المؤمنين فى الجنة بأنه ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾ [السجدة] وهذه أثارت معركة بين العلماء هى معركة الأحباء : فريق قال إن المؤمن يدخل الجنة بعمله ، كما نصَّتْ هذه الآية أى : أن الجنة بالعدل لا بالفضل ، وفريق قال : بل يدخل الجنة بفضل الله ، كما جاء فى قول الحق سبحانه

وتعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس]

وقول النبى ﷺ : « لن يدخل أحدٌ الجنةَ بعمله قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى[1] الله برحمته »[2] .

فلما حميتْ هذه المعركة أرادوا أنْ يوحدوا هذين الرأيين ، ويُوفِّقوا بينهما ، فقالوا : لقد سبق الله تعالى المكلف بالإحسان ، فخلق له مُقومات حياته قبل أنْ يوجد ، ثم تركه يرتع فى نِعَمه دون أنْ يطالبه بشىء حتى يبلغ سِنَّ التكليف .

فإذا ما كلَّفه الله بعد سابق نعمه عليه ، فعليه أنْ يطيع هذا التكليف جزاء ما سبق من إحسان الله إليه الإحسان الأول ، وبذلك يكون الجزاء فى الآخرة ليس على العمل ، إنما محْض فضل من الله على عباده .

إذن : حينما تؤدى ما كلَّفك ربك به كأنك تجازى ربك بطاعته على سابق إحسانه إليه ، فكأن الجنة ونعيمها زيادة وفضل من الله ، فالله سبحانه له الفضل عليك فى الأولى ، وله الفضل عليك فى الآخرة .

ثم إن الحق - تبارك وتعالى - حين يُشرِّع لك ويكلِّفك ، فشَرْعه وتكليفه فى ذاته فضل ، ألاَ ترى أن الحسنة عنده سبحانه بعشر أمثالها ، وأنها تضاعف إلى أضعاف كثيرة ، ونحن مِلْكه سبحانه ، يعطينا أو لا يعطينا .

---

(١) تغمده الله برحمته : أدخله فيها وغمره بها . قال أبو عبيد . قوله يتغمدنى : يلبسنى ويتغشانى ويسترنى . [لسان العرب - مادة : غمد]

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) عن أبى هريرة .

وبعض أهل المعرفة والشطح يقولون : الله قدَّم الإحسان أولاً ، فيجب على العبد أن يأتي بالإحسان جزاء الإحسان ؛ لأنه ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ (٦٠)﴾ [الرحمن]

وحين يُحسِن العبد في التكليف يُحيِّيه ربه بإحسان آخر ، فيرد العبد على إحسان ربه إليه بالإحسان ، وهكذا يتواصل الإحسان بين العبد وربه إلى ما لا نهاية .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ (١٨)﴾

أولاً : نلحظ في اللفظ أن مؤمناً وفاسقاً جاءت بصيغة المفرد ، فكان القياس أنْ نقول : لا يستويان ، إنما سياق القرآن ﴿لاَّ يَسْتَوُونَ (١٨)﴾ [السجدة] وسبق أنْ قُلْنا : إن (من وما) الموصولتين تأتي للمفرد أو المثنى أو للجمع ، وللمذكر وللمؤنث ، فمرة يراعي السياق لفظها ، ومرة يراعي معناها .

والمعنى هنا ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا (١٨)﴾ [السجدة] الحق سبحانه لا يتكلم عن المفرد ، إنما عن الجمع ، أو أنها قيلت رداً لحالة مخصوصة بين مؤمن وكافر وأراد الحق سبحانه أن يعطيها

---

(١) سبب نزول الآية : أخرج الواحدي وابن عساكر من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال الوليد بن عقبة بن أبي معيط لعلي بن أبي طالب : أنا أحدُّ منك سناناً ، وأبسط منك لساناً ، وأملأ للكتيبة منك . فقال له علي : اسكت فإنما أنت فاسق . فنزلت ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ (١٨)﴾ [السجدة] [أسباب النزول للسيوطي ص ١٢٦]

العموم لا خصوص السبب ، فراعى السياق خصوص السبب فى مؤمن وكافر ، وراعى عموم الموضوع فقال ﴿لَاَّ يَسْتَوُونَ ⑱﴾ [السجدة] والقاعدة الفقهية تقول : إن العبرة فى القرآن بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[1] .

وقيل : إن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط حين جادل علياً رضى الله عنه . فقال له : أنا أشبُّ منك شباباً ، وأجلد[2] منك جَلَداً ، وأذرب[3] منك لساناً ، وأحدُّ منك سناناً ، وأشجع منك وجداناً ، وأكثر منك مَرَقاً . فردَّ عليه علىٌّ - كرَّم الله وجهه - بما يدحض هذا كله ويبطله ، فقال له : اسكت يا فاسق ، ولا موهبة لفاسق .

والمعنى : إنْ كنت كما تقول فقد ضيعتَ هذا كله بفسقك ، حيث استعملتَ قوة شبابك وجَلَدك وذَرَب لسانك وشجاعة وجدانك فى الباطل وفى المعصية ، وفى الصدِّ عن سبيل الله .

وهكذا جمعتْ الآية بين خصوصية هذا السبب فى ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا .. ⑱﴾ [السجدة] وبين عموم الموضوع فى ﴿لَّا

---

(١) « ذهب الجمهور إلى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فالحكم الذى يؤخذ من اللفظ العام يتعدى صورة السبب الخاص إلى نظائرها ، كآيات اللعان التى نزلت فى قذف هلال بن أمية زوجته فيتناول الحكم المأخوذ من هذا اللفظ العام ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ..⑥﴾ [النور] غير حادثة هلال دون احتياج إلى دليل آخر » [مباحث فى علوم القرآن - مناع القطان - ص ٨٠ - نشر مكتبة وهبة ١٩٨٨ م] .

(٢) الجلد : القوة والشدة والصبر . [لسان العرب - مادة : جلد] .

(٣) الذرب اللسان هو الحادُّ اللسان . والذرب : الحاد من كل شىء [اللسان - مادة : ذرب] .

يستوون (١٨)﴾ [السجدة] ، فهذا الحكم ينسحب على الجمع أيضاً .

وجاء قوله تعالى : ﴿لاَّ يَسْتَوُونَ (١٨)﴾ [السجدة] كأنه جواب للسؤال ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا .. (١٨)﴾ [السجدة] لكن ، لماذا لم يأتِ الجواب مثلاً . لا يستوى المؤمن والفاسق ؟ قالوا : لأن هذا الأسلوب يسمى أسلوب الإقناع التأكيدى ، وهو أن تجعل الخصم هو الذى ينطق بالحكم .

كما لو قال لك صديق : لقد مررتُ بأزمة ولم تقف بجانبى . فتستطيع أنْ تقول له . وقفتُ بجانبك يوم كذا ويوم كذا ـ على سبيل الخبر منك ، لكنّ الإخبار منك يحتمل الصدق ويحتمل الكذب ، فتلجأ إلى أسلوب آخر لا يستطيع معه الإنكار ، ولا يملك إلا الاعتراف لك بالجميل فتقول بصيغة السؤال : ألم أقدم لك كذا وكذا يوم كذا وكذا ؟ وأنت لا تسأله إلا إذا وثقتَ بأن جوابه لا بُدَّ أنْ يأتى وَفْق مرادك وعندها يكون كلامه حجة عليه .

لذلك طرح الحق سبحانه هذه المسألة فى صورة سؤال : ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا .. (١٨)﴾ [السجدة] ولابد أن نقول نحن فى جواب هذا السؤال : لا يستوى مؤمن وفاسق ، ومَنْ يقُلْ بهذا فقد وافق مراد ربه .

وما دام أن المؤمن لا يستوى والفاسق ، فلكل منهما جزاء يناسبه :

﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ
جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٩)﴾

وإنْ كانت لفظة (مؤمن) جاءت مفردة ، فقد أوضحتْ هذه الآية

أن المراد الجمع ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (١٩)﴾ [السجدة] أي : العموم ؛ لأنه أُخذ مما كان مفرداً جمعاً ، وهذا دليل على أن هذا المفرد في جنسه جمع كثير ، كما في قوله تعالى ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢)﴾ [العصر] فالإنسان مفرد يُستثنى منه الجمع ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٣)﴾ [العصر] لأن لفظة الإنسان هنا تدل على الجماعة ، و (ال) فيها ال الاستغراقية .

فالحق سبحانه ينقلنا من المؤمن إلى العموم ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٩)﴾ [السجدة] ومن الفاسق إلى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا .. (٢٠)﴾ [السجدة] فهما جماعتان متقابلتان لكل منهما جزاؤه الذي يناسبه :

﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ .. (١٩)﴾ [السجدة] والمأوى هو المكان الذي يأوي إليه الإنسان ويلجأ إليه ليحفظه من كل مكروه ، كما قال تعالى في شأن عيسى وأمه مريم عليهما السلام : ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠)﴾ [المؤمنون] يعني : يمكنهما الاستقرار فيها ؛ لأن بها مُقوِّمات الحياة (ومعين) يعني : عيْن ماء .

ومن ذلك قوله تعالى في قصة ابن نوح حين قال لأبيه : ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ .. (٤٣)﴾ [هود] فنبَّهه أبوه وحذره ، فقال : ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ .. (٤٣)﴾ [هود]

ونلحظ في هذه القصة حنان الأبوة من سيدنا نوح حين قال ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. (٤٥)﴾ [هود] لكن ربه عز وجل لا يتركه على هذه القضية ، إنما يُصحِّحها له ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦)﴾ [هود]

إذن : فالبنوة هنا ليست بنوة نسب ، إنما بنوة إيمان وعمل ، ألاَ

ترى أن سيدنا رسول الله قال لسلمان الفارسي وهو من غير العرب بالمرة : « سلمان منا آل البيت »[1] .

وإنْ كان النسب ينفع من الآباء إلى الأبناء ، فهذه ليست خصوصية للأنبياء ، إنما لكل الناس ، كما قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ .. (٢١) ﴾ [الطور]

وإلحاق الأبناء بالآباء في الحقيقة كرامة للآباء أنْ يجدوا أولادهم معهم في الجنة جزاء إيمان الآباء وعملهم الصالح ، فإنْ كان الأولاد دون سنّ التكليف فطبيعي أنْ يلحقوا بالآباء ، بل وتكون منزلتهم أعظم من منزلة آبائهم ؛ لأن الأطفال الذين يموتون قبل الرُّشْد ليس لهم أماكن محددة ، إنما يتطلقون في الجنة يمرحون فيها كما يشاؤون .

وقد مثَّلْنا لذلك بالولد الصغير تأخذه معك في زيارة أحد الأصدقاء ، فتجلس أنت في حجرة الجلوس ، بينما الولد الصغير يجري في أنحاء البيت ، ويدخل أي مكان فيه لا يمنعه أحد ، لذلك يسمون الأطفال (دعاميص) الجنة[2] .

---

(١) عن عمرو بن عوف المزني قال : خط رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب من أحم السَّمُر طرف بني حارثة حين بلغ المداد ، ثم قطع أربعين ذراعاً بين كل عشرة ، فاختلف المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي ، وكان رجلاً قوياً ، فقالت الأنصار : سلمان منا . وقالت المهاجرون : سلمان منا . فقال رسول الله ﷺ : « سلمان منا أهل البيت » أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٤١٨/٣) والحاكم في مستدركه (٥٩٨/٣) وضعَّف الذهبي إسناده من أجل كثير بن عبد الله .

(٢) عن أبي حسان قال قلت لأبي هريرة : إنه قد مات لي ابنان ، فما أنت محدثي عن رسول الله ﷺ بحديث تطيب به أنفسنا عن موتانا ؟ قال : نعم « صغارهم دعاميص الجنة يتلقى أحدهم أباه - أو قال أبويه - فيأخذ بثوبه كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا فلا يتناهى حتى يُدخله الله وأباه الجنة » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٣٥) ، وكذا أحمد في مسنده (٤٧٧/٢ ، ٥١٠) .

والبعض هنا يثير مسألة أن الإنسان مرتهن بعمله ، ولا ينتفع بعمل غيره ، فكلٌّ مُعلَّق من (عرقوبه) كما نقول ، فالبعض يسأل : لماذا إذاً نصلي على الميت ، والصلاة عليه ليست من عمله ؟ فإنْ كانت الصلاة عليه لها فائدة تعود عليه فقد انتفع بغير عمله ، وإن لم تكُنْ لها فائدة فهي عبث ، وحاشَ لله أنْ يضع تشريعاً عبثاً .

ونقول : هل صليت على كل ميت مؤمناً كان أو كافراً ؟ لا إنما نصلي على المؤمن ، إذن : صلاتك أنت عليه نتيجة إيمانه ، وجزء من عمله ، ولولا إيمانه ما صلَّينا عليه .

نعود إلى معنى كلمة (المأوى) ، فالجنة مأوى المؤمن ، تحفظه من النار وأهوالها ﴿ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) ﴾ [السجدة] أي : جزاء عملهم الصالح ، والنزُل هو المكان المعدّ لينزل فيه الضيف الطارىء عليك ؛ لذلك يسمون الفندق (نُزُل) ، فإذا كانت الفنادق الفاخرة التي نراها الآن ما أعدَّه البشر للبشر ، فما بالك بما أعدَّه ربُّ البشر لعباده الصالحين ؟

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ (٢٠) ﴾

﴿ فَسَقُوا .. (٢٠) ﴾ [السجدة] من الفسوق أي الخروج ، تقول : فسقتْ البلحة يعني خرجت عن قشرتها ، والمراد هنا الذين خرجوا عن طاعة الله وعن مطلوبات الحق سبحانه ﴿ فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ .. (٢٠) ﴾ [السجدة] قلنا : إن المأوى هو المكان الذي تأوي إليه ، فيحميك من كل مكروه ، فكيف تُوصف به النار هنا ؟

قالوا : المأوى المكان الذي ينزل فيه الإنسان على هواه وعلى (كيفه) ، أما هؤلاء فينزلون هنا رغماً عنهم ، أو أن الكلام هنا على سَبْق التهكم والسخرية ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [آل عمران]

ومعلوم إن البشرى لا تكون إلا بالشيء السَّار ، ومثل : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الدخان] ، وهذا كثير في أسلوب القرآن ؛ لأنه أسلوب يؤلم الكافرين ، ويحطُّ من شأنهم .

ثم يُصوِّر لنا الحق سبحانه ما فيه أهل النار من اليأس : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا.. ﴿٢٠﴾ ﴾ [السجدة] وفي موضع آخر قال عنهم ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف] إذن : لا أمل لهم في الخروج ، ولا حتى في الموت الذي يريحهم مما هم فيه ، بل تردهم الملائكة في العذاب ، ويقولون لهم : ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [السجدة]

فالإذاقة تعدَّتْ اللسان واستولتْ على كل الأعضاء ، فكل ذرة فيه تذوق عذاب النار جزاء ما كانوا يكذبون بها في الدنيا ، حيث كذَّبوا بالأصل ، وهو الرجوع إلى الله يوم القيامة .

ثم إن عذاب الفاسقين لا يقتصر على عذاب الآخرة ، إنما سيكون لهم عذاب آخر يذوقونه في الدنيا :

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ[1] دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(١) قال ابن عباس : يعني بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها وما يحل بأهلها مما يبتلى الله به عباده ليتوبوا إليه . وروي مثله عن كثير غيره . وقال البراء بن عازب ومجاهد وأبو عبيدة يعني به عذاب القبر . [تفسير ابن كثير ٣/٤٦٢] .

﴿الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ .. (٢١)﴾ [السجدة] أي : القريب والمراد في الدنيا ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ .. (٢١)﴾ [السجدة] أي : عذاب الآخرة ، وهذا العذاب الذي سيصيبهم في الدنيا مظهر من مظاهر رحمة الله حتى بالكافرين والفاسقين ؛ لأن الله تعالى علَّله بقوله : ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١)﴾ [السجدة]

إذن : المراد ما يلحقهم من عذاب في دار التكليف كالأسْر والذلَّة والهوان من كثرة المؤمنين وقوتهم ، ألم يركب عبد الله بن مسعود[1] مع ما عُرِف عنه من ضآلة الجسم[2] على أبي جهل في إحدى الغزوات ، وقد طرحه في الأرض وداسه بقدمه ، ويُرْوى أن أبا جهل نظر إليه وهو على هذه الحال وقال : لقد ارتقيتَ مُرْتقىً صعباً يا رُويعي الغنم[3] .

ووصف العذاب في الآخرة بأنه العذاب الأكبر ؛ لأنه العذاب المحيط الذي لا مهربَ منه ولا ملجأ .

---

(١) هو : عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي ، من أكابر صحابة رسول الله ﷺ فضلاً وعقلاً وقرباً من رسول الله ، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة ، كان قصيراً جداً يكاد الجلوس يواورونه ، ولي بيت مال الكوفة بعد وفاة النبي ﷺ ، ثم قدم المدينة في خلافة عثمان فتوفي فيها عن نحو ستين عاماً .

(٢) قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : كان ابن مسعود رجلاً نحيفاً قصيراً . وقال إبراهيم التيمي : أن ابن مسعود صعد شجرة فجعلوا يضحكون من دقة ساقيه فقال رسول الله ﷺ : أتضحكون منهما ؟ لهما أثقل في الميزان من جبل أحد . [ابن سعد في الطبقات الكبرى ١٤٣/٣] .

(٣) كان هذا في غزوة بدر ، حيث أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتماس أبي جهل في القتلى فمر عبد الله بن مسعود بأبي جهل ، فوجده بآخر رمق ، فوضع رِجْله على عنقه ، وقال له : هل أخزاك الله يا عدو الله ؟ فقال له أبو جهل : لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعي الغنم . ثم احتز ابن مسعود رأسه . [السيرة النبوية لابن هشام ٢٧٦/٢ ، ٢٧٧] .

وقوله سبحانه ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١)﴾ [السجدة] أى : رجاء أنْ يعودوا إلى ساحة الإيمان . وقلنا : إن لعلَّ تفيد الرجاء المحقق إنْ كان الفعل من الله عز وجل ، أما الرجاء هنا فرجاء فى العبد الذى يملك الاختيار ؛ لذلك رجع منهم البعض ، ولم يرجع الآخرون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ (٢٢)﴾

هنا أيضاً يعرض علينا ربنا - تبارك وتعالى - هذه القضية فى صورة هذا السؤال التقريرى ، كأنه سبحانه يقول لنا : أنا رضيت ذمتكم يا عبادى ، فقولوا لى : هل يوجد أحد أظلم ممَّنْ ذُكِّر بآيات ربه ، ثم أعرض عنها . والمنطق الطبيعى أن نقول : لا أحدَ أظلم من هذا . وهذا إقرار منَّا بهذه الحقيقة ؛ لذلك عرضها الحق سبحانه فى صورة سؤال بدل الإخبار بها .

ومعنى ﴿ذُكِّرَ .. (٢٠)﴾ [السجدة] أى : أن رسالات الله إلى خَلْقه ما هى إلا تذكير بعهد الإيمان القديم الذى أخذه الله على عباده حين قال سبحانه : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢)﴾ [الأعراف] وسبق أنْ قُلْنا . إن فى كل منَّا ذرةً شهدتْ هذا العهد ، وعلى كل منا أنْ يحفظ إشراقات هذه الذرة فى نفسه بأنْ يُغذِّيها بالحلال ، ويُعوِّدها الطاعة لتبقى فيه إشراقات الإيمان .

كما قال تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠)﴾ [الشمس]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ ﴾

والإيتاء يختلف ، فهناك مَنْ يُؤتَى بمنهج أو بمعجزة أو بهما معاً ، وهناك إيتاء لكتاب موقوت ، لزمن موقوت ، لقوم موقوتين ، وإيتاء آخر لكل الأزمان ولكل الأمكنة .

و ﴿ ٱلْكِتَابَ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [السجدة] أي : التوراة ﴿ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [السجدة] أي : في شك ﴿ مِّن لِّقَائِهِ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [السجدة] لقاء موسى عليه السلام أم لقاء الكتاب ؟ إنْ كان لقاء موسى فهو تبشير بأن الله سيجمع بين سيدنا رسول الله وهو حَيٌّ بقانون الأحياء وموسى عليه السلام الميت بقانون الأموات ، وهذا لا يتأتَّى إلا إذا كان حديث الإسراء والمعراج في أنهما التقيا فيه صادقاً[1] .

لذلك في القرآن آية ينبغي أن نقف عندها ، وأن نتأملها بيقظة ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَـٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الزخرف]

هذا تكليف من الله تعالى لمحمد ﷺ أنْ يسأل الرسل ، فمتى يسألهم ؟ فهذه الآية تنبيء بأنهم لا بُدَّ أنْ يلتقوا . فهذه الآية في لقاء موسى والأخرى في لقاء كل الرسل[2] . إذن : علينا أن نصدق بحديث

---

(١) عن ابن عباس قال ، قال رسول الله ﷺ : « أريت ليلة أُسْرِي بي موسى بن عمران رجلاً آدم طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى رجلاً مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس » رواه قتادة عن أبي العالية الرياحي . وقال : يعني به ليلة الإسراء أورده ابن كثير في تفسيره (٣/٤٦٣)

(٢) هو قول لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير الآية (الزخرف : ٤٥) أي : واسألهم ليلة الإسراء ، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جمعوا له . [تفسير ابن كثير ١٢٩/٤] .

الإسراء والمعراج ، وأن رسول الله ﷺ اجتمع بإخوانه من الأنبياء وصلى بهم ودار بينهم حوار .

أما إذا كان المعنى ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ..(٢٣)﴾ [السجدة] أي : لقاء الكتاب ، فالتوراة كما قلنا أصابها التحريف والتبديل ، وزِيدَ عليها وكُذِب فيها ، لكن سيأتيك يا محمد من أهل التوراة أمثال عبد الله بن سلام مَنْ يعرفون التوراة بلا تحريف ويُسِرُّون إليك بها ، هؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣)﴾ [آل عمران]

ألم يواجه عبد الله بن سلام[1] قومه من اليهود ، فيقول لهم : كيف تُكذِّبون بمحمد ، وقد كنتم تستفتحون به على الذين كفروا ، فتقولون لهم : لقد أظلَّ زمان نبي يأتي فنتبعه ، ونقتلكم به قتل عاد وإرم[2] ، لقد تجمعتم من شتى البلاد التي اضطهدتكم ، وجئتم إلى يثرب تنتظرون مَقْدم هذا النبي ، فما بالكم تكذبونه ؟

وقال القرآن عنهم : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. (٨٩)﴾ [البقرة]

---

(١) هو : عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي أبو يوسف ، أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة ، وكان اسمه « الحصين » شهد مع عمر فتح بيت المقدس والجابية ، ولما كانت الفتنة بين علي ومعاوية اتخذ سيفاً من خشب واعتزلها ، وأقام بالمدينة إلى أن مات عام ٤٣ هـ [الأعلام للزركلي ٤/٩٠] .

(٢) عن أشياخ من الأنصار قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً في الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيبعث الآن نتبعه ، قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . ذكره ابن كثير في تفسيره (١/١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق

ومن لقاء الكتاب الذي وعد به النبي ﷺ ما رُوي عن عبد الله بن سلام أنه لما أراد أنْ يؤمن أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بُهْتٌ - يعني : يتبجحون بالكذب - فإذا أسلمتُ قالوا فيَّ ما ليس فيَّ . فاسألهم عني يا رسول الله قبل أنْ أعلن إسلامي ، فلما اجتمع اليهود سألهم رسول الله : ما تقولون في ابن سلام ؟ فقالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وابن حبرنا ... فقال عبد الله : أما وقد قالوا ما قالوا يا رسول الله فأشهد أنْ لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، فقالوا : شرُّنا وابن شرِّنا .

فقال عبد الله : ألم أقُلْ لك يا رسول الله أنهم قوم بُهْت[1] ؟

وقوله تعالى : ﴿ وجعلْناهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرائِيلَ (٢٣) ﴾ [السجدة] أي : جعلنا الكتاب هدى ، وهذا دليل على أن منهم مهتدين بدليل شهادة القرآن لهم : ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) ﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى في الآية بعدها :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) ﴾

أئمة : ليس المقصود بالإمامة هنا السلطة الزمنية من باطنهم، إنما إمامة القدوة بأمر الله ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا

(١) بعدما أسلم عبد الله بن سلام قال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بهت ، فاسألهم عني قبل أن يعلموا بإسلامي ، فجاءت اليهود ، فقال النبي ﷺ : أي رجل عبد الله بن سلام فيكم ؟ قالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وأفضلنا وابن أفضلنا . فقال النبي ﷺ : أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : أعاذه الله من ذلك . فأعاد عليهم ، فقالوا مثل ذلك فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . قالوا : شرنا وابن شرنا ، وتنقصوه . قال : هذا ما كنت أخاف يا رسول الله . أخرجه البخاري في صحيحه (٣٩٣٨) ، وأحمد في مسنده (١٠٨/٣ ، ٢٧١ ، ٢٧٢) .

.. (٢٤)﴾ [السجدة] ، فهم لا يصدرون فى شىء إلا على هدى من الله .

وفى سورة الأنبياء قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣)﴾ [الأنبياء]

الإيقان : هو الإيمان الذى لا يتزعزع ، ولا يطفو إلى العقل ليبحث من جديد ، يعنى : أصبحت مسألة مُسلَّماً بها ، مستقرة فى النفس .

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥)﴾

تلحظ على أسلوب الآية أنها لم تقل مثلاً : إن ربك يفصل بينهم ، إنما استخدمت الضمير المنفصل (هو) ليفيد التأكيد والاختصاص ، فالمعنى لا أحدَ يفصل بينهم فى القيامة إلا الله ، كما قال سبحانه : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

إذن : جاءت (هو) لتقطع الشك فى وجود الغير .

ولك أنْ تتأمل هذا الضمير فى هذه الآيات ، ومتى استعمله الأسلوب ، يقول تعالى فى قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام :

﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي .. (٧٧)﴾ [الشعراء] أى : الأصنام ﴿إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١)﴾ [الشعراء]

فاستخدم الضمير الدالّ على الاختصاص فى الهداية والإطعام والسُّقْيا والشفاء ، وهذه الأفعال مظنة أنْ يدعيها أحد لنفسه ، أما الإحياء والإماتة فهى لله وحده لا يمكن أنْ يدّعيها أحد ، لذلك جاءت بدون هذا التوكيد ، فهى مسألة مُسلَّم بها لله تعالى .

والشك يأتى فى مسألة الفصل يوم القيامة ؛ لأن الله تعالى جعل من الملائكة المدبرات أمراً لتدبير أمر الخلق ، وقال سبحانه ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ[1] مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١)﴾ [الرعد] أى : تبعاً لأمر الله فيه ، فقد يفهم البعض أن للملائكة دوراً فى الفصل بين الناس يوم القيامة ، كما أن لهم مهمة فى الدنيا .

وتأمل هنا أن الله تعالى ذكر لفظ الربوبية فقال ﴿إِنَّ رَبَّكَ .. (٢٥)﴾ [السجدة] ولم يقُلْ : إن الله ، والربوبية كما قُلْنا عطاء وتربية ، وكأنه سبحانه يقول : اطمئنوا فالذى سيتولَّى مسألة الفصل هو ربكم .

وقوله سبحانه : ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥)﴾ [السجدة] لأن الفصل لا يكون إلا عن نزاع ، والنزاع لا بُدَّ أن يكون عن قضية تريد مراجعةً من حكم حاكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦)﴾

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ تكلم عن الرسالة التى أرسل بها رسوله ﷺ ليؤكد فى الناس عقيدة أعلى ، وهى عقيدة الوجود للإله الواحد الذى لا شريك له ، ثم بيَّن أن لنا مع الله لقاء آخر حين تنتهى هذه

(١) له معقبات : أى ملائكة حفظة يتتبعونه يحفظونه ويحصون أعماله . أو المعنى : تتعاقب الملائكة ليلاً ونهاراً [القاموس القويم ٢/٢٩] .

الدنيا الفانية ، ثم نستقبل حياة خالدة ، إما إلى جنة إنْ شاء الله ، وإما إلى نار ونعوذ بالله .

والحق سبحانه حين يعرض آياته فى الكون يعرضها لتثبت أنه هو الذى خلق هذه الآيات العجيبة ، فلم يتركنا سبحانه ننظر ونتصرف ، إنما لفتنا ونبَّهنا إلى وجوب النظر إلى آياته فى الكون ، وحين يأتى مَنْ يريد أنْ يُنبه عقلك فاعلم أنه لا يريد أنْ يخدعك ، أو أن يأخذك على غِرَّة ، فربك يقول لك : استقبل كلامى هذا بمنتهى التدبُّر والتذكُّر والتعقُّل .

ولو لم يكُنْ واثقاً من أنه سيحصل بالتدبُّر والتعقُّل والتذكر إلى الغاية التى يريدها لما نبَّه عقلك لآياته ، كما ترى عارض السلعة الجيدة الواثق من جودتها يعرضها عليك ، ويكشفها لك ، ويدعوك إلى فحصها وتأمُّل ما فيها ، فهو لا يفعل ذلك إلا لثقته فى بضاعته وأنها ستنال رضاك .

أما صاحب السلعة المغشوشة فيخدعك ويسلك معك أساليب اللفّ والدوران والتغرير ، فحين تذهب مثلاً لشراء حذاء وجاء ضيقاً يقول لك : سيتسع بعدما تمشى فيه ، فإنْ جاء واسعاً يقول لك : أحضر لك واحداً أوسع ؟ ليوهمك أنه ضيِّق ، وأساليب هؤلاء مكشوفة لا تخفى على أحد . فالذى يريد أنْ يغشّ أو يخدع يلف القضايا ليسترها عن عقلك المتدبر المتذكر المتمعن .

أما الحق سبحانه ، فكثيراً ما قال فى قرآنه : أفلا يسمعون ، أفلا يعقلون ، أفلا يتدبرون القرآن ؛ لذلك من مصلحة الدعوة أنْ يتعقلها الناس ، وأن يتدبروها ، فى حين أن بعض أصحاب الديانات الأخرى يقول لك حين تناقشه : أبعدْ العقل عن هذه المسألة ، لماذا ؟ لأنه

واثق أنها لو بُحِثَتْ بالعقل لردها العقل ولم يقبلها ـ والحق سبحانه يريد ألاَّ يترك عذراً لأحد في البلاغ ، فالدعوة قد بلغتْ الجميع بلاغاً سليماً واضحاً ، تلك آيات الله في الكون .

ثم يأتي الحق سبحانه بآيات معجزة ليثبت صِدْق الرسول ، فيجعلها تخالف نواميس الكون فيما نبغ فيه القومُ ليقطع عليهم الحجة ، ثم يأتي بآيات الأحكام التي تحمل المنهج بافعل ولا تفعل ، ويُبيِّن أنَّ صلاح حركة الحياة في تطبيق هذا المنهج ويترك المخالفات أنْ تُظهر بعض العيوب ، فإذا ما نظرتَ إلى عيب أو عورة في المجتمع عرفتَ أنها نتيجة طبيعية لمخالفة منهج الله ، فكأن المخالفة ذاتها من مُؤكِّدات الحكم .

ثم يُبيِّن سبحانه أنه أرسل رسلاً كثيرين من لَدُنْ آدم عليه السلام ؛ لأن الإنسان الذي هو خليفته في الكون تصيبه غفلة حين ينخرط في أسباب الدنيا ، وتأخذ عليه كل فكره وكل همه ، فينسى ما طلب الله منه ، فمن عادة الإنسان ألاَّ يتذكر إلاَّ ما ينفعه النفع العاجل .

لذلك تجد كثيراً من الناس ينسى ما للناس عنده ، ويتذكر ما له عندهم .

فالحق سبحانه يقول : أنا لم يَعُدْ لخَلْقي عندي حجة ، فقد نثرتُ لهم آيات الكون المُلْفتة ، وهي آياتٍ واضحات لم يدَّعها أحد لنفسه ، ومع كثرة الملحدين والكافرين لم نَرَ أبداً مَنِ ادَّعى خَلْق الشمس أو القمر ، ولم يقُلْ أحد : إنني أُسيِّر الريح ، أو أُنبت الزرع ، أو أُنزِل الماء من السحاب .

والحق سبحانه يُنبهنا أيضاً : لا تَنْسَ أيها الإنسان أنك خليفة لله في الأرض ، وإياك أنْ تظن أنك أصيل فيها ، فساعةَ تظن أنك أصيل

فى الدنيا يتخلى الله عنك ، ويتركك لنفسك فتهلك ، كما حدث لقارون حين وسَّع الله عليه فى الدنيا ، فاغترَّ بما فى يده ، وظن أنه من سعيه وعلمه وجهده .

فكانت النتيجة ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ .. (٨١) ﴾ [القصص] لينبه الناس جميعاً أن المال ليس مال صاحبه ، إنما هو مُسْتخلف فيه ، ولو كان ماله لحافظ عليه ، فالحق يردُّ الناس بالأحداث إلى طبيعة الفطرة الخلافية ، لأن فساد الكون يأتى من اعتبار الإنسان نفسه أصيلاً فى الكون .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الإنسان إذا نظر فى الكون نظرة فاحصة عادلة لَعلم ما يأتى : أن كل شىء لم تتدخل فيه يَدُ الإنسان سليم ، ويؤدى مهمته على أكمل وجه ، وأن كل فساد فى الكون إنما هو من تدخُّل الإنسان فيه بغير قانون ربه ، ولو تدخَّل فيه بقانون ربه لَصلُحت له الأشياء التى تدخَّل فيها ، كما صَلُحَتْ له الأشياء التى لم يتدخل فيها .

وقلنا : إنك إذا رأيتَ عواراً فى الكون فاعلم أنه نتيجة حقٍّ مُضيَّع من حقوق الله ، فحين ترى فقيراً يتضوَّر جوعاً أو عرياناً لا يملك ما يستر عورته ، فاعلم أن الأغنياء قصَّروا فى أداء حق الله فى الزكاة ؛ لأن الله تعالى شرعها بحساب ، فلو أن القادر أخرج الزكاة المفروضة فى ماله لما بقى فى المجتمع المحيط به محتاج .

ثم يريد منا الحق سبحانه أن نحافظ فى نفوسنا على إيمان الفطرة ، وعلى الذرة الإيمانية الأولى التى لم تدخلها الشهوة ، ولم يخالطها النسيان ، هذه الذرة التى شهدت العهد الأول الذى قال الله فيه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

أى قبل أنْ تأخذكم شهوات الدنيا ونسيانها فتُنكروا هذه الشهادة ، وتقولون : ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

فالذى يحافظ على هذه الذرة ، وعلى هذه اللمسة الربانية التى وضعها الله فيه بيده ، وعلى العهد الذى أخذه الله عليه يبقى له نور هذه الفطرة ، وتظل هذه النورانية متأججة فى نفسه ، فإن أهملها طمستْها الذنوب والغفلة .

لذلك فالنبى ﷺ يضرب لنا المثل فيقول : « تُعْرض الأمانة ـ أى : التكاليف الاختيارية من الله ـ على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأيُّما قلب أُشْربها نُكتَتْ فيه نكتة بيضاء ، وأيُّما قلب أنكرها نُكتت فيه نكتة سوداء حتى تكون على قلبين : أبيض مثل الصَّفا ، لا تضره فتنة ما دامتْ السموات والأرض ، والآخر أسود مُربَاداً كالكوز مُجَخِّياً[1] ممقوتاً ، لا يعرف معروفاً ، ولا ينكر منكراً »[2] .

فالطاعات أو الذنوب تتراكم على القلب كما تُصَفُّ عيدان الحصير عوداً بجوار عود ، فيبيضّ القلب بالطاعات ، أو يسودّ بالمعاصى .

---

(١) مرباداً : أسود عليه غبرة . والتربد : التلوّن [اللسان ـ مادة : ربد] والكوز المجخّى أى : المائل الذى يصب ما فيه . وهو هنا المائل عن الاستقامة . فشبه القلب الذى لا يعى خيراً بالكوز المائل الذى لا يثبت فيه شىء ، لأن الكوز إذا مال انصبُّ ما فيه [لسان العرب ـ مادة : ج خ ى]

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٨٦/٥ ، ٤٠٥) ومسلم فى صحيحه (١٤٤) كتاب الإيمان من حديث حذيفة بن اليمان . ولفظه : « تُعرض الأمانة » .

والإنسان منه مادة ومنه روح ، الروح في المادة تعطيها الحياة والحركة والفهم والفكر والتصرف ، وهما قبل أن يلتقيا كانا مُسبِّحَيْنِ لله تعالى ، فكل شيء في الوجود مُسبِّح ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ.. (٤١)﴾ [النور]

وعلى الإنسان أنْ يفهم هذه الحقيقة ، وأن يحافظ على الطبيعة الإيمانية في ذراته ومكوناته لتظل مشرقة نيِّرة بنور الإيمان ، فإنْ غفل عن هذه الطبيعة حدثتْ الأغيار ، وحدث عدم الانسجام بين ذراته في الذات البشرية ، فحين تحمل إرادتُك الجسمَ والروحَ على المعصية يكرهك جسمك ، وتكرهك روحك ؛ لأنك خالفتَ منهج خالقها - عز وجل - فهي مُسبِّحة عابدة وأنت لاهٍ غافل عاصٍ ؛ لذلك تلعنك روحك وتلعنك أبعاضك .

ومن رحمة الله بالعاصي أن ينام فترتاح أبعاضه ، وترتاح روحه من معاصيه ، وتأخذ راحتها في عبادة ربها ، حيث لا منازع لها ، ولا معاند من إرادة صاحبها ، لذلك يشعر الإنسان بالراحة عند النوم ، ويقوم منه نشيطاً لما حدث من انسجام وتعادل بين ذرات ذاته أثناء النوم .

لذلك ورد أن سيدنا رسول الله ﷺ كانت تنام عينه ولا ينام قلبه[1] ؛ لأن أبعاضه منسجمة دائماً في نومه وفي يقظته ، فإذا رأيتَ

(١) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه سأل عائشة : كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ في رمضان ؟ قالت : ما كان يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة . يصلي أربع ركعات فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي ثلاثاً ، فقلت : يا رسول الله ، تنام قبل أن توتر ؟ قال : « تنام عيني ولا ينام قلبي » . أخرجه البخاري في صحيحه (٣٥٦٩) وكذا مسلم في صحيحه (٧٣٨) كتاب صلاة المسافرين

إنساناً يغلب عليه أنه مُنْهك القوى فاعرف أنه قد أتعب ذراته ، وأنها تودُّ الخلاص منه بالنوم ، وكأنها تقول له نَمْ فلم تَعُدْ صالحاً للتعايش معى .

إذن : الحق سبحانه يُنبِّهنا دائماً من هذه الغفلة بواسطة الرسل ، ثم يترك سبحانه للرسالات التى سبقتْ أدلة تؤيد الرسل الموجودين ، وتعينهم على أداء مهمتهم ؛ لذلك يقول لنا : انظروا إلى الرسل الذين سبقوا ، وكيف كانت عاقبة المكذِّبين بهم .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ .. (٢٦) ﴾ [السجدة]

كما قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا[1] الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ[2] (١٠) ﴾ [الفجر]

فهذه الأهرامات التى يَفِد إليها الناس ، والتى تُعَدُّ مزاراً سياحياً هى آية من آيات الله تقوم دليلاً على هلاك أصحابها من المكذِّبين للرسل ، فالحق سبحانه لم يترك لأحد من خَلْقه عذراً بعد أنْ كشف له الآيات الكونية تشهد بوحدانيته تعالى وألوهيته ، والمعجزات التى

---

(١) جابوا الصخر : أى قطعوه ونحتوه وصنعوا منه بيوتهم وأصنامهم . [القاموس القويم ١٣٥/١] .

(٢) نقل ابن كثير فى تفسيره (٥٠٨/٤) أقوال السلف فى تأويل الأوتاد :
« - الأوتاد : الجنود الذين يشدون له أمره . قاله ابن عباس
- كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم فى أوتاد من حديد يعلقهم بها . قاله مجاهد وسعيد ابن جبير .
كان له ملاعب يُلعب له تحتها من أوتاد وحبال . قاله قتادة » .
وقال الأستاذ إبراهيم عبد الفتاح فى كتابه « القاموس القويم ٣١٨/٢ » : « لعل المراد بها الأهرام التى بناها فرعون تشبه الجبال » .

تثبت صدق الرسول فى البلاغ عن ربه ، ثم آيات الأحكام التى تحمل أقضية الحياة ، والتى لا يمكن لبشر أنْ يستدرك عليها ، والتى تحمل الحلَّ الشافى والدواء الناجع لكل داءات المجتمع .

وبعد ذلك تركت لهم تكذيب المكذِّبين أمام أعينهم ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات]

فها هى آثار عاد وثمود وغيرهم ما تزال شاهدةً عليهم ، بعضها فوق الأرض ، ومعظمها مطمور تحت طبقات الثَّرى ؛ لذلك نجد أن كل الآثار القديمة يجدونها فى الحفريات تحت الأرض ، ولم لا وقد كانت العاصفة تهبُّ الهبَّة الواحدة ، فتبتلع القافلة بأكملها ، فما بالك بهبَّات الرياح من أيام عاد حتى الآن . إذن : خذوا عبرة من مصير هؤلاء .

ومعنى ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ .. (٢٦) ﴾ [السجدة] يهدى : أى : يدلُّ ويرشد ويُبيِّن ويُوضِّح ، والهداية لها عناصر ثلاثة : هادٍ ومهديٌّ والشيء المهْدَى إليه ، ومادة : (هدى) تُستعمل فى كتابِ الله ثلاثة استعمالات :

الأول : أنْ يُذكر الهادى ، وهو الله عز وجل ، **والثانى** : أن يُذكر المهديّ وهم الخَلْق ، **والثالث** : وهو أن يُذكر المهدى إليه ، وهى الغاية التى يريدها الله .

وهذا الفعل يأتى مرة متعدِّياً بنفسه ، كما فى سورة الفاتحة : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) ﴾ [الفاتحة] أى : يا الله ، فالله هو الهادى ، ونحن المهديون ، والغاية هى الصراط المستقيم .

ومرة يُعدَّى الفعل باللام ، كما فى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا

.. ﴿٤٣﴾ [الأعراف] فلم يقلْ : هدانا هذا ، ومرة يتعدى بإلى كما في : ﴿ .. وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [البقرة]

فتلحظ أن الهادي واحد وهو الله تعالى ، والمهديّ هو الخلْق ، لكن المهْدَى إليه هو المختلف ، أما في هذه الآية فالأمر مختلف ، حيث يقول سبحانه : ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [السجدة] فلم تدخل اللام على المهْدى إليه ، إنما دخلتْ على المهدى ، فلم يقلْ الحق سبحانه : أولم يَهْد الله هؤلاء القوم لكذا .

فلماذا ؟

قالوا : لأن بعض الناس يظنون أن الله حين يهدى إلى الطريق يُحمِّلك مشقات التكاليف ؛ لذلك نرى بعض الناس ينفرون من التكاليف ويروْنَ فيها عبئاً عليهم ، ومن هنا عبد بعضهم الأصنام ، وعبد بعضهم الشمس أو القمر .. الخ ؛ لأنها آلهة بدون منهج وبدون تكاليف ، ليس لها أوامر ، وليس عندها نَواه ، وما أيسر أنْ يعبد الإنسان مثل هذه الآلهة التي لا مطلوبات لها .

والذي يرى في التكاليف مشقة ، ويراها عبئاً عليه يراها كذلك ؛ لأنها تصادم مراد نفسه في الشهوات وتحدُّ من رغباته ، ومرادات النفس ربما أعطتْك لذة عاجلة ، لكن يعقبها حسرة وشر آجل .

ومثَّلْنا لذلك بالتلميذ الذي يتحمل مشقة المذاكرة والدرس طمعاً في التفوق الذي ينتظر حلاوته ، وآخر يفضل اللذة السريعة العاجلة فيلعب ولا يهتم ، فيلاقي مذلَّة الفشل والاحتقار آخر العام .

إذن : عليك أنْ تقرن بين مشقة العمل والنتيجة والثمرة التي تنالها من ورائه ، وعندها تهون عليك مشقة التكاليف ؛ لأن ما ينتظرك من

الأجر عليها أعظم مما قدَّمتَ وأبقى .

فالحق سبحانه يريد منا أنْ نُقبل على التكاليف ، ونعرف أنها لمصلحتنا نحن ، وأنها في الحقيقة تشريف لنا لا تكليف ؛ لأن الذي كلفني لا يحتاج مني إلى هذا ، ولا ينتفع من عبادتي بشيء ، بل هو سبحانه يتحنن إليَّ ؛ لأكون أهلاً لإنعامه وجديراً بفضله وكرمه .

ألم يقُلْ سبحانه : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .. ۝ ﴾ [إبراهيم] فالمسألة إذن منك وإليك ، فالله سبحانه له صفات الكمال قبل أنْ يخلق عباده .

فاللام في ﴿ أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ .. ۝ ﴾ [السجدة] أي : لصالحهم ومن أجلهم ، وليس عليهم ، فالهدى لصالح المهدي لا الهادي ، ولو فهم الإنسان هذه الحقيقة وعرف أن الهداية راجعة إليه لَقبَّل يد مَنْ بلَّغه عن الله هذا الفضل .

ويؤكد هذا المعنى - لمن فطن - قوله تعالى عن المؤمنين : ﴿ أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ .. ۝ ﴾ [لقمان] فالهدى ليس حِمْلاً يحملونه ، إنما مطية يركبونها إلى الغاية النبيلة التي أرادها الله لهم .

فما الذي بيَّنه الله للمؤمنين ودلَّهم عليه ؟

يقول سبحانه : ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ .. ۝ ﴾ [السجدة] أي : انظروا إلى المخالفين للرسل من قبلكم ، وكيف أخذهم الله فلم يُمكِّنهم من رسله ، بل انتصر الرسل عليهم .

وكم هنا تفيد الاستفهام عن العدد ، وهي بمعنى كثير ، كما تقول لمن ينكر جميلك : كم أحسنتُ إليك أي : مرات كثيرة لا تُعَدُّ ،

والمراد أننا بيَّنا لكم كثيراً من الأمم التي عادتْ رسلها ، وكيف كانت عاقبتهم وغايتهم التي انتهوا إليها :

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم[1] مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

ومن مصلحتنا أن يُبيِّن الله لنا عاقبة المكذبين ؛ لأنه ينبهنا إلى الخطر قبل أنْ نقع فيه . وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة في كلامنا عن قوله تعالى - من سورة الرحمن : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن] فاعتبر الشواظ والنار من النِّعم التي ينبغي ألاَّ نُكذِّب بها ، لماذا ؟ لأنه نبَّهنا إليها حتى لا نقع فيها .

وقوله تعالى : ﴿ مِّنَ الْقُرُونِ .. (٢٦) ﴾ [السجدة] القرن حدده العلماء بمائة عام ، لكن هذه المائة تتداخل ، ويقترن فيها عدة أجيال يجتمعون على مذهب أو مبدأ واحد ، فالقرن يقرن بين الجد والابن والحفيد ، هذا إنْ أردتَ الزمن وحده ، فإنْ قُرِن الزمن بعصر دين من الأديان أو نبي أو ملك ، فقد يطول القرن إلى الألف عام ، كما في قرن نوح عليه السلام .

فالقرن مرتبط بما قُرِن به ؛ لذلك نقول : العصر الجاهلي ، عصر صدر الإسلام ، عصر بني أمية ، العصر العباسي ، عصر المماليك ،

---

(١) قال قتادة : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت] هم قوم لوط . ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ قال : قوم صالح وقوم شعيب . ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ ﴾ قال قارون ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ قال : قوم نوح وفرعون وقومه . [الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٤٦٣/٦] .

وما نزال حتى الآن نقول عن عصرنا : العصر الحديث .

والحق سبحانه يبين لنا في الحياة التي نعيشها أن الزمن متغير ، إلى أعلى في الماديات ، وإلى أدنى في المعنويات ، فكلما تقدَّم الزمن انحلَّ الناس من ربْقة الدين وتفلَّتوا منه ؛ ذلك لأن الارتقاءات المادية ينتج عنها حضارات تستهوى النفوس وتغريها ، والنتيجة انحدار في القيم وفي الدين ، ولو أن الارتقاء كان متساوياً لسار الأمران في خطين متوازيين .

لذلك يقول تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا .. (٢٤)﴾ [يونس]

ثم إنك لو نظرتَ إلى جزئيات الحضارة في الكون تجد أن الأمم صاحبة الحضارات لم تستطع أنْ تجعل لنفسها وقاية من اندحار حضارتهم ، ولم يستطيعوا صيانتها . حتى العصور التقدمية : كنا في العصر الحجرى ، ثم عصر البخار ، ونحن الآن في عصر الفضاء .

إذن : نحن مرتقون فقط في الماديات ، لكن منحدرون في المعنويات ، لكن هل هذا الارتقاء المادى جاء عن امتلاك لمعالم هدى الله في الأرض ؟ لا ، لأن الله تعالى بيَّن لنا : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر]

فأنا الذى أنزلتُ ، وأنا الذى ضمنتُ حفظه ، فلم أتركه لكم تحفظوه ، إذن : المسألة عن عجز منا ، وإلا فكتاب البداية موجود حجة علينا .

وقوله تعالى : ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ .. (٢٦)﴾ [السجدة] أى : أننى لا ألقى القضايا بدون حجة أو دليل ، بل هى شاخصة أمامكم تمرون

بها ، وتروْنَها ليل نهار ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات]

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) ﴾ [السجدة] فالله يحضُّهم على أنْ يستمعوا إلى سِيَر المكذِّبين المعاندين ، وما حاق بهم من انتقام الله منهم .

وبالله : الإنسان مهما قَصُر عمره ، ألم يَرَ ظالماً ، وألم يَرَ مصرع هذا الظالم وعاقبة ظلمه ، فإنْ لم يَرَ ظالماً ألم يُحدَّث عنه ؟ إذن : مما يصلح حال الناس أنْ يستمعوا إلى حكايات عن الظالمين وعن نهايتهم ، وما ينزل بهم من الانتقام الذى لا ينتظر الآخرة ، بل يُعجل لهم فى الدنيا .

وفى ذلك حكمة لله بالغة ؛ لأن الظالم ربما لا يرعوى ولا يرجع فى الدنيا عن ظلمه ، فيظل يُعربد فى الخَلْق ما أحياه الله ، لكن إنْ مسَّه شىء من العذاب ، فلربما عاد إلى رُشْده ، وإن لم يَعُدْ كان عبرة لغيره .

لذلك قال أهل المعرفة : لن يموت ظلوم حتى ينتقم الله منه ، وربما مَنْ رآه ظالماً يراه مظلوماً ، ومَنْ أراد أن يرى نهاية ظالم فلينظر إلى مصارع الظالمين قبله .

وتأمل قول ربك : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا .. (١٢٩) ﴾ [الأنعام] فكأن الظالم له رسالة ، هى أن ينتقم من ظالم مثله ، وهكذا يُهلك الله هؤلاء بعضهم ببعض ؛ لأن الخيِّر طيِّب القلب لا يؤدب ظالماً ، فإن اعتديتَ عليه غلب عليه طابع التسامح والعفو .

ألم يَقُلْ سيدنا رسول الله ﷺ لكفار مكة : « اذهبوا فأنتم

الطلقاء »[1] فكأن الله عز وجل يقول للخيِّر : اجلس أنت واسترح ، واترك الأشرار لي ، فسوف أرسل عليهم من هو أشرّ منهم ليؤدبهم .

واختار الحق هنا حاسة السمع ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) ﴾ [السجدة] لأنها وسيلة الإدراك المناسبة للموقف ، فيها نسمع ما يُحكَى عن الظالمين وبها نعتبر ، وفي موضع آخر سيقول ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) ﴾ [السجدة] ويقول : ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨) ﴾ [يس] فينوِّع لنا ، ويُقلِّب كل وسائل الإدراك لينبهنا من خلالها .

والمعنى ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) ﴾ [السجدة] ما يُرْوَى لهم عن مصارع الظالمين ، لقد نبهناهم وذكَّرناهم ، ومع ذلك أشركوا وجعلوا سمعهم (ودن من طين ، وودن من عجين) .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ[2] فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) ﴾

أولاً لك أن تلحظ هنا توافق النسق القرآني بين صدر الآيات وعَجُزها ، ففي الآية السابقة قال سبحانه ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ .. (٢٦) ﴾ [السجدة] أي : يدلّ ويرشد ، والكلام فيها عن قصص تاريخي ، فناسبها ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) ﴾ [السجدة] أما هنا فالكلام عن مشاهد

---

(١) قال ابن إسحاق : حدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة فقال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . إلى أن قال : ما ترون أني فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » [راجع السيرة النبوية لابن هشام ٤/٤١٢] .

(٢) أرض جُرز : لا نبات بها كأنه انقطع عنها ، أو انقطع عنها المطر . [لسان العرب - مادة : جرز] فهي الأرض الجدباء التي لا نبات فيها أو التي أكل نباتها أو هلك لأي سبب . [القاموس القويم ١/ ١٢٠] .

مرئية ، فناسبها ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧)﴾ [السجدة] فهذا ينبغى أنْ يُسمع ، وهذا ينبغى أنْ يُرى .

وفى الآية السابقة قال سبحانه ﴿أَهْلَكْنَا.. (٢٦)﴾ [السجدة] لنعتبر بإهلاك المكذبين فى الماضى ، أما هنا فيلفتنا إلى آية من آياته فى الكون ، فيأتى الفعل ﴿نَسُوقُ الْمَاءَ.. (٢٧)﴾ [السجدة] بصيغة المضارع الدالّ على التجدّد والاستمرار ، ففى كل الأوقات يسوق الله السحب ، فينزل منها المطر على الأرض (الجرز) أى : المجدبة ، فتصبح مُخضرة بأنواع الزروع والثمار ، وهذه آية مستمرة نراها جميعاً ، ولا تزال فى الحال وفى الاستقبال ، ولأن هذه الآية واقعة الآن تحتاج منا المشاهدة والتأمل قال فى ختامها ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧)﴾ [السجدة]

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨)﴾ [الكهف] فالجُرُز هى الأرض المقطوع منها النبات ، إما لأن الماء شحّ عليه فجفّ ، وإما أنه استُحصد فحصدوه .

ومعنى ﴿نَسُوقُ الْمَاءَ .. (٢٧)﴾ [السجدة] السَّوْق : حَثٌّ بسرعة ؛ لذلك تقول للذى يتعجلك (ما لك سايقنا كده) ، ومعلوم أن السَّوْق يكون من الوراء ، على خلاف القيادة ، فهى من الأمام ، فالذى تسوقه تسوقه وهو أمامك ، تراه فلا يتفلت منك ، ولو كان خلفك فهو عُرْضة لأنْ يهرب منك ، فلا تشعر به .

والسَّوْق مرة يكون للسحاب ، كما فى قول الله تعالى : ﴿وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ .. (٩)﴾ [فاطر]

ومرة يكون السَّوْق للماء نفسه كما فى هذه الآية ، وسَوْق الماء له عدة مظاهر : فالله يسوق الماء من السحاب إلى الأرض ، فإذا نزل

إلى الأرض ساقه فى الأنهار ، أو سلكه ينابيع فى الأرض ليحتفظ لنا به لحين الحاجة إليه .

فربُّنا ـ عز وجل ـ جعل لنا خزانات للماء تحت الأرض ، لا لنحرم منه حين يوجد ، لكن لنجده حين يُفقد ، وكون الماء ينابيع فى الأرض يجعلنا نتغلب على مشاكل كثيرة ، فالأرض تحفظه لنا ، فلا يتبخر ولا نحتاج إلى بناء السدود وغيرها ، مما يحفظ لنا الماء العَذْب .

لذلك يقول النبى ﷺ : « مَثَلُ ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها نقياً ـ أرض خصبة ـ قبلتْ الماء ، فأنبتت الكلأ والعُشْب ، وكان منها أجادب أمسكت الماء ، فشرب الناس منه وسَقُوا أنعامهم وزروعهم ، وكان منها قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلا ، فذلك مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم »[1] .

فهذه أنواع ثلاثة من الأرض تمثل انتفاع الناس بالعلم ، فالأولى تمسك الماء ، وتُخرج الزرع ، والثانية تمسك الماء حتى ينتفع الناس به ، ولك أن تسأل : فما فائدة الثالثة : القيعان التى لا تُمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ؟ ولماذا خلقها الله إذن ؟

نقول : هذه القيعان هى التى تسلك الماء فى باطن الأرض ، وصدق الله : ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) ﴾ [الحجر] وقال سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ (٣٠) ﴾ [الملك]

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣٩٩/٤) وابنه عبد الله فى زوائده على المسند (٣٩٩/٤) ، والبخارى فى صحيحه (٧٩) كتاب العلم (٢٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٢٨٢) من حديث أبى موسى الأشعرى .

إذن : هذه القيعان لها مهمة يعرفها مَنْ فَطن لهذه المسألة ، وإلا فالله تعالى لم يخلق شيئاً عبثاً أبداً ، كذلك يكون انتفاع الناس بالعلم ، فمنهم مَنْ نرى أثر علمه خيراً عاجلاً ، ومنهم مَنْ يتأخر نَفْع علمه للأجيال القادمة .

ثم إياك أنْ تظن أنَّ الماء حين يسلكه اللهُ ينابيعَ في باطن الأرض يسيح فيها ، أو يحدث له استطراق سائلي يختلط فيه العذب بالمالح ، لا .. إنما يسير الماء العَذْب في شبه أنابيب ومسارب خاصة ، يجدونها حتى تحت مياه الخليج المالحة .

وهذه من عجائب الخَلْق الدالة على قدرة الخالق عز وجل ، وكما يوجد برزخ بين المائيْن على وجه الأرض ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠)﴾ [الرحمن] كذلك هناك برزخ للماءين تحت الأرض .

فالحق سبحانه يلفت أنظارنا إلى هذه الآية المشاهدة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ .. (٢٧)﴾ [السجدة] نعم ، هذه آية نشاهدها جميعاً ، لكن المراد هنا مشاهدة تمعُّن وتذكّر وعظة وتعقُّل ، نهتدي من خلالها إلى قدرة الخالق عز وجل .

وقوله سبحانه ﴿أَنَّا نَسُوقُ .. (٢٧)﴾ [السجدة] فيه دليل على قيُّوميته تعالى على الخلق ، فإنْ كان سَوْق الماء يتم بواسطة الملائكة المكلفين به ، إلا أنه تعالى صاحب الأمر الأول والمتتبع لعملية تنفيذه .

وقدَّم الحق سبحانه الأنعامَ على الإنسان في الأكل من الزرع ، مع أنها كلها مملوكة للإنسان ؛ لأن الأنعام في الغالب ما تأكل من

الزرع ، وهو ما يزال أخضر لم ينضج بَعْد ، ليأكل منه الإنسان ، وأيضاً هو سبحانه حين يطعم الأنعام فإنما يطعم مَنْ جعله له فاكهة طعام ، وهى الأنعام .

وأشرْنا إلى أن دقَّة البيان القرآنى اقتضتْ أنْ تختم هذه الآية المشاهدة بقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧) ﴾ [السجدة] لأن هذه مسألة تتعلق بالبصر .

ولك أنْ تقرأ فى مثل هذه الدقَّة قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص]

فقال فى الأولى ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) ﴾ [القصص] لأنها تتكلم عن آية الليل ، والسمع هو وسيلة الإدراك فيه ، وقال فى الأخرى ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص] لأنها تتكلم عن آية النهار ، والبصر هو وسيلة الإدراك فى النهار ، إذن : نلحظ دقَّة الأداء وإعجازه ؛ لأن المتكلم إله ورب ، فلا بُدَّ أنْ تجد كل لفظة فى مكانها المناسب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨) ﴾

(متى) يُستفهم بها عن الزمان ، والاستفهام بها يدل على أنك استبطأت الشيء فاستفهمتَ : متى يحدث ؟

الرسول ﷺ حين بُعث أخبر قومه أنه مُرْسَل إليهم بمنهج من الله ، وقد أيده الله بالمعجزات ، وأخبرهم بمصير مَن اتبعه ومصير مَنْ

خالفه ، وأن ربه ـ عز وجل ـ ما كان ليرسله إليهم ، ثم يُسْلمه أو يتخلى عنه ، فهو لا بُدَّ منتصر عليهم ، فهذه سنة الله في أنبيائه ورسله ، حيث قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

لذلك قلنا : إذا رأيت موقفاً لم ينتصر فيه المسلمون ، حتى في حياة الرسول ﷺ وحياة الصحابة ، فاعلم أن الجندية عندهم قد اختلتْ شروطها ، فلم يكونوا في حال الهزيمة جنوداً لله متجردين .

وحين نتأمل الأحداث في (أُحُد) نجد أن الله تعالى يقول للمسلمين : لا تظنوا أن وجود رسول الله بينكم يحميكم أو يُخرجكم عن هذه القضية ، فهذه سنة لله في كونه لا تتبدل .

ففي (أُحُد) خالف المسلمون أوامر رسول الله ، حين نزل الرماة وتركوا أماكنهم طمعاً في الغنائم ، فالتفَّ عليهم المشركون ، وكانت النتيجة لا نقول انهزموا ، إنما هم لم ينتصروا ؛ لأن المعركة (ماعت) والرسول موجود بينهم[1] .

والبعض يرى في هذه النتيجة التي انتهتْ إليها الحرب في أُحُد مأخذاً ، فيقول : كيف يُهزم جيش يقوده رسول الله ؟ وهذه المسألة تُحسَب للرسول لا عليه ، فالرسول لن يعيش بينهم دائماً ، ولا بُدَّ لهم أن يروْا بأعينهم عاقبة مخالفتهم لأمر رسول الله ، وأنْ يشعروا

---

(١) أمَّر رسول الله على الرماة عبد الله بن جبير أخا بني عمرو بن عوف ، والرماة يومئذ خمسون رجلاً ، فقال : « انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك » (السيرة لابن هشام ٣/١٠) وأورد البيهقي في دلائل النبوة (٣/٢٢٩) أن الرماة بعد انهزام المشركين تركوا مواضعهم للفوز بالغنائم ، فقال لهم ابن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ ؟ قالوا : لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة ، فمال الكافرون على المسلمين حتى لم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً » .

بقداسة هذه الأوامر ، ولو أنهم انتصروا مع المخالفة لفقدوا الثقة في أوامر رسول الله بعد ذلك ، ولِمَ لا وقد خالفوه في أُحُد وانتصروا !!

كذلك في يوم حنين الذي قال الله فيه : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ .. (٢٥) ﴾[التوبة]

وكان من إعجاب المؤمنين بكثرتهم أن يقول أبو بكر نفسه : لن نُغْلَب اليوم عن قلة ، لذلك لقَّنهم الله تعالى درساً ، وكادوا أنْ يُهزموا ، لولا أن الله تداركهم في النهاية برحمته ، وتحوَّلت كفَّة الحرب لصالحهم ، وكأن التأديب جاء على قدر المخالفة .

فالحق سبحانه يُعلِّمنا امتثال أمره ، وأنْ نخلص في الجندية لله سبحانه ، وأن ننضبط فيها لنصل إلى الغاية منها ، فإنْ خالفنا حُرِمْنا هذه الغاية ؛ لأنني لو أعطيتُك الغاية مع المخالفة لما أصبح لحكمي مكان احترام ولا توقير .

وهنا يحكي الحق - تبارك وتعالى - عن المشركين قولهم لرسول الله : ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ .. (٢٨) ﴾ [السجدة] أي : النصر الذي وعدكم الله به ، وقد كان هذا النصر غاية بعيدة المنال أمام المؤمنين ، فما زالوا قلَّة مُسْتضعفة .

لذلك لما نزل قول الله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] تعجب عمر حتى قال : أيُّ جمع هذا ، ونحن لا نستطيع أنْ نحمي أنفسنا ؟ لكن الحق سبحانه لم يُطل عليهم هذا الوضع ، وسرعان ما جاءتْ بدر ، ورأى عمر بعينه كيف تحقَّق وعد الله ، وكيف هُزم جَمْع المشركين ، ورددها بنفسه بعد المعركة : نعم يا رب ، سيُهزم الجمع ويولون الدبر[1] .

(١) قال عكرمة : لما نزلت ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] قال عمر : أيّ جمع يُهزم ؟ أي : أي جَمْع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول : « سيُهزم الجمع ويُولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ . أورده ابن كثير في تفسيره (٢٢٦/٤) وعزاه لابن أبي حاتم .

ومن العجيب أنْ يدل رسول الله على الكفار وعلى أصحابه وأنصاره بفيض الله عليه ، وأنه أخبره بنتيجة المعركة قبل حدوثها ، فيقف ﷺ في أرض بدر ، ويشير بعصا في يده إلى مصارع المشركين : هذا مصرع أبي جهل ، وهذا مصرع عتبة ، وهذا مصرع الوليد[1] .. الخ .

فمَنْ يستطيع أنْ يحدد نتيجة معركة بهذا التفصيل ، والمعركة أخْذٌ وردٌ وكرٌ وفرٌ واختلاط ، مع أنهم لم يخرجوا لحرب ، إنما خرجوا لملاقاة قافلة قريش التجارية ، فما بالك لو خرجوا على حال استعداد للحرب ، وهذه سيأخذها الكفار قياساً يقيسون عليه قوة المسلمين الوليدة ، وسيقذف الله بهذه النتيجة الرعب في قلوب الكفار ، ولم لا وقد انتصرتْ القلة المستضعفة غير المجهزة على الكثرة المتعجرفة المستعدة للحرب .

والاستفهام هنا ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا الْفَتْحُ.. (٢٨)﴾ [السجدة] ليس استفهاماً على حقيقته ، إنما يراد به الاستهزاء والسخرية ، وجواب الله على هذا الاستفهام يحدد نيتهم منه ، فهم يستبعدون هذا النصر وهذه الغلبة التي وعد الله بها عباده المؤمنين ، لكنهم يستبعدون قريباً ، ويستعجلون أمراً آتياً لا ريب فيه .

وقد سجَّل القرآن عليهم مثل هذا الموقف في قوله تعالى حكايةً عن الكفار يقولون لرسولهم : ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)﴾ [الأعراف]

كلمة (الفتح) إنْ جاءت مُعرَّفة بأل فخيرها مضمون ، فاعلم أنها

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٧٩) ، وأحمد في مسنده (٣/٢١٩ ، ٢٥٨) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه

نعمة محروسة لك سينالك نفعها ، فإنْ جاءت نكرة فلا بُدَّ لها من متعلق يوضح الغاية منها : أهذا الفتح لك أم عليك ؛ فقوله تعالى فى خطاب النبى ﷺ : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾ [الفتح] دلَّ على أن هذا الفتح لصالحه ﷺ ، فهو غُنْم لا غُرْم ، كما يقولون فى حسابات البنوك : له وعليه .

أما الأخرى ، ففى قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. ㊹﴾ [الأنعام]

إذن : تنبَّه لما يفتحه الله عليك ، ولا تغترَّ به ، وتأمَّل : أهو لك أم عليك ؟ وإياك أنْ تُطغيك النعمة إذا (زهزهتْ) لك الدنيا ، فلعلها استدراج وأنت لا تدرى ، فالفتح يحتمل المعنيين ، واقرأ إنْ شئتَ :

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .. ㊻﴾ [الأعراف] أى : احذروا هذه النعمة لا تطغيكم .

وكلمة (الفتح) تأتى بمعانٍ متعددة ، يحددها السياق ، كما قلنا فى كلمة العين ، فتأتى بمعنى العين الباصرة . تقول : رأيت فلانا بعينى ، وتقول : جُدْت على فلان بعيْن منى أى : بالذهب أو الفضة ، وتقول : سمحتُ له أنْ يروى أرضه من عينى أى : عين الماء ، وتقول : هؤلاء عيون فلان أى : جواسيسه . وهذا يسمونه : المشترك اللفظى .

وكلمة (الفتح) تستخدم أولاً فى الأمر المادى ، تقول : فتحتُ الباب أى : أزلت مغاليقه ، وهذا هو الأصل فى معنى الفتح . فالحق سبحانه يقول فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ .. ㊺﴾ [يوسف] ففتحوا متاعهم الفتح المادى الذى يزيل عنه الأربطة .

وقد يُراد الفتح المعنوى ، كما فى قول الله تعالى : ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ .. (٧٦)﴾ [البقرة] أى : بما أعطاكم الله ومنحكم من الخير ومن العلم .

ويأتى الفتح بمعنى إظهار الحق فى الحكم بين حق وباطل وتجلية الأمر فيه ؛ لذلك يسمى أهلُ اليمن القاضيَ (الفاتح) .

ويأتى بمعنى النصر والغلبة ، كما فى هذه الآية التى معنا : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٨)﴾ [السجدة] ولابد أنْ يقول المؤمنون فى إجابة هذا السؤال : نحن لا نقول أننا صادقون أو كاذبون فى هذا الخبر ؛ لأن هذه مسألة بعيدة عنا ، ولا دخْلَ لنا بها ، إنما هى من الله الذى أخبرنا هذا الخبر ، فنحن لا نُوصَف فيه ، لا بصدق ولا بكذب .

ولكى يكون الإنسان عادلاً ينبغى أنْ ينسب الفعل إلى فاعله ، أرأيت رسول الله ﷺ حين أخبر قومه خبر إسرائه قال . « لقد أُسْرِى بى الليلة من مكة إلى بيت المقدس »[1] ولم يقل سريت ومع ذلك سأله القوم : أتدَّعى أنك أتيتها فى ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟ وهذه مغالطة منهم ، لا عدم فهم لمقالة رسول الله ؛ لأنهم أمة كلام ، ويفهمون جيداً معانى الألفاظ .

إذن : رسول الله ما سَرَى بذاته ، إنما أُسْرِى الله به ، فمَنْ أراد أن يبحث هذه المسألة فليبحثها فى ضوء قدرة الله ، وكيف يكون الزمن بالنسبة لله تعالى ، وقلنا إن الفعل الذى يستغرق زمناً هو

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧١٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٠) كتاب الإيمان ، من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه

الفعل العلاجي ، إنما ربنا - تبارك وتعالى - لا يعالج الأفعال ، فقط يقول كُنْ فيكون ، والفعل يتناسب مع زمنه تناسباً عكسياً ، فكلما زادت قوة الفاعل قَلَّ زمن الفعل . وعليه لو نسبتَ حادثة الإسراء إلى قوة الحق تبارك وتعالى لوجدتَ الزمن لا زمن .

ثم يجيب الحق تبارك وتعالى عن سؤالهم ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ ..(٢٨)﴾ [السجدة] بما يفيد أنه سؤال استبعاد واستهزاء ، فيقول سبحانه :

﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ[1] لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩)﴾

أي : لِمَ تسألون عن يوم الفتح ؟ وماذا ينفعكم العلم به ؟ إن يوم الفتح إذا جاء أُسْدِل الستار على جرائمكم ، ولن تنفعكم فيه توبة أو إيمان ، ولن يُنْظِركم الله إلى وقت آخر .

ومعلوم أن الإيمان لا ينفع صاحبه إلا إذا كانت لديه فسحة من الوقت ، أما الإيمان الذي يأتي في النزع الأخير ، وإذا بلغت الروح الحلقوم فهو كإيمان فرعون الذي قال حين أدركه الغرق : ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠)﴾ [يونس] فردَّ الله عليه هذا الإيمان ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١)﴾ [يونس]

الآن لا ينفع منك إيمان ؛ لأنك مُقْبِل على الله ، وقد فات أوان العمل ، وحَلَّ أوان الحساب ، الإيمان أنْ تؤمن وأنت حريص صحيح تستقبل الحياة وتحبها ، الإيمان أن تؤمن عن طواعية .

---

(١) قال قتادة : الفتح القضاء . وقال الفراء والقتبي : يعني فتح مكة . قال القرطبي في تفسيره (٥٢٧٦/٧) : وأولى من هذا ما قاله مجاهد ، قال : يعني يوم القيامة .

﴿ولا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩)﴾ [السجدة] أى : ليس لكم الآن إمهال ؛ لأن الذى خلقكم يعلم سرائركم ، ويعلم أنه سبحانه لو أمهلكم لَعُدْتم لما كنتم عليه : ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠)﴾

هذا المعنى كما نقول فى العامية (ادينى عرض كتافك) أى : انصرف عنهم ، فلم يَعُدْ بينك وبينهم لقاءٌ ، ولا جدوى من مناقشتهم والتناظر معهم فقد استنفدوا كل وسائل الإقناع ، ولم يَبْقَ لهم إلا السيف يردعهم ، على حَدِّ قول الشاعر :

أَنَاةٌ فَإِنْ لَمْ تُغْنِ عَقَّبْ بعدها وَعِيداً ... فَإِنْ لَمْ يُغْنِ أَغْنَتْ عَزَائمهُ

فقد بلَّغهم رسول الله وأنذرهم ، لقد بشَّرهم بالجنة لمن آمن ، وحذرهم النار لمن كفر فلم يسمعوا . إذن :

فَمَا هُوَ إلاَّ الوَحْيُ أو حَدّ مُرْهَفٍ

فالعاقل الوحي يقنعه ، والجاهل السيف يردعه .

وقوله سبحانه . ﴿وَانتَظِرْ .. (٣٠)﴾ [السجدة] أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ ، أى : انتظر وعدى لك بالنصر والغلبة ، وقلنا : إن وعد الله محقق ، حيث لا توجد قوة أخرى تمنعه من إنفاذ وعده ، أما الإنسان فعليه حين يَعد أنْ يتنبه إلى بشريته ، وأنه لا يملك شيئاً من أسباب تنفيذ ما وعد به .

لذلك يُعلِّمنا ربنا : ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن

يشاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾ [الكهف] وتعليق أمرك على مشيئة الله عز وجل يحميك أن تكون كاذباً إذا لم تَفِ بما وعدتَ به ، فأسباب الوفاء بالوعد لا يملكها البشر ، إنما يملكها خالق البشر سبحانه ، فإذا وعد فاعلم أن وعده متحقق لا محالة .

وقلنا : إنك حين تقول لصاحبك مثلاً : سأقابلك غداً أو سأفعل لك كذا وكذا ، نعم أنت صادق وتنوى الوفاء ، لكنك لا تملك فى الغد سبباً واحداً من أسباب الوفاء ، فلربما طرأ لك طارىء ، أو منعك مانع ، وربما تغيَّر رأيك .. الخ .

وفَرْق بين انتظار رسول الله حين ينفذ أمر ربه ﴿ انتَظِرْ .. (٣٠) ﴾ [السجدة] وبين ﴿ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠) ﴾ [السجدة] فانتظار رسول الله لشىء محقق ، له رصيد من القوة والقدرة ، أما انتظارهم فتسويل نفس ووسوسة شيطان ، لا رصيدَ لها من قوة إنفاذ .

ومعنى ﴿ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠) ﴾ [السجدة] أى : ينتظرون أن يحدث لرسول الله ﷺ شىء يمنعه من تبليغ رسالة ربه ، وهذا حمق منهم ، فقد كان عليهم أن يعلموا أن الرسول مُؤيَّد من الله مُرْسَل من قِبَله لهدايتهم ، وما كان الله تعالى ليرسل رسولاً ثم يُسْلمه أو يخذله ، فسنة الله فى الرسل أن لهم الغلبة مهما قويتْ شوكة المعاندين لهم .

إذن : لا سبيلَ إلى ذلك ، ولا سبيلَ أيضاً إلى الخلاص منه أو حتى تخويفه ليرتدع ، ويدع ما يدعو إليه من منهج ربه .

وقد ورد هذا الانتظار فى موضع آخر بلفظ (التربص) فى قوله تعالى : ﴿ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) ﴾ [الطور]

وفى قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ..

(٥٢)﴾ [التوبة] أي : ماذا تنتظرون منا ونحن أمام حُسْنيين : إما النصر والغلبة عليكم ، وساعتها ندحركم ونُذلكم . أو الشهادة التي تضمن لنا حياة النعيم الباقية الخالدة ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا .. (٥٢)﴾ [التوبة]

يعني : تربَّصوا بنا ، فنحن أيضاً نتربص بكم ، لكن فَرْق بين تربُّصنا وتربُّصكم .

وهذه السورة سميت (السجدة) أولاً : لأن بها سجدة تلاوة ينبغي أن نسجد لله شكراً عندها ، والسجود يمثل منتهى الخضوع للحق - تبارك وتعالى - فإذا جاءت هذه الآية التي تهز كيان الإنسان يعلمنا ربنا أن ننفعل لهزَّة الكيان ، وأن نسارع بالسجود ، ولا ننتظر سجودنا بعد ذلك في الصلاة .

فكأن في هذه الآية أمراً قوياً وسراً عظيماً استدعى أنْ نُخرج السجود عن موقعه بأمر مَنْ شرع السجود الأول . إذن : لا بُدَّ أن في آيات سجود التلاوة طاقاتٍ جميلة من نِعَم الله تُذكِّرني به .

والحق سبحانه يريد أنْ يشعر الخَلْق أنهم يستقبلون نعماً جديدة ، لا يكفي في شكرها السجود الرتيب الذي نعرفه ، فيشرع لها سجوداً خاصاً بها .

وفي السورة أيضاً بعض الإشارات التي وقف عليها العارفون وقالوا : إنها تضع نماذج لصيانة النفس الإنسانية ، وعدم بُعْدها عن حكمة خالقها ، ومن هذه الإشارات أن العين ترى الأشياء فتقول : هذا حسن ، وهذا قبيح ، ذلك من مجرد الشكل الخارجي ، لكن على المرء أنْ يتأمل الأشياء ويعرف معنى القبح .

القبح ليس ما قَبُحَ فى نظرك ، إنما القبيح الذى يُخرِج الحُسْن التكليفى عن مناطه ؛ لأن الخالق - عز وجل - خلق كل شىء جميلاً ، كما قال سبحانه : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ .. ⑦ ﴾ [السجدة]

فإذا قَبُحَ الشىء فى نظرك فاعلم أنك نظرتَ إلى جانب الشكل ، وأهملتَ جوانب أخرى ، وقُلْ إننى لم أتوصل إلى سرِّ الجمال فيه .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الخالق سبحانه نثر المواهب بين خَلْقه بحيث تجد مجموع مواهب كل إنسان تساوى مجموع مواهب كل إنسان ، فلا تنظر إلى جانب واحد فتقول : هذا غنى ، وهذا فقير ، لكن انظر إلى الجوانب الأخرى .

ويُرْوَى أن سيدنا نوحاً عليه السلام رأى كلباً أجرب فبصق عليه ، فأنطق الله الكلب الأجرب ، وقال له : أتعيبنى أم تعيب خالقى ؟ والمعنى أنه خلقنى لحكمة ، ولمعنى من المعانى .

وصدق القائل[1]

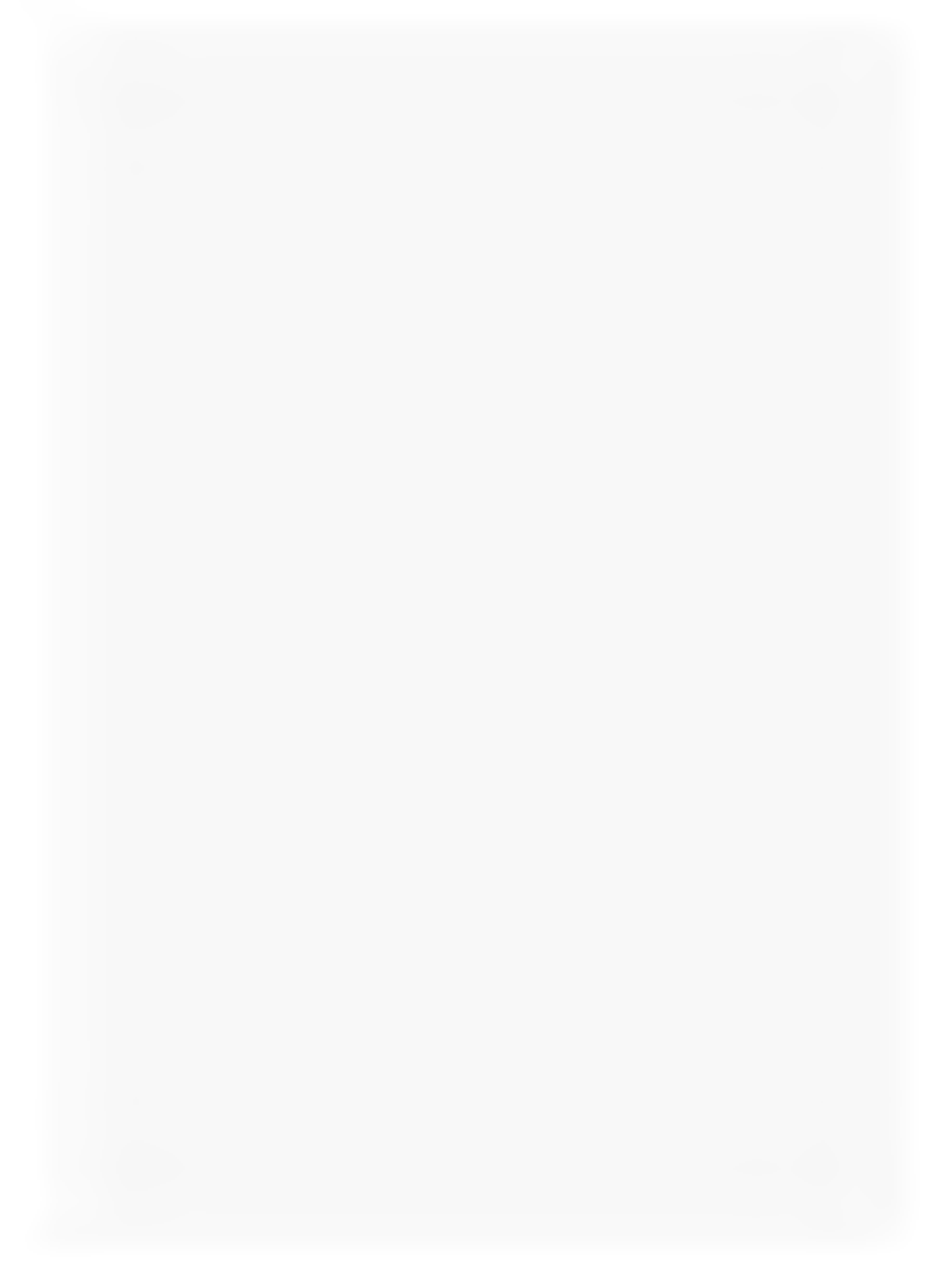
لِلْقُبْحِ وَقْتٌ فيه يَظْهر حُسْنُه وَيُحمد مَنْ غشَّ البناءَ لَدَى الهَدْمِ

كذلك نثر الحق سبحانه حكمه ، ونثر خيره فى كتابه ، فلا تغنى آية عن آية ، ولا تغنى كلمة عن كلمة ، ولا حرف عن حرف ، لكن البصائر التى تَتَلَقَّى عن الله هى التى تستطيع أنْ تقف على أسرار الله .

---

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .


سورة الأحزاب





سورة الأحزاب[1]



﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ .. (١) ﴾ [الأحزاب] نداء لرسول الله ﷺ ، والمنادى هو الحق سبحانه ، رسول الله لقبه ، واسمه محمد ، واسمه أحمد كما ذُكر في القرآن ، والإنسان حين يُولَد يُوضع له اسم يدل على مُسمَّاه ، بحيث إذا أطلقه الواضع انصرف إلى المسمى ، والقوم الذين سُمُّوا لهم محيط يُعرفون فيه ، وغيرهم بنفس الأسماء لهم محيط آخر ، فمحمد هذا المحيط غير محمد هذا المحيط .

---

(١) سورة الأحزاب هي السورة رقم ٣٣ في ترتيب المصحف الشريف ، وهي سورة مدنية . عدد آياتها ٧٣ آية ، نزلت في المنافقين وإيذائهم رسول الله ﷺ وطعنهم فيه وفي مناكحته لنسائه وزواجه ﷺ من ابنة عمته زينب بنت جحش وأدب دخول بيوت النبي . وقد نزلت سورة الأحزاب بالمدينة بعد سورة آل عمران وقبل سورة الممتحنة فهي السورة رقم ٨٩ في ترتيب نزول سور القرآن . [راجع الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/٢٧] .

وتعريف الإنسان يكون بالاسم أو بالكُنْية أو باللقب ، فالاسم هو العلم الذى يُوضع لمسمَّى ليُعلَم به ويُنادَى به ، ويُميِّز عن غيره ، أما الكنية فاسم صُدِّر بأب أو أم كما نقول : أبو بكر ، وأم المؤمنين ، فإنْ سُمِّى به بداية وجُعِل علَماً على شخص فهو اسم ، وليس كنية ، أما اللقب فما أشعر برفعة أو ضِعة كما تقول فلان الشاعر أو الشاطر .. إلخ .

فإذا أُطلق الاسم الواحد على عدة مسميات ، بحيث لا تتميز بعضها عن بعض وجب أنْ تُوصَف بما يميزها كأسرة مثلاً عشقتْ اسم محمد فسمَّتْ كل أولادها (محمد) فلا بُدَّ أن نقول : محمد الكبير ، محمد الصغير ، محمد الأوسط ..الخ .

ورسول الله ﷺ له اسم وكُنْية ولقب ، أما اسمه فمحمد وقد ورد فى القرآن الكريم أربع مرات :

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ .. (١٤٤)﴾ [آل عمران]

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ .. (٤٠)﴾ [الأحزاب]

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩)﴾ [الفتح]

﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ .. (٢)﴾ [محمد]

وورد باسم أحمد فى موضع واحد هو : ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ .. (٦)﴾ [الصف] وسبق أنْ تكلَّمنا فى علة هذه التسمية .

أما كنيته . فأبو القاسم . ولقبه : رسول الله .

وهكذا استوفى سيدنا رسول الله العَلَمية فى أوضاعها الثلاثة . الاسم ، والكُنْية ، واللقب .

واللقب يضعه أيضاً الأب أو الأم أو الناس المحيطون بالإنسان ، إما يدل على الرفعة تفاؤلاً بأنه سيكون له شأن ، أو يدل على الضَّعَة ، وهذه فى الغالب تحدث فى الأولاد الذين يُخاف عليهم العين ، فيختارون لهم لقباً يدل على الحطَّة والضّعَة وما أشبهه (بالفاسوخة) يُعلِّقونها على الصغار مخافة العين .

أما لقب رسول الله ﷺ فقد اختاره له ربه عز وجل ، وطبيعى أنْ يأتى لقبه ﷺ مُشْعِراً برفعة أيما رفعة ، فهى ليست عند الخلق فحسب ، إنما رفعةَ عند الخالق ، فلما وُلد رسول الله أسماه جده بأحب الأسماء عنده . وقال : سمَّيْته محمداً ليُحمد فى الأرض وفى السماء[1] .

ولما وُلد القاسم كُنِّى به رسول الله فقيل : أبو القاسم ، فلما اختاره الله للرسالة وللسفارة بينه تعالى وبين الخَلْق لقَّبه برسول الله وبالنبى ، وهذان اللقبان على قدر عظيم من الرفعة لو جاءت من البشر ، فما بالك وهى من عند الله ، فأنت حين تضع المقاييس تضعها على قَدْر معرفتك وإمكاناتك .

فالرسول ﷺ رسول الله ونبى الله بمقاييس الله ، فهو إذن مُشرَّف عندكم ، مُشرَّف عند مَنْ أرسله و ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الأنعام]

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ١٧٠) أن آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ كانت تحدّث أنها أُتيت ـ حين حملت برسول الله ﷺ ـ فقيل لها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة . فإذا وقع إلى الأرض فقولى : أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ، ثم سمِّه محمداً .

فصاحبُ شيء في الإعلام برسول الله أن نقول : محمد ، أو أبو القاسم ، أو رسول الله ، أو النبي ، والحق سبحانه حين نادى رسوله ﷺ لم يُنَاده باسمه أبداً ، فلم يقُلْ يا محمد ، إنما بلقبه الذي يُشعر برفعته عند الحق سبحانه ، فقال في ندائه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنفال] ، ﴿ يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [المائدة]

ولو تتبعتَ نداء الله للرسل من لَدُنْ آدم عليه السلام لا تجد رسولاً نُودِي بغير اسمه إلا محمد ﷺ . أما لفظ (محمد) فقد ورد في القرآن ، لكن في غير النداء ، ورد على سبيل الإخبار بأن محمداً رسول الله .

وحتى في الإخبار عنه ﷺ أخبر الله عنه بلقبه : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة]

وقال : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَـٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفرقان]

إذن : في النداء استقل بيا أيها النبي ، ويا أيها الرسول ، أما في الإخبار فلا بُدَّ أنْ يذكر اسمه (محمد رسول الله) ، وإلا فكيف يعرف أنه رسول الله ؟ فيخبر به أولاً اسماً ومُسمّى .

ونُودِي ﷺ بيـٰأيها النبي ، ويـٰأيها الرسول تعظيماً له ﷺ ، ونحن حين نريد أنْ نُعظِّم مَنْ ننادي نسبق الاسم بمقدمات ، نقول : يا سيدي فلان ، يا فضيلة الشيخ ، يا صاحب العزة .. الخ .

وقد تقدمتْ (أيُّها) على المنادى هنا ؛ لأن الاسم المنادى المحلّى بأل لا يُنادى مباشرة إلا في لفظ الجلالة (الله) فنقول : يا الله ، فكان الحق سبحانه توحَّدَ حتى في النداء ، هذا في نداء المفرد .

والحق سبحانه نادى رسوله بيأيها النبى ، ويأيها الرسول ، الرسول هو سفير بين الله وبين خَلْقه : ليُبلغهم منهجه الذى يريد أنْ تسير عليه حياتهم فالرسول مُبلِّغ ، أما النبى فمُرْسَل أيضاً من قِبَل الحق سبحانه ، لكن ليس معه شرع جديد ، إنما يسير على شرع مَنْ سبقه من الرسل ، أما هو فقدوة وأُسْوة سلوكية لقومه .

ومحمد ﷺ جمع الأمرين معاً ، فهو نبى ورسول له خصوصيات أُمر بها ، ولم يُؤْمَر بتبليغها ـ وهذه مسائل خاصة بالنبوة ـ وله أمور أخرى أُمِر بها ، وأُمِر بتبليغها .

ومعلوم من أقوال العلماء أن كل رسول نبى ، وليس كل نبى رسولاً بالمعنى الاصطلاحى ، وإلا فَهُم جميعاً مُرْسلون من قِبَل الله .

وكلمة (النبى) مأخوذة من النبأ وهو الخبر الهام ، فالخبر يكون من البشر للبشر ، فإنْ كان من خالق البشر فهو نبأ أى : أمر عظيم ينبغى الاهتمام به ، وأصْله من النَّبْوة ، وهى الشىء العالى المستدير فى وسط شىء مستوٍ .

فحين تقول : رأيتُ فلاناً اليوم . هذا لا يُسمَّى نبأ إنما خبر ؛ لذلك قال سبحانه: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢)﴾ [النبأ] أى : الخبر الهائل الذى هزَّ الدنيا كلها ، وملأ الأسماع ، وزلزل العروش .

ثم يقول سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ ﴿اتَّقِ اللَّهَ .. (١)﴾ [الأحزاب] سبق أنْ قُلْنا : إن الكلام العربى مُقسَّم إلى خبر وإنشاء ، فالخبر نسبة كلامية كانت قبل النطق بها نسبة ذهنية ، وبعد النطق بها كلامية ، فإنْ كان لها معنى ومدلول فهى نسبة واقعية ، والخبر هو القول الذى يُوصَف بالصدق إنْ طابق الواقع ، ويُوصَف بالكذب إن خالف .

أما الإنشاء فهو مقابل الخبر يعنى : قولٌ لا يُوصَف بصدق ولا بكذب ، كأن تقول لإنسان : قفْ ، فهذا أمر لا يقال لقائله : صادق ، ولا كاذب .

فقوله تعالى لنبيه ﴿اتَّقِ اللَّهَ .. ①﴾ [الأحزاب] هذه نسبة كلامية من الله لرسوله ، ليحدث مدلول هذا الأمر ، وهو التقوى ، لكن أكان رسول الله ﷺ غير تقى حتى يأمره ربه بالتقوى ؟

نقول : ليس بالضرورة أنْ يكون الرسول عصى ، فيأمره الله بتقواه ، لكن الحق سبحانه ينشيء مع رسوله كلاماً بداية دون سابقة عصيان ، أو : أنه الأمر الأول بالتقوى كما تقول لولدك فى بداية الدراسة : اجتهد وذاكر دروسك ، وأنت تعرف أنه مجتهد ، لكن لا بُدَّ من تقرير المبدأ فى بداية الأمر .

ثم إن الحدث يحدث فى أزمنة ثلاثة : ماض وحال ومستقبل ، فإذا طلب من شخص فعل شيء هو مقيم عليه بالفعل كقوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ١٣٦﴾ [النساء]

فالحق سبحانه يأمرهم بالإيمان ، مع أنه وصفهم وخاطبهم بلفظ الإيمان ؛ لأن المعنى : أنتم آمنتم قبل أنْ أكلمكم ، وهذا الإيمان السابق لكلامى ماض ، وأنا أريد منكم أنْ تُحدثوا إيماناً جديداً ، حالاً ومستقبلاً ، أريد أنْ تُجدِّدوا إيمانكم ، وأنْ تستمروا عليه .

فمعنى : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ .. ①﴾ [الأحزاب] أى : واصل تقواك حالاً ، كما فعلتها سابقاً ، وواصلها مستقبلاً ، فلا تنقطع عنها أبداً .

أو : أن تقوى الله أمر يلصق الإنسانَ بربه ، والله كلَّف بأشياء ،

ثم أباح لك من جنس التكليف أشياء . فإذا قال الله لرسوله ﴿اتَّقِ اللَّهَ .. (١)﴾ [الأحزاب] فهى غير قوله لنا : اتقوا الله ، فالأمر لنا نحن بالتقوى . أى : نفِّذ ما فُرِض عليك ، أما فى حق رسول الله فهى بمعنى : ادخل فى مقام الإحسان ، وجدِّده دائماً ؛ لأن مراقى القبول من الله لا تنتهى ، كما أن كمالات العطاء فى الله لا تنتهى .

لذلك قال ﷺ : « من استوى يوماه فهو مغبون »[1] أى : من استوى يومه مع أمسه فى قُرْبه من الله فهو خاسر ، لماذا ؟ لأنه ينبغى للمؤمن أنْ يزيد فى قُرْبه وفى مودته ، وعلاقته بالله يوماً بعد يوم ؛ لأن نِعَم الله عليك متوالية تستوجب شكراً متوالياً ، وحمداً دائماً .

كما أن الحق سبحانه لا يكتفى من رسوله بما يكتفى به من سائر الخلق ، إذن : فالتقوى بالنسبة لرسول الله غير التقوى بالنسبة لسائر الخَلْق ، التقوى فى حق رسول الله مجالها واسع ، وللرسول مع الله فيوضات لا تنتهى .

لذلك حين يناديك ربك للصلاة فى كل يوم خمس مرات ، فاعلم أن فضله عليك غير مكرر ، بل فضله متجدد ، فعطاؤه لك فى الظهر

---

(١) ذكره الزركشى فى « التذكرة فى الأحاديث المشتهرة » (ص ١٢٨) بطوله « من استوى يوماه فهو مغبون ، ومن كان آخر يومه شراً فهو ملعون ، ومن لم يكن على الزيادة فهو فى النقصان فالموت خير له ، ومن اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ، ومن أشفق من النار لهى عن الشهوات ، ومن ترقب الموت هان عليه اللذات ، ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات » وقال : « أسنده صاحب مسند الفردوس (الديلمى) من حديث محمد بن سوقة عن الحارث عن على مرفوعاً وهو إسناد ضعيف » . قال الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء (٤/٢٣٥) : لا أعلم هذا إلا فى منام لعبد العزيز بن أبى رواد قال : رأيت النبى ﷺ فى النوم فقلت : يا رسول الله ، أوصنى ، فقال ذلك بزيادة فى آخره رواه البيهقى فى الزهد .

غير عطائه لك في العصر ، غير عطائه لك في المغرب ، وهكذا تكون التقوى عملاً متواصلاً ممتداً .

ولذلك يحذرنا أهل الخير أن نداوم مع الله في شيء من الطاعة ، ثم نقصر عنها ، كذلك يحذرنا الشرع أنْ ننذر لله ما لا نستطيع الوفاء به ، لأنك بالنذر تفرض على نفسك الطاعة ، فأجملْ بك أنْ تظل في مقام التطوع ، إنْ خفَّت نفسك للطاعة أدَّها ، وإنْ قصَّرت فلا شيء عليك .

وكونك تفرض على نفسك شيئاً من الطاعات من جنس ما فرض الله عليك . يعني : أنك أحببتَ الطاعة وحلَتْ لك العبادة ، حتى زدتَ الله منها ، فقلت مثلاً : نذرتُ لله أن أصلي من الركعات كذا ، أو أتصدَّق بكذا من المال ؛ لأنك رأيتَ في الصلوات الخمس إشراقات وفيوضات من الله فزدْتَ منها .

والحق سبحانه يطلب منا حين ينادينا للصلاة أنْ نسعى للمسجد ، مع أن الأرض كلها مسجد وكلها طهور ، لكن المسجد خُصِّص للصلاة ، فينبغي أنْ تُؤدَّى فيه . وأنت في صلاة ما دُمْتَ تسعى للصلاة ، فمَنْ كان بعيد البيت عن المسجد عليه أنْ يأتي الصلاة في سكينة ووقار ، ولا يخرج عن هذا السَّمْت حتى وإنْ تأخر عن تكبيرة الإحرام .

وقد ورد في حديث سيدنا رسول الله : « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون ، وأتوها تمشون وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلُّوا وما فاتكم فأتموا »[1] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٧٠) ، ومسلم في صحيحه (٦٠٢) كتاب المساجد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

وهناك مطلوب إيمان ومطلوب إحسان : مطلوب الإيمان هو ما فرضه الله عليك ، وجاء في الحديث القدسي : « ما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضته عليه »[1]

فإنْ أردتَ أن تتقرب إلى الله فتقرَّب إليه بما يحب ، ومن جنس ما فرضه عليك ، فالله أمرك بصلاة وصيام وزكاة ، فإنْ حلَتْ لك هذه العبادات فزدْ منها فوق ما فرضه الله عليك ، وحين تزيد اعرف أنه مسَّتْكَ نورانية الإشراق في العبادة فقلت . الله يستحق مني فوق ما كلَّفني ، وهذا هو مقام الإحسان .

وسبق أنْ تحدثنا عن هذا المعنى في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) ﴾ [الذاريات]

وهل فرض الله على عبده ألاَّ يهجع إلا قليلاً من الليل ؟ لا بل لك أنْ تُصلي العشاء ، وتنام حتى صلاة الفجر ، كذلك في الاستغفار ، أما الذي لا يهجع من الليل إلا قليلاً ويقوم في السَّحَر للاستغفار ، فلا بُدَّ أنه حلَتْ له العبادة ، وحلا له الوقوف في حضرة ربه - عز وجل - فدخل في مقام الإحسان .

ثم الإحسان نوعان : إحسان كم ، وإحسان كيف ، إحسان الكم بأنْ تزيد على ما فُرِض عليك ، فتصلي فوق الفرض وتُزكِّي فوق الفرض ، أما إحسان الكيف فبأنْ تخلص في عبادتك لله ، وأنْ تعبد الله

---

(١) جزء من حديث قدسي ، أخرجه البخاري في صحيحه (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ، وأخرجه أحمد في مسنده (٦/٢٥٦) من حديث عائشة ، وقد أفاض فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي في شرح هذا الحديث في كتاب « الأحاديث القدسية » (٨٧/١) بتحقيقنا .

كأنك تراه ، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك[1] يعني : إذا لم يكُن لديك الإشراق والشفافية التي تريك الله ، فلا أقلَّ من أنْ تعبده على أنه يراك .

وساعة تدخل في مقام الإحسان فأنت حرٌّ إذن فيما تقدم من الإحسان ، كما قال سبحانه : ﴿ما على المُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ .. (٩١)﴾ [التوبة] على حسب ما تخِفّ نفسك للطاعة ، خفَّتْ لخمس ركعات ، خفَّتْ لعشر ، خفَّت لخمسة بالمائة في الزكاة ، خفَّتْ لعشرة .. الخ أنت حر .

ألا ترى أن الحق سبحانه لما تكلم عن هذا المقام قال : ﴿وفي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩)﴾ [الذاريات] أما في الزكاة المفروضة فقال : ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤)﴾ [المعارج]

إذن ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ .. (١)﴾ [الأحزاب] أي : تقوى تناسب مقامك من ربك ؛ لأن عطاءات الله سبحانه لا تتناهى ، كما أن كمالاته لا تتناهى ، لذلك كان سيدنا رسول الله يقوم الليل حتى تتفطر قدماه ولما سألته السيدة عائشة : تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك ؟ قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً »[2] .

يعني : العبادة لا تكون لمجرد الثواب والمغفرة ، إنما هناك درجات وارتقاءات أخرى .

---

(١) هو حديث جبريل المشهور الذي أخرجه البخاري في صحيحه (٥٠) ، وكذا مسلم في صحيحه (٨) من حديث عمر بن الخطاب ، أن جبريل أتى رسول الله ﷺ بين أصحابه في صورة رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه أحد ، وأخذ يسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان ، ورسول الله يجيبه .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٨٣٧) وكذا مسلم في صحيحه (٢٨١٩) من حديث عائشة رضي الله عنها .

والتقوى : قلنا أنْ تجعل بينك وبين ما يمكن أنْ ينشأ منه ضرر لك وقاية ، لكن كيف تجعل بيننا وبين ربنا سبحانه وقاية ، ومهمة التقوى أن تندمج مع الله فى معيته ؟ هذا فى حق مَنْ يتحكم جيداً فى نفسه ، ويحملها على منهج الله .

قالوا : لأن لله تعالى صفات جلال وصفات جمال ، ولكل صفة منها مطلوب ، فالله تعالى غفور رحيم ، وهو أيضاً سبحانه القهار الجبار المنتقم ، الله سبحانه هو الضار وهو النافع ، إذن : فصفات الجمال هى التى تُؤتى الإنسان الخير الذى يحبه ، وصفات الجلال هى التى تتسلط على مَنْ يخالف . فعلى العبد دائماً أنْ يظل خائفاً من صفات الجلال راجياً صفات الجمال .

إذن : تقوى الله تكون بأنْ تجعل بينك وبين صفات الجلال وقاية ؛ لأنك لستَ مطيقاً لهذه الصفات ، ولا تطيق مسَّة خفيفة من النار ، وهى جند من جنود الله فاحذرها .

وعرفنا فى مسألة الشفاعة أن الصيام والقرآن يشفعان لصاحبهما ، وأن الله يُشفِّع بعض المؤمنين ، ويُشفِّع الأنبياء والملائكة ، ثم بعد ذلك تبقى شفاعة أرحم الراحمين ، فكيف يشفع الله عند الله[1] ؟

---

(١) عن أبى بكر الصديق فى حديث طويل عن رسول الله ﷺ قال : « عُرِض علىَّ ما هو كائن من أمر الدنيا وأمر الآخرة ، فجمع الأولون والآخرون بصعيد واحد .. حتى قال : ثم يقال : ادعوا الصديقين فيشفعون ، ثم يقال : ادعوا الأنبياء فيجىء النبى ومعه العصابة ، والنبى ومعه الخمسة والستة ، والنبى ليس معه أحد . ثم يقال : ادعوا الشهداء فيشفعون لمن أرادوا ، فإذا فعلت الشهداء ذلك يقول الله : أنا أرحم الراحمين ، أدخلوا جنتى من كان لا يشرك بى شيئاً فيدخلون الجنة » الحديث أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤) وأورده الهيثمى فى المجمع (١٠/٣٧٤) والسيوطى فى « البدور السافرة فى أمور الآخرة » (ص ١١٩) .

قالوا : أي تشفع صفات الجمال عند صفات الجلال ، فحين يذنب العبد ذنباً تتسلط عليه صفات الجلال لتعاقبه ، فتتصدى لها صفات الجمال ، وتشفع عندها لتسقط ما لها عنده من حق .

ثم يقول سبحانه مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. ①﴾ [الأحزاب] فهل حين يتقي رسول الله ربه أيطيع الكافرين والمنافقين ؟ قالوا : جمع القرآن بين الأمر بالتقوى والنهى عن طاعة الكافرين والمنافقين على الالتزام ، تقول : أكرم فلاناً وفلاناً أيضاً ، فلم تقل لا تكرم إلا فلاناً ، إذن : فعطف لا تُطع الكافرين والمنافقين على ﴿اتَّقِ اللَّهَ .. ①﴾ [الأحزاب] بالالتزام .

والنبي ﷺ حينما جاء جاء على نظام كوني أعده الله تعالى لخَلْقه ، وحين خلق الله الخَلْق أخذ على الإنسانية كلها بكل أفرادها من آدم إلى أن تقوم الساعة - أخذ عليهم العهد ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. ١٧٢﴾ [الأعراف] فشهدوا لله تعالى قبل أنْ تتهيأ لهم المعاصي والشهوات .

فإذا أصابت الناسَ غفلةٌ أو نَسُوا هذا العهد بعث الله لهم من رسله مَنْ يُذكِّرهم ؛ لذلك خُوطِب النبي ﷺ بقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ .. ⑦﴾ [الرعد]

وقال سبحانه عن الرسل : ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ .. ١٦٥﴾ [النساء] يعني : ليسوا منشئين تقوى وطاعة ، إنما مذكرون بقضية معلومة سلَفاً من الأزل ، وما هم إلا مبشرون بالثواب لمن أطاع ، ومنذرون بالعذاب لمن عصى ، والحق سبحانه يريد من عباده أنْ يكونوا على ذكر دائم لهذه الحقيقة وألاَّ يغفلوا عنها .

والغفلة تأتي إما من شهوة النفس أو كسلها عن مطلوب شاق

للعبادة أو وسوسة من غير مطيع في أذنك ، سواء أكان من شياطين الإنس أو من شياطين الجن ، كما قال تعالى : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ .. (١١٢) ﴾ [الأنعام]

وقلنا : إن المنحرف يحسد المستقيم على استقامته ، لكنه لا يستطيع أنْ يتحمل تبعات هذه الطاعة ، فلا أقلَّ من أنْ يحاول أنْ يجذب المستقيم إليه ، فيوسوس له ويصرفه عن صفة الكمال التي له ؛ لذلك حين يوسوس لك صاحبك بشيء من معصية الله فأول شيء ينبغي أنْ تفطن إليه أنه يكرهك ، ولا يريد لك الخير الذي يعجز هو عن إدراكه ، فهو لا يريد لك أنْ تتميز عليه بشيء .

إذن : الكافرون والمنافقون الذين يصادمون دعوة الرسل لم يقدروا على أنْ يحملوا أنفسهم على منهج الله ، ولا أنْ يلتزموا كما التزم المؤمنون ، فلا أقلَّ من أنْ يحولوا بين المؤمنين وبين المنهج الجديد الذي جاء به رسول الله .

وقلنا : إن الرسول لم يأتِ إلا لضرورة ، هي انطماس معالم المنهج عند المرسل إليهم ، وانعدام الرادع في النفس البشرية أولاً ثم في المجتمع ككل ، فالإنسان حين يغفل تُذكِّره النفس اللوامة وتردُّه عن المعصية ، فإذا ما ضعف سلطان هذه النفس تحكمتْ فيه النفس الأمَّارة بالسوء وصرفتْه عن الخير كله ، فلم يَبْقَ له رادع إلا في المجتمع الإيماني الذي يقوم بدوره في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وهذه هي ميزة الخيرية في هذه الأمة التي قال الله فيها : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. (١١٠) ﴾ [آل عمران]

فإذا انطمس هذا المبدأ في المجتمع أيضاً حتى لم يَعُدْ فيه آمر بمعروف ولا ناهٍ عن منكر ، فلا بُدَّ أنْ تتدخَّل السماء بإيقاظ جديد برسول جديد ، لكن أمة محمد ﷺ من شرفها عند ربها وشرفها برسولها أن الله منحها هذه الخيرية ، بحيث لا يعدم فيها الأمر بالمعروف ولا النهي عن المنكر أبداً ؛ لذلك لا يجيء رسول بعد رسول الله ﷺ ؛ لأنها أمة مأمونة .

ولا بُدَّ للأمة التي توفرتْ لها هذه المناعة الجماعية الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر أنْ يكون لها وَعْيٌ إيماني وفهم جيد لهذه المهمة ، وقد وردت فيها مذكرة الإيضاح التفسيرية من سيدنا رسول الله حين قال : « مَنْ رأى منكم منكراً فليُغيِّره بيده ، فإنْ لم يستطع فبلسانه ، فإنْ لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »[1] .

فالمشرِّع قدَّر عدم الاستطاعة ، فجعل لكل خطوة من أمر بمعروف أو نهي عن منكر مجالاً : متى أُغيِّر المنكر بيدي ؟ ومتى أغيره بلساني ؟ ومتى أغيره بقلبي ؟

أغيره بيدي فيمن أملك الولاية عليه ، حيث أتمكن من التغيير ، فإنْ كان المُنْكَر ممن لا ولايةَ لي عليه ، فعليَّ أنْ أغيره بلساني في ضوء قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (١٢٥) ﴾ [النحل] بالأسلوب الحسن الجميل ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/١٠ ، ٥٢) ، وابن ماجه في سننه (١٢٧٥ ، ٤٠١٣) وأبو داود في سننه (١١٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري بلفظ « من رأى منكراً فاستطاع أن يغيره بيده فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

لكن نجد بعض الدعاة يدعون على غير بصيرة ، فيغفلون مسألة الاستطاعة ، ولا يجعلون لعدم الاستطاعة مجالاً ، ويميلون إلى تغيير المنكر كله باليد ، وهذا مخالف لأمر رسول الله .

فإنْ توقعتَ أنْ يصيبك ضرر فلتغير المنكر بقلبك ؛ لأن الهدف أن تستقطب المنحرف إلى جهة الاعتدال ، وهذا لا يتم إلا باللين وبالرفق حتى لا تجمع عليه شدتين : الأولى أنْ تُخرِجه مما يألف ، والثانية : أنْ تُخرِجه عما يألفه بما يكرهه .

ويخطىء الكثيرون في فهم تغيير المنكر بالقلب فيظنون مثلاً أن تقول في نفسك : اللهم إن هذا منكر لا يرضيك وأنا أنكره ، هذا مجرد إنكار باللسان والله لا يريد كلمة تخرج من أفواههم ، إنما يريد منا عمل القلب الذي يتبعه عمل الجوارح ، فقالبك في هذا الإنكار تابع لقلبك .

فحين ترى مَن استشرى في العصيان والطغيان وأنت لا تقدر على نهيه ، لا بيدك ولا بلسانك ، ولا تستطيع مواجهته ، فعليك أن تكون كارهاً لعمله معرضاً عنه ، مهملاً له ، فلا تجامله في حزن ولا تُهنِّئه في فرح ولا تساعده إن احتاج .. الخ .

عليك أنْ تعزله عن مجتمعك ، فإذا فعل معه الجميع هذا الفعل ، وسلكوا معه هذا المسلك سقط وحده وارتدع .

لذلك لم نر النبي ﷺ صنع سجناً للمسلمين المخالفين ، إنما جعل سجنهم في عزل المجتمع الإيماني لهم ، أو سجن المجتمع عنهم ، لا يكلمهم ولا يتعامل معهم ، حتى الزوجة عزلها الشرع عن زوجها لا يقربها حتى يقضي الله في أمره .

أتذكرون قصة كعب بن مالك[1] ، وكيف عزله المجتمع الإيماني وكان من الثلاثة[2] الذين خُلِّفوا عن رسول الله في غزوة تبوك ، حتى قاطعه أقرب الناس إليه ، فلما تسوَّر الحديقة على ابن عمه وقال : تعلم أني أحب رسول الله فلم يرد عليه .

وتأتي زوجة[3] هلال إلى رسول الله وقد كان أحد الثلاثة أيضاً ، وتقول : يا رسول الله ، إن هلالاً رجل كبير السن ، ليس له ما للرجال في النساء ، فقال لها : اخدميه لكن لا يقربنك . وقد ظل هؤلاء في هذه العزلة حتى أن القرآن قال فيهم : ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ .. (١١٨)﴾ [التوبة]

هكذا التزم المسلمون الأوائل بشرع الله ، واستطاعوا لا نقول سجن المخالف ، إنما سجن المجتمع عنه ، وهذه المسألة هي سبب الأزمة التي تعيشها بلدنا الآن ، فالمجرم الذي يعيش بيننا ، أليس معلوماً لأهل المنزل الذي يعيش فيه ، بل لأهل الحي والشارع ؟

فهل ذهب واحد منهم إلى تاجر فقال له : أعطني كذا فقال :

---

(١) هو : كعب بن مالك الأنصاري ، شاعر رسول الله ﷺ ، أمه ليلى بنت زيد من بني سلمة ، كنيته أبو عبد الرحمن ، شهد العقبة مع سبعين من الأنصار ، شهد أحداً والخندق والمشاهد كلها ، إلا تبوك ، تخلف عنها ، وتاب الله عليه ، ذهب بصره في آخر حياته وتوفي عام ٥٠ هـ في خلافة معاوية عن ٧٧ عاماً .

(٢) الثلاثة الذين خلفوا هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن ربيعة .

(٣) هي : خولة بنت عاصم امرأة هلال بن أمية [قاله ابن حجر في الفتح ٨/١٢٦] ، ويروى مسلم في صحيحه (٢٧٦٩) والبخاري في صحيحه (٤٤١٨) أن امرأته جاءت رسول الله ﷺ وقالت : يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ولكن لا يقربك فقالت : إنه والله ما به حركة إلى شيء ، ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا .

لا ليس عندى وقاطعه ؟ هل سلَّم واحد منهم على شخص ، فلم يردّ عليه السلام ؟

إذن : المجتمع كله يتحمل هذه المسئولية ، ويتحمل الإثم عليها ؛ لأنه تستّر على هؤلاء ، لدرجة أن نقول : إن المجتمع نفسه مجرم أكثر من المجرمين .

وينبغى قبل أنْ نتكلم عن المجرم نتكلم معه نحاوره وننصحه ونحسن إليه قبل أن نقاطعه ، نفهم هذا المعنى من قول سيدنا رسول الله ﷺ : « أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر »[1] ولم يقل على سلطان جائر . فقبل أنْ نفضحه ونُشنِّع عليه يجب أنْ نتكلم معه ، وأنْ ننصحه حتى يعلم أنك تريد به الخير ، وتريد أنْ ترده إلى الجادة فيقبل منك ، وعلى الأقل لا يضرك ، إنما آفتنا أننا نُشنِّع على المجرم، وربما نُحمِّله فوق الصدق الواحد ألف كذب لمجرد كراهيتنا له .

لذلك قال العربى فى صفات الناس : إنْ علموا الخير أخفوه ، وإنْ علموا الشر أذاعوه ، وإنْ لم يعلموا كذبوا .

إذن : معنى التغيير بالقلب أن يكون قالبك موافقاً لقلبك ، وهذه لا تُكلِّفك شيئاً ، على خلاف التغيير باليد أو باللسان ؛ لذلك وصفه رسول الله بأضعف الإيمان ، يعنى أنها مسألة يقوم بها الضعيف .

وبعزل المجتمع عن المجرم تنتهى ظاهرة الإجرام ، وما استشرى الإجرام إلا حين خاف الناس من المجرمين وتملَّقوهم وتودَّدوا إليهم ربما لاتقاء شرِّهم ، ولم لا يزداد المجرم فى إجرامه والأمر كذلك ؟

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٩ ، ٦١) ، والترمذى فى سننه (٢١٧٤) وحسَّنه وأبو داود فى سننه (٤٣٤٤) من حديث أبى سعيد الخدرى . ولفظ الترمذى : « إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » .

لذلك جعل الشارع الحكيم الدية في القتل الخطأ ليست على القاتل وحده ، إنما على العاقلة أي : على جميع العائلة لأنها المنوط بها تقويم أبنائها ، والأخذ على أيدي المنحرف منهم ؛ لأنها هي التي ستتحمل العاقبة ، وبذلك يحدث التوازن في المجتمع .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حين وضع المنهج الذي يُنظِّم حياة الخَلْق يريد سبحانه الخير لخلقه ، وهو سبحانه صاحب الخير ولا ينتفع منه بشيء ، فلو أن الخَلْق جميعاً كانوا على أتقى قلب رجل واحد منهم ما زاد ذلك في مُلْك الله شيئاً[1] .

ثم هو سبحانه خلق الإنسان ، وحدد مهمته في الحياة ، ووضع له قانون صيانته فيها ، كما أن صانع الآلة يحدد الهدف منها قبل صناعتها ، وحدد لها قانون صيانتها ، فالذي صنع الغسالة مثلاً رأى كيف تتعب المرأة في عملية غسيل الملابس ، فصنع هذه الآلة لتقوم بهذه المهمة ، ولم يحدث أنْ صنع صانع آلة ، ثم قال : انظروا في أيّ شيء يمكن أنْ تُستخدم .

لذلك ، فَشَلُ العالم كله يأتي من أن الخَلْق يريدون أنْ يحددوا مهمة الإنسان ، ويضعوا له قانون صيانته ، ويغفلون أنه صنعة الله ، والذي يحدد مهمة الصَّنْعَة هو صانعها .

والحق سبحانه حدَّد لنا مهمتنا في الحياة قبل أنْ يستدعينا إليها ،

---

(١) قطعة من حديث قدسي طويل ، أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة ، وأحمد في مسنده (٥/ ١٥٤ ، ١٧٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه ، ولفظ الحديث « يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً » .

واقرأ إنْ شئتَ قولَ ربك : ﴿ الرَّحْمَٰنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ② خَلَقَ الْإِنسَانَ ③ ﴾ [الرحمن]

فالحق سبحانه قبل أنْ يخلق الإنسان وضع له المنهج ، وحدَّد له مهمته وقانون صيانته في قرآنه الكريم ، كما يحدد الصانع مهمة صنْعته أولاً ، فإنْ حدث في هذه الصنعة عَطَب فيجب أنْ تُردَّ إلى الصانع ، وإلى قانون الصيانة بافعل ولا تفعل ؛ لأنه سبحانه هو الذي خلق ، وهو الذي يعلم ما يصلح صنعته ويضمن سلامتها ، واقرأ إنْ شئتَ : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ⑭ ﴾ [الملك]

ويقول تعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ .. ⑤⑨ ﴾ [النساء]

إذن : فآفة المجتمع البشرى أولاً : أنه يريد أن يُحدِّد لخَلْق الله مهمتهم ، وأن يتدخل في صنعة ليست صنعته . ثانياً : حين يفسد المجتمع يجعلون له قوانين إصلاحية من عندهم ، وهل تركنا الله بدون منهج ، وبدون قانون صيانة ؟

لقد كان سيدنا رسول الله ﷺ وهو قدوتنا إذا حزبه أمر أو عزَّ عليه شيء يَفْزع إلى ربه ، ويقف بين يديه في الصلاة ، كما تعرض أنت آلتك أو جهازك على المهندس المختص ، فيصلح لك ما فيه من عطب ، وهذه مسألة مادية يصلحها المهندس بشيء مادى .

أما الحق سبحانه فغيب ، فحين يصلحك أنت أيها العبد يصلحك بقانون الغيب ، بحيث لا تدرى أنت كيف أصلحك ، المهم حين تعرض نفسك على ربك وعلى خالقك - عز وجل - تعود مُنْشرح الصدر ، راضياً طيِّب النفس .

الحق سبحانه يقول لرسوله : ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ..

(٦٠)﴾ [الأحزاب] لأنهم أهل فساد يمارسونه وينتفعون به ؛ لذلك لا بُدَّ أنْ يصادموا الحق ، وأنْ يعترضوا طريقه ، وأساس الفساد في الكون أنْ يحب الإنسان أنْ يأخذ خير غيره ، وأن يكون دمه من عرق الآخرين ، فإذا جاء مَنْ يعدل هذا الميزان المائل وقفوا له بالمرصاد ؛ لأن دعوته تتعارض ومنافعهم .

والحق سبحانه بيَّن لنا على مدى موكب الرسل جميعاً أنه ما من رسول إلا كان له أعداء ومعاندون ، لكن سنة الله في الرسل أنْ تكون لهم الغلبة في نهاية الأمر ، كما قال سبحانه : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

إذن ، فالله تعالى يريد منا الاستقامة على منهجه ، وأهل الفساد يريدون الانحراف عن هذا المنهج ، واقرأ : ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا .. (١٥٣)﴾ [الأنعام] يعني : استقامة على إطلاقها ، فمَنْ منكم يرينا فيه التواءً أو اعوجاجاً؟ ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ .. (١٥٣)﴾ [الأنعام]

فالصراط المستقيم واحد ، وسبيل الحق واحد ، أما الباطل والفساد فله سُبُل شتى ، وقد نبهنا سيدنا رسول الله ﷺ إلى هذه القضية حين خَطَّ للصحابة خطاً واحداً مستقيماً ، وعلى جانبيه خطوطاً[1] ، ثم تلا : ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : خط رسول الله خطاً بيده ، ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً ، ثم خط عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ .. (١٥٣)﴾ [الأنعام] . أخرجه أحمد في مسنده (١/٤٦٥) والحاكم في مستدركه (٢/٣١٨) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ .. (١٥٣)﴾ [الأنعام]

وتعلَّمنا في علم الهندسة أن الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين ، فلو خَطَّ مهندس طريقاً مستقيماً بين بلدين مثلاً تراه لو انحرف في بداية الطريق عدة سنتيمترات فإنها تبعده عن البلدة الأخرى عدة كيلو مترات .

إذن : الطريق المستقيم هو الذي يُسهِّل لك السفر ، ويقرب لك المسافة ، أما السبل المتعددة فإنها تهدر مجهودك وتشقُّ عليك ، حتى أنت في لغتنا العامية تقول لصاحبك : (تعال دُغرى) أو تقول (بلاش لف ودوران) كذلك يقول لك ربك : ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ .. (١٥٣)﴾ [الأنعام]

وإن كان طريق الحق واحداً ، فطرق الضلال متعددة ، فواحد فساده من ناحية المال ، وواحد من ناحية النساء ، وواحد يفسده المنصب والسلطان .. إلخ .

فإذا ما جاء رسول من عند الله يكبح جماح هؤلاء لا بُدَّ أن يتصادموا معه ؛ لذلك ينبه الحق - تبارك وتعالى - نبيه ﷺ : أول مراتب التقوى أن تتقي الله وحده ، ثم لا تُطع الكافرين والمنافقين ؛ لأنهم يريدون أنْ يأخذوك للشر والله يريدك للخير .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. (١)﴾ [الأحزاب] تعني : أنه لا مانع أن تطيع غيرهم من أصحاب الرأي والمشورة من المؤمنين فيما لم يأتك فيه أمر من الله ؛ لذلك نزل سيدنا رسول الله في غزوة بدر على رأي الصحابي الجليل الحباب بن المنذر[1] لما قال

---

(١) هو : الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري ثم السلمي . قال ابن سعد وغيره : شهد بدراً . وكان يكنى أبا عمر . قال ابن سعد : مات في خلافة عمر وقد زاد على الخمسين [الإصابة ١/٣١٦]

له : يا رسول الله ، أهذا منزلٌ أنزلكه الله ، أم هو الحرب والمكيدة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « بل هو الحرب والمكيدة » ، فقال : إذن هذا ليس لك بمنزل[1].

وقد أشار سلمان الفارسي[2] على رسول الله بحفر الخندق فأخذ بمشورته ، والقاعدة الشرعية تقول : لا اجتهاد مع النص . فإذا لم يكُنْ في المسألة نصٌ فلا مانع من أنْ تطيع المؤمنين الناصحين لك ، المشيرين عليك بالخير .

فالحق سبحانه لم يمنع عن رسوله نُصْح الناصحين ، ولم يحرمه مشورة أهل الرأى .

وقد اختلف الناس حول استشارة الحاكم : أهي ملزمة له أم غير ملزمة ؟ وإجابة هذا السؤال في قوله تعالى : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ .. (١٥٩)﴾ [آل عمران]

فللحاكم أنْ يسمع المشورة ، وأنْ يقارن بين الآراء ويفاضل بينها ، ثم يكون له وحده القرار النهائى ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ .. (١٥٩)﴾ [آل عمران] أى : أنت وحدك .

وفى العالم المعاصر نرى الأنظمة إذا احتاجت إلى أخْذ الآراء فى موضوع ما ترجح الجانب الذى به الرئيس ، وهذا لا يصح ، فالآراء

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٢٥٩) وعزاه لابن إسحاق ، وتمامه أن الحباب ابن المنذر قال : : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغور ما وراءه من القُلُب ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ، فقال ﷺ « لقد أشرت بالرأى » .

(٢) سلمان الفارسى صحابى ، من مقدميهم ، أصله من مجوس أصبهان ، عاش عمراً طويلاً ، جاب البلاد طلباً للحق وقرأ كتب الفرس والروم واليهود ، ثم أسلم وآمن برسول الله ﷺ ، وقال عنه : سلمان منا أهل البيت ، جُعِل أميراً على المدائن ، فأقام فيها إلى أن توفى عام ٣٦هـ ، كان ينسج الخوص ويأكل خبز الشعير من كسب يده . [الأعلام للزركلى ٣/١١٢] .

تنير للرئيس الطريق ، وتوضح له الصورة ، وله هو القرار الأخير ؛ لأن الحيثية التي انتخبته من خلالها أنك تشهد له بالتفرق ، إذن : فهو الذي يرجح أحد الآراء .

وفَرْق بين المشورة والتفويض ، فحين يُفوِّض رئيس الدولة شخصاً أو هيئة لدراسة أمر من الأمور ، أو اتخاذ قرار ، فهي صاحبة الرأي ، وحين تعرض عليه ما توصلتْ إليه يعطيها الموافقة ؛ لأنه فوَّضها في هذا الأمر ، إذن : التفويض يجيز لك اتخاذ القرار ، أمَّا المشورة فتقف عند عرض الرأي فحسب .

والرسول ﷺ كان لا يريد الخروج لغزوة أُحُد ، لكن لما شاور صحابته أشاروا عليه بالخروج لما عندهم من العزة والحماس لنصرة دين الله ، وظلوا برسول الله حتى استعد للحرب ، ولبس لها ملابسها ، ثم عادوا إلى رأيه ﷺ في عدم الخروج . فقال ﷺ : « ما كان لنبي يلبس لامة الحرب ... »[1] .

وحدث ما حدث في أُحُد ولم ينتصر المسلمون ، أما أبو بكر رضي الله عنه ـ فلم يستمع لمشورة المسلمين في حرب الردة وصمَّم عليها[2] ، وقال : والله لأقاتلنهم ولو بالذر يعني : بالحصى ، وانتصر

(١) عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما جاءه المشركون يوم أحد كان رأى رسول الله ﷺ أن يقيم بالمدينة يقاتلهم فيها فقال له ناس لم يكونوا شهدوا بدراً : تخرج بنا يا رسول الله إليهم نقاتلهم بأحد ورجوا أن يصيبوا من الفضيلة ما أصاب أهل بدر ، فما زالوا برسول الله ﷺ حتى لبس أداته فندموا وقالوا : يا رسول الله أقم فالرأى رأيك فقال رسول الله ﷺ : « ما ينبغي لنبي أن يضع أداته بعد أن لبسها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » . أخرجه الحاكم في مستدركه (١٢٩/٢) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي .

(٢) قال البخاري في صحيحه (كتاب الاعتصام ـ باب قول الله تعالى : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ .. (١٥٩)﴾ [آل عمران] (٣٢٨/١٣ ـ فتح الباري) : « لم يلتفت أبو بكر إلى مشورة إذ كان عنده حكم رسول الله ﷺ في الذين فرَّقوا بين الصلاة والزكاة وأرادوا تبديل الدين وأحكامه ، وقال النبي ﷺ : « من بدَّل دينه فاقتلوه » .

الصِّديق ، وإليه يرجع الفضل فى إنقاذ دين الله من فتنة كادت تذهب به .

إذن : فاجعلوا من اختيار الله لرسوله ﷺ مُرجِّحاً ، فيأخذ منكم جميع الآراء ، ويستشيركم ، ثم ينفذ هو ما يراه مناسباً .

وهنا فَرْق بين الكافرين والمنافقين ، ولدينا بعض المصطلحات التى ينبغى أن نكون على علم بمدلولها : الإيمان والكفر والنفاق والجحد .

الإيمان : الإنسان منا له قلب يحمل النوايا ، وله قالب يعبر عنها ، كما قال الشاعر :

إنَّ الكَلاَم لَفِى الفُؤَادِ وإنَّمَا ... جُعِلَ اللسَانُ عَلَى الفُؤَادِ دَليلاً

فالإيمان هو الحق الذى يعتقده القلب ، ويقتنع به ، ويوافقه اللسان والقالب ، أما إنْ وافق اللسان القلب فى الباطل فهذا هو الكفر .

لذلك قلنا : إن الكافر منطقى مع نفسه ؛ لأنه نطق بما فى قلبه ، لكنه غير منطقى مع الحق لأنه جحده بقلبه وجحده بلسانه . فليس عنده اختلاف بين القلب واللسان .

أما النفاق فهو أنْ يعتقد القلب الكفر ويضمره ، ويعلن اللسان كلمة الإيمان ، فالمنافق يخالف لسانُه قلبَه ، فهو غير منطقى لا مع الحق ولا مع نفسه ؛ لذلك كان المنافق في الدَّرْك الأسفل من النار ، لأنه أشرُّ من الكافر .

لذلك لما طلب سيدنا رسول الله من القوم أنْ يقولوا : لا إله إلا الله قالتها القلة المؤمنة ، وامتنعت الكثرة الكافرة ، لماذا ؟ لأنهم

يعرفون معناها ، وإلا لَقَالوها من بداية الأمر ، وانتهت المواجهة بين الإيمان والكفر ، فعدم نُطْقهم بها دليل على فهمهم لها ولمطلوباتها .

أما الجاحد فعلى النقيض من المنافق ، فهو مقتنع في نفسه ، لكنه لا يقدر على النطق بما يقتنع به من الحق ؛ لذلك يقول تعالى عنهم : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤) ﴾ [النمل]

ولما طال الجدل بينهم وبين رسول الله قالوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال] بدل أن يقولوا : فاهدنا إليه .

وبعد أنْ قالوا في القرآن أنه سحر ، وأنه أساطير الأولين .. إلخ زهق باطلهم ، وكشف الله جحودهم ، حين حكى قولهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

إذن : فالقرآن لا غبارَ عليه وهو حق ، لولا أنه نزل على هذا الرجل بالذات ، ولو نزل على عظيم من عظماء مكة أو المدينة لآمنَّا به ، وهكذا أثبتوا إيمانهم بالقرآن ، والقرآن يستوجب أنْ يؤمنوا أيضاً بمحمد .

ومعلوم أن الإسلام صاح صيحته الأولى في أذن مَنْ ؟ في أذن كفار مكة وسادة قريش والجزيرة كلها ، وقد كانت لهم الكلمة المسموعة والمنزلة الرفيعة بين العرب جميعاً لقيامهم على خدمة الحجيج ، ووقوع بلادهم على طرق التجارة بين الشمال والجنوب .

إذن : الإسلام لم يستضعف جماعة ليعلن فيهم صيحته الأولى ، إنما اختار السادة ، لكن الله تعالى لم يشأ أنْ ينتصر الإسلام في مكة ؛ لأنه لو انتصر فيها لكان من الممكن أن يقال : قوم من قريش

تعصَّبوا لواحد منهم ليسودوا به العالم كما سادوا الجزيرة .

لذلك لما أعلن سيدنا رسول الله دعوته بين قومه أسرعوا إليه يقولون : يا محمد إنْ كنتَ تريد مُلْكاً ملّكناك علينا ، وإنْ كنت تريد مالاً جمعنا لك المال حتى تصير أغنانا .. فقال قولته المشهورة : « والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أنْ أترك هذا الأمر ما تركته حتى يُظهره الله ، أو أهلك دونه »[1] .

فشاء الله أن تكون الصرخة الأولى في أذن السادة أصحاب الكلمة والسلطة في مكة ، وأن تكون نصرة الدين في المدينة ، لتعلم الدنيا كلها أن الإيمان بمحمد هو الذي خلق العصبية لمحمد ، وليست العصبية لمحمد هي التي خلقتْ الإيمان بمحمد .

ونفهم أيضاً من قوله تعالى : ﴿وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. ⦗١⦘﴾ [الأحزاب] أن غير الكافرين وغير المنافقين لا يكون لهم أمر يُطاع مع أمر رسول الله ؛ لأن المؤمن برسول الله يتلقَّى من رسول الله .

لذلك يُعَدُّ من الخطأ بمكان أن نقول : كيف فعل رسول الله كذا وكذا ؟ فنناقشه ونستدرك عليه ﷺ ، وكيف تجعل من نفسك أيها المؤمن ميزاناً وحكَماً يحكم على أفعال الرسول ويضعها في الميزان ؟

---

(١) أورده ابن هشام في السيرة النبوية (٢٦٦/١) معزواً لابن إسحاق ، أن قريشاً قالوا لأبي طالب : يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنَّا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين ، فبعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فقال له : يا بن أخي ، إن قومك قد جاءوني ، فقالوا لي كذا وكذا ، فأبق عليَّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق ، فقال له ﷺ هذه المقالة .

كمن يناقشون مثلاً مسألة تعدد الزوجات ، ويصل بهم الحدُّ إلى انتقاد رسول الله ، وكأنه يُجرى له محاكمة .

وكيف نعارض رسول الله في هذا ، والله تعالى لم يعارضه ، ولم يَقُلْه من مسألة الرسالة ، بل ارتضى الله فعْل رسوله وباركه ، فلا تجعل من نفسك مقياساً على رسول الله ؛ لأن الأصل أنه هو المقياس الذي نقيس عليه أفعالنا ، فنسأل : أفعل رسول الله ذلك أم لم يفعل ؟ فإنْ فعل فعلنا .

ومن هذا المنطلق سُمِّى الصِّديق صِدِّيقاً ، فلما حدَّثوه أن رسول الله يخبر أنه أتى بيت المقدس في ليلة قال : إنْ كان قال فقد صدق[1] .

والحق سبحانه حين ينهى رسوله عن طاعة الكافرين والمنافقين إنما يُبيِّن له طبيعتهم ، وحقيقة عدائهم له ، فهُمْ غير مخلصين له ، وعليه أن يتهم أمرهم إنْ أمروه ويتهم نهيهم إنْ نَهوْه ، وكيف يُخلِصون في أمره أو نهيه ، وقد جاء ليصادم سيادتهم ، ويكسر جبروتهم وكفرهم ؟

وهَبْهم مخلصين لك لأنك من قريش ، ويريدون نصرتك فينقصهم في نُصْحهم لك العلم والحكمة ، فلا يصح إذن أنْ تقارن بين طاعة الله وطاعة هؤلاء ، مهما كانوا مخلصين لك .

كما نلحظ أن القوم فعلاً طلبوا من رسول الله أشياء ، فكأن الله نبهه قبل أنْ يطلبوا منه إلى ما يُطلب منه من مخالفتهم وعدم طاعتهم . والطاعة فيها مطيع ومطاع ، وهم يريدون أن يكونوا

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (٥/ ٤٠١٢) وتمامه أنه قيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدِّقه بخبر السماء ، فكيف لا أصدِّقه بخبر بيت المقدس ، والسماء أبعد منها بكثير .

مطاعين ، ورسول الله طائع ممتثل لأمرهم ، لكن كيف تقلب المسألة بهذا الشكل ، وما جاء رسول الله إلا ليُشرِّع للناس فيطيعوه ، فهو الذي يأمر ، وهو الذي يُطاع .

فكأن الرسول ﷺ يقول لهم : كيف أقارن بينكم وبين ربي ؟ وقد ثبت ذلك فقد جاء أبو سفيان وعكرمة بن أبي جهل والوليد بن المغيرة والأعور السلمي وانضم إليهم وفد ثقيف ، جاءوا جميعاً إلى المدينة واجتمعوا بعبد الله بن أُبيّ ، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح ، وقد أمَّنهم رسول الله فقالوا : يا محمد كُفَّ عن آلهتنا : اللات والعزى ومناة ، واشهد بأن شفاعتهم تُقبل عند الله ، ونريد أن تحفظ لنا كرامتنا ومهابتنا بين العرب ، فمتِّعنا بآلهتنا سنة وأقرنا على ذلك ، ونتركك وشأنك مع ربك[1] .

فنهاه الله ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. ①﴾ [الأحزاب] لأنك لا ينبغي أن تتراجع أمامهم في شيء أبداً ، وإلاَّ لكنتَ خاضعاً لهذه السيادة المزعومة ، ولأعطيتَهم الفرصة حين تطاوعهم ؛ لأنْ يقولوا : لقد أطاعنا محمد فيصيرون هم الهادين ، وأنت المهدي .

ثم إن هذا الأمر بعدم طاعتهم وهم القادة والصناديد وما زالت الدعوة وليدة تحتاج إلى مهادنة مع أعدائها ، وربما يقول قائل : ولِمَ لم يهادنهم رسول الله حتى يشتدَّ عود الدعوة ، فهم سادة القوم وأصحاب الكلمة والمهابة ؟ لكن منطق الحق يرفض هذه المهادنة ، ويرفض أن يعتمد رسول الله إلا على الله ؛ لذلك قال في الآية

(١) أورد الواحدي في أسباب النزول (ص ٢٦) أن قوله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ① لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ②﴾ [الكافرون] نزلت في رهط من قريش قالوا : يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ، ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يدك قد شركت في أمرنا وأخذت بحظك ، فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره

بعدها : ﴿ وَتَوَكَّلْ على اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٣) ﴾ [الأحزاب]

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) ﴾ [الأحزاب] فالعلم غير الحكمة ، العلم أن تعلم القضايا ، أمّا الحكمة فأنْ تُوظِّف هذه القضايا في أماكنها ، فالعلم وحده لا يكفي ، فالصفتان متلازمتان متكاملتان ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (٢٦) ﴾ [القصص]

فالقوى إنْ كان خائناً لم تنفعك قوته ، كذلك إنْ كان الأمين ضعيفاً فلا تنفعك أمانته ؛ لذلك لما اشتكى أمير المؤمنين إلى أحد خاصته من أهل العراق ، يقول : إن استعملتُ عليهم القوى يُفَجِّرُوه[1] ، وإن استعملتُ عليهم الضعيف يُهينُوه ، فقال له : إن استعملت عليهم القوى فلك قوته وعليه فجوره ، فقال له أمير المؤمنين : ما دُمْتَ قد عرفتَ هذا فلا أُوَلِّى عليهم غيرك .

إذن : فالعلم يعطيك قضايا الخير كله ، والحكمة أنْ تضع الشيء في موضعه ، والقضية في مكانها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ[2] خَبِيرًا (٢) ﴾

---

(١) يفجروه : يُغضبونه ويخالفونه . ويفجرونه أيضاً . يجعلونه يفجر فلا يرعى لهم حرمة [معنى ما في لسان العرب ـ مادة : فجر] .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٧/ ٣٥٧٥) : « قراءة العامة بتاء على الخطاب ، وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم . وقرأ السلمي وأبو عمرو وابن أبي إسحاق « يعملون » بالياء على الخبر » . أي : أن الله كان

- بما تعملون من اتباع ما أوحي إلينا من ربنا ببلاغ رسلنا

- بما يعمل الكافرون والمنافقون من الكيد للإسلام ومحاولة إبعادنا عن اتباعنا ديننا

نلحظ هنا نهياً بين أمرين : الأول ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ .. ① ﴾ [الأحزاب] والآخر ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ .. ② ﴾ [الأحزاب] وبينهما النهى : ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. ① ﴾ [الأحزاب] ووقوع هذا النهى بين هذين الأمرين ترتيب طبيعى ؛ لأنك إذا اتقيتَ الله ستُعلى منهج الحق ، وهذا يؤذى أهل الباطل وأهل الفساد المستفيدين به ، فلا بُدَّ أنْ يأتوا إليك يوسوسون فى أذنك ليصرفوك عن منهج ربك ، وعليك إذن أنْ ترد الأمر إلى ما يوحى إليك وأنْ تتبعه .

وقلنا : إن الوحى : إعلام بخفاء ، فإنْ كان علانية فلا يُعَدُّ وحياً ، ولله تعالى فى وحيه وسائل كثيرة مع جميع خَلْقه ، فيوحى سبحانه إلى الجماد ؛ لأنه قادر على أن يخاطب الجماد ، كما فى قوله سبحانه وتعالى عن الأرض : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ⑤ ﴾ [الزلزلة]

ويوحى إلى النحل : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ⑥⑧ ﴾ [النحل]

ويُوحى إلى غير رسول أو نبى : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي .. ①①① ﴾ [المائدة]

وقال : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. ⑦ ﴾ [القصص]

هذا هو الوحى فى معناه العام ، أما الوحى الخاص فيكون من الله تعالى لرسول مُرْسَل من عنده إلى الخَلْق ، وله طرق متعددة ، فمرة يكون بالنفث فى الروع ، ومرة يكون بالوحى بكلام لا يُرى قائله ، ولا يُعرف مصدره ، ومرة يكون عن طريق رسول ينزل به من الملائكة .

يقول تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا .. ⑤① ﴾ [الشورى]

والقرآن الكريم لم يأت بالإلهام ولا بالكلام من وراء الغيب والحُجُب ، إنما جاء عن طريق رسول ملَك نزل به على رسول الله ، فثبت القرآن من هذا الطريق .

ولا بُدَّ في هذه المسألة من التقارب بين الرسول الملَك ، والرسول البشر ، فلكل منهما طبيعته الخاصة ، ولكي يلتقيا لا بُدَّ من أمرينْ : إما أنْ يرتفع البشر إلى مرتبة الملائكية بحيث يستقبل منها ، أو ينزل الملك إلى مرتبة البشرية بحيث يستطيع أنْ يُلقنها

لذلك جاء في الحديث أن جبريل عليه السلام نزل إلى مجلس رسول الله في صورة بشرية ليُعلِّم الناس أمور دينهم[1] . وكان النبي ﷺ في أول الوحي تأخذه قشعريرة ، ويتصبب جبينه عرقاً ، حينما يأتيه جبريل بالوحي ، وما ذاك إلا لالتقاء الملكية بالبشرية ، فكان ﷺ يبلغ به الجهد حتى يقول : زمِّلوني زمِّلوني ، دثِّروني دثِّروني .

وإذا جاءه الوحي وهو جالس مع أصحابه وركبته على ركبة أحدهم يشعر لها بثقل كأنها الجبل[2] ، أو يأتيه الوحي وهو على دابة فكانت تئط[3] ، لذلك فتر عن رسول الله الوحي بعد فترة ليستريح من هذا الإجهاد ، وتبقى له حلاوة ما أُوحي إليه ، فيتشوق إليه من جديد .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى في صحيحه (٥٠) وكذا مسلم في صحيحه (٨) من حديث عمر بن الخطاب : أن جبريل أتى رسول الله ﷺ بين أصحابه في صورة « رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه أحد » .

(٢) قال زيد بن ثابت (كاتب الوحي) : أنزل الله على رسوله ﷺ ، وفخذه على فخذي ، فثقلت عليَّ حتى خفت أن تُرضَّ فخذي (أي : تكسر وتدق) أخرجه البخارى معلقاً مجزوماً به في كتاب الصلاة - باب ما يذكر في الفخذ ، ووصله في تفسير سورة النساء .

(٣) عن أسماء بنت يزيد قالت : إني لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ إذ أنزلت عليه المائدة كلها فكادت من ثقلها تدق بعضد الناقة . أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٥٥/٦)

وبعدها خاطبه ربه : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤)﴾ [الشرح]

والهدف حينما يكون غالياً ، والغاية سامية يهون في سبيلها كل جهد ، وقد عاد الوحي إلى رسول الله بعد شوق ، وخاطبه ربه بقوله : ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)﴾ [الضحى]

إذن : ثبت القرآن بالوحي عن طريق الرسول الملك ، ولم يثبت بالإلهام أو النفث في الرَّوْع ، أو الكلام من وراء حجاب . يقول تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ .. (٥٢)﴾ [الشورى]

والوحي هنا ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ .. (٢)﴾ [الأحزاب] من مَنْ ؟ ﴿مِن رَّبِّكَ .. (٢)﴾ [الأحزاب] ولم يقل مثلاً رب الخلق ، نعم هو سبحانه رب الخَلْق جميعاً ، لكن محمداً ﷺ سيد الخلق ، فهو رب الخلق من باب أَوْلَى ، وكلمة (ربك) تدل على الحب وعلى الاهتمام ، وأنه تعالى لن يخذلك أبداً ، وما اتصاله بك إلا للخير لك ولأمتك .

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢)﴾ [الأحزاب] الخبير مَنْ وصل إلى منتهى العلم الدقيق ، ومنه قولنا : اسأل أهل الخبرة . يعني : لا يسأل أهل العلم السطحي ، فالخبير هو الذي لا يغيب عنه شيء .

وتلحظ أن الآية السابقة خُتِمتْ بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١)﴾ [الأحزاب] أي : عليماً بما يُشرِّع ، حكيماً يضع الأمر في موضعه ، وقال هنا : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢)﴾ [الأحزاب] أي . بما ينتهي إليه أمرك مع التشريع ، استجابةً أو رفضاً ، فربُّك لن يُشرِّع لك ثم يتركك ، إنما يَخْبُر ما تصنع ، ولو حتى نوايا القلوب .

فالخبرة تدل على منتهى العلم وعلى العلم الواسع ، وهذا المعنى واضح في قوله تعالى في قصة لقمان : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَٰوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) ﴾ [لقمان]

فالخبرة تدل على العلم الواسع الذى لا تفوته جزئية مهما صغرت ، واللطف هو التغلغل في الأشياء مهما كانت دقيقة ، وقلنا : إن الشيء كلما لَطُفَ عَنُفَ .

فكأن الحق سبحانه يقول لرسوله : اطمئن ، فمهما صُودمتَ من خصومك ، ومهما تألبوا عليك ، فربُّك من ورائك لن يتخلى عنك ، وهؤلاء الخصوم خَلْقى ، وأنا معطيهم الطاقات المفكرة والطاقات العاقلة والطاقات المتآمرة ، وسوف أنصرك عليهم في كل مرحلة من مراحل كيدهم لك

لذلك لم يقووا عليك مناظرة ولا جدلاً ، ولم يقدروا عليك حين بيَّتوا لك ليضربوك ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمك بين القبائل ، وخرجتَ من بينهم سالماً تحثو التراب على رؤوسهم ، حتى لما استعانوا عليك بالسحر وبالجن أخبرتُك بما يدبرون لك ، ولم أُسلمْك لكيدهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣) ﴾

يعنى : إياك أن تظن أن واحداً من هؤلاء سوف يساعدك في أمرك ، أو أنه يملك لك ضراً ولا نفعاً ، فلا تُحسن الظن بأوامرهم ولا

بنواهيهم ، ولا تتوكل عليهم فى شىء ، إنما توكل على الله .

ولا بُدَّ أن نُفرِّق هنا بين التوكل والتواكل : التوكل أن تكون عاجزاً فى شىء ، فتذهب إلى مَنْ هو أقوى منك فيه ، وتعتمد عليه فى أن يقضيه لك ، شريطة أن تستنفد فيه الأسباب التى خلقها الله لك ، فالتوكل إذن أن تعمل الجوارح وتتوكل القلوب .

وقد ضرب لنا سيدنا رسول الله ﷺ مثلاً توضيحياً فى هذه المسألة بالطير ، فقال : « لو توكلتم على الله حقَّ توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً[1] وتروح بطاناً »[2] .

أما التواكل فأنْ ترفضَ الأسباب التى قدمها الله لك ، وتقعد عن الأخْذ بها ، وتقول : توكلت على الله ، لا إنما استنفد الأسباب الموجودة لك من ربك ، فإنْ عزَّتْ عليك الأسباب فلا تيأس ؛ لأن لك رباً أقوى من الأسباب ؛ لأنه سبحانه خالق الأسباب .

لذلك ، كثير من الناس يقولون : دعوتُ الله فلم يستجب لى ، نقول : نعم صدقت ، وصدق الله معك ؛ لأن الله تعالى أعطاك الأسباب فأهملتها ، فساعة تستنفد أسبابك ، فثِقْ أن ربك سيستجيب لك حين تلجأ إليه .

واقرأ قوله تعالى ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ .. (٦٢)﴾ [النمل] والمضطر هو الذى عزَّتْ عليه الأسباب ، وخرجتْ عن

---

(١) المخمصة : الجوع ، وهو خلاء البطن من الطعام جوعاً . ومعنى الحديث : أى تغدو الطير بُكرة وهى جياع ، وتروح عشاء وهى ممتلئة الأجواف . [لسان العرب ـ مادة : خمص]

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٣٠ ، ٥٢) ، وابن ماجه فى سننه (٤١٦٤) ، والترمذى فى سننه (٢٣٤٤) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال : حديث حسن صحيح

نطاق قدرته ، كما حدث لسيدنا موسى ـ عليه السلام ـ حين حاصره فرعون وجنوده حتى قال قوم موسى : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء]

نعم ، مدركون ؛ لأن البحر من أمامهم ، والعدو من خلفهم ، هذا رأى البشر وواقع الأمر ، لكن لموسى منفذ آخر فقال : (كلا) يعنى لن نُدْرَك ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء] قالها موسى عن رصيد إيمانى وثقة فى أن الله سيستجيب له .

والبعض يقول : دعوتُ الله فى كذا وكذا ، وأخذت بكل الأسباب ، فلم يستجب لى ، نقول : نعم لكنك لَسْتَ مضطراً ، بل تدعو الله عن ترف كمن يسكن مثلاً فى شقة ويدعو الله أنْ يسكن فى فيلا أو قصر ، فأنت فى هذه الحالة لست مضطراً .

ثم يذكر الحق سبحانه حيثية التوكل على الله ، فيقول ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ﴾ [الأحزاب] أى . يكفيك أنْ يكون الله وكيلك ؛ لأنه لا شيء يتأبَّى عليه ، ولا يستحيل عليه شيء .

وأحكى لكم قصة حدثت بالفعل معنا ، وكنا نسير مع بعض الإخوان فرأينا رجلاً مكفوف البصر يريد أنْ يعبر الشارع فقلنا لزميل لنا : اذهب وخذ بيده ، فنزل وعبر به الشارع ثم قال له : إلى أين تذهب ؟ قال : إلى المنزل رقم كذا فى هذا الشارع ، فأخرج صاحبنا من جيبه عشرة جنيهات ووضعها فى يد الرجل ، فلما أمسك بورقة العشرة جنيهات لم يلتفت إلى المعطى ، إنما رفع وجهه إلى السماء وقال : لا شيء يستحيل عليك أبداً ، ثم قال لصاحبنا : يا بنى ارجعنى مكان ما كنت !! فقد قضيت حاجته التى كان يسعى لها !!

نعم ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ﴾ [الأحزاب] لأنه لا تعوزه أسباب ، ولا

يُثنيه عن إرادته شيء ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ .. (٩٦)﴾ [النحل]

وفي التوكل ملحظ آخر ينبغي أنْ نتنبه إليه ، هو أنك إذا توكلتَ على أحد يقضي لك أمراً فاضمن له أنْ يعيش لك حتى يقضي حاجتك ، فكيف تتوكل على شخص وتُعلِّق به كل آمالك ، وفي الصباح تسمع نعيه : مات فلان ؟

إذن : لا ينبغي أن تتوكل إلا على الله الحي الذي لا يموت : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ .. (٥٨)﴾ [الفرقان] واستغن بوكالة الله عن كل شيء ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٣)﴾ [الأحزاب]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ(١) وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ(٢) ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ (٤)﴾

---

(١) سبب نزول الآية : قال مجاهد : نزلت في جميل بن معمر الفهري ، وكان رجلاً لبيباً حافظاً لما سمع ، فقالت قريش : ما حفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان ، وكان يقول : إن لي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد ﷺ ، فلما كان يوم بدر وهُزم المشركون وفيهم يومئذ جميل بن معمر ، تلقاه أبو سفيان وهو معلق إحدى نعليه بيده والأخرى في رجله ، فقال له : يا أبا معمر ما حال الناس ؟ قال : انهزموا ، قال : فما بالك إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك ؟ قال : ما شعرت إلا أنهما في رجلي ، وعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده . [أسباب النزول للواحدي ص ٢٠١]

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٥٢٧٨/٧) : « أجمع أهل التفسير على أن هذا نزل في زيد ابن حارثة ، وروى الأئمة أن ابن عمر قال : ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزلت ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الأحزاب] » .

ترتبط هذه الآية بالآيات قبلها ، فقد ذكر الله تعالى معسكرين ، معسكراً يجب أنْ يُطاع ، فقال تعالى لرسوله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ .. ① ﴾ [الأحزاب] وقال : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ .. ② ﴾ [الأحزاب] وبينهما معسكر آخر نُهى رسول الله عن طاعته ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. ① ﴾ [الأحزاب]

إذن : نحن هنا أمام معسكرين : واحد يمثل الحق فى أجلى معانيه وصوره ، وآخر يمثل الباطل ، وللقلب هنا دَوْر لا يقبل المواربة ، إما أنْ ينحاز ويغلب صاحب الحق ، وإما أنْ يغلب جانب الباطل ، وما دمت أنت أمام أمرين متناقضين لا يمكن أنْ يجتمعا ، فلا بُدَّ أن تُغلِّب الحق ؛ لأن الله تعالى ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .. ④ ﴾ [الأحزاب] إما الحق وإما الباطل ، ولا يمكن أنْ تتقى الله وتطيع الكافرين والمنافقين ؛ لأن القلب الذى يميل ويغلب قلب واحد .

ومعلوم أن القلب هو أهم عضو فى الجسم البشرى ، فإذا أصيب الإنسان بمرض مثلاً يصف له الطبيب دواءً ، الدواء يُؤخذ عن طريق الفم ويمرُّ بالجهاز الهضمى ، ويحتاج إلى وقت ليتمثل فى الجسم ، فإنْ كانت الحالة أشدَّ يصف حقنة فى العضل ، فيصبُّ الدواء فى الجسم مباشرة ، فإنْ كان المرض أشد يُعْطَى حقنة فى الوريد ، لماذا ؟

ليصل الدواء المطلوب جاهزاً إلى الدم مباشرة ، ليضخه القلب إلى جميع الأعضاء فى أسرع وقت . إذن : فالدم هو الذى يحمل خصائص الشفاء والعافية إلى البدن كله ، والقلب هو (الموتور) الذى يؤدى هذه المهمة ؛ لذلك عليك أنْ تحتفظ به فى حالة جيدة ، بأن تملأه بالحق حتى لا يفسده الباطل .

وسبق أنْ أوضحنا أن الحيز الواحد لا يمكن أنْ يسع شيئين في وقت واحد فما بالك إنْ كانا متناقضين ؟ وقد مثّلْنا هذه العملية بالزجاجة الفارغة إنْ أردتَ أن تملأها بالماء لا بُدَّ أنْ يخرج منها الهواء أولاً ليدخل مكانه الماء .

كذلك الحال في المعاني ، فلا يجتمع حق وباطل في قلب واحد أبداً ، وليس لك أنْ تجعل قلباً للحق وقلباً للباطل ؛ لأن الخالق جعل لك قلباً واحداً ، وجعله محدوداً لا يسع إلا إيمانك بربك ، فلا تزاحمه بشيء آخر .

ويُرْوَى أنه كان في العرب رجل اسمه جميل بن أسد الفهري[1] وكان مشهوراً باللسَن[2] والذكاء ، فكان يقول : إن لي قلبين ، أعقل بواحد منهما مثل ما يعقل محمد ، فشاء الله أنْ يراه أبو سفيان وهو منهزم بعد بدر ، فيقول له : يا جميل ، ما فعل القوم ؟ قال : منهم مقتول ومنهم هارب ، قال : وما لي أراك هكذا ؟ قال : مالي ؟ قال : نعل في كفّك ، ونعل في رجْلك ، قال : والله لقد ظننتهما في رجلي ، فضحك أبو سفيان وقال له : فأين قلباك ؟

وإذا كان القلب هو المضخة التي تضخ الدم إلى كل الجوارح والأعضاء حاملاً معه الغذاء والشفاء والعافية ، كذلك حين تستقر عقائد الخير في القلب ، يحملها الدم كذلك إلى الجوارح والأعضاء ،

(١) ذكر ابن حجر العسقلاني هذه القصة في كتابه « الإصابة في تمييز الصحابة » (٢٥٥/١) في ترجمة جميل بن أسيد الفهري يكنى أبا معمر ويلقب ذا القلبين . وذكرها أيضاً في ترجمة وهب بن عمير الجمحي (٣٢٧/٦) ثم قال : « ذكر الثعلبي هذه القصة لجميل بن معمر . وأن الذي تلقاه فسأله هو أبو سفيان . وأسنده ابن الكلبي في تفسيره عن أبي صالح عن ابن عباس لكن قال : جميل بن أسد »

(٢) اللَّسن : الفصاحة . واللسْن : الكلام واللغة . [لسان العرب ـ مادة : لسن] .

فتتجه جميعها إلى طاعة الله ، فالرِّجْل تسعى إلى الخير ، والعين لا تنظر إلا إلى الحلال ، والأذن تسمع القول فتتبع أحسنه ، واللسان لا ينطق إلا حقاً .

فكل الجوارح إذن لا تنضح إلا الحق الذى تشرَّبته من طاقات الخير فى القلب .

لذلك يُعلِّمنا سيدنا رسول الله هذا الدرس ، فيقول : « إن فى الجسد مضغة ، إذا صلُحَتْ صلُحَ الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[1] .

ثم يأخذ الحق سبحانه من مسألة اجتماع المتناقضين فى قلب واحد مقدمة للحديث عن قضايا المتناقضات التى شاعتْ عند العرب ، فيقول سبحانه : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ .. ④ ﴾ [الأحزاب]

وقد شاع فى الجاهلية حين يكره الرجل زوجته ، يقول لها : أنت علىَّ كظهر أمى ، ومعلوم أن ظهر الأم مُحرَّم على الابن حرمة مؤبدة ، لذلك كانوا يعتبرون هذه الكلمة تقع موقع الطلاق ، فلما جاء الإسلام لم يجعلها طلاقاً ، إنما جعل لها كفارة كذب ؛ لأن الزوجة ليست أماً لك ، وحدد هذه الكفارة إما : عتق رقبة ، أو إطعام ستين مسكيناً ، أو صيام ستين يوماً[2] .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

(٢) قال تعالى فى كفارة الظهار : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ③ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ④ ﴾ [المجادلة]

وهذه المسألة تناولتها سورة (قد سمع) : ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا .. ②﴾ [المجادلة] أى : كذباً ؛ لأن الزوجة لا تكون أماً .

فالحق سبحانه جاء بمتناقض ، وأدخل فيه متناقضاً آخر ، فكما أن القلب الواحد لا تجتمع فيه طاعة الله وطاعة الكافرين والمنافقين ، فكذلك الزوجة لا تكون أبداً أماً ، فهى إما أم ، وإما زوجة .

كذلك وُجد عند العرب تناقض آخر فى مسألة التبنى ، فكان الرجل يستوسم الولد الصغير ، أو يرى فيه علامات النجابة فيتبناه ، فيصير الولد ابناً له ، يختلط ببيته كولده ، ويرثه كما يرثه ولده ، وله عليه كل حقوق الابن .

وهذه متناقضة أيضاً كالسابقة ، فكما أن الرجل لا يكون له قلبان ، وكما أن الزوجة لا تكون أماً بحال ، كذلك المتبنَّى لا يكون ولداً ، فيقول سبحانه ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ .. ④﴾ [الأحزاب]

الدعيُّ : هو الذى تدعى أنه ابنٌ وليس بابن ، وكان هذا شائعاً عند العرب ، وأراد الله سبحانه أنْ يبطل هذه العادة ، ومثلها مسألة الظِّهار ، فألغى القرآن هذه العادات ، وقال : ضعوا كل شيء فى موضعه ، فجعل للظهار كفارة ، ونهى عن التبنى بهذه الصورة .

والحق سبحانه ساعة يريد أنْ يلغى حكماً يقدم صاحب الدعوى نفسه ليطبق هو أمام الناس ؛ لذلك جعل سيدنا رسول الله يبدأ بنفسه ، ويبطل التبنى الذى عنده .

تعلمون أن سيدنا رسول الله ﷺ تزوج من السيدة خديجة ، وكان

لها منزلة عند رسول الله ، وقد اشترى لها حكيم بن حزام[1] عبداً من سوق الرقيق هو زيد بن حارثة ، وكان من بني كلب ، سرقه اللصوص من أهله ، وادعوا أنه عبد فباعوه ، ثم أهدته السيدة خديجة لسيدنا رسول الله ، فصار مولىً لرسول الله ، يخدمه طيلة عدة سنوات ، وما بالكم بمَنْ يكون في خدمة رسول الله ؟

لقد أحبَّ زيدٌ رسولَ الله ، وعَشِق خدمته ، وقال عن معاملته ﷺ له : « لقد خدمتُ رسول الله عشر سنين ، فما قال لشيء فعلتُه : لِمَ فعلتَه ، ولا لشيء تركتُه لِمَ تركتَه »[2] .

وفي يوم من الأيام ، رآه واحد من بني كَلْب في طرقات مكة ، فأخبر أهله به ، فأسرع أبو زيد إلى مكة يبحث عن ولده ، فدلُّوه عليه ، وأنه عند محمد ، فذهب إلى سيدنا رسول الله ، وأخبره خبر ولده ، وطلب منه أنْ يعود معه إلى بني كلب .

ولكن ، ما كان رسول الله ليتخلَّى عن خادمه الذي يحبه كل هذا الحب ، فقال لأبيه : خيِّره ، فإنِ اختاركم فخذوه ، وإن اختارني فأنا له أبٌ ، فلما خيَّروه ـ قال سيدنا زيد : والله ما كنت لأختار على رسول الله أحداً .

عندها أحب رسول الله أن يكافئه على هذا الموقف ، وعلى

---

(١) هو : حكيم بن حزام بن خويلد الأسدي ، عمته خديجة بنت خويلد ، ولد قبل الفيل بـ ١٣ سنة ، كان من سادات قريش ، وكان صديق النبي ﷺ قبل المبعث وكان يوده ويحبه بعد البعثة ،ولكن تأخر إسلامه حتى أسلم عام الفتح . في عام وفاته خلاف ولكنه مات وعمره ١٢٠ سنة . [الإصابة في تمييز الصحابة ٢/٢٣] .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠٣٨) والترمذي في سننه (٢٠١٥) من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه

تمسّكه بخدمته ، فتبنّاه كما تتبنى العرب ، وسمَّوْه بعدها : زيد بن محمد.[1]

فلما أراد الحق سبحانه أنْ يبطل التبنى بدأ بمتبنَّى رسول الله ، ليكون هو القدوة لغيره فى هذه المسألة ، فكيف أبطل الله تعالى هذه البنوة ؟

كان سيدنا رسول الله قد زوَّج زيداً من ابنة عمته زينب بنت جحش ، أخت عبد الله بن جحش ، وقد تعب رسول الله فى إقناع عبدالله وزينب بهذه الزيجة التى رفضتها زينب[2] ، تقول : كيف أتزوج زيداً وهو عبد وأنا سيدة قرشية ؟

ثم تزوجته إرضاءً لرسول الله ، وعملاً بقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ (٣٦)﴾ [الأحزاب]

لكنها بعد الزواج تعالتْ عليه ، أنها من السادة ، وهو من العبيد ، فكَرِه زيد ذلك ، ولم يُطِقْ فأحبَّ أنْ يطلقها ، فذهب إلى رسول الله وشكا إليه ما كان من زينب ، وعرض عليه رغبته فى طلاقها .

فقال له رسول الله : أمسك عليك زوجك ، فعاوده مرة أخرى فقال

(١) أورده ابن سعد فى الطبقات الكبرى (٣/٤٠) ، وابن الأثير فى أسد الغابة (٢/٢٨٢) ، وابن حجر العسقلانى فى الإصابة (٢/٤٩٩) . وفيه أن رسول الله ﷺ قال عندما اختاره زيد على أبيه وعمه : « يا من حضر ، اشهدوا أن زيداً ابنى أرثه ويرثنى . فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا » .

(٢) أورد ابن سعد فى الطبقات (١٠/٩٨) أن زينب بنت جحش قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، لا أرضاه لنفسى وأنا أيم قريش ، قال : فإنى قد رضيته لك ، فتزوجها زيد ابن حارثة .

له : أمسك عليك زوجك فعاوده زيد ، عندها علم رسول الله أن رغبتهما في الطلاق ، وكراهيتهما للحياة الزوجية أمر قدري ، أراده الله لحكمة ، ولأمر تشريعي جديد ، شاء الله أنْ يُوقع البغض بين زيد وزينب ، فبُغْض زينب لزيد كان تعالياً واستكباراً ، وبُغْض زيد لزينب كان اعتزازاً بالنفس .

ولكي يبطل الحق سبحانه تبنّي رسول الله لزيد قضى بأنْ يتزوَّج رسول الله من زينب بعد طلاقها من زيد ، ومعلوم أن امرأة الابن تحرم على أبيه ، فزواج سيدنا رسول الله من زينب يعني أن زيداً ليس ابناً لرسول الله ، ويبطل عادة التبني ، والأثر المترتب على هذه العادة .

وقد أحسَّ رسول الله بشيء في نفسه ، وتردَّد في هذا الزواج مخافة أنْ يقول الناس : إن محمداً أوعز إلى زيد أنْ يُطلِّق زينب ليتزوجها هو ، كما يقول بعض المستشرقين الآن ، وأنه ﷺ كان يضمر حبَّ زينب في نفسه ، وهذه كلها افتراءات على رسول الله ، فالذي يحب امرأة لا يسعى جاهداً لأنْ تتزوج من غيره ، وحين يريد زوجها أنْ يُطلِّقها لا يقول له : أمسكْ عليك زوجك .

ثم لا ينبغي لأحد أنْ يخوض فيما أخفاه رسول الله في نفسه ، من أنه عاشق أو مُحِبٌّ ، لكن انظر فيما أبداه الله ، فالذي أبداه الله هو الذي يُخفيه رسول الله ، واقرأ : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأحزاب]

إذن : الذي كان يُخفيه رسول الله هو أنه يخاف أنْ تتكلَّم به العرب ، وأنْ تقول فيه مَا لا يليق به في هذه المسألة .

ويقول تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا[1] زَوَّجْنَاكَهَا (٣٧)﴾ [الأحزاب] لماذا ؟ ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ .. (٣٧)﴾ [الأحزاب]

وهكذا قرَّر الحق سبحانه مبدأ إبطال التبنى فى شخص رسول الله.

والحق سبحانه حينما يبطل عادة التبنى إنما يبطل عادة ذميمة ، تُقوِّض بناء الأسرة ، وتهدم كيانها ، تؤدى إلى اختلاط الأنساب وضياع الحقوق ، فالولد المتبنَّى يعيش فى الأسرة كابنها ، تعامله الأم على أنه ابنها ، وهو غريب عنها ، كذلك البنت تعامله على أنه أخوها ، وهو ليس كذلك ، وفى هذا من الفساد ما لا يخفى على أحد.

وأيضاً ، فكيف يكون الأب الذى جعله الله سبباً مباشراً لوجودك وتأتى أنت لتردَّ هذه السببية ، وتنقلها إلى غير صاحبها ، وأنت حين تنكر البنوة السَّببية فى أبيك فمن السهل عليك - إذن - أنْ تنكر المسبِّب الذى خلق أولاً ، ولِمَ لا وقد تجرأتَ على إنكار الجميل .

وكذلك الذى ينكر البنوة السببية يتجرأ على أنْ ينسب الأشياء إلى غير أهلها ، فينسب العبادة لغير مستحقها ، وينسب الخَلْق لغير الخالق .

وإلا ، فلماذا يحثُّنا الحق دائماً على برِّ الوالدين ؟ ولماذا قرن بين عبادته سبحانه وبين الإحسان إلى الوالدين فى أكثر من موضع من

---

(١) الوطر هو الحاجة والأرب . أى : لما فرغ منها وفارقها زوجناكها . [قاله ابن كثير فى تفسيره ٣/٤٩١] . ويقول فى القاموس القويم ٢/٣٤٣ : « الوطر : الحاجة التى يعتنى بها الإنسان ويهتم لها وإذا بلغها قيل . إنه قضى وطره ، أى : حقق رغبته وقضى حاجته وانتهى من أمرها . ويقال . فلان قضى وطره من زوجه أى : طلقها » .

كتابه العزيز ، فقال سبحانه : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء] وقال :﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء]

قالوا : لأن الأب هو سبب الوجود المباشر ، فإذا لم تبره ، وأنكرتَ أبوته وتمردْتَ عليها ، فلعلَّك تتمرد أيضاً على سبب الوجود الأصلى ، فالوالدان لهما حق البر والإحسان ، حتى لو كانا كافرين .

لذلك ، لما سُئِل ﷺ : أيسرق المؤمن ؟ قال : نعم ، أيزنى المؤمن ؟ قال : نعم ، أيكذب المؤمن ؟ قال : لا[1] . فالشرع حين يضع للجريمة حَدّاً وعقوبة ، فهذا إيذان بأنها ستحدث فى المجتمع المسلم ، أما الكذب فلم يضع له الشارع حداً ، مع أنه أشد من السرقة ، وأعظم من الزنى ، لماذا ؟

قالوا : لأن المؤمن لا يُتصوَّر منه الكذب ، ولا يجترئ هو عليه ؛ لأنه إنْ عُرِف عنه الكذب وقال أمامك : أشهد أنْ لا إله إلا الله يمكنك أنْ تقول له : أنت كاذب .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ذَٰلِكُمْ .. ﴿٤﴾﴾ [الأحزاب] أى : ما تقدَّم من جَعْل الزوجة أماً ، أو جَعْل الدَّعي ابناً ، فالزوجة لا تكون أبداً أماً ؛ لأن الأم هى التى ولدتْ ، كذلك لا يكون للولد إلا أب واحد ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ .. ﴿٤﴾﴾ [الأحزاب] وهل يكون القول إلا بالأفواه ؟ فماذا أضافتْ الأفواه هنا ؟ قالوا : نعم ، القول بالفم ، لكن أصله فى الفؤاد ، وما اللسان إلا دليل على ما فى الفؤاد ، كما قال الشاعر :

---

(١) أخرجه الإمام مالك بن أنس فى موطئه (ص ٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلاً

إنَّ الكَلامَ لَفِي الفُؤَادِ وَإنَّما جُعِلَ اللسَانُ علَى الفُؤَادِ دَليلاً

إذن : لابدَّ أنْ يكون الكلام نسبة في القلب ، منها تأتى النسبة الكلامية ، فهل ما تقولونه له واقع ؟ هل الزوجة تكون أماً ؟ وهل الولد الدعيُّ يكون ابناً ؟ فهذا كلام من مجرد الأفواه ، لا رصيد له في القلب ولا في الواقع ، فهو - إذن - باطل ، أما الحق فما يقوله الحق سبحانه ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ④﴾ [الأحزاب] والحق هو أن يكون المعتقد في القلب مطابقاً للكائن الواقع .

فالإنسان قد يتكلم بكلام استقر في قلبه حتى صار عقيدة عنده ، وهو كلام غير صحيح ، فحين يخبر بهذا الكلام لا يُسمَّى كاذباً لأنه أخبر على وَفْق اعتقاده ، مع أن الخبر كاذب ، فهناك فَرْق بين كذب الخبر ، وكذب المخبر .

فالحق سبحانه يعاملنا في الأمر المعتقد في القلب : إنْ كان له واقع ، فهو صِدْق في الخبر ، وصِدْق في المخبر ، وإنْ كان المعتقد لا واقعَ له فهو كذب في الخبر ، وصدق في المخبر .

إذن : الأمر المعتقد يكون حقاً ، إنْ كان له واقع ، ويكون كاذباً إنْ لم يكُنْ له واقع ، فإذا لم يكُنْ هناك اعتقاد في القلب أصلاً فهو مجرد كلام بالفم ، وهذا أقل مرتبةً من القول الذي تعتقده وهو غير واقع .

فمعنى ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ ④﴾ [الأحزاب] أي : الواقع الذي يجب أنْ يعتقد ، والإعجاز هنا ليس في أن الله تعالى يقول الحق الواقع بالفعل ، إنما ويخبر بالشيء فيقع في المستقبل على وَفْق ما أخبر سبحانه .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

فالحق سبحانه صادق حين يقول ما كان ، ويصدق حين يقول ما سيكون .

والحق سبحانه حين يقول : ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ .. (٤) ﴾ [الأحزاب] كأنه يقول : قارنوا بين قولين : قَوْل بالأفواه ، وقول بالواقع والاعتقاد ، وإذا كان قَوْل الله أقوى من الاعتقاد فقط فهو من باب أَوْلَى أقوى من القول بالأفواه فقط .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ﴾ [الأحزاب] أى : يهدى السبيل إلى القول الحق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥) ﴾

معنى ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ .. (٥) ﴾ [الأحزاب] يعنى : قولوا : زيد بن حارثة ، لكن كيف يُنزع من زيد هذا التاج وهذا الشرف الذى منحه له سيدنا رسول الله ؟ نعم ، هذا صعب على زيد - رضى الله عنه - لكنه ﴿ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥) ﴾ [الأحزاب] لا عندكم أنتم .

و ﴿ أَقْسَطُ .. (٥) ﴾ [الأحزاب] أفعل تفضيل ، نقول هذا قسْط وهذا أقسط ، مثل عدل وأعدل ، ومعنى ذلك أن الذى اختاره رسول الله من نسبة زيد إليه يُعَدُّ قسطاً وعدلاً بشرياً ، فى أنه ﷺ أحسَّ بالبنوة

وصار أباً لمن اختاره وفضَّله على أبيه .

لكن الحق سبحانه يريد لنا الأقسط ، والأقسط أنْ ندعو الأبناء لآبائهم ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ..(٥)﴾ [الأحزاب] أى : نُعرِّفهم بأنهم إخواننا فى الدين .

ومعنى الموالى : الخدم والنصراء الذين كانوا يقولون لهم « العبيد » ، فالولد الذى لا نعرف له أباً هو أخ لك فى الله تختار له اسماً عاماً ، فنقول مثلاً فى زيد : زيد بن عبد الله ، وكلنا عبيد الله تعالى .

والبنوة تثبت بأمرين : بالعقل وبالشرع ، فالرجل الذى يتزوج زواجاً شرعياً ، وينجب ولداً ، فهو ابنه كوناً وشرعاً ، فإذا زَنَت المرأة - والعياذ بالله - على فراش زوجها ، فالولد ابن الزوج شَرْعاً لا كوناً ؛ لأن القاعدة الفقهية تقول : الولد للفراش ، وللعاهر الحَجَر[1] .

كذلك فى حالة الزوجة التى تتزوج مرة أخرى بعد وفاة زوجها أو بعد طلاقها ، لكنها تنجب لستة أشهر ، فتقوم هنا شبهة أن يكون الولد للزوج الأول ، لذلك يُعَدُّ ابناً شَرْعاً لا كوناً ؛ لأنه وُلد على فراشه .

فإن جاء الولد من الزنا - والعياذ بالله - فى غير فراش الزوجية فهو ابنه كوناً لا شرعاً ؛ لذلك نقول عنه « ابن غير شرعى » .

كما أن فى قوله تعالى : ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الأحزاب] تشريفاً للنبى ﷺ ، فلو قال تعالى : هو قسْط لكان عمل النبى إذن جَوْراً وظلماً ، لكن أقسط تعنى : أن عمل النبى قِسْط وعَدْل .

---

(١) هو حديث لرسول الله ﷺ أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٢٣٩ ، ٢٨٠ ، ٣٨٦ ، ٤٠٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٤٥٨) كتاب الرضاع - باب الولد للفراش (١٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وقوله تعالى : ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ..(٥)﴾ [الأحزاب] يُخْرجنا من حرج كبير في هذه المسألة ، فكثيراً ما نسمع وما نقول لغير أبنائنا : يا بني على سبيل العطف والتودد ، ونقول لكبار السن : يا أبي فلان احتراماً لهم .

فالحق سبحانه يحتاط لنا ويُعفينا من الحرج والإثم ، لأننا نقول هذه الكلمات لا نقصد الأبوّة ولا البنوة الحقيقية ، إنما نقصد تعظيمَ الكبار وتوقيرهم ، والعطف والتحنُّن للصغار ، فليس عليكم إثمٌ ولا ذَنْبٌ في هذه المسألة ، إنْ أخطأتم فيها ، والخطأ هو ألاَّ تذهب إلى الصواب ، لكن عن غير عَمْد .

وإذا كان ربنا - تبارك وتعالى - قد رفع عنا الحرج ، وسمح لنا باللغو حتى في الحلف بذاته سبحانه ، فقال : ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ (٨٩)﴾ [المائدة] فكيف لا يُعفينا من الحرج في هذه المسألة ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥)﴾[الأحزاب] سبق أنْ قُلْنا : أن الفعل إذا أُسْنِد إلى الحق سبحانه انحلَّ عنه الزمن ، فليس مع الله تعالى زمن ماض ، وحاضر ، ومستقبل ، وهو سبحانه خالق الزمن .

لذلك نقول ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥)﴾ [الأحزاب] يعني كان ولا يزال غفوراً رحيماً ؛ لأن الاختلاف في زمن الحدث إنما ينشأ من صاحب الأغيار ، والحق سبحانه لا يطرأ عليه تغيير .

لذلك نخاف نحن من صاحب الأغيار لأنه مُتقلِّب ، ويقول أهل المعرفة : تغيَّروا من أجل ربكم - يعني : من الانحراف إلى الاستقامة- لأن الله لا يتغير من أجلكم ، أنت تتغير من أجل الله ، لكن الله لا يتغير من أجل أحد ، ومادام الحق سبحانه كان غفوراً رحيماً ، وهو سبحانه

لا يتغير ، فبالتالى سيبقى سبحانه غفوراً رحيماً.

وتلحظ فى أسلوب القرآن أنه يقرن دائماً بين هذين الوصفين غفور ورحيم ؛ لأن الغفر سَلْب عقوبة الذنب ، والرحمة مجيء إحسان جديد بعد الذنب الذى غُفِر ، كأنْ تُمسك فى بيتك لصاً يسرق ، فلك أنْ تذهب به للشرطة ، ولك أن تعفو عنه وتتركه ينصرف إلى حال سبيله ، وتستر عليه ، وبيدك أنْ تساعده بما تقدر عليه ليستعين به على الحياة ، وهذه رحمة به وإحسان إليه بعد المغفرة .

وقد عُولِجَتْ هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿وإنْ عاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُم به .. (١٢٦)﴾ [النحل] وهذا التوجيه يضع لنا أول أساس من أسس المغفرة ؛ لأنك لا تستطيع أبداً تقرير هذه المثلية ، ولا تضمن أبداً إذا عاقبتَ أنْ تعاقب بالمثل ، ولا تعتدى ؛ لذلك تلجأ إلى جانب المغفرة ، لكى لا تُدخِل نفسك فى متاهة اعتداء جديد ، يُوجب القصاص منك .

وسبق أنْ حكيْنا قصة المرابى الذى اشترط على مدينه إذا لم يسدِّد ما عليه فى الوقت المحدد أن يأخذ رطلاً من لحمه ، فلما تأخر اشتكاه المرابى عند القاضى ، وذكر ما كان بينهما من شروط ، فأقرَّه القاضى على شرطه ، لكن ألهمه الله أنْ يقول للمرابى : نعم خُذْ رطلاً من لحمه ، لكن بضربة واحدة ، فإنْ زدْتَ عنها أو نقصْتَ وفَّيتاها من لحمك أنت ، عندها تراجع المرابى ، وتنازل عن شَرْطه .

إذن : أجاز لك الشرع القصاصَ بالمثل ليجعل هذه المرحلة صعبة التنفيذ ، ثم يفتح لك الحق سبحانه باب العفو والصفح فى المرحلة الثانية :﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤)﴾ [التغابن]

ثم يُفسرها بحيثية أخرى ، فيقول سبحانه : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

ومعنى كظم الغيظ أننى لم أنفعل انفعالاً غضبياً ينتج عنه ردّ فعلٍ انتقامى ، وجعلتُ غضبى فى قلبى ، وكظمتُه فى نفسى ، وهذه المرحلة الأولى ، أما الثانية فتُخرِج ما فى نفسك من غَيْظ وغضب وتتسامح وتعفو .

ثم المرحلة الثالثة أنْ ترتقى إلى مرتبة الإحسان ، فتُحسن إلى مَنْ أساء إليك ، وهذه رحمة ، والرحمة : أنْ يميل الإنسان بالإحسان لعاجز عنه ، فإنْ كان الأمر بعكس ذلك فلا تُسمَّى رحمة ، كأن يميلَ العبدُ بإحسان إلى سيده .

هذه صور أتتْ فيها الرحمة بعد المغفرة ، وهذا هو الأصل فى المسألة ، وقد تأتى الرحمة قبل المغفرة ، كأنْ تُمسك باللص الذى يسرق فتشعر أنه مُكْره على ذلك ، وليس عليه أمارات الإجرام ، فيرقّ له قلبك ، وتمتد يدك إليه بالمساعدة ، ثم تطلق سراحه ، وتعفو عنه ، فالرحمة هنا أولاً وتبعتها المغفرة .

بعد ذلك لقائل أنْ يقول : ما موقف زيد بعد أنْ أبطل الله تعالى التبنى ، فصار زيدَ بن حارثة بعد أنْ كان زيد بن محمد ؟ وكيف به بعد أنْ سُلب هذه النعمة وحُرم هذا الشرف ؟ أضفْ إلى ذلك ما يلاقيه من عنت المرجفين ، وألسنة الذين يُوغرون صدره ، ويُوقعون بينه وبين رسول الله ، وهو الذى اختاره على أبيه .

لا شكَّ أن الجرعة الإيمانية التى تسلَّح بها زيد جعلتْه فوق هذا كله ، فقد تشرَّب قلبه حبَّ رسول الله ، ووقر فى نفسه قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ

مِنْ أَمْرِهِمْ.. ﴿٣٦﴾ [الأحزاب]

ثم تأتى الآيات لتوضح للناس : لستم أحقَّ على زيد من محمد ، لأن محمداً ﷺ أوْلى بالمؤمنين جميعاً من أنفسهم ، لا بزيد وحده .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾

فالمعنى : إذا كان النبى ﷺ أوْلى بالمؤمنين جميعاً من أنفسهم فما بالكم بزيد ؟ إذن : لستُم أحقَّ على زيد من الله ، ولا من رسول الله ، وإذا كنتم تنظرون إلى الوسام الذى نُزِع من زيد حين صار زيد ابن حارثة بعد أنْ كان زيدَ بن محمد .

فلماذا تُغمضون أعينكم عن فضل أعظم ، ناله زيد من الله تعالى حين ذُكر اسمه صراحةً فى قرآنه وكتابه العزيز الذى يُتْلَى ويُتعبَّد بتلاوته إلى يوم القيامة . فأىُّ وسام أعظم من هذا ؟ فقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأحزاب] قَوْل خالد يَخلُد معه ذِكْر زيد ، وهكذا عوَّض الله زيداً عما فاته من تغيير اسمه .

وقوله تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الأحزاب] ما المراد بهذه الأولوية من النبى ﷺ ؟

قالوا : هي ارتقاءات في مجال الإحسان إلى النفس ، ثم إلى الغير ، فالإنسان أولاً يُحسن إلى نفسه ، ثم إلى القرابة القريبة ، ثم القرابة البعيدة ، ثم على الأباعد ؛ لذلك يقول ﷺ : « ابدأ بنفسك ، ثم بمَنْ تعول »[1]

ويقولون : أوطان الناس تختلف باختلاف همِّها ، فرجل وطنه نفسه ، فيرى كل شيء لنفسه ، ولا يرى نفسه لأحد ، ورجل وطنه أبناؤه وأهله ، ورجل يتعدَّى الأصول إلى الفروع ، ورجل وطنه بلده أو قريته ، ورجل وطنه العالم كله والإنسانية كلها .

فرسول الله ﷺ تعدَّى خيره إلى الإنسانية كلها على وجه العموم ، والمؤمنين على وجه الخصوص ؛ لذلك كان ﷺ إذا مات الرجل من أمته وعليه دَيْن ، وليس عنده وفاء لا يُصلِّي عليه ويقول : « صلُّوا على أخيكم »[2]

والنظرة السطحية هنا تقول : وما ذنبه إنْ مات وعليه دَيْن ؟ ولماذا لم يُصَلِّ عليه الرسول ؟

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال أن رسول الله ﷺ قال لرجل من بني عذرة « ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شيء فلأهلك ، فإن فضل عن أهلك شيء فلذي قرابتك ، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا » أخرجه مسلم في صحيحه (٩٩٧) كتاب الزكاة - باب الابتداء في النفقة بالنفس . أما لفظة « ثم بمن تعول » فقد وردت في حديث آخر عند مسلم أيضاً في صحيحه (١٠٣٤) كتاب الزكاة عن حكيم بن حزام أن رسول الله ﷺ قال : « أفضل الصدقة عن ظهر غِنىً ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول » .

(٢) عن أبي قتادة قال : أتي النبي ﷺ برجل ليصلي عليه ، فقال النبي « صلوا على صاحبكم فإن عليه ديناً » قال أبو قتادة : هو عليَّ . فقال ﷺ : بالوفاء ؟ قال : بالوفاء . فصلى عليه . أخرجه الترمذي في سننه (١٠٦٩) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

قالوا : لم يمنع الرسولُ الصلاة عليه وقال : صلُّوا على أخيكم ؛ لأنه قال في حديث آخر : « مَنْ أخذ أموال الناس يريد أداءها - لم يَقُل أدّاها - أدى الله عنه »[1]

أما وقد مات دون أنْ يؤدي ما عليه ، فغالب الظن أنه لم يكُنْ ينوي الأداء ؛ لذلك لا أصلي عليه . فلما نزل قوله تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ .. (٦) ﴾ [الأحزاب] صار رسول الله يتحمل الدَّيْن عمَّنْ يموت من المسلمين وهو مدين ، ويؤدي عنه رسول الله ، وهذا معنى ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ .. (٦) ﴾ [الأحزاب] فالنبي أَوْلى بالمسلم من نفسه .

ثم ألم يَقُلْ سيدنا رسول الله ﷺ أمام عمر : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من : نفسه ، وماله ، والناس أجمعين » ولصدْق عمر - رضي الله عنه - مع نفسه قال : نعم يارسول الله ، أنت أحبُّ إليَّ من أهلي ومالي ، لكن نفسي .. فقال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه »[2]

فلما رأى عمر أن المسألة عزيمة فَطِن إلى الجواب الصحيح ، فلابُدَّ أن الله أنطق رسوله بحُبٍّ غير الحبِّ الذي أعرفه ، إنه الحب العقلي ، فمحمد ﷺ أحبُّ إليه من نفسه ، والإنسان حين يحب الدواء

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/٣٦١ ، ٤١٧) والبخاري في صحيحه (٢٣٨٧) وابن ماجة في سننه (٢٤١١) عن أبي هريرة .

(٢) عن جد زهرة بن معبد قال : كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : والله يا رسول الله ، لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا نفسي . فقال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » قال : فأنت الآن والله أحب إليَّ من نفسي . فقال رسول الله ﷺ : « الآن يا عمر » . أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/٣٣٦) .

المرءُ إنما يحبه بعقله لا بعاطفته ، وكما تحب الولد الذكى حتى لو كان ابناً لعدوك ، أما ابنك فتحبه بعواطفك ، وتحب مَنْ يثنى عليه حتى لو كان غبياً مُتخلِّفاً .

ومشهورة عند العرب قصة الرجل الغنى الذى رزقه الله بولد متخلف ، وكَبِر الولد على هذه الحالة حتى صار رجلاً ، فكان الطالبون للعطاء يأتونه ، فيُثْنون على هذا الولد ، ويمدحونه إرضاء لأبيه ، وطمعاً فى عطائه ، مع أنهم يعلمون بلاهته وتخلُّفه ، إلى أن احتاج واحد منهم ، فنصحوه بالذهاب إلى هذا الغنى ، وأخبروه بنقطة ضَعْفه فى ولده .

وفعلاً ذهب الرجل ليطلب المساعدة ، وجلس مع هذا الغنى فى البهو ، وفجأة نزل هذا الولد على السُّلم كأنه طفل يلعب لا تخفى عليه علامات البَلَه والتخلف ، فنظر الرجل إلى صاحب البيت ، وقال : أهذا ولدك الذى يدعو الناس له ؟ قال : نعم ، قال : أراحك الله منه ، والأرزاق على الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : أن أزواجه ﷺ أمهات المؤمنين ، وعليه فخديجة رضى الله عنها أم لرسول الله بهذا المعنى ؛ لأنه أول المؤمنين ؛ لذلك كانت لا تعامله معاملة الزوجة ، إنما معاملة الأم الحانية .

ألاَ تراها كيف كانت تحنُو عليه وتحتضنه أول ما تعرَّض لشدة الوحى ونزول الملك عليه ؟ وكيف كانت تُطمئنه ؟ ولو كانت بنتاً صغيرة لاختلفَ الأمر ، ولاتهمتْه فى عقله . إذن : رسول الله فى هذه المرحلة كان فى حاجة إلى أم رحيمة ، لا إلى زوجة شابة قليلة الخبرة .

وزوجاته ﷺ يُعْتبرن أمهات للمؤمنين به ؛ لأن الله تعالى قال مخاطباً المؤمنين . ﴿ وما كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا.. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] لماذا ؟ لأن الرجال الذين يختلفون على امرأة توجد بينهم دائماً ضغائن وأحقاد .

فالرجل يُطلِّق زوجته ويكون كارهاً لها ، لكن حين يتزوجها آخر تحلو في عينه مرة أخرى ، فيكره مَنْ يتزوجها ، وهذه كلها أمور لا تنبغي مع شخص رسول الله ، ولا يصح لمن كانت زوجة لرسول الله أن تكون فراشاً لغيره أبداً ؛ لذلك جعلهن الله أمهات للمؤمنين جميعاً ، وهذه الحرمة لا تتعدى أمهات المؤمنين إلى بناتهن ، فمَنْ كانت لها بنت فلتتزوج بمَنْ تشاء .

إذن : لا يجوز لإنسان مؤمن برسول الله ويُقدِّره قدره أنْ يخلفه على امرأته .

لذلك كان تعدد الزوجات في الجاهلية ليس له حدٌّ معين ، فكان للرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء ، فلما جاء الإسلام أراد أنْ يحدد العدد في هذه المسألة ، فأمر أنْ يُمسك الرجل أربعاً منهن ، ثم يفارق الباقين[1] ، بمعنى أنه لا يجمع من الزوجات أكثر من أربع .

أما رسول الله ﷺ فقد أمسك تسعاً من الزوجات ، وهذه المسألة أخذها المستشرقون مأخذاً على رسول الله وعلى شرع الله ، كذلك مَنْ لَفَّ لَفَّهم من المسلمين .

---

(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وله عشر نسوة في الجاهلية ، فأسلمن معه ، فأمره النبي ﷺ أن يتخير أربعاً منهن . أخرجه الترمذي في سننه (١١٢٨) ، وابن ماجة في سننه (١٩٥٣) موصولاً . وأخرجه الإمام مالك في موطئه مرسلاً عن ابن شهاب الزهري بلفظ : « أمسك منهن أربعاً ، وفارق سائرهن » .

ونقول لهؤلاء : أنتم أغبياء ، ومَنْ لفَّ لفكم غبي مثلكم ؛ لأن هذا الاستثناء لرسول الله جاء من قول الله تعالى له : ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ.. (٥٢) ﴾ [الأحزاب]

يعني : إنْ ماتت إحداهن لا تتزوج غيرها ، حتى لو مُتْنَ جميعاً لا يحل لك الزواج بغيرهن ، في حين أن غيره من أمته له أنْ يتزوج بدل إحدى زوجاته ، إنْ ماتت ، أو إنْ طلقها ، وله أنْ يُطلِّق منهن مَنْ يشاء ويتزوج مَنْ يشاء ، شريطة ألاَّ يجمع منهن أكثر من أربع ، فعلى مَنْ ضيَّق هذا الحكم ؟ على رسول الله ؟ أم على أمته ؟ إذن : لا تظلموا رسول الله .

ثم ينبغي على هؤلاء أنْ يُفرِّقوا بين الاستثناء في العدد والاستثناء في المعدود ، فكَوْن رسول الله يكتفي بهؤلاء التسع لا يتعدَّاهن إلى غيرهن ، فالاستثناء هنا في المعدود ، فلو انتهى هذا المعدود لا يحلّ له غيره ، ولو كان الاستثناء في العدد لجاز لكم ما تقولون .

ومن ناحية أخرى : حين يمسك الرجل أربعاً ، ويفارق الباقين من زوجاته لهن أنْ يتزوجن بغيره ، لكن كيف بزوجاته ﷺ إنْ طلق خمساً منهن ، وهُنَّ أمهات المؤمنين ، ولا يحل لأحد من أمته الزواج منهن ؟ إذن : الخير والصلاح في أنْ تبقى زوجات الرسول في عصمته .

وما دام ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ.. (٦) ﴾ [الأحزاب] كذلك يجب أن يكون المؤمنون أوْلى برسول الله من نفسه ، ليردُّوا له هذه التحية ، بحيث إذا أمرهم أطاعوه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ (٦) ﴾ [الأحزاب]

كلمة (وأُولُوا الأرْحام) مأخوذة من الرحم ، وهو مكان الجنين في بطن أمه ، والمراد الأقارب ، وجعلهم الله أوْلى ببعض ؛ لأن المسلمين الأوائل حينما هاجروا إلى المدينة تركوا في مكة أهلهم وأموالهم وديارهم ، ولم يشأ أنصار رسول الله أن يتركوهم بقلوب متجهة إلى الأزواج .

فكانوا من شدة إيثارهم لإخوانهم المهاجرين يعرض الواحد منهم على أخيه المهاجر أنْ يُطلِّق له إحدى زوجاته ليتزوجها[1] . وهذا لوْن من الإيثار لم يشهده تاريخ البشرية كلها ؛ لأن الإنسان يجود على صديقه بأغلى ما في حوزته وملكه ، إلا مسألة المرأة ، فما فعله هؤلاء الصحابة لون فريد من الإيثار .

وحين آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار هذه المؤاخاة اقتضت أنْ يرث المهاجر أخاه الأنصاري ، فلما أعزَّ الله الإسلام ، ووجد المهاجرون سبيلاً للعيش أراد الحق سبحانه أنْ تعود الأمور إلى مجراها الطبيعي ، فلم تَعُدْ هناك ضرورة لأنْ يرث المهاجر أخاه الأنصاري .

فقررت الآيات أن أُولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في مسألة الميراث ، فقال سبحانه : ﴿ وأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ .. (٦) ﴾ [الأحزاب] فقد استقرت أمور المهاجرين ، وعرف كل منهم طريقه ورتَّب أموره ، والأرحام في هذه

---

(١) حدث هذا مع عبد الرحمن بن عوف المهاجر من مكة ، وسعد بن الربيع الأنصاري ، حيث قال له سعد : أخي أنا أكثر أهل المدينة مالاً ، فانظر شطر مالي فخذْه ، وتحتي امرأتان فانظر أيتهما أعجب إليك حتى أطلقها لك . فقال له عبد الرحمن : بارك الله لك في أهلك ومالك ، دلوني على السوق . الخبر بطوله أخرجه ابن سعد في الطبقات (١١٧/٣)

الحالة أوْلَى بهذا الميراث .

وقوله تعالى : ﴿ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ .. (٦) ﴾ [الأحزاب] تنبيه إلى أن الإنسان يجب عليه أنْ يحفظ بُضْعة اللقاء حتى من آدم عليه السلام ؛ لأنك حين تتأمل مسألة خَلْق الإنسان تجد أننا جميعاً من آدم ، لا من آدم وحواء .

يُرْوى أن الحاجب دخل على معاوية ، فقال له : رجل بالباب يقول : إنه أخوك ، فقال معاوية : كيف لا تعرف إخوتي ، وأنت حاجبي ؟ قال : هكذا قال ، قال : أدخله ، فلما دخل الرجل سأله معاوية : أي إخوتي أنت ؟ قال : أخوك من آدم ، فقال معاوية : نعم ، رحم مقطوعة ، والله لأكونَنَّ أول مَنْ يصلها .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفاً .. (٦) ﴾ [الأحزاب] الحق سبحانه يترك باب الإحسان إلى المهاجرين مفتوحاً ، فمَنْ حضر منهم قسمة فليكُنْ له منها نصيب على سبيل التطوع ، كما جاء في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً (٨) ﴾ [النساء]

وقوله سبحانه : ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً (٦) ﴾ [الأحزاب] أي : في أم الكتاب اللوح المحفوظ ، أو الكتاب أي : القرآن .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى قضية عامة لموكب الرسل جميعاً

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً (٧) ﴾

كلمة (إذ ، إذا) ظرف لحدث ، تقول : إذا جاءك فلان فأكرمه ، فالإكرام مُعلّق بالمجيء ، والمعنى هنا : واذكر إذْ أخذ الله من النبيين ميثاقهم ، وهذه قضية عامة في الرسل جميعاً ، ثم فصَّلها الحق سبحانه بقوله :

﴿ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ .. (٧) ﴾ [الأحزاب]

الميثاق : هو العهد يُؤخذ بين اثنين ، كالعهد الذي أخذه الله تعالى أولاً على الخَلْق جميعاً ، وهم في مرحلة الذَّرّ ، والذي قال الله عنه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

فما العهد الذي أخذه الله على النبيين ؟ العهد هنا هو : الاصطفاء والاختيار من الله لبشر أنْ يكون رسولاً وسفيراً بين الله تعالى والخلق ، وحين يصطفي الله رسولاً ليبلِّغ الناس شرع الله ، هذا الاصطفاء لا يرد ، إذن : فهو عرض مقبول ، وحين يقبله الرسول كأنه أخذ عهداً وميثاقاً من الله تعالى بأنْ يحمل رسالة الله إلى الخَلْق ، فهي - إذن - مسألة إيجاب وقبول .

فقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ .. (٧) ﴾ [الأحزاب] الآخذ هو الحق سبحانه ، والمأخوذ منه هم النبيون ، والميثاق : العهد الموثّق ، والعهد تعاهد وتعاقد بين طرفين على أمر يُحقِّق الصالح عندهما معاً ، ولو اختلف واحد منهما ما تَمَّ العقد ، فإنْ كان الطرفان متساويين اشترط كل منهما ما يراه لنفسه في العقد .

فإنْ كان الميثاق من الأعلى إلى الأدنى فهو الذي يأخذ العهد للأدنى ، لماذا ؟ لأنك جعلتَه في مرتبة أنْ يعطي عهداً ، ويُوثق بينك وبينه أشياء ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ .. (٧) ﴾ [المائدة]

والمواثقة مفاعلة بين الطرفين : أنتم واثقتموه به وهو واثقكم به ؛ لأن

الرسل حين يختارهم الله ، لا شكَّ أنه سبحانه يعلم حيث يجعل رسالته . فإذا اختار الله رسولاً ، فقبول الرسول للرسالة ارتضاء منه بما يريده الله من العهد .

وهل رأينا رسولاً في موكب الرسالات عُرِضَتْ عليه الرسالة فرفضها ؟ إذن : قبول الرسالة كأنه العهد ، جاء من طرف واحد في إملاء شروطه ؛ لأنه الطرف الأعلى ، وحيثية التوثيق في أن الله اختاره ، وجعله أهْلاً للاصطفاء للرسالة .

لذلك رأينا في قصة سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ لما اصطفاه الله للرسالة آنس من نفسه أنها مسألة كبيرة بالنسبة له ، لكن لم يردَّها ، إنما طلب من الله أنْ يسانده في هذه المسئولية أخوه هارون ، فقال للحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا[1] يُصَدِّقُنِي .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [القصص]

فلم يقل : أنا لا أصلح لهذه المسألة ، إنما أذعن لأمر الله ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته ، ومسألة العقدة التي في لسانه يستعين عليها بأخيه .

إذن : كلمة (الميثاق) تدور حول الشيء المؤكَّد الموثَّق ، ومنه قوله تعالى عن الأعداء : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ[2] فَشُدُّوا الْوَثَاقَ .. ﴿٤﴾ ﴾ [محمد]

ثم يأتي تفصيل هذه القضية العامة : ﴿ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ

---

(١) ردأه : قوّاه وأعانه . والردء : المعين والناصر . [القاموس القويم ١/ ٢٦٠] .

(٢) أثختموهم : غلبتموهم وكثر فيهم الجراح . وأثخنته الجراح : أوهنته . والإثخان في كل شيء : قوته وشدته . [لسان العرب ـ مادة : ثخن] .

﴿ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الأحزاب]

قوله (مِنْكَ) أى من سيدنا رسول الله ، خاتم الأنبياء والمرسلين ، لكن لماذا قدَّم محمداً ﷺ على نوح عليه السلام ، وهو الأب الثاني للبشرية كلها بعد آدم عليه السلام ؟

نعلم أن البشرية كلها من سلالة آدم عليه السلام ، إلى أنْ جاء عهد نوح عليه السلام ، فانقسموا إلى مؤمن وكافر ، ثم جاء الطوفان ولم يَبْقَ على وجه الأرض إلا نوح ومَنْ آمن به ، فكان هو الأب الثاني للبشر بعد سيدنا آدم .

لذلك يقول البعض إن نوحاً عليه السلام رسالته عامة ، كما أن رسالة محمد عليه الصلاة والسلام عامة . ونقول : عمومية نوح كانت لمن آمن به ولأهل السفينة في زمن معلوم ومكان محدد ، أما رسالة محمد فهي عامة في كل الزمان ، وفي كل المكان .

أما تقديم ذكر محمد ﷺ أولاً ؛ لأن الواو هنا عادة لا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً ، إنما هي لمطلق الجمع ، ثم قدم رسول الله لأنه المخاطب بهذا الكلام ، ومن إكرام الله لرسوله أنْ يبدأ به في مثل هذا المقام ، ثم لهذا التقديم ملحظ آخر نفهمه من قوله ﷺ عن نفسه « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين »[1] .

ثم يخصُّ بالذكر هنا نوحاً ؛ لأنه الأب الثاني للبشر ، ثم إبراهيم وموسى وعيسى ، فإبراهيم ، لأن العرب كانت تؤمن به ، وتعلم أنه

---

(١) قال السيوطي في « الدرر المنتثرة » (ص ٢١٣) : « لا أصل له بهذا اللفظ » وقد أخرج الترمذي في سننه (٣٦٠٩) من حديث أبي هريرة قال : قالوا يا رسول متى وجبت لك النبوة ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد . قال الترمذي : حديث حسن صحيح غريب . وفي الباب عن ميسرة الفجر .

أبو الأنبياء ، وتقدُّر علاقته بالكعبة ورَفْع قواعدها ، وأنه قدوة فى مسألة الذَّبْح والسَّعْى وغيرها .

وموسى وعيسى ؛ لأن اليهودية والمسيحية ديانتان معاصرتان لدعوة رسول الله ، حيث كان اليهود فى المدينة ، والنصارى فى نجران ، وهما أهل الكتاب الذين كان بينهم وبين رسول الله مواقف شتى ، وكانت لهم فى الجزيرة العربية السيادة العلمية والسيادة الاقتصادية والسيادة العمرانية والسيادة الحربية ، وكأنهم هم أصحاب هذه البلاد .

ومن العجيب أن هؤلاء كان الله سبحانه - فى ميثاقهم مع أنبيائهم - يدخرهم ليشهدوا لمحمد بصدْق دعوته ؛ لذلك كانوا يستفتحون بمحمد على الذين كفروا ويقولون لعبدة الأصنام : لقد أطلَّ زمان نبى ستتبعه ، ونقتلكم به قتْل عاد وإرم ، فكانوا يعرفون زمان رسول الله وموطنه ، وأنه سيُبعث فى أرض ذات نخل ، ومن صفاتها كذا وكذا ؛ لذلك لما قطَّعهم الله فى الأرض أمماً وشتتهم ، جاء المشتغلون منهم بالعلم إلى يثرب ينتظرون بعثته ﷺ .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾ [الرعد]

إذن : فأهل الكتاب كان من المفترض فيهم أنْ يشهدوا لرسول الله بصدْق الرسالة ، لكن يحكي القرآن عنهم بعد هذا كله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾ [البقرة]

فكيف إذن تم هذا التحول ؟ وكيف تنقلب عقيدة القلب إلى تمرُّد القالب ؟ قالوا : إنها السلطة الزمنية التى أحبوا أنْ تبقى ، وأنْ تدوم لهم ، فقد بُعث الرسول وهم أهل مال وتجارة وأهل حِرَف وعمارة ،

وخافوا من رسول الله ومن الدين الجديد أن يسلبهم هذه المكانة ، وأنْ يقضي على هذه السيادة ، لذلك قال القرآن عنهم : ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩٠)﴾ [البقرة]

لهذا خصَّ بالذكْر هنا موكب الأنبياء موسى وعيسى عليهما السلام .

ونلحظ أن السياق ذكر موسى عليه السلام ، ولم يذكر له أبا ، أما في عيسى عليه السلام فقال : ﴿عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ.. (٧)﴾ [الأحزاب] وهذا دليل على أنه يؤكد الأصالة في الإنجاب ، فالأب هو الأصل إنْ وُجد مع الزوجة ، فإنْ لم يوجد الأب فالأبوة للزوجة ؛ لذلك نسب عليه السلام إلى أمه .

وجاءت هذه المسألة لتبرهن على طلاقة القدرة الإلهية ، فمسألة الخَلْق ليست عملية ميكانيكية تخضع لقانون ، إنما هي قدرة الله التي خلقتْ آدم بدون أب ولا أم ، وخلقت حواء من أب دون أم ، وخلقتْ عيسى عليه السلام من أم بدون أب ، وخلقتْ سائر الخَلْق من أب وأم ، وهكذا استوفى الخَلْق القسمة العقلية في كل صورها .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٧)﴾[الأحزاب] أي : من الأنبياء ، والميثاق الغليظ أي المؤكد ، فقد وسَّعه الله وأكده حينما أخبر أنبياءه ورسله أنهم سيُضطهدون وسيُحاربون من أممهم .

لذلك لم يُوصَف الميثاق بأنه غليظ إلا في هذا الموضوع ، وفي علاقة الرجل بالمرأة حين يطلقها ، وقد فرض لها مهراً ، فينبغي أنْ يُؤديه إليها ، ولو كان قنطاراً ، يقول سبحانه : ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٢١)﴾ [النساء]

فسمّى الميثاق بين الزوجين ميثاقاً غليظاً أى : قوياً ومتيناً ؛ لأنه فى العِرْض ، ولم يُوصَف الميثاق فيما دون ذلك بأنه غليظ .

وهذا الميثاق الذى أخذه الله تعالى على الرسل المذكِّرين المبشِّرين المنذرين جاء تفصيله فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي[1] قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)﴾ [آل عمران]

والشيء الذى شهد الله عليه لا يحتاج إلى قضاء ، لكن لماذا أخذ الله هذا العهد ؟ قالوا : لأن الذى لا يؤمن بإله ليس لديه دين يتعصَّب له حين يأتى رسول جديد ، لكنَ من الصَّعب على الإنسان أن يكون له دين ، ثم يأتى رسول جديد ليزحزحه عن دينه ، وهنا تكمن المشقة التى يعانيها الرسل .

لذلك قال الله تعالى للرسل : من تمام ميثاقكم أن تقولوا لأقوامكم إذا جاءكم رسول مُصدِّق لما معكم لتُؤمنن به ولتنصرنه [2]، ثم أقررهم على ذلك ، وأشهدهم عليه فشهدوا . والمعنى : إياكم أن تتركوا أممكم التى تؤمن بكم بدون أنْ تضعوا لهم هذه القاعدة ، ففيها الوقاية لهم .

---

(١) الإصر : القيد والثقل والعهد المؤكد . وسميت التكاليف الشاقة إصراً ؛ لأنها تشق على المكلَّف وتثقل عليه ، وقوله ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي .. (٨١)﴾ [آل عمران] أى : عهدى [القاموس القويم ١/٢٦] .

(٢) أخرج ابن جرير الطبرى عن على بن أبى طالب قال : لم يبعث الله نبياً ، آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد ، لئن بُعث وهو حي ليؤمنن به ، ولينصرنه ، ويأمره فيأخذ العهد على قومه ، ثم تلا ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ .. (٨١)﴾ [آل عمران] [ذكره السيوطى فى الدر المنثور فى التفسير المأثور ٢/٢٥٣] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾

اللام هنا فى ﴿ لِيَسْأَلَ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الأحزاب] لام التعليل ، فالمعنى أننا أخذنا من النبيين الميثاق ، لكن لن نتركهم دون سؤال ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الأحزاب] لماذا ؟ ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الأحزاب] لكن إذا كان المبلِّغ صادقاً ، فكيف يسأل عن صدقه ؟

سؤال الصادق عن صدْقه ليس تبكيتاً للصادق ، إنما تبكيتاً لمن كذَّب به ، سنسأل الرسل : أبلغتم هؤلاء ؟ ويقول تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ .. ﴿١٠٩﴾ ﴾ [المائدة] ويسأل الله القوم : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا .. ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الأنعام]

فالاستفهام هنا للتقريع والتبكيت لمن كذَّب .

أو : يكون المعنى ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : أنتم بشَّرتم بأن الإله واحد ، فأنتم صادقون ؛ لأنكم أخذتُمْ هذه منى ، ولما قامت الساعة ولم تجدوا إلهاً آخر يحمى الكافرين ، إذن : فقد صدقت فيما أخبرت به ، وصدقتم فيما بلغتم عنى ، حيث لم تجدوا فى الآخرة إلا الإله الواحد .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور] ولو كان معه سبحانه إله آخر لدافع عن هؤلاء الكافرين ، ومنعهم من العذاب .

كذلك يسأل الرسل عن البعث الذى وعد الله به ، وبلَّغوه لأممهم ،

وعن الحساب وما فيه من ثواب وعقاب ، وكان الحق سبحانه يسألهم : هل تخلَّف شيء مما أخبرتكم به ؟ هل قصرت في إثابة المحسن أو معاقبة المسيء ؟ إذن : صدق كلامي كله .

كما تجلس مع ولدك مثلاً تراجع معه المواد الدراسية ، وتحثُّه على المذاكرة فيُوفَّق في الامتحان ، ثم تسأله : ماذا فعلت في إجابة السؤال الفلاني ؟ فأنت لا تقصد الاستفهام ، إنما تستعيد معه أمجاد ما أنجزه بالفعل تسأله عن توفيق الله له ، كذلك الحق سبحانه يستعيد مع الرسل وَقْفتهم لدين الله وإعلاءهم كلمة الحق في هذه الساعة ولا مردَّ لها

إذن : فسؤال الصادقين عن صدقهم تكريم لهم ، وشهادة بأنهم أدَّوْا ما عليهم ، وهو كذلك تبكيت لمن كذَّب بهم[1] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾ [الأحزاب] والفعل الماضي هنا دليل على أن كل شيء معدٌّ وموجود سلفاً ، ولن ينشيء الحق سبحانه شيئاً جديداً ، كذلك قال عن الجنة ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [آل عمران]

وسبق أنْ أوضحنا أن الله تعالى خلق الجنة لتسع الناس جميعاً إنْ آمنوا ، وخلق النار كذلك تسع الناس جميعاً إنْ كفروا ، يعني : لن تكون هناك أزمة أماكن ، فإذا ما أخذ أهل الإيمان أماكنهم من الجنة

---

(١) قال القرطبي في تفسيره عند تفسير هذه الآية (٥٣٨٨/٧) :

« فيه أربعة أوجه

أحدها : ليسأل الأنبياء عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم ، حكاه النقاش .

الثاني : ليسأل الأنبياء عما أجابهم به قومهم ، حكاه علي بن عيسى .

الثالث : ليسأل الأنبياء عن الوفاء بالميثاق الذي أخذه عليهم ، حكاه ابن شجرة

الرابع : ليسأل الأفواه الصادقة عن القلوب المخلصة » .

تبقى أماكن الذين كفروا شاغرة ، فيقول تعالى للمؤمنين : خذوها أنتم :[1] ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢)﴾ [الزخرف]

وقد وصف العذاب مرة بأنه أليم ، ومرة بأنه مهين ، ومرة بأنه عظيم ، ومرة بأنه شديد ، ولكل منها ملحظ ، فالأليم يُلحظ فيه القسوة والإيلام ، والعذاب المهين يُلحظ فيه إهانة المعذَّب والنيل من كرامته ، فمن الناس مَنْ يحاول التجلُّد ، ويُظهر تحمل الألم وعدم الاكتراث به ، في حين يؤلمه أنْ تنال من كرامته ، فيناسبه العذاب المهين .

لذلك يُرْوى في التجلد أن رجلاً دخل على معاوية في مرضه ، وهو يُظهر للناس أنه بخير وصحته على ما يرام ، فقال له الرجل :

وَإِذَا المنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارهَا ... أَلفيْتَ كُلَّ تَميمةٍ لاَ تَنْفَعُ

ففطن معاوية إلى مقصده ، وأجابه من نفس قصيدة أبي ذؤيب[2] :

وَتجلُّدِي للشَّامتِينَ أُرِيهمُو ... أَنِّي لرِيْبِ الدهْرِ لاَ أَتَضَعْضَعُ[3]

أما العذاب العظيم فلعظمه في ذاته ، ولكبر حجمه يعني ليس صغيراً ، أو يكون صغير الجرم ، لكن عظمته في صفاته ، أو في بقاء

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ، ومنزل في النار ، فالكافر يرث المؤمن منزله في النار ، والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة ، وذلك قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢)﴾ [الزخرف] أورده السيوطي في الدر المنثور (٧/٣٩٤) وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه

(٢) عزاه شهاب الدين محمود الحلبي في كتابه « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » ص ١٣٢ لأبي ذؤيب الهذلي . وانظر ديوان الهذليين القسم الأول ص ٣ . [وعزاه ابن منظور لأبي ذؤيب في اللسان ـ مادة : ضعع]

(٣) الضعضعة : الخضوع والتذلل . والضعضاع : الضعيف من كل شيء . ورجل ضعضاع أي : لا رأي له ولا حزم . [لسان العرب ـ مادة : ضعضع] .

أثره في زمن طويل .

ويُوصَف العذاب بأنه شديد لشدة المعذِّب سبحانه ؛ لأنه سبحانه إذا أخذ فأخْذه أخْذ عزيز مقتدر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾

أراد الحق سبحانه أنْ يُدلِّل على قوله لرسوله في الآيات السابقة : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴿٣﴾ ﴾[الأحزاب] فجاء بحادثة جمعتْ كل فلول خصومه ، فقد سبق أن انتصر عليهم متفرقين ، فانتصر أولاً على كفار مكة في بدر ، وانتصر على اليهود في بني النضير وبني قينقاع ، وهذه المرة اجتمعوا جميعاً لحربه ﷺ ، ومع ذلك لن يؤثر جمعهم في الصدِّ عن دعوتك ، وسوف تُنصَر عليهم بجنود من عند الله .

إذن : فحيثية (وتوكل على الله) هي قوله تعالى : ﴿ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ .. ﴿٩﴾ ﴾[الأحزاب] النعمة : الشيء الذي يخالط الإنسان بسعادة وبِشْر وطلب استدامته ، وهذه الصفات لا تتوافر إلا في الإيمان ؛ لأن استدامة النعمة فيه تعدَّتْ زمن الدنيا إلى زمن آخر دائم وباقٍ في الآخرة ، وإنْ كانت نعمة الدنيا على قَدْر أسبابك وإمكاناتك ، فنعمة الآخرة على قَدْر المنعِم سبحانه ، فهي إذن : نعمة النعم .

والله تعالى يخاطب هنا المؤمنين ، ومعنى الإيمان هو اليقين بوجود إله واحد له كل صفات الجلال والكمال ، والله سبحانه يكفى العقل أنْ يهتدى إلى القوة الخالقة الواحدة التى لا تعاند ، لكن ليس من عمل العقل أنْ يعرف مثلاً اسم هذا الإله ، ولا أن يعرف مراده ، فكان ولابُدَّ من البلاغ عن الله .

وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك بمَنْ يطرق علينا الباب ، فنتفق جميعاً بالعقل على أن طارقاً بالباب ، هذا هو عمل العقل ، لكن أمن عمل العقل أن نعرف مَنْ هو ؟ أو نعرف مقصده من المجيء ؟ وهذا ما نسميه التصور .

فآفة العقل البشرى أنه لم يقنع بالتعقل للقوة القاهرة الفاعلة ، فكان يكفيه أن يتعقل أن وراء هذا الكون قوةً ، هذه القوة لها صفات الكمال التى بها أوجدتْ هذا الكون . فإنْ أردنا معرفة ما هى هذه القوة فلابُدَّ أنْ نترك هذا الطارق ليخبرنا عن نفسه ، ويفصح عن هدفه وسبب مجيئه ، ولا يتم ذلك إلا من خلال رسول يأتى من عند الله يخبرنا عن هذه القوة ، عن الله ، عن أسمائه وصفاته ومنهجه الذى ارتضاه لخلْقه ، وما أعدَّه الله لمَنْ أطاعه من النعيم ، وما أعدَّه لمَنْ عصاه من العذاب .

فإنْ كذَّبنا هذا الرسول ، وطلبنا دليلاً على صدْقه فى البلاغ أخرج لنا من المعجزات ما يؤيده وما يحملنا على تصديقه ؛ لأنه أتى بلون مما نَنبغ فيه نحن ، وفن من فنوننا ، ومع ذلك عجزنا عن الإتيان بمثله .

إذن : فالتعقُّل أول مراحل الإيمان ؛ لذلك فإن أبسط ردٍّ على مَنْ يعبدون غير الله أن نقول لهم : بماذا أمرتكم آلهتكم ؟ وعمَّ نهتْكم ؟ وماذا أعدَّتْ لمن أطاعها ؟ وماذا أعدَّت لمنْ عصاها ؟ ما المنهج الذى تستعبدكم به ؟

فكان من منطق العقل ساعة يأتينا رسول من عند الله أنْ نستشرف له ، ونُقبل عليه ، ونسأله عن اللغز الذى لا نعرفه من أمور الحياة والكون ، كان علينا أن نستمع له ، وأن ننصاع لأوامره ؛ لأنه ما جاء إلا ليُخرجنا من مأزق فكرى ، ومن مأزق عقلى لايستطيع أحد منَّا أنْ يُحلّه ، كان على القوم أن يتلهفوا على هذا الرسول ، لا أن يعادوه ويعاندوه ، لما لهم من سلطة زمنية ظنوها باقية .

وقوله تعالى : ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ.. ۝﴾[الأحزاب] ما هو الذكر ؟ العقل حين يتلقَّى المعلومات من الحواسِّ يقارن بينها ويُغربلها ، ثم يحتفظ بها فى منطقة منه تمثل خزينة للمعلومات ، وما أشبه العقل فى تلقى المعلومات بلقطة (الفوتوغرافيا) التى تلتقط الصورة من مرة واحدة ، والناس جميعاً سواء فى تلقى المعلومات ، المهم أن تصادف المعلومة خُلُوّ الذِّهْن مما يشغله .

وهذه المنطقة فى العقل يسمونها بؤرة الشعور ، وهى لا تلتقط إلا جزئية عقلية واحدة ، فإذا أردتَ استدعاء معلومة من الحافظة ، أو من حاشية الشعور ، فالذاكرة هى التى تستدعى لك هذه المعلومة ، وتُخرجها من جديد من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور .

ثم هناك ما يُسمَّى بتداعى المعانى ، حين يُذكِّرك شىء بشىء آخر ، وهناك المخيِّلة ، وهى التى تُلفِّق أو تُؤلِّف من المعلومات المختزنة شيئاً جديداً ، ونسميه التخيُّل ، فالشاعر العربى حين أعجبه الوشم باللون الأخضر على بشرة شابة بيضاء تخيَّلها هكذا .

خَـوْدٌ كـأنَّ بَنَـانَهَا فِـى ... نَقْشَـةِ الوَشْـمِ المُـزَرَّدِ[1]

سَـمَكٌ مِنَ البِلـلُّوْرِ فِـى ... شَبَكٍ تكوَّنَ مِنْ زَبَرْجَدِ[2]

فهذه صورة تخيُّلية خاصة بالشاعر ، وإلا فَمَنْ منَّا رأى سمكاً من البللور فى شـبك من زبرجد ؟ فللشاعـر نظرته الخاصـة للصور التى يراها ، وسـبق أنْ ذكرنا الصـورة التى رسـمها الشاعـر[3] للأحدب ، فقال :

قَصُرَتْ أَخَادِعُهُ[4] وغَاصَ قَذَالُهُ[5] ... فَـكَـأَنَّهُ مُـتَرَبِّصٌ أنْ يُصْـفَـعَا

وَكأنَّـمـا صُفِعَـتْ قَـفَـاهُ مَـرَّةً ... فَأحَـسَّ ثانيـةً لَهَا فَتَجَـمَّعا

ومنذ القِـدَم يعتبـر الشعـراء القلبَ محـلاً للحب وللمشـاعر ، لكن يخـرج علينا هـذا الشـاعـر بصورة أخـرى جـديدة من نَسْج خيـاله ، فيقول

خَطَـرَاتُ ذِكْـرِكَ تَسْتَثِيرُ مَـوَدَّتِي ... فَـأُحِـسُّ مِنْهَا فِـى الفُؤَادِ دَبِيبا

لاَ عُضْـوَ لـِـى إلاَّ وَفِيهِ صَـبَـابَةٌ ... فَـكَـأنَّ أعْـضَـائِى خُلِقْنَ قُلُـوبَا

---

(١) الخود : الفتاة الحسنة الخَلْق الشابة ، ما لم تَحض ، وقيل : الجارية الناعمة . [لسان العرب - مادة : خود] ، والمزرد : هى حلق الدرع متداخلة فى بعضها ، والمقصود أن الوشم متقن متشابك متداخل .

(٢) الزبرجد : الزمرد ، وهو الزبردج أيضاً . [لسان العرب - مادة : زبرجد]

(٣) الشاعر هو : ابن الرومى على بن العباس بن جريج ، شاعر كبير من طبقة بشار والمتنبى ، رومى الأصل ، كان جده من موالى بنى العباس ، ولد ببغداد ٢٢١ هـ ونشأ بها ، ومات فيها مسموماً عام ٢٨٣ هـ عن ٦٢ عاماً . [الأعلام للزركلى ٤/٢٩٧] .

(٤) الأخادع : جمع الأخدع ، وهو أحد عرقين فى جانبى العنق

(٥) القذال : جماع مؤخر الرأس من الإنسان . [لسان العرب - مادة : قذل] .

فمعنى : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ .. ۝ ﴾ [الأحزاب] لا تمروا على النعم بغفلة لرتابتها عندكم ، بل تذكروها دائماً ، واجعلوها في بؤرة شعوركم ؛ لذلك جعل الله الذكر عبادة ، وهو عبادة بلا مشقة ، فأنت حين تصلي مثلاً تستغرق وقتاً ومجهوداً للوضوء وللذهاب للمسجد ، كذلك حين تزكي تُخرج من مالك ، أما الذكْر فلا يُكلِّفك شيئاً .

لذلك في سورة الجمعة حينما يستدعي الحق سبحانه عباده للصلاة ، يقول : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. ۝ ﴾ [الجمعة] فهنا حركتان : حركة إيجاب بالسعي إلى الصلاة ، وحركة سلْب بترْك البيع والشراء ، وكلّ ما يشغلك عن الصلاة .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا .. ۝ ﴾ [الجمعة]

وفي موضع آخر قال : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۝ ﴾ [العنكبوت] فإياك أن تظن أن الله يريد أنْ تذكره ساعة الصلاة فحسب ، إنما اذكره دائماً وأبداً ، وإنْ كانت الصلاة لها ظرف تُؤدَّى فيه ، فذكْر الله لا وقتَ له ؛ لذلك جعله الله يسيراً سهلاً ، لا مشقة فيه ، لا بالوقت ولا بالجهد ، فيكفي في ذكْر الله أنْ تتأمل المرائي التي تمر بها ويقع عليها نظرك لترى فيها قدرة الله .

والحق سبحانه يُذكِّرنا بنعمه ؛ لأن النعمة بتواليها على النفس البشرية تتعوَّد عليها النفس ، ويحدث لها رتابة ، فلا تلتفت إليها ، فأنت مثلاً ترى الشمس كل صباح ، لكن قلَّما تتذكر أنها آية من آيات الخالق - عز وجل - ونعمة من نعمه ؛ لأنك تعوَّدت على رؤيتها ، وأصبحت رتيبة بالنسبة لك .

كذلك يلفتنا الحق سبحانه إلى نعمه حين يسلبها من الآخرين ، فحين ترى السقيم تذكَّر نعمة العافية ، وحين ترى الأعمى تذكَّر نعمة البصر .. الخ وساعتها ينبغى عليك أنْ تشكر المنعم الذى عافاك مما ابتلى به غيرك ، إذن : فهذه الشواذ جعلها الله وسائل للإيضاح وتذكيراً للخلق بنعَم الخالق .

والنعمة وردتْ هنا مفردة ، وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا (٣٤) ﴾ [إبراهيم] وقد وقف أعداء الإسلام من المستشرقين أمام هذه الآية يعترضون على أن النعمة فيها مفردة ، يقولون : فكيف تُعَدُّ ؟ وهذا الاعتراض منهم ناشئ عن عدم فَهْم لمعانى وأساليب القرآن .

ونقول : الذى تروْنه نعمة واحدة ، لو تأملتُم فيها لوجدتم بداخلها نعَماً متعددة تفوق العَدَّ ؛ لذلك استخدم القرآن هنا (إنْ) الدالة على الشك ؛ لأن نعمَ الله ليست مظنّة العَدّ والإحصاء كرمال الصحراء ، هل تعرَّض أحد لعدِّها ؟ لأنك لا تقبل على عدِّ شيء إلا إذا كان مظنَّة العَدّ ، وإحصاء المعدود .

لذلك ، فالحق سبحانه يوضح لنا : إنْ حاولتم إحصاء نعَم الله - وهذا لن يحدث - فلن تستطيعوا عدَّها ، مع أن الإحصاء أصبح علْماً مستقلاً ، له جامعات وكليات تبحث فيه وتدرسه .

ولك أنْ تأخذ نعمة واحدة من نعَم الله عليك ، ثم تتأمل فيها وفى عناصرها ومُكوِّناتها وفوائدها وصفاتها ، وسوف تجد فى طيَّات النعمة الواحدة نعَماً شتَّى ، فالتفاحة مثلاً فى ظاهرها نعمة واحدة، لكن فى ألوانها ومذاقها وعناصر مكوناتها ورائحتها واختلاف وتنوُّع هذا كله نعَم كثيرة .

والحق سبحانه جعل نعمه عامة للمؤمن وللكافر ؛ لأنه سبحانه جعل لها أسباباً ، مَنْ أحسنَ هذه الأسباب أعطتْه ، حتى لو كان كافراً .

ثم نلاحظ في قوله تعالى : ﴿ وإن تعدُّوا نعمتَ الله لا تُحصُوها (٣٤) ﴾ [إبراهيم] أنها وردتْ في القرآن مرتين ، ولكل منهما تذييل مختلف ، فمرَّة يقول تعالى : ﴿ وآتاكم من كلِّ ما سألتموه وإن تعدُّوا نعمت الله لا تحصُوها إنَّ الإنسان لظلومٌ كفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم] ، ومرة يقول : ﴿ وإن تعدُّوا نعمة الله لا تحصُوها إنَّ الله لغفورٌ رحيم (١٨) ﴾ [النحل]

وفيه إشارة إلى أن الله تعالى لو عامل المنعَم عليهم من الخَلْق بما يقتضيه إيمانهم ، وما يقتضيه كفرهم ، لأعطى المؤمن وسلَب الكافر ، لكنه سبحانه غفور رحيم بخَلْقه ، فبهاتين الصفتين يُنعم سبحانه على الجميع ، وما ترفلون فيه من نعَم الله عليكم أثر من آثار الغفران والرحمة ، فغفر لكم معايبكم أولاً ، والغفر : أنْ تستر الشيء القبيح عمَّن هو دونك .

ثم الرحمة ، وهي أنْ تمتدَّ يدك بالإحسان إلى مَنْ دونك ، وسبق أنْ أوضحنا أن المغفرةَ تسبق الرحمةَ ، وهذه هي القاعدة العامة ، لكن قد تسبق الرحمةُ المغفرةَ ؛ ذلك لأن السَّلْب للشيء المذموم ينبغي أن يسبق النعمة ، أو : أن دَفْع الضرر مُقدَّم على جَلْب المنفعة .

وقد مثَّلْنا لذلك باللصِّ تجده في دارك ، فتستر عليه أولاً حين لا تسلمه للبوليس ، ثم يرقّ له قلبك ، فتمتد يدُك إليه بالإحسان ، وهنا تسبق المغفرةُ الرحمةَ ، وقد تتصرف معه بطريقة أخرى ، بحيث تقدِّم فيها الرحمة على المغفرة ، والمغفرة لا تكون إلا من الأعلى للأدنى ، فتستر على القبيح قُبْحه ، وأنت أعلى منه ، فلا يقال مثلاً للخادم : إنه ستر على سيده .

ثم يرسل لنا الحق - سبحانه وتعالى - هذه البرقية الدالَّة على تأييده سبحانه لعباده المؤمنين : ﴿ إِذْ[1] جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا[2] وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) ﴾ [الأحزاب]

فالجنود تُؤذِن بالحرب ، وجاءت نكرة مُبْهمة ، ثم جاءت نهاية هذه المعركة في هاتين الجملتين القصيرتين ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا .. (٩) ﴾ [الأحزاب] ولم يذكر ماهية هؤلاء الجنود ، إلا أنهم من عند الله ، جاءوا لردِّ هؤلاء الكفار وإبطال كيدهم .

ثم يأتي بمذكرة تفسيرية توضح مَنْ هم هؤلاء الجنود :

﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ[3] وَإِذْ زَاغَتِ[4] الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) ﴾

---

(١) ذلك يوم الخندق في غزوة الأحزاب ، قال ابن إسحاق . كانت في شوال من السنة الخامسة . وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك رحمه الله - كانت وقعة الخندق سنة أربع ، وهي وبنو قريظة في يوم واحد . (تفسير القرطبي ٧/٥٣٨٩) .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٣/٤٧٠) : « هم الملائكة زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف . فكان رئيس كل قبيلة يقول - يا بني فلان اليَّ . فيجتمعون إليه ، فيقول : النجاء النجاء ، لما ألقى الله عز وجل في قلوبهم من الرعب » .

(٣) قال ابن وهب : سمعت مالكاً يقول - ذلك يوم الخندق ، جاءت قريش من هاهنا ، واليهود من هاهنا . والنجدية من هاهنا . قال القرطبي - يريد مالك أن الذين جاءوا من فوقهم بنو قريظة ، ومن أسفل منهم قريش وغطفان . [تفسير القرطبي ٧/٥٣٨٩] .

(٤) زاغ البصر اضطرب ولم يحقق ما يرى . وقوله في وصف فزع بعض الناس في المدينة حين أحاطت بهم الأعداء في غزوة الأحزاب ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ .. (١٠) ﴾ [الأحزاب] أي اضطربت لشدة الفزع . القاموس القويم (١/٢٩٤) .

هذا وَصْف لما جرى في غزوة الأحزاب التي جمعتْ فُلول أعداء رسول الله ، فقد سبق أنْ حاربهم مُتفرِّقين ، والآن يجتمعون لحربه ﷺ ، فجاءت قريش ومَنْ تبعها من غطفان وأسد وبني فزارة وغيرهم، وجاء اليهود من بني النضير وبني قريظة ، وعجيب أنْ يجتمع كل هؤلاء لحرب الإسلام على ما كان بينهم من العداوة والخلاف .

وقلنا : إن أهل الكتاب كانوا يستفتحون برسول الله على كفار مكة ، ثم جاءت الآيات لتجعل من أهل الكتاب شهداء على صدْق رسول الله ، فقال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾ [الرعد]

ولو قدَّر أهل الكتاب هذه الشهادة التي قرنها الحق سبحانه بشهادته ، لَكَان عليهم أنْ يؤمنوا بصدْق رسول الله ﷺ .

والمعنى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُم.. (١٠) ﴾ [الأحزاب] أي : اذكر يا محمد وتخيَّل وتصوَّر إذ جاءكم الأحزاب ، وتجمَّعوا لحربك ﴿ مِّن فَوْقِكُمْ.. (١٠) ﴾ [الأحزاب] أي : من ناحية الشرق ، وهُمْ : غطفان ، وبنو قريظة، وبنو النضير ﴿ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ.. (١٠) ﴾ [الأحزاب] أي : من ناحية الغرب وهم قريش ، ومَنْ تبعهم من الفزاريين والأسديين وغيرهم ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ.. (١٠) ﴾ [الأحزاب] أي : اذكر إذ زاغت الأبصار ، ومعنى زاغ البصر أي مال ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) ﴾ [النجم]

فـ (زاغت الابصار) يعني : مالتْ عن سَمْتها وسنمها ، وقد خلق الله العين على هيئة خاصة ، بحيث تتحرك إلى أعلى ، وإلى أسفل ، وإلى اليمين ، وإلى الشمال ، ولكل اتجاه منها اسم في اللغة ، فيقولون : رأى أي : بجُمْع عَيْنه ، ولمح بمؤخَّر مُوقه ، ورمق أي : من ناحية أنفه .. الخ

فسَمْت العين وسَنَمها أنْ تتحرك في هذه الاتجاهات ، فإذا فزعتْ من شيء أخذ البصر ، مال عن سَمْته من التحول ، لذلك يقول تعالى :
﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٩٧) ﴾ [الأنبياء]

وقال : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) ﴾ [إبراهيم] وشخوص البصر أنْ يرتفع الجَفْن الأعلى ، وتثبت العين على شيء ، لا تتحرَّك إلى غيره .

وفي موضع آخر قال تعالى عن المنافقين والمعوِّقين : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب]

لأن الهول ساعة يستولي على الأعين ، فمرة تشخص العين على ما ترى لا تتعداه إلى غيره من شدة الهول ، ومرة تدور هنا وهناك تبحث عن مفرٍّ أو مخرجٍ مما هي فيه ، فهذه حالات يتعرَّض لها الخائف المفزَّع .

وقوله تعالى : ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ .. (١٠) ﴾ [الأحزاب] معلوم أن الحنجرة أعلى القصبة الهوائية في هذا التجويف المعروف ، فكيف تبلغ القلوبُ الحناجرَ ؟ هذا أثر آخر من آثار الهول والفزع ، فحين يفزع الإنسان يضطرب في ذاته ، وتزداد دقَّات قلبه ، وتنشط حركة التنفس ، حتى ليُخيَّل للإنسان من شدة ضربات قلبه أن قلبه سينخلع من مكانه ، ويقولون فعلاً في العامية (قلبي هينط مني)

وقوله تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) ﴾ [الأحزاب]

أي : ظنوناً مختلفة تأخذهم وتستولى عليهم ، فكلٌّ له ظنٌّ يخدم غرضه ، فالمؤمنون يظنون أن الله لن يُسلمهم ، ولن يتخلى عنهم ، والكافرون يظنون أنهم سينتصرون وسيستأصلون المؤمنين ، بحيث لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك .

ونلحظ فى هذه الآية أن الحق سبحانه لا يكتفى بأنْ يحكى له ما حدث ، إنما يجعله ﷺ يستحضر الصورة بنفسه ، فيقول له : اذكُرْ إذ حدث كذا وكذا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هُنَالِكَ[1] ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : اختُبِروا وامتُحِنوا ، فقوىُّ الإيمان قال : لن يُسلمنا الله . والمنافق قال : هى نهاية الإسلام والمسلمين ﴿ وَزُلْزِلُوا۟ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الأحزاب] الزلزلة هى الهزة العنيفة التى ينشأ عن قوتها تَخَلْخل الأشياء ، لكن لا تقتلعها ، والمراد أنهم تعرَّضوا لكرب شديد زلزل كيانهم ، وميَّز مؤمنهم من منافقهم ؛ لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾

---

(١) هنا : للقريب من المكان . وهنالك : للبعيد . وهناك : للوسط . ويشار به إلى الوقت . أى : عند ذلك اختبر المؤمنون ليتبين المخلص من المنافق . [قاله القرطبى فى تفسيره ٥٤٠٦/٧] .

المنافقون هم أنفسهم الذين في قلوبهم مرض ، فهما شيء واحد ، وهذا العطف يُسمُّونه « عطف البيان » .

والغرور أنْ تخدع إنساناً بشيء مُفْرح في ظاهره ، محزن في باطنه ، تقول : ما غرَّك بالشيء الفلاني كأن في ظاهره شيئاً يخدعك ويغرّك ، فإذا ما جئتَ لتختبره لم تجده كذلك [1] .

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ [2] لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾

﴿ وَإِذْ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب] هنا أيضاً بمعنى : واذكر ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الأحزاب] يثرب : اسم للبقعة التي تقع

---

(١) أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال . قال المنافقون يوم الأحزاب حين رأوا الأحزاب قد اكتنفوهم من كل جانب ، فكانوا في شك وريبة من أمر الله ، قالوا : إن محمداً كان يعدنا فتح فارس والروم ، وقد حُصرنا هاهنا حتى ما يستطيع يبرز أحدنا لحاجته ، فأنزل الله ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب] [ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/٥٧٧] .

(٢) يثرب هي : المدينة ، وسماها رسول الله طَيْبة وطابة . وقال أبو عبيدة : يثرب اسم أرض والمدينة ناحية منها . وقال السهيلي : سميت يثرب لأن الذي نزلها من العماليق اسمه يثرب ابن عميل بن مهلائيل بن عوص بن عملاق [تفسير القرطبي٧/ ٥٤٠٧] قال ابن كثير في تفسيره : « قال السهيلي : روى عن بعضهم أنه قال : إن لها في التوراة أحد عشر اسماً : المدينة وطابة وطيبة والمسكينة والجابرة والمحبة والمحبوبة والقاصمة والمجبورة والعذراء والمرحومة » (تفسير ابن كثير ٣/٤٧٢) . ويقول ابن منظور في لسان العرب [مادة : ثرب] : « سماها طيبة وطابة كراهية التثريب ، وهو اللوم والتعيير » .

فيها المدينة ، وقد غيَّر رسول الله ﷺ اسمها إلى (طَيْبة) .

ومعنى : ﴿ لا مُقَام لكُمْ .. (١٣) ﴾ [الأحزاب] أي : في الحرب ﴿ فارجعوا .. (١٣) ﴾ [الأحزاب] يعني : اتركوا محمداً وأتباعه في أرض المعركة واذهبوا ، أو ﴿ لا مقام لكُمْ (١٣) ﴾ [الأحزاب] أي : على هذا الدين الذي تنكرونه بقلوبكم ، وتساندونه بقوالبكم .

ثم يكشف القرآن حيلة فريق آخر يريد الفرار ﴿ ويستأذنُ فريقٌ منْهُمُ النَّبيَّ .. (١٣) ﴾ [الأحزاب] أي : في عدم الخروج للقتال ﴿ يقُولُونَ إنَّ بُيُوتنا عوْرةٌ .. (١٣) ﴾ [الأحزاب] أي : ليست مُحصَّنة ، ولا تمنع مَنْ أرادها بسوء . يقال : بيت عورة إذا كان غير مُحْرز ، أو غير محكم ضد مَنْ يطرقه يريد به الشر . كأن يكون منخفضاً أو مُتهدِّم الجدران يسهل تسلُّقه ، أو أبوابه غير محكمة .. إلخ .

كما نقول في العامية (مَنَطٌّ) ، لكن الحق سبحانه يثبت كذبهم ، ويبطل حجتهم ، فيقول ﴿ وما هي بِعوْرةٍ (١٣) ﴾ [الأحزاب] إنما العلة في ذلك ﴿ إن يريدون إلاَّ فرارا (١٣) ﴾ [الأحزاب] أي : من المعركة إشفاقاً من نتائجها ومخافة القتل .

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤) ﴾

﴿ دُخلتْ عليْهم (١٤) ﴾ [الأحزاب] أي : البيوت ﴿ مِّنْ أقْطارها (١٤) ﴾ [الأحزاب] من نواحيها ﴿ ثُمَّ سُئلُوا الْفتْنة (١٤) ﴾ [الأحزاب] أي : طُلب منهم الكفر ﴿ لآتوْها (١٤) ﴾ [الأحزاب] يعني : لكفروا . ﴿ وما تلبَّثُوا بها إلاَّ

يَسيراً (١٤) ﴾ [الأحزاب] يعني : ما يجعل الله لهم لُبْثاً وإقامة إلا يسيرا ، ثم ينتقم الله منهم [1].

﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ ﴾

معنى ﴿ عاهدُوا اللَّه.. (١٥) ﴾ [الأحزاب] أخذ الله عليهم العهد وقَبِلوه ، وهو ما حدث في بيعة العقبة حين عاهدوا رسول الله على النُّصْرة والمؤازرة . أو : يكون الكلام لقوم [2] فاتتهم بدر وفاتتْهم أُحُد ، فقالوا : والله لئن وقفنا في حرب أخرى لنبلونّ فيها بلاءً حسناً

وعَهْد الله هو الشيء الذي تعاهد الله عليه ، وأول عهد لك مع الله تعالى هو الإيمان به ، وما دُمْتَ قد آمنتَ بالله فانظر إلى ما طلبه منك وما كلَّفك به ، وإياك أنْ تُخلَّ بأمر من أموره ، لأن الاختلال في أي أمر تكليفي من الله يُعَد نقصاً في إيمانك بالله ، فلا يليق بك أنْ تنقض ما أكَّدته من الأيْمان ، بل يلزمك أن توفي به ؛ لأنك إنْ وفَّيْتَ بها وُفِّي لك بها أيضاً ، فلا تأخذ الأمر من جانبك وحدك ، ولكن انظر إلى المقابل .

---

(١) قال ابن كثير في تفسير هذه الآية (٣/٤٧٣) : يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿ يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا (١٣) ﴾ [الأحزاب] أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة وقطر من أقطارها ثم سُئلوا الفتنة وهي الدخول في الكفر لكفروا سريعاً ، وهم لا يحافظون على الإيمان . ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع هكذا فسره قتادة وعبد الرحمن بن زيد وابن جرير .

(٢) قال يزيد بن رومان : هم بنو حارثة ، هَمُّوا يوم أحد أن يفشلوا مع بني سلمة ، فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا ألا يعودوا لمثلها ، فذكر الله لهم الذي أعطوه من أنفسهم . [قاله القرطبي في تفسيره ٧/٥٤١٠] .

واعلم أن الله مُطلع عليك ، يعلم خفايا الضمائر وما تُكنّه الصدور ، فاحذر حينما تعطى العهد أنْ تعطيه وأنت تنوى أنْ تخالفه ، إياك أنْ تعطى العهد خداعاً ، فربك - سبحانه وتعالى - يعلم ما تفعل .

﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ قُل ﴿١٦﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : لهؤلاء الذين يريدون الفرار من المعركة ﴿ لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأحزاب] والقرآن هنا يحتاط لمسألة إزهاق الروح ، وسبق أن تحدثنا عن الفرق بين الموت والقتل ؛ لذلك يقول تعالى عن نبيه محمد : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ .. ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران]

فالموت لا يقدر عليه إلا واهب الحياة سبحانه ، ويكون بنقض الروح أولاً بأمر خالقها ، ثم يتبعه نَقْض البنية ، أما القتل فيقدر عليه الخلْق ، ويتم أولاً بنقض البنية الذى يترتب عليه إزهاق الروح ؛ لأن البنية لم تَعُدْ صالحة لاستمرار الروح فيها ، بعد أنْ فقدتْ المواصفات المطلوبة لبقاء الروح .

والفرار لن يُجدى فى هذه المسألة ؛ لأن لها أجلاً محدداً ، سواء أكان بالله واهب الحياة ، أو كان بفعل واحد من الخلْق عصى أمر الله ، فهدم البنية التى بناها الله ، وما جدوى الفرار من المعركة ، وقد رأينا مَنْ شهد المعارك كلها ، ثم يموت على فراشه ، كخالد بن الوليد الذى

يقول : لقد شهدتُ مائة زَحْف أو زهاءها ، وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف ، أو طعنة برُمْح ، وها أنذا أموت على فراشي كما يموت البعير ، فلا نامتْ أعين الجبناء[1] .

ثم يناقشهم القرآن : هَبُوا أنكم فررتُم من الموت أو القتل ، أتدوم لكم هذه السلامة ؟ أتخلدون في هذه الحياة ؟ ﴿وإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٦)﴾ [الأحزاب] وسرعان ما تنتهي الحياة ، وتواجهون الموت الذي لا مَفَرَّ منه ، وكلنا ذاهب إلى هذا المصير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧)﴾

المعنى : قل لهم يا محمد مَن الذي ﴿يَعْصِمُكُم .. (١٧)﴾ [الأحزاب] أي : يمنعكم ﴿مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً .. (١٧)﴾ [الأحزاب] كما قال في موضع آخر : ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ .. (٤٣)﴾ [هود]

فإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا عاصمَ لهم ؛ لأنه لا يمتنع أحد مع الله ؛ لأنه لا يوجد معه سبحانه إله آخر يدفع السوء عن هؤلاء .

---

(١) ذكره ابن كثير في « البداية والنهاية » (١١٧/٧) وعزاه للواقدي عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه

والإشكال الذى يحتاج إلى توضيح هنا قوله تعالى : ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً .. ﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب] فكيف تكون العصمة من الرحمة ؟ قالوا : يعصم هنا بمعنى يمنع ، والمعنى : لا يمنع أحد من أعدائكم رحمة الله إنْ أراد الله بكم رحمة .

ونلحظ على سياق الآية أنها جاءت بأسلوب الاستفهام ، ولم تأتِ على صورة الخبر ، فلم يَقُلْ القرآن لمحمد ﷺ : قل يا محمد ، لا يُعصَم أحد من الله إنْ أرادكم بسوء ، لأن الجملة الخبرية محتملة للصدق والكذب ، إنما شاء الله أن يجعلها جملة إنشائية استفهامية ؛ ليقرروا هم بأنفسهم هذه الحقيقة ، كأنه تعالى يقول لهم : لقد ارتضيتُ حكمكم أنتم ، ولو لم يكُنْ الحق سبحانه واثقاً من أن الجواب لن يأتى إلا : لا أحدَ لَمَا جاء بالأسلوب فى صورة استفهام ، إذن : فالاستفهام هنا آكد في تقرير صدْق هذه الجملة .

كذلك أنت تلجأ إلى هذا الأسلوب فى الردِّ على مَنْ ينكر جميلك ، فتقول : ألم أُحْسِن إليك يوم كذا وكذا ؟ فلا يملك عندها إلا الإقرار .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب] الولى : هو القريب منك ، وأنت لا تُقرِّب منك إلا مَنْ ترجو نفعه ، هو الذى يليك أو يُواليك ، فحبُّه يسبق الحدث ، فإذا ما جاء الحدث حمله حبُّه لك على أنْ يدافع عنك .

والنصير : قريب من معنى الولى ، ويدافع أيضاً عنك ، لكن يأتى دفاعه بعد الحدث ، وقد يكون ممَّنْ لا قرابةَ بينك وبينهم .

والمعنى : حين يريد الله أحداً بسوء فلن يجد أحداً يمنعه من الله ، لا الولىَّ ولا النصير .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾

قد : حرف يفيد التحقيق ، خاصة إذا جاءتْ من الحق سبحانه ، ويأتى معها الفعل فى صيغة الماضى ، لكن هنا ﴿ قَدْ يَعْلَمُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأحزاب] فجاء الفعل بصيغة المضارع ، وهذا يعنى أن الحدث الذى يقع الآن سيثبت أن الله يعلم المُعوِّقين ، وقد علم أزلاً .

فإنْ قُلْتَ : فالحق سبحانه يعلم قبل أنْ يكون هناك تعويق ، نقول : فَرْق بين أنْ يعلم الأمر قبل أنْ يقع ، وأنْ يعلمه إذ يقع ، فقد يقول قائل : علمتُ وسوف تجازيني على ما تعلم سابقاً ، لكن لو تركتني في المستقبل لن تحدث مني مخالفة . إذن : فالحق سبحانه يريد أن يؤكد هذا الأمر . والمعوِّق : هو الذى يضع العوائق أمام مرادك ، ويُثبِّط همَّتك ويُخذِّلك .

وقوله ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأحزاب] يعني : أقبل وتعال . وكلمة (هلم) تأتى هكذا بصيغة المفرد دائماً مع المفرد والمثنى والجمع ،

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضى الله عنه في قوله - ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الأحزاب] قال : هذا يوم الأحزاب ، انصرف رجل من عند النبى ﷺ ، فوجد أخاه بين يديه شواء ورغيف ، فقال له : أنت ههنا فى الشواء والرغيف والنبيذ ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف قال : هلم إلىّ ، لقد بلغ بك وبصاحبك - والذى يُحلف به لا يستقى لها محمد أبداً قال : كذبت - والذى يُحلف به - وكان أخاه من أبيه وأمه ، والله لأخبرنَّ النبى ﷺ بأمرك ، وذهب إلى النبى ﷺ يخبره ، فوجده قد نزل جبريل عليه السلام يخبره ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الأحزاب] .
[أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٥٨٠]

ومع المذكر والمؤنث ، ومنه قوله تعالى : ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَـٰذَا .. (١٥٠)﴾ [الأنعام] أى : هاتوا ، وهذه هى اللغة الفصيحة .

وفى لغة من لغات تهامة يُلحقون بها علامة التثنية والجمع ، والتذكير والتأنيث ، فيقولون : هلم وهلمى وهلما وهلموا ، ولجمع الإناث هلْمُنَ .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨)﴾ [الأحزاب] البأس أى : الحرب ، كما جاء فى قوله تعالى . ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ .. (٨٠)﴾ [الأنبياء]

وقال سبحانه : ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ .. (١٧٧)﴾ [البقرة] ففَرّق بين البأس والبأساء : البأس أى : الحرب . أما البأساء ، فكل ما يصيب الإنسان من مكروه فى غير ذاته كفقْد ولد ، أو خسارة مال .. إلخ ، أما الضراء فما يصيب الإنسان فى ذاته ، كمرض أو نحوه .

ومن ذلك قول الله تعالى عن سيدنا داود : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ .. (٨٠)﴾ [الأنبياء]

والمراد : صناعة الدروع التى يلبسها الإنسان على مظانّ المقاتل فيه ، وعلى أجهزته الحيوية كالصدر والقلب والرأس ، ولها غطاء خاص (الخوذة) ، وتُصنع الدروع مُسنَّنة . أى . بها تموُّج وتجاويف ، بحيث تتلقى ضربات السيف بإحكام ، فلا تنفلت الضربة إلى مكان آخر فتؤذيه .

لذلك يقول تعالى لنبيه داود عن هذه الصنعة ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ .. (١١)﴾ [سبأ] أى : فى إحكام هذه الحلقات المتداخلة .

وفَرْق أيضاً هنا بين لَبُوس ولباس : اللباس هو ما يقي الإنسان تقلبات الجو ، ويستر عورته أثناء الأمن وسلام الحياة ، وهذه هي الملابس العادية التي يرتديها الناس .

وفيها يقول الحق سبحانه : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا[1] وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ[2] تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١)﴾ [النحل]

أما كلمة (لَبُوس) فهي المُعَدَّة لحالة الحرب كالدروع ونحوها ؛ لذلك جاءت بصيغة دالة على التضخيم (لَبُوس) .

وهذه الآية تلفتنا إلى مظهر من مظاهر الدقة في الأداء القرآني المعجز ، فالآية هنا ذكرت (الحرَّ) ، ولم تذكر شيئاً عن المقابل له ، وهو البرد ، والعلماء عادةً ما يلجئون إلى تقدير هذا المحذوف عند تفسير الآية ، فيقولون : أي تقيكم الحر والبرد[3] ، يريدون أنْ يكملوا أسلوب القرآن ، وهذا لا يجوز .

---

(١) الأكنان : جمع كِنّ ، وما يُصان أو يستتر فيه الشيء ، والبيوت أكنان لأصحابها . [القاموس القويم للقرآن الكريم ٢/١٧٥] .

(٢) السربال : القميص والدرع . وقيل : كل ما لُبس فهو سربال . [لسان العرب - مادة سربل] .

(٣) قال ابن منظور في لسان العرب - مادة : سربل : قيل في قوله تعالى : ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ .. (٨١)﴾ [النحل] : « إنها القمص تقي الحر والبرد ، فاكتفى بذكر الحر كان ما وقى الحر وقى البرد » .

وقال أبو يحيى زكريا الأنصاري في كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن » : ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ .. (٨١)﴾ [النحل] أي : والبرد ، وإنما حذفه لدلالة ضده عليه ، كما في قوله تعالى : ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ .. (٢٦)﴾ [آل عمران] أي : والشر . وخصَّ الحر والخير بالذكر ؛ لأن الخطاب بالقرآن أول ما وقع بالحجاز ، والوقاية من الحر أهم عند أهله ؛ لأن الحر عندهم أشد من البرد ، والخير مطلوب العباد من ربهم دون الشر » .

وحين نمعن النظر في هذه الآية ، نجد أن الله تعالى خلق الظلال لتقينا حرارة الشمس ، وجعل اللباس ، وكذلك جعل لنا الأكنان في الجبال ، والله خلق الحرَّ على هذه الصورة التي لا يتحملها الإنسان ؛ لأن للحر مهمة في حياتنا ، فحرارة الشمس تخدمك في أمور كثيرة ، وإنْ كانت تضايقك بعض الوقت ، فالحق سبحانه أبقاها لتؤدى مهمةَ خير لك ، ثم حمَاك بالظل واللباس والأكنان من شرِّها .

فإنْ قُلْتَ : فهذه الأشياء تقيني أيضاً البرد ، نقول : إياك أنْ تظن أن الدفء يأتيك من غطاء ثقيل أو ملابس شتوية ، إنما الدفء من ذاتك أنت ، فأنت تدفيء (البطانية) والفراش الذى تنام عليه ، بدليل أنك ساعة تأتى فراشك لتنام تجده بارداً ، ثم بعد مرور ساعات الليل تجده فى الصباح دافئاً .

إذن : فحرارتك الذاتية انتقلَتْ إلى الغطاء فأدفأتْه ، وكل ما يؤديه الغطاء أنه يحفظ حرارة جسمك بداخله ، فلا تتبدد فى الهواء المحيط بك .

لذلك ، لما درس العلماء مسألة حرارة جسم الإنسان وجدوا فيها مظهراً من مظاهر قدرة الله ، فالإنسان تُشع منه حرارة تكفى فى أربع وعشرين ساعة لغَلْى سبعة عشر لتراً من الماء ، ومعدل هذه الحرارة فى الجسم ٣٧° ثابتة فى قيظ الحر وبرد الشتاء ، مما يدل على أن لجسمك ذاتية منفصلة تماماً عن الجو المحيط بك .

ومن عجائب خَلْق الإنسان أن هذه الحرارة تتفاوت من عضو إلى عضو آخر ، والجسم واحد ، فأعضاء حرارتها ما بين ٧° - ٩° كالأنف والأذن والعين ، ولو زادتْ حرارة العين عن هذا المعدل

تنفجر ، أما الكبد فحرارته ٤٠° .. إلخ ، ومعلوم أن الحرارة تُحدث استطراقاً في الجسم الواحد ، وفي المكان الواحد .

ومن عجائب خَلْق الإنسان في هذه المسألة العَرَق الذي يتصبب منك في حالة تعرضك للحرارة الشديدة ، فيخرج العرق من مسامِّ الجسم ، ليُلطف من درجة حرارته ، ويُحدث عملية تبريد ، كالتي نراها مثلاً في موتور السيارة ، حتى عندنا في الفلاحين تجد الفلاح من كثرة عمله في الأرض وكثرة عرقه تتكون على جسمه طبقة مثل الجير ، وهذه أملاح تخرج مع العرق ؛ لذلك يكثر في هؤلاء الفلاحين أكل (المش) و (المخللات) لتعويض نسبة الأملاح المفقودة مع العرق ، إذن : فالحق سبحانه لم يقل (والبرد) ، لأن الدفء كما رأينا ذاتي .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الأحزاب] وهذه القلة مستثناة : إما من الإتيان ، أو أنهم يأتون البأس ، لكن قلة منهم يُقاتلون بهمة ونشاط ، والباقون أتوْا ذَرّاً للرماد في العيون - كما يقولون ولئلا يُتهموا بالتخلف عن رسول الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ .. ⦗١٩⦘﴾ [الأحزاب] الشح في معناه العام هو البخل ، لكن الشحيح الذي يبخل على الغير ، وقد يكون كريماً على نفسه وعلى أهله ، أما البخيل فهو الذي يبخل حتى على نفسه ؛ لذلك قال تعالى ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ .. ⦗١٩⦘﴾ [الأحزاب] ليس على أنفسهم[1] .

وأنت حين تتأمل الصفات المذمومة في الكون تجدها ضرورية لحقائق تكوين الكون ، وتجد لها مهمة ؛ لذلك فَطِن الشاعر إلى هذه المسألة ، فقال :

إنَّ الأشِحَّاءَ أسْخَى النَّاسِ قَاطِبةً ... لأنَّهم ملَكُوا الدُّنيا ومَا انتفعُوا

لم يَحْرِمُوا الناسَ من بَعْضِ الذِي ملَكُوا ... إلاَّ لِيُعْطُوا هُمُوا كُل الذِي جمَعُوا

وآخر يرى للبخيل فضلاً عليه ، فيقول :

جُزِي البخيلُ عليَّ صالحةً ... مِنِّي لخفَّتِه على نَفْسِي

نعم ، البخيل خفيف على النفس ؛ لأنه لم يَجُدْ عليك بشيء يأسرك به ، ولم يستعبدك في يوم من الأيام بالإحسان إليك ، فهو خفيف على نفسك ؛ لأنك لستَ مديناً له بشيء .

وهذا على حَدِّ قول الشاعر :

---

(١) أورد القرطبي في تفسيره (٥٤١٢/٧) عدة أقوال في تأويل قوله تعالى : ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ .. ⦗١٩⦘﴾ [الأحزاب] .

– أشحة عليكم . أي : بالحفر في الخندق والنفقة في سبيل الله . قاله مجاهد وقتادة .

وقيل . بالقتال معكم .

– وقيل : بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم .

– وقيل . أشحة بالغنائم إذا أصابوها . قاله السدي » .

أَحْسِنْ إلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُوبَهُم وطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الإنْسَانَ إحْسَانُ

فالبخل وإنْ كان مذموماً ، فقد ركزه الله في بعض الطباع ليعين التضاد ، ومعنى « يعين التضاد » أن البخل مقابله الكرم ، والبخيل يعاون الكريم على أداء مهمته ، فالكريم عادة (إيده سايبه) ، ينفق هنا وهناك حتى ينفد ما معه ، ومن أهل الكرم مَنْ يلجأ إلى أنْ يبيع أرضه أو بيته في سبيل كرمه ، فمَنْ يشتري منه إذن إذا لم يكُنْ هناك مَنْ يكنز المال ويبخل به ؟

إذن : لو نظرتَ إلى كل شيء في الوجود تجد له مهمة ، حتى إنْ كان مذموماً ، ثم إن البخيل كثيراً ما يكون ظريفاً لا يخلو مجلسه من ظُرْفه ، فقد كنا في بواكير شبابنا نشرب السجائر ، فكان الواحد منا يُخرج علبة السجائر يوزعها على الحاضرين ، وربما لا تكفي واحدة فأخرج الأخرى ، وكان في مجلسنا واحد من هؤلاء ، فنظر إليَّ في غَيْظ وقال (يا قلبك يا أخي) .

وقد كانت هذه السجائر سبباً في أننا جُرْنا على شبابنا ، فكان لهذا أثر بالغ علينا في الكِبَر ، فليحمِ الشباب شبابهم ولا يدمروه بمثل هذه الخبائث المحرمة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] أي : في ساعة الفزع ، يأخذ الفزع أبصارهم، فينظرون هنا وهناك ، لا تستقر أبصارهم ، ولا تسكن إلى شيء ، زاغتْ أبصارهم ﴿ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب]

ومن ذلك الخبر : « إنكم لتكثرون عند الفزع ، وتَقلُّون عند الطمع » .

كان هذا حالهم عند الخوف والفزع ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] معنى ﴿ سَلَقُوكُم .. (١٩) ﴾ [الأحزاب]

آلموكم وآذوكم بألسنتهم ، وقالوا لكم : أعطونا حقنا ، فقد حاربنا معكم ، ولولا نحن ما انتصرتُمْ على عدوكم ، إلى غير ذلك من التطاول بالقول والإيذاء والتأنيب .

وهذا كله من معانى (السلق) ومنه : سلق اللحم ونحوه ، وهو أنْ يغلى فى الماء دون أنْ تضيف إليه شيئاً ، ومثله السلخ ، فكلها معانٍ تلتقى فى الإيلام .

وعادةً ما تجد فى اللغة إذا اشترك اللفظان فى حرفين ، واختلفا فى الثالث تجد أن لهما معنى عاماً يجمعهما كما فى سلق وسلخ ، وفى : قطف ، وقطر ، وقطم . وكلها تلتقى فى الانفصال .

وقوله تعالى ﴿ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] حداد يعنى : حادة فصيحة بملء الفم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) ﴾ [ق]

ومعنى ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] بعد أنْ قال ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] أكَّد هذا المعنى بقوله ﴿ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] أى : فى عمومه .

﴿ أُولَـٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا .. (١٩) ﴾ [الأحزاب] لأنهم لو آمنوا لَعلموا أن الشحَّ ، شحٌّ عليهم هم ، وليس فى صالحهم ؛ لأن الكريم يستزيد من الله العطاء ، أما الشحيح فليس له زيادة ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ هَـٰأَنتُمْ هَـٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ .. (٣٨) ﴾ [محمد]

وربك حين يراك تنفق مما أعطاك يزيدك ؛ لأنك مؤتمن على الرزق ، لذلك يقول أحد الصالحين : اللهم إنك عوَّدتنى خيراً ، وعوَّدْتُ

خلقك خيراً ، فلا تقطع ما عودتني حتى لا أقطع عن الناس ما عودتهم . إذن : فالعطاء استدرار لنعمة الله ، وسبب للمزيد منها .

وهَبْ أن لك عدة أولاد ، أعطيتَ لواحد منهم جنيهاً مثلاً ، فذهب واشترى به حلوى ، ثم وزَّعها على إخوته ، ولم يُؤثر نفسه عليهم ، لا بُدَّ أنك ستائتمنه ، وتعطيه المزيد ؛ لأن الخير في يده يفيض على الآخرين .

ونتيجة عدم الإيمان ﴿ فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (١٩) ﴾ [الأحزاب] أي : أنهم عملوا ، لكن أعمالهم لا رصيدَ لها من إيمان ؛ لذلك أحبطها الله أي : جعلها غير ذات جدوى ولا فائدةَ تعود عليهم . وهذه القضية أوضحها القرآن في قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨) ﴾ [إبراهيم]

وهذا الإحباط أمر يسير على الله تعالى ، لكن أفي حَقِّ الله تعالى نقول : هذا صعب ، وهذا يسير ؟ قالوا : كلُّ أمر الله يسير ؛ لأنه تعالى لا يفعل بمعالجة الشيء ، إنما يفعل سبحانه بكُنْ ، وسبق أنْ مثّلنا لمعالجة الأفعال بمَنْ يريد أنْ ينقل مثلاً عشرة أرادبّ من القمح ، فإنه لا يستطيع إلا أنْ يحملها مُجزَّأة ، فينقل (الجُوال) من هنا إلى هناك ، ثم الآخر ، إلى أنْ ينتهي من الكمية كلها ، ويأخذ في هذا العمل وقتاً يتناسب مع قوته .

فلما تقدَّم العلم ، وتطوَّر الفكر الإنساني رأينا الآلة التي تحمل كل هذه الكمية وتنقلها في حركة واحدة ، وبمجرد الضغط على مجموعة من الأزرار والمفاتيح ، فإذا كان العبد المخلوق لله عز وجل قد استطاع أنْ يصلَ إلى هذا التيسير ، فما بالك بالخالق عز وجل ؟

لذلك يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس] ولا تتعجب من هذه المسألة ؛ لأن ربك أعطاك فى ذاتك شيئاً منها ، لماذا تستبعد فعْل الله تعالى بكُنْ ، وأنت ترى جوارحك تنفعل لمجرد إرادتك للفعل ، مجرد رغبتك فى القيام ترى نفسك قد قُمْتَ ، دون حتى أن تأمر جوارحك وعضلاتك بالقيام .

فإنْ قلتَ : فلماذا لا يأمر الإنسان جوارحه وأعضاءه بما يريد ؟ نقول : لأنك لا تملك أنْ تأمرها ، فهى تنقاد لك ولمرادك بأمر الله ، فالأشياء كلها إنما تأتمر بأمر الخالق سبحانه ، ولا تتخلف عن أمره أبداً ، ألم تقرأ عن السماء ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) ﴾ [الانشقاق]

فالسماء مع عظَم خَلْقها تسمع وتطيع أمر خالقها ؛ أما أنت أيها العبد ، فأيُّ شىء تأمر ، وأنت لا تعرف أصلاً ما تأمره ؟ وهل تعرف أنت العضلات والأعضاء والأعصاب التى تشترك بداخلك لأداء عملية القيام ؟ لذلك ولعدم علمك بما تأمره جعل الله أعضاءك وجوارحك تنفعل لمجرد إرادتك .

أما هو سبحانه فيقول (كُنْ) لأنه خالق كل شىء ، وكل شىء مؤتمر بأمره ، وقال سبحانه (كُنْ) حتى لا تقولها أنت ، فكأنها سبقتْ منه سبحانه لصالحك أنت ، وأنت تفعل من باطن كُنْ الأولى التى توزَّعتْ علينا جميعاً .

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا (٢٠) ﴾

القرآن الكريم يحكى هذا الموقف عن المنافقين ، ويكشف نواياهم السيئة ، فبعد أنْ تجمَّع الأحزاب وخرجوا لمحاربة النبى ﷺ ما يزال هؤلاء المنافقون ﴿يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا .. (٢٠)﴾ [الأحزاب] فهذا التجمُّع يخيفهم ويروعهم ؛ لذلك لم يُصدِّقوه ، فقد رأوا النبى ﷺ ينتصر على أعدائه متفرقين ، وهذه هى المرة الأولى التى يجتمع فيها أعداء الإسلام على اختلافهم .

إذن : استبعد المنافقون تجمُّع الأحزاب هذا التجمع ، وبعد ذلك ينفضون دون أنْ يصنعوا حَدَثاً يُذكر فى التاريخ .

والحُسْبان : ظن ، أى : ليس حقيقة .

﴿وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى الأَعْرَابِ .. (٢٠)﴾ [الأحزاب] أى : إنْ يتجمع الأحزاب يودُّ المنافقون لو أنهم بادون أى : مقيمون فى البادية بعيداً عن المدينة ؛ لأنهم يخافون من مطلق التجمع ، ولأنهم إنْ بَقَوْا فى المدينة إما أنْ يحاربوا الأحزاب وهم غير واثقين من النصر ، وإما ألاَّ يحاربوا فيصيرون أعداءً للمسلمين .

فهم يريدون - إذن - أنْ يعيشوا فى النفاق ، وألاَّ يخرجوا منه ؛ لذلك يودون عيشة البادية مع الأعراب ، ومن بعيد ﴿يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ .. (٢٠)﴾ [الأحزاب] أى : ما حدث لكم فى هذه المواجهة .

ثم يقرر القرآن هذه الحقيقة : ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً (٢٠)﴾ [الأحزاب] أى : درءاً للشبهات ، وذَرّاً للرماد فى العيون ، إذن : لا تأس عليهم ، ولا تحزن لتخلُّفهم .

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾

أسوة : قدوة ونموذج سلوكي ، والرسول ﷺ مُبلِّغ عن الله منهجه لصيانة حركة الإنسان في الحياة ، وهو أيضاً ﷺ أسْوة سلوك ، فما أيسر أنْ يعظ الإنسانُ ، وأنْ يتكلَّم ، المهم أنْ يعمل على وَفْق منطوق كلامه ومراده ، وكذلك كان سيدنا رسول الله مُبلِّغاً وأسوة سلوكية ؛ لذلك قالت عنه السيدة عائشة رضي الله عنها : « كان خلقه القرآن »[1] .

لكن ، ما الأسوة الحسنة التي قدَّمها رسول الله في مسألة الأحزاب ؟ لمَّا تجمَّع الأحزاب كان من دعائه ﷺ : « اللهم مُنْزِلَ الكتابِ ، سريعَ الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم »[2] .

وجعل شعاره الإيماني فيما بعد « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعزَّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده »[3] وما دام

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٩١ ، ١٦٣) ، وأبو بكر البيهقي في دلائل النبوة (١/٣١٠) من حديث عائشة رضي الله عنها أن سعد بن هشام بن عامر قال : أتيت عائشة ، فقلت : يا أم المؤمنين أخبريني بخلق رسول الله ﷺ ، قالت : كان خلقه القرآن ، أما تقرأ القرآن قول الله عز وجل ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٢٩٣٣) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٧٤٢) كتاب الجهاد - باب استحباب الدعاء بالنصر (٧) من حديث عبد الله بن أبي أوفى .

(٣) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٤١١٤) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٧٢٤) كتاب الذكر والدعاء - باب (١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ولفظهما : « لا إله إلا الله وحده ، أعزَّ جنده ، ونصر عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده » .

هذا شعار المصطفى ﷺ ، فهو لكم أسْوة .

وقال تعالى عن المؤمنين في هذه الغزوة : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤) ﴾ [البقرة]

وفي بدر يقول أبو بكر : يا رسول الله ، بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك[1] .

ولقائل أنْ يقول : إذا كان الله تعالى قد وعد نبيه بالنصر ، فلم الإلحاح في الدعاء ؟ نقول : ما كان سيدنا رسول الله يُلح في الدعاء من أجل النصر ؛ لأنه وَعْد مُحقَّق من الله تعالى .

واقرأ قوله تعالى ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) ﴾ [الأنفال]

فالرسول لا يريد الانتصار على العير ، وعلى تجارة قريش ، إنما يريد النفير الذي خرج للحرب .

وقوله تعالى : ﴿ فِي رَسُولِ اللَّهِ .. (٢١) ﴾ [الأحزاب] كأن الأسْوة الحسنة مكانها كل رسول الله ، فهو ﷺ ظرف للأسْوة الحسنة في كل عضو فيه ﷺ ، ففي لسانه أسْوة حسنة ، وفي عينه أسْوة حسنة ، وفي يده أسْوة حسنة .. إلخ ، كله ﷺ أسْوة حسنة .

---

(١) أورده ابن هشام في السيرة النبوية (٦٢٧/٢) أن رسول الله ﷺ عدّل الصفوف يوم بدر ، ورجع إلى العريش فدخله ، ومعه فيه أبو بكر الصديق ، ليس معه فيه غيره ، ورسول الله ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر ، ويقول فيما يقول : اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبد . وقد خفق رسول الله ﷺ خفقة وهو في العريش ، ثم انتبه فقال ابشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذٌ بعنان فرس يقوده ، على ثناياه النقع (أي : الغبار)

هذه الأسْوة لمَنْ ؟ ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١)﴾ [الأحزاب]

وصف ذكر الله بالكثرة ؛ لأن التكاليف الإيمانية تتطلب من النفس استعداداً وتهيؤاً لها ، وتؤدي إلى مشقة ، أما ذكْر الله فكما قُلْنا لا يكلفك شيئاً ، ولا يشق عليك ؛ لذلك قال تعالى : ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ.. (٤٥)﴾ [العنكبوت]

يعني : أكبر من أيِّ طاعة أخرى ؛ لأنه يسير على لسانك ، تستطيعه في كل عمل من أعمالك ، وفي كل وقت ، وفي أيِّ مكان ، ولذلك قُلْنا في آية الجمعة : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً .. (١٠)﴾ [الجمعة]

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾

أي : لما رأى المؤمنون الأحزاب منصرفين مهزومين ﴿قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ .. (٢٢)﴾ [الأحزاب] أي : هذا النصر ، وهذا الوعد الذي تحقق ما زادهم ﴿إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً (٢٢)﴾ [الأحزاب]

وهذه المسألة دليل من أدلة أن الإيمان يزيد وينقص ، فالإيمان يزيد بزيادة الجزئيات التي تُعليه ، فبعد الإيمان بالحق ـ سبحانه وتعالى ـ هناك إيمان بالجزئيات التي تثبت صدْق الحق في كلِّ تصرف .

وتسليماً : أي لله في كلِّ ما يُجريه على العباد .

﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ[1] وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) ﴾

نزلت هذه الآية فى جماعة من المؤمنين صادقى الإيمان[2] ، إلا أنهم لم يشهدوا بدراً ولا أُحُداً ، ولكنهم عاهدوا الله إنْ جاءت معركة أخرى لَيُبَادِرُنَّ إليها ، ويبلُون فيها بلاءً حسناً .

وورد أنها نزلت فى أنس بن النضر ، فقد عاهد الله لما فاتته بدر لو جاءت مع المشركين حرب أخرى لَيبلونَّ فيها بلاء حسناً ، وفعلاً لما جاءت أُحُد أبلى فيها بلاءً حسناً حتى استشهد فيها ، فوجدوا فى جسده نيِّفاً وثمانين طعنةً برمح ، وضربة بسيف[3] ، وهذا معنى

---

(١) نحب : أوجب على نفسه أمرا ، أو نذر نذرا ، وقضى نحبه : وفَّى بنذره ، والنحب النذر ويقال لمن مات فى سبيل الله : قضى نحبه ، أى وفَّى بنذره لأنه نذر أن يموت فى سبيل الله . [القاموس القويم ٢/٢٥٥] .

(٢) قال على بن أبى طالب عن طلحة بن عبيد الله : ذلك امرؤ نزلت فيه آية من كتاب الله تعالى ﴿ فمنهم مَّن قضى نحبه ومنهم مَّن ينتظر .. (٢٣) ﴾ [الأحزاب] : طلحة ممن قضى نحبه ، لا حساب عليه فيما يستقبل . وقال عيسى بن طلحة : أن النبى ﷺ مرَّ عليه طلحة فقال : هذا ممن قضى نحبه . أوردهما الواحدى النيسابورى فى (أسباب النزول ص ٢٠٢ ، ٢٠٣)

(٣) عن أنس بن مالك قال : غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر ، فشق عليه ، وقال غبت عن أول مشهد شهده رسول الله ﷺ ، والله لئن أشهدنى الله سبحانه قتالاً ليرينَّ الله ما أصنع ، فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون فقال : اللهم إنى أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء المشركون وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء ، يعنى المسلمين ، ثم مشى بسيفه فلقيه سعد بن معاذ فقال : أى سعد ، والذى نفسى بيده إنى لأجد ريح الجنة دون أُحُد ، فقاتلهم حتى قُتل . قال أنس : فوجدناه بين القتلى به بضع وثمانون جراحة من بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ورمية بالسهم ، وقد مثَّلوا به ، وما عرفناه حتى عرفته أخته ببنانه ، ونزلت هذه الآية . [أسباب النزول للواحدى ص ٢٠٢ ، وابن سعد فى الطبقات الكبير (٤/٣٢٩)]

﴿ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ .. (٢٣) ﴾ [الأحزاب]

وساعة تسمع كلمة ﴿ رِجَالٌ .. (٢٣) ﴾ [الأحزاب] في القرآن ، فاعلم أن المقام مقام جدٍّ وثبات على الحق ، وفخر بعزائم صُلْبة لا تلين ، وقلوب رسخ فيها الإيمان رسوخ الجبال . وهؤلاء الرجال وَفَّوا العهد الذي قطعوه أمام الله على أنفسهم ، بأنْ يبلُوا في سبيل نصرة الإسلام ، ولو يصل الأمر إلى الشهادة .

وقوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ .. (٢٣) ﴾ [الأحزاب] قضى نحبه : أي أدَّى العهد ومات ، والنحب في الأصل هو النذر ، فالمراد : أدى ما نذره ، أو ما عاهد الله عليه من القتال ، ثم استُعملَتْ (النحب) بمعنى الموت .

لكن ، ما العلاقة بين النذر والموت ؟ قالوا : المعنى إذا نذرتَ فاجعل الحياةَ ثمناً للوفاء بهذا النذر ، وجاء هذا التعبير ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ .. (٢٣) ﴾ [الأحزاب] لتعلم أن الموت يجب أن يكون منك نذراً ، أي : انذر لله أنْ تموت ، لكن في نُصْرة الحق وفي سبيل الله ، فكأن المؤمن هو الذي ينذر نفسه وروحه لله ، وكأن الموت عنده مطلوب ليكون في سبيل الله .

فالمؤمن حين يستصحب مسألة الموت ويستقرئها يرى أن جميع الخَلْق يموتون من لدُن آدم عليه السلام حتى الآن ؛ لذلك تهون عليه حياته ما دامت في سبيل الله ، فينذرها ويقدمها لله عن رضا ، ولِمَ لا وقد ضحيتَ بحياة ، مصيرها إلى زوال ، واشتريتَ بها حياة باقية خالدة مُنعَّمة .

وقد ورد في الأثر : « ما رأيتُ يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت » ومع أننا نرى الموت لا يُبقي على أحد فينا إلا أن كل

إنسان في نفسه يتصور أنه لن يموت .

وحَقٌّ للمؤمن أنْ ينذر نفسه ، وأنْ يضحي بها في سبيل الله ؛ لأن الله يقول : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) ﴾ [آل عمران]

وهذه الحياة التي عند الله حياة على الحقيقة ، لأن الرزق سمة الحيّ الذي يعيش ويأكل ويشرب .. إلخ ، وإياك أنْ تظن أنها حياة معنوية فحسب .

وقد تسمع مَنْ يقول لك : هذا يعني أنني لو فتحتُ القبر على أحد الشهداء أجده حياً في قبره ؟ ونقول لمن يحب أنْ يجادل في هذه المسألة : الله تعالى قال : ﴿ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ .. (١٦٩) ﴾ [آل عمران] ولم يقل : أحياء عندك ، فلا تحكم على هذه الحياة بقانونك أنت . لا تنقل قانون الدنيا إلى قانون الآخرة .

والمؤمن ينبغي أن يكون اعتقاده في الموت ، كما قال بعض العارفين : الموت سهم أُرسِل إليك بالفعل ، وعمرك بقدر سفره إليك .

والقرآن حين يعالج هذه المسألة يقول تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢) ﴾ [الملك] فقدَّم الموت على الحياة ، حتى لا نستقبل الحياة بغرور الحياة ، إنما نستقبلها مع نقيضها حتى لا نغترَّ بها .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ .. (٢٣) ﴾ [الأحزاب] أي : ينتظر الوفاء بعهده مع الله ، وكأن الله تعالى يقول : الخير فيكم يا أمة محمد

باق إلى يوم القيامة ﴿وما بدلوا تبديلاً (٢٣)﴾ [الأحزاب] معنى التبديل هنا : أي ما تخاذلوا في شيء عاهدوا الله عليه ونذروه ، فما جاءت بعد ذلك حرب ، وتخاذل أحد منهم عنها ، ولا أدخل أحد منهم الحرب مواربة ورياء ، فقاتل من بعيد ، أو تراجع خوفاً من الموت ، بل كانوا في المعمعة حتى الشهادة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤)﴾

تأمل هنا رحمة الخالق بالخلق ، هذه الرحمة التي ما حُرِم منها حتى المنافق ، فقال سبحانه ﴿ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم.. (٢٤)﴾ [الأحزاب]

وسبق أنْ تحدثنا عن صفتي المغفرة والرحمة وقلنا : غفور رحيم من صيغ المبالغة ، الدالة على كثرة المغفرة وكثرة الرحمة ، وأن القرآن كثيراً ما يقرن بينهما ، فالمغفرة أولاً لتستر العيب والنقائص ، ثم يتلوها الرحمة من الله ، بأن تمتد يده سبحانه بالإحسان .

وقد أوضحنا ذلك باللص تجده في بيتك ، فتشفق عليه ، ثم تمتد إليه يدك بالمساعدة التي تعينه على عدم تكرار ذلك . وقلنا : إن الغالب أن تسبق المغفرةُ الرحمةَ ، وقليلاً ما تسبق الرحمةُ المغفرةَ .

وقلنا : إنه يشترط في المغفرة أن تكون من الأعلى للأدنى ، فإذا

ستر العبد على سيده قبحاً لا يقال : غفر له ، وكذلك في الرحمة فإن مال الأقل بالإحسان إلى الأعلى لا يقال رحمة ؛ لأنه قد يعطيه عوضاً عما قدَّم له أو يعطيه انتظار أنْ يرد إليه ما أعطاه مرة أخرى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾

الغيظ : احتدام حقد القلب على مقابل منافس ، والمعنى : أن الله تعالى ردَّ الكافرين والغيظ يملأ قلوبهم ؛ لأنهم جاءوا وانصرفوا دون أنْ ينالوا من المسلمين شيئاً ﴿ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً .. (٢٥) ﴾ [الأحزاب] ليس الخير المطلق ، إنما لم ينالوا الخير في نظرهم ، وما يبتغونه من النصر على المسلمين ، فهو خير لهم وإنْ كان شراً يُراد بالإسلام .

وقد رد الله الكافرين إلى غير رَجْعة ، ولن يفكروا بعدها في الهجوم على الإسلام ؛ لذلك قال سيدنا رسول الله بعد انصرافهم خائبين : « لا يغزونا أبداً ، بل نغزوهم نحن »[1] وفعلاً كان بعدها فتح مكة .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ .. (٢٥) ﴾ [الأحزاب] أي :

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤١٠٩ ، ٤١١٠) ، وأحمد في مسنده (٤/٢٦٢) من حديث سليمان بن صرد . قال العسقلاني في (فتح الباري ٧/٤٠٥) : « فيه علَم من أعلام النبوة ، فإنه ﷺ اعتمر في السنة المقبلة فصدته قريش عن البيت ووقعت الهدنة بينهم إلى أن نقضوها فكان ذلك سبب فتح مكة ، فوقع الأمر كما قال » .

أن ردَّ الكافرين لم يكُنْ بسبب قوتكم وقتالكم ، إنما تولَّى الله ردَّهم وكفاكم القتال ، صحيح كانت هناك مناوشات لم تصل إلى حجم المعركة ، ولو حدثت معركة بالفعل لكانت في غير صالح المؤمنين ؛ لأنهم كانوا ثلاثة آلاف ، في حين كان المشركون عشرة آلاف .

إذن : كانت رحمة الله بالمؤمنين هي السبب الأساسي في النصر ؛ لذلك ذُيِّلت الآية بقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) ﴾ [الأحزاب] قوياً ينصركم دون قتال منكم ، وعزيزاً : أي يغلب ولا يُغلب .

هذا ما كان من أمر قريش وحلفائها ، أما بنو قريظة فيقول الله فيهم :

﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) ﴾

معنى ﴿ ظَاهَرُوهُم .. (٢٦) ﴾ [الأحزاب] أي : عاونوهم ﴿ مِن صَيَاصِيهِمْ .. (٢٦) ﴾ [الأحزاب] أي : من حصونهم وقلاعهم ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ .. (٢٦) ﴾ [الأحزاب] أي : الخوف وهو جندي من جنود الله ، وهذا الرعب الذي ألقاه الله في قلوب الكافرين هو الذي فرَّقهم ، ولم يجعل لكثرة العدد لديهم قيمة ، وما فائدة أعداد كثيرة خائفة مذعورة ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ .. (٤) ﴾ [المنافقون]

ألم يُحدِّثنا صحابة رسول الله أنهم كانوا يستعملون السواك ، فظن الكفار أنهم يسنُّون أسنانهم ليأكلوهم ، هذا هو الرعب الذي نصر الله به عباده المؤمنين .

ومعنى ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ .. (٢٦) ﴾ [الأحزاب] أى : المقاتلين الذين يحملون السلاح ﴿ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) ﴾ [الأحزاب] وهم النساء والذرارى وغيرهم مِمَّنْ لا يحملون السلاح .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾

معنى ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ .. (٢٧) ﴾ [الأحزاب] أى : أعطاكم أرضَ وديار وأموالَ أعدائكم من بعد زوالهم وانهزامسهم ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا .. (٢٧) ﴾ [الأحزاب] أى : أماكن جديدة لم تذهبوا إليها بعد ، والمراد بها خيبر ، وكأن الله يقول لهم : انتظروا فسوف تأخذون منهم الكثير ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧) ﴾ [الأحزاب]

وهكذا انتهى التعبير القرآنى من قصة الأحزاب[1] .

---

(١) أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة رضى الله عنه فى قوله ﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ .. (٢٦) ﴾ [الأحزاب] قال : هم بنو قريظة ظاهروا أبا سفيان ، وراسلوه ، ونكثوا العهد الذى بينهم وبين النبى ﷺ ، فبينما النبى ﷺ عند زينب بنت جحش يغسل رأسه وقد غسلت شقه ، إذ أتاه جبريل عليه السلام ، فقال : عفا الله عنك . ما وضعت الملائكة عليها السلام سلاحها منذ أربعين ليلة . فانهض إلى بنى قريظة فإنى قد قطعت أوتادهم ، وفتحت أبوابهم ، وتركتهم فى زلزال وبلبال .

فأرسل رسول الله ﷺ فحصرهم ، وناداهم : يا إخوة القردة فقالوا : يا أبا القاسم ما كنت فحاشا . فنزلوا على حكم سعد بن معاذ وكان بينهم وبين قومه حلف ، فرجوا أن تأخذه فيهم مودة ، فأومأ إليهم أبو لبابة ، فأنزل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ .. (٢٧) ﴾ [الأنفال] فحكم فيهم سعد : أن تُقتل مقاتلتهم ، وأن تسبى ذراريهم ، وأن عقارهم للمهاجرين دون الأنصار . فقال الأنصار : آثر المهاجرين بالأعقار علينا ، فقال سعد : إنكم كنتم ذوى أعقار ، وأن المهاجرين كانوا لا أعقار لهم . فذكر لنا أن رسول الله ﷺ كبَّر وقال : مضى فيكم بحكم الله » [الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٦/٥٩١]

وينبغي علينا الآن أنْ نستعرض القصة بفلسفة أحداثها ، وأن نتحدث عمّا في هذه القصة من بطولات ، ففيها بطولات متعددة ، لكل بطل فيها دور .

وتبدأ القصة حين ذهب كل من حيي بن أخطب ، وسلام بن أبي الحقيق ، وكانا من قريظة ، ذهبا إلى قريش في أماكنها ، وقالوا : جئناكم لنتعاون معكم على إبطال دعوة محمد ، فأتُوا أنتم من أسفل ، وننزل نحن من أعلى ، ونحيط محمداً ومن معه ونقضي عليهم .

وكان في قريش بعض التعقُّل فقالوا لحيي بن أخطب وصاحبه : أنتم أهل كتاب ، وأعلم بأمر الأديان فقولوا لنا : أديننا الذي نحن عليه خير أم دين محمد ؟ فقال : بل أنتم أصحاب الحق[1] .

سمعتْ قريش هذا الكلام بما لديها من أهواء ، وكما يقال : آفة الرأي الهوى ؛ لذلك لم يناقشوه في هذه القضية ، بل نسجوا على منواله ، ولم يذكروا ما كان من أهل الكتاب قبل بعثته ﷺ ، وأنهم كانوا يستفتحون على الكافرين برسول الله ويقولون لهم : لقد أطلَّ زمان نبي جديد نتبعه ونقتلكم به قَتْلَ عاد

---

(١) قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ۝٥١﴾ [النساء] وعن عكرمة قال : جاء حُيي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا لهم : أنتم أهل الكتاب وأهل العلم فأخبرونا عنا وعن محمد . فقالوا : ما أنتم وما محمد ؟ فقالوا : نحن نصل الأرحام ، وننحر الكوماء (الناقة العظيمة السنام) ، ونسقي الماء على اللبن ، ونفك العاني (الأسير) ، ونسقي الحجيج ، ومحمد صنبور قطع أرحامنا واتبعه سراق الحجيج من غفار ، فنحن خير أم هو ؟ فقالوا أنتم خير وأهدى سبيلاً . [تفسير ابن كثير ١/٥١٣]

وإرم[1] ، لقد فات قريشاً أنْ تراجع حيى بن أخطب ، وأن تسأله لماذا غيَّرتم رأيكم في محمد ؟

ثم جاء القرآن بعد ذلك ، وفضح هؤلاء وهؤلاء ، فقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) ﴾ [النساء]

فكانت هذه أول مسألة تغيب فيها العقول ، ويفسد فيها الرأى ، فتنتهز قريش أول فرصة حين تجد مَنْ يناصرها ضد محمد ودعوته ، ومن هنا اجتمع أهل الباطل من قريش وأحلافها من بني فزارة ، ومن بني مرة ، ومن غطفان وبني أسد والأشجعيين وغيرهم ، اجتمعوا جميعاً للقضاء على الدين الوليد .

ثم كانت أولى بطولات هذه المعركة ، لرجل ليس من العرب ، بل من فارس عبدة النار والعياذ بالله ، وكأن الحق سبحانه يُعد لنصرة الحق حتى من جهة الباطل ، إنه الصحابي الجليل سلمان الفارسي[2] ،

---

(١) قال محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمرو عن قتادة الأنصاري عن أشياخ منهم قال : فينا والله وفيهم ، يعني في الأنصار وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة يعني ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ (٨٩) ﴾ [البقرة] قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً في الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب ، وهم يقولون : إن نبياً سيُبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه لنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به » أورده ابن كثير في تفسيره (١٢٤/١) .

(٢) سلمان الفارسي ، صحابي من مقدميهم ، أصله من مجوس أصبهان ، رحل إلى الشام ، فالموصل ، فنصيبين ، قرأ كتب الفرس والروم واليهود ، وعلم بظهور الإسلام فقصد النبي فسمع كلامه ، ولم يدخل الإسلام إلا بعد أن تحرر من العبودية ، كان ينسج الصوف ويأكل خبز الشعير من كسب يده ، توفي ٣٦ هـ [الأعلام للزركلي ١١٢/٣]

الذى قضى حياته جوَّالاً يبحث عن الحقيقة ، إلى أنْ ساقتْه الأقدار إلى المدينة ، وصادف بعثة رسول الله وآمن به .

وكان سلمان أول بطل فى هذه المعركة ، حين أشار على رسول الله بحفر الخندق ، وقال : يا رسول الله كنا - يعنى فى فارس - إذا حَزَبنا أمرُ القتال خندقنا يعنى : جعلنا بيننا وبين أعدائنا خندقاً ، ولاقت هذه الفكرة استحساناً من المهاجرين ومن الأنصار ، فأراد كل منهم أن يأخذ سلمان فى صَفِّه ، فلما تنازعا عليه ، قال سيدنا رسول الله لهم « بل سلمان منا آل البيت »[1] وهذا أعظم وسام يوضع على صدر سلمان رضى الله عنه .

وهذه الفكرة دليل على أن الحق سبحانه يُجنِّد حتى الباطل لخدمة الحق ، فنحن لم يسبق لنا أنْ رأينا خندقاً ولا أهل الفارسى الذين جاءوا بهذه الفكرة ، لكن ساقها الله لنا ، وجعلها جُنْداً من جنوده على يد هذا الصحابى الجليل ، لنعلم كما قال تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال]

وقد أوضحنا هذا المعنى فى قصة فرعون الذى كان يذبح الأطفال

(١) عن عمرو بن عوف المزنى قال : خط رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب من أجم السمُر طرف بنى حارثة حين بلغ المداد ، ثم قطع أربعين ذراعاً بين كل عشرة ، فاختلف المهاجرون والأنصار فى سلمان الفارسى ، وكان رجلاً قوياً ، فقالت الأنصار : سلمان منا . وقالت المهاجرون : سلمان منا . فقال رسول الله ﷺ « سلمان منا أهل البيت » أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤١٨) والحاكم فى مستدركه (٣/٥٩٨) وضعَّف الذهبى إسناده من أجل كثير بن عبد الله

بعد النبوءة التي سمعها ، ثم يأتيه طفل على غير العادة يحمله إليه الماء ، وهو في صندوقه ، ولا يخفى على أحد أنَّ أهله قصدوا بذلك إبعاده عن خطر فرعون ، ومع ذلك حال الله بين فرعون وبين ما في قلبه ، فأخذ الولدَ وربَّاه في بيته .

وقد أحسن الشاعر الذي عبَّر عن هذا المعنى ، فقال :

إذاَ لَمْ تُصَادِفْ في بَنِيكَ عِنَايةٌ ... فَقَدْ كَذَبَ الراجي وَخَابَ المُؤَمِّلُ

فَمُوسى الذِي ربَّاه جِبْرِيلُ كَافِرٌ ... ومُوسىَ الذِي ربَّاهُ فرعَونْ مُرْسَلُ

البطل الثاني في هذه المعركة رجل يُدْعَى نعيم بن مسعود الأشجعي[1] ، جاء لرسول الله يقول : يا رسول الله لقد مال قلبي للإسلام ، ولا أحد يعلم ذلك من قومي ، فقال له رسول الله : « وما تغني أنت ؟ ولكن خذِّل عنا »[2] أي : ادفع عنا القوم بأيِّ طريقة ، أبعدهم عنَّا ، أو ضلِّلهم عن طريقنا ، أو قُلْ لهم أننا كثير ليرهبونا .. إلخ .

---

(١) نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي ، أبو سلمة . صحابي مشهور ، أسلم ليالي الخندق . وهو الذي أوقع الخلف بين الحيين قريظة وغطفان في وقعة الخندق ، فخالف بعضهم بعضاً ورحلوا عن المدينة . قُتل نعيم في أول خلافة علي قبل قدومه البصرة في وقعة الجمل ، وقيل : مات في خلافة عثمان ، والله أعلم . [الإصابة في تمييز الصحابة ترجمة رقم ٨٧٨٠] .

(٢) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٢٤٧/٣) أن نعيم بن مسعود أتى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله إني قد أسلمت ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمُرْني بما شئت ، فقال رسول الله ﷺ : « إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذِّل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة » .

هذا رجل كان بالأمس كافراً ، فماذا فعل الإيمان في قلبه ، وهو حديث عهد به ؟ نظر نُعَيْم ، فرأى قريشاً وأتباعها يأتون من أسفل ، وبنى قريظة وأتباعهم يأتون من أعلى ، فأراد أنْ يدخل بالدسيسة بينهما ، فذهب لأبى سفيان ، وقال : يا أبا سفيان ، أنا صديقكم ، وأنتم تعلمون مفارقتى لدين محمد ، ولكنى سمعت هَمْساً أن بنى قريظة تداركوا أمرهم مع محمد ، وقالوا : إن قريشاً وأحلافهم ليسوا مقيمين فى المدينة مثلنا ، فإنْ صادفوا نصراً ينتصرون ، وإنْ صادفوا هزيمة فروا إلى بلادهم ، ثم يتركون بنى قريظة لمحمد ؛ لذلك قرروا ألاَّ يقاتلوا معكم إلاَّ أنْ تعطوهم عشرة من كبرائكم ليكونوا رهائن عندهم .

سمع أبو سفيان هذا الكلام ، فذهب إلى قومه فقال لهم : أنتم المقيمون هنا ، وليس هذا موطن بنى قريظة ، وسوف يتركونكم لمواجهة محمد وحدكم ، فإنْ أردتم البقاء على عهدهم فى محاربة محمد ، فاطلبوا منهم رهائن تضمنوا بها مناصرتهم لكم .

بعدها ذهب أبو سفيان ليكلِّم بنى قريظة فى هذه المسألة ، فقال : هلك الخفُّ والحافر - يعنى : الإبل والخيل - ولسنا بدار مقام لنا ، فهيا بنا نناجز[1] محمداً - هذا بعد أنْ مكثوا نَيِّفاً وعشرين يوماً يعدون ويتشاورون - فقالوا له : هذا يوم السبت ، ولن نفسد ديننا من أجل قتال محمد وعلى كل حال نحن لن نشترك معكم فى قتال ، إلا أنْ تعطونا عشرة من كبرائكم يكونون رهائن عندنا . ساعتها علم أبو سفيان أن كلام نعيم الأشجعى صدْق ، فجمع قومه وقال لهم

---

(١) المناجزة فى القتال : المبارزة والمقاتلة ، وهو أن يتبارز الفارسان فيتمارسا حتى يقتل كل واحد منهما صاحبه أو يُقتل أحدهما . وتناجز القوم : تسافكوا دماءهم كأنهم أسرعوا فى ذلك . [لسان العرب - مادة : نجز]

الأرض ليست أرض مقام لنا ، وقد هلك الخف والحافر ، فهيا بنا ننجو .

قالوا : إن رسول الله ﷺ لما جاء نعيم بن مسعود ، وأخبر رسول الله بما حدث ، ووجد رسول الله الجو هادئاً ، فقال : « ألا رجل منكم يذهب فيُحدِّثنا الآن عنهم ، وهو رفيقى فى الجنة ؟ » والمراد : أن يندسَّ بين صفوف الأعداء ليعلم أخبارهم .

ومع هذه البشارة التى بشر بها سيدنا رسول الله مَنْ يؤدى هذه المهمة ، لم يَقُمْ من الحاضرين أحد ، ودَلَّ هذا على أن الهول ساعتها كان شديداً ، والخطر كان عظيماً ، وكان القوم فى حال من الجهد والجوع والخوف ، جعلهم يتخاذلون عن القيام ، فلم يأنس أحد منهم قوة فى نفسه يؤدى بها هذه المهمة .

لذلك كلَّف رسول الله رجلاً يُدْعى حذيفة بن اليمان بهذه المهمة قال حذيفة : ولكن رسول الله قال لى : لا تُحدث أمراً حتى ترجع إلىَّ ، فلما ذهبتُ وتسللتُ ليلاً جلستُ بين القوم ، فجاء أبو سفيان بالنبأ من بنى قريظة ، يريد أنْ يرحل بمَنْ معه ، فقال : ليتعرَّف كل واحد منكم على جليسه ، مخافة أن يكون بين القوم غريب .

وهنا تظهر لباقة حذيفة وحُسْن تصرفه ـ قال : فأسرعتُ وقلت لمَنْ على يمينى : مَنْ أنت ؟ قال : معاوية بن أبى سفيان ، وقلت لمَنْ على يسارى : مَنْ أنت ؟ قال : عمرو بن العاص [١] ، وسمعت أبا سفيان

---

(١) ذكر البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤٥١) من حديث حذيفة « ان أبا سفيان أحس أنه دخل فيهم من غيرهم ، فقال : يأخذ كل رجل منكم بيد جليسه فضربت بيدى على الذى عن يمينى فأخذت بيده ، ثم ضربت بيدى على الذى عن يسارى فأخذت بيده » (أخرجه الحاكم فى مستدركه ٣/٣١) وفى رواية أخرى ذكرها ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٧٧) وعزاها لمحمد بن إسحاق « ان أبا سفيان قال : يا معشر قريش لينظر كل امرىء مَنْ جليسه . قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذى إلى جنبى ، فقلت : من أنت ؟ فقال : أنا فلان بن فلان » ولم يذكر أمر معاوية ولا أمر عمرو بن العاص . والله أعلم

يقول للقوم : هلك الخفُّ والحافر ، وليستْ الأرضُ دارَ مقام فهيا بنا ، وأنا أولكم ، وركب راحلته وهى معقولة[1] من شدة تسرُّعه ، قال حذيفة : فهممتُ أن أقتله ، فأخرجت قوسى ووترتُها ، وجعلت السهم فى كبدها ، لكنى تذكرت قول رسول الله « لا تحدثن شيئاً حتى تأتينى » فلم أشأْ أن أقتله ، فلما ذهبت إلى رسول الله وجدته يصلى ، فلما أحسَّ بى فرج بين رجليه ـ وكان الجو شديد البرودة ـ فدخلتُ بين رجليه فنثر علىَّ مُرْطه ليدفئنى ، فلما سلم قال لى : ما خطبك فقصصت عليه قصتى[2] .

وبعد أنْ جند الحق سبحانه كلاً من نعيم الأشجعى وحذيفة لنصرة الحق ، جاءت جنود أخرى لم يروْها ، وكانت هذه الليلة باردة ، شديدة الرياح ، وهبَّتْ عاصفة اقتلعتْ خيامهم ، وكفأتْ قدورهم وشرَّدتهم ، ففرَّ مَنْ بقى منهم .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وكان اللَّهُ قَوِيًا عَزِيزًا (٢٥) ﴾ [الأحزاب]
﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو .. (٣١) ﴾ [المدثر]

بعد أنْ ردَّ الحق سبحانه كفار مكة بغيظهم ، وكفى المؤمنين القتال أراد أنْ يتحوَّل إلى الجبهة الأخرى ، جبهة بنى قريظة ، فلما رجع رسول الله من الأحزاب لقيه جبريل عليه السلام فقال : أوضعتَ لأْمتك[3] يا محمد ، ولم تضع الملائكة لأمتها للحرب ؟ اذهب فانتصر لنفسك من بنى قريظة ، فقال رسول الله للقوم : « مَنْ كان سامعاً

(١) عقل البعير : قيده وربطه . [لسان العرب ـ مادة : عقل] بتصرف

(٢) ذكره البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤٥١) . وانظر تفسير ابن كثير (٣/٤٧١)

(٣) اللأمة : الدرع . وقيل : السلاح . ولأمة الحرب : أداتها . وقال بعضهم : اللأمة الدرع الحصينة ، سميت لأمة لإحكامها وجودة حلْقها . [لسان العرب ـ مادة : لأم]

مطيعاً فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة »[1] .

فاختلف الصحابة حول هذا الأمر : منهم مَنْ انصاع له حرفياً ، وأسرع إلى بنى قريظة ينوى صلاة العصر بها ، ومنهم مَنْ خاف أنْ يفوته وقت العصر فصلى ثم ذهب ، فلما اجتمعوا عند رسول الله أقرَّ الفريقين ، وصوَّب الرأيين .

وكانت هذه المسألة مرجعاً من مراجع الاجتهاد فى الفكر الإسلامى ، والعصر حَدَثٌ ، والحدث له زمان ، وله مكان ، فبعض الصحابة نظر إلى الزمان فرأى الشمس توشك أنْ تغيب فصلَّى ، وبعضهم نظر إلى المكان فلم يُصَلِّ إلا فى بنى قريظة ؛ لذلك أقر رسول الله هذا وهذا[2] .

وينبغى على المسلم أنْ يحذر تأخير الصلاة عن وقتها ؛ لأن العصر مثلاً وقته حين يصير ظلُّ كل شىء مِثْلَيْه وينتهى بالمغرب ، وهذا لا يعنى أن تُؤخِّر العصر لآخر وقته ، صحيح إنْ صليْتَ آخر الوقت لا شىء عليك ، لكن مَنْ يضمن لك أن تعيش لآخر الوقت

إذن أنت لا تأثم إنْ صلَّيْت آخر الوقت ، لكن تأثم فى آخر لحظة من حياتك حين يحضرك الموت وأنت لم تُصلِّ ؛ لذلك يقول سيدنا

---

(١) ذكره بهذا اللفظ ابن حجر العسقلانى فى شرحه للبخارى (فتح البارى ٧/٤٠٨) من قول ابن إسحاق . وأصل الحديث عند البخارى فى صحيحه (٤١١٩) من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال يوم الأحزاب : « لا يصلينَّ أحد العصر إلا فى بنى قريظة » .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤١١٩) . وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٧٠) كتاب الجهاد ـ باب المبادرة بالغزو (٢٣) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما . ولفظه أن بعض الصحابة أدركه العصر فى الطريق ، فقال بعضهم : لا نصلى حتى نأتيهم ، وقال بعضهم : بل نصلى ، لم يُرد منا ذلك . فذُكر ذلك للنبى ﷺ فلم يُعنِّف واحداً منهما

رسول الله ﷺ : « خير الأعمال الصلاة لوقتها »[١] فليس معنى امتداد الوقت إباحة أنْ تُؤخَّر .

وفى مسألة الأحزاب بطولة أخرى لسيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقد ظهرت هذه البطولة عندما وجد الكفار فى الخندقة نقطة ضعيفة ، استطاعوا أنْ يجترئوا على المسلمين منها ، وأن يقذفوا منها خيولهم ، فلما قذفوا بخيولهم إلى الناحية الأخرى ، فجالت الخيل فى السبخة بين الخندق وجبل سلع ، ووقف واحد من الكفار وهو عمرو بن ود العامرى[٢] وهو يومئذ أشجع العرب وأقواها حتى عدُّوه فى المعارك بألف فارس .

وقف عمرو بن ود أمام معسكر المسلمين يقول وهو مُشْهِر سيفه : مَنْ يبارز ؟ فقال على لرسول الله : أبارزه يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « اجلس يا على ، إنه عمرو » فأعاد عمرو : أين جنَّتكم التى وعدتم بها مَنْ قُتِل فى هذا السبيل ؟ أجيبونى .

فقال على : أبارزه يا رسول الله ؟ قال « اجلس يا على ، إنه عمرو » وفى الثالثة قال عمرو :

وَلَقَدْ بُحِحْتُ مِنَ النِّداءِ ... بِجمعِكُمْ هَلْ مِنْ مُبَارِزْ

---

(١) عن ابن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ أى الأعمال أفضل ؟ قال : الصلاة لوقتها قلت : ثم أى ؟ قال : ثم بر الوالدين . قلت : ثم أى ؟ قال : ثم الجهاد فى سبيل الله حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٧٨٢) وكذا مسلم فى صحيحه (٨٥) كتاب الإيمان

(٢) هو عمرو بن عبد ود ، قرشى من بنى لؤى ، فارس قريش فى الجاهلية ، أدرك الإسلام ولم يسلم ، عاش إلى أن كانت وقعة الخندق فحضرها وقد تجاوز الثمانين ، وأصر على المقاتلة ، فقاتله على بن أبى طالب فقتله عام ٥ هجرية . الأعلام للزركلى (٥/٨١) .

وَوقفتُ إذ جَبُنَ المشجَّعُ ... مَوْقِفَ القِرْنِ المناجزْ

إنَّ الشَّجاعةَ فى الفَتَى ... والجودَ مِنْ خير الغرائزْ

عندها انتفض على رضى الله عنه وقال : أنا له يا رسول الله ، فأذن له رسول الله ، فأشار على لعمرو ، وقال :

لاَ تَعجَلَنَّ فَقَدْ أتَاكَ ... مجيب صوتكَ غير عَاجِزْ

ذُو نيةٍ وبَصيرةٍ ... والصِّدْقُ مُنجى كُلَّ فَائزْ

إنّى لأرْجُو أنْ أُقيم ... عَلَيك نَائحةَ الجَنَائزْ

مِنْ ضَرْبةٍ نَجْلاَء[1] ... يَبْقَى ذِكْرُهَا عِنْدَ الهَزَاهزْ

أى : الحروب[2] .

وكانت لسيدنا رسول الله درع سابغة اسمها ذات الفضول ، فألبسها رسول الله علياً وأعطاه سيفه ذا الفقار وعمامته السحاب ، وكانت تسعة أكوار ، وخرج على رضى الله عنه لمبارزة عمرو بن ود ، فضرب عمرو الدرقة[3] فشقَّها ، فعاجله على بضربة سيف على عاتقه أردتْهُ قتيلاً ، فقال علىٌّ ساعة وقع . الله أكبر سمعه رسول الله فقال : « قُتل عدو الله » .

ثم حدثت زوبعة العثْير[4] ـ وهو غبار الحرب ـ فحَجبت المعركة ،

---

(١) طعنة نجلاء . أى واسعة بيِّنة النجَل . وسنان منجل . واسع الجرح . ونجله بالرمح . طعنه راوسع شقه . [لسان العرب ـ مادة . نجل]

(٢) ذكر هذه الأبيات في نحو هذا السياق أبو بكر البيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤٣٨ ، ٤٣٩) .

(٣) الدرقة : ترس يُتخذ من الجلود . ليس فيه خشب ولا عقب . والجمع درق وأدراق . [قاله ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة درق]

(٤) العثْير (بالثاء الساكنة) : الغبار . والعثيرات . التراب . حكاه سيبويه . [لسان العرب ـ مادة عثر] ولفظ الحديث عند البيهقى فى دلائل النبوة ٣/٤٣٩ : « وثار العَجاج » والعجاج : الغبار . وقيل هو من الغبار ما ثوّرته الريح .

فذهب سيدنا عمر رضي الله عنه ليرى ما حدث ، فوجد علياً يمسح سيفه في درع عمرو بن ود ، فقال : الله أكبر ، فقال رسول الله : « قُتِل وأيْم الله » .

ومن الأخلاق الكريمة التي سبَّبها سيدنا علي في هذه الحادثة أنه بعد أنْ قتل عَمْراً سأله رسول الله ﷺ : « ألاَ سلبْتَ دِرْعه ، فإنه أفخر درع في العرب » ؟ فقال علي : والله لقد بانتْ سوأته ، فاستحييت أنْ أسلبَ ذلك[1] .

ثم أنشد رضي الله عنه وكرَّم الله وجهه ، وهو يشير إلى عمرو[2] :

نَصَرَ الحِجَارةَ[3] من سَفَاهَة رَأْيه ... ونَصَرْتُ ربَّ مُحمد بصَوابي

فَصَدَدْتُ حِينَ تركْتُه مُتجَدِّلاً ... كالجِذْعِ بين دَكَادكٍ[4] ورَوَابي

وعَفَفْتُ عن أثْوَابِه ولَوْ أنَّني ... كنتُ المُقَنْطَرَ بَزَّني أثْوابي[5]

---

(١) السائل لعلي هو عمر بن الخطاب فيما أورده البيهقي في دلائل النبوة (٣/٤٣٩) أن عمر قال له : هلا استلبته درعه ، فإنه ليس للعرب درع خير منها . فقال « ضربته فاتقاني بسواته (أي : بإسته) ، فاستحييت ابنَ عمي أن أستلبه » . فالله أعلم .

(٢) ذكر ابن هشام هذه الأبيات في « السيرة النبوية » (٣/٢٢٥) وعزاها لابن إسحاق ، ثم قال : وأكثر أهل العلم بالشعر يشك فيها لعلي بن أبي طالب .

(٣) الحجارة (هنا) : هي الأنصاب والأصنام التي كانوا يعبدونها ويذبحون لها .

وقد ذكر البيهقي هذا البيت بلفظ آخر

عَبَدَ الحِجارةَ من سَفَاهة عقْله ... وعَبَدْتُ ربَّ مُحمدٍ بصَوَاب

(٤) متجدلاً : لاصقاً بالأرض . والجذع : فرع النخلة . والدكادك : من الرمل اللين . والروابي جمع رابية ، وهي الكثبة المرتفعة .

(٥) القطر : الناحية والجانب . وطعنه فقطّره أي : ألقاه على قطره أي جانبه . [لسان العرب مادة : قطر] والبزُّ : السلب ، وبز الشيء : انتزعه . [لسان العرب ـ مادة : بزز] .

وفى هذه الواقعة قال سيدنا رسول الله ﷺ : « لو لم يكن لك يا على غيرها فى الإسلام لكفتك » .

لذلك قال العارفون بالله كأن علياً رضى الله عنه حُسِد حين قتل عمرو بن ود ، فأصابته العين فى ذاته ، فقُتل بسيف ابن ملجم ، ومن هنا قالوا : أعزّ ضربة فى الإسلام ضربة علىٍّ لعمرو بن ود ، وأشأم ضربة فى الإسلام ضربة ابن ملجم لعلى .

وفى المعركة بطولة أخرى لسيدنا سعد بن معاذ[١] رضى الله عنه حيث يقول : ضربنى يوم الأحزاب حبَّان بن قيس بن العَرِقة ، وقال : خُذها وأنا ابن العَرِقة[٢] ـ فقلت : عرَّقَ الله وجهك فى النار ، فلما أصابنى فى أكحلى ـ والأكحل هو : العِرْق الذى تضع فيه الحقنة ، ومنه يخرج دم الفَصْد والحجامة .

فقلت : اللهم إنْ كانت هذه آخر موقعة بيننا وبين قريش فاجعلنى شهيداً ، وإنْ كنتَ تعلم أنهم يعودون فأبقنى لأشفى نفسى ممَّنْ أخرج رسول الله وآذاه ، ولا تُمتْنى حتى أشفى غليلى من بنى قريظة[٣]

(١) هو سعد بن معاذ بن النعمان الأوسي الأنصارى ، صحابى من الأبطال ، من أهل المدينة ، كانت له سيادة الأوس ، شهد بدراً وأحداً ، رُمى بسهم يوم الخندق ، فمات من أثر جرحه عام ٥ هـ ، وكان عمره سبعة وثلاثين عاما (الأعلام للزركلى ٣/٨٨) .

(٢) العرقة : هى قلابة بنت سعد بن سهم ، وتكنى أم فاطمة ، وسميت العرقة لطيب ريحها ، وهى جدة خديجة ، أم أمها هالة (راجع الروض الأنف للسهيلى)

(٣) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٣/٢٢٦) ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٣/٤٤١) ، وفيه إضافة : « اللهم وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لى شهادة ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة » .

وقد كان ، فبعد أنْ مكث الأحزاب وبنو قريظة قرابة خمسة وعشرين يوماً دون قتال ، وانتهى الأمر بالمفاوضات اختار سيدنا رسول الله سعد بن معاذ ليكون حكَماً في هذه المسألة ، فحكم سعد بقتل المقاتلين منهم ، وأسر الذراري والنساء والأموال ، فلما بلغ هذا الحكم رسول الله ﷺ قال : « لقد حكمتَ فيهم حكم ربك من فوق سبع سموات »[1] .

ثم ثار الجرح على سيدنا سعد حتى مات به ، فحملوه إلى خيمة رسول الله بالمسجد ، فجاءت الملائكة تقول لرسول الله : مَنْ هذا الذي مات ، وقد اهتزَّ له عرش الرحمن ؟ قال : « إنه سعد بن معاذ »[2] .

وقد قال تعالى ﴿ فريقا تقتُلون وتأسِرُون فريقا (٢٦) ﴾ [الأحزاب]

وفي قوله تعالى : ﴿ وأرْضا لمْ تطئُوها .. (٢٧) ﴾ [الأحزاب] بشارة للمسلمين بأن البلاد ستُفتح لهم دون قتال ، وهذا حال جمهرة البلاد

---

(١) عن أبي سعيد الخدري أن أناسا نزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فأرسل إليه فجاء على حمار ، فلما بلغ قريبا من المسجد قال النبي ﷺ : قوموا إلى خيركم - أو سيدكم - فقال يا سعد ، إن هؤلاء نزلوا على حكمك ، قال : فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم ، وتُسْبَى ذراريهم ، فقال ﷺ : « حكمت بحكم الله ، أو بحكم الملك » أخرجه البخاري في صحيحه (٣٨٠٤)

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه (٢٠٧/٣) من حديث عبد الله بن كعب بن مالك أن سعدا عاش بعدما أصابه سهم نحوا من شهر حتى حكم في بني قريظة بأمر رسول الله ورجع إلى مدينة رسول الله ، ثم انفجر كلمه (جُرْحه) فمات ليلا فأتى جبريل رسول الله فقال له : من هذا الذي فُتحت له أبواب السماء ، واهتز له عرش الرحمن فخرج النبي ﷺ إلى سعد ، فوجده قد مات . فقال ابن حجر في الفتح (١٢٤/٧) : المراد باهتزاز العرش استبشاره وسروره بقدوم روحه .

التى دخلها الإسلام ، فغالبية هذه البلاد فُتِحَتْ بالأسْوة السلوكية للمسلمين آنذاك ، وبذلك نستطيع أن نردَّ علىَ مَنْ يقول : إن الإسلام انتشر بحدِّ السيف .

وإذا كان الإسلام انتشر بحدِّ السيف ، فأىُّ سيف حمل المسلمين الأوائل على الإسلام وكانوا من ضعاف القوم لا يستطيعون حتى حماية أنفسهم ؟ إذن : لا شيء إلا قدوة السلوك التى حملت كل هؤلاء على الإيمان .

وسبق أن ذكرنا أن عمر ـ رضى الله عنه ـ وما أدراك ما عمر قوة وصلابةً يقول حين سمع قول الله تعالى : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر]

قال : أىُّ جمع هذا ، ونحن لا نستطيع حماية أنفسنا ؟ مما يراه من ضعف المسلمين وبطش الكافرين[1] .

ثم لو انتشر الإسلام بالسيف لأصبح سكان البلاد التى دخلها الإسلام كلهم مسلمين ، ولَمَا كانت للجزية وجود فى الفقه الإسلامى ، إذن : بقاء الجزية على مَنْ لم يؤمن دليل على بطلان هذه المقولة ، ودليل على عدم الإكراه فى الدين ، فالفتح الإسلامى كفل حرية العقيدة ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف] وعليه الجزية لبيت مال المسلمين مقابل ما تقدمه الدولة إليه من خدمات .

فالجزية التى تتخذونها سُبَّة فى الإسلام دليل على أن الإسلام

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره وعزاه لابن أبى حاتم (٤/٢٦٦) عن عكرمة قال : لما نزلت ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر (٤٥)﴾ [القمر] قال عمر : أى جمع يُهزم ؟ أى جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : سيهزم الجمع ويولون الدبر ، فعرفت يومئذ تأويلها .

أقرِّكم على دينكم ، إنما حَمْل السيف كان فقط لحماية الاختيار في الدعوة ، فأنا سأعرض الإسلام على الناس ، ومن حقي أنْ أقاتل مَنْ يعارضني بالسلاح ، من حقي أن أعرض الإسلام كمبدأ ، فمَنْ آمن به فعلى العين والرأس ، ومَنْ لم يؤمن فليَبْقَ في ذمتنا .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى بيوت أزواج النبي ﷺ ، فيقول سبحانه[1] :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾

لسائل أنْ يسأل : ما سِرُّ هذه النقلة الكبيرة من الكلام عن حرب الأحزاب وحرب بني قريظة إلى هذا التوجيه لزوجاته ﷺ ؟

قالوا : لأن مسألة الأحزاب انتهتْ بقوله تعالى : ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأحزاب] فربما طلبتْ زوجات الرسول أنْ يُمتِّعهن وينفق عليهن ، مما يفتح الله عليه من خيرات هذه البلاد ، فجاءتْ هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأحزاب] لتقرر أن الإسلام ما جاء ليحقق مزيَّة لرسول الله ، ولا لآل رسول الله ، حتى الزكاة لا تصح لأحد من فقراء بني هاشم .

لكن مجيء الآية هكذا بصيغة الأمر : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأحزاب] دليل على حدوث شيء منهن يدلّ على تطلعهن إلى زينة الحياة ومُتَعها . وقد رُوِي عن عمر - رضي الله عنه

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٥٤٢٣/٧) : « قال علماؤنا : هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدم من المنع من إيذاء النبي ﷺ ، وكان قد تأذى ببعض الزوجات . قيل : سألنه شيئاً من عرض الدنيا . وقيل : زيادة في النفقة . وقيل : آذينه بغيرة بعضهن على بعض » .

أنهن اجتمعْنَ يسألْن رسول الله النفقة ، وأنْ يُوسِّع عليهن بعد أنْ قال ﷺ عن الكفار : لن يغزونا ، بل نغزوهم[1] وبعد أنْ بشَّرتهم الآيات بما سيُفتح من ارض جديدة .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) ﴾ [الأحزاب] يعني : ليس عندي ما تتطلَّعْن إليه من زينة الدنيا وزخرفها . ومعنى ﴿ فَتَعَالَيْنَ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] نقول : تعالَيْن يعني : أقبِلْن ، لكنها هنا بمعنى ارتفعْنَ من العلو ، ارتفعْنَ عن مناهج البشر والأرض ، وارتقينَ إلى مناهج خالق البشر ، وخالق الأرض ؛ لأن السيادة في منهج الله ، لا في مُتَع الحياة وزخرفها .

وقد ورد هذا المعنى أيضاً في قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] فتعالوْا أي : ارتفعوا عن قوانين البشر وقوانين الأرض إلى قوانين السماء ؛ لأنه يُشترط فيمَنْ يضع القانون ألاَّ يفيد من هذا القانون ، وأن يكون مُلماً بكل الجزئيات التي يتعرض لها القانون والبشر مهما بلغتْ قدرتهم ، فإنهم يعلمون شيئاً ويجهلون آخر ؛ لذلك لا ينبغي أنْ يُقنِّن لهم إلا خالقهم عز وجل .

ومعنى ﴿ أُمَتِّعْكُنَّ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] أي : أعطيكُنَّ المتعة الشرعية التي تُفْرض للزوجة عند مفارقة زوجها ، والتي قال الله فيها[2] :

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤١٠٩ ، ٤١١٠) ، وأحمد في مسنده (٤/٢٦٢) من حديث سليمان بن صُرَد رضي الله عنه ، وفي الرواية الثانية عند البخاري : نحن نسير إليهم . قال ابن حجر في الفتح (٧/٤٠٥) : « فيه عَلَم من أعلام النبوة ، فإنه ﷺ اعتمر في السنة المقبلة فصدته قريش عن البيت ووقعت الهدنة بينهم إلى أن نقضوها ، فكان ذلك سبب فتح مكة . فوقع الأمر كما قال ﷺ » .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (١/٢٩٧) : « قد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لكل مطلقة سواء كانت مفوضة أو مفروضاً لها أو مطلقة قبل المسيس أو مدخولاً بها ، وهو قول عن الشافعي رحمه الله ، وإليه ذهب سعيد بن جبير وغيره من السلف واختاره ابن جرير » .

﴿ وللْمُطَلَّقَات مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوف حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) ﴾ [البقرة]

وقوله : ﴿ وأُسرِّحْكُنَّ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] التسريح هنا يعنى الطلاق ﴿ سراحا جميلاً (٢٨) ﴾ [الأحزاب] ذلك يدلُّ على أن المفارقة بين الزوجين إنْ تمتْ إنما تتم بالجمال أى : اللطف والرقة والرحمة بدون بشاعة وبدون عنف : لأن التسريح فى ذاته مفارقة مؤلمة ، فلا يجمع الله عليها شدتين : شدة الطلاق ، وشدة العنف والقسوة .

ولك أنْ تلحظ أن لفظ الجمال يأتى فى القرآن مع الأمور الصعبة التى تحتاج شدة ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ فصبْرٌ جميلٌ .. (٨٣) ﴾ [يوسف] والصبر يكون جميلاً حين لا يصاحبه ضَجَر ، أو شكوى ، أو خروج عن حَدِّ الاعتدال .

ورسول الله ﷺ يعرض على زوجاته التسريح الجميل الذى لا مشاحنةَ فيه ولا خصومةَ إنْ اخترْنَهُ بأنفسهن ، وما كان رسول الله ليمسك زوجة اختارتْ عليه أمراً آخر مهما كان .

وللعلماء كلام طويل فى هذه المسألة : هل يقع الطلاق بهذا التخيير ؟ قالوا : التخيير لَوْنٌ من حب المفارقة الذى يعطى للمرأة - كما نقول مثلاً : العصمة فى يدها - فهى إذن تختار لنفسها ، فإنْ قبلت الخيار الأول وقع الطلاق ، وإن اختارت الآخر فبها ونعمتْ ، وانتهتْ المسألة[1] .

---

(١) قال الشافعى التخيير كناية ، فإذا خيَّر الزوج امرأته وأراد بذلك تخييرها بين أن تطلق منه وبين أن تستمر فى عصمته فاختارت نفسها وأرادت بذلك الطلاق طُلِّقت ، فلو قالت لم أُرد باختيار نفسى الطلاق ، صدقت وقال القرطبى فى المفهم فقال فى الحديث إن المخيَّرة إذا اختارت نفسها أن نفس ذلك الاختيار يكون طلاقاً من غير احتياج إلى نطق بلفظ يدل على الطلاق . أما الحافظ ابن حجر العسقلانى فقال . لكن الظاهر من الآية أن ذلك بمجرده لا يكون طلاقاً ، بل لابد من إنشاء الزوج الطلاق لأن فيها ﴿ فتعالين أُمتِّعْكُنَّ وأُسرِّحْكُنَّ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] أى . بعد الاختيار . [نيل الأوطار للشوكانى ٦/٢٤٢]

وأمْرُ الله لرسوله أن يقول لزوجاته هذا الكلام لا بُدَّ أنْ يكون له رصيد من خواطر خطرتْ على زوجاته ﷺ لَمَّا رأيْنَ الإسلام تُفْتح له البلاد ، وتُجبى إليه الخيرات ، فتطلَّعْن إلى شيء من النفقة .

وكلمة الأزواج : جمع زوج ، وتُقال للرجل وللمرأة ، والزوج لا يعني اثنين معاً كما يظن البعض ، إنما الزوج يعني الفرد الذي معه مثله من جنسه ، ومثله تماماً كلمة التوأم ، فهي تعني (واحد) لكن معه مثله ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ.. ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات] يعني : ذكر وأنثى ، فالذكر وحده زوج ، والأنثى وحدها زوج ، وهذه القسمة موجودة في كل المخلوقات . وتُجمع زوج أيضاً على زوجات .

ونلحظ في الأسلوب هنا أن الحق سبحانه حين يعرض على رسوله أنْ يُخيِّر زوجاته بين زينة الدنيا ونعيم الآخرة يستخدم (إنْ) الدالة على الشك ، ولا يستخدم مثلاً (إذَا) الدالة على التحقيق ، وفي هذا إشارة إلى عدم المبالغة في اتهامهن ، فالأمر لا يعدو أنْ يكون خواطر جالتْ في أذهان بعض زوجاته .

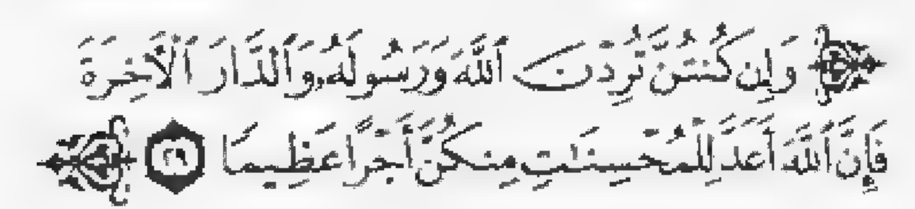
وتعلمون أن سيدنا رسول الله جمع من النساء تسعاً معاً ، منهن خمسٌ من قريش ، وهُنَّ : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة بنت زمعة ، وأم سلمة ابنة أبي أمية . ومن غير قريش : صفية بنت حيي بن أخطب الذي ذكرنا قصته في الأحزاب ، ثم جويرية بنت الحارث من بني المصطلق ، ثم ميمونة بنت الحارث الهلالية - ومَنْ ذهب عند التنعيم وجد هناك بئر ميمونة ، ثم زينب بنت جحش من بني أسد ، هؤلاء هُنَّ أمهات المؤمنين التسعة اللائي جمعهنَّ رسولُ الله معاً

فلما سألْنَ رسول الله النفقة كانت أجرأهُنَّ في ذلك السيدة حفصة بنت عمر ، وقد حدث بينها وبين رسول الله مُشَادَّة في الكلام ، فقال لها : « ألا تحبين أنْ أستدعى رجلاً بيننا ؟ » فوافقتْ ، فأرسل إلى عمر ، فلما جاء قال لها رسول الله : تكلَّمي انت - يعني : اعرضي حاجتك - فقالت : بل تكلم أنت ، ولا تقل إلا حقاً .

أثارت هذه الكلمة حفيظة سيدنا عمر ، فهاج وقام إلى ابنته فوجأها ، فحجزه رسول الله فتناولها ثانية فوجأها ، ثم قال لها : إن رسول الله لا يقول إلا حقاً ، ووالله لولا أنَّا في مجلسه ما تركتُك حتى تموتي ، فقام رسول الله من المجلس ليفضَّ هذا النزاع ، وذهب إلى حجرته ، واعتكف بها ، وقاطع الأمر كله مدة شهر[1] .

وتأمل قول الله تعالى : ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا .. (٢٨)﴾ [الأحزاب] فأيُّ وَصْف أحقر ، وأقلّ لهذه الحياة من أنها دُنْيا ؟ وما فيها من مُتَع إنما هي زينة ، يعني : ترف في المظهر ، لا في الجوهر ، كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ.. (٢٠)﴾ [الحديد]

ثم يعرض رسول الله على زوجاته الخيار الثاني المقابل للحياة الدنيا :



المتأمل جانبيْ التخيير هنا يجد أن المقارنة بينهما أمر صعْب يوحي

(١) هذا الأمر اختلفت فيه الروايات ، فبعضها يورد هذا في حق عائشة وأبيها أبي بكر ، وبعضها الآخر في حق حفصة وأبيها عمر ، أما الأول فقد أخرجه ابن سعد في الطبقات (١٠/٧٩) ، وأما الثاني فقد أخرجه البخاري في صحيحه (٢٤٦٨) ضمن حديث طويل ويجوز أن الواقعة قد تكررت ، والله تعالى أعلم

برفض التخيير بين طرفي هذه المسألة ، فمَنْ يقبل أنْ تكون له حياة دنيا مقابل الله ، وأن تكون له زينتها مقابل رسول الله ، ثم زِدْ على ذلك الدار الآخرة التي لم يُذكر قبالتها شيء في الجانب الآخر ، ثم إن الحياة الدنيا التي نعيشها حتى لو لم تُوصَفْ بأنها دنيا كان يجب أنْ يُزهد فيها .

والحق أنهن فَهِمْنَ هذا النص واخترْنَ الله ورسوله والدار الآخرة ، ومَنْ يرضى بها بديلاً : والحمد لله

﴿ وكفى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ .. (٢٥) ﴾ [الأحزاب]

ثم يأتي جزاء مَن اختار الله ورسوله والدار الآخرة ﴿ فإنَّ اللهَ أعدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أجْرًا عظيمًا (٢٩) ﴾ [الأحزاب] المحسنة هي الزوجة التي تعطي من الرحمة والمودة الزوجية فوق ما طُلب منها .

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - بعد أنْ خيَّر زوجات النبي ﷺ فاخترْنَ الله ورسوله والدار الآخرة أراد سبحانه أنْ يُعطيهن المنهج والمبادىء التي سيسِرْنَ عليها في حياتهن . ونلحظ أن آية التخيير كانت من كلام النبي عن ربه ، أما هنا فالكلام من الله مباشرة لنساء النبي .

﴿ يَٰنِسَاءَ النَّبِيِّ .. (٣٠) ﴾ [الأحزاب] فبداية المسألة ﴿ يَٰأَيُّها النبيُّ قُل لأزْواجك .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب] فلما اخترْنَ الله ورسوله والدار الآخرة كأنهن ارتفعْنَ إلى مستوى الخطاب المباشر من الله تعالى ، كأنهن حقَّقْنَ المراد من الأمر السابق ﴿ فتعالَيْنَ .. (٢٨) ﴾ [الأحزاب]

كلمة ﴿ نساء .. (٣٠) ﴾ [الأحزاب] تعلم أنها جمع ، لكن لا نجد لها

مفرداً من لفظها ، إنما مفردها من لفظ آخر هو امرأة[1] ، وفي اللغة جموع تُنوسي مفردها بشهرة مفرد آخر أرقّ أو أسهل في الاستعمال ، وامرأة أو (مَرة) يصح أيضاً من (امرؤ)[2] ، وهذه اللفظة تختلف عن ألفاظ اللغة كلها ، بأن حركة الإعراب فيها لا تقتصر على الحرف الأخير إنما تمتد أيضاً إلى الحرف قبل الأخير ، فنقول : قال امْرُؤُ القيس ، وسمعت امْرَأَ القيس ، وقرأت لامْرِئِ القيس .

وبعض الباحثين في اللغة قال : إن (نساء) من النَّسْأ والتأخير ، على اعتبار أن خَلْقها جاء متأخراً عن خَلْق الرجل ، ومفردها إذن (نَسْءٌ) وإنْ كان هذا تكلفاً لا داعيَ له .

وبعد هذا النداء ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأحزاب] يأتي الحكم الأول من المنهج الموجَّه إليهن . ﴿ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأحزاب] نلحظ أن الحق سبحانه لم يبدأ الكلام مع نساء النبي بقوله مثلاً : مَنْ يتق الله منكن ، إنما بدأ بالتحذير من إتيان الفاحشة ؛ لأن القاعدة الشرعية في التقنين والإصلاح تقوم على أن « درء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة » كما أننا قبل أنْ نتوضأ للصلاة نبرئ أنفسنا من النجاسة .

ومثَّلْنا لذلك وقلْنا : هَبْ أن واحداً رماك بتفاحة ، وآخر رماك بحجر ، فأيهما أوْلَى باهتمامك ؟ لا شكَّ أنك تحرص أولاً على ردِّ الحجر والنجاة من أذاه ، وكذلك لو أردتَ أنْ تكوي ثوبك مثلاً وهو مُتسخ ، لا بُدَّ أن تغسله أولاً .

---

(١) قال ابن منظور في [لسان العرب ـ مادة . نسا] : « النِّسْاء ، والنِّسْوان والنُّسْوان : جمع المرأة من غير لفظه . وقال ابن سيده : والنساء جمع نسوة إذا كثُرْنَ » .

(٢) قال الليث : امرأة تأنيث امرئ : وقال ابن الأنباري : للعرب في المرأة ثلاث لغات ، يقال هي امرأته ، وهي مرأته ، وهي مَرَتُه . [لسان العرب ـ مادة ـ مرأ] .

لذلك بدأ الحق سبحانه التوجيه لنساء النبى بقوله ﴿مَن يأتِ منكُنَّ بفاحشة مُّبيِّنة .. (٣٠)﴾ [الأحزاب] لكن الفاحشة أمر مستبعد ، فكيف يتوقع منتهى الذنوب من نساء رسول الله ؟ قالوا : ولم لا ، وقد خاطب الله تعالى نبيه ﷺ بقوله : ﴿لئنْ أشْركْتَ ليحْبطنَّ عملُك .. (٦٥)﴾ [الزمر]

ومعلوم أن رسول الله ليس مظنة الوقوع فى الشرك ، إذن : فالمعنى ، يا محمد ليس اصطفاؤك يعنى أنك فوق المحاسبة ، كذلك الحال بالنسبة لنسائه ، إنْ فعلَتْ إحداكن فاحشة ، فسوف نضاعف لها العذاب ، ولن نستر عليها لمكانتها من رسول الله ، فإياكُنَّ أنْ تظننَّ أن هذه المكانة ستشفع لكُنَّ ، وإلا دخلتْ المسألة فى نطاق : إذا سرق الوضيع أقاموا عليه الحد ، وإذا سرق الشريف تركوه[1] .

إذن : منزلة الواحدة منكُنَّ ليست فى كونها مجرد زوجة لرسول الله ، إنما منزلتها بمدى التزامها بأوامر الله ، وإلا فهناك زوجات للرسل خُنَّ[2] أزواجهن واقرأ : ﴿ضرب اللَّهُ مثلاً لِّلَّذين كفرُوا امرأت نُوحٍ وامْرأت لُوطٍ كانتا تحت عبْديْنِ منْ عبادنا صالحيْنِ فخانتاهُما فلمْ يُغْنِيا عنْهُما من اللَّه شيْئًا وقيل ادْخُلا النَّار مع الدَّاخلين (١٠)﴾ [التحريم]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٧٨٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٦٨٨) من حديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « أيها الناس ، إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٣٩٣) : « ليس المراد بقوله (فخانتاهما) فى فاحشة بل فى الدين ، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع فى الفاحشة لحرمة الأنبياء . قال ابن عباس . هما زنتا . أما خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه » .

ولك أن تسأل : هذا حكم الفاحشة المبيّنة ، أنْ يُضاعَف لها العذاب ، فما بال الفاحشة منهن إنْ كانت غير مُبيِّنة ؟

قالوا : هذا الحكم خاصٌ بنساء النبي ﷺ ، فإن حدث من إحداهن ذنب بينها وبين نفسها فهو ذنب واحد مقصور عليها ، فإنْ كان علانيةً فهو مُضَاعف ؛ لأنهن أسوة وقدوة تتطلع العيون إلى سلوكهن ، فإنْ ظهرت منهن فاحشة كان تشجيعاً للأخريات ، ولم لا وقد جاءت الفاحشة من زوجة النبي .

فمضاعفة العذاب - إذن - لأن الفساد تعدَّى الذات إلى الآخرين ، وأحدث قدوة سوء في بيت النبي ، فاستحقتْ مضاعفة العذاب ؛ لأنها آذتْ شعور رسول الله ، ولم تُقدِّر منزلته وفضَّلَت عليه غيره لتأتي معه الفاحشة ، وهذا يستوجب أضعاف العذاب ، فإنْ ضاعف لها اللهُ العذابَ ضعفين فحسب ، فهو رِفْق بها ، ومراعاة لماضيها في زوجية رسول الله .

كذلك إنْ فعلتْ إحداهن حسنة ، فلها أجرها أيضاً مُضَاعفاً ؛ لأنها فعلتْ صالحاً في ذاتها كأيِّ إنسانة أخرى ، ثم أعطتْ قدوة حسنة ، وأسْوة طيبة لغيرها

فإنْ أخذْنا في الاعتبار حديث النبي ﷺ : « مَنْ سَنَّ سنة حسنة ، فَلَهُ أجرها وأجر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة ، ومَنْ سَنَّ سنة سيئة فعليه وِزْرها ، ووِزْر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة »[1]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٦١/٤ ، ٣٦٢) ، وابن ماجة في سننه (٢٠٧) والترمذي في سننه (٢٦٧٥) عن جرير بن عبد الله . قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

علمنا أن أجر الحسنة لا يُضاعف فقط مرتين ، إنما بعدد ما أثَّرت فيه الأسوة ، وفَرْق بين الضِّعْف والضُّعْف . الضِّعْف : ضِعْف الشيء أى مثله ، أما الضُّعف فهو فَقْد هذا المثل ، فهو أقل[1] .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠)﴾ [الأحزاب] يعني : مسألة مضاعفة العذاب أمر يسير ، ولن تغنى عنكُنَّ منزلتكُنَّ من رسول الله شيئاً ، فهذا أمر لا يسألني فيه أحد ، ولا أحابى فيه أحداً ، ولا بُدَّ أن أُسيِّر الأمور كما يجب أن تكون ، ولا يعارضني فيها أحد ، لذلك كثيراً ما تُذيِّل أحكام الحق سبحانه بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)﴾ [البقرة] فالعزة تقتضى أن يكون الحكم ماضياً لا يُعدِّله أحد ، ولا يعترض عليه أحد .

وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى لسيدنا عيسى عليه السلام ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ [المائدة]

---

(١) الضُّعْف والضَّعْف : خلاف القوة سواء كان فى الجسد أو فى الرأى والعقل . وقد قال تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا (٥٤)﴾ [الروم]

فقوله : ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ .. (١١٨) ﴾ [المائدة] يقتضى أن يقول : فإنك غفور رحيم ، لكن الحق سبحانه عدل إلى ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة] لأن الذنب الذى وقع فيه القوم ذنب فى القمة ، فى الألوهية التى أخذوها من الله وجعلوها لعيسى عليه السلام ، وهذا بمقتضى العقل يستوجب العذاب الشديد ، لكن الحق سبحانه لا يُسأل عما يفعل ، يُعذِّب مَنْ يشاء ، ويغفر لمَنْ يشاء ، فإنْ غفر لهم فبصفة العزة التى لا يعارضها أحد ، فكان المنطق أن يُسأل الله : لماذا لم تُعذِّب هؤلاء على ما ارتكبوه ؟ لذلك دخل هنا من ناحية العزة ، التى لا تُعارَض ، والحكمة التى لا تخطىء .

وبعد أن ذكر الحق سبحانه مسألة الفاحشة ، وما يترتب عليها من عقاب ذكر سبحانه المقابل ، فقال تعالى :

﴿ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) ﴾

معنى ﴿ يَقْنُتْ .. (٣١) ﴾ [الأحزاب] أى : يخضع لله تعالى الخضوع التام ، ويخشع ويتذلَّل لله فى دعائه ، واختار الحق سبحانه القنوت ؛ لأنه سبحانه لا يحب من الطائع أنْ يُدِلَّ على الناس بطاعته ؛ لذلك يقول العارفون : رُبَّ معصية أورثت ذلاً وانكساراً ، خير من طاعة أورثتْ عزاً واستكباراً[1] .

---

(١) هذه الحكمة من حكم ابن عطاء الله السكندرى (متصوف شاذلى ، من العلماء ـ توفى ٧٠٩ هـ) ، وقد ذكر عبد العال كحيل هذه الحكمة لابن عطاء الله فى كتابه « أبو العينين الدسوقى » طبعة دار الشعب ـ ص ٧٦ .

أو ﴿وَمَن يَقْنُتْ .. (٣١)﴾ [الأحزاب] أى : بالغ فى الصلاح ، وبالغ فى الورع حتى ذهب إلى القنوت ، وهو الخضوع والخشوع .

والنتيجة ﴿نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ .. (٣١)﴾ [الأحزاب] فالآية السابقة تقرر مضاعفة العذاب لمن تأتى بالفاحشة ، وهذه تقرر مضاعفة الأجر لمن تخضع لله وتخشع وتعمل صالحاً .

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١)﴾ [الأحزاب] أى : أعددناه وجهّزناه لها من الآن ، فهو ينتظرها .

وحين تتأمل الأسلوب القرآنى فى هاتين الآيتين تطالعك عظمة الأداء ، فحين ذكر الفاحشة ومضاعفة العذاب جاء الفعل ﴿يُضَاعَفْ .. (٣٠)﴾ [الأحزاب] مبنياً لما لم يُسَمَّ فاعله ، أما فى الكلام عن القنوت لله ، فقال ﴿نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا .. (٣١)﴾ [الأحزاب] فجاء الفعل مُسْنداً إلى الحق سبحانه مباشرة ، وكأن الحق سبحانه لم يُرِدْ أنْ يواجه بذاته فى مقام العذاب ، إنما واجه بالعذاب فقط .

ومجرد بناء الفعل ﴿يُضَاعَفْ .. (٣٠)﴾ [الأحزاب] للمجهول يدل على رحمة الله ولُطْفه فى العبارة ، فالحق سبحانه يحب خَلْقه جميعاً ، ويتحبب ويتودد إليهم ، ويرجو من العاصى أنْ يرجع ويفرح سبحانه بتوبة عبده المؤمن أكثر من فرح أحدكم حين يجد راحلته وقد ضلَّتْ منه فى فلاة[1] .

وجاء فى الأثر : « يا ابن آدم ، لا تخافنَّ من ذى سلطان ما دام سلطانى باقياً وسلطانى لا ينفد أبداً ، يا ابن آدم ، لا تخْشَ من ضيق الرزق وخزائنى ملآنة وخزائنى لا تنفد أبداً ، يا ابن آدم ، خلقتُك

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه

للعبادة فلا تلعب ـ والمراد باللعب العمل الذى لا جدوى منه ـ وقسمتُ لك رزقك فلا تتعب » .

والمراد هنا لا تتعب ، ولا تشغل قلبك ، فالتعب يكون للجوارح ، كما جاء فى الحديث النبوى الشريف : « مَنْ بات كالاً من عمل يده بات مغفوراً له »[1] ولما رأى رسول الله ﷺ يداً خشنة من العمل قال : « هذه يد يحبها الله ورسوله »[2] .

فالتعب تعب القلب ، فالشيء الذى يطيقه صدرك ، وتقدر على تحمُّله لا يُتعبك ؛ لذلك نجد خالى الصدر من الهموم يعمل فى الصخر وهو هادئ البال ، يغنى بحداء جميل ونشيد رائع يُقوِّى عزيمته ، ويعينه على المواصلة ، فتراه مع هذا المجهود فَرِحاً منشرحَ الصدر .

وقد فطن الشاعر العربى لهذه المسألة فقال :

لَيْسَ بِحِمْلٍ مَا أَطَاقَ الظَّهر   مَا الحِمْلُ إلاَّ مَا وَعَاهُ الصَّدْرُ

فالمعنى : أتعب جوارحك ، لكن لا تُتعب قلبك ، والكَلّ والتعب لا يأتى على الجوارح إنما على القلب ، فأتعب جوارحك فى العمل الجاد النافع الذى تأخذ من ثمرته على قدر حاجتك ، وتفيض بالباقى على غير القادرين .

---

(١) أورده السيوطى بهذا اللفظ فى « الدرر المنتثرة » (حديث ٤٠١) من حديث أنس مرفوعاً وعزاه لابن عساكر . وأورده الهيثمى فى « مجمع الزوائد » (٤/٦٣) من حديث ابن عباس قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أمسى كالاً من عمل يديه أمسى مغفوراً له » وقال : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه جماعة لم أعرفهم » . قال الحافظ العراقى فى تخريجه لأحاديث الإحياء (٢/٩٠) : « فيه ضعف » .

(٢) مما روى فى هذا أن رسول الله ﷺ قال : « ما أكل أحد طعاما خيراً من أن يأكل من عمل يده . وأن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٧٢) من حديث المقدام بن معديكرب .

ثم يقول : « فإنْ أنتَ رضيتَ بما قَسمتُه لك أرحْتُ قلبك وبدنك ، وكنتَ عندى محموداً ، وإنْ أنت لم تَرْضَ بما قسَمْتُه لكَ فوعزتى وجلالى لأسلطنَّ عليك الدنيا تركضُ فيها ركْضَ الوحوش فى البرية ، ثم لا يكون لَك منها إلا ما قَسَمْتُه لك ، وكنتَ عندى مذموماً ، يا ابن آدم ، خلقتُ السموات والأرض ولم أَعْىَ[1] بخلقهن ، أيُعْيينى رغيفٌ أسوقه لك .. يا ابن آدم ، لا تطالبنى برزق غد كما لم أطالبك بعمل غد ، يا ابن آدم أنا لم أنْسَ مَنْ عصانى ، فكيف بمَنْ أطاعنى ؟ » .

وشاهدنا هنا قوله تعالى فى آخر الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، أنا لك محب فبحقى عليك كُنْ لى مُحباً »[2] .

فربُّكَ يظهر لك بذاته فى مقام الخير وجلب النفع لك ، أما فى الشر فيشير إليك من بعيد ، ويلفت نظرك برفْق .

كما نلحظ فى أسلوب الآية قوله تعالى - والخطاب لنساء النبى ﴿ومن يقْنُتْ منكُنَّ .. (٣١)﴾ [الأحزاب] ولم يقل تقنت ، ثم أنَّثَ الفعل فى ﴿وتَعْمَلْ صَالِحًا .. (٣١)﴾ [الأحزاب] فمرة يراعى اللفظ ، ومرة يراعى المعنى ، وسبق أنْ قلْنا إن (مَنْ) اسم موصول يأتى للمفرد وللمثنى وللجمع ، وللمذكر وللمؤنث .

ونقف أيضاً هنا عند وصف الرزق بأنه كريم ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١)﴾ [الأحزاب] قلنا : إن الرزق كل ما يُنتفع به من مأكل ، أو مشرب ، أو ملبس ، أو مسكن ، أو مرافق ، وقد يأتى فى صورة معنوية كالعلم والحلم .. إلخ ، وهذا الرزق فى الدنيا لا يُوصف بأنه

---

(١) عىَّ بالأمر فهو عىٌّ وعيىٌّ : عجز عنه ولم يُطق إحكامه . [لسان العرب - مادة : عيا]

(٢) أورد هذه القطعة من الأثر الإمام أبو حامد الغزالى فى « إحياء علوم الدين » (٢٩٦/٤) قال : « فى بعض الكتب : عبدى أنا وحقك لك محب ، فبحقى عليك كُنْ لى محبا » .

كريم ، إنما الكريم هو الرازق سبحانه ، فلماذا وصف الرزق بأنه كريم ؟

قالوا : فَرْق بين الرزق في الدنيا والرزق في الآخرة ، الرزق في الدنيا له أسباب ، فالسبب هو الرازق من والد أو وَالٍ أو أجير أو تاجر .. إلخ فالذي يَجري لك الرزق على يديه هو الذي يُوصف بالكرم ، أما في الآخرة فالرزق يأتيك بلا أسباب ، فناسب أنْ يُوصف هو نفسه بأنه كريم ، ثم فيها ملحظ آخر : إذا كان الرزق يوصف بالكرم ، فما بال الرازق الحقيقي سبحانه ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ ﴾

كلمة (أحد) تُستخدم في اللغة عدة استخدامات ، فنقول مثلاً في العدد : أحد عشر إنْ كان المعدودُ مذكراً ، وإحدى عشرة إن كان المعدود مؤنثاً ، أما في حالة النفي فلا تُستعمل إلا بصيغة واحدة (أحد) ، وتدل على المفرد والمثنى والجمع ، وعلى المذكر والمؤنث ، فتقول : ما عندي أحد ، لا رجلٌ ولا امرأة ولا رجلان ولا امرأتان ، ولا رجال ولا نساء ، لذلك جاء قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص]

وقوله سبحانه : ﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأحزاب] هذه خصوصية لهن ؛ لأن الأشياء تمثل أجناساً وتحت الجنس النوع ،

فالإنسان مثلاً جنس ، منه ذكر ومنه أنثى ، وكل نوع منهما تحته أفراد ، والذكر والأنثى لم يفترقا إلى نوعين بعد أنْ كانا جنساً واحداً ، إلا لاختلاف نشأ عنهما بعد اتفاق فى الجنس فالجنس حَدٌّ مُشترك : حيٌّ ناطق مفكر ، فلما افترقا إلى نوعين صار لكل منهما خصوصيته التى تُميِّزه عن الآخر .

كما قلنا فى الزمن مثلاً ، فهو ظرف للأحداث ، فإنْ كانت أحداثَ حركة فهى النهار ، وإنْ كانت أحداثَ سُكُون فهى الليل ، فالليل والنهار نوعان تحت جنس واحد هو الزمن ، ولكل منهما خصوصيته ، وعلينا أن نراعى هذه الخصوصية ، فلا نخلط بينهما .

وتأمل قول الله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ① وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ② وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ③ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ④ ﴾ [الليل]

فالليل والنهار متقابلان متكاملان لا متضادان ، كذلك الذكر والأنثى ، ولكلٍّ دوره ومهمته الخاصة ، فإنْ حاولتَ أنْ تجعلَ الليل نهاراً ، أو الذكر أنثى أو العكس ، فقد خالفتَ هذه الطبيعة التى اختارها الخالق سبحانه .

وحكينا قصة الرجل الذى مرَّ على عمدة القرية ، فوجده يضرب غفيراً عنده ، فدافع عن الغفير وقال للعمدة : لماذا تضربه يا عم إبراهيم ؟ قال : مررتُ عليه ووجدتُه نائماً ، فقال الرجل : نام ؛ لأنه قضى النهار يروى لك أرضك ، ومنْ يحرث لا يحرس

إذن : تحت الجنس النوع ، وهذا النوع غير متكافىء ؛ لأنه لو تساوى لكان مكرراً لا فائدة منه ، إنما يختلف الأفراد ويتميزون ؛ لذلك لا تظن أنك تمتاز عن الآخرين ؛ لأن الله تعالى وزَّع المواهب بين خَلْقه ، فأنت تمتاز فى شىء ، وغيرك يمتاز فى شىء آخر ، ذلك ليرتبط

الناس فى حركة الحياة ارتباطَ حاجة ، لا ارتباطَ تفضُّل كما قُلْنا .

لذلك ، فالرجل الذى يكنس لك الشارع مُميَّزٌ عنك ؛ لأنه يؤدى عملاً تستنكف أنت عن أدائه ، وإذا أدَّى لك هذا العامل عملاً لابُدَّ أنْ تعطيه أجره ، فى حين إذا سألك مثلاً سؤالاً وأنت العالم أو صاحب المنصب .. إلخ فإنك تجيبه ، لكن دون أنْ تأخذ منه أجراً على هذا الجواب ، وقد مكثتَ أنت السنوات الطوالَ تجمع العلم وتقرأ وتسمع ، إلى أنْ وصلتَ إلى هذه الدرجة ، وصارت لك خصوصية ، إذن : لكل منا ، ذكر أو أنثى ، فردية شخصية تُميِّزه .

هنا يقول الحق سبحانه لنساء النبى ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ .. (٣٢)﴾ [الأحزاب] هذه هى الخصوصية التى تُميِّزهن عن غيرهن من مطلق النساء ، فمطلق النساء لَسْنَ قدوة ، إنما نساء النبى خاصة قدوة لغيرهن من النساء وأُسْوة تُقتدى

والشرط بعد هذا النفى ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ .. (٣٢)﴾ [الأحزاب] يعنى : أن زوجيتهن لرسول الله ليست هذه ميزة ، إنما الميزة والخصوصية فى تقواهن لله ، وإلا فهناك من زوجات الأنبياء مَنْ كانت غير تقية .

وقوله تعالى : ﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ .. (٣٢)﴾ [الأحزاب] أى : اقْطَعْنَ طريق الفاحشة من بدايته ، ولا تقربنَ أسبابها ، واترُكْنَ الأمور المشتبهة فيها . ومعنى الخضوع بالقول أنْ يكون فى قول المرأة حين تخاطب الرجال ليونة ، أو تكسُّر ، أو ميوعة ، أو أن يكون مع القول نظرات أو اقتراب .

فإذا اضطررتُنَّ لمحادثة الرجال فاحذرْن هذه الصفات ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ .. (٣٢)﴾ [الأحزاب] والمعنى أنا لا أتهمكُنَّ ، إنما الواحدة منكُنَّ لا تضمن الرجل الذى تُحدِّثه ، فربما كان فى قلبه

مـرض[1] ، فلا تعطيـه الفرصــة .

وليس مــعنى عـدم الخـضـوع بالقـول أنْ تُكلِّمْنَ الناسَ بـغلظة وخـشونـة ، إنما المـراد أن تكون الأمـور عند حـدودها ؛ لذلك يقـول سبحانه بعدها ﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٣٢)﴾ [الأحزاب] فلما نهى القرآن عن التصرف غير المناسب عرض البديل المناسب ، وهو القول المعروف ، وهو من المرأة القول المعتدل والسماع بالأذن دون أنْ تمتد عينها إلى مُحدِّثها ؛ لأن ذلك ربما أطمـعه فيهـا ، وجرَّأه عليهـا ، وهذا ما يريد الحق سبحانه أنْ يمنعه .

لذلك حُكِي أن رجلاً رأى خادمته على البـاب تُحدِّث شابا وسيما ، وكان يســألها عن شيء ، إلا أنها أطالتْ مـعه الحديث ، فضـربها ربُّ البيت ونـهرها على هذا التصـرف ، وفي اليوم التـالي جاء شــاب آخر يســألها عن نفس الشيء الـذي سأل عنه صـاحبـه بالأمس ، فبـادرته بالشـتائم والسُّباب بعـد أنْ ظهـر لها مـا في قلب هذا ، وأمثـاله من مرض .

وفي مـوضـع آخـر من هذه السورة سيـأتي : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩)﴾ [الأحزاب] ؛ لأن الرجل حين يجد المرأة محتشمة تستر مـفاتن جسمها لا يتجرأ عليها ، ويعلم

---

(١) قال ابن عرفة : المرض في القلب فتور عن الحق ، وفي الابدان فتور الاعضاء وفي العين فتور النظر ، وعين مريضة : فيها فتور ، ومنه قوله : ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ .. (٣٢)﴾ [الاحزاب] أي : فتور عما امر به ونُهي عنه . نقله ابن منظور في [لسان العرب ـ مادة مرض] وقال ابن كثير في تفسيره : مرض أي : دغل ، والدغل هو الفساد وأصل الدغل الشجر الملتف الذي يكمن أهل الفساد فيه [لسان العرب ـ مادة : دغل]

أنها ليستْ من هذا الصنف الرخيص ، فيقف عند حدوده .

وقد قال الحكماء : أما إذا رأيتَ امرأةً تُظهر محاسنها لغير محارمها وتُلِحُّ فى عرض نفسها على الرجال ، فكأنها تقول للرجل (فتح يا بجم) تقول للغافل تنبه . فتستثير فيه شهوته ، فيتجرأ عليها .

فالحق سبحانه يريد لزوجات النبى ﷺ أولاً أنْ يُكلِّمْنَ الناس من وراء حجاب ، وأنْ يُكلِّمْنَ الناس بالمعروف كلاماً لا لينَ فيه ، ولا ميوعة حتى لا يَتعرَّضْنَ لسوء ، ولا يتجرأ عليهن بذيء أو مستهتر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾

معنى ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحزاب] الزمنها ولا تُكثِرْن الخروج منها ، وهذا أدب للنساء عامة ؛ لأن المرأة إذا شغلتْ نفسها بعمل المطلوب منها فى بيتها وفى خدمة زوجها وأولادها ومصالحهم لَمَا اتسع الوقت للخروج ؛ لذلك كثيراً ما يعود الزوج ، فيجد زوجته مُنهمكة فى أعمال البيت ، وربما ضاق هو نفسه بذلك ؛ لأنه لا يجدها متفرغة له .

إذن : المرأة المفلسة فى بيتها هى التى تُكثر الخروج ، وتقضى

مصالح بيتها من خارج البيت ، ولو أنها تعلمتْ الصناعات البسيطة لَقضَتْ مصالح بيتها ، ووفَّرتْ على زوجها ، وقد حكوا لنا عن النساء في دمياط مثلاً ، كيف أن المرأة هناك تعمل كل شيء وتساعد زوجها ، حتى أن البنت تتعلم حرفة ، ولا ترهق أباها عند زواجها ، بل وتوفر من المال ما يساعد زوجها بعد أن تتزوج .

وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ .. (٣٣) ﴾ [الأحزاب] كلمة التبرج من البُرْج ، وهو الحصن ، ومعنى تبرَّج أى . خرج من البرج وبرز منه ، والمعنى : لا تخرجن من حصن التستر ، ولا تبدين الزينة والمحاسن الواجب سَتْرُها .

وقال ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ .. (٣٣) ﴾ [الأحزاب] أى : ما كان من التبرج قبل الإسلام ، وكانت المرأة ـ وتعنى بها الأَمَة لا الحرة ـ تبدى مفاتن جسمها ، بل وتظهر شبه عارية ، وكُنَّ لا يجدْنَ غضاضة فى ذلك ، وقد رأينا مثل هذا مثلاً فى إفريقيا .

أما الحرائر فى الجاهلية ، فكانت لهُنَّ كرامة وعفَّة ، فى حين كانت تُقام للإماء أماكن خاصة للدعارة والعياذ بالله ؛ لذلك لما أخذ رسول الله العهد على النساء المؤمنات ألاَّ يَزْنين قالت امرأة أبى سفيان[1] : أو تزنى الحرة يا رسول الله ؟ يعنى : هذا شيء مستنكف من الحرة ، حتى فى الجاهلية .

ومن معانى البرج : الاتساع ، فيكون المعنى : لا تُوسِّعْنَ دائرة التبرج التى حددها الشرع ، وهى الوجه والكفان .

---

(١) هى هند بنت عتبة بن ربيعة ، أخبارها قبل الإسلام مشهورة ، وشهدت أُحُداً كافرة وفعلت ما فعلت بحمزة ، أسلمت يوم الفتح بعد زوجها أبى سفيان ، ماتت فى خلافة عثمان [الإصابة لابن حجر ٢٠٦/٨] وقد ذكر ابن سعد فى طبقاته (٢٣٦/١٠) أن هذا حدث عند مبايعة النساء لرسول الله ﷺ . وهند هى أم معاوية بن أبى سفيان

وفي موضع آخر ، قال تعالى : ﴿ والْقَوَاعِدُ[1] مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ .. ⁽٦٠⁾ ﴾ [النور]

وتعجب من المرأة تبلغ الخمسين والستين ، ثم تراها تضع الأحمر والأبيض ، ولا تخجل من تجاعيد وجهها ، ولا تحترم السنَّ التي بلغتْها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ .. ⁽٣٣⁾ ﴾ [الأحزاب] كثيراً ما قرن القرآن بين الصلاة والزكاة ، وبدأ بالصلاة : لأنها عمدة التكاليف كلها ، وإنْ كنتَ في الزكاة تنفق بعض المال ، والمال فرع العمل ، والعمل فرع الزمن ، فأنت في الصلاة تنفق الزمن نفسه وتضحي به ، فكأنك في الصلاة تنفق نسبة سبعة وتسعين ونصف بالمائة ، فضلاً عن الاثنين ونصف نسبة الزكاة .

كما يُفهم من إيتاء الزكاة هنا أن للمرأة ذمتها المالية الخاصة المستقلة عن ذمة الغير من أب أو زوج أو غيره ، بدليل أن الله كلفها بإيتاء الزكاة ، لكنّ الحضارة الحديثة جعلتْ مال المرأة قبل الزواج للأب ، وبعد الزواج للزوج ، ثم سلبتْ المرأة نسبتها إلى أبيها ، ونسبتها بعد الزواج لزوجها .

وهذه المسألة أشدُّ على المرأة من سلْبها المال ؛ لأن نسبتها لزوجها طَمْسٌ وتَعَدٍّ على هُويتها ، وانظر مثلاً إلى السيدة عائشة ، فما زلنا حتى الآن نقول « عائشة بنت أبي بكر » ولم يقل أحد أنها عائشة امرأة محمد .

---

(١) القواعد : من اللواتي قعدن عن الأزواج . وهي جمع قاعد ، وهي المرأة الكبيرة المسنّة وقعدت المرأة عن الحيض والولد تقعد قعوداً وهي قاعد : انقطع عنها [لسان العرب - مادة : قعد]

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. (٣٣)﴾ [الأحزاب] لأن المسألة لا تقتصر على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، إنما هناك أمور أخرى كثيرة تحتاج طاعة الله وطاعة رسول الله .

ونلاحظ هنا أن الآية عطفت رسول الله على ربه تعالى ، وجاء الأمر واحداً ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. (٣٣)﴾ [الأحزاب] وحين نستقرىء هذا الأمر في القرآن الكريم نجده مرة يُكرِّر الفعل ، فيقول : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. (١٢)﴾ [التغابن]

ومرة : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ .. (١٣٢)﴾ [آل عمران]

ومرة يقول تعالى : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ .. (٥٩)﴾ [النساء]

وهذه الصيغ ، لكلٍّ منها مدلول ومعنى ، فساعةً يقول : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، كأن لله في الأمر طاعةً في الإجمال . وللرسول طاعة في التفصيل ، فالحق سبحانه أمر بالصلاة وأمر بالزكاة أمرًا إجمالياً ، ثم بيَّن الرسول ذلك وفصَّل هذا الإجمال ، فقال : « صلُّوا كما رأيتموني أصلي »[1] وقال : « خُذُوا عنِّي مناسككم »[2] .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٣١) ، وأحمد في مسنده (٥٣/٥) من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا حضرتْ الصلاة فأذِّنا وأقيما وليؤمكما أكبركما ، وصلُّوا كما تروني أصلي » .

(٢) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : « رأيت النبي ﷺ يرمي على راحلته يوم النحر يقول لنا : خذوا مناسككم ، فإني لا أدري لعلِّي أن لا أحج بعد حجتي هذه » أخرجه أحمد في مسنده (٣١٨/٣) والنسائي في سننه (٢٧٠/٥) ، ومسلم في صحيحه (١٢٩٧)

إذن : تكرر الفعل هنا ؛ لأن لله طاعة في إجمال الحكم ، وللرسول طاعة في تفصيله ، فإنْ جاء الفعل واحداً ﴿وأطيعوا الله والرسول .. (١٣٢)﴾ [آل عمران] فهذا يعني توارد أمر الله تعالى مع أمر رسوله ﷺ ، فالطاعة إذن واحدة ، وهَبْ أن الله تعالى له فعْل ، ورسوله له فعْل ، فلا يفصل أحدهما عن الآخر ، بدليل قوله تعالى : ﴿وما نقموا إلاَّ أنْ أغناهم الله ورسوله من فضله .. (٧٤)﴾ [التوبة]

فلم يقُلْ . وأغناهم رسوله حتى يقول قائل : كل منهما يُغْنى بقدره ، إنما جاء الفعل واحداً ﴿أغناهم الله ورسوله .. (٧٤)﴾ [التوبة]

واقرأ أيضاً قوله تعالى : ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين (٦٢)﴾ [التوبة] ولم يقل . يرضوهما .

أما قوله تعالى . ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم .. (٥٩)﴾ [النساء] فلم يكرِّر الأمر بالطاعة مع أولى الأمر ؛ لأنه لا طاعة لوليِّ الأمر إلا من باطن طاعة الله ، وطاعة رسول الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً (٣٣)﴾ [الأحزاب] الرجس بالسين هو الرّجز بالزاى ، وهو القذارة ، سواء أكانت حسية كالميتة مثلاً ، وكالخمر ، أو معنوية كالآثام والذنوب ، وقد جمعتْها الآية . ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون (٩٠)﴾ [المائدة] وقد يُراد بالرجس : النفاق والمرض .

وكلمة (أهل) تُقال : لعشيرة الرجل ، لكنها تُطلَق في عُرْف الاستعمال على امرأته ، ومن بقية الاصطلاحات لهذا المعنى ما تقوله الآن حين نذهب لزيارة صديق مثلاً فنقول : معى الأهل أو الجماعة ، والبعض يقول : معى الأولاد ، ونقصد بذلك الزوجة ، لماذا ؟ قالوا :

لأن أمر المرأة مبنيٌّ على الستر ، فإذا كان اسمها مبنياً على الستر ، فكذلك معظم تكليفاتها مبنية على الستر في الرجل ، ونادراً ما يأتي الحكم خاصاً بها .

لذلك ، السيدة أسماء بنت عميس[1] زوجة سيدنا جعفر بن أبي طالب ، وكانت قد هاجرت إلى الحبشة ، فلما عادت سألتْ : أنزلَ شيء في أمر المرأة في غَيْبَتي ؟ فقالوا لها : لم ينزل شيء ، فذهبت إلى سيدنا رسول الله ﷺ وقالت : يا رسول الله ، ما أعظم خيبتنا وخسارتنا ، فليس لنا في الأحكام شيء ، فقال لها رسول الله ﷺ : « إنكن مستورات في الرجال »[2] .

ومع ذلك نزل القرآن الكريم بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ[3] وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ

---

(١) هي : أسماء بنت عميس بن الحارث الخثعمي : صحابية ، أسلمت قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم بمكة ، وهاجرت إلى أرض الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب ، ثم قتل عنها جعفر شهيداً في وقعة مؤتة (٨ هـ) فتزوجها أبو بكر الصديق فولدت له محمد بن أبي بكر ، وتوفي عنها أبو بكر فتزوجها علي بن أبي طالب فولدت له ، وماتت بعد علي . وصفها أبو نعيم بمهاجرة الهجرتين ومصلية القبلتين . [الأعلام للزركلي ٣٠٦/١] .

(٢) لم أقف على هذا الحديث ، ولكن أخرج الإمام أحمد في مسنده (٢٥٦/٦) من حديث عائشة رضي الله عنها : « النساء شقائق الرجال » ، وكذا الترمذي في سننه (١١٣) قال الخطابي في « معالم السنن » ٧٩/١ : « أي : نظائرهم وأمثالهم في الخَلْق والطباع ، فكأنهن شُقِقْنَ من الرجال » .

(٣) القنوت : هو الطاعة في سكون . والقانت : المطيع الذاكر لله تعالى ، وهو العابد ، قال ابن سيده : القانت القائم بجميع أمر الله [لسان العرب - مادة : قنت] .

فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (٣٥)﴾ [الأحزاب]

وتلحظ في هذه الآية أيضاً ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (٣٣)﴾ [الأحزاب] أنها تتحدث عن النساء، لكنها تراعي مسألة ستْر المرأة فتعود إلى ضمير الذكور ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ .. (٣٣)﴾ [الأحزاب] ولم تقُلْ عنكُنَّ، كذلك في ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (٣٣)﴾ [الأحزاب] ويصحّ أنه يريد أهلَ البيت جميعاً رجالاً ونساءً.

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ .. (٣٤)﴾ [الأحزاب] أي: نساء النبي ﴿مِنْ آيَاتِ اللَّهِ .. (٣٤)﴾ [الأحزاب] أي: آيات القرآن الكريم ﴿وَالْحِكْمَةِ .. (٣٤)﴾ [الأحزاب] أي: حديث رسول الله ﷺ، أو: أن عطف الحكمة على آيات الله من عطف الصفة على الموصوف، لكن القول الأول أوْلَى ما دام أن الأمر فيه سعة.

ومعنى ﴿وَاذْكُرْنَ .. (٣٤)﴾ [الأحزاب] قلنا: إن الذكْر استحضار واستدعاء معلومة من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور، والمعنى: استحضر ذكْر الله واجعلْه على بالك دائماً؛ لذلك قال تعالى ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. (٤٥)﴾ [العنكبوت] أي: أكبر من أيِّ عبادة؛ لأن العبادات كما ذكرنا تحتاج إلى استعداد، وإلى وقت، وإلى مشقة، وإلى تفرُّغ وعدم مشغولية.

أمَّا ذكر الله فهو يجري على لسانك في أيِّ وقت، وبدون استعداد

أو مشقة ، ويلهج به لسانك فى أى وقت ، وعلى أى حال أنت فيه ، واقرأ فى ذلك قوله تعالى من سورة الجمعة : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ⑩﴾ [الجمعة] فما دام أن الذكر هو أنْ تجعل الله على بالك ، فلا يمنعك من ذلك سَعْىٌ ولا عمل ؛ لأن الذِّكْر أخف العبادات وأيسَرُها على النفس ، وأثقلها فى الميزان .

ثم تأمل : ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ㉑﴾ [الأحزاب]

فمن عظمة سيدنا رسول الله ﷺ أن باله لم يَخْلُ لحظة من ذكر ربه أبداً ؛ لذلك ورد عنه ﷺ أنه قال عن نفسه : « تنام عينى ، ولا ينام قلبى »[1] .

ثم تُختم الآية بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ㉞﴾ [الأحزاب] اللطف هو الدقَّة فى تناول الأشياء وحُسْن تأتِّى الأمور مهما كانت وسائلها ضيقة ، وسبق أنْ أوضحنا هذا المعنى وقلنا : إن الأشياء الضارة مثلاً كلما لطُفَتْ عَنُفتْ ، فالحديد الذى تجعله على النوافذ ليحميك من الذئاب ، غير الحديد الذى يحميك من الثعابين ، أو من الناموس والذباب .. إلخ ؛ لذلك نجد أن أفتك الأمراض تأتى من الفيروسات اللطيفة التى لم تُعرف .

وحُسْن التأتِّى للأمور يعنى التغلغل فى الأشياء مهما دَقَّتْ ، فقد تُضطر مثلاً لأنْ تُدخل يدك فى شىء ضيق لتتناول شيئاً بداخله ، فلا تستطيع ، فتستعين على ذلك بالولد الصغير ؛ لأن يده ألطف من يدك ، أو تستعين على ذلك بآلة أدقّ لتؤدى بها هذا الغرض .

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٢١١٢) كتاب صلاة التراويح ، وكذا أخرجه مسلم فى صحيحه (٧٣٨) كتاب صلاة المسافرين من حديث عائشة أنها قالت يا رسول الله أتنام قبل أن توتر ؟ قال « يا عائشة إن عينى تنامان ولا ينام قلبى » .

ووَصْف اللطيف يُتمِّمه وصف الخبير ، فإذا كان اللطيف يعنى الدقة فى تناول الأشياء وحُسْن التأتِّى ، فالخبرة تعنى معرفة الموضع ، فاللطف لا يتأتى إلا بالخبرة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾

قلنا : إن هذه الآية نزلت تطييباً لخاطر السيدة أسماء بنت عميس زوجة سيدنا جعفر بن أبى طالب ، لما حدَّثَتْ سيدنا رسول الله فى

(١) سبب نزول الآية : أخرج الإمام أحمد فى مسنده (٣٠١/٦ ، ٣٠٥) عن أم سلمة قالت قلت : يا رسول الله ، ما لنا لا نُذكر فى القرآن كما يُذكر الرجال . قالت : فلم يرعنى منه يوماً إلا ونداؤه على المنبر يايها الناس قالت : وأنا أسرح رأسى فلففت شعرى ثم دنوت من الباب فجعلت سمعى عند الجريد ، فسمعته ﷺ يقول : « إن الله عز وجل يقول : إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات . . » هذه الآية .

وأخرج الترمذى فى سننه (٣٢١١) من حديث أم عمارة الأنصارية أنها أتت النبى ﷺ فقالت : ما أرى كل شىء إلا للرجال وما أرى النساء يُذْكرن بشىء ؟ فنزلت هذه الآية ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحزاب] قال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » .

أمر الأحكام ، وأنها تنزل وتتوجه فى الغالب إلى الرجال ، ويبدو أنها حدَّثتْ رسول الله فى أمر النساء ، وأن منهن مثل الرجال مسلمات ومؤمنات .. إلخ .

ونلحظ أن الآية بدأت بذكر الإسلام ، ثم الإيمان ، فأيّهما يسبق الآخر ؟ ونجد إجابة هذا السؤال فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٤)﴾ [الحجرات]

فالإسلام أنْ تؤدى أعمال الإسلام بصرف النظر ، أكان أداؤك لها عن إيمان أو عن غير إيمان ؟ لأن الإسلام تلقّى حكم ، أما الإيمان فأنْ تؤمن بمنْ حكم ، وتُصدِّق مَنْ بلَّغك هذا الحكم ، وعليه فالإيمان سابق للإسلام .

لذلك جاءت هذه الآية لتفضح هؤلاء الأعراب الذين تستروا وراء الأعمال الظاهرة للإسلام ، وهم غير مؤمنين بها ، وقد يأتى الإيمان بعد الإسلام حين تؤدى أعمال الإسلام فتحلُو لك ، وتجذبك إلى الإيمان والتصديق .

لذلك ، فرح هؤلاء الأعراب لقوله تعالى : ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ .. (١٤)﴾ [الحجرات] وقالوا الحمد لله ؛ لأن (لَمَّا) لا تدخل إلا على ما يمكن أنْ يجىء ، كأن تقول : لَمَّا يثمر بستاننا ، وقد أثمرتْ البساتين ، والمعنى : أنه سيثمر فيما بعد .

قالوا : لأن هناك كثيراً من الأحكام أنت لا تؤمن بالذى حكم بها إلا إذا أدركت وذُقْتَ حلاوتها ، فالرجل الذى جاء سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وطلب منه أنْ يبيت عنده ، أو : أنْ يضيفه ، فسأله إبراهيم

عليه السلام عن دينه فقال : إنه مجوسي ، فردَّ الباب في وجهه ، فعاتبه ربه في ذلك ، وقال له : يا إبراهيم تريده أنْ يغير دينه لضيافة ليلة ، وأنا أسعُه طوال عمره وهو كافر بي ؟ فأسرع إبراهيم في إثر الرجل حتى لحق به ودعاه إلى بيته ، فقال الرجل : ألم تنهرني منذ قليل ، فماذا حدث ؟ فقال : لقد عاتبني ربي فيك ، فقال الرجل : نِعْم الربّ ربٌّ يعاتب أحبابه في أعدائه ، أشهد ألاَّ إله إلا الله .

وقد اشتملتْ هذه الآية على عشر صفات ، بدأت بالمسلمين والمسلمات ، وانتهت بالذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، وكأن الله تعالى أوجد مراد السيدة أسماء بنت عُميس في هذه الصفات العَشْر التي جمعتْ الرجال والنساء ، واشتملت على كل أنواع التكليف ، وهي برقية تدلُّ على أن حكم المرأة التكليفي مطمور في باطن الرجل ، وهذه هي الأصول .

ومعنى ﴿ وَالْقَانِتِينَ .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] المداومون على عبادة الله وطاعته في خشوع وتضرُّع كما نفهم من قوله تعالى ﴿ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ .. (٣٥) ﴾ [الأحزاب] أن للمرأة ذمتها المالية المستقلة وحرية التصرُّف في مالها بغير إذن زوجها إذا كانت تملك إرثاً أو هبة من زوجها أو من غيره ، فلا ولاية عليها من أحد .

وسبق أن أوضحنا هذه المسألة في كلامنا عن الزكاة ، وهذه من ميْزات المرأة في الإسلام ، حيث كانت قبل الإسلام ، وحتى في الحضارات الحديثة تابعة لأبيها أو لزوجها ، والصدقة تشمل الزكاة ، لأن الله قال فيها : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا .. (٦٠) ﴾ [التوبة]

فالصدقة هى العنوان الأعم ، ومعناها أنك صدَّقْتَ الحق سبحانه حين استأمنك على خير، فاستنبط بمجهودك وسعيك فى أرض الله التى خلقها ، فكأنك تُحقِّق ما كان من سيدنا أبى بكر حين سأله رسول الله ﷺ : ماذا صنع بماله الذى كسبه فى الغنيمة ؟ قال : تصدَّقْتُ به كله ، فقال له : « وماذا أبقيتَ لأهلك ؟ » قال : أبقيت لهم الله ورسوله . فلما سأل عمر ـ رضى الله عنه ـ قال : تصدَّقْتُ بنصفه ، ولله عندى نصفه[1] .

فكلٌّ منهما تصرَّف فى ماله تصرُّفاً منطقياً يناسبه .

وإنْ كانت الزكاة يُراد بها نماء المال وطهارته ، فالصدقة عطاء لا يُرَاد به إلا وجه الله وثوابه فى الآخرة ، فكأن المتصدِّق يريد أنْ يبرَّ ، وأنْ يعترف لله المعطى بالفضل ؛ لأن الله مكَّنه من مال لم يُمكِّن منه الضعيف ، ولا غير القادر .

ثم ذكر الحق سبحانه تكليف الصوم ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ .. (٣٥)﴾ [الأحزاب] والصوم أخذ حُكْماً فريداً من بين أحكام التكاليف كلها، والحق سبحانه جعل لكل تكليف من التكاليف (كادر خاص) فى الجزاء إلا الصوم ، فليس له (كادر) محدد ، لذلك قال عنه الحق سبحانه : « إلا الصوم ، فإنه لى ، وأنا أجزى به »[2] يعنى : قرار عالٍ فوق الجميع ، فلماذا أخذ الصوم هذه المنزلة ؟

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٧٨) ، والترمذى فى سننه (٣٦٧٥) والحاكم فى مستدركه (٤١٤/١) وصححه ، وقال الترمذى : « حديث حسن صحيح » .

(٢) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (١٩٠٤) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨٠٦/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وهو حديث قدسى عن رب العزة سبحانه

قالوا : لأن الصوم هو العبادة الوحيدة التى لم يعبد بها بشرٌ بشراً أبداً ، فمن الممكن مثلاً فى شهادة أنْ لا إله إلا الله أنْ يأتى مَنْ يمدح آخر ، فيقول له : ليس فى الكون إلا أنت ، أنت النافع وأنت الضار ، وهناك من قال عن نفسه : أنا الزعيم الأوحد ، كذلك فى الصلاة نرى مَنْ يخضع ويسجد لغير الله كما نخضع ونسجد نحن فى الصلاة ، وكذلك فى الزكاة نتقرب إلى العظيم أو الكبير بالهدايا له أو لمن حوله .

لكن ، هل قال بشر لبشر : أنا أصوم شهراً ، أو يوماً تقرُّباً إليك ؟ لا .. لأن الصيام للغير المماثل تذنيب للمصوم له لا للصائم ؛ لأنه سيُضطرّ لأنْ يظل طوال اليوم يراقبك ، أكلتَ أم لم تأكل ؟

ولأن الصوم هو العبادة الوحيدة التى لم يتقرب بها بشر لبشر قال الله عنها فى الحديث القدسى : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم ، فإنه لى ، وأنا أجزى به »[1] يعنى : جزاؤه خارج المقرر كما قلنا .

ومن عظمة تكليف الصوم أيضاً أن الله تعالى أحلَّ لنا أشياء ، وحرَّم علينا أشياء أخرى تحريماً أبدياً ، فالذى تحمَّل التكليف ألِفَ الحلال ولم يألف ما حُرِّم عليه ، ورسختْ هذه العقيدة فى نفسه ، حتى أن الحرام لا يخطر بباله أبداً ، فلم يأت على باله مرة مثلاً أنْ يشرب الخمر ، أو يأكل الميتة ، فهذه مسألة منتهية بالنسبة له ، فأراد الله تعالى أنْ يديم لذَّة التكليف على البشر ، ففرضَ الصومَ الذى يُحرِّم عليك اليوم ما كان مُحلَّلاً لك بالأمس ومألوفاً حتى صار عادة .

إذن ، هناك فَرْق بين دوام العادة ولذة العبادة ، وتأمل مثلاً يوم الفطر ، والفطر عادة لك فى غير هذا اليوم ، وأنت حر تفطر أو لا تفطر ، فإذا ما جاء يوم عيد الفطر أخرجك ربك من العادة إلى

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٩٠٤) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨٠٦/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه

العبادة ، وجعله تكليفاً أنْ تفطر قبل الخروج للصلاة[1] .

ثم يقول تعالى : ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ .. (٣٥)﴾ [الأحزاب] جاءتْ مسألة حفْظ الفروج بعد ذكر الصيام ؛ لأن الصيام امتناعٌ عن شهوتَيْ البطن والفرج ، شهوة البطن جعلها الله تعالى لحفظ الحياة بالطعام والشراب ، وشهوة الفرج جعلها الله تعالى لحفظ النوع بالنكاح والتناسل .

قُلْنا : إن الله تعالى أرضى السيدة أسماء رضى الله عنها الممثّلة لجنس النساء ، فذكر أنواع التكليف مرة للمذكَّر ، ومرة للمؤنث ، لكنه راعى فى ذلك سَتْر المرأة ، وهنا أيضاً يُراعى هذه المسألة ، فيقول : ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ .. (٣٥)﴾ [الأحزاب] حينما تكلم عن المذكَّر قال ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ .. (٣٥)﴾ [الأحزاب] ولم يقُلْ : والحافظات فروجهن ؛ لأن أمر النساء ينبغى أنْ يُستَر وأنْ يُصان .

ثم يقول سبحانه ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ .. (٣٥)﴾ [الأحزاب] ويعود إلى مسألة السَّتْر مرة أخرى فى قوله : ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥)﴾ [الأحزاب] فقال (لهم) على سبيل التغليب ، وسَتْر المرأة فى الرجل ، وهذه مسألة مقصودة يُراد بها شرف للمرأة ، وصيانة لها ، لا إهمالها كما يدَّعى البعض ، ومن هذه الصيانة ما نقوله نحن عن المرأة : معى أهلى أو الأولاد أو الجماعة ، ونقصد بذلك سَتْرها وصيانتها لا إهمالها ، أو التقليل من شأنها .

---

(١) عن بريدة الأسلمى قال : « كان رسول الله ﷺ لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل ، ولا يأكل يوم الأضحى حتى يرجع فيأكل من أضحيته » أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٣٥٢) . قال الشيخ سيد سابق فى « فقه السنة » (١/٢٦٨) : « قال ابن قدامة : لا نعلم فى استحباب تعجيل الأكل يوم الفطر اختلافاً » .

فكأن الحق سبحانه حينما أرضى السيدة أسماء نيابة عن المرأة المسلمة ، فذكر ما ذكر من جمع المؤنث الذى يقابل جمع المذكر ، أراد أنْ يبنى حول المرأة سياجاً من الستر فى كل شىء حتى فى التكاليف .

ونلحظ على سياق الآية هنا أيضاً أنه قدَّم المغفرة على الأجر ؛ لأن القاعدة كما قُلْنا : إن دَرْء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة ، والحق سبحانه يُعد لعباده الأجر على الحسنة التى فعلوها ، مع أنه سبحانه لا ينتفع منها بشىء إنما يعود نَفْعها على المكلَّف نفسه ، فهو يستفيد بالطاعة وينال عليها الأجر فى الآخرة .

أما الحق سبحانه فغنيٌّ عنَّا ، وعن طاعتنا ، واقرأ الحديث القدسى : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى مُلْكى شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً »[1] .

إذن : نحن المستفيدون من التكاليف ، ففيها صلاحُنا فى الدنيا ، ثم نأخذ عليها الأجر يوم القيامة .

لذلك نجد الكثير من الرسل يقولون لأقوامهم : ﴿ وما أسْألُكُمْ عليْه منْ أجْرٍ .. (١٠٩) ﴾ [الشعراء] كأنه يقول : الذى أؤديه لكم من تبليغ دعوة الله فى عرف الاقتصاد والتبادل يقتضى أنْ آخذ عليه أجراً ؛ لأننى أؤدى لكم خدمة ، لكن ماذا سآخذ منكم أيها العرايا وأجرى عال لا يقدر عليه المكلَّف ﴿ إنْ أجْرى إلاَّ على اللَّه .. (٧٢) ﴾ [يونس] فهو

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) ، وكذا الترمذى فى سننه (٢٤٩٥) من حديث أبى ذر رضى الله عنه .

وحده القادر على أنْ يجازينى بما أستحق .

ووَصْف الأجر بأنه عظيم يدلُّ على كِبَر فى الحجم ، ونَفَاسة فى الصفات ، وامتداد فى الزمن ، وهذه هى عناصر العظمة فى الشىء ، وأىُّ أجر أعظم من أجر الله لعباده فى الآخرة ؟

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾

جمعتْ هذه الآية أيضاً بين المذكر والمؤنث فى ﴿ما كان لمُؤْمنٍ ولا مُؤْمنةٍ .. ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب] فهى امتداد للآية السابقة ، فهى تخدم ما قبلها ، وتخدم أيضاً ما بعدها ، وما به أصل السبب ؛ لأنها نزلتْ فى عبد الله بن جحش وأخته زينب ، حين رفضا زواج زينب من زيد بن حارثة ، فالمؤمن عبد الله بن جحش ، والمؤمنة أخته زينب من حيث هما سبب لنزول الآية ، وإلا فهى لجميع المؤمنين وجميع المؤمنات .

وسبق أنْ ذكرنا قصة زيد بن حارثة ، وملخصها أنه سُرِق من أهله ، وبِيع فى سوق العبيد على أنه عبد ، فاشتراه حكيم بن حزام ،

---

(١) سبب نزول الآية : قال ابن عباس : خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة رضى الله عنه ، فاستنكفت منه ، وقالت : أنا خير منه حسباً ، وكانت امرأة فيها حدة ، فأنزل الله تعالى ﴿ وما كان لمُؤْمنٍ ولا مُؤْمنة إذا قضى اللَّهُ ورسُولُهُ أمراً أن يكُون لهمُ الخيرةُ من أمرهم .. ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب] أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٤٨٩) ، والسيوطى فى « أسباب النزول » (ص ٢٢٠) .

ثم وهبه للسيدة خديجة أم المؤمنين ، فوهبته خديجة رضى الله عنها لسيدنا رسول الله ﷺ ، فصار مَوْلًى لرسول الله .

وبينما هو ذات يوم بالسوق ، إذ رآه جماعة من قومه فعرفوه ، وأخبروا أباه أنه بالمدينة ، فجاءه أبوه وأعمامه ، وحكَوْا لرسول الله قصته ، وطلبوا عودته معهم ، فقال رسول الله : خيِّروه ، فإنِ اختاركم فهنيئاً لكم ، وإنِ اختارني ، فَمَا كان لي أنْ أُسْلِمه ، فردَّ زيد وقال : والله ما كنت لأختار على رسول الله أحداً .

فأراد سيدنا رسول الله أنْ يكافيء زيداً على هذا التصرف ، فنسبه إليه على عادة العرب في هذا الوقت ، فسمَّاه زيد بن محمد[1] .

فلما أراد الحق سبحانه أن ينهي هذه العادة ومثلها عادة الظهار ، نزل قوله سبحانه : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ .. ④﴾ [الأحزاب]

فكما أن الرجل لا يكون له إلا قلب واحد ، كذلك لا يكون له إلا أب واحد ، وشاء الله أنْ يبدأ بمُتبنَّي رسول الله ؛ ليكون نموذجاً تطبيقياً عملياً أمام الناس ، وكانت هذه الظاهرة يترتب عليها أنْ يرث المتبنَّي من المتبنِّي بعد موته ، وأنْ تُحرم زوجة المتبنَّى أنْ يتزوجها المتبنِّي .

صحيح أن القضاء على هذه العادة قضاءٌ على نظام اجتماعي فاسد موجود في الجزيرة العربية ، لكنه في الوقت نفسه دليل على أن رسول الله ﷺ تبنَّى كما يتبنَّى العرب ، وأن الله تعالى أبطل من

---

(١) انظر سيرة النبي لابن هشام (١/٢٤٨ ، ٢٤٩) .

رسول الله هذا التصرّف ؛ وهذا سيفتح الباب أمام معاندى رسول الله أنْ يشْمتوا فيه ، وأن تتناوله ألسنتهم ؛ لذلك عالج الحق سبحانه هذه القضية علاج ربٍّ بإنفاذ الأمر فى نُصْرة حبيب له ، فلم يُشوِّه عمل الرسول ، إنما جعل فعْله عَدْلاً ، وحكمه سبحانه أعدل ، فقال : ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الأحزاب]

والمعنى : إنْ كُنتم جعلتم من العدل والمحبة أنْ تكفلوا هؤلاء الأولاد ، وأنْ تنسبوهم إليكم ، فهذا عَدْل بشرىٌّ ، لكن حكم الله أعدل وأقْسَط ، وشرفٌ لرسول الله أنْ يردَّ اللهُ حكمه إلى حكم ربه ، وشرفٌ لرسول الله أن يكون له الأصل فى المسألة ، وأنه يحكُم ، فيردّ الله حكمه إلى حكمه ، فهذا تكريم لرسول الله .

فقوله تعالى ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ..(٥)﴾ [الأحزاب] يعنى : أن فعْل محمد كان قسْطاً وعَدْلاً بقانون البشر ، وقد جاء محمد ليُغيِّر قوانين البشر بقوانين ربِّ البشر ، وبهذا خرج سيدنا رسول الله من هذا المأزق .

أما زيد فقد عوَّضه الله عما لحقه من ضرر بسبب انتهاء نسبه إلى رسول الله ، فصار زيد بن حارثة بعد أنْ كان زيد بن محمد ، عوَّضه الله وأنصفه بأنْ جعله العَلَم الوحيد من صحابة رسول الله الذى ذُكِر اسمه فى القرآن الكريم بنصِّه وفصِّه ، فقال سبحانه : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] فخلُد زيد فى كتاب يُتْلى ، ويُتعبد بتلاوته إلى يوم القيامة .

وعلاقة زيد بن حارثة بما نحن بصدده من قوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ .. (٣٦)﴾ [الأحزاب] أنه تزوج من السيدة زينب بنت جحش ، زوَّجه إياها رسول الله ، وقد نزلتْ هذه الآية فى زينب ،

وفي أخيها عبد الله[1] .

ومعنى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ .. (٣٦) ﴾ [الأحزاب] معنى (ما كان) أي : أنه شيء بعيد ، لا يمكن أنْ يَرِد على العقل ، أي : أنه أمر مُسْتبعد غير مُتصوَّر ، وكان المنفية تدل على جَحْد هذه المسألة ، فالمؤمن والمؤمنة ، ما دام أن الإيمان باشر قلبيهما لا يمكن أنْ يتركا أمر الله وحكمه ، أو أمر رسوله إلى اختيارهما .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ .. (٣٦) ﴾ [الأحزاب] وإلا فلا إيمانَ لا بالله ، ولا برسول الله .

فإنْ قُلْتَ : كيف وقد أثبتَ الله الاختيار ؟ نقول : هناك فرق بين اختيارٍ داخلٍ في التكليف ، إنْ شئْتَ فعلْته أو لم تفعله ، وشيء في إيجاد التكليف بداية ، فليس للعباد دخْل في إيجاد الشيء المكلَّف به ، إنما إذا كلَّفتهم أنا ، فأنا صاحب التكليف ، وكونهم يطيعونه أو لا يطيعونه ، فهذا أمر آخر ، ليس للعباد أن يقترحوا التكليف على هواهم ؛ لأن التكليف لي ، ولهم الاختيار في طاعته وفي قبوله ، وما دام قد ثبت أنهم آمنوا بالله وآمنوا برسول الله فكان من الواجب عليهم أنْ يرتضوا الأمر ، وألاَّ يُعرضوا عنه إلى غيره .

وقصة طلاق زيد وزينب ، ثم زواج سيدنا رسول الله ﷺ منها

---

(١) هو : عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي ، صحابي ، قديم الإسلام ، هاجر إلى بلاد الحبشة ، ثم إلى المدينة . وكان من أمراء السرايا ، وهو صهر رسول الله ﷺ ، أخو زينب بنت جحش أم المؤمنين . قتل يوم أحد شهيداً ، فدفن هو والحمزة في قبر واحد عام ٣ هجرية . [الأعلام للزركلي ٤/٧٦] . والحمزة بن عبد المطلب عم رسول الله هو خال عبد الله بن جحش ، فأمه هي أميمة بنت عبد المطلب

قصة خاضَ فيها المستشرقون والمغرضون كثيراً ، وتجرأوا على سيدنا رسول الله بكلام لا ينبغي في حقه ﷺ ، ومن قولهم أن محمداً أحبَّ زينب وأرادها لنفسه ، فأمرها أنْ تشاغب زيداً حتى يطلقها فيتزوجها .

ونقول لهؤلاء الأغبياء : أولاً زينب بنت جحش الأسدية هي بنت عمة رسول الله ، وكان ﷺ مُكلَّفاً بإدارة أموالها ورعاية شئونها ، وقد نشأتْ تحت عينه ، ولو أرادها لنفسه لتزوَّجها بداية ، وهذا بنصِّ القرآن : ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ.. (٣٧)﴾ [الأحزاب]

فإنْ أردتَ أنْ تعرف ما أخفاه رسول الله فخُذْه مما أبداه الله ، والذي أبداه الله قوله تعالى ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] وهذا يهدم كلَّ ادعاءاتكم على رسول الله .

أما قولهم بانشغال قلب رسول الله بزينب ، فنقول : ولماذا تجعلون انشغالَ قلب محمد انشغالاً جنسياً ؟ ولو تتبعتُم القصة من أولها لظهر لكم غير ذلك ، فحينما أرسل رسول الله مَنْ يخطب زينب ظنَّ أخوها عبد الله وأختها حَمْنة أنه جاء ليخطبها لرسول الله ، فلما علموا أنه يخطبها لمولاه زيد غضبوا جميعاً ، فكيف تتزوج السيدة القرشية وبنت عمة رسول الله من عبد ، لكن لما علموا أن الأمر من الله أذعنُوا له ووافقوا

ثم بعد أنْ تزوجتْ زينب من زيد تعالتْ عليه ، بل وشعر أنها تحتقره لهذا الفارق بينهما ، فكان زيد يشتكي لرسول الله سوءَ معاملة زوجته له ، وأنها كما نقول (منكدة عليه عيشته) ، وأنها تعيش معه في بيت الزوجية بالقالب لا بالقلب ، لكن حبه لرسول الله كان يمنعه من طلاقها ، وهو أيضاً لا يريد أن يخسر هذا الشرف الذي ناله

بالزواج من ابنة عمة رسول الله .

وكان سيدنا رسول الله في كل مرة يشتكي فيها زيدٌ من زينب يقول له ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] ولو أرادها الرسول لنفسه لقال له طلِّقها ، ولوجد الفرصة أمامه سانحة .

ويجب أن نبحث هنا علاقة المرأة بالرجل ، فالخالق سبحانه خلق الرجل للمرأة ، والمرأة للرجل ؛ لذلك نجد المرأة العربية أم إياس ، وهي تُوصي ابنتها لما خطبها الحارث ، تقول : « أيْ بُنية ، إنك لو تُركْتِ بلا نصيحة لكنت أغنى الناس عنها ، ولو أن امرأة استغنتْ عن الزوج لغنى أبويها وشدَّة حاجتهما إليها لكنتِ أغنى الناس ، ولكن الرجال للنساء خُلقْن ، ولهُنَّ خُلق الرجال ، وأن النصيحة لو تركتْ لفضل أدب لتركتِ لذلك منك ، ولكنها تذكرةٌ للغافل ومعونة للعاقل » .

وقلنا : إن الإنسان يستطيع أنْ يعيش أفضل ما يكون من مأكل ومَشْرب وملبس ومسكن ، لكنه مع ذلك لا يستغني بحال عن الزوجة والمرأة كذلك ؛ لذلك يقول رسول الله ﷺ : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرتُ الزوجة أن تسجد لزوجها »[1] .

لماذا ؟ لأن الزوج يعطيها ما يعطيه الأب والأم والإخوة ، ويزيد على ذلك مما لا يقدرون ولا يستطيعون .

الشاهد أن المرأة للرجل ، والرجل للمرأة ، مهما وضعوا من أسوار من عزٍّ أو من جبروت ، أو غيره .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨١/٤) عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ قال « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، ولا تؤدي المرأة حق الله عز وجل عليها كله حتى تؤدي حق زوجها عليها كله ، حتى لو سألها نفسها وهي على ظهر قتب لأعطته إياها » . والقتب : رحْل صغير على قدر سنام الجمل .

إن المسألة بالنسبة لزيد كانت صعبة ؛ لأن الله تعالى جعل للزواج ثلاث مراحل ، وردتْ في قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً .. (٢١)﴾ [الروم]

فالأولى أنْ يسكن الزوج إلى زوجته ، وأنْ يطمئن إليها ، ويرتاح بجوارها حين تمسح عنه عرقه ، وتحتويه بعد تعب اليوم ومشاقّ الحياة ، فإن امتنع السَّكَن بسبب مُنغِّصات الحياة ، فليكُنْ بينهما مودة تجمعهما ، ولمَ لا ، وأنت حين تصاحب صديقاً مثلاً مدة طويلة تجد له مودة في قلبك ، وتجد أن لهذه المودة ثمناً ، فتتحمله إنْ أخطأ ، وتسامحه إنْ أساء ، فما بالك بالزوجة ، أليست أحق بهذه المودة ؟

فإذا ما فُقِدَت المودة أيضاً ، فليبْقَ بين الزوجين التراحم ، فليرحم كل منهما الآخر إنْ أصابه الكِبَر أو المرض ، أو غير ذلك .

وقد وصل زيد مع زينب إلى مرحلة فقد فيها السَّكَن والمودة والرحمة بسبب ما بينهما من فارق .

أمر آخر ، إنْ كان رسول الله ﷺ قد فكَّر في أمر زينب ، فلماذا تعدلون به إلى التفكير في الغريزة ؟ ولماذا لا تعدلون به إلى مرتبة الإنصاف . وهو الذي أرغم زينب على الزواج من زيد ، وهي الشريفة القرشية . وهو العبد المملوك ، فلما وضعها في هذا المأزق أراد أنْ يُطيِّب خاطرها ، ويصلح ما كان منه بأنْ يضمها إليه ، فتصير إحدى أمهات المؤمنين .

ثم مَن الذي منع رسولاً قال الله عنه أنه بشر من أن تكون له هذه الرغبة ، وكل الرسل السابقين كان لهم هذه ـ هذا على فرض رغبة رسول الله في زينب ـ لكن الناس لم يُحسنُوا الظن

والذى يدلُّنا على أن هذه المسألة كانت ترتيباً ربانياً صرْفاً ما نجده من الرياضة الإيمانية بين كل من سيدنا رسول الله ، ومولاه زيد ، وابنة عمته زينب ، فقد جمعهم الثلاثة رياضة إيمانية كما نقول نحن الآن : فلان عنده روح رياضية .

يعنى : يتقبل الهزيمة بروح عالية بدون عداوات أو أحقاد ، فلقد انصاع الجميع لأمر الله بهذه الروح الإيمانية .

أما الذين يأخذون من قوله تعالى فى حق رسوله ﴿وتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] يأخذونها سُبَّة فى حق الرسول ، فعليهم أنْ يعلموا أنَّ الخشية نوعان : خشية من شىء تخاف أنْ يضرك ، وخشية استحياء ، فالخشية فى ﴿وتَخْشَى النَّاسَ .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] خشية استحياء ، ويكفى أن الحق سبحانه قال فى حق رسوله ﷺ[1] : ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِىَّ فَيَسْتَحْيِى مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِى مِنَ الْحَقِّ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب]

فالخشية هنا تعنى خَوْف رسول الله من ألسنة الكفار التى ستخوض فى حقه ، والتى ستقول إن محمداً تزوَّج من امرأة مُتبنَّاه ، لكنْ غاب عن هؤلاء أن الله تعالى ألغى مسألة التبنى ، فليس لهم

---

(١) وذلك أن رسول الله ﷺ حين بنى (دخل) بزينب بنت جحش ، صنع وليمة خبز ولحم فدعا الناس إليها ، فأخذ يجىء قوم فيأكلون ويخرجون ثم يجىء قوم فيأكلون ويخرجون وبقى ثلاثة رهط يتحدثون لم يخرجوا ورسول الله يريد أن يخلو بزينب ، عروسه وهم جالسون ، فخرج ثم عاد ، ثم خرج ، ثم عد حتى أخبر أن القوم قد خرجوا ، وكان شديد الحياء ، فنزل قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِىِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِىَّ فَيَسْتَحْيِى مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِى مِنَ الْحَقِّ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] انظر : أسباب النزول للواحدى (ص ٢٠٥) ، وتفسير ابن كثير (٣/٥٠٣) .

حـجة ، وطبـيعى أن يخـاف رسول الله مـن ألسنة الكفار ؛ لأنه جـاء لنقض عادات وتقاليد جاهليـة ، وكان هو ﷺ أول مَنْ تحمَّل تبعة هذا التغيير ؛ لأنه جاء على يديه وفى شخصه ﷺ .

وسيدنا رسول الله حين يستحى من زواجه من زينب أو من كلام الناس ، فإنما يريد أنْ يبرىء عِـرْضه وسـاحته ، مما يشـين ، وقد كان ﷺ يدفع الشـبهة عن نفسـه دائماً ، لذلك لما رآه بعض أصـحابه مع امرأة ، فمالوا عـنه ﷺ خشيةَ أنْ يتسببـوا له فى حرج ، فناداهما رسول الله . « على رِسْلكما إنـها صفية » فقـالوا : نحن لا نشك فيك يا رسـول الله ، فقـال : « إن الشـيطان ليـجرى مـن ابن آدم مجـرى الدم »[١] .

فرسول الله يريد أن يـنفض عن نفسه أىَّ شبهـة ، يريد ألا يجعل لأحد جميلاً عليه ، بأنه ستر على رسول الله .

ولا أدلَّ على حـيائه ﷺ من قصـتـه مع عـبد الله بن سـعـد بن أبى السـرح ، فلمـا دخل ﷺ مكة فاتحـاً ومنتصراً كـان قـد أهـدر دم عبـد الله بن سعد بن أبى السـرح ؛ لأنه نال كثيـراً من رسول الله[٢] ، فجاء عثمان بن عـفان رضى الله عنه يستأمن لعبد الله من رسـول الله ـ يعنى : يطلب له الأمان ـ فمـا ردَّ عليه رسول الله ، وكان ينتظر أن يقوم رجل من القـوم فيقـتل عبد الله ، لكن عـثمان أعـادها مراراً على

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البـخارى فى صحيحـه (٦٢١٩) . وكذا مسلم فى صحـيحه (٢١٧٥) من حديث صفية بنت حُيَىّ .

(٢) كان عبد الله بن سعد بن أبى سرح قـد أسلم قديما وكتب لرسول الله ﷺ الوحى ثم افتتن وخرج من المدينة إلى مكة مرتدا فأهدر رسول الله دمه يوم الفتح . [الطبقات الكبرى لابن سعد ٥٠٢/٩]

رسول الله حتى أنه استحى من عثمان فأمَّن عبد الله ، فلما أمَّنه أخذه عثمان وانصرف من مجلس رسول الله .

فقال رسول الله لصحابته : « ألم يكن فيكم رجل رشيد يقوم إليه فيقتله ؟ » يعني - قبل أن يُكلِّمه عثمان فيكون قد سبق السيف العذل[1] كما يقولون ، فقام عبد الله بن بشر وقال : يا رسول الله ، لقد كانت عيني في عينك ، أنتظر إشارة منك لأقتله ، لكنك لم تفعل ، فقال سيدنا رسول الله ـ انظر إلى العظمة « ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين »[2] .

أذكر أنه كان لنا أستاذ ، هو سيدنا الشيخ موسى شريف رحمه الله ورضي الله عنه ، وكان رجلاً له مدد من الله ، وقد فسر لنا هذه الآية ، وكنا نذاكر دروسنا قبل أن نحضر درسه ، وكان يصطفيني من بين إخواني الموجودين أمثال الشيخ حسن جاد ، والدكتور خفاجة وأبي العينين وغيرهم ، ليسألني عن مذاكرتنا وما وقف أمامنا من قضايا ، فناداني وكان قد علم من أبي اسم أمي ، فناداني بها فتقدَّمت إليه ، فضربني على قفاي ضربة انحلَّتْ معها القضية التي كانت تقف أمامنا ، تماماً كما تضرب الذي يعاني من (الزغطة) ضربة على ظهره فتذهب .

ولما حدَّثنا الشيخ عن قصة سيدنا عثمان هذه جاء في اليوم التالي وقال : يا أولاد ، رأينا الليلة سيدنا عثمان بحيائه ، فقلت له :

---

(١) العذل : اللوم والتأنيب . وقال ابن منظور في [لسان العرب ـ مادة : عذل] : « قولهم في المثل : سبق السيف العَذَل ، يُضرب لما قد فات ، وأصل ذلك أن الحارث بن ظالم ضرب رجلاً فقتله ، فأخبر بعذره ، فقال : سبق السيف العذل » .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٤٣٥٩) ، وكذا النسائي في سننه (٧/١٠٥ ، ١٠٦) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه . ولفظ أبي داود والنسائي : « إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين » .

كيف تستأمن لرجل قال فى رسول الله كذا وكذا ؟ فقال لى : ألاَ تعلم أن الله يحب مَنْ تاب ، فـقلت لرسـول الله ﷺ ـ ولم يـقل : أنا رأيتُ رسول الله ـ ما الذى جعلك تقبل شفاعة عثمان ؟ فـقال : ألاَ أستحى من رجل تستحى منه الملائكة[1] ؟

فالنبى ﷺ بطبيعته كان شديد الحياء .

ثم يقول تـعالى : ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا (٣٦)﴾ [الأحزاب] وهنا ثلاثة توكيـدات : قد الدالة على التحقـيق وبعدها الفعل المـاضـى ، ثم المفعول المطلَق ضــلالاً ، ثم وصـف هذا الضلال بأنه مبين .

والضـلال هو عدم الاهتداء إلى الطريق المؤدِّى إلى الغاية ، لكن قد يضلّ إنسـانٌ طريقه ، ثـم يأتى مَنْ يفتح عـليه ويدلُّه . أمـا هذا الذى يعصي الله ورسوله ، فضلاله ضــلال مبين لا يجد مَنْ يدلُّه ، ولا مَنْ يهـديه أبداً ؛ لأن هذا الطريق الذى يسـير فـيه مُوصِلٌ إلى الآخـرة ، وليس هناك شىء من ذلك .

كانت هذه (لقطة) لسـيدنا رسول الله ﷺ مع عثمـان وعباد بن بشر أوضــحتْ صفة الحيـاء فى رسول الله ، نعود بعـدها إلى ما كنا بصدده من الحديث عن الرياضة الإيمـانية التى جمعتْ بين رسـول الله وكل من زيد وزينب .

---

(١) هذه العبارة قالهـا رسول الله ﷺ عن عثمان رضي الله عنه فى مناسـبة أخرى ، فى حديث أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٤٠١) عن عـائشة قالت : كان رسول الله ﷺ مضطجعا فى بيتى كاشفا عن فـخذيه أو ساقيه فاستأذن أبو بكر فأذن له وهـو على تلك الحال فتحدث . ثم استـأذن عمر فـأذن له وهو كذلك فـتحدث . ثم اسـتأذن عثـمان فـجلس رسول الله ﷺ وسوَّى ثيـابه ، فلما خرج قالـت عائشة : دخل أبو بكر ولم تهـتش له ولم تباله ، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله ، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك فقال : الا تستحي من رجل تستحي منه الملائكة

وكان سيدنا رسول الله إذا غاب زيد يذهب فيسأل عنه ، فذهب مرة ، فرأى زينب منشغلة في أمور بيتها ، وكانت زينب على حالة طيبة ، فقال ﷺ : « تبارك الله أحسن الخالقين » كما ترى مثلاً ابنتك في مظهر حسن ، فتقول : ما شاء الله .

وكان رسول الله أراد أنْ يُطيِّب خاطرها ، أو يرفع من روحها نظير ما أجبرها عليه من الزواج بزيد ، ونظير أنها تعيش معه على مضض ، فلما جاء زيد قالت له : لقد جاء رسول الله وسأل عنك وقال لي : تبارك الله أحسن الخالقين ، فقال لها : يا زينب أرى أنْ تكوني لرسول الله ؛ لأنك وقعتِ في قلبه ، وأرى أنْ أطلِّقك ليتزوجك رسول الله ، فبدا عليها الارتياح ، وتعجبتْ كأنها لم تصدق : إذا طلَّقْتني أتزوج برسول الله ، كان هذا الحوار مجرد كلام .

وبالله لو قيل هذا الكلام في غير هذا الموقف ، ولواحد غير زيد لغلي الدم في عروقه ، وفعل ما فعل ، إنما تأمل الرياضة الإيمانية التي تحلَّى بها زيد .

يقول تعالى في هذه المسألة :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾

معنى ﴿ وَإِذْ تَقُولُ .. (٣٧) ﴾ [الاحزاب] واذكر جيداً وأدرْ مسألة زيد في رأسك ، اذكر إذ تقول للذى أنعم الله عليه بالإيمان ـ والمراد زيد ـ وأنعمتَ عليه بالعتق أولاً ، وأنعمت عليه بقانون البشرية بأنْ جعلْتَه ابناً لك وأنعمتَ عليه بأن زوَّجته ، وهو عبد ، من قرشية ، هي ابنة عمتك ، ثم أنعمتَ عليه حين قُلْت له ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ .. (٣٧) ﴾ [الاحزاب]

لكن ، لماذا قُلْتَ له هذه الكلمة يا محمد ؟ أخوفاً من كلام الناس أنْ يقولوا : تزوَّج من امرأة مُتبنَّاه ؟ كيف وهذا مقصود من الله تعالى ، إنه يريد أن يُنهى عادة التبنى ، وأنْ يُنهيها على يدك أنت ، فأنت تخفيه خوفاً من كلام الناس ، وقد أبداه الله حين أخبرك بهذه المسألة ، وأن نهايتها ستكون على يديك بأنْ تتزوج امرأة مُتبنَّاك ﴿ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ .. (٣٧) ﴾ [الاحزاب] فدعْكَ من الناس .

لذلك قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ .. (٣٩) ﴾ [الاحزاب]

وسبق أن أوضحنا أن خشيته ﷺ لم تكن خشية خوف من شىء يضره ، إنما خشية استحياء ليدفع رسول الله الشبهة عن نفسه .

وقوله تعالى ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧) ﴾ [الأحزاب] الوطر : هو الأشياء التى تناسب معاش الرجل ، فمعناه الغاية أو الحاجة ، وسبق أن قُلْنا : إن وطر الرجل من زوجته أن تكون سكناً ، فإن لم يكُنْ ، فمودة تجمعهما ، فإنْ لم يكُنْ فرحمة متبادلة .

وقد افتقد زيد فى زوجته كل هذه المراحل ، فلم يجد معها ، لا السكن ، ولا المودة ، ولا الرحمة ، فلماذا ـ إذن ـ يستمر فى الارتباط بها ؟ لذلك كان يذهب إلى رسول الله ، فيشتكى له ما يلاقى

من زينب ، فكان رسول الله ﷺ يقول له :

﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ..(٣٧)﴾ [الأحزاب]

وتأمل هنا هذه الرياضة الإيمانية بين سيدنا رسول الله وزيد وزينب رضي الله عنهما : لما طلَّق زيدٌ زينبَ تركها رسول الله لتقضي عدَّتها ، فلما قضت العدَّة قال : يا زيد اذهب إلى زينب فاخطبها عليَّ[1] ، فما هذه العظمة ؟ رسول الله يبعث المطلِّق ليخطب له المطلَّقة ، وهذا يدل على ثقته في زيد ، وأنه قد قضى وطره من زينب ، ولم يَعُدْ له فيها حاجة .

ويدخل زيد على زينب ، فيقول لها : أبشري يا زينب ، لقد بعثني رسول الله لأخطبك له ، فقالت : والله لا أجيب حتى أسجد شكراً لله ، فقامت زينب فسجدتْ ، عندها عاد زيد إلى رسول الله ، فأخبره ما كان من زينب فجاءها رسول الله ﷺ ، فدخل عليها بلا استئذان[2] .

تُرى لماذا يدخل عليها سيدنا رسول الله بلا استئذان ؟ قالوا : لأنها حينئذ صارت زوجته ، كما قال سبحانه ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا

(١) أخرج ابن سعد في الطبقات الكبرى (١٠١/١٠) من حديث أنس قال ، « لما انقضت عدة زينب بنت جحش قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : ما أجد أحداً آمن عندي أو أوثق في نفسي منك ، ائت إلى زينب فاخطبها عليَّ ... قال زيد : يا زينب ، أبشري ، إن رسول الله يذكرك » . ولكن أخرج ابن سعد أيضاً في الطبقات (٩٩/١٠) أن رسول الله ﷺ بعد انقضاء عدة زينب أخذته غشية فسُرِّي عنه وهو يتبسَّم وهو يقول : من يذهب إلى زينب يبشِّرها أن الله قد زوجنيها من السماء . قالت عائشة : فخرجت سلمى خادم رسول الله ، تشتد فتحدثها بذلك فاعطتها أوضاحا عليها

(٢) قاله أنس بن مالك رضي الله عنه « أن زينب ردَّتْ على زيد : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي ، فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] قال : فجاء رسول الله فدخل عليها بغير إذن » أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١٠١/١٠) ، وابن الأثير في أسد الغابة (١٢٥/٧)

وطراً زوَّجْناكها .. ﴿٣٧﴾ [الأحزاب] أى : زوَّجه الله بها من فوق سبع سموات .

لذلك كانت السيدة زينب حين تجلس مع زوجات النبى ﷺ ـ وهذه أيضاً من الرياضات الإيمانية ـ تقول لهن : إنى لأفتخر عليكن جميعاً بأنكن زوجكُنَّ أولياؤكن ، أما أنا فزوَّجنى ربى ، فلا تجرؤ إحداهن على الردِّ عليها[1] .

ليس هذا فحسب ، إنما تُدِلُّ أيضاً على سيدنا رسول الله ، فتقول له : يا رسول الله ، أنا أُدِلُّ عليك بثلاث ، فيضحك سيدنا رسول الله ويقول : أما الأولى ؟ فتقول : أما الأولى فجدِّى وجدُّك واحد ، وأما الثانية فلأن الله زوَّجنى من فوق سبع سموات ، وأما الثالثة فلأن سفيرى فى الزواج لم يكُن زيداً ، إنما كان جبريل[2] .

فأىُّ عظمة هذه التى نلاحظها فى هذه القصة ، وأىُّ رياضة إيمانية عالية من رسول الله وصحابته ؟

إذن : لم يتزوج رسول الله من زينب ، إنما زوَّجه ربه ؛ لذلك نقول للمغرمين بالخوض فى هذه المسألة ، يحسبونها سُبَّة فى حق رسول الله : افهموا الفرق بين زُوِّج وتزوج . تزوج أى : بنفسه

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٢٠) من حديث أنس بن مالك أن زينب كانت تفخر على أزواج النبى ﷺ تقول : « زوَّجكن أهاليكن وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سماوات » .

(٢) ذكره ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى (١٣/٤١٢) ببعض هذه الألفاظ من مرسل الشعبى « قالت زينب : يا رسول الله ، أنا أعظم نسائك عليك حقاً ، أنا خيرهن منكحاً ، وأكرمهن سفيراً ، وأقربهن رحماً ، فزوَّجنيك الرحمن من فوق عرشه ، وكان جبريل هو السفير بذلك ، وأنا ابنة عمتك وليس لك من نسائك قريبة غيرى » أخرجه الطبرى وأبو القاسم الطحاوى فى « كتاب الحجة والتبيان » اهـ.

وبرغبته ، إنما زُوِّج أى زَوَّجه غيره ، وكلمة ﴿زَوَّجْنَاكَهَا .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] تحتوى على الفعل زوَّج والضمير (نا) فاعل يعود على الحق سبحانه ، والكاف لخطاب رسول الله ، وهى مفعول أول ، والهاء تعود على السيدة زينب ، وهى مفعول ثانٍ للفعل زوَّج .

فرسول الله فى هذه المسألة ، وفى كل زوجاته لم يخالف عن أمر الله . فلتكونوا منصفين ؛ لأن المسألة ليستْ عند محمد ، إنما عند رب محمد ، واقرأوا إن شئتم : ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ[1] ثَيِّبَاتٍ[2] وَأَبْكَارًا (٥)﴾ [التحريم]

ثم هَبُوا ـ جدلاً ـ أن محمداً فعلها ، ما العيب فيها وقد كان التعدُّد موجوداً ، ولم ينشىء رسول الله تعدُّداً ، كان التعدُّد موجوداً فى الأنبياء والرسل ، وفيكم وعندكم .

أما الذين يتهمون رسول الله ﷺ بأنه وسَّع على نفسه ، فتزوَّج تسعاً ، وضيَّق على أمته بأربعة ، فالرد على ذلك أن الله تعالى حكم بأن زوجات الرسول أمهاتٌ للمؤمنين ، وما دُمْنَ أمهات للمؤمنين ، فليس لأحد أنْ يتزوَّجهُنَّ بعد رسول الله ، أمَّا غيرهن من المؤمنات فإنْ كان مع الرجل سبعة مثلاً ، فعليه أنْ يفارق ثلاثة منهن ، وهؤلاء الثلاثة سيجدْن منْ يتزوج بهنَّ ، إذن : على الرسول أنْ يُمسك زوجاته كلهن ، وعلى غيره من المؤمنين أنْ يفارقوا ما زاد على أربع .

---

(١) سائحات : أى : صائمات . قاله أبو هريرة وعائشة وابن عباس وغيرهم كثير ذكر ابن كثير فى تفسيره (٤/٣٩٠) ثلاثة عشر عالماً آخر قالوا بهذا القول ثم قال : وقال زيد ابن أسلم وابنه عبد الرحمن : سائحات أى مهاجرات ، والقول الأول أولى والله أعلم .

(٢) الثيب : المرأة التى سبق لها الزواج سواء كانت مطلقة أو أرملة . قال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : ثيب] : « الثيب من النساء التى تزوجت وفارقت زوجها بأى وجه كان بعد أن مسَّها » .

شيء آخر : تظنون أن رسول الله وسَّع الله له هذه المسألة ، والحقيقة أن الله ضيَّق عليه إذا ما قارناه بغيره من عامة المؤمنين ، فالمؤمن له أنْ يمسك أربعَ زوجات ، فإذا ماتتْ إحداهن تزوج بأخرى ، وإنْ طلَّق إحداهن تزوج بدلاً منها ، فإن مُتْنَ جميعاً أو طلَّقهن ، فله أنْ يتزوَّج غيرهن حتى يكمل الأربعة ، وهكذا يكون للمؤمن ان يتزوَّج بعدد كثير من النساء .

أما رسول الله - نعم تزوج تسعاً - لكن خاطبه ربه بقوله : ﴿لا يَحلُّ لكَ النِّساءُ مِنْ بعْدُ ولا أَن تَبَدَّل بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ولَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ .. (٥٢)﴾ [الأحزاب] فمَن الذى ضيَّق عليه إذن ؟ محمد أم أمته ؟

ثم يا قوم تنبهوا إلى الفرق بين الاستثناء في العدد والاستثناء في المعدود ، هل استثنى الله نبيه في العدد من أربع إلى تسع ، أم استثناه في معدود بذاته ، استثناه في المعدود لا في العدد ، لأنه لو استثناه في العدد لكان له إذا ماتتْ إحدى زوجاته أنْ يتزوَّج بأخرى ، إنما وقف به عند معدود بذاته ، بحيث لو ماتوا جميعاً ما كان له ﷺ أنْ يتزوَّج بعدهن .

وبعد ذلك أظلَّ الحكمُ على رسول الله هكذا ؟ لا ، إنما كان في بداية الأمر وبعد ذلك حينما استقرتْ الأمور وأمن الله رسولَه قال له افعل ما تشاء ، لانك مأمون على أمتك[1] .

---

(١) وذلك في قوله تعالى : ﴿تُرْجِى مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِى إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ .. (٥١)﴾ [الأحزاب] ولكن ضعَّف القرطبي في تفسيره القول القائل بأن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى : ﴿لا يحلُّ لكَ النِّساءُ مِن بعْدُ .. (٥٢)﴾ [الأحزاب] ورجح القرطبي (٥٤٨٢/٨) أن معناها التوسعة على النبي ﷺ في ترك القسم ، فكان لا يجب عليه القسم بين زوجاته . قال : « وهذا القول هو الذى يناسب ما مضى ، وهو الذى ثبت معناه في الصحيح عن عائشة قالت : كنت أغار على اللائي وهبن أنفسهن لرسول الله ، وأقول : أو تهب المرأة نفسها لرجل ؟ فلما أنزل الله ﴿تُرْجِى مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ .. (٥١)﴾ [الأحزاب] قالت عائشة : والله ، ما أرى ربك إلا يسارع في هواك » .

ثم نقول : هَبُوا أن رسول الله له اختيار فى هذه المسألة ، ولم تكن مُسبقة ، ألم يُؤدِّ فعلُه هذا إلى إلغاء عادة التبنى ؟ ثم أنُزعت الرسالة من رسول الله بعد أنْ فعل ما فعل ؟ إذن : لا يتناقض مراد الله ومراد رسول الله .

والذين تناولوا سيدنا رسول الله فى هذه المسألة مثل الذين تناولوا سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ لما قال الله فيه : ﴿ولقد همت به وهمَّ بها .. (٢٤)﴾ [يوسف] وكأنهم أكثر غيرةً على يوسف من ربه عز وجل ، نعم همَّ بها يوسف أى : فكَّر فيها أو غير ذلك ، ولن نقول لكم على الصواب لتظلوا فى حيرتكم ، لكن أنزعَ الله منه الرسالةَ بعد ما همَّ بها ؟ إذن : همُّه بها لم يناقض الرسالة ، فما تقولونه فى هذه المسألة فضول منكم .

ثم تأتى العلة فى هذه المسألة ﴿لكىْ لا يكُون على الْمُؤْمنين حرجٌ فى أزْواج أدْعيائهمْ إذا قضوْا منْهنَّ وطرًا.. (٣٧)﴾ [الأحزاب] ثم تختم الآية بما لا يدع مجالاً للشك فى رسول الله : ﴿وكان أمْرُ الله مفْعولاً (٣٧)﴾ [الأحزاب] أى : لا بُدَّ أن يحدث ، ولن يترك لأىِّ شخص آخر ، حتى لا تفسد القضية فى إلغاء عادة التبنى ، إذن : فزواج رسول الله من امرأة مُتبنَّاه ما كان إلا لرفع الحرج عن جميع المؤمنين ، والآن يصح لكل مُتبنٍّ أن يتزوج امرأة مُتبنَّاه .

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ .. (٣٨)﴾ [الأحزاب] أى :

إثم أو ملامة ﴿فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ .. ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب] أى : كيف تلومون رسول الله على تنفيذ أمر فرضه الله له وتأمل ﴿فَرَضَ اللَّهُ لَهُ .. ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب] أى : لصالحه ولم يقُلْ فرض عليه ؟ ما دام أن الله هو الذى فرض هذا ، فلْتُصعِّدوا الأمر إليه ، فليس لرسوله ذنب فيه .

وهذه المسألة تشبه تماماً مسألة الإسراء ، فحين أخبر سيدنا رسول الله قومه بخبر الإسراء قالوا : يا محمد أتدَّعى أنكَ أتيتَ بيت المقدس في ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً[1] ؟ وهذا غباء منهم لأن محمداً لم يقل : سريْتُ إنما قال : أُسْرِى بى . فالذى أسرى به ربه - عز وجل - إذن : المسألة ليست من فعل محمد ، ولكن من فعل الله .

وسبق أن ضربنا لذلك مثلاً توضيحياً - ولله المثل الأعلى - قُلْنا : هَبْ أن رجلاً قال لك : أنا صعدتُ بولدى الصغير قمة (إفرست) أتقول له : كيف صعد ولدك قمة (إفرست) ؟

لكن انتفعنا الآن بقول المكذِّبين : أتدَّعى يا محمد أنك أتيتَ بيت المقدس في ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؛ لأن غباء المكذِّب يؤدى به إلى عكس ما قصده من غبائه ، فهذا القول اتخذناه الآن دليلاً للرد على مَنْ يقولون بأن الإسراء كان رؤيا ، أو كان بالروح دون الجسد .

فلو قال رسول الله : رأيتُ فى الرؤيا أنى أتيتُ بيت المقدس ما

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٤) : لما أصبح رسول الله - بعد الإسراء به - غدا على قريش - فأخبرهم الخبر ، فقال أكثر الناس : هذا والله الإمْرُ البيِّن ، والله إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ؟ » .

قالوا هذه المقالة ، إذن : فَهِمَ القومُ أن رسول الله أتى بيت المقدس بروحه وجسده ، وإلا ما قارنوا بين ذهابهم وذهابه ، فالذين عاصروا هذه الحادثة قالوا هذه المقالة ، فكيف نأتي اليوم لنقول . إن الإسراء كان مناماً ، أو كان بالروح دون الجسد ؟

وقوله تعالى . ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ .. (٣٨)﴾ [الأحزاب] أي إخوانه من الرسل السابقين ، أو فيما كان قبل الإسلام من التعدُّد ، فلم يكُنْ رسول الله بدْعاً في هذه المسألة .

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨)﴾ [الأحزاب] تلحظ أن الآية السابقة خُتِمَتْ بقوله تعالى : ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٣٧)﴾ [الأحزاب] فلقائل أن يقول نعم مفعولاً في هذا الوقت الذي حدثتْ فيه هذه الأحداث ؛ لذلك قال هنا ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨)﴾ [الأحزاب] أي : أن ما حدث لرسول الله كان مقدَّراً أزلاً ، ولا شيء يخرج عن تقدير الله ، وقد صَحَّ أن القلم قد جَفَّ على ما كُتِب ، وعلى ما قُدِر[1] .

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩)﴾

وكان الحق سبحانه يُعيدنا إلى قوله تعالى في نبيه محمد : ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ .. (٣٧)﴾ [الأحزاب] فالرسل

(١) أخرج البخاري في صحيحه (٥٠٧٦) أن أبا هريرة رضي الله عنه قال لرسول الله ﷺ « إني رجل شاب ، وأنا أخاف على نفسي العنت ، ولا أجد ما أتزوج به النساء ، فسكت عني ، ثم قلت مثل ذلك ، فسكت عني ، ثم قلت له مثل ذلك ، فسكت عني ، ثم قلت مثل ذلك فقال النبي ﷺ « يا أبا هريرة ، جفَّ القلم بما أنت لاقٍ » وكذا أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/٥٠ ، ٥١) ، والنسائي في سننه (٦/٥٩)

لا يخشونَ شيئاً في البلاغ عن الله ، فكأنه تعالى نفى عن الرسول ﷺ أن تكون خشيته في البلاغ ، إنما خشيته استحياؤه مخافة أنْ تلوكه ألسنة قومه ، وإلاَّ فَهُمْ لا يملكون له شيئاً يضره أو يخيفه .

نلحظ هنا أن ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ .. (٣٩)﴾ [الأحزاب] هذه العبارة مبتدأ[1] لم يُخبر عنه ؛ لأن قوله تعالى ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩)﴾ [الأحزاب] ليس خبراً لهذا المبتدأ ، إنما هو تعليق عليه ، فأين خبر هذا المبتدأ ؟ قالوا : تقديره ، الذين يُبلِّغون رسالات الله .. لا يمكن أنْ يُتَّهموا بأنهم خشوا الناس من أجل البلاغ .

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩)﴾ [الأحزاب] أي : أنكم لن تحاسبوهم ، إنما سيحاسبهم الله ، وكان مقتضى الحساب مع رسول الله إنْ فعل ما لا يصحّ منه أنْ تسحب منه الرسالة ، وأنْ يأتي الله بنبي آخر ، ولم يحدث شيء من هذا .

ثم يعود السياق إلى أمر آخر في قضية التبني ، فيقول سبحانه :

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠)﴾

قال سبحانه ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ .. (٤٠)﴾ [الأحزاب] لأن علاج قضية التبني أهمُّ من أُبوته ﷺ لأحد منكم أن يكون أبوه رسول الله ؛ لأن أبوته لآخر لا تنفعه بشيء ، إنما ينفعه البلاغ عن الله ، وأن يحمل له منهج ربه الذي يسعده في دينه ودنياه .

---

(١) يجوز أن يكون قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ .. (٣٩)﴾ [الأحزاب] صفة لـ ﴿الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ .. (٣٨)﴾ [الأحزاب] .

إذن : فـفرحكم برسـول الله كرسـول أَوْلَى من فرحكم به كـأب ، وإلاَّ فما أكثر من لهم آباء ، وهم أشقياء في الحياة لا قيمة لهم .

وقوله ﴿ما كَانَ .. (٤٠)﴾ [الأحزاب] النفى هنا يفيد الجـحود ، فهو ينكر ويجحد أنْ يكون محمد أباً لأحد من رجالكم ، وتأمل عظمة الأداء القرآنى فى كلمة ﴿مِّن رِّجَالِكُمْ .. (٤٠)﴾ [الأحزاب] ولم يَقُلْ مثلاً أبا أحد منكم ، لماذا ؟ قالوا : لأنه ﷺ كان أباً لعبـد الله وللقاسـم ولإبراهيم ، وكانوا جـميـعاً منهم ، وهو ﷺ أبـوهم ، فجاءت كـلمة ﴿رِّجَالِكُمْ .. (٤٠)﴾ [الأحزاب] لتُخـرج هؤلاء الثلاثة ؛ لأنهم لم يبلُغوا مـبلغ الرجال ، فمحمد ما كان أبداً أبا أحد من الرجال ، وإنْ كان أبا لأولاد صغار لم يصلوا إلى مرحلة الرجولة .

وقوله ﴿وَلَـٰكِن .. (٤٠)﴾ [الأحزاب] أى : أهم من أُبوَّته أن يكون رسول الله ﴿وَلَـٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ .. (٤٠)﴾ [الأحزاب] ليس هذا فـحسب ، ولكن أيضاً ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ .. (٤٠)﴾ [الأحزاب] أى : الرسـول والنبى الذى يختم الرسـالات ، فلا يستدرك عليه برسالة جديدة .

وهذه من المسـائل التى وقف عندها المسـتشرقـون معتـرضين ، يقولون : جاء فى القرآن ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ .. (٨١)﴾ [آل عمران]

ومحمد ﷺ من ضمن الأنبياء الذين أُخذ عليهم هذا العهد ، بدليل : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ .. (٧)﴾ [الأحزاب]

إذن : أخذ اللهُ العهدَ على الأنبياء أنه من ضمن مبادئهم أنْ يُبلِّغوا قومـهم بمقـدم رسول جـديد ، وأنه إذا جاءهم عليـهم أنْ يؤمنوا به ، وأنْ ينصروه ، كما بشَّـر مثلاً عيسى عليه السلام برسـالة محمد ﷺ

فقال : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ .. (٦) ﴾ [الصف]

فكيف يخبر الله عن محمد أنه خاتم النبيين وهو واحد منهم ؟ نقول : نعم هو واحد منهم ، لكن إنْ كانوا قد أُمروا بأنْ يُبشِّروا وأنْ يُبلغوا أقوامهم برسول يأتي ، فقد أمر ﷺ أن يُبلِّغ قومه أنه خاتم الأنبياء والرسل .

لذلك يُرْوَى أن رجلاً ادَّعَى النبوة في زمن المأمون ، فأمر به فَوُضِع في السجن ، وبعد عدة أشهر ظهر رجل آخر يدعي النبوة ، فرأى المأمون أن يواجه كل منهما الآخر ، فأحضر المدعي الأول وقال له : إن هذا الرجل يدَّعي أنه نبي ، فماذا تقول فيه ؟ قال : هو كذاب ؛ لأنني لم أرسل أحداً - فارتقى إلى منزلة الألوهية ، لا مجرد أنه نبي .

والمرأة التي ادَّعَتْ النبوة أيضاً في زمن المأمون لما أوقفها أمامه يسألها قال لها : ألم تعلمي أن رسول الله قال : لا نبيَّ بعدي[1] ؟ قالت : بلى ، ولكنه لم يقل لا نبية بعدي !

ثم يختم الحق سبحانه هذه المسألة بقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٤٠) ﴾ [الأحزاب] وما دام أن الله تعالى عليم بكل شيء فليس لأحد أنْ يعترض ؛ لأنه سبحانه هو الذي يضع الرسول المناسب في المكان المناسب والزمان المناسب ، وقد علم سبحانه أن رسالة محمد تستوعب كل الزمان وكل المكان .

---

(١) مما رُوي دليلاً على أنه لا نبي بعد رسول الله ﷺ حديث سعد بن أبي وقاص قال : خلف رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب في غزوة تبوك ، فقال : يا رسول الله ، تخلفني في النساء والصبيان . قال : أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، غير أنه لا نبي بعدي . أخرجه أحمد في مسنده (١/١٨٢)

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾

أمرنا ربنا سبحانه بذكره ذِكْراً كثيراً ؛ لأن الذكْر عمدة العبادات وأيسرها على المؤمن ؛ لذلك نجد ربنا يأمرنا به عند الانتهاء من العبادات كالصلاة والصيام والحج ، وجعله سبحانه أكبر فقال ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت]

والذكر شغل الذاكرة ، وهي منطقة في المخ ، قُلْنا : إن المعلومة يستقبلها الإنسان في بؤرة شعوره ، فإذا أراد أنْ يحتفظ بها لحين الحاجة إليها حفظها في الحافظة ، أو في حاشية الشعور ، فأنت مثلاً ترى شخصاً فتقول : هذا الرجل لم أرَهُ منذ عشرين سنة ، وآخر مرة رأيته كان في المكان الفلاني .

إذن : الذكر لشيء كان موجوداً في بؤرة الشعور ، الذكر يعني قضية موجودة عندك بواقع كان لها ساعة وجودها ، لكن حصلتْ عنها غفلة نقلتها إلى حاشية الشعور أو الحافظة ، بعد ذلك نريد منك ألا تنساها في الحاشية أو في منطقة بعيدة بحيث تحتاج إلى مجهود لتذكرها ، إنما اجعلها دائماً في منطقة قريبة لك ، بحيث يسهل عليك تذكُّرها دون عناء .

وكذلك ينبغي أنْ يكون ذكرك لله ، فهو القضية الحيوية التي ينبغي أنْ تظلَّ على ذكْر لها دائماً وأبداً ، وكيف تنسى ذكر ربك وقد أخذ عليك العهد ، وأنت في عالم الذرِّ ، وأخذ منك الإقرار بأنه سبحانه

ربُّك ، الحق سبحانه خلق العقل ليستقبل المعلومات بوسائل الإدراك ، كما قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾ [النحل]

فكأن السمع والبصر هما عُمْدة الحواسِّ ، وبهما نعلم ما لم نكُنْ نعلمه حين نزولنا من بطون أمهاتنا ، ونحن حين نستقبل المعلومات يظن بعض الناس أن الناس يختلفون في ذلك ذكاءً وبلادةً ، فواحد يلتقط المعلومة من مرة واحدة ، وآخر يحتاج إلى أنْ تعيدها له عدة مرات .

والواقع أن العقل مثل آلة (الفوتوغرافيا) يلتقط المعلومة من مرة واحدة شريطةَ أن يكون خالياً ومستعداً لاستقبالها غير مشغول بغيرها ؛ لأن بؤرة الشعور لا تسع ولا تستوعب إلا فكرة واحدة ، وهذه المسألة تناولناها في قوله تعالى : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .. (٤)﴾ [الأحزاب]

فالإنسان الذكي هو الذي لا يشغل باله بأمرين في وقت واحد ، ولا يفكر في شيء وهو بصدد شيء آخر ، فإذا كانت بُؤْرة الشعور خالية فالناس جميعاً سواسية في التقاط المعلومة .

لذلك ، المدرس الموفَّق هو الذي يستطيع أنْ يجتذب إليه انتباه التلاميذ ، ولا يعطيهم الفرصة للانشغال بغير الدرس ، وهذا لا يتأتى إلا بالتلطُّف إليهم وإشراكهم في الدرس بالأسئلة من حين لآخر ، ليظل التلميذ متوقعاً لأنْ يسأل فلا ينشغل . لذلك رأينا أن الطريقة الحوارية هي أنجح طرق التدريس ، أما طريقة سَرْد المعلومات فهي تجعل المدرس في وادٍ والتلاميذ في وادٍ آخر ، كل منهم يفكر في شيء يشغله .

وسبق أنْ قُلْنـا : إن الطالب حين يعلم بأهمـية درس من الدروس فيذاكـره وهو ذاهب للامتحان وهو يصعـد السلم إذا جاءه هذا الدرس يجـيب عنه بنصـه ، لماذا ؟ لأنه ذاكـره في الوقت الحـرج والفرصـة ضـيـقة لا تحـتـمل انشـغالاً ولا تـهاوناً ، فـيلتـقط العـقل كل كلمـة ويُسجِّلها ، فإنْ أراد استرجاعها جاءت كما هي ، لماذا ؟ لأنها صادفتْ العقلَ خالياً غير مشغول .

وتأمل عظمة الخـالق سبحـانه في مسألة التـذكُّر ، فالذاكـرة جزء صغير في المخ ، فكيف بالطفل الصغير الذي لا يتجاوز الثامنة يحفظ القرآن كـاملاً ويُعـيده عليك في أيِّ وقت ، ونحـن نتعجب من شريط التسجيل الذي يحفظ لنا حلقة أو حلقتين .

والقـرآن ليس حفظاً فـحسب ، إنمـا معـايشة ، فـحروف القـرآن ملائكة ، لكل حرف منه ملك ، والملك يحب مَنْ يودُّه ، فإذا كنتَ على صلة بالقـرآن تكثر من تلاوته ، فـكأنك تود الملائكة ، فـساعـة تريد استرجاع ما حفظت تراصتْ لك الملائكة ، وجرى القرآن على لسانك ، فإنْ هجرْته هجرك ، وتفلَّـت من ذاكرتك ؛ لذلك حذرنا رسول الله ﷺ من هجر القرآن ، فقال : « تعاهدوا الـقرآن ، فوالذي نفسي بيده لهو أشدُّ تفصياً[1] من الإبل في عقلها »[2] .

وسـبق أنْ قُلْنا : إن الذكـر هو العـبـادة الوحـيـدة التي لا تكلفك شيـئاً ، ولا تُعطل جارحـة من جوارحك ، ولا يحـتـاج منك إلى وقت ، ولا إلى مجهود ، وليس له وقت مخصوص ، فمَنْ ذكر الله قائماً وذكر

---

(١) تفصَّي مـن الشيء : تخلَّص . ومعنى قـوله ﷺ عن القرآن : « هو أشـد تفصيـاً من قلوب الرجال من النَّعم من عقلها » أي : أشد تفلتاً وخروجاً . [لسان العرب ـ مادة : فصى] .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٣/١) من حديث ابن مسعود ، وأخرجه مسلم في صحيحه (٧٩١) كتاب صلاة المسافرين من حديث أبي موسى الأشعري

الله قاعداً وذكر الله على جَنْبه عُدَّ من الذاكرين ـ هذا بالنسبة لوضعك ـ ومَنْ ذكر الله بُكْرة ، وذكر الله أصيلاً ، أو غدواً وعشياً ، أصبح من الذاكرين ـ هذا بالنسبة للزمان .

ومن قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ثلاثين مرة في اليوم كُتِبَ من الذاكرين ، ومَنِ استيقظ ليلاً فأيقظ أهله ، وصلَّى ركعتين فهو من الذاكرين .

إذن : فذكْر الله مسألة سهلة تستطيع أنْ تذكر الله ، وأنت تعمل بالفأس ، أو تكتب بالقلم ، تذكر الله وأنت تأكل أو تشرب .. إلخ فذكر الله وإنْ كان أكبر إلا أنه على المؤمن سهل هيِّن .

وقوله تعالى ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢)﴾ [الأحزاب] التسبيح هو التقديس ، والتقديس هو التنزيه ، فعن أيِّ شيء نُنزه الله ؟ قالوا : ننزه الله في ذاته ، وفي أفعاله ، وفي صفاته ، فالله تعالى له وجود ، ولك أنت وجود ، وللنهر وللجبل وجود ، لكن وجوده تعالى ليس كوجود ما سواه ، وجوده تعالى عن غير عدم ، أما وجود ما سواه فوجود عن عدم ، هذا في الذات .

أما في الأفعال ، فالله تعالى له فِعْل كما أن لك فعلاً ، لكن نزِّه ربك أنْ يكون فعله كفعلك ، وهذا ما قلناه في حادثة الإسراء والمعراج ، وفي الفرق بين سَرَى وأسرى به ، فإذا كان الفعلُ لله تعالى فلا تنظر إلى الزمن لأنه ليس فعلك أنت ، بل فِعْل الله ، وفعل الله بلا علاج ، إنما يقول للشيء : كُنْ فيكون .

وقلنا : إنه حتى في طاقات البشر نجد الفعل يأخذ من الزمن على قدر قوة فاعله ، فالولد الصغير ينقل في ساعة ما ينقله الكبير في

دقيقة ، فلو قستَ فعلَ الله بقدرته تعالى وجدتَ الفعل بلا زمن .

كذلك نُنزه الله فى صفاته ، فالله تعالى له سمع نُزّه أن يكون كسمعك ، وله وجه نُزّه أنْ يكون كوجهك .. إلخ كل هذا فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]

وحين تستعرض آيات التسبيح فى القرآن تجدها كثيرة ، لكن للتسبيح طابع خاص إذا جاء فى استهلالات السور ، ففى أول الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء]

فبدأت السورة بتنزيه الله لما تحتويه من أحداث عجيبة وغريبة ؛ لذلك قال بداية ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء] فالله له التسبيح والتقديس ثابت قبل أنْ يفعل ، وسبحان الله قبل أنْ يوجد المسبِّح ، كما أنه تعالى خالق قبل أنْ يوجد مَنْ خلق ، فهو بالخالقية فيه أولاً خلق ، كما قلنا فى الشاعر : تقول فلان شاعر ، هل لأنك سمعت له قصيدة أم هو شاعر قبل أن يقولها ؟ هو شاعر قبل أنْ يقولها ، ولولا أنه شاعر ما قال .

والمتتبع لألفاظ التسبيح في القرآن يجد أنه ثابت لله تعالى قبل أن يخلق المسبِّحين فى قوله ﴿ سُبْحانَ الَّذى أَسْرَىٰ بِعَبْده .. ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء] ثم بعد أن خلق الله الخَلْق ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الحشر]

وما يزال الخلق يُسبِّح فى الحاضر : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ﴿١﴾ ﴾ [الجمعة] فتسبيح الله كان وما يزال إلى قيام الساعة ، لذلك يأمر الحق سبحانه نبيه ﷺ ومعه أمته ألاَّ يخرج عن هذه المنظومة المسبِّحة ، فيقول له :

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴿١﴾ ﴾ [الأعلى]

وجاء الأمر بذكر الله وبعد الأمر بتسبيحه تعالى ، وكأنه يقول لك كلما ذكرته : نزِّهه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً ، فمن مصلحتك في رحلة الحياة ألاَّ يكون لله مثيل ولا شبيه ولا نظير ولا نِدٌّ ؛ لأن الجميع سيكونون تحت عَدْله سبحانه ، فتنزيه الله لمصلحتك أنت أيها المسبِّح .

وسبق أنْ ذكرنا في ذلك قول أهل الريف (اللي ملوش كبير يشترى له كبير) ، فوجود كبير فوق الجميع يحميك أنْ يتكبر أحد عليك ، إذن : عظمته تعالى وكبرياؤه من أعظم النعم علينا ، فساعة تُسبِّحه وتُنزِّهه احمد الله لأنه مُنزَّه ، احمد الله أنه لا شريكَ له ، وأن الناس جميعاً عنده سواء ، احمد الله لأن كلامه وأمره نافذ على الجميع ، احمد الله أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وليس بينه وبين أحد من خَلْقه نَسَب .

وكيف لا نذكر الله ولا نُسبِّحه ونحمده ، وهو سبحانه الذى خلق الخَلْق ، وقبل أنْ يخلقهم رتَّب لهم غاياتهم - والخَلْق : إيجاد على تقدير لغاية - بل وأعدَّ لهم ما يخدمهم ، فطرأ الإنسان على كون مُعَدٍّ لاستقباله ، فقبل أنْ يخلقه خلق له .

ثم ما كلفك بمنهجه مباشرة ، إنما تركك تربع في نعمه ، منذ ميلادك إلى سِنِّ البلوغ بدون تكليف ، ومعنى البلوغ أنْ تصل سِنَّ الرشد فتُقبل على الله بعقل وفكر ، فالدين ليس تقليداً إنما عقيدة واقتناع .

وسبق أنْ شبَّهنا نضج الإنسان بنضج الثمرة ، فالثمرة لا تحلو إلا حين تنضج بذرتها ، وتصير صالحة للإنبات إنْ زُرِعت ، وهذه من عظمة الخالق سبحانه ، ولو أن الثمرة تحلو وتستوى قبل نُضْج

بذرتها لأكلنا الثمار مرة واحدة ، ولما انتفع بها أحد بعدنا ، ومثَّلنا لذلك ببذرة البطيخ إن وجدتها سوداء صلبة فاعلم أن ثمرتها استوت وحلَتْ وصارتْ صالحة للأكل ، وهذه المسألة جعلها الخالق سبحانه لحفظ النوع .

شيء آخر : بعد أن بلغتْ سنَّ التكليف ، أجاءك التكليف مستوعباً لكل حركة في حياتك ؟ أجاء قَيْداً لك ؟ حين تتأمل مسائل التكليف تجدها في نطاق محدود أمرك الله فيه بافعل كذا ولا تفعل كذا ، وهذه المنطقة لا تشغل أكثر من خمسة في المائة من حركة حياتك ، وترك لك نسبة الخمسة والتسعين أنت حُرٌّ فيها ، تفعل أو لا تفعل ، فأيُّ عظمة هذه ! وأيُّ رحمة التي يعاملنا بها ربنا عز وجل ! وهذا إنْ دلَّ فإنما يدلُّ على حبِّ الخالق سبحانه لخَلْقه وصنعته . أفلا يستوجب ذلك منَّا ألاَّ نغفل عن ذكره ، وأن نكثر من تسبيحه وشكره ، في كل غدوة وعشية .

والأعظم من هذا كله أنه ـ سبحانه وتعالى ـ جعل ذِكْرك له وتسبيحك إياه لصالحك أنت ، وفي ميزانك ؛ لذلك قال في الآية التي بعدها :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾

معنى ﴿ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأحزاب] الصلاة هي الدعاء ، والدعاء لا يكون إلا بطلب الخير للداعي ، ولا يدعو إلا قادر على هذا الخير ، وعليه كيف نفهم هذا المعنى ؟ أيدعو ربنا نفسه تبارك

وتعالى ؟ قالوا : إذا كانت نهاية الصلاة طلبَ الخير ، وهذا الخير إذا طلب حصل ، فالحق سبحانه هو الداعى ، وهو الذى يملك مفاتح الخير كله ، فهو الذى يُصلِّى عليكم ، وهو الذى يعطيكم ، وهو الذى يرحمكم .

وأيضاً يُصلِّى عليكم الملائكة ﴿وَمَلائِكَتُهُ .. ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب] وقد أخبرنا سبحانه عنهم أنهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء]

وقال : ﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم]

والملائكة أقسام : منهم المكلفون بخدمتنا ومنافعنا فى الأرض ، ومنهم مَنْ يحفظنا من الأحداث التى قد تفاجئنا بإقدار الله لهم عليها ، ومنهم الحفظة والكرام الكاتبون ، وهؤلاء الملائكة المتعلقون بنا هم الذين أمروا بالسجود لآدم عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر]

وهذا دليل على أنهم سيكونون فى خدمته .

وكأن الله تعالى قال لإبليس : طلبتُ منك أنْ تسجد لآدم ، وطلبت من الملائكة وأنت معهم ، فإنْ كنتَ من الملائكة فينبغى أن تستجيب ، وإنْ لم تكُنْ من الملائكة وحشرتك بطاعتك فى زمرتهم كان يجب عليك أنْ تطيع لأنَّ الأعلى منك سجد .

وقد أوضحنا هذه المسألة بمثَل ، ولله تعالى المثل الأعلى قُلْنا : إذا أعلن فى أحد الدواوين الحكوميَّة أن الرئيس سيزور هذا الديوان يوم كذا ، وعلى الوزراء أنْ يصطفُّوا لتحيته ، ألم يشمل هذا الأمر وكلاء الوزارة من باب أوْلَى ؟

فإذا قال الله للملائكة : اسجدوا لآدم وكان معهم إبليس وهو أقلّ منهم ، فكان عليه أنْ يسجد . ثم إنْ كنتَ يا إبليسُ أخذتَ منزلة أعلى من الملائكة بالطاعة ، فلا بُدَّ أنْ تكون طاعتك لله على هذه المنزلة ، فأنت مَلُوم على أيّ حال ، إلا أنه كان من الجن ، والجن مختار ، ففسق عن أمر ربه .

وهناك نوع آخر من الملائكة لا دخلَ لهم بالإنسان ولا بدنياه ، وهم الملائكة العالون أو المهيَّمون ، وهم الذين قال الله فيهم لما أبى إبليس أنْ يسجد قال له ربه :

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) ﴾ [ص]

وهؤلاء العالون لم يشملهم الأمر بالسجود ؛ لأنهم لا يدرون شيئاً عن آدم ، وليس لهم علاقة به ، وأخصُّهم حَمَلَة العرش وهم أكرم الملائكة ، وهؤلاء هم الذين يُصلُّون عليكم بعد أنْ صلَّى الله عليكم ؛ لذلك يُبيِّن لنا الحق سبحانه هؤلاء الملائكة ودورهم في الصلاة علينا والاستغفار لنا ، فيقول سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا .. (٧) ﴾ [غافر]

فهؤلاء هم أخصُّ الملائكة وأكرمهم يُسبِّحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، لكن ما فائدة (يؤمنون به) بعد أن سبَّحوه ؟ قالوا : لأن التسبيح قد يكون عن خوف ورهبة ، أما تسبيح هؤلاء فتسبيح عن حبٍّ وعن إيمان ، وأنه سبحانه وتعالى يستحق أنْ يُسبَّح ، ومن مهام هؤلاء أيضاً أنهم يستغفرون للذين آمنوا ، وإنْ لم تكن لهم علاقة

بالناس وليسوا في خدمتهم ، إلا أنهم يُصَلُّون عليهم ويستغفرون لهم .

إذن : نقول الصلاة من مالك الدعوة القادر على الإجابة رحمة وعطف وحنان ، والصلاة مِمَّنْ دونه دعاء للقادر المالك للخير ، فهم يدعون الله للمؤمنين ويستغفرون الله لهم ، بل ويبالغون في الدعاء ويتعطَّفون فيه : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧)﴾ [غافر]

بل لم يقفوا عند حدِّ طلب النجاة للمؤمنين من النار ، إنما يطلبون لهم الجنة ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨)﴾ [غافر]

ثم يزيدون على ذلك ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)﴾ [غافر]

ووالله ، لو أراد المؤمن أنْ يدعو لنفسه ما وجد أعمَّ ولا أشمل من دعاء الملائكة له ، فبعد أنْ طلبوا له المغفرة والنجاة من النار لم يتركوه هكذا في أهل الأعراف ، لا هُمْ في الجنة ، ولا هُمْ في النار ، إنما سألوا الله لهم الجنة عملاً بقوله تعالى : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥)﴾ [آل عمران]

وهذه المسألة من المسائل التي وقف أمامها المستشرقون ، فقالوا : إنها تتناقض مع الحديث النبوي : « ما من يوم تطلع شمسه إلا وينادي ملكان يقول أحدهما : اللهم أعْطِ مُنفقاً خَلَفاً ، ويقول

الآخر : اللهم أعْط مُمسكا تلفا »[1] ، فكيف تقولون : إن الملائكة يدعون للناس بالخير وهم يدعون عليهم بالشر ؟

وهم معذورون في اعتراضهم ؛ لأن ملكاتهم لا تستطيع فَهْم المعاني في الحديث الشريف ، والتناقض في نظرهم في قوله ﷺ : « ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا » ، فالأولى واضحة لا تناقض فيها ؛ لأنها دعوة بالخير ، أما الثانية فهي دعوة بالشر . « اللهم أعْط ممسكا تلفا » .

ولو تأملوا نصَّ هذه العبارة لوجدوا فيها الجواب ، فالتلف يُعطى أم يؤخذ ؟ المفروض أنه يُؤخذ ، فحين يقول رسول الله : « اللهم أعط ممسكا تلفا » فاعلم أنه عطاء لا أَخْذٌ وإن كان في ظاهره تلفاً ، والمعنى أن شيئاً شغلك وفتنك فتصيبك فيه مصيبة تخلصك منه فتعود إلى ربك ، إذن : هو أَخْذ في الظاهر عطاء في الحقيقة .

ثم يبيّن لنا الحق سبحانه العلَّة في صلاة الله وصلاة الملائكة على المؤمنين ، فيقول ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (٤٣)﴾ [الأحزاب] فكأن منهج الله بافعل ولا تفعل هو أول صلاة الله علينا ؛ لأنه الوسيلة التي تُخرجنا من الظلمات إلى النور ، وجاء هنا بالشيء الحسيِّ لنقيس عليه المعنوي ، فأنت في النور ترى طريقك وتهتدي إلى غايتك بلا معاطب ، أمَّا في الظلام فتتخبط خُطَاك وتضلّ الطريق في الظلام ، تسير على غير هُدى ، وعلى غير بصيرة ، فتحطم الأضعف منك ، ويُحطِّمك الأقوى منك .

والنبي ﷺ يُوجّهنا حين ننام بالليل أنْ نطفيء المصابيح فيقول :

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

« وأطفئوا المصابيح إذا رقدتم »[1] وقد أثبت العلم أن للأنوار المضاءة أثناء النوم تأثيراً ضاراً على صحة الإنسان ، وأنه لا يرتاح في الضوء الراحة التامة لما يصيبه أثناء النوم من إشعاع الضوء ، كما حذرونا أيضاً من التعرُّض لأضواء التليفزيون مثلاً .

إذن : للنور مهمة ، وللظلمة مهمة ـ هذا في الحسِّيات .

كذلك منهج الله بافعل ولا تفعل هو النور المعنوى الذى يقيك العطب ، ويمنحك الإشراقات التي تهتدي بها في دروب الحياة ، لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأحزاب]

لكن إنْ كان سبحانه رحيماً بالمؤمنين ، فما بال الكافرين ؟ قالوا : هو سبحانه بالكافرين رحمن ، فالله تعالى رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ؛ لأن رحمن الدنيا يعني أن خيره يعُمُّ الجميع المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي ، أما في الآخرة فتتجلَّى صفة الرحيم ؛ لأن رحمته في الآخرة تخصُّ المؤمنين دون غيرهم .

والحق سبحانه حين يقول : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور] لا يعني هذا وَصْفاً لذاته سبحانه ، إنما يعني أنه سبحانه نور السموات والأرض أي : مُنوِّرهما كما نقول : المصباح نور المسجد .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بقول أبي تمام في مدح المعتصم:

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه (٣٢٨٠) من حديث جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال « إذا استجنح الليل ـ أو كان جنح الليل ـ فكفُّوا صبيانكم ، فإن الشياطين تنتشر حينئذ ، فإذا ذهب ساعة من العشاء فخلُّوهم وأغلق بابك ، واذكر اسم الله ، وأطفيء مصباحك ، واذكر اسم الله ، وأوْكِ سقاءك ، واذكر اسم الله وخمِّر إناءك ، واذكر اسم الله ولو تعرض عليه شيئاً » .

إقْدَامُ عَمرٍو فى سَمَاحَةِ حاتم   فى حِلْم أحْنفَ فى ذَكَاءِ إيَاسِ

وعمرو مضرب المثل عند العرب فى الشجاعة ، وحاتم فى الكرم ، وأحنف بن قيس فى الحلْم ، وإياس بن معاوية فى الذكاء . فقام إليه أحد الحاضرين وقال له ـ وكان حاقداً عليه ـ : أمير المؤمنين فوق ما تقول ، أتُشبِّهه بأجلاف العرب ؟ وأنشأ يقول :

وشبَّهه المدَّاح فى البَأْسِ والنَّدَى   بمَنْ لوْ رَآهُ كَانَ أصغَر خَادمِ

فَفِى جَيْشِهِ خَمْسُونَ ألْفاً كعنْتر   وفى خُزَّانهِ ألْفُ حَاتم

عندها أطرق أبو تمام هُنيهة ، ثم قال :

لاَ تُنكرُوا ضَرْبِى له مَنْ دُونَهُ   مَثَلاً شَرُوداً فى النَّدَى والبَاسِ

فَاللهُ قَدْ ضَربَ الأقَلَّ لِنُورِهِ   مَثَلاً من المشْكاةِ والنِّبراسِ

إذن : فالنور المعنوى يُجنِّبك العطب المعنوى ، كما أن النور الحسىَّ يُجنِّبك العطب الحسىَّ ؛ لذلك قال سبحانه عن نوره ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ.. (٣٥) ﴾ [النور] يعنى : نور حسىّ يقيكم المعاطب الحسية ، ونور معنوى يقيكم المعاطب المعنوية ﴿ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ .. (٣٥) ﴾ [النور] والمراد به هنا النور المعنوى الذى يهتدى به المؤمن ويسير عليه ، أما الكافر فهو لا يعرف إلا النور الحسىَّ فقط .

فإنْ سألت : فأين تجد هذا النور يا رب ؟ يُجيبك ربك : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ .. (٣٧) ﴾ [النور]

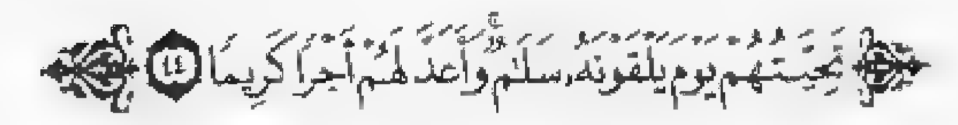
فإنْ أردتَ النور الحق فهو فى خَلْوتك مع ربك وفى بيته ، حيث تتجلَّى عليك إشراقاته ويغمرك نوره .

وقبل أن نترك مسألة صلاة الله وصلاة الملائكة على المؤمنين نذكر صلاتنا نحن على النبي ﷺ ، عملاً بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦)﴾ [الأحزاب]

فالصلاة من الله تعالى تعني الحنان والرحمة والعطف ، والصلاة من الملائكة تعني الدعاء والطلب من الذي يملك ، أما الصلاة منا نحن على سيدنا رسول الله ، فالبعض يظن أنها دعاء منا لرسول الله ، وهي ليست كذلك ؛ لأنك تقول في الصلاة على رسول الله : اللهم صلِّ على محمد ، فأنت لا تصلي عليه ﷺ ، إنما تطلب من الله تعالى أنْ يصلي عليه ، لكن كيف تطلب من الله أن يصلي على رسوله ؟ قالوا : لأن كل خير يناله الرسول منثور على أمته .

والحق سبحانه وتعالى لم يدع محمداً يصلي عليه كل مَنْ آمن به ، ثم لا يرد رسول الله عليه هذه التحية بصلاة مثلها ، فقال سبحانه : ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ .. (١٠٣)﴾ [التوبة] وكأنها ردٌّ للتحية ولصلاة المؤمنين على رسول الله ﷺ .

ثم يقول الحق سبحانه :



الكلام هنا عن الآخرة ، وهذه التحية ، وهذا السلام ليس منا ، ولكن من الله ، كما قال في موضع آخر ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨)﴾ [يس]

فالرحمة التي ننالها ، والعطف والحنان من الله لنا في الدنيا

يعنى : سداداً في حركة الحياة ، واستقامة في السلوك ، وراحة البال ، واطمئناناً للنفس ، لكن مع هذا لا تخلو الدنيا من مُنَغِّصات وأحداث تُصيبك ، أما رحمة الله في الآخرة فهي سلام تام لا يُنغِّصه شيء ، والإنسان أيضاً يتمتع بنعم الله في الدنيا ، لكن يُنغِّصها عليه خشية فواتها .

أما في الآخرة فيتمتع متعة خالصة ، لا ينغصها شيء ، فالنعمة دائمة باقية لا يفوتها ولا تفوته ، لقد كان في الدنيا في عالم الأسباب وهو الآن في الآخرة مع المسبِّب سبحانه الذي يقول : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

لكن ، ما المراد بقوله تعالى . ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ .. (٤٤)﴾ [الأحزاب] أيوم القيامة للثواب ، أمْ يوم يلقوْنه بالموت وبانتهاء الحياة ، كما نقول مثلاً في الموت : فلان لقي ربه ؟ قالوا : المؤمن لا يأتيه ملَك الموت إلا إذا سلَّم عليه أولاً قبل أنْ يقبض روحه ، فإذا سلَّم عليه فهذا يعني أنه من أهل السلام ، وهذه أول مراتبه . وقد يكون المراد السلام التام الذي يلْقاه المؤمن يوم القيامة حيث يجد سلاماً لا مُنغِّصات بعده .

لذلك نجد أن سيدنا رسول الله ﷺ وهو يعاني سكرات الموت تقول له السيدة فاطمة لما رأتْ ما يعانيه واكرباه يا أبتاه ، فيقول لها « لا كرب على أبيك بعد اليوم »[1] فأيُّ كرب على رسول الله بعد أن ينتقل إلى جوار ربه ، إلى السلام النهائي الذي لا خوفَ بعده .

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه في سننه (١٦٢٩) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله قال لفاطمة عندما سمع مقالتها « لا كرب على أبيك بعد اليوم . إنه قد حضر من أبيك ما ليس بتارك منه أحداً ، الموافاة يوم القيامة » . وأصله في البخاري (٤٤٦٢) أنه قال « ليس على أبيك كرب بعد اليوم » .

ثم يقول سبحانه ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الاحزاب] فوصف الأجر نفسه بأنه كريم ، والذى يُوصَف بالكرم الذى أعدَّ الأجر ، فوصف الأجر بأنه كريم يعنى أن الكرم تعدَّى من الرب سبحانه الذى أعده إلى الأجر نفسه ، حتى صار هو أيضاً كريماً .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الاحزاب] فتعدَّى الكرم من الرازق إلى الرزق ؛ لأن الرزق فى الدنيا له أسباب بأيدى الخَلْق ، لكن الرزق فى الآخرة يأتيك بلا أسباب ، وليس لأحد فيه شىء ، ولماذا لا يُوصَف بالكرم وهو يأتيك دون سَعْى منك ، وبمجرد الخاطر تستدعيه فتراه بين يديك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾

الشاهد : هو الذى يؤيد ويُثْبِت الحق لصاحبه ؛ لذلك يطلب القاضى شهادة الشهود ليأتى حكمه فى القضية عن تحقيق وبيِّنة ودليل ؛ لذلك يقولون إن القاضى لا يحكم بعلمه ، إنما بالبينة حتى إنْ علم شيئاً فى حياته العامة ، ثم جاء أمامه فى القضاء يتركه ويتنحَّى عنه لقاضٍ آخر يحكم فيه حتى لا يبنى حكمه على علمه هو .

وحين تتأمل هذه المسألة تجد أن الله تعالى يريد أنْ يُوزِّع مسئولية الحكم على عدة جهات ، حتى إذا ما صدر الحكم يصدر بعد تدقيق وتمحيص وتصفية لضمان الحق .

فترى مثلاً إذا حدثتْ حادثة تذهب إلى القسم لعمل (محضر) بالحادث ، (المحضر) يحيله ضابط الشرطة إلى النيابة ، فتحيله النيابة للقاضي ليحكم فيه ، ثم يُعَاد مرة أخرى للسلطة التنفيذية ليُنفَّذ ، كل هذه الدورة يُراد بها تحرى الحق ووضعه فى نصابه .

فما بالك إذا كان الحق سبحانه هو الذى يشهد ، وهو الذى يحكم ، وهو الذى يُنفِّذ الحكم ؟ لا شكَّ أن العدالة هنا ستكون عدالة مطلقة . فإنْ قلتَ : إذن علاَم يشهد رسول الله ؟

قالوا : يشهد رسول الله أنه بلَّغ أمته ، كما يشهد الرسل جميعاً أنهم بلَّغوا أممهم كما قال سبحانه : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١)﴾ [النساء]

إذن : كل رسول شهيد على أمته ، وأنت شهيد على هذه الأمة أنك قد بلَّغتها ، لكن ميزتك على مَنْ سبقك من إخوانك الرسل أن تكون خاتمهم ، فلا نبيَّ بعدك ؛ ولذلك سأجعل من أمتك من يخلف الأنبياء الذين يأتون بعد الرسل فى مهمتهم .

لذلك جاء فى الحديث الشريف قول رسول الله ﷺ : « علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل »[1] .

إذن : ضمن الحق سبحانه فى أمة محمد أنْ يوجد فيهم مَنْ يقوم بمهمة الأنبياء فى البلاغ ، وهذا معنى ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ .. (١٤٣)﴾ [البقرة]

(١) قال الشوكانى فى « الفوائد المجموعة » (ص ٢٨٦) : « قال ابن حجر والزركشى : لا أصل له » . وكذا قال السيوطى فى « الدرر المنتثرة » (ص ٢٠٩) قال العجلونى فى كشف الخفاء (١٧٤٤) : « زاد بعضهم ولا يُعرف فى كتاب معتبر .. وأشار إلى الأخذ بمعناه التفتازانى وفتح الدين الشهيد وأبو بكر الموصلى والسيوطى فى الخصائص » .

وكلمة الناس هنا عامة ، تشمل آدم عليه السلام وذريته إلى قيام الساعة ، فإنْ قلتَ كيف ؟ نقول : يشهدون على الناس بشهادة القرآن أن الرسل قد بلَّغَتْ أممها ، هذا بالنسبة لمن مضى منهم ، أما مَنْ سيأتي فأنتم مطالبون بأن تشهدوا عليهم أنكم قد بلَّغتموهم ، كما يشهد عليكم رسول الله أنه قد بلَّغكم .

إذن : فأمة محمد أخذت حظاً من النبوة ، وهو أنها ستُستدعى وتشهد على الناس .

لذلك يُعدّ رسول الله ﷺ أمته لهذه المهمة ، فيقول : « نضَّر الله امرءاً ، سمع مقالتي فوعاها ، ثم أدَّاها إلى مَنْ يسمعها ، فرُبَّ مُبلَّغ أوعى من سامع »[1] .

واقرأ أيضاً في ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة] لماذا ؟ ﴿ لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣) ﴾ [البقرة] فهذه الأمة في الوسط ، بحيث لا إفراط ولا تفريط ، وما أشبهها بالميزان الذي لا تميل كفة عن الأخرى إلا بما يُوضَع فيها ، فهي كالميزان العادل الذي لا يميل هنا أو هناك .

وقوله سبحانه ﴿ وَمُبَشِّرًا .. (٤٥) ﴾ [الأحزاب] لمن استجاب لك بثواب الله ، والبشارة هي الإخبار بالخير قبل أوانه ﴿ وَنَذِيرًا (٤٥) ﴾ [الأحزاب] أي : منذراً لمن لم يُصدقك بعقاب الله ، والإنذار هو التخويف بشرٍّ لم يأت أوانه ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ .. (٤٦) ﴾ [الأحزاب] أي : بأمر منه ، لا تطوُّعاً من عندك ، فقد يأتي زعيم من الزعماء أو مصلح من

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٧/١) والترمذي في سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجة في سننه (٢٣٢) والحميدي (٤٧/١) من حديث عبد الله بن مسعود .

المصلحين بمنهج أو بأفكار من عنده ويبثُّها فى مجتمعه .

فقوله تعالى ﴿ بِإِذْنِهِ .. (٤٦) ﴾ [الأحزاب] يبين الفرق بين الرسول والمصلح من البشر ، فهذا الذى جاء به محمد من عند الله ، وما بلَّغكم به إلا بأمر الله .

ويُشترط فيمَنْ يدعو إلى منهج الخير ثلاثة شروط :

الأول : ألاَّ ينتفع بشيء مما يدعو إليه ، وهذا لا يوجد فى بشر أبداً ، وقد رأينا : حينما قنَّنَ الرأسماليون غَبَنُوا العمال ، وحينما قنَّنَ الاشتراكيون غبنوا الرأسماليين .. وهكذا .

وذلك لأن البشر لهم أهواء مختلفة متعددة ، وكلٌّ يريد أنْ يُقنِّن على هواه ، وبما يخدم مصالحه ، يريد أنْ يُسخِّر غيره لخدمة هواه ، وبعد فترة قد تطول تفضحهم التجارب ، ويفضحهم الواقع ، وتُظهِر لهم أنفسهم مساوىء ما قنَّنُوا حتى يثوروا هم على قوانينهم ، وينتقضوا على أنفسهم ، ويعودوا إلى تعديل هذه القوانين .

الشرط **الثانى** : أن يكون على علم بالأحداث المحتملة بعد أنْ يُقنِّن ، وألاَّ تغيب عنه جزئية من جزئيات الموضوع ، فيحتاج إلى تعديل القانون أو الاستدراك عليه .

ثالثاً : يُشترط فيمَنْ يُقنِّن أن يكون حكيماً فيما يُقنِّن ، بحيث يضع الأمر فى موضعه ، فلا ينصف جماعة على حساب أخرى ، وأن يكون الجميع أمامه سواء .

وحين تتأمل هذه الشروط الثلاثة تجدها لا تتوفر إلا فى الحق سبحانه وتعالى ، إذن : ينبغى ألاَّ يُقنِّن للبشر إلا ربُّ البشر ، وسبق

أنْ أوضحنا هذه المسألة بمثال من المحسوسات ، فالناس في الظلمة يحتاجون لبعض النور ؛ ليهتدوا به إلى قضاء مصالحهم في الليل ، فينير كلٌّ منا ليله بما يناسبه من وسائل الإضاءة ، فواحد يشعل شمعة ، وآخر لمبة (نمرة خمسة) وآخر لمبة (نمرة عشرة) ، وبعد ما استخدمنا الكهرباء رأينا اللمبة العادية والفلوروسنت والنيون والكرستال .. إلخ .

إذن : أنتم تنيرون ظلمتكم على قدر إمكاناتكم ، فإذا ما أشرقتْ شمس الصباح ، أتُبْقون على هذه الأنوار ؟ لا بل يطفيء الجميع أنواره ؛ لأن نور الشمس يأتي على قدر إمكانات خالقها عز وجل ، لذلك نقول : أطفئوا مصابيحكم ، فقد طلعت شمس الله ، فإذا كان ذلك في النور الحسيّ فهو أيضاً ومن باب أوْلَى في النور المعنوى ، فإذا جاءك نور التشريع ونور المنهج من الله ، فاطفيء ما عداه من تشريعات ومناهج .

وقوله تعالى : ﴿ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب] شبَّه الحق سبحانه نبيه ﷺ بالسراج ، ولا تستقلّ هذا الوصف في حقّ رسول الله ، فليس معنى السراج أنه كالسراج الذى يضيء لك الحجرة مثلاً ، إنما هو كالسراج الذى قال له عنه : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ ﴾ [النبأ] والمراد الشمس .

فإذا قُلْتَ : فلماذا لم يُوصَف النبى ﷺ بأنه شمس ، وقد قال تعالى عنها : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً .. ﴿٥﴾ ﴾ [يونس]

والشمس أقوى من السراج ؟ قالوا : الكلام هنا كلام ربٍّ والأسلوب دقيق معجز ، صحيح أن الشمس تنير الدنيا كلها ، إنما أمة محمد مُكلَّفة أن تقوم بدعوته من بعده ، فكان رسول الله سراج ،

والسراج تأخذ منه النور دون أنْ ينقص نورُه ، لكن لا تستطيع أنْ تأخذ من الشمس .

وحين سطعتْ أنوار الهداية على لسان رسول الله محمد لم يَعُدْ للشرائع الأولى أنْ تتدخل على حدِّ قول المادح :

كَأنَّكَ شَمْسٌ والملُوكُ كَواكِبٌ ... إذَا طلعَتْ لم يَبْدُ مِنْهُنَّ كوكَبُ

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ﴾

نقول في الدعاء : اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ؛ لأن العدل أن تأخذ الجزاء المساوى للعمل ، أو تأخذ حقك ، أمَّا الفضل فأنْ تأخذ فوق حقك وزيادة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس]

ويقول النبي ﷺ : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته »[2] لأنني حين أحسب عملي مقابل ما أعطاني ربي من نِعَم قبل أنْ أُخلق ، وإلى أن أبلغ وأُكلَّف ، أجد أنني لو قضيتُ حياتي كلها في طاعة ربي ما وفَّيتُ بحقه عليَّ .

---

(١) قال ابن عطية : قال لنا أبي رضي الله عنه : هذه أرجى آية عندي في كتاب الله تعالى ؛ لأن الله عز وجل قد أمر نبيه أن يبشر المؤمنين بأن لهم عنده فضلاً كبيراً ، وقد بيَّن تعالى الفضل الكبير في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الشورى] . [نقله القرطبي في تفسيره ٨/ ٥٤٧٠]

ثم من ناحية أخرى تجد أن العبادة والطاعة نفعُها يعود إليك أنت ، ولا ينتفع الله تعالى منها بشيء ، فإذا كانت الطاعة والعبادة يعود نفعها إليك ، إذن : فالثواب عليها يكون فضلاً من الله .

ومثَّلنا لذلك - ولله المثل الأعلى - بولدك تُشجِّعه على المذاكرة ، وتُحضر له أدواته ، وتنفق عليه طوال العام ، فإذا ما نجح آخر العام أعطيْتَه هدية أو مكافأة ، فهذه الهدية من باب الفضل .

لذلك ، إنْ أردتَ أنْ تصلح بين متخاصمين ، أو تُؤلِّف بينهما ، فقُلْ لهم : أتحبون أنْ أحكم بينكم بالعدل أم بالفضل ؟ سيقولون لك : ليس هناك أفضل من العدل ، وعندها لك أن تقول : بل الفضل أحسن من العدل ؛ لأن العدل أنْ تأخذ حقك من خصمك ، والفضل أنْ تترك حقَّك لخصمك لتأخذه من يد ربك عز وجل .

وهذا ما رأيناه مُطبَّقاً في قصة الإفك بين سيدنا أبي بكر حين عفا عن مسطح[1] بعد أن نزل قوله تعالى : ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢)﴾ [النور]

فمن أراد أنْ يغفر الله له ذنوبه فليغفر لأخيه زلَّته وسوْأتَهُ .

(١) هو : مسطح بن أثاثة بن عباس بن المطلب ، كان اسمه عوفاً ، أما مسطح فهو لقبه وأمه بنت خالة أبي بكر ، كان أبو بكر يمونه لقرابته منه ، فلما خاض مع أهل الإفك في أمر عائشة حلف أبو بكر ألا ينفق عليه فنزلت ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ .. (٢٢)﴾ [النور] فعاد أبو بكر إلى الإنفاق عليه . وقد توفي مسطح عام ٣٤ هـ في خلافة عثمان ويقال : مات عام ٣٧ هـ وشهد صفين مع علي . [الإصابة في تمييز الصحابة (٧٩٢٩)] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾

في أول السورة خاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .. ﴿١﴾ ﴾ [الأحزاب] وهنا خاطبه ربه بقوله : ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأحزاب] فالأولى كانت في بداية الدعوة ، حين أخذ الكفار يكيدون لرسول الله ، فما بالك وقد قويت الدعوة ، واشتد عودها ، لا بُدَّ أنْ يتضاعف كَيْد الكافرين لرسول الله .

لذلك يكرر له مسألة ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأحزاب] ولا يعني ذلك أنني سأسلمك ، إنما أنا وكيلك ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأحزاب]

فإنْ قلت : كيف والوكيل أقل من الأصيل ؟ نقول : لا ، فالأصيل ما وكَّل غيره ، إلا لأنه عجز أنْ يفعل ، فاختار الأقوى ليفعل له .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾

تتحدث الآية عن مسألة اجتماعية تخصُّ حفظ النوع ، وحفظ النوع الإنساني لا يتأتَّى إلا بالزواج ، وهو وسيلة التكاثر ، وأولى مراحل الزواج مرحلة الخِطْبة ، وكثيرون لا يفهمون معنى الخِطْبة وحدودها لكل من الرجل والمرأة ، فالخِطْبة مجرد أنْ يذهب طالب البنت إلى وليِّها ليقول له : أإذا تقدمتُ لطلب يد ابنتك أكون أهلاً للقبول ؟

فيقول وليُّها : مرحباً بك ، هذه تسمى خِطْبة ، وربما لا يتقدم ، فإنْ تقدَّم لها ، له أنْ يراها مرة واحدة بين محارمها ؛ لأن النبى ﷺ قال للشاب الذى أراد الخطبة : « انظر إليها ، فإنه أحْرَى أنْ يُؤْدَم بينكما »[1] .

وعجيب أنْ يخلط الناس بين الخِطْبة والعقد ، فيعطون الخِطْبة صفة العقد ، فإذا قبل الوليُّ الخاطبَ اتفق معه على المهر أو الشبكة وعلى كلِّ تفاصيل الزواج ، وأباح له أنْ يجلس مع ابنته ، وأنْ يتحدث معها ، وربما يختلي بها ، ويا ليتهم جعلوها عقداً ، فأخرجوا أنفسهم من هذا الحرج .

فالخطبة إنْ عدل عنها الخاطب ما عليهم إلا أنْ يذهب إلى وليِّ البنت فيقول له : لقد طلبتُ منك يد ابنتك وأنا في حلٍّ من هذا الأمر ، أما العقد فلا يُفسخ قبل الدخول إلا بالطلاق ، إذن : لا تجعلوها صورة خطبة وموضوعية عقد .

---

(١) عن المغيرة بن شعبة قال : خطبت امرأة فقال لى رسول الله ﷺ : أنظرت إليها ؟ قلت لا . قال « فانظر إليها ، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٢٤٥ ، ٢٤٦) ، والترمذى فى سننه (١٠٨٧) ، وابن ماجة فى سننه (١٨٦٥) قال البوصيرى فى الزوائد « إسناده صحيح ورجاله ثقات » .

والحق سبحانه وتعالى يُبيِّن لنا فى هذه الآية الكريمة ما يتعلَّق بأحكام الطلاق إنْ وقع قبل الدخول بالزوجة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا .. (٤٩) ﴾ [الأحزاب]

فالنكاح هنا مقصود به العقد فقط ، وإلا لو قصد به المعنى الآخر لما قال ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ .. (٤٩) ﴾ [الأحزاب] والمسُّ كناية عن الجماع ، وهو عملية دائماً يسترها القرآن بألفاظ لا تدل عليه حقيقةً .

والحكم هنا ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا .. (٤٩) ﴾ [الأحزاب] فليس للزوج على زوجته عدَّة إنْ طلَّقها[1] قبل أنْ يدخل بها ؛ لأن العدَّة إنما كانت لحكمة : فالعدة فى حالة الطلاق الرجعى تعطى للزوج فرصة أنْ يراجع زوجته ، وأنْ يعيدها بنفسه إلى عصمته ، والعدَّة تكون لاستبراء الرحم والتأكد من خُلُوِّه من الحمل ، وقد تكون العدَّة ، لا لهذا ولا لذاك ، ولكن لأنه تُوفِّى عنها[2] .

فالعدَّة قبل الدخول لها حكم ، وبعد الدخول لها حكم آخر ، وهذا الفرق يتضح كذلك فى مسألة المهر ، فقبل الدخول للزوجة نصف

---

(١) هذا إن طلقها قبل الدخول بها ، أما إذا توفى الزوج قبل أن يدخل بها فعليها العدة ولكن عدة المتوفَّى عنها زوجها كما لو كان قد دخل بها ، لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا (٢٣٤) ﴾ [البقرة] ، وإنما وجبت العدة عليها وإن لم يدخل بها وفاءً للزوج المتوفى ومراعاة لحقه . [فقه السنة ٢/٢٤٢] . وقال ابن قدامة فى المغنى (٩/٧٨) : « كل من توفى عنها زوجها ، ولا حمل بها ، قبل الدخول أو بعده ، حرة أو أمة ، فعدتها بالشهور » .

(٢) العدة مأخوذة من العد والإحصاء ، أى : ما تحصيه المرأة وتعده من الأيام والأقراء ، وهى اسم للمدة التى تنتظر فيها المرأة وتمتنع عن التزويج بعد وفاة زوجها ، أو فراقه لها [فقه السنه ـ الشيخ سيد سابق ٢/٢٤١] .

مهرها ، كما قال سبحانه : ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ .. (٢٣٧)﴾ [البقرة] وقال هنا : ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩)﴾ [الأحزاب] فإنْ سُمِّي المهر بين الطرفين فلها نصفه ، وإنْ لم يُسَمّ فلها نصف مهر المثْل .

أما العـدَّة بعد الدخـول ففيـها تفصـيل ، بحيث تختلف من حالة لأخرى بما يناسب الحـالة التى تشرع فيها العدَّة ، والعـدَّة كما قلنا : تدل على أنهـا شيء معـدود ، فإنْ كـانت المرأة من ذوات الحـيض ، فهـى ثلاث حيضـات ، ليتـأكد خـلالها استـبراء الرحم ، لكن الرحم يستبرىء من مرة واحدة ، فلماذا جعلها الله ثلاث حيضات ؟

قالوا : الـهدف من ذلك إعطاء الزوج فـرصة ، فـقد يراجع نفـسه وتهدأ نفسه ، فيراجع زوجته فى هذه المدة ، فالشرع هنا يراعى بناء الأسرة ، ألاَ ترى أن الحق سبحانه شرع التقاء الزوج بزوجته بكلمة : زَوِّجنى وزَوَّجتك ، أما فى حالة الطلاق والفراق بين الزوجين ، فجعله على ثلاث مراحل ؛ لأن الله تعالى يريد ألاَّ يجعل للغضب العابر سبيلاً لنقْض كلمة الله فى الزواج .

وأذكر أنهم كانوا يـسألوننا سؤالاً وكأنه لغز : أو يـعتدُّ الرجل ؟ أو : أو ليس للمـرأة عدَّةٌ عند الرجل ؟ قـالوا : نعم ، يعتـدُّ الرجل فى حـالة واحـدة وهى : إذا تزوج امـرأة ثـم طلقـهـا ، وأراد أن يتـزوج بأختها ، فعليه أن يمضى العدة ليحلَّ له الزواج بأختها .

أما عدَّة التى انقطع عنها الحيض فثلاثة أشهر ، وعدة الحامل أنْ تضع حملهـا ، أما عدة المـتوفَّى عنها زوجـها فأربعـة أشهر وعشرة أيام ، لكن ما الحكم إذا اجـتمع للمرأة الحـملُ مع وفاة الزوج ، فكيف تعتدُّ ؟ قالوا : تعتدُّ فى هذه الحالة بأبعد الأجلين : الحمل ، أو الأربعة أشهر وعشرة أيام .

ولك أنْ تسأل : لماذا كانت عِدَّة المطلَّقة ثلاثة أشهر ، وعِدَّة المتوفَّى عنها زوجها أربعة أشهر وعَشرة أيام ؟ قالوا : لأن هناك فَرْقاً بين الطلاق والوفاة بالنسبة لعلاقة الزوج بزوجته ، سببه أن الذى خلق الذكر والأنثى جعل هناك كلمة تجمعهما ، هذه الكلمة هى : زوِّجنى وزوَّجتُك شريطة أنْ تكون علانية على رءوس الأشهاد ، ولا تستهِنْ بهذه الكلمة ، فأنت لا تعلم ما الذى تصنعه هذه الكلمة فى ذرات التكوين الإنسانى ، ولكنك تعرفها بآثارها .

وقلنا : هَبْ أنك تعرضتَ لشاب تعوَّد معاكسة ابنتك مثلاً ، ماذا تصنع أنت ؟ لا شكَّ أنك ستثور ، ويفور دمك ، وتأخذك الغَيْرة ، وربما تعرضْتَ له بالإيذاء ، أما إنْ جاء من الباب ، وطلب يدها منك ترحب به وتسعد ويفرح الجميع ، فما الذى حدث ؟ وما الفرق بين الموقفين ؟ فالذى أهاجك أنه تلصَّص عليها من غير إذن خالقها ، لذلك يقول ﷺ : « اتقوا الله فى النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمان الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله »[1] .

ويقول رسول الله لرجل كان مشهوراً بالغيرة على بناته ، وقد جاء يدعو رسول الله ﷺ إلى زواج إحدى بناته ، فضحك رسول الله وقال : « جدع الحلال أنف الغيرة » .

فالعقد الذى يجمع الزوجين على كلمة الله يجعل الله به بين الزوجين سيَالاً حلالاً عند كل منهما ، ويلتقى هذان السيالان فى الحلال وتحت مظلة الشرع الذى جمعهما .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٢١٨) كتاب الحج ، وابن ماجة فى سننه (٣٠٧٤) ، وأبو داود فى سننه (١٩٠٥) من حديث جابر بن عبد الله ، فى حديث طويل فى حجة النبى ﷺ ، وهى حجة الوداع .

وعادة ما يصاحب الطلاق بُغْضٌ من الطرفين ، أو كُرْه من أحدهما للآخر ؛ لذلك تكون العدَّة بينهما ثلاثة أشهر أو وَضْع الحمل ؛ لأن الكراهية التى حدثتْ بينهما تميت خلايا الالتقاء بين الأنسجة ، وتُسرِع بانتهاء ما بينهما من سيال وتطمسه .

أما فى حالة موت الزوج ، فقد قطع النكاح قدرياً من الله ، فعادة ما تكون الزوجة مُحبَّة لزوجها ، حزينة على فَقْده ، وتأتى فاجعة الموت ، فتزيدها حُباً له ، وفى هذه الحالة ليس من السهل أنْ ينتهى السَّيَال بينهما ؛ لذلك يشاء الخالق سبحانه أنْ يطيل أمد العدَّة إلى أنْ ينتهى هذا السَّيال الذى جمعهما ، فلا يدخل على سيال الرجل سيال جديد ، فيحدث صراع بين السيالين ؛ لذلك كانت عدَّة المتوفى عنها زوجها أطول من عدة المطلقة .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ .. (٤٩)﴾ [الأحزاب] يعنى : أن الطلاق قبل المسّ والدخول كان موجوداً كما هو موجود الآن ، ونحن نرى الطرفين أو أحدهما يتعجَّل العقد ، رغم أنه غير مُستعد لنفقات الزواج ، إنما يتعجله لمصلحة تعود عليه من هذا الارتباط .

وقد ذكر لنا التاريخ أن كثيراً من الأسر ، خاصة الأسر العربية الأصيلة كانت تفعل ذلك ، لكنهم لم يكونوا يسمحون للزوج فى هذه الحالة أنْ يختلى بالزوجة ، وإنْ كان عاقداً عليها ، وبعض فتياتنا لهن قصص مُشرِّفة فى هذه المسألة .

ومما رُوِى فى هذا الصدد قصة بهيثة بنت أوس بن حارثة الطائى والحارث بن عوف ، وهو سيد من سادات بنى مُرَّة ، وكان للحارث ابن عوف صديق اسمه ابن سنان ، وفى ليلة جلس الحارث يتسامر

مع صديقه ابن سنان فقال له : ترنى لو أننى خطبتُ إلى أحد من العرب ابنته أيردّني ؟ قالها وهو مُعْتَزٌّ بنفسه فخور بسيادته على قومه .

فلما رآه صاحبه على هذه الحالة قال له : نعم هناك مَنْ يردُّك ، قال : مَنْ ؟ قال : أوس بن حارثة الطائى ، فنادى الحارث على غلامه وقال : أحضر المراكب ، وهيا بنا إلى أوس بن حارثة الطائى ، فذهبوا إليه ، فوجدوه جالساً فى فناء بيته ، فلما رآه أوس قال له : مرحباً بك يا حارث ، فأقبل عليه الحارث ، وقال . ويك يا أوس ، ما الذى جاء بك ؟ وتركه على دابته ـ قال : جئتُكَ خاطباً لابنتك ، فقال له : لستَ هناك ـ يعنى لستَ أهْلاً لها ـ فلوى الحارث زمام دابته منصرفاً ، فى حين بدا على ابن سنان الارتياح ؛ لأن كلامه صدق فى صاحبه .

فلما دخل أوس على امرأته سألته : مَنْ رجلٌ وقف معك فلم يُطل ولم ينزل ؟ قال : إنه الحارث بن عوف سيد من سادات بنى مُرَّة ، فقالت : ولماذا لم تستنزله عندك ؟ قال : لقد استحمق ـ يعنى : ارتكب حُمْقاً ـ قالت : وكيف هذا ؟ قال : إنه جاء يخطب ابنتى ، قالت : عجباً أو لا تريد أن تُزوِّج بناتك ؟ قال : بلى ، قالت : فإذا كنتَ لا تُزوِّجهن من سادات العرب ، فمَنْ تُزوِّجهن ؟ يا أوس ، اذهب فتدارك الأمر ، قال : كيف وقد فرطَ منى ما فرطَ ؟ قالت : الحقْ به ، وقُلْ له : إنك جئتنى وأنا مُغْضب من أمر لا دخْلَ لك فيه ، ولما راجعتُ نفسى جئتُك معتذراً أطلب منك أنْ تعود ، ولك عندى ما تحب .

فذهب الرجل ، فلم يجد الركْبَ ، فشدَّ على راحلته ، حتى صار بينهما فى الركْب ، فالتفت ابنُ سنان ، وقال : يا ابن عوف ، هذا

أوس يلحق بنا ، فقال : وماذا أصنع به امْضِ ، فناداه أوس : يا حارث : اربع[1] عليَّ ساعة ، يعني : انتظرني ـ ولك عندي ما تحب، ففرح الحارث وعاد معه .

عاد أوس إلى بيته ، وقال لامرأته : ادْعي ابنتك الكبرى ، فجاءت ، فقال : يا بُنيَّة إن الحارث بن عوف سيد بني مرة جاء ليخطبك ، فقالت : لا تفعل يا أبي ، فقال : ولم ؟ قالت : إنني امرأة في وجهي ردّة ـ يعني قُبْح يردُّ مَنْ يراني ـ وفي خُلُقي عُهْدة ـ أي عيب ـ وليس بابن عم لي فيرعى رحمي ، ولا بجَار لك في بلدك فيستحي منك ، وأخاف أنْ يكره مني شيئاً ، فيُطلِّقني فيكون عليَّ فيه ما تعرف . فقال لها : قُومي ، بارك الله فيك .

ثم قال لامرأته : ادْعي ابنتك الوُسْطى فجاءتْ ، فقال لها ما قال لأختها ، فقالت : لا تفعل يا أبي ، قال : ولم ؟ قالت : أنا امرأة خرقاء ـ يعني : لا تُحسن عملاً ـ وليست لي صناعة ، وأخاف أنْ يرى مني ما يكره فيُطلِّقني ، ويكون فيَّ ما يكون . فقال لها : قومي بارك الله فيك ، وادْعي أختك الصغرى ، وكانت هذه هي بُهَيْثة التي نضرب بها المثل في هذا الموقف .

لما عرض عليها أبوها الأمر قالت : افعل ما ترى يا أبي ، قال : يا بُنيَّتي ، لقد عرضتُه على أختيك فأبَتَاهُ ، قالت : لكني أنا الجميلة وجهاً ، الصَّنَاعُ يداً ، الرفيعة خُلُقاً ، فإنْ طلَّقني فلا أخلفَ اللهُ عليه ، فقال : بارك الله فيك . ثم قام إلى الحارث وقال : بُورِكَ لك يا حارث ، فإنِّي زوَّجتك ابنتي بهيثة ، فبارك الله لكما ، قال : وأنا قبلتُ زواجها .

---

(١) اربع على نفسك : كُفَّ وارفُق . كذلك معناه : انتظر . فهو بمعنى التوقف والانتظار . [لسان العرب ـ مادة : ربع] .

ثم قال لامرأته : هيِّئى ابنتك ، واصنعى لها فُسْطاطاً بفناء البيت ، ولما صُنِع الفسطاط حُملت إليه بهيئة ، ودخل عليها الحارث ، لكنه لم يلبث طويلاً حتى خرج ، فسأله ابنُ سنان : أفرغتَ من شأنك ؟ قال : لا والله ، يا بن سنان ، قال : ولم ؟ قال : جئتُ لأقترب منها . فقالت : أعند أبى وإخوتى ؟ والله لا يكون ذلك أبداً ، فخرجتُ .

فقال : ما دامتْ لا ترضى وهى عند أبيها وإخوتها ، فهيّا بنا نرحل ، فأمر بالرحيل ، وسار الركب بهم طويلاً ، ثم قال : يا بن سنان تقدَّم أنت - يعنى : أعطنا الفرصة - فتقدَّم ابن سنان بالركْب ، وانحاز الحارث بزوجته إلى ناحية من الطريق ونصب خيمته ، ثم دخل عليها فقالت له : ما شاء الله ، أتفعل بى كما يُفعل بالسُّبيَّة الأخيذة ، والأَمَة الجليبة ؟ والله لا يكون ذلك حتى أذهب إلى أهلك وبلدك ، وتذبح لى الذبائح ، وتدعو سادة العرب ، وتصنع ما يصنعه مثلك لمثلى .

الشاهد هنا - وهو درس لبنات اليوم - أنها لم ترْضَ لزوجها ، ولم تقبل منه فى بيت أبيها ، ولا فى الطريق ، ولم تتنازل عن شىء من عِزَّتها وكبريائها ، مع أنها زوجته .

وفعلاً تمَّ لها ما أرادت ، وذُبِحَتْ لها الذبائح ، ودُعى لها سادات العرب . فلما دخل عليها وحاول الاقتراب منها ، قالت : لقد ذكرتَ لى شرفاً ما رأيتُ فيك شيئاً منه ، فقال : ولم ؟ قالت : أتفرغُ لأمر النساء والعرب يقتلُ بعضُهم بعضاً - تريد الحرب الدائرة وقتها بين عبس وذبيان - اذهب فأصلِح بينهما ، ثم عُدْ لأهلك ، فلن يفوتك منى شىء ، فذهب الحارث وابن سنان ، وأصلحا بين عبس وذُبْيان ،

وتحمَّلا ديات القتلى ثلاثة آلاف بعير يُؤدُّونها في ثلاث سنوات ، ثم عاد إليها ، فقالت له : الآن لك ما تريد .

وهذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأحزاب] بظاهرها أعطتْ فهماً لبعض الناس الذين يريدون أن يتحلَّلوا من أحكام الدين في أشياء قد ترهقهم : فمثلاً الذي طلَّق امرأته ثلاث مرات ، واستوفى ما شُرِع له من مرات الطلاق حكمه أنه لا تحلُّ له زوجته هذه إلا بعد أن تنكح زوجاً غيره ، فيأتي مَنْ يقول ـ بناءً على الآية السابقة ـ ما دام النكاح هنا بمعنى العقد[1] فهو إذن كَاف في حالة المرأة التي طُلِّقت ثلاث مرات ، وأنها تحلّ لزوجها الأولِ بمجرد العقد على آخر .

ونقول : لكن فاتك أن رسول الله ﷺ فُوِّض من ربه بالتشريع وبيان وتفصيل ما جاء في كتاب الله من أحكام ، كما قال سبحانه مخاطباً نبيه :

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل]

فلو أن سُنَّة رسول الله لم تتعرَّض لهذه المسألة ، لكانَ هذا الفهم جائزاً في أن مجرد العقد يبيح عودة الزوجة لزوجها ثانية ، لكن الذي أناط الله به مهمة بيان القرآن وقال عنه : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا .. ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر]

إذن : فهو ﷺ له حَقُّ التشريع ، وقد بيَّن لنا المراد هنا في قوله

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٤٩٧/٣) : « هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة منها إطلاق النكاح على العقد وحده ، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها ، وقد اختلفوا في النكاح ، هل هو حقيقة في العقد وحده ، أو في الوطء ، أو فيهما ؟ على ثلاثة أقوال ، واستعمال القرآن إنما هو في العقد والوطء بعده إلا في هذه الآية ، فإنه استعمل في العقد وحده » .

تعالى : ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ .. ﴿٢٣٠﴾﴾ [البقرة]

فأبقى كلمة النكاح على أنها مجرد العقد ، ثم بيَّن المراد من ذلك ، فقال للرجل : « حتى تذوق عسيلته ، ويذوق عسيلتها »[1] إذن : تمام الآية لا يجيز لمن يقول : إن مجرد العقد يبيح للرجل أنْ يعيد زوجته التي طُلِّقَتْ ثلاث مرات إلا بعد أن تذوق عُسَيْلته ، ويذوق عُسَيْلتها ، وهذه المسألة جعلها الله تأديباً للرجل الذي تعوَّد الطلاق ، وسَهُلَ عليه النطق به ، حتى صار على لسانه دائماً .

ومن رحمة الخالق بالخَلْق ، ومن حرصه - تبارك وتعالى - على رباط الأسرة أنْ أحلَّ المرأة للرجل كما قلنا بكلمة زوِّجني وزوَّجتك ، لكن عند الفراق لم يجعله بكلمة واحدة ، إنما جعله على مراحل ثلاث ؛ ليُبقي للمودة وللرحمة بين الزوجين مجالاً ، فإنِ استنفد الزوج هذه الفرص ، وطلَّق للمرة الثالثة فلا بُدَّ أن نحرق أنفك بأنْ تتزوج امرأتُكَ من زوجٍ غيرك زواجاً حقيقياً تمارس فيه هذه العملية ، وهي أصعب ما تكونُ على الزوج .

ونلحظ هنا أن دقَّة التشريع أو صعوبته في كثير من المسائل لا يريد الله منه أنْ يُصعِّب على الناس ، وإنما يريد أن يرهِّب من أنْ تفعل ذلك ، يريدك أنْ تبتعد عن لفظ الطلاق ، وألاَّ تلجأ إليه إلا عند الضرورة القصوى .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٤٣٣) كتاب النكاح - باب ١٧ من حديث عائشة أن امرأة رفاعة القرظي جاءت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ، كنت عند رفاعة فطلقني فبَتَّ طلاقي فتزوجت عبد الرحمن بن الزبير ، وإن ما معه مثل هدبة الثوب (وفي رواية زيادة : وأخذت بهدبة من جلبابها) فتبسَّم رسول الله ﷺ ، فقال : « أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة ، لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك » .

لذلك يُعلِّمنا سيدنا رسول الله فيقول : « إن أبغض الحلال عند الله الطلاق »[1] ، فالذين يعترضون على الطلاق في شرعنا ، ويتعجَّبون كيف يفارق الزوجُ زوجته بعد العشْرة الطويلة والحب والمودة يفارقها بكلمة ، وفاتَ هؤلاء أن الطلاقَ وإنْ كان الأبغض إلا أنه حلالٌ ، ويكفي أن الله تعالى جعله على مراحل ثلاث ، وجعله لا يُستخدم إلا عند الضرورة ، وحذَّر الرجل أنْ يتساهل فيه ، أو يُجرِيه على لسانه ، فيتعوَّده .

ونلحظ أن الحق سبحانه خصَّ المؤمنات في قوله : ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ .. ﴿٤٩﴾﴾ [الأحزاب] مع أن المؤمن يُبَاح له أنْ يتزوج من الكتابية[2] ، مسيحية كانت أو يهودية ، فكأن في الآية إشارةً لطيفة لمن أراد أنْ يتزوج فليتزوج مؤمنة ، ولا يُمكِّن من مضجعه إلا مؤمنة معه ، وهذا احتياط في الدين ، فالمؤمنة تكون مأمونة على حياته وعلى عِرْضه ، وعلى أولاده وماله ، فإن غير المؤمنة لا تُؤتمن على هذا كله .

وقد رأينا بعض شبابنا الذين ذهبوا إلى بلاد الغرب ، وتزوجوا من أجنبيات ، وبعد الزواج ظهرت النكبات والمصائب ، فالأم لا تنسى أنها يهوديةٌ أو نصرانية ، وتبثّ أفكارها ومعتقداتها في الأولاد ، إذن : فعلى المؤمن أنْ يختار المؤمنة ؛ لأنها مؤتمنة عليه وعلى بيته .

وأذكر حين سافرنا إلى الخارج ، كنا نُسْأل : لماذا أبحتُم لأنفسكم

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٠١٨) ، وأبو داود في سننه (٢١٧٨) من حديث عبد الله بن عمر .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٣/٤٩٧) : « قوله تعالى (المؤمنات) خرج مخرج الغالب إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في ذلك بالاتفاق » وانظر أيضاً « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن » (ص ٤٣٠) .

أنْ تتزوجوا الكتابية ، ولم تبيحوا لنا أن نتزوج المسلمة ؟ وكان بعض الآباء يأتون ببناتهم اللائي وُلِدْن في ألمانيا مثلاً ، وكانت البنت تُحاج والدها بهذه المسألة ، لماذا لا أتزوج ألمانياً كما تزوجْتَ أنت ألمانية ؟

فكنا نرد على بناتنا هناك : بأن المسلم له أن يتزوج كتابية ؛ لأنه يؤمن بكتابها ، ويؤمن بنبيِّها ، لكن كيف تتزوجين أنت من الكتابي ، وهو لا يؤمن بكتابك ، ولا يؤمن بنبيك ؟ إذن : فالمسلم مُؤْتَمن على الكتابية ، وغير المسلم ليس مُؤتمناً على المسلمة .

وقوله تعالى : ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [الأحزاب] وفي موضع آخر قال سبحانه في نفس هذه المسألة : ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ .. ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة]

ويمكن أنْ نُوفِّق بين هاتين الآيتين بأن الأولى نزلتْ فيمَنْ لم يُفْرض لها مهر ، والثانية فيمَنْ فُرِض لها مهر ، التي لم يُفرض لها مهر لها المتعة ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ .. ﴿٤٩﴾﴾ [الأحزاب] والتي فُرض لها مهر لها نصفه ، فكل آية تخصُّ وتعالج حالة معينة ، وليس بين الآيتين نَسْخ .

وبعض العلماء يرى أنه لا مانع ، إنْ فُرِضَ لها مهر أنْ يعطيها المتعة فوق نصف مهرها ، وهذا رأي وجيه ، فالعدل أنْ تأخذ نصف ما فُرِض لها ، والفضل أنْ يعطيها المتعة فوق هذا النصف ، وينبغي أنْ تبنى المعاملات دائماً على الفضل لا على مجرد العدل ، وربنا عز وجل يُعلِّمنا ذلك ، حين يعاملنا سبحانه بفضله لا بعدله ، ولو عاملنا بالعدل لهلكنا جميعاً .

لذلك جاء في دعاء الصالحين : اللهم عاملْنَا بالفضل لا بالعدل ، وبالإحسان لا بالميزان ، وبالجبر لا بالحساب . نعم ، فإن لم يكُنْ في الآخرة إلا الحساب ، فلن يكسب منا أحدٌ ، وقد ورد في الحديث : « مَنْ نُوقشَ الحساب عُذِّب »[1] .

ويقول سبحانه : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس]

فالفرح لا يكون إلا حين يشملك فضلُ الله ، وتعمُّك رحمته ، وفي الحديث الشريف : « لن يدخل أحدٌ الجنةَ بعمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أنْ يتغمدني الله برحمته »[2] .

فإنْ قُلْتَ : فكيف نجمع بين هذه النصوص من القرآن والسنة ، وبين مكانة العمل ومنزلته في مثل قوله تعالى : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) ﴾ [النحل]

قالوا : صحيح أن للعمل منزلته وفضله ، لكنك حين تعبد الله لا تُقدم لله تعالى خدمة بعبادتك له ، إنما الخدمة مُقدَّمة من الله لك في مشروعية العبادة ، وإلا فالله تعالى بكل صفات الكمال خلقك وخلق الكون كله لك ، فإنْ كلَّفك بعد ذلك بشيء ، فإنما هو لصالحك ، كما تكلف ولدك بالجد والمذاكرة .

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ حوسب يوم القيامة عُذِّب » . فقال عبد الله بن أبي مليكة . أليس قد قال الله عز وجل : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) ﴾ [الانشقاق] ، فقال : ليس ذاك الحساب ، إنما ذاك العرض ، من نوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٧٦) قال النووي في شرحه : « معناه أن التقصير غالب في العباد ، فمن استقصى عليه ولم يُسامح هلك ودخل النار ، ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء » .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة . وتغمده الله برحمته : أدخله فيها وغمره بها [لسان العرب ـ مادة : غمد] .

ثم لو أنك وضعتَ عملك في كفَّة ، ونعَم الله عليك في كفة لما وفَّتْ أعمالك بما أخذْتَه من نِعَم ربك . إذن : إنْ أثابك بعد ذلك في الآخرة فإنما بفضله تعالى عليك ورحمته لك .

ومثَّلْنا لذلك - ولله تعالى المثل الأعلى - بقولك لولدك : لو نجحتَ آخر العام سأعطيك هدية أو مكافأة ، فمع أنه هو المستفيد من نجاحه إلا أنك تزيده ؛ لأنك مُحبٌّ له وتحب له الخير .

إذن : ينبغي أنْ نتعامل بهذه القاعدة ، وأنْ نتخلَّق بهذا الخلق ، خاصة في مثل هذه الحالة ، حالة الزوجة التي طُلِّقَتْ قبل الدخول بها .

فإنْ قُلْتَ : ولماذا تأخذ الزوجة التي طُلِّقت قبل الدخول بها نصف المهر والمتعة أيضاً ؟ نقول : هو عوَض لها عن المفارقة ، فإنْ كانت هي المُفَارقة الراغبة في الطلاق ، فليس لها شيء من المهر أو المتعة ، إنما عليها أنْ تردَّ على الزوج ما دفعه ، كما جاء في حديث المرأة التي جاءت رسول الله ﷺ تخبره أنها لا تريد البقاء مع زوجها ، فقال لها : « رُدِّي عليه ما دفعه لك »[1] وهذه العملية يسميها العلماء (الخُلْع) .

ثم بعد أن ذكر الحق سبحانه مسألة المتعة قال : ﴿ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٤٩) ﴾ [الأحزاب]

السَّرْح في الأصل : شجر له ثمر ، يوجد في البوادي ، ترعاه الماشية وتحبه ، فالكبيرة منها تأكل من أعلى الشجرة ، أما الصغيرة

---

(١) عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ، ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين ، ولكني أكره الكفر في الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : أتردين عليه حديقته ؟ قالت : نعم . قال رسول الله ﷺ : اقبل الحديقة وطلِّقها تطليقة . أخرجه البخاري في صحيحه (٥٢٧٣) ، وابن ماجه في سننه (٢٠٥٦) من حديث ابن عباس . وقد صرَّح بتسمية امرأة ثابت ، فهي جميلة بنت سلول ، وفي رواية أخرى (٢٠٥٧) أنها حبيبة بنت سهل .

فيتعهدها الراعي إنْ كان عنده دقة رعاية ، بأنْ يضرب بعصاه غصون الشجرة ، فتتساقط منها بعض الأوراق ، فيأكلها الصغار[1] .

ومن ذلك قوله تعالى عن عصا موسى عليه السلام : ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) ﴾ [طه]

ورُوى أن سيدنا عمر مرَّ على راعٍ فقال له : يا راع ، فنظر الراعي إلى أمير المؤمنين ، وقال : نعم يا راعينا ـ يعني : أنا راعي الغنم وأنت راعي الراعي ، فكأنه لا يتكبر راعٍ على راعٍ ـ فقال عمر : يا هذا في الأرض التي تبتعد عنك كذا وكذا سَرْحٌ أجمل من هذا وأخصب ، فاذهب إليه بماشيتك .

وهذا درس في تحمُّل مسئولية الرعية والحرص عليها ، وكان عمر رضي الله عنه خير مَنْ تحمَّل هذه المسئولية ، فيُرْوى أن سيدنا عمر وسيدنا عبد الرحمن بن عوف رأيا جماعة من التجار عابري السبيل يلجئون إلى المسجد للمبيت فيه ، منهم مَنْ يحمل بضاعته ، ومنهم مَنْ يحمل ثمن بضاعة باعها ، فخافا أن يجترىء عليهم أحد فيسرقهم ، فبات عمر وعبد الرحمن يتسامران حتى الفجر لحراسة هؤلاء العابرين .

وحتى الآن ، في الفلاحين يقول الذاهب في الصباح إلى الحقول (نسرَحْ) وللعودة آخر النهار (نروح) ، ثم تُدوول هذا اللفظ فأُطلق على كل خروج إلى شيء ، ومن ذلك نقول : أعطني التسريح ، فكأني كنت محبوساً فسمح لك بالخروج ، ومن ذلك تسريح الزوجة .

لكن تسريح الزوجة وصفه الله تعالى بقوله ﴿ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩) ﴾

---

(١) الذي في لسان العرب لابن منظور (مادة . سرح) أن السرح : شجر كبار عظام طوال ، لا يُرعى وإنما يُستظل فيه ، لا ينبت في رمل ولا جبل ، ولا يأكله المال (الأنعام) إلا قليلاً ، له ثمر أصفر

[الاحزاب] وكل شيء وُصف في القرآن بالجمال له مزية في ذاته ، كما في ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. ⁽١٨⁾﴾ [يوسف] وتسريح الزوجة عادة ما يصاحبه غضب وانفعال ، فينبغي أنْ يكون التسريح جميلاً لا عنفَ فيه ، كأنْ يُطيِّب خاطرها بقوله : هذا قدرنا ، وارجو الله أن يُعوِّض عليك بخير مني أو غير ذلك ، مما يراه مناسباً لتخفيف الخطْب عليها ، ويكفي أن تتحمل هي ألم المفارقة ومصيبة الطلاق . وأيُّ جمال فيمَنْ يفارق زوجته بالسُّباب والشتائم ، ويؤذيها بأن يمنعها حقاً من حقوقها .

وهذه الآية عالجتْ قضية هامة من قضايا الأسرة : لأنها مرادة للحق سبحانه ، فالله تعالى خلق الإنسان الخليفة ، وهو آدم عليه السلام ، وخلق منه الزوجة ليُحقّق منهما الخلافة في الأرض ، لكن لماذا هذه الخلافة ؟ قالوا : ليستمتعوا بآثار قدرة ربهم وحكمته في كونه ، كما تسعد أنت حين تأتي لأولادك بما لَذَّ وطابَ من الطعام ، وتفرح حين تراهم يأكلون ويتمتعون بما جئتَ به ، تفرح لأنك عدَّيْتَ أثر قدرتك للغير - ولله تعالى المثل الأعلى - .

فما دام الحق سبحانه جعل الخليفة في الأرض ثم حدد مهمته ، فقال : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. ⁽٦١⁾﴾ [هود] إذن : لا بُدَّ أنْ يضمن لهذا الخليفة مُقوِّمات حياته ومُقوِّمات استبقاء هذه الحياة لا تكتمل إلا بمُقوِّمات بقاء النوع ، فإنه لن يعيش في الدنيا وحيداً لآخر الزمان .

واستبقاء الحياة يكون بالقوت ؛ لذلك فإن ربك عز وجل قبل أنْ يستدعيك إلى الوجود ، وقبل أنْ يخلقك خلق لك ، خلق لك الشمس والقمر والنجوم والكواكب والأرض والهواء والماء ، فأعدَّ للخليفة كل مُقوِّمات حياته .

واقرأ قول الله تعالى : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ

فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝ ﴾ [فصلت]

إذن : فمخازن القوت مملوءة ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝ ﴾ [الحجر] وما دام خالق البشر قدَّر لهم الأقوات مُقدَّماً ، فليس لك أن تقول « انفجار سكاني » قُلْ : إنك قصرْتَ في استنباط هذا القوت بما أصابك من كسل أو سوء تخطيط .

وتلحظ هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ۝ ﴾ [النحل]

ومن الكفر بنعمة الله سَتْرُها بالكسل والقعود عن استنباطها ، وقد يَشْقَى جيل بكسل جيل قبله ، لذلك لما تنبَّهنا إلى هذه المسألة ، وبدأنا نزرع الصحراء ونُعمِّرها انفرجتْ أزمتنا إلى حَدٍّ ما ، ولو بكَّرْنا بزراعة الصحراء ما اشتكينا أزمة ، ولا ضاقَ بنا المكان .

والحق سبحانه يُعلِّمنا أنه إذا ضاق بنا المكان ألاَّ نتشبثَ به ، ففي غيره سعة ، واقرأ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. ۝ ﴾ [النساء]

لذلك يخاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ ، حتى في الخلوة الليلية معه : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ .. ۝ ﴾ [المزمل] إلى أن يقول : ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ .. ۝ ﴾ [المزمل] والمرضى غير قادرين على العمل ، فعلى القادر إذن أنْ يعمل ليسُدَّ حاجته وحاجة غير القادر ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. ۝ ﴾ [المزمل]

إذن : قانون الإصلاح الذى جعله الله لحياة البشر يقوم على دعامتين : الضرب فى الأرض والسَّعْى فى مناكبها ، وفيه مُقوِّمات الحياة ، ثم نقاتل فى سبيل الله لبقاء الدعوة والمنهج ، فالأولى للقالب ، وبها نأكل ونشرب ونعيش ، والأخرى للقيم .

فإنْ قعدتْ الأمة أو تكاسلتْ عن أيٍّ من هاتين الدعامتين ضاعتْ وهلكتْ وصارتْ مطمعاً لأعدائها ؛ لذلك تجد الآن الأمم المتخلفة فقيرة، تعيش على صدقات الأمم الغنية ؛ لأنها كفرتْ بأنعم الله وسترتها ، ولم تعمل على استنباطها ، قعدتْ عن الاستعمار والاستصلاح .

أما الأغنياء فعندهم فائض لا يُعْطَى للفقراء ، إنما يُرْمى فى البحر ويُعدَم ، لتظل لهم السيادة الاقتصادية ، لذلك نستطيع أنْ نقول بأن شر العالم كله والفساد إنما يأتى بكفر نعم الله ، إما بسترها وعدم استنباطها ، أو بالبخل بها على غير الواجد .

ولأهمية القوت يأتى فى مقدمة ما يمتنُّ الله به على عباده فى قوله : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ ③ الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ④ ﴾ [قريش]

وكما ضَمِن الحق سبحانه للخليفة فى الأرض مُقوِّمات حياته ضَمِن له أيضاً بقاء نوعه ونَسْله ، وجعل ذلك بالزواج الذى شرعه الله؛ ليأتى النسل بطريقة طاهرة شريفة ، لا بطريقة خسيسة دَنسة ، وفَرْق بين هذا وذاك ، فالولد الشرعى تتلقفه أيدى الوالدين وتتباهى به ، أما الآخر فإذا لم تتخلَّص منه أمه وهو جنين تخلصت منه بعد ولادته ، لأنه عار عليها .

فالحق سبحانه شرع الزواج لطهارة المجتمع المسلم ونظافته وسلامته ، مجتمع يكون جديراً بأن يتباهى به سيدنا رسول الله يوم القيامة ، فقد ورد فى الحديث الشريف : « تناكحوا تناسلوا ، فإنِّى

مُبَاهٍ بكم الأمم يوم القيامة »[1].

ثم يقول الحق سبحانه[2]:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ[3] اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠) ﴾

---

(١) قال العجلوني في كشف الخفاء (١/٣٨٠) : « رواه عبد الرزاق والبيهقي عن سعيد بن أبي هلال مرسلاً بلفظ « تناكحوا تكثروا ، فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة » . وقد أخرج أبو داود في سننه (٢٠٥٠) من حديث معقل بن يسار قال . جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال ، وإنها لا تلد ، أفأتزوجها ؟ قال . لا . ثم أتاه الثانية فنهاه ، ثم أتاه الثالثة ، فقال « تزوجوا الودود الولود ، فإني مكاثر بكم الأمم » .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٣/٤٩٩) « هذه الآية عدل وسط بين الإفراط والتفريط ، فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته . فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى ، فأباح بنت العم والعمة ، وبنت الخال والخالة ، وتحريم ما فرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت » .

(٣) قال القرطبي في تفسيره (٨/٥٤٧٥) : « معلوم أنه لم يكن تحته أحد من بنات عمه ، ولا من بنات عماته ، ولا من بنات خاله ، ولا من بنات خالاته ، فثبت أنه أحلَّ له التزويج بهذا ابتداء » .

الحق - تبارك وتعالى - لم يخاطب نبيه محمداً ﷺ باسمه العلم أبداً ، كما خاطب غيره من الأنبياء فقال : يا نوح ، يا عيسى ، يا موسى ، يا إبراهيم .. إلخ ، أما رسول الله ، فناداه ربه بقوله ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] و ﴿يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ .. (٤١)﴾ [المائدة]

ونداء الشخص باسمه العلَم دليلٌ على أنه ليستْ له صفة مميزة ، فإنْ ملك صفة مميزة نُودِي بها تقول : يا شجاع ، يا شاعر .. إلخ ، الآن الجميع يشتركون في العَلَمية . إذن : فنداء النبي ﷺ بيأيها النبي ، ويأيها الرسول تكريم له ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] ما معنى ﴿أَحْلَلْنَا .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] هنا ما دام الحديث عن أزواجه ﷺ ؟ قالوا : معناها أنها كانت في منطقة مُحرَّمة ثم أحلَّها الله له أي : جعلها حلالاً ، وهذا المعنى يتضح بقوله تعالى بعدها ﴿اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ.. (٥٠)﴾ [الأحزاب] كأن رسول الله أخذ بالحلّ أولاً ، بدليل أنه آتى الأجر والمهر .

ولقد كان للعلماء وَقْفة عند تسمية المهر أجراً ، قالوا :كيف يُسمَّى المهر أجراً ، ومعنى الأجر في اللغة : جُعْلٌ على منفعة موقوتة يؤديها المُستأجَر للمُستأجِر ، أما النكاح فليس موقوتاً ، إنما من شروطه نية التأبيد والدوام ؟

وللجواب على هذه المسألة نقول : لا يصح أنْ تُؤخَذ الآيات ، منفصلة بعضها عن بعض ، إنما ينبغي أنْ تجمع الآيات الواردة في نفس الموضوع جنْباً إلى جنب ، ليأتي فهمها تاماً متكاملاً .

فالحق سبحانه يقول في موضع آخر مخاطباً نبيه ﷺ في شأن زوجاته : ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ .. (٥١)﴾ [الأحزاب] أي : تؤخر

استمتاعك بها ﴿وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ .. (٥١)﴾ [الأحزاب] أي : تضمها إليك .

إذن : ما دام لك أن ترجىء أزواجاً منهن وتمنعهن من القسمة ، ثم تضم غيرهن ، فكأن المنفعة هنا موقوتة . فناسب ذلك أن يُسمَّى المهر أجراً .

والحق سبحانه يعطى نبيه ﷺ في كل مراحل سيرته أزكى المواقف وأطهرها وأنبلها ، فقوله تعالى ﴿اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] دليل على أنه ﷺ ما انتفع بهن إلا بعد أنْ أدَّى مهرهن ، في حين أن للإنسان أنْ يسمى المهر ، ويدخل بزوجته دون أن يدفع من المهر شيئاً ، ويكون المهر كله أو بعضه مُؤخَّراً ، لكن تأخير المهر يعطى للمرأة حق أنْ تمتنع عن مضاجعته ، فإنْ سمحتْ له فهو تفضُّل منها . إذن : فرسول الله اختار أكمل شيء .

رسول الله ﷺ جاء ليُبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم ، وجعله ربه أُسْوة سلوكية في الأمور التي يعزُّ على الناس أن يستقبلوها ، فنفَّذها رسول الله في نفسه أولاً كما قلنا في مسألة التبني .

كذلك في مسألة تعدد الزوجات ، فرسول الله أُرسل والتعدد موجود عند العرب وموجود حتى عند الأنبياء السابقين ، لكن أراد الله أنْ يحدد هذا التعدد تحديداً يمتص الزائد من النساء ، ولا يجعله مباحاً في كل عدد ، فأمر رسوله أن يقول لأمته : مَنْ كان عنده أكثر من أربع فليمسك معه أربعاً ، ويفارق ما زاد عنهن ، في حين كان عنده ﷺ تسع زوجات .

فلو أن الحكم شمله ، فامسك أربعاً ، وسَرَّح خمساً لأصابهنَّ ضرر كبير ، ولصِرْنَ مُعلَّقات ؛ لأنهن زوجات رسول الله وأمهات

المؤمنين ، وليس لأحد أن يتزوج إحداهن بعد رسول الله .

إذن : الحكم يختلف مع رسول الله ، والعدد بالنسبة له أن يقتصر على هؤلاء التسعة بذواتهن ، بحيث لو ماتت إحداهن أو طُلِّقت فليس له أنْ يتزوَّج بغيرها ؛ لأن الله خاطبه بقوله : ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ .. (٥٢) ﴾ [الأحزاب]

وقد بيَّنا للمستشرقين الذين خاضوا في هذه المسألة أن رسول الله لم يُستثْنَ في العدد ، إنما استُثنى في المعدود ، حيث وقف عند هؤلاء التسع بذواتهن ، وليس له أنْ يتزوج بأخرى ، أما غيره من أمته فله أنْ يتزوج ضِعْف أو أضعاف هذا العدد ، شريطة ألاَّ يزيد عن أربع في وقت واحد .

وكلمة ﴿ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] جاءت قبل ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ.. (٥٢) ﴾ [الأحزاب] وقد ورد عن السيدة عائشة أنها قالت[1] : ما مات رسول الله حتى أبيح له أنْ يتزوج ما شاء ، فكيف ذلك ؟

قالوا : لأن الله تعالى أراد أنْ يعطى لرسوله تميُّز الوفاء لأزواجه ، فمع أن الله أباح له أنْ يتزوج بغيرهن ، إلا أنه ﷺ لم يفعل وفاءً لهُنَّ ، والرسول ﷺ يفعل ذلك لأنه كان إذا حُيِّي بتحية يُحيِّيَ بأحسن منها أو يردُّها بمثلها ، وقد رأى ﷺ من أزواجه سابقة خير حين خيَّرهُنَّ فاخترْنه وفضَّلْن العيش معه على زينة الدنيا ومتعها ، فكأنه يردُّ لهم هذه التحية بأحسن منها .

ومجيء ﴿ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] قبل ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٣٢١٦) ، والنسائي في سننه (٦/٥٦) من قول عائشة رضي الله عنها . قال الترمذي : هذا حديث حسن

النِّسَاءُ مِن بَعْدُ .. (٥٢)﴾ [الأحزاب] دليل على تكريم الرسول ومعاملته معاملة خاصة ، فالله قد أحل له قبل أنْ يُحرِّم عليه ، ومثال هذا التكريم قوله تعالى : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ .. (٤٣)﴾ [التوبة] فسبق العتاب بالعفو .

ونلحظ في قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] أن الأزواج جاءت بصيغة المذكّر ولم يقل زوجاتك ؛ لأن الزوج يُطلق على الرجل وعلى المرأة ، والزوج في اللغة هو الواحد المفرد ومعه غيره من جنسه ، وليس الزوج يعني الاثنين كما يعتقد البعض ، ومثلها كلمة (توأم) فهي تعني الواحد الذي معه غيره ، فكل منهما يُسمَّى توأماً ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ .. (١٤٣)﴾ [الأنعام]

ثم يقول تعالى : ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] نعرف أن ملْك اليمين يُقصَد به المرأة المملوكة ، وجاء قوله تعالى : ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ..(٥٠)﴾ [الأحزاب] احتياط ، فملْك اليمين بالنسبة لرسول الله جاء من طريق شرعي ، جاء من الفيء والمراد أسرى الحروب .

وقد باشر ﷺ عملية السَّبْي بنفسه ؛ لأن من الإماء حرائر أُخذْنَ عَنْوة أو سُرِقْنَ ، ومنهن من بيعتْ في سوق الرقيق على أنها أمَة ، وهذا ما رأيناه فعلاً في قصة سيدنا زيد بن حارثة ، إذن : فقوله تعالى ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] أي : أنك ملكتها ، وأنت واثق تمام الثقة أنها أمَة وَفَيءٌ أحله الله لك .

﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا

خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ .. (٥٠)﴾ [الأحزاب]

وكذلك أحلَّ الله لنبيه أنْ يتزوّج من بنات عمه ، أو بنات عماته ، أو بنات خاله ، أو بنات خالاته ، والعمومة : أقاربه من جهة أبيه ، والخئولة أقاربه من جهة أمه ، ونلاحظ أن رسول الله لم يتزوج لا من بنات عمه ، ولا من بنات عماته ، ولا من بنات خاله ، ولا من بنات خالاته .

والمعنى أن الله تعالى أحلَّ له أنْ يتزوَّج من هؤلاء ما وُجد ؛ لأن قرابته سيكونون مأمونين عليه ، ومعينين له على أمره .

وحين نتأمل هذه الآية نجد أن العم والخال جاءت مفردة ، في حين جاءت العمات والخالات جمعاً ، لماذا ؟ قالوا : لأن العم والخال اسم جنس ، واسم الجنس يُطلَق على المفرد وعلى الجمع ، بدليل أنك تجد اسم الجنس في القرآن يُستثنى منه الجمع ، كما في ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر]

فالإنسان اسم جنس مفرد ، واستثنى منه الذين آمنوا وهي جمع ، أما العمَّات والخالات فليستْ اسم جنس ؛ لذلك جاءتْ بصيغة الجمع المؤنث .

وأيضاً ، لأن العم صنْو الأب ، فعلى فرض أنهم أعمام كثيرون ، فهم في منزلة الأب ، واقرأ في ذلك قوله تعالى : ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ .. (١٣٣)﴾ [البقرة] فدخل العَمُّ في مُجْمل الآباء .

وكذلك سَمَّى العمُّ أباً في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ .. (٧٤)﴾ [الأنعام] ومعلوم أنه كان عمه .

وفي موضع آخر ، جاءت عم بصيغة الجمع ، وهو قوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور]

فجاءت العم والخال هنا بصيغة الجمع ، لماذا ؟ قالوا : لأن الحديث هنا عن البيوت التي يُبَاح لك أنْ تأكل منها ، وجاءت (بيوت) بصيغة الجمع ، والعم له بيت واحد ، فما دام قال بيوت فلا بُدَّ أنْ تأتي (أعمامكم) و (أخوالكم) بصيغة الجمع .

ثم يقول تعالى : ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ[1] .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] الوَهْب : انتقال ملكية بلا مقابل ، تقول : فلان وهبك كذا يعني : أعطاه لك بلا مقابل ، ليس بيعاً وليس بدلاً مثلاً .

لذلك لما نزلت هذه الآية قالت السيدة عائشة : أتعجبُ لامرأة تبتذل نفسها ، وتعطي نفسها لرجل هكذا مجاناً بلا مقابل ، فنزل النص ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] عندها قالت السيدة عائشة لسيدنا رسول الله : يا رسول الله ، أرى الله يسارع إلى هواك ، فقال لها ﷺ : « وأنت يا عائشة ، لو اتقيت الله لسارع في هواك »[2] .

---

(١) قوله (النبي) هنا دليل على أن هذا أمر خاص برسول الله ، فليس لأحد من أمته أن يتزوج امرأة على سبيل الهبة بأن تهب نفسها له ، وهذا من الأمور التي خُصَّ بها رسول الله ، لذلك قال تعالى : ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ.. (٥٠)﴾ [الأحزاب]

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧٨٨ ، ٥١١٣) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٤٦٤) كتاب الرضاع ، وأحمد في مسنده (٦/ ١٣٤ ، ١٥٨ ، ٢٦١) من حديث عائشة رضي الله عنها .

والمعنى : أن الله يسارع في هواي ، لأنني سارعتُ في هواه ، طلب مني فأدَّيْتُ ؛ لذلك يُلبي لي ما أريد من قبل أنْ أطلب منه .

وقال ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] لأن الهبة هنا خاصة بالمؤمنة ، فإنْ كانت كتابية لا يصح أنْ تهبَ نفسها للنبي ، لكن أتحل له المرأة بمجرد أن تهب نفسها له ؟ قالوا : لا ، إنما لا بُدَّ من القبول ، فإنْ قالت المرأة لرسول الله : أنا وهبتُ نفسي لك لا بُدَّ أنْ يقبل هو هذه الهبة ؛ لذلك علَّق على هذه المسألة بقوله ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] لأن المسألة مبنية على إيجاب وقبول .

وللعلماء كلام في هذه المسألة ، فبعضهم[1] قال : لم يأخذ رسول الله امرأة بهبة أبداً ، وقال آخرون[2] : بل عنده أربع موهوبات هُنَّ : ميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت خزيمة أم المساكين ، وأم شريك بنت جابر ، وخولة بنت حكيم .

وليس في هذا التعارض (فزورة) ، فمن السهل أنْ نجمع بين

(١) قاله ابن عباس . أورده السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٦٣٠) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في السنن عن ابن عباس قال : لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له .

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (٨/ ٥٤٧٧) ، وكذا ابن كثير (٣/ ٥٠٠) والسيوطي في الدر المنثور (٦/ ٦٢٨ ـ ٦٣٠) . قال القرطبي : « الذي في الصحيحين يقوي هذا القول ويعضده ، روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول . أما تستحي امرأة تهب نفسها لرجل حتى أنزل الله تعالى ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ .. (٥١)﴾ [الأحزاب] . فقلت : والله ما أرى ربك إلا يسارع في هواك . وروى البخاري عن عائشة أنها قالت : كانت خولة بنت حكيم من اللاتي وهَبْنَ أنفسهن لرسول الله ﷺ ، فدلَّ هذا على أنهن كُنَّ غير واحدة »

هذين القولين ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] فربما وهبت نفسها للنبي ، لكنه لم يُرد ، أو وهبتْ نفسها للنبي ، فأراد أنْ يكرمها ، وأنْ يجعل لها مهراً ويتزوجها .

وكلمة ﴿يَسْتَنكِحَهَا .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] مثل ينكحها ، فهما بمعنىً واحد ، مثل : عَجِل واستعجل .

ومعنى ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ .. (٥٠)﴾ [الأحزاب] أن الله تعالى خَصَّ رسوله بأشياء ميَّزه بها ؛ لأن مهمته ﷺ ليستْ مع نفسه هو ، إنما مهمته مع الناس جميعاً ، وليس للناس المعاصرين له فحسب ، إنما جميع الناس حتى قيام الساعة .

إذن : فمشغولياته ﷺ كثيرة كبيرة ، كما قال سبحانه ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥)﴾ [المزمل]

لذلك أراد الحق سبحانه ألاَّ يشغله شيء عن مهمته هذه ، وأراد أنْ يتوفر رسول الله لأداء هذه المهمة التي هو بصددها ، بحيث إذا ما عشق عملية البلاغ عن الله واندمج فيها ومعها تموت في نفسه كلُّ الأهواء ، ولا يبقى إلا انشغاله بمهمة الدعوة .

بدليل أن الوحي في أوله كان يجهد سيدنا رسول الله ، وكان جبينه يتفصَّد عرقاً ، ويذهب إلى أهله فربما يقول : زَمِّلوني زمِّلوني ، ودثِّروني دثِّروني ، ثم شاء الله تعالى أنْ يرفع عنه هذه المعاناة ، وأنْ يريحه مما أنقض ظهره وأتعبه ، ففتر الوحي فترة عن رسول الله حتى استراحتْ أعصابه ، وهدأتْ طاقته ، وبقيت معه حلاوة ما أوحي إليه هذه الحلاوة التي جعلتْ سيدنا رسول الله يتشوَّق للوحي من جديد ، وشوقك إلى الشيء يُنسيك التعب في سبيله .

وفي ذلك يقول تعالى : ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)﴾ [الضحى]

وعجيبٌ أن يقول المشركون عند انقطاع الوحي : إن ربَّ محمد قلاه ، ففي الجفوة عرفوا أن لمحمد رباً يجفوه ، أما حين الخلوة والجلْوة قالوا : مُفْترٍ وكذَّاب وشاعر .. إلخ .

ومعنى ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤)﴾ [الضحى] يعني : ستكون عودة الوحي خيراً لك من بدايته : لأنه جاءك أولاً فوق طاقتك فأجهدك ، أما في الأخرى فسوف تستدعيه أنت بنفسك وتنتظره على شوق إليه ، فطاقتك هذه المرة مستعدة لاستقباله ، قادرة على تحمُّله دون تعب أو إجهاد .

إذن : فالحق سبحانه جعل لرسوله ما يُيسِّر له أمر الاندماج في المستقبل ، لذلك لما عاوده الوحي لم يتفصَّد جبينه عرقاً ، ولا أُجهد كالمرة الأولى ، لأن طاقة الشوق عنده وطاقة الحب تغلبتا على هذا التعب وهذا الإجهاد .

ثم يقول سبحانه : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ..(٥٠)﴾ [الأحزاب] أي : من العدد الذي حُدِّد بأربعة ، ومن المهر الذي سُمِّي ساعة العقد ، والمراد أن لكلٍّ حكمه وقانونه ، فلكَ يا محمد حكم يناسبك ، ولأمتك حكم .

وبمناسبة ما نحن بصدده من الحديث عن أحكام الزواج والتعدد يجدر بنا أن نشير إلى الضجة التي يثيرها أعداء الإسلام بسبب مسألة « تعدد الزوجات » ، مع أن التعدد في مصر لم يصل إلى حدِّ الظاهرة ، وليس وباءً كما يُصوِّره البعض .

فالذين أحصوا هذه المسألة وجدوا أن الذين عدَّدوا بزوجتين ثلاثة بالمائة ، والذين عددوا بثلاث واحد في الألف ، والذين عدَّدوا بأربع نصف في الألف ، فلماذا إذن إثارة الناس ضد ما شرع الله ، ثم ألم يمتصّ التعدد فائضاً من النساء ؟

وتأتي الزوجة تشتكي : بعد أنْ عشْتُ معه كذا وكذا ، وخدمته كذا وكذا يتزوج عليَّ ؟ فأقول لها : أضَرَّك أنت ؟ تقول : نعم ، أقول: لكنه نفع أخرى ، فواحدة بواحدة ، ولماذا تنظر إلى المتزوجة ، ونغفل التي لم تتزوج ، أليس من حقِّها هي الأخرى أن تتزوج ؟

ثم إن المرأة التي قبلَتْ أن تكون الثانية ما قبلت إلا لأنها لم تستطع أنْ تكون الأولى ، وكذلك الثالثة ما قبلتْ ، إلا لأنها لم تستطع أن تكون الثانية .. إلخ ثم نقول لهؤلاء : أألزمك ربك أنْ تعدد ؟ هذه مسألة أباحها الشارع لحكمة ، ولم يلزمك بها ، فإنْ كان التعدد لا يعجبك فاكتفِ بواحدة .

والذين أثاروا الضجة في تعدُّد الزوجات أثاروا أكثر منها في مسألة ملْك اليمين في الإسلام ، وراحوا يتهمون الإسلام والمسلمين : كيف يجمع الرجل فوق زوجاته كذا وكذا من ملْك اليمين ؟

ومعلوم أن ملْك اليمين كان موجوداً قبل الإسلام ، وظل موجوداً ، حتى دعا القانون الدولي العام إلى منع ظاهرة العبودية ، ودعا إلى تحرير العبيد ، فسرَّح الناس ما عندهم من العبيد ، وكان منهم مَنْ يشتري العبيد من أصحابهم ثم يُطلق سراحهم .

ومن هؤلاء العبيد مَنْ كان يعود إلى صاحبه وسيده مرة أخرى يريد العيش في كنفه وفي عبوديته مرة أخرى ؛ لأنه ارتاح في ظل

هذه العبودية ، وعاش فى حمايتها ، وكان بعضهم يفخر بعبوديته ولا يسترها فيقول : أنا عتيق آل فلان .

والمنصف يجد أن ملْك اليمين فى الإسلام ليست سُبَّة فيه ، إنما مفخرة للإسلام ؛ لأن مَلْك اليمين وسيلته فى الإسلام واحدة ، هى الحرب المشروعة ، فالإسلام ما جاء لينشىء رِقاً ، إنما جاء لينشىء عتقاً .

الإسلام جاء والرق موجود ، وكان العبيد يُباعون مع الأرض التى يعملون بها ، ولا سبيل للحرية غير إرادة السيد فى عتْق عبده ، فى حين كانت منابع الرقّ كثيرة متعددة ، فكان المدين الذى لا يقدر على سداد دَيْنه يبيع نفسه أو ولده لسداد هذا الدين ، وكان اللصوص وقُطّاع الطرق يسرقون الأحرار ، ويبيعونهم فى سوق العبيد ... إلخ .

فلما جاء الإسلام حرَّم كل هذه الوسائل ومنعها ، ولم يُبْقِ إلا منبعاً واحداً هو السَّبْى فى حرب مشروعة ، وحتى فى الحرب ليس من الضرورى أن ينتج عنها رِقٌّ ؛ لأن هناك تبادلَ أسرى ، ومعاملة بالمثل ، وهذا التبادل يتم على أقدار الناس ، فالقائد أو الفيلسوف أو العالم الكبير لا يُفتدى بواحد من العامة ، إنما بعدد يناسب قدره ومكانته ، واقرأ فى ذلك قوله تعالى : ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا .. ④﴾ [محمد]

لأن الحرب ما شُرِعَتْ فى الإسلام ليُرغم الناسُ على الدين ، لكن ليُحمى اختيارهم للدين ، بدليل أن البلاد التى دخلها الفتح الإسلامى بقى فيها كثير من الناس على كفرهم ، ثم ألزمهم دفع الجزية مقابل الزكاة التى يدفعها المسلم ، ومقابل الخدمات التى تؤديها إليه الدولة .

ثم تأمل كيف يعامل الإسلام الأسرى ، وعلى المجتمع الظالم الذى ينتقد الإسلام فى هذه الجزئية أن يعلم أن الذى أسرْتَه فى المعركة قد قدرْتَ عليه ، وتمكَّنْتَ منه ، وإنْ شئت قتلتَهُ ، فحين يتدخَّل الشرع هنا ويجعل الأسير ملْكاً لك ، فإنما يقصد من ذلك حَقْن دمه أولاً ، ثم الانتفاع به ثانية ، إمّا بالمال حين يدفع أهله فديته ، وإما بأنْ يخدمك بنفسه .

إذن : المقارنة هنا ليستْ بين رِقٍّ وحرية كما يظن البعض ، إنما هى بين رِقٍّ وقتل .

إذن : مشروعية الرق فى أسرى الحرب إنما جاءتْ لتحقنَ دم المأسور ، وتعطى الفرصة للانتفاع به ، فإذا لم يتم الفداء ولا تبادل أسرى وظلَّ أسيرك بيدك ، فاعلم أن له أحكاماً لا يصح تجاوزها ، فهو شريكك فى الإنسانية المخلوقة لله تعالى ، وما أباح الله لك أنْ تأسره ، وأن تملكه إلا لكى تَحْقِنَ دمه ، لا أن تُذلَّهُ .

واقرأ قول النبى ﷺ : « إخوانكم خَولُكُم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمَنْ كان أخوه عنده فليُطْعمه مما يطعم ، وليُلبِسْه مما يلبس ، ولا يُكلِّفه ما لا يطيق ، فإن كلَّفه فليُعِنْه »[1] .

فأىُّ إكرام للأسير بعد هذا ، بعد أنْ حقن دمه أولاً ، ثم كرَّمه بأنْ جعله أخاً لك ، واحترم آدميته بالمعاملة الطيبة ، ثم فتح له عدة منافذ تؤدى إلى عتْقه وحريته ، فإنْ كان للرقِّ فى الإسلام باب واحد ، فللحرية عدة أبواب ، منها العتق فى الكفارات وهى فى تكفير الذنوب التى بين العبد وربه .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٠ ، ٢٥٤٥) كتاب الإيمان ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٦٦١) كتاب الأيمان من حديث أبى ذر رضى الله عنه .

فإذا لم تكُنْ هناك ذنوب فقد رغَّبنا الشرع في عتْق الرقاب لاجتياز العقبة كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) ﴾ [البلد]

هذا إنْ كان الأسير رجلاً ، فإنْ كان امرأة ، ففيها نفس التفصيل السابق ، وتُعامَل نفس المعاملة الطيبة يزيد على ذلك أن للأَمَة - وهي في بيت سيدها - وضعاً خاصاً ، فهي ترى سيدتها تتمتع بزوجها ، وترى البنت تتزوج ، فيأخذها زوجها إلى بيت الزوجية ، إلى آخر مثل هذه الأمور ، وهي تقف موقف المتفرج ، وربما أخذتها الغيرة من مثل هذه المسائل ، فيكرمها الله حين يُحِلّها لسيدها ، فيكون لها ما لسيدتها الحرة ، فإذا ما أنجبتْ لسيدها ولداً صارت حُرَّة به ، وهذا منفذ آخر من منافذ القضاء على الرق .

وقوله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ .. (٥٠) ﴾ [الأحزاب] هذه هي الهبة الخالصة للنبي ﷺ دون أمته ، كأن الله يقول لنبيه : لا نريد أنْ نُحمِّلك ضيقاً في أيِّ شيء لتفرغ أنت لمهمتك الصعبة . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠) ﴾ [الأحزاب]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) ﴾

قوله ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] أي : تؤخر مَنْ تشاء من زوجاتك عن ليلتها ﴿ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] أي : تضم إليك ، وتضاجع مَنْ تشاء منهن ﴿ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] من طلبتَ من زوجاتك وقربت ﴿ مِمَّنْ عَزَلْتَ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] أي : اجتنبتَ بالإرجاء والتأخير ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكَ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] أي : لا إثم ولا حرج .

﴿ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] أي : أنهُنَّ جميعاً سيفرَحْنَ ، التي تضمها إليك ، والتي تُرجئها وتؤخرها ، وسوف يرضَيْنَ بذلك ؛ لأنهن يعلَمنَ أن مشيئتك في ذلك بأمر الله ، فالتي ضمها رسول الله إليه تفرح بحب رسول الله ولقائه ، والتي أُخِّرَتْ تفرح : لأن رسول الله أبقى عليها ، ثم عاد إليها مرة أخرى وضمَّها إليه وقرَّبها ، وهذا يدل على أن لها دوراً ومنزلة ، وأيضاً حين يكون ذلك من تشريع رب محمد لمحمد ، فإنه لا يعني أنه كرهها أو زهد فيها ، فإنْ فعلْتَ ذلك يا محمد - مع أن فيه مشقة - فإنما فعلْتَه طاعة لأمر مَنْ ؟ لأمر الله ، فتأخذ ثواب الله عليه .

وحين نتأمل كلمة ﴿ تَقَرَّ .. (٥١) ﴾ [الأحزاب] تجد أنها كعامة كلمات القرآن (كالألماس) ، لكل ذرة تكوينية فيه بريق خاص وإشعاع ؛ لذلك يقولون عنه : (دا بيلالي) ومع كثرة بريقه لا يطمس شعاعٌ فيه شعاعاً آخر ، كذلك كلمات القرآن .

(قرَّ) وردتْ كثيراً في القرآن كما في ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ .. (٩) ﴾ [القصص]

كلمة قرَّ معناها سكن ، نقول : قَرَّ بالمكان أي : استقر فيه وسكن ، والقرّ هو البرد ، وقُرَّة العين تأتي بالمعنيين ، فالعين تسكن

عند شيء ما ، ولا تنتقل إلى غيره إنْ كان جميلاً يأسرها فلا تفارقه ، يقولون : فلان قيْد النظر .

وفي المقابل يقولون : فلان عينه زائغة يعني : لا تستقر على شيء أو (عينه دشْعَة) عند إخواننا الذين ينطقون الجيم دالاً مثل (درْدَة) يقصدون جرجا ، والعين الجشعة[1] بنفس المعنى ، وفي المعنى السياسي يقولون : فلان له تطلُّعات يعني : كلما وصل إلى منصب نظر إلى الأعلى منه .

أما القُرُّ بمعنى البرودة ، فقُرَّة العين تعني : برودتها ، وهي كناية عن سرورها ؛ لأن العين لا تسخُن إلا في الحزن والألم ؛ لذلك ثبت أخيراً أن حبة العين (ترمومتر) دقيق لحالة الجسم كله ، وميزان لصحته أو مرضه .

ولأهمية العين نقول في التوكيد : جاءني فلان عينه ، وسبق أن تحدثنا عن ظاهرة الاستطراق الحراري في جسم الإنسان وقلنا : إن من المعجزات في تكوين الإنسان أن الاستطراق الحراري في جسمه يتم بنظام خاص ، بحيث يحتفظ كل عضو في الجسم بحرارة تناسبه ، فإن كانت حرارة الجسم العامة والمثالية ٣٧° - ومن العجيب أنها كذلك عند سكان القطب الشمالي ، وهي كذلك عند سكان خط الاستواء - فإن حرارة الكبد مثلاً لا تقل عن ٤٠° مئوية ، أما العين فإذا زادت حرارتها عن عشر درجات تنفجر .

إذن : فقُرَّة عيْن زوجات النبي وسُرورهن في مشيئته ، حين

---

(١) الجشع : أسوأ الحرص . وقيل : هو أشد الحرص على الأكل وغيره . وقيل : هو أن تأخذ نصيبك وتطمع في نصيب غيرك . [لسان العرب - مادة : جشع] .

يُقرِّب إليه مَنْ يُقرِّب ، أو يؤخر من يؤخر ؛ لأن مشيئته نابعة من أمر الله له .

وقوله تعالى . ﴿ويرضين بما آتيتهن كلهن.. (٥١)﴾ [الأحزاب] أى : فى أىِّ الحالات ، ثم جاء قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١)﴾ [الأحزاب] ليشير إلى أن الرضا هنا ليس هو رضا القوالب ، إنما يراد رضا القلب بتنفيذ أوامر الله دون أنْ يكون فى النفوس دخائل أو اعتراض .

فالله سبحانه ﴿كَانَ عَلِيمًا .. (٥١)﴾ [الأحزاب] يعلم ما فى القلوب ﴿حَلِيمًا (٥١)﴾ [الأحزاب] لا يجازيكم على ما يعلم من قلوبكم ، ولو جازاكم على قَدْر ما يعلم لأتعبكم ذلك .

وتأمل حلْم الله علينا ورحمته بنا فى مسألة البدء ببسم الله ، فالنبى ﷺ يُعلِّمنا أن كل عمل لا يبدأ ببسم الله فهو أبتر أى : مقطوع البركة ، فالإنسان حين يبدأ فى الفعل لا يفعله بقدرته عليه ، ولكن بتسخير مَنْ خلقه له ، فحين تقول : بسم الله أفعل كذا وكذا ، فإنك تفعل باسم الذى سخَّر لك هذا الشيء .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣)﴾ [الزخرف]

فعليك أنْ تبدأ ببسم الله حتى إنْ كنتَ عاصياً لله ، إياك أن تظنَّ أنك لستَ أهلاً لهذه الكلمة ؛ لأن ربك حليم ، ورحمن رحيم .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ[2] وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴿٥٢﴾ ﴾

سبق أن تناولنا تفسير هذه الآية في إطار سياق الآيات السابقة ، ونلخصها هنا في أن الحق سبحانه بدأ رسوله أولاً بأن أحلَّ له في قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأحزاب] ثم قيد هذا التحليل هنا ، فقال : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأحزاب]

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٣/٥٠١) : « ذكر غير واحد من العلماء كابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وابن زيد وابن جرير وغيرهم أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ ورضا عنهن على حُسْن صنيعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة لمَّا خيرهن رسول الله ﷺ كما تقدم في الآية ، فلما اخترن رسول الله ﷺ كان جزاؤهن أن الله تعالى قصره عليهن وحرَّم عليه أن يتزوج بغيرهن أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء والسراري فلا حرج عليه فيهن ، ثم إنه تعالى رفع عنه الحرج في ذلك ونسخ حكم هذه الآية ، وأباح له التزوج ، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوُّج لتكون المنة لرسول الله ﷺ عليهن » .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٨/٥٤٩١) : « اختلف العلماء في إحلال الأمَة الكافرة للنبي ﷺ على قولين :

الأول : تحل لعموم قوله ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأحزاب] قاله مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحكم .

الثاني : لا تحل تنزيهاً لقدره عن مباشرة الكافرة ، وقد قال الله تعالى ﴿ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الممتحنة] فكيف به ﷺ ؟ » .

فالحق سبحانه يأتى بالمخفَّف فى أشياء ، ثم يأتى بالمثقَّل ؛ ليعلم القوم أن الله تعالى بدأ رسوله بالعطف والرحمة والحنان ، ويُبيِّن فضله عليه ، كما قال له سبحانه ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ .. (٤٣)﴾ [التوبة] قبل أنْ يعاتبه بقوله : ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ .. (٤٣)﴾ [التوبة]

وهذه الآية ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ .. (٥٢)﴾ [الأحزاب] توضح أنَّ ما شُرِع لرسول الله فى مسألة تعدُّد الزوجات غير ما شُرِع لأمته ، فرسول الله استثناه الله تعالى فى المعدود لا فى العدد ، والفرق بين الاستثناء فى العدد والاستثناء فى المعدود أن العدد يُدَار فى أشياء متعددة ، فلو أنه أباح له عدد تسع ثم تُوفِّين لكان له أن يتزوج بتسع أُخَر ، وإنْ ماتت واحدة منهن له أن يتزوج بواحدة بدلاً منها .

لكن الاستثناء لم يكُنْ لرسول الله فى العدد كامته ، إنما فى المعدود ، بحيث يقتصر على هؤلاء بخصوصهن ، والحكمة فى ذلك أن التى يفارقها زوجها من عامة نساء المؤمنين لها أنْ تتزوج بغيره ، على خلاف زوجات رسول الله ، فإنهن أمهات للمؤمنين ، فلا يحل لهُنَّ الزواج بعد رسول الله .

ثم أوضحنا أن مسألة مِلْك اليمين ليستْ سُبَّة فى جبين الإسلام ، إنما هى ميزة من ميزاته ، فالله ملّك الرقبة ليحميها من القتل ، والمقارنة هنا ليستْ بين رق وحرية ، إنما بين رق وقتل كما أوضحنا ، والذى يتأمل حال المملوك أو المملوكة فى ظل الإسلام لا يسعه إلا الاعتراف بحكمة الشرع فى هذه المسألة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - وزَّع الأمر بين رسول الله وبين أمته ، فكما قال للرسول في أول السورة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ .. ﴿١﴾ ﴾

---

(١) قال حماد بن زيد : هذه الآية نزلت في الثقلاء . فالجمهور من المفسرين على أن سببها أن رسول الله ﷺ لما تزوج زينب بنت جحش امرأة زيد أولم عليها ، فدعا الناس ، فلما طعموا جلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله وزوجته مُولِّية وجهها إلى الحائط ، فثقلوا على رسول الله ﷺ . قال أنس : فما أدري أأنا أخبرت النبي ﷺ أن القوم قد خرجوا أو أخبرني . قال أنس : فانطلق ﷺ حتى دخل البيت ، فذهبت أدخل معه فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب . قال : ووُعظ القوم بما وُعظوا به ، وأنزل الله عز وجل هذه الآية .. أورده القرطبي في تفسيره (٥٤٩٢/٨) .

[الأحزاب] أمر أمته بذكره وطاعته ، وكما تكلَّم عن أمر يتعلَّق برسول الله تكلَّم كذلك عن أمر يتعلق بأمته في قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ .. (٤٩) ﴾ [الأحزاب]

بعد ذلك قال لرسول الله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) ﴾ [الأحزاب] ليُبيِّن عموم نفعه لأمته ، فجازاه عن الأمة بأن يُصلُّوا عليه ، وأنْ يتأدبوا حين دخولهم بيته ﷺ ، فقال هنا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] لأن التكليف لا بُدَّ أن يكون لمن آمن بالله . وقلنا : إن الحق سبحانه رب وإله ، ومعنى (رب) أنه سبحانه خلق وربَّى وأنعم وتفضَّل ، والخَلْق والتربية والإنعام والتفضُّل ليس خاصاً بالمؤمنين ، بل لكل مَنْ استدعاه الله للوجود من مؤمنين وكافرين .

فالشمس تشرق على الجميع ، والمطر يروى أرض المؤمن والكافر ، والأرض تستجيب للكل ، فالذى يُحسن أَخْذ أسباب الله من عطاء الربوبية يأخذ النتيجة ، وينال نصيبه موقوتاً بمدى الربوبية فى الدنيا ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠) ﴾ [الشورى] والله لا يضيع أجر مَنْ أحسن عملاً .

فالمؤمن الذى لا يأخذ يد الله الممدودة له بالأسباب ويهملها يعيش مُتخلِّفاً عالةً على غيره ، يعيش شحاذاً يستجدى قُوتَه حتى من الكافر ، فإذا ما خَلَتْ الساحة للكافر ، وأخذ هو بالأسباب ، وأعطاها حقوقها أخذ هو عطاء الرب ، وكان أَوْلَى بالمؤمن ألاَّ يترك عطاء ربه ، يأخذه مَنْ لا يؤمن بالله ، ثم يتخلف هو عن ركْب الحضارة ، وإنْ كانت الحضارة التى وصل إليها الكفار اليوم حضارة فى الماديات فحسب .

أما القيم والأخلاقيات فقد انحدرتْ في هذه المجتمعات ، بدليل أنك حين تذهب إلى هذه البلاد وتنزل مثلاً في فندق - كما نزلنا - تجد مكتوباً على باب الحجرة : إذا دخل عليك اللصوص فلا تقاوم ، فإن حياتك أثمن مما معك ، إذا خرجتَ إلى الشارع فلا تحمل من المال إلا بقدر ضرورياتك . إذن : ارتقوا في شيء ، وانحدروا في أشياء .

وإذا كان مظهر ارتقائهم في الناحية الاقتصادية ، فانظر إلى أعلى دَخْل للفرد في العالم تجده في السويد ، ومع ذلك تكثر عندهم الأمراض النفسية والعصبية والانتحار والجنون والشذوذ وغيرها من الأمراض الاجتماعية .

لقد تحضَّرتْ هذه البلاد حضارة مادية ؛ لأنهم أخذوا بأسبابها ، فأتقن كُلٌّ عمله ، وأعطى وقت العمل للعمل ، فما بين الثامنة إلى الثانية عشرة لا تجد إنساناً في الشارع ، ولا تجد أحداً يجلس على (القهوة) مثلاً أو يضيع وقت العمل ، وفي وقت الراحة يذهب الجميع إلى المطعم ليأكل (السندوتش) الجاهز ، ثم يعود إلى عمله .

هكذا يعيش المجتمع المادي ، فالذي لا يعمل فيه يموت من الجوع ، والحمد لله أن شبابنا تنبهوا إلى أهمية العمل وتخلَّوْا عن الطفولة التي كانوا يعيشون فيها حتى الثلاثين ، وهم عَالَة على الأبوين .

والحق سبحانه هنا يُعلِّمنا الأدب مع رسول الله ، ويجعله لنا قدوة ، فهو ﷺ عاش عيشة الكفاف مطعماً وملبساً ومسكناً ، فليس عنده إلا عدة حجرات ، لكل زوجة من زوجاته حجرة واحدة ، فليس لديه حجرة صالون أو استقبال ، فلا بُدَّ أن تتعلم الأمة آداب الدخول وآداب الزيارة في مثل هذه الحالة ، وخاصة مع رسول الله في بيوته .

فقال سبحانه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ

لَكُمْ .. ﴿٥٣﴾ [الأحزاب] كلمة (بيوت) جمع بيت ، وهو ما أُعِدَّ للبيتوتة أى : للمبيت فيه ، والمبيت فى الأغلب الأعَمّ لليل ، فهو محل السكون والبيات ، أما النهار فهو محلُّ الحركة ، ولابد للإنسان بعد التعب والجهد أن يأوى بالليل إلى مكان يستريح فيه ويفىء إليه ؛ لذلك سُمِّى البيت سكناً ، كذلك سُمِّيت الزوجة سكناً للسبب نفسه .

فالبيت مسكن لإيواء القالب وراحته ، والمرأة سكَن لإيواء القلب وراحة النفس ، فكلاهما ينبغى أن يكون مصدراً للراحة .

والبيت يُجمع على بيوت إنْ أردنا المسكن ، ويجمع على أبيات إنْ أردنا البيت الشعرى ، وسُمِّى الشعر بيتاً عند العرب وهم أمة فصاحة وبيان ؛ لأنه تأوى إليه المعانى ، كما نأوى نحن إلى بيوتنا ونسكن فيها ، كذلك المعانى تسكن بيت الشعر ، فيصير البيت نفسه حكمة .

لذلك يقول أحمد شوقي رحمه الله : لا يزال الشعر عاقلاً ـ يعنى : لا زينة له من قولهم المرأة العاقل أى : التى لا زينة لها[1] ـ ما لم تُزيِّنه الحكمة ، فهو بدونها هراء لا فائدة منه .

ولا تزال الحكمة شاردة حتى يؤويها بيت من الشعر يُحفظ ويُتداول على مَرِّ العصور ، كما نستشهد نحن الآن بأبيات المتنبى والمعرى وشوقي .. إلخ .

والبيتوتة فى كل شىء بحسبها ، فالذين يعملون بالنهار بيتوتهم بالليل ، والذين يعملون بالليل بيتوتهم بالنهار ، وإنْ كان الأصل فى البيات أن يكون ليلاً . وإياك أنْ تشغل إنساناً وقت بيتوته سواء أكانت بالليل أو بالنهار ، فوقت العمل للعمل ، ووقت السكن للسكن .

---

(١) قال ابن منظور فى لسان العرب (مادة . عقل) : « العاقلة لا تحمل السِّنَّ والإصبع والموضحة وأشباه ذلك » . والأوضاح : حُلِّى من الدراهم الصحاح .

لذلك فإن أهل الحكمة عندنا فى الفلاحين يقولون : (مَنْ يحرس) يعنى : بالليل (لا يحرث) يعنى : بالنهار ؛ لأن الإنسان إنِ انشغل وقت راحته لا يجيد عمله ولا يتقنه .

بصرف النظر ، أكان وقت الراحة فى الليل أو فى النهار ، فأنت مثلاً حين تتأمل البلاد التى تشرق فيها الشمس ثلاثة أشهر أو ستة أشهر ، وتغيب أيضاً ثلاثة أشهر أو ستة أشهر ، هل نتصور أن يعمل أهل هذه البلاد طوال الثلاثة أشهر ، وينامون ثلاثة أشهر ؟ لا إنما يُقسِّمون هذه الفترة فى ليل أو نهار إلى فترات : فترة للعمل ، وفترة للراحة .

لذلك تجد من عظمة القرآن أنْ يحتاط لمثل هذه الأمور ، فيقول سبحانه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ .. (٢٣) ﴾ [الروم] فالنوم يكون بالليل ، ويكون أيضاً بالنهار لمن تستدعى طبيعة عمله أن يعمل بالليل .

والبيت يكون على قدر إمكانات صاحبه ، المهم أنْ يكون له مكان يأوى إليه ويستريح فيه ، مهما قَلَّ ، حتى لو كان مكاناً ضيِّقاً على قَدْر ما يسع الإنسان أنْ يضع جنبه على الأرض ، فإنْ كان فيه مُتَّسع فبها ونِعْمت ، وعلى طارق البيت أنْ يراعى مدى البيتوتة لمن يطرق عليه .

وكما يتفاوت الناس فى البيوت ، كذلك يتفاوتون فى ترف الحياة وأسباب الراحة فى البيت على حسب الإمكانات ، وما دامت الراحة على قدر الإمكانات ، فينبغى أنْ يتحلَّى كلٌّ بالرضا ، وأنْ يربط بين عمله ودَخْله وبين ترف حياته ، فقبل أنْ تفرض لنفسك حياة مترفة ، افرض لها أولاً عملاً مترفاً بنفس المستوى ، بحيث توفر منه إمكانات هذا الترف .

وكما يقول المثل (على قدر لحافك مدَّ رجليك) فإذا كانت إمكاناتك لا توفر لك إلا الكفاف ، فلتكُنْ راضِياً به ، وإنْ تمردْتَ وطلبْتَ المزيد فلتتمرد أولاً على نفسك ، ولتعمل العمل الذي يوفر لك ما تتطلع إليه .

وآفة الناس في اقتصادهم أنْ يحددوا مستوى الحياة أولاً ، ثم يرغمون دخولهم وإمكاناتهم على هذا المستوى ، فيحدث العجز ، ولا تفي الإمكانات بالمتطلبات ، إنما الواجب أنْ أحدِّد مستوى حياتي على ضوء دَخْلي وإمكاناتي ، وبذلك يعيش الإنسان سعيداً مرتاحاً لا يرهقه شيء ، ولا يفوتنا ونحن نتحدث عن الدخول والإمكانات أنْ نراعي الحلال في الكسب وفي الإنفاق .

وإذا كانت البيوت وأسباب الراحة فيها بحَسْب إمكانات أصحابها ، فينبغي أنْ تكون أحوالهم النفسية أيضاً على قدر إمكاناتهم حتى لا يمتلئ قلب الفقير حِقْداً على صاحب النعمة .

إذن : لا بُدَّ لنا أن نتحلَّى بالرضا ، وأنْ نقنع بما في أيدينا ، ومَنْ يدريك لعل صاحب النعمة هذا ورثها ، وإنْ كان لم يتعب هو فيها فقد تعب آباؤه وأجداده ، وسبق أن قلنا : إن الذي يعرق عشر سنين من حياته يرتاح بقية عمره ، والذي يعرق عشرين سنة يُريح أولاده ، والذي يعرق ثلاثين يُريح أحفاده ، ومَنْ ذا الذي عرق وكَدَّ ولم يجد ثمرة عرقه ؟

فمَنْ أراد أنْ يعيش محترماً مكرماً حال شيخوخته فليعمل في شبابه وحال قدرته ، وليعرق قبل أنْ يأتيه يوم لا يجد فيه هذه القدرة ؛ لذلك يراعي سيدنا رسول الله هذا المعنى في قوله ﷺ :

« أعطوا الأجير حقه قبل أنْ يجفَّ عرقه »[1] .

أما الذين يتسكعون في الشوارع أو على المقاهى فليسوا أهلاً لهذه الحياة الكريمة حال شيخوختهم ، كذلك العامل الذى لا يعطى للعمل حقه ، أو لا يتقنه ، أو يجلس يراقب صاحب العمل يتحيَّن الفرصة لإضاعة الوقت . ومعلوم أن القرش إذا اكتسبه صاحبه دون وجه حق كان وبالاً عليه وفساداً لحاله ؛ لأنه لم يعرق به .

واقرأ إنْ شئْتَ قول سيدنا رسول الله ﷺ : « مَنْ أصاب مالاً من مهاوش ، أذهبه الله في نهابر »[2] والمهاوش هي الطرق غير المشروعة لجمع المال ، وهو نفس المعنى الذى نقصده حين نقول مثلاً : فلان جمع هذا المال من (الهَبْش) أو (النتش) ، والنهابر هي الأبواب التى تُفتح لصرف هذا المال فيما لا فائدة منه . وكثيراً ما نرى بعض الناس دخولهم ورواتبهم كبيرة ، ومع ذلك يعيشون عيشة الفقراء ، لا ترى عليهم ولا على أولادهم أثراً لهذه النعمة .

والناس يختلفون في نظرتهم إلى النعمة في أيدى الآخرين فقويُّ الإيمان ساعة يرى النعمة في يد غيره لا يحسده عليها ، إنما يرى أنها فَضْلُ الله على عباده ، وتراه يدعو لصاحب النعمة بالبركة ، ويقول : والله إنه يستحق هذه النعمة وأكثر منها ؛ لأنه جدَّ واجتهد .

---

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه (٢٤٤٣) من حديث ابن عمر ، قال البوصيرى في الزوائد : إسناده ضعيف ، فيه ضعيفان ، وأخرجه بهذا اللفظ أيضاً الطبراني في معجمه الصغير (١/ ٢٠) من حديث جابر ، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ١٤٢) من حديث أبي هريرة ، فهو بمجموع هذه الطرق والروايات يرقى إلى مرتبة الحسن ، وله أصل في صحيح البخارى عن أبي هريرة ـ كتاب البيوع .

(٢) أورده العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٣١٣) وعزاه للقضاعي عن أبي سلمة الحمصي مرفوعاً ، وأبو سلمة ضعيف ولا صحبة له . قال التقي السبكى : لا يصح والمهاوش : مكاسب السوء ، فهو كل مال يُصاب من غير حله ولا يدرى ما وجهه كالغصب والسرقة ونحو ذلك [لسان العرب ـ مادة : هوش] والنهابر : المهالك أى : أذهبه الله في مهالك وأمور متبددة [لسان العرب ـ مادة : نهبر] .

المؤمن يقول : ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله ، اللهم بارك له وأعطني من نعمك ، المؤمن يرى في نعمة الدنيا نموذجاً مُصغَّراً لنعمة الآخرة ، فيقول : هذا ما أعدَّه البشر لأنفسهم ، فكيف بما أعدَّه الله لخَلْقه ؟ عندها يتراءى له نعيم الجنة ، فيُقبل عليها بقلب يملؤه الإيمان واليقين ، وهذه النظرة للنعمة عند الآخرين تسمى غِبْطة .

أما غير المؤمن ـ والعياذ بالله ـ فيحقد على صاحب النعمة ، ويراه غير أهْل لها ، ويتمنى زوالها من عنده ، ويحسده عليها ، وهذا كله دليل على ضَعْف الإيمان والاعتراض على أقدار الله في خَلْقه .

ونُسمِّي المساجد بيوت الله ، وسُمِّي المسجد بيت الله ؛ لأنه جُعل خصيصاً لكي نقابل فيه الله حينما نسمع نداء الصلاة ؛ لذلك حذرنا رسول الله أنْ نُدخل الدنيا معنا بيوت الله ، فحذَّر أنْ تُعقد الصفقات في المساجد ، أو تُنشد فيها الضالة ، ولا أدلَّ على ذلك من قوله ﷺ لمن عقد صفقة تجارية في بيت الله : « لا باركَ اللهُ لك في صفقتك »[1] وقال لمن نشد ضالته في المسجد : « لا ردَّ اللهُ عليك ضالَّتك »[2] .

لأن الإنسان يعيش طوال وقته للدنيا ، فلا يجوز أن يأخذها معه حتى في وقت الصلاة ، فوقت الصلاة للقاء الله ، وهذا الوقت لا يعطل حركة حياتك ، إنما يعطيك شحنة إيمانية تُقوِّيك على متابعة حركة حياتك ، وسبق أن قلنا : إن هذه الشحنة أشبه بشحنة البطارية ، فهل يقال لمن أخذ البطارية ليشحنها أنه عطَّل البطارية ؟

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا : لا أربح الله تجارتك » أخرجه الترمذي في سننه (١٣٢١) وقال : « حديث حسن غريب » .

(٢) أخرج مسلم في صحيحه (٥٦٨) كتاب المساجد من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من سمع رجلاً ينشد ضالة في المسجد فليقل : لا ردها الله عليك ، فإن المساجد لم تُبْن لهذا » .

كذلك أنت صَنْعة الله وخِلْقته ، وما بالك بصنعة تُعرض على صانعها كل يوم خمس مرات ، أيصيبها عطب بعد ذلك ؟ وكذلك أنت حين تعرض نفسك على ربك ، تأخذ من هذا اللقاء شحنة إيمان ويقين ، وتتخلَّص من همومك ومشاكلك .

لذلك كان سيدنا رسول الله ﷺ كلما حَزَبَه أمر فزع إلى الصلاة[1] ، ففي الصلاة ترمي بنفسك وترمي بهمومك ومشاكلك في (أحضان) ربك ؛ لأنه سبحانه أعطى الكون أسباباً ، فإذا عزَّتْ عليك الأسباب ولم تُفِدْكَ بشيء فاترُكْ الأسباب ، والجأ إلى المسبِّب سبحانه .

وقلنا : إن المسجد بيت الله باختيار الخَلْق ، أما بيت الله الحرام فهو بيت الله باختيار الله ؛ لذلك جعله الله قِبْلة كل البيوت ، فإذا ما زُرْته ولو مرة واحدة أصلح حياتك كلها .

نعود إلى بيوت النبي ﷺ وما ينبغي أنْ يتحلى به المؤمنون من أدب في دخولها ، وما يجب أنْ يُراعَى في دخول هذه البيوت بالذات ؛ لأن لها طبيعة خاصة تناسب مهمة صاحبها ﷺ .

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ.. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] يعني : لا تتهجَّموا عليها ؛ لأنها ضيِّقة وليستْ فيها سعة للاستقبال في كل الأوقات ، والإذن هنا مُقيَّد بالطعام ﴿ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب]

وحتى إذا دُعيتَ إلى طعام رسول الله لا تذهبْ إليه قبل وقته ، فإذا كان الغداء مثلاً الساعة الثانية ، فلا تذهب أنت الساعة العاشرة ؛ لأنه لا يليق بك أن تشغل رسول الله وله في بيته مهمات يجب ألاَّ

---

(١) عن حذيفة رضي الله عنه قال : « كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/٣٨٨) وأبو داود في سننه (١٣١٩) .

ينشغلَ عنها ، مهام مع ربه ، ومهام مع أهل بيته ، وهذا معنى : ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ .. ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب] أى : نضج الطعام واستوائه وإعداده ، والفعل (إِنَى) على وزن رضا ، وفى لغة : أنىٰ أنيا مثل : رمى رميا .

وهنا تحذير للمؤمنين إذا دُعُوا إلى طعام رسول الله أنْ يدخلوا بيوته ينتظرون نُضْج الطعام ، إنما عليهم ألاَّ يدخلوا إلا بعد نُضْج الطعام وإعداده ، بحيث يقول لهم تفضلوا الطعام ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا .. ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب] فالطعام جاهز ومُعَدٌّ ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا .. ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب] فكما نهاهم فى أوَّلِيَّة الطعام عن انتظار نُضْجه ، كذلك نهاهم فى آخريته عن عدم الجلوس بعده ، إنما ينبغى عليهم إذا أكلوا أنْ ينتشروا .

والانتشار : أنْ يأخذ الشيء حيِّزاً أوسع من حجمه ، والانتشار يُعينك على تحقيق الغاية ، ألسْنَا ننشر الملابس بعد غَسْلها ؟ لماذا ؟ لأن نَشْر الغسيل يساعد على جفافه ، ولو تركْتَه فى حيِّزه الضيق لاحتاج أسبوعاً لكي يجفَّ ، إذن . فى الانتشار فائدة .

وسبق أنْ أوضحنا هذه الظاهرة بكوب الماء إذا تركْتَه مثلاً وسافرتَ لمدة شهر ، فإنك ستعُود فتجده كما هو لم ينقص إلا القليل، لكن إنْ سكبْتَه فى أرض الحجرة فسوف يجفّ قبل أنْ تخرج منها .

فقوله تعالى هنا ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا .. ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب] أى : تفرَّقوا ؛ لأن المكان الذى أنتم فيه فى بيت النبى ضيِّق ، إذن : ليذهب كُلٌّ إلى عمله ، وماذا يُراد من المؤمن بعد أنْ تناول طعامه ؟ أنْ يسعى فى مناكب الأرض ، لا أنْ يجلس خاملاً عَالةً على غيره ، وتأمل أيضاً قول الله تعالى فى سورة الجمعة ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ

﴿ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

إذن : أمر الحق سبحانه عباده المؤمنين بالانتشار ؛ لأن له هدفاً وغايةً ، فالهدف السعي وطلب الرزق ، وماذا بعد أنْ تناولتم طعامكم ؟ أيليق بكم أنْ تقعدوا مثل (تنابلة السلطان) في بيت رسول الله ، وأنتم تعلمون أنه يعيش عَيشةَ الكفاف في كل شئون حياته ؟

ومن معاني الانتشار : السياحة ، وهي مأخوذة من سَاح الماء إذا فَاض ، وأخذ حيِّزاً أكبر ، والانتشار أو السياحة ينبغي أنْ تكون مُنظمة كما تنتشر نقطة الماء على القماش ، فتحدث فيه دائرة منتظمة .

كذلك في انتشاركم في الأرض للسعي في طلب الرزق يجب أنْ يكون بنظام معين ، بحيث لا يحدث تكدُّس في مكان أو زحام ، في حين يخلو مكان آخر لا يجد مَنْ يعمره ، ويستنبط خيراته .

والسياحة في الأرض أو الانتشار فيها ، الله تعالى يريده منّا لغايتين :

الأولى : الضرب في الأرض وابتغاء رزق الله وفضله ، كما قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (٢٠) ﴾ [المزمل]

والضرب في الأرض ليس مجرد الانتشار فيها ، إنما المراد العمل والكفاح واستخراج خيراتها ؛ لأن الخالق سبحانه نثر القوت في أنحاء الأرض بالتساوي ، ونثر فيها الخيرات : لذلك كل يوم تعطينا الأرض جديداً من نِعَم الله ، كنا لا نعرف من خيرات الأرض إلا الزراعة ، فلما تقدَّمتْ العلوم والاكتشافات وتطوَّرت أدواته عرفنا المعادن والبترول

والكنوز المطمـــورة فـى أرض الله ، وكل أثـر كنـزىٌ فى الأرض لا نستـخرجـه ولا نعرفـه إلا بالضرب فى الأرض ، وسـبق أن قلنا : الضرب إيقاع شيء بقوة .

كنا نتعـجَّب من الناس الذين يسكنون البوادى والصحـراء ونشفق عليهم ، كيف يعيشون فى هذا الجَدْب والقَحْط ؟ ولماذا لا يتركون هذا المكان إلى غيره ؟ والآن وبعد الاكتشـافات البترولية صاروا هم أغنى الناس وتأتيهم كل خيرات الدنيا تـحت أقدامهم . لماذا ؟ لأنهم تمسَّكوا بأرضهم وبـلادهم وصبروا عليها ، حتى آن الأوان لجنى خيـراتها ، ولو أنهم يئسوا منها ما نالوا كل هذا الخير .

وسبق أنْ أوضحنا أن خيرات الأرض متساوية ، وشبهناها بقطاع طولى فى البطيخة مثلاً ، وإنْ تعددت ألوان هذه الخيرات واختلفت من مكان لآخر .

والأخرى : أن تكون السيـاحة للاعتبـار والتأمل فى آيات الله فى كـونه ، فبـالتنقل والسـير فى الأرض أرى آيات ليـست موجـودة فى بيئتى ، وفى ذلك يقول تعالى : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِـرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَـدِيرٌ (٢٠)﴾ [العنكبوت] ويقول سبحانه فى موضع آخر :

﴿قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. (١١)﴾ [الأنعام]

والمعنى أن السَّيْر فى الأرض لابتغـاء الرزق ينبغى أنْ يصاحـبه نظر وتأمُّل لآيات الله .

ثم يقول سـبحانه : ﴿وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى

النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ .. ﴿٥٣﴾ [الأحزاب] أى : لا ينبغى أنْ تجلسوا بعد الطعام للحديث ، وتجعلوها (سهراية) فى بيت رسول الله ، وهذا النهى كان له سبب وحادثة وقعتْ ، فنزلت هذه الآية . سيدنا رسول الله لم يُولم وليمة في عُرْس من أعراسه إلا لزينب بنت جحش ، فذبح ﷺ شاة ، وأعدَّ لهم الحَيْس ، وهو التمر المخلوط بالزبد والسمن ، ثم يوضع عليه اللبن الحامض أو الرايب .

فلما أكل الناس جلسوا يتحدثون ، انتظر رسول الله أنْ يقوموا وينصرفوا ، فلم يَقُمْ منهم أحد ، وحياؤه ﷺ يمنعه أنْ يقول لهم : قوموا ، فأراد ﷺ أنْ يُظهر لهم أنه يريد أنْ يقوم ، وقام فعلاً وخرج ، فلم يقُم منهم أحد ووجَد ﷺ آخرين جالسين بالخارج ، فعاد إلى مجلسه ، فشعر القوم بما يريده رسول الله فانصرفوا .

يقول سيدنا أنس : فجئتُ فأخبرتُ رسول الله أنهم انطلقوا ، فجاء ﷺ ودخل ، فذهبت لأدخل وراءه ، فألقى الحجاب بيني وبينه ـ يعني : لا أحد يدخل حتى أنت .

ومعنى : ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ .. ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب] لأنه ﷺ يريد أنْ تنصرفوا ، لكن يمنعه حياؤه ، وهذا لأن المكان ضيِّق ، ورسول الله في يوم عُرْس ، وليس من المناسب الجلوس عنده .

﴿وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ .. ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب] لذلك قالوا[1] : حَسْبُ الثقلاء أن الله لم يحتملهم . هكذا حدثتنا الآية في صدرها عن :

(١) قاله ابن أبي عائشة في كتاب الثعلبي أنه قال : حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم . [ذكره القرطبي في تفسيره ٨/٥٤٩٢] .

آداب الدخول ، وآداب الاستئذان ، وآداب الأكل ، وآداب الجلوس عند رسول الله .

ثم تحدثنا بعد ذلك عن الآداب التي يجب أنْ يتحلَّى بها المؤمنون في علاقتهم بزوجاته ﷺ : ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب]

المتاع : أواني البيت التي لا تتيسَّر للجميع ، فعادة ما يكون في الشارع أو الحارة بيت أو بيتان مَسْتوران ، عندهم مثل هذه الأشياء : ماجور العجين ، أو المنخل ، أو الغربال ، أو الهون .. إلخ .

ومثل هذه الأشياء عادة لا تتوفر للفقير ، فيذهب إلى جاره فيستعيرها منه ، وهذا ما قال الله فيه . ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)﴾ [الماعون]

فالمتاع هو الماعون ، وهو أدوات البيت التي يستعيرها منك جارك غير القادر على توفيرها في بيته .

إذن : الحق سبحانه في حين جعل للمؤمنين أدباً خاصاً مع رسول الله في الدخول عليه أو الأكل في بيته والجلوس عنده ، لم يمنع الانتفاع بما عنده ﷺ من متاع البيت ، ومتاع البيت يُطلَب بأنْ تطرق الباب على أهله تقول : أعطونا كذا وكذا ، وعادة ما تُسأل المرأة لأنها ربةُ البيت والمسئولة عن هذا المتاع ، فإذا طلبتُم شيئاً من زوجات النبي فاطلبوه من وراء حجاب ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب]

سبق أنْ قُلْنا : إن المشاعر والإدراكات والمواجيد والعقائد التى تستقرُّ فى النفس ، هذه المظاهر الشعورية تتكون على مراحل ثلاث : آلة تدرك ، ووجدان يستقبل ، إما بالمحبة ، وإما بالكراهية ، ثم نفس تنزع ، ومثَّلْنا لذلك بالوردة تراها فى البستان جميلة نضرة ، وتشُمُّ رائحتها زكية عطرة ، فهذا إدراك بحاسة البصر وحاسة الشم ، نتج عنه إعجاب ومواجيد ، يترتب عليها أنْ تمدَّ يدك لتقطفها ، وهذا هو النزوع .

والشرع لا يتدخل ، لا فى الإدراك ، ولا فى الوجدان ، إنما يتدخل فى النزوع ، فلَكَ أنْ ترى جمال الوردة كما تشاء ، ولك أنْ تشمَّ عبيرها ، لكن إن امتدَّتْ يدُكَ إليها قُلْنا لك : قف : أهى حَقٌّ لك ؟ إنْ كانت حقك فَخُذْهَا ، وإلا فهى مُحرَّمة عليك لأنها ليستْ ملْكك ، وليس فى هذا حَجْراً على حريتك ؛ لأن الذى قيَّد حريتك فى الاعتداء على مال الغير قيَّد حرية الآخرين فى الاعتداء عليك ، فأعطاك قبل أنْ يأخذ منك . إذن : فالشرع فى صالحك أنت .

نقول : الشرع لا يتدخل إلا عند مرحلة النزوع ، إلا فى علاقة الرجل بالمرأة والنظر إلى جمالها ، فإنه يتدخل فيها من بدايتها ، فيحظر عليك مجرد الإدراك ، لأنك حين ترى جمال المرأة ، وربما كانت أجمل من امرأتك أو لم يسبق لك الزواج ، فإنك تُعجب بها .

وهذا الإعجاب لا بُدَّ أنْ يدعوك إلى النزوع ، فكيف تنزع فى هذه الحالة ؟ والنزوع فى هذه المسألة له شروط : أولها أنْ تأتيه من باب الحلال ، فإنْ لم تكُنْ قادراً على باب الحلال ، فإما أنْ تعفَّ نفسك ، وإما أنْ تعربد فى أعراض الآخرين ، لذلك تدخَّل الشرع فى هذه المسألة من أولها ، ولم يتركك حتى تقع فى المحظور وتنزع فيما لا يحلُّ لك ؛ لأن المرأة الجميلة لا شكَّ تهيج فى الرجل معانى خاصة .

وفى ذلك يقول الشاعر[1] :

سُبْحانَ مَنْ خَلَقَ الجَمَا ... لَ والانْهِزَام لِسَطْوته
وَكَذَاكَ يأمُرنَا بغَضّ ... الطَّرْف عنه لرحمته
من شاء يطلبه فلا ... إلاَّ بطُهْر شريعته
وبذا يدُوم له التمتُّع ... هاهُنا وبجنَّته

أما الذى يدَّعى أن نظره إلى جمال المرأة لا يترك فيه هذا الأثر فهو مخالف للطبيعة ، حتى وإنْ كان متزوجاً ، وإياك أنْ تظن أن امرأة تُغنى بجمالها عن جمال فى سواها ؛ لذلك يقولون : النساء كالخمر ، كل مليحة بمذاق ، فمهما كانت زوجتك جميلة ، وفيها كل المواصفات التى تعجبك فسوف تجد فى غيرها الجديد مما ليس فيها . إذن : من رحمة الله بك أنْ لا تدخل فى هذه المسألة من أول مراحلها ، فحرَّم مجرد النظر .

وإذا كان هذا فى المعنى العام للناس ، فكيف يكون مع زوجات النبى ﷺ ، وقد قال تعالى مخاطباً المؤمنين ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] أى بالنظر إلى زوجاته ؛ لأن النظر إدراك يتبعه أنْ تجد فى نفسك شيئاً ، صحيح أنت لا تستطيع أنْ تُقدِم ؛ لأنهن أمهات المؤمنين ، إنما سينشغل قلبك ، ومجرد خواطر القلب هنا إيذاء لسيدنا رسول الله ، بدليل أنه قال بعدها : ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب]

ورُوِى أن رجلاً رأى السيدة عائشة قبل الحجاب فانبهر بها ، فقال : والله إنْ مات رسول الله لأتزوجنَّ هذه الحميراء ، وإنْ كان كفَّر عن هذه القَوْلة وحَجَّ ماشياً ، وأعتق الرقاب ، ليغفر الله له هذه الجرأة

(١) من شعر الشيخ رحمه الله .

على رسول الله ﷺ[1] .

فمعنى ﴿ذَلِكُمْ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] أى : أمرنا بأنْ تسألوهنَّ من وراء حجاب ، وهذا الأمر احتياط للطرفين ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] لقلوبكم أولاً ، ولقلوبهن ثانياً .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] أى : لا ينبغى ولا يكون ، وهذا يعنى أنَّ شيئاً لم يحدث ، بل مجرد الخاطر يُعَدُّ إيذاءً ؛ لأنه فى حق مَنْ ؟ فى حق رسول الله .

وقوله : ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] هذا تكريم لرسول الله ولأزواجه ليس فى مدة حياته فحَسْب ، إنما حتى بعد مماته ؛ لأنهنَّ أمهات للمؤمنين ، وليس لأحد أنْ يتزوج منهن بعد رسول الله .

---

(١) تحقيق هذا الأمر أن رجلاً قال : لو قبض رسول الله ﷺ تزوجت عائشة ، فنزلت هذه الآية ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] ، ولكن اختلف فى تحديد هذا الرجل .

– قال ابن عباس فى رواية عطاء : قاله رجل من سادة قريش . ذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص ٢٠٦) .

– وقال ابن عباس أيضاً ـ ليزيد الأمر تحديداً ـ : قال رجل من سادات قريش من العشرة الذين كانوا مع رسول الله ﷺ على حراء فى نفسه : لو توفى رسول الله ﷺ لتزوجت عائشة ، وهى بنت عمى . ذكره القرطبى فى تفسيره (٨/٥٤٩٧) نقلاً عن القشيرى أبى نصر عبد الرحيم

– قال قتادة ومقاتل ومعمر والسدى أنه طلحة بن عبيد الله ، بل إن السدى نقل كلاماً لا يليق أن يكون قد صدر من طلحة رضى الله عنه . انظر الدر المنثور للسيوطى (٦/٦٤٣).

قال ابن عطية : هذا عندى لا يصح على طلحة بن عبيد الله . قال شيخنا أبو العباس : وقد حكى هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة . وحاشاهم عن مثله والكذب فى نقله ، وإنما يليق مثل هذا القول بالمنافقين الجهال . نقله القرطبى فى تفسيره (٨/٥٤٩٧) ثم قال : يُروى أن رجلاً من المنافقين قال حين تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة بعد أبى سلمة ، وحفصة بعد خنيس بن حذافة : ما بال محمد يتزوج نساءنا ، والله لو قد مات لأجلنا السهام على نسائه ، فنزلت الآية فى هذا .

ومعلوم أن للزوجة بالنسبة لزوجها خصوصيةً ، فعادةً في طبيعة التكوين الإنساني ترى الرجل عنده ألوان من الخير ، فإنْ كان صاحب أريحية لا يمنعك شيئاً تتطلبه أو تستعيره منه ، يعطيك من ماله ، من متاع بيته ، يعيرك سيارته .. إلخ .

إلا ما يتعلق بالمرأة ، فإنه يغار حتى من مجرد أنْ تنظر إليها ، ليس ذلك وهي في حوزته ومِلْكه ، إنما حتى لو كان كارهاً لها ، حتى لو طلقها يغار عليها أن تتزوج بآخر .

إذن المرأة هي المتاع الوحيد الذي يحتل هذه المنزلة ، وينال هذا الحفظ وهذه الرعاية . لماذا ؟ لأنها وعاء النَّسْل ، وكأن الله تعالى يريد للأمة كثرة النسل شريطة أنْ يكون من طُهْر وعِفَّة ونقاء ، فوضع في قلب الرجل حُبَّها والغيرة عليها .

لذلك ، تأمل هذا الوصف الذي وصف الله به الأنصار لما استقبلوا المهاجرين ، وأفسحوا لهم في أملاكهم وفي بيوتهم ، فوصفهم الله وصفاً أرقى ما يُوصف به مكان في مكين .

فقال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ .. (٩) ﴾ [الحشر] فكأنهم يسكنون في الإيمان ﴿ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. (٩) ﴾ [الحشر]

وما استحق الأنصارُ هذا الوصفَ من الحق سبحانه إلا لإيثارهم إخوانهم المهاجرين وبَذْل شيء لم يبذله أحد قبلهم ، حيث كان الواحد منهم يعرض على أخيه المهاجر أنْ يُطلِّق له إحدى زوجاته ليتزوجها ، وهذه هي المسألة التي تثبت أن إيمانَ هؤلاء طغى على كل ما عداه ، وصار أحبُّ شيء إليهم حتى من المرأة ، ومن الغيرة عليها .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكُمْ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : ما سبق أنْ ذُكر من سؤال أمهات المؤمنين من وراء حجاب ، وألاَّ تؤذوا رسول الله ، أو تنكحوا أزواجه من بعده ، كل هذا ﴿ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأحزاب] وكيف يُؤْذَى رسولُ الله ، وهو ما جاء إلا ليحمينا من الإيذاء فى الدنيا وفى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾

فكان فى الآية إشارة تحذير : إياكم أنْ تسرقكم خواطركم فى هذه المسألة ؛ لأن ربكم لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزُبُ عن علمه شىء ، وإنْ كانت الخواطر والهواجس لا يُحاسب عليها المرء ، إلا أنها محظورة منهى عنها ، إنْ كانت فى حَقِّ رسول الله .

لقد ورد فى الحديث الشريف : « مَنْ هَمَّ بسيئة فلم يعملها كُتبت له حسنة »[1] هذا فى الأمور العامة ، أما إنْ تعلَّق الأمر برسول الله فلا ؛ لأن مراد الحق سبحانه أنْ يُوفِّر طاقة رسول الله للمهمة التى أُرسل بها ، وألاَّ يشغله عنها شاغل ، وأىُّ مهمة أعظم من مهمة هداية العالَم كله ، ليس فى زمنه ﷺ ، وإنما منذ بعثته وحتى قيام الساعة .

وقوله تعالى : ﴿ إِن تُبْدُوا شَيْئًا .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : أىّ شىء

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة ضعف ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب وإن عملها كتبت » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣٠) كتاب الإيمان .

مهما كان ﴿أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤)﴾ [الأحزاب] وعليم صيغة مبالغة في العلم ؛ لأن عِلْم الله تعالى عِلْم أزليٌّ ليس مُتجدِّداً بتجدُّد الحدث ، فالله يعلم قبل الفعل وأثناء الفعل وبعده .

لذلك قلنا : إن الزمن عندنا نحن ماض وحاضر ومستقبل ، أما بالنسبة للحق سبحانه فليس هناك ماض ولا حاضر ولا مستقبل ؛ لذلك يتكلم سبحانه عن المستقبل وكأنه ماض .

واقرأ مثلاً : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١)﴾ [النحل] وأتى فعل ماض ومع ذلك قال بعده ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١)﴾ [النحل] والاستعجال لا يكون إلا لشيء لم يَأْتِ وقته ، فكأن (أتى) معناها بالنسبة لكم سيأتي ، أما بالنسبة للحق سبحانه فإنه أتى بالفعل ؛ لأن الزمن كله في علم الله سواء .

ومعنى : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤)﴾ [الأحزاب] أي : كان وما يزال عليماً ؛ لأنه سبحانه ما دام كان عليماً ، وهو سبحانه لا تتأتى فيه الأغيار ، فهو سبحانه عليم فيما مضى ولا يزال ؛ لأنه لا يتغير . فكان هنا لا تعني أن علمه تعالى نتيجة لحدثكم الذي أحدثتموه ، إنما هو سبحانه عالم قبل أنْ يحدث منكم .

وهذه الآية من الآيات التي وقف عندها المستشرقون ؛ ليستدركوا كما يظنون على كلام الله ؛ لأنهم دائماً يتهموننا أننا ننظر إلى القرآن بقداسة ، وأنه كلام الله فلا نُعمل فيه عقولنا ، وأنهم حين يُدقّقون في القرآن ويتجرأون على البحث فيه يجدون فيه مآخذ - على حَدِّ زعمهم .

ووَجْه اعتراضهم في قوله تعالى : ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ

اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ [الأحزاب] ومثله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [النور]

يقولون : إذا كان الله يمتنُّ بعلم ما نُخفي ، فما الميزة وما العظمة في علم ما نبدي ؟

نقول : إياك حين تقرأ كلام الله أنْ تُحكِّم فيه عقلك قبل أنْ تؤمن أنه صادر من الله تعالى ، وأن هذا كلامه سبحانه ، وعندها أدِرْ المسألة في عقلك وابحثها حتى تصل إلى الحكمة ووجه الإعجاز فيها .

فقوله تعالى ﴿ إِن تُبْدُوا .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأحزاب] الله لا يخاطب فرداً ، إنما يخاطب جمهرة الناس ، والإبداء من الجمهرة لا يمكن لك أن تحدد مصدر الفعل فيه ، بحيث تردُّ كلَّ صوت ، وكلَّ حركة إلى صاحبها .

وسبق أنْ مثَّلنا لذلك بالمظاهرة مثلاً التي تختلط فيها الأصوات وتعلو الهتافات ، وسمعنا مثلاً مَنْ ينادي بسقوط فلان ، أنستطيع في هذه الحالة أنْ تحدد صاحب هذا الهتاف ؟ لا لا نستطيع بسبب اختلاط وتداخل الأصوات ، مع أنه جَهْر أعلنه صاحبه بأعلى صوته وأبداه على الملأ ، ومع ذلك لا تستطيع أنت تحديده .

أما الحق سبحانه ، فيعلم الصوت ، ويعلم صاحبه ، ويعلم أثره ونتيجته ، ويرد كل كلمة ، بل وكل نَفَس إلى صاحبه ، فالذين يحاولون التستُّر والاستخفاء في جمهرة الناس عليهم أنْ يحذروا إنْ شوَّشوا على الخَلْق ، واسْتخفوا منهم ، فلن يستخفوا من الله ، فالله لا تشتبه عليه اللغات ، ولا تختلط عليه الأصوات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ[1] وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا (٥٥) ﴾

بعد أنْ نزلت آية الحجاب : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب] اشتكى أقارب أمهات المؤمنين وقالوا : حتى نحن يا رسول الله ؟ فأنزل الله هذه الآية . ﴿ لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ .. (٥٥) ﴾ [الأحزاب]

ومعنى ﴿ لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ .. (٥٥) ﴾ [الأحزاب] أى : لا حرجَ ولا إثمَ أنْ يدخل عليهن هؤلاء المذكورون ؛ لأن مكانتهم من المرأة معلومة ، ولا يُخْشَى من دخولهم عليها ، وهم : الأب ، والابن ، والأخ ، وابن الأخ ، وابن الأخت .

والكلام فى ﴿ وَلا نِسَائِهِنَّ .. (٥٥) ﴾ [الأحزاب] وهى مضاف ومضاف إليه ، والإضافة فى اللغة تأتى بمعانٍ ثلاثة : بمعنى (مِنْ) مثل أردب شعير يعني : من شعير ، وبمعنى (فى) مثل (مكر الليل) أى : فى الليل ، وتأتى بمعنى (اللام) مثل مال زيد يعنى لزيد ، واللام هنا للملكية أو للاختصاص ، فمعنى مال زيد يعنى :

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٨/٥٤٩٩) : لم يذكر العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين ، وقد يسمى العم أبا . قال الله تعالى : ﴿ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ .. (١٣٣) ﴾ [البقرة] .

ملْك لزيد ، وتقول : لجام الفرس ، فاللجام ليس ملْكاً للفرس ، إنما يختص به .

فهنا كلمة ﴿نِسَائِهِنَّ .. ⁽٥٥⁾﴾ [الأحزاب] تأتي بمعنى (من) وبمعنى اللام أي : نساء لَهُنَّ ، أو نساء منهن ، ولا تأتي هنا بمعنى (في) إذن : فالمراد نساء منهن يعني : من قرابتهن أو نسائهن يعني : التابعين لهن مثل الخدم شريطة أنْ يكُنَّ مؤمنات ؛ لأن المؤمنة هي المؤتمنة على المؤمنة ، أما الكتابية أو الكافرة فلا يصح أنْ تقوم على خدمة المؤمنة ؛ لأنها ربما تَصفُها لقومها .

لذلك نلحظ دقة التعبير هنا في عدم ذكْر الأعمام والأخوال ؛ لأن العم أو الخال - رغم أنه في منزلة الوالد - إلا أنه قد يصف البنت لابنه ، فإنْ كان العم أو الخال ليس له ولد ، فالعلة مفقودة ، ويجوز التساهل معهما - إذن - في الدخول على المرأة ، وإبداء الزينة أمامهما .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ .. ⁽٥٥⁾﴾ [الأحزاب] قلنا : إن ملْك اليمين يأتي من الأسرى في حرب مشروعة ، وقد باشرتَ أسْره بنفسك ، بمعنى أنه لم يكُنْ حراً ، ثم أُخذ وبيع على أنه عبد ، ثم بعد الأسْر يمكن أن تأخذ ملْك اليمين بأنْ تشتريه ، أو تأخذه إرثاً ، أو تأخذه هبة ، وملْك اليمين قد يكون من النساء فتدخل في نسائهن ، أو يكون من الصبيان الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال .

كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. ⁽٣١⁾﴾ [النور]

ويدخل في ذلك أيضاً التابعون الذين يعملون في البيت كالبوابين والسائقين والطباخين .. إلخ ، والشرع يتساهل مع هؤلاء ؛ لأن العرف الاجتماعي يأبى أنْ تنشأ علاقة بين هؤلاء وبين أهل البيت ، فهؤلاء

التابعون يعملون فى البيوت ، وبها نساء وبنات جميلات ، لكن كم من هؤلاء تجرأ على أنْ ينظر إلى سيدته ؛ ذلك لأن المركز الاجتماعى جعل بينهما حاجزاً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَاتَّقِينَ اللَّهَ .. (٥٥) ﴾ [الأحزاب] كأن الحق سبحانه يقول : لقد بينتُ لكُنَّ الحكم فى الدخول على المرأة ، وبينتُ الأنواع التى لا جناحَ عليكُنَّ فى دخولهم ، والحارس عليكُنَّ فى هذا تقواكُنَّ لله ، فتقوى الله هى التى تحملك على طاعته ، وتمنعك من الخروج عنها ، ويكفى بعد الأمر بالتقوى أنْ تعلم ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ .. (٥٥) ﴾ [الأحزاب] وما يزال ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥) ﴾ [الأحزاب]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) ﴾

جاء النبى ﷺ بالخير لأمته مُبشِّراً للمؤمنين ، نذيراً للكافرين ، وكان ﷺ حريصاً على هداية قومه ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة]

كان ﷺ يألم ويحزن إنْ تفلَّتَ أحدٌ من يده ، وخرج عن ساحة الإيمان ، وكان يُكلِّف نفسه فى أمر الدعوة فوق ما يطيق ، وفوق ما طلب منه ، حتى خاطبه ربه بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ[1] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

---

(١) بخع نفسه : قتلها غيظاً أو غماً . قال الفراء فى معنى الآية ، أى : مخرج نفسك وقاتل نفسك . [لسان العرب - مادة : بخع] .

ومعلوم أن سيدنا رسول الله لم يُطلَب منه إلا البلاغ فحسبُ ، أما الهداية فمن الله عز وجل ؛ لأنه تعالى قال : ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ④﴾ [الشعراء]

فلشدة حرصه ﷺ على هداية قومه عاتبه ربه ؛ لأنه شقَّ على نفسه ، فالعتاب هنا لصالحه ﷺ ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ .. ①﴾ [التحريم]

وهذا العتاب أشبه بعتابك لولدك الذى أرهق نفسه فى المذاكرة ، حتى أنك أشفقتَ عليه ، فأنت لا تلومه على تقصير ، إنما على المبالغة فى عمل لا تطيقه قوته .

وقد ظهرت قمة حرْصه ﷺ على أمته حين أنزل الله عليه : ﴿وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ④ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ⑤﴾ [الضحى]

فالتقطها رسول الله من ربه وجعلها لأمته ، فقال : « إذن : لا أرضى وواحد من أمتى فى النار »[1] .

فإذا كان رسول الله حريصاً عليكم بهذا الشكل ، فهو يستحق منكم أنْ تُصلُّوا عليه ؛ لأن كل خير يناله يعُمّ عليكم ، ويعود إليكم ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ⑤⑥﴾ [الأحزاب]

وتلحظ أن الخبر ﴿يُصَلُّونَ .. ⑤⑥﴾ [الأحزاب] خبر عن الله والملائكة ؛ فجمع الحق سبحانه بين صلاته وصلاة ملائكته ، والنبى ﷺ سمع مرة

---

(١) أخرج الخطيب فى « تلخيص المتشابه » عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : لا يرضى محمد ، وواحد من أمته فى النار . وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس أيضا أنه قال : رضاه أن تدخل أمته الجنة كلهم .

خطيباً يخطب ، يقول : مَنْ يتَّقِ الله ورسوله يُثبْه الله ، ومَنْ يعصهما يعاقبه الله ، فقال ﷺ له : « بِئْسَ خطيبُ القوم أنت »[1] لماذا ؟

قالوا : لأنه جمع بين الله تعالى ورسوله في : (ومن يعصهما) ، وكان عليه أنْ يقول : ومَنْ يَعْصِ الله ورسوله ، فالله وحده هو الذي يجمع معه سبحانه مَنْ يشاء . قال سبحانه : ﴿وَمَا نَقَمُوا[2] إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ .. (٧٤)﴾ [التوبة]

أما نحن ، فليس لنا أبداً أنْ نأتي بصيغة تشريكية بين الله تعالى وأحد من خَلْقه .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ .. (٥٦)﴾ [الأحزاب] هكذا قال الله ، وجمع معه سبحانه مَنْ يشاء من خَلْقه ، وأنت لا يجوز لك أنْ تجمعَ هذا الجمع إلا إذا كنتَ تقرأه على أنه قرآن ، فإن أردتَ أنْ تنشيء كلاماً من عندك فلا بُدَّ أن تقول : الله يُصلِّي على النبي ، والملائكة يُصلُّون على النبي .

لذلك احتاط علماء التفسير[3] لهذه المسألة فقالوا أن (يصلون)

---

(١) عن عدي بن حاتم أن رجلاً خطب عند النبي ﷺ فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى . فقال رسول الله ﷺ : « بئس الخطيب أنت . قل : ومن يعص الله ورسوله فقد غوى » . أخرجه مسلم في صحيحه (٨٧٠) ، وأحمد في مسنده (٤/٢٥٦، ٣٧٩) ، وأبو داود في سننه (١٠٩٩) .

(٢) نقم الشيء : أنكره وعابه وكرهه . ومنه قوله تعالى : ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ .. (٥٩)﴾ [المائدة] أي : هل تكرهون وتنقمون منا إلا إيماننا بآيات ربنا ، وهذا أمر لا يقتضي النقمة . [القاموس القويم ٢/٢٨٤] .

(٣) قال القرطبي في تفسيره (٨/٥٥٠٠) : « اختلف العلماء في الضمير في قوله « يصلون » : فقالت فرقة : الضمير فيه لله والملائكة ، وهذا قول من الله تعالى شرَّف به ملائكته . قالوا : لأنه ليس لأحد أن يجمع ذكر الله تعالى مع غيره في ضمير ، ولله أن يفعل في ذلك ما يشاء . وقالت فرقة : في الكلام حذف ، تقديره : إن الله يصلي وملائكته يصلون ، وليس في الآية اجتماع ضمير ، وذلك جائز للبشر فعله .

ليست خبراً للكل ، إنما تقدير الخبر أن الله يصلي على النبي ، والملائكة يُصلُّون على النبي .

وإذا كان الله يُصلِّي على النبي ، والملائكة يُصلُّون على النبي ، فماذا عنكم أنتم ؟ يجب أنْ تُصلوا أنتم كذلك على النبي ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب]

سبق أنْ بيَّنَا أن الصلاة من الله لها معنى ، ومن الملائكة لها معنى ، ومن المؤمنين المأمورين بها لها معنى ، فكُلٌّ بحَسْبه ، والصلاة في الأصل هي الدعاء ، والدعاء يقتضي داعياً ومدعواً له ومدعواً ، فمثلاً حين أدعو الله أنْ يغفر لفلان ، فأنا الداعي ، والله تعالى مدعو ، وفلان مدعو له ، فإذا كان المصلي والداعي هو الله عز وجل ، فمَنْ يدعو ؟ إذن : معنى الدعاء لا يأتي مع الله تعالى .

لذلك قلنا : إنك لو نظرتَ إلى الأحداث تجد أن صاحبك مثلاً إذا قال لك أعِدُك أنْ أعطيك غداً كذا وكذا ، فهذا وَعْد منه ، لا يملك هو من أسباب الوفاء به شيئاً ، أما إنْ قال لك : أدعو الله أنْ يعطيك كذا وكذا ، ونسب العطاء لله تعالى ، فهذا أرْجَى للتحقيق ؛ لأنه منسوب إلى الله ، فإنْ قبل الدعاء تحقق المطلوب ، فإنْ كان الله تعالى هو الذي يأمر لك بهذا العطاء فلا بُدَّ أنْ تناله لا محالة .

إذن : الصلاة من الله ليست بمعنى الدعاء ، إنما هي تنفيذ مباشر ورحمة شاملة وعامة ، ويكفي من رحمته تعالى لنبيه ﷺ أنْ جعله خاتم الرسل ، فلا يستدرك عليه أحد ، يكفيه من رحمته وإنعامه وثنائه عليه أنْ قرن اسمه باسمه ؛ لذلك خاطبه بقوله : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشرح]

يكفيه من تكريم الله له أنه سيقبل شفاعته يوم القيامة ، لا لأمته فحسب ، إنما للخلْق جميعاً ، يكفيه أن الله تعالى خاطب كل رسله بأسمائهم المشخَّصة لهم ، وخاطبه هو بالوصف المكرم في ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الممتحنة] و ﴿ يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [المائدة]

أما عن صلاة الملائكة ، فهي دعاء ، واقرأ : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ [غافر]

فإذا كان الخلْق جميعاً محلَّ صلاة الملائكة واستغفارهم ودعائهم ، حتى الذين أذنبوا منهم ، ثم تابوا ، فما بالك برسول الله ، وهو هادي الناس جميعاً ؟

أما الصلاة من المؤمنين ، فهي الاستغفار ، واستغفارهم ليس لرسول الله ، إنما هو استغفارهم لأنفسهم ؛ لأن رسول الله جاء رحمة لهم ، وما دام جاء رحمةً لهم كان من الواجب ألاَّ يغيب توقيره عن بالهم أبداً ، فَهُمْ إن استغفروا ، فاستغفار عن الغفلة عنه ﷺ ، أو عن أنهم لم يتقدم اسمه ، فيصلون عليه .

والمؤمن حين يُصلِّي على رسول الله ، ماذا يملك من عطاء يُؤدِّيه لرسول الله ؟ ماذا بأيدينا ؟ لذلك تأمل لفظ صلاتك على رسول الله ، إنك لا تقول أصلي ، ولكن تقول : اللهم صلِّ على محمد ، أو صلَّى

الله على محمد ، فتطلب ممَّنْ هو أعلى منك أنْ يُصلى على رسول الله ؛ لأنه لا يوجد عطاء عندك تُؤَدِّيه لرسول الله .

إذن : فالصلاة من الله الرحمة العامة المطلقة ، والصلاة من الملائكة الدعاء ، والصلاة من المؤمنين الاستغفار .

لذلك سُئِلَ سيدنا رسول الله : يا رسول الله تلك صلاة الله ، وتلك صلاة الملائكة ، فما الصلاةُ عليك ؟ يعني كيف ؟ قال ﷺ : « قولوا اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صلَّيتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين ، إنك حميدٌ مجيدٌ »[1] .

ودخل عليه صحابي ، فقال : يا رسول الله ، ما رأيتك بهذه الطلاقة والبِشْر قبل اليوم ؟ فقال ﷺ : « إن جبريل جاءني فأخبرني أن مَنْ صلى عليَّ صلاة صلَّى الله بها عليه عشراً ، وكُتب له عشر حسنات ومُحي عنه عَشْر سيئات »[2] .

وقال عمر رضي الله عنه : دخل رجل على رسول الله ، فسأله : ما الصلاة عليك يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « ذلك من العلم المكنون ، ولولا أنكم سألتموني ما قلته : إن الله وكَّل بي ملكيْنِ ، فإذا صلَّى واحد عليَّ قال الملكان . غفر الله لك . ويقول الله : آمين وتقول

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه (٤٧٩٧) من حديث كعب بن عجرة ، قيل : يا رسول الله ، أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة عليك ؟ قال : قولوا اللهم صَلِّ على محمد وآل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وآل محمد كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » .

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (٦/٦٥٠) وعزاه للبخاري في الأدب المفرد عن أنس ومالك بن أوس بن الحدثان أن النبي ﷺ قال « إن جبريل عليه السلام جاءني فقال : من صلى عليك واحدة صلى الله عليه عشراً ، ورفع له عشر درجات » .

الملائكة : آمين »[1] .

سبحان الله : الله عز وجل بذاته يُؤمِّن على دعاء الملكين .

وقالوا : الصلاة على رسول الله فَرْض على المؤمن ، كالحج مرة واحدة في العمر ، لكنها واجبة عليه عند كل ذِكْر لرسول الله ، لذلك جاء في الحديث : « أبخل البخلاء من ذُكِرْتُ عنده فلم يُصلِّ عليَّ »[2] .

وقوله تعالى بعدها : ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦)﴾ [الأحزاب] لك أنْ تلحظ في صدر الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ.. (٥٦)﴾ [الأحزاب] ولم يَقُلْ سبحانه ويسلمون ، فلما أمر المؤمنين قال ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦)﴾ [الأحزاب] فزاد : وسلِّموا تسليماً .

قال العلماء : لأن الصلاة على رسول الله لا تكون إلا مع التسليم له بمعنى طاعته والإذعان لأمره ، وأن تُسلِّم زمامك له في كل صغيرة وكبيرة ، وإلاَّ فكيف تُصلِّي عليه وأنت تعصي أوامره ، وقد قال تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)﴾ [النساء]

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/٦٥٢) من حديث الحسن بن علي رضي الله عنه وعزاه للطبراني وابن مردويه وابن النجار ، ولفظه : « قال الحسن قالوا : يا رسول الله ، أرأيت قول الله ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ.. (٥٦)﴾ [الأحزاب] قال : « إن هذا لمن المكتوم ، ولولا أنكم سألتموني عنه ما أخبرتكم ، إن الله وكل بي ملكين لا أُذكر عند عبد مسلم فيصلي عليَّ إلا قال ذانك الملكان . غفر الله لك ، وقال الله وملائكته جواباً لذينك الملكين : آمين . ولا أذكر عند عبد مسلم فلا يصلي عليَّ إلا قال ذانك الملكان : لا غفر الله لك ، وقال الله وملائكته لذينك الملكين : آمين » . قال ابن كثير في تفسيره (٣/٥١٥) عن هذا الحديث : « غريب جداً ، وإسناده به ضعف شديد » .

(٢) أخرج أحمد في مسنده (١/٢٠١) ، وابن حبان في صحيحه (٢٣٨٨ - موارد الظمآن) من حديث الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « البخيل من ذُكِرْتُ عنده ثم لم يصل عليَّ » .

ومن معاني التسليم أن نقول : السلام عليك أيها النبي كما نقول في التشهُّد ، والسلام اسم من أسماء الله ، ومعنى : السلام عليك يا رسول الله أي : جعل الله لك وقايةً ، فلا ينالك أحد بسوء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ﴾

الإيذاء : إيقاع الألم من المؤذِى للمؤذَى ، سواء أكان الإيذاء بالقول أم بالفعل ، والإيذاء بهذا المعنى أمر لا يتناسب مع الحق سبحانه وتعالى . إذن ما معنى : يؤذون الله ؟

قالوا : الله تعالى لا يُؤذَى بالفعل ؛ لأنهم لا يستطيعون ذلك ، فهو أمر غير ممكن ، أما القول فممكن ، والإيذاء هنا يكون بمعنى إغضاب الله تعالى بالقول الذي لا يليق به سبحانه ، كقولهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ .. ﴿١٨١﴾ ﴾ [آل عمران] وبعضهم أنكر وجود الله .

وقولهم : ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [المائدة]

وقولهم : ﴿ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [التوبة]

وبعضهم يسُبُّ الدهر ، والله يقول في الحديث القدسي : « يؤذيني عبدي ، وما كان له أنْ يؤذيني ، يسبُّ الدهر ، وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أُقلّبُ الليل والنهار »[1] .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٨٢٦ ، ٦١٨١ ، ٧٤٩١) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٢٤٦) كتاب الألفاظ من الأدب ، وأحمد في مسنده (٢/٢٣٨ ، ٢٧٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وهل الزمن له ذَنْب في الأحداث التي تؤلمك ؟ الزمن مجرد ظرف للحدث ، أما الفاعل فهو الله عز وجل ، إذن : لا تسبُّوا الدهر ، فالدهر هو الله ، وهم أنفسهم قالوا : ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ.. (٢٤)﴾ [الجاثية]

كل هذا إيذاء بالقول ، لكن ينبغي أنْ ننظر فيه : أهو كذب وبهتان ؟ أم قول صادق يقوم عليه دليل ؟ وقد يُؤذيك شخص بكلمة ، لكنك لا تُؤذَى منها ، وفي هذه الحالة يأخذ هو إثمها ، وتسلَم أنت من شرها وتسلم من ألمها .. فهذه الأقوال منهم في الواقع فيها إيذاء ، لكن ليس لله تعالى ، إنما إيذاء لهم ، كيف ؟

الحق - سبحانه وتعالى - حينما استخلف الإنسان في الأرض خلق له الكون قبل أنْ يخلقه فطرأ الإنسان على كون مُعدٍّ لاستقباله ، فيه مُقوِّمات بقاء الحياة ، ومُقوِّمات بقاء النوع ، ثم أعدَّ له أيضاً قانون صيانته ، بحيث إنْ أصابه عطب استطاع أنْ يصلحه ، هذا القانون هو منهجه سبحانه المحفوظ في كتابه ، واقرأ قول الحق سبحانه : ﴿الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾ [الرحمن]

فقانون الصيانة في القرآن موجود قبل أنْ يخلق الإنسانَ ؛ لأن الإنسان خَلْق الله وصَنْعته خلقه الله في أحسن تقويم ، وعلى أحسن هيئة ، ويريد له أنْ يظل هكذا سويَّ التكوين في كل شيء ، فإذا ما خرج هذا الخليفة المخلوق لله على قانون صيانته ، فإنه ولا شكَّ لا بُدَّ أنْ يغضب الله ، لأن الله يريد أنْ تظلَّ صنعته جميلة ، كما أبدعها سبحانه .

إذن : فالذين أنكروا وجود الله ، أو الذين أشركوا به ، والذين

قالوا : « إن الله فقير ونحن أغنياء » أو قالوا : الملائكة بنات الله ... إلخ هذه الأقوال التى ترتب عليها غضب الحق سبحانه ؛ لأنه خليفته فى الأرض لم يُؤدِّ المطلوب منه على حَسْب منهج الله .

ونقول لهؤلاء : إياكم أنْ تظنوا أنكم بكفركم خرجتم من قبضة الحق سبحانه ، بل أنتم فى قبضته ، وتحت مشيئته ، ولو شاء سبحانه لقهركم على طاعته ، أو خلقكم على هيئة الصلاح لا تأتى منكم المعصية كما خلق الملائكة ، إنما جعلكم مختارين فيما كلفكم به، مَنْ شاء آمن ، ومَنْ شاء كفر ، ليعلم مَنْ يقبل عليه بحب لا بقهر .

والدليل على ذلك أنكم مخلوقون ، على هيئتين . هيئة لكم فيها اختيار وهى التكاليف ، وهيئة مقبوضين فى قبضة الحق سبحانه وهى القضاء ، فما دمتم تعودتم التمرد على التكاليف ، فلماذا لا تتمرَّدُون على أقدار الله فيكم ، كالمرض والموت مثلاً ؟

ومع ذلك ما دُمْتَ قد اخترْتَ الكفر وأنا ربّ ، ومطلوب منى أنْ أعينك على ما تحب ، فسوف أختم على قلبك ، بحيث لا يدخله الإيمان ، ولا يخرج منه الكفر الذى تحبه . إذن : أنا جئت على مرادك مما يدل على أن كفرك بى لا يضرنى ولا يؤذينى .

وقد ورد فى الحديث القدسى : (يا عبادى ، إنكم لن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، ولن تبلغوا ضُرِّى فتضرونى)[1] .

وإنْ كانت لكم منطقة اختيار فى الدنيا هى أمور التكاليف ، فسيأتى يوم القيامة ، ويمتنع الاختيار كله ، فلا اختيارَ لأحد فى شيء

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٧٧) ، وأحمد فى مسنده (٥/١٦٠) . والبيهقى فى سننه الكبرى (٦/٩٣) والبخارى فى الأدب المفرد (ص ١٧٢ ، ٤٩٠) من حديث أبى ذر رضى الله عنه الطويل وقد شرح فضيلة الشيخ الشعراوى قطعة منه فى شرح الأحاديث القدسية بتحقيقى (المجلد ٢/ص ٣ - ٤٠) نشر : دار الروضة ـ القاهرة .

يوم يقول الحق سبحانه ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ .. ⑯﴾ [غافر] فلا يجيب أحد ، لا مالك ولا مملوك ، فيجيب الحق سبحانه على ذاته : ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ⑯﴾ [غافر]

هذا في معنى إيذاء الله تعالى ، أما الإيذاء في حقِّ سيدنا رسول الله ، فرسول الله بشر ، يمكن أنْ يصيبه الإيذاء بالفعل والإيذاء بالقول ، فكما قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء قالوا عن رسول الله : كاهن وساحر ومجنون وشاعر ، ثم تعدَّى الإيذاء إلى الفعل الذي أصاب رسول الله وآلمه بالفعل .

ألم يُرْمَ بالحجارة حتى دَميتْ قدماه في الطائف[1] ؟ ألم يضعوا على ظهره الشريف سَلاَ البعير في مكة[2] - أي سَقَط البعير - ألم تكسر رباعيته يوم أحد[3] ويُشَجُّ ويسيل دمه ﷺ ؟

فرسول الله ناله مع ربه - عز وجل - إيذاء بالقول ، ثم ناله إيذاء آخر بالفعل ، إيذاء بشري فيه إيلام ، وقمة الإيذاء بالفعل ما يتعرَّض لأمر محارمه وأزواجه ﷺ .

---

(١) ذكر ابن هشام في السيرة النبوية (٤٢١/٢) « أن أهل الطائف أغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجئوه إلى حائط (بستان) لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة » . أما إدماء رجليه ﷺ فقد ذكره البيهقي في دلائل النبوة (٤١٥/٢) فقال « قعدوا له صفَّين على طريقه ، وجعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة ، وكانوا أعدوها حتى أدموا رجليه » .

(٢) أخرج البيهقي في دلائل النبوة (٢٧٨/٢) من حديث عبد الله بن مسعود قال « بينما رسول الله ﷺ ساجد وحوله ناس من قريش ، وثَمَّ سلا بعير (السلا هو لفافة من الجلد تكون حول الجنين في البطن) فقالوا : من يأخذ سلا هذا الجزور أو البعير فيقذفه على ظهره ، فجاءه عقبة بن أبي معيط فقذفه على ظهر النبي ﷺ ، فلم يرفع رأسه حتى جاءت فاطمة فأخذته من ظهره ودعت على من صنع ذلك » . وهو في صحيح البخاري (٣١٨٥) ، وكذا في صحيح مسلم (١٠٨) كتاب الجهاد والسير .

(٣) أورده ابن هشام في السيرة النبوية (ص ١٤٢٨) غزوة أحد ، عن أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ جعل يمسح الدم وهو يقول : « كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم »

لذلك قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] أي : بمخالفة ما جاء به ، أو بأنْ تتهموه بما ليس فيه ، أو تتعرَّضوا له بإيلام حسي ، ثم لم يخص من ألوان الإيذاء إلا مسألة الأزواج ، فقال : ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا .. (٥٣)﴾ [الأحزاب] وذكر هذه المسألة بالذات صراحةً مراعاة لطبيعة النفس البشرية ، فقد قلنا : إن الرجل يمكن أن يتجمل على أصحابه أو أحبابه بأغلى ما يملك ، لكنه أبداً لا يقبل أن ينظر أحد إلى زوجته ، يحميها ويغارُ عليها من مجرد النظر .

لذلك فإن سيدنا حذيفة ، وكان يحب امرأته ، فقال لها : ألاَ تحبين أن تكوني معي في الجنة ؟ فقالت : بلى ، فقال لها : إذن إذا متُّ فلا تتزوجي بعدي - فهو يغار عليها حتى بعد موته - لأني سمعت رسول الله يقول : « المرأة لآخر أزواجها »[1] .

لكن هذا الحديث وُوجِه بحديث آخر لما سُئل رسول الله : أيُّ نساء الرجل تكون معه في الجنة ؟ فقال : « أحسنهن خلُقاً معه »[2] .

وقد رأى البعض تعارضاً بين هذين الحديثين ، والواقع أنه ليس بينهما تعارض ، لأن الآخرية هنا لا يُراد بها آخرية الزمن ، إنما آخرية الانتقال ، كما لو تمتعتَ برحلة جميلة مع أحد الأصدقاء منذ عشرين سنة ، فلما ذكَّرته بها قال : كانت آخر متعة ، مع أنك تمتعت بعدها برحلات أخرى .

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء (٢/٤١٠) وعزاه للطبراني عن أبي الدرداء وللخطيب عن عائشة . قال : وهذا هو الصحيح . وقيل : لأحسنهم خلقاً . وقيل : تُخيَّر .

(٢) أخرج ابن عدي في (الكامل في ضعفاء الرجال) (٣/٢٦٢) من حديث أم سلمة أنها قالت : يا رسول الله ، المرأة منا تتزوج الزوجين والثلاثة والأربعة ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها من يكون زوجها ؟ قال : يا أم سلمة ، إنها تُخيَّر فتختار أحسنهم خلقاً ، فتقول : أي رب ، إن هذا كان أحسنهم خلقاً معي في دار الدنيا فزوجنيه ، يا أم سلمة ، ذهب الخلق الحسن بخير الدنيا والآخرة . قال ابن عدي : هذا حديث منكر . قال ابن القيم في « حادي الأرواح » (ص ٢٩٦) : « ضعفه أبو حاتم » .

فالمعنى : تكون لآخر أزواجها في المتعة ، وإن كان مُتقدِّماً بحُسْن الخلق ، إذن : فالمعنيان متفقان ، لا تعارضَ بينهما .

ومسألة غَيْرة الرجل على المرأة لها جذور في تاريخنا وأدبنا العربي ، ومن ذلك قول الشاعر(1) :

أَهِيمُ بِدَعْدٍ مَا حَيِيتُ فَإن أَمُتْ   فَوَا أَسَفَى مَنْ ذَا يَهِيمُ بِهَا بَعْدِي

فهو مشغول بها حتى بعد أنْ يموت ، لكن يُؤْخذ عليه أنه شغل بمن يحل محله في هيامه بمحبوبته ؛ لذلك كان أبلغ منه قَوْل الآخر(2) :

أَهِيمُ بِدَعْدٍ مَا حَيِيتُ فَإِن أَمُتْ   فَلاَ صَلُحَتْ دَعْدٌ لِذِي خُلَّةٍ بَعْدِي

إذن : فهذه الغيرة مراتب ودرجات .

ويُحدِّثنا التاريخ أن أحد الخلفاء العباسيين - أظنه الهادي - كان يحب جارية اسمها غادر ، ولشدة حبه لها قالوا إنه تزوجها ، وفي خلوة من خلوات الهيام والعشْق قال لها : عاهديني - لأن صحته لم تكُنْ على ما يرام - إذا أنا متُّ أن لا تتزوجي بعدي ، وفعلاً أعطتْه هذا العهد ، فلما مات الهادي لم تلبث أن نسيَتْ غادر عشقها للهادي ، ونسيتْ حُزْنها عليه - وهذا من رحمة الله بنا أن كل شيء يبدأ صغيراً ثم يكبر إلا المصائب ، فإنها تبدأ كبيرة ثم تصغر .

بعدها تزوجت غادر من أخي الهادي ، وفي يوم من الأيام استيقظت فَزِعة صارخة ، حتى اجتمع عليها مَنْ في القصر ، وسألوها : ماذا بك ؟ قالت : جاءني الهادي في المنام ، وقال لي :

خَالَفْتِ عَهْدِي بَعْدَمَا   جَاوَرْتُ سُكَّانَ المقَابِرْ

ونكَحْتِ غادرةً أخي   صَدَقَ الذي سَمَّاكِ غَادِرْ

---

(1) هو : نُصيب بن رباح ، أبو محجن ، توفي عام ١٠٨ هـ . مولى عبد العزيز بن مروان ، شاعر له شهرة ذائعة . [الموسوعة الشعرية] .

(2) هو : عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي ، وقد عاب بيت نصيب السابق.

لاَ يَهْنك الإلْفُ الجديدُ ولا عَـدتْ عَنْك الدَّوائرْ
ولَحقْتِ بى مُنْذُ الصَّباح وصـرْتِ حَيْثُ ذهبْتُ صائر

وما كادت تنتهى من قولها حتى لفظتْ أنفاسها الأخيرة ، وماتت .

لذلك ، فالحق سبحانه يراعى هذه الغرائز الإنسانية وهذه الطبيعة ، ألا ترى أن عدَّة المتوفَّى عنها زوجُها كانت سنَةً كاملة ، كما فى قوله تعالى[1] : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ .. (٢٤٠) ﴾ [البقرة]

ثم جُعلَتْ عدَّة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام احتراماً لهذه الغَريزة فى المرأة .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه الجزاء العادل لمن يؤذى الله ويؤذى رسول الله ، فيقول سبحانه : ﴿ لَعَنَهُمُ اللَّهُ .. (٥٧) ﴾ [الأحزاب] أى : طردهم من رحمته ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا (٥٧) ﴾ [الأحزاب]

ثم يعطينا الحق سبحانه إشارةً إلى أن هذا الجزاء العادل الذى أعدَّه لمن يؤذى الله ورسوله ليس تعصُّباً لله ، ولا تعصباً لرسول الله ، بدليل أن الذى يؤذى مؤمناً أو مؤمنة لا بُدَّ أن يُجازَى عن هذا الإيذاء ، فسوَّى المؤمن والمؤمنة فى إرادة الإيذاء بإيذاء الله ، وبإيذاء رسول الله ، فقال سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨) ﴾

---

(١) قال الأكثرون : هذه الآية منسوخة بالتى قبلها ، وهى قوله تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا .. (٢٣٤) ﴾ [البقرة] نقل ابن كثير فى تفسيره (٢٩٦/١) أن ابن الزبير قال : قلت لعثمان بن عفان : قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أو تدعها . قال : يا بن أخى لا أغير شيئا منه من مكانه .

لما تكلم الحق سبحانه عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات خَصَّ هذا الإيذاء بقوله ﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا .. (٥٨)﴾ [الأحزاب] لأن هناك إيذاءً مشروعاً أوجبه الله للذين يخرجون على حدوده ، فحَدُّ الزنا والقذف وشرب الخمر .. إلخ كلها فيها إيذاء للمؤمن وللمؤمنة ، لكنه إيذاء مشروع لا يُعاقب مَنْ قام به ، كما في إيذاء الله ورسوله .

لذلك يقول تعالى في اللذين يأتيان الفاحشة : ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا .. (١٦)﴾ [النساء]

والحق سبحانه حين شرع هذه الحدود وهذا الإيذاء ، إنما شرعه ليكون عقوبةً لمن يتعدَّى حدود الله ، وتطهيراً له من ذنبه ، ثم لتكون رادعاً للآخرين ، فسيدنا عمر رضي الله عنه لما قرأ هذه الآية : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. (٥٨)﴾ [الأحزاب] بكى فقال له جليسه : ما يُبكيك يا أمير المؤمنين ؟ قال : لأنني آذيتُ المؤمنين والمؤمنات ، قال : يا أمير المؤمنين إنك تؤذي لتُعلِّم ولتُقوِّم والله تعالى أمرنا أن نرجم ، وأن نقطع ، فضحك عمر وسُرَّ[1] .

بل أكثر من هذا يأمرنا الحق سبحانه في الحدود : ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ .. (٢)﴾ [النور]

لأن الرأفة في حدود الله رحمة حمقاء ، ولسنا أرحم بالخَلْق من

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/٦٥٧) وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : إياكم وأذى المؤمنين فإن الله يحوطهم ويغضب لهم . وقد زعموا أن عمر بن الخطاب قرأها ذات يوم ، فأفزعه ذلك حتى ذهب إلى أُبيّ بن كعب رضي الله عنه فدخل عليه فقال : يا أبا المنذر ، إني قرأت آية من كتاب الله تعالى فوقعت مني كل موقع ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. (٥٨)﴾ [الأحزاب] والله إني لأعاقبهم وأضربهم ، فقال له : إنك لست منهم ، إنما أنت معلم . وانظر تفسير القرطبي (٨/٥٥٠٩) « إنما أنت مُعلِّم ومُقوِّم » .

الخالق سبحانه ، والله تعالى حين يُضخِّم العقوبة ويؤكد عليها ، إنما يريد ألاَّ نجترىء على حدوده ، وألاَّ نُعرِّض أنفسنا لهذه العقوبات ، ولك أنْ تسأل حين تقرأ قوله تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ .. (١٧٩)﴾ [البقرة]

كيف تكون الحياة في القتل ؟ نعم ، في القصاص حياة ؛ لأنك حين تعلم أنك إنْ قتلتَ تُقتَل ، فلن تُقدم أبداً على القتل ، وبذلك حَمَى الله القاتل والمقتول ، وهل يُعَدُّ هذا إيذاءً ؟

ومعنى ﴿بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا .. (٥٨)﴾ [الأحزاب] أي : بغير جريمة تستحق الإيذاء ، وكلمة ﴿اكْتَسَبُوا .. (٥٨)﴾ [الأحزاب] قلنا : هناك فَرْق بين : فعل وافتعل ، فعل أي الفعل الطبيعي الذي ليس فيه مبالغة ولا تكلُّف ، أما افتعل ففعْل فيه تكلُّف ومبالغة ، كذلك كسب واكتسب ، كسب : أنْ تأخذ في الشيء فوق ما أعطيتَ ، كما لو اشتريت بخمسة وبعْتَ بسبعة مثلاً فهذا كسْب ، أما اكتسب ففيها زيادة وافتعال .

لذلك تجد في العُرْف اللغوي العام أن كسب تأتي في الخير واكتسب تأتي في الشر ، مثل قوله تعالى : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. (٢٨٦)﴾ [البقرة] لها ما كسبتْ تفيد الملكية ، وعليها تفيد الدَّيْن .

ذلك لأن الأمر الحلال يأتي طبيعياً تلقائياً ، أما الحرام فيحتاج إلى محاولة وافتعال واحتياط ، فحين تنظر مثلاً إلى زوجتك تكون طبيعياً لا تتكلف شيئاً ، أما حين تنظر إلى امرأة جميلة في الشارع ، فإنك تتلصص لذلك وتسرق النظرات ، خشية أن يطلع أحد على فعلتك ، هذا هو الفرق بين الحلال والحرام .

وفي آية واحدة في كتاب الله جاء الفعل كسب في الشر ، وذلك في قوله تعالى : ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ .. ﴿٨١﴾﴾ [البقرة]

فلماذا ؟ قالوا : لأن الآية فيمَنْ تعوَّد السيئات ، وأحاطت به الخطايا حتى أصبحت عادة ، وسَهُلَتْ عليه حتى صارت عنده كالحلال ، يفعله بلا تكلُّف ، بل ويجاهر به ويتباهى ، هذا هو المجاهر الذي قال فيه رسول الله ﷺ : « كل أمتي مُعَافَى إلا المجاهِرين »[1] وفيه : « ستر الله عليه وأصبح يفضح نفسه » .

وهذا الذي يُسَرُّ بالمعصية ويتباهى بها بلغ به الاحتراف أنه يستطيع أنْ يستر حركات انفعاله في الحرام ، كأنها الحلال بعينه ؛ لذلك جاء الفعل كسب هنا ، وكأن السيئة أصبحت ملكة .

أذكر بمناسبة التكلُّف والافتعال في الحرام رجلاً من بلدتنا اسمه الشيخ مصطفى ، ذهب إلى السوق لشراء بقرة ، وأخذ النقود في جيبه ، ومن حرصه وضع يده على جيبه خوفاً من اللصوص ، فلما رأوه في السوق يمسك جيبه بيده عرفوا أنه ضالتهم ، فكيف احتالوا ليسرقوه ؟ لطخ أحدهم كتفه بروث البهائم ، ثم احتكَّ بالشيخ مصطفى ، حتى اتسخت ملابسه فغضب ، وأخذ ينظف ملابسه من الروث ، ونسى مسألة النقود التي في جيبه فسرقوه .

وكما يأتي الحرام بافتعال ، كذلك يكون العقاب فيه أيضاً افتعال

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠٦٩) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٩٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « كل أمتي مُعافى إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ، ثم يصبح وقد ستره الله فيقول . يا فلان عملتُ البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه » .

ومبالغة تناسب افتعال الفعل ؛ لذلك يقول سبحانه في عقاب الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا : ﴿ فَقَدِ احْتَمَلُوا .. ﴾ (٥٨) [الأحزاب] ولم يَقُلْ حملوا ، وفَرْق بين حمل واحتمل ، حمل تُقال لما في طاقتك حَمْله ، إنما احتمل يعني فوق الطاقة ، وإنْ حملْته تحمله بمشقة ، فالجزاء هنا من جنس العمل ، فكما تفاعلْتَ وتكلَّفْتَ في المعصية كذلك يكون الجزاء عليها .

﴿ فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ (٥٨) [الأحزاب] البهتان : أن تقول في غيرك ما ليس فيه ، فالبهتان كذب ، أمَّا الإثم : فأنْ ترتكب ذنباً في حقه بأن تؤذيه بصفة هي فيه بالفعل ، لكنه يكره أنْ تصفه بها ، كما تقول للأعمى مثلاً : يا أعمى .

لذلك ورد في الحديث لما سُئل سيدنا رسول الله ﷺ : أرأيتَ إنْ كان في أخي ما أقول ؟ قال : « إنْ كان فيه ما تقول فقد اغتبْتَهُ ، وإنْ لم يكن فيه ما تقول فقد بَهتَه »[1] أي : كذبْتَ وافتريْتَ عليه .

ووصف الحق سبحانه الإثم هنا بأنه مبين ﴿ وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ (٥٨) [الأحزاب] يعني : جليٌّ واضح ؛ لأن الوضوح في الإثم إما أن يكون بأنْ تُقر أنت به وتعترف بذنبك ، وإما أنْ يكون بالبينة ، فلو سألناك : أنت قلْتَ لهذا الرجل يا أعمى ، أتحب أنْ تُوصَف أنت بصفة تكرهها ؟ لا بُدَّ أنْ تقول : لا أحب . إذن : فالإثم هنا واضح ، ويكفي إقرارك به .

وينبغي أن تعامل الناس كما تحب أن يعاملوك كما علَّمَنا سيدنا رسول الله ، فكما أنه لا يُرضيك أنْ يسرق الناس منك ، كذلك أنت

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٥٨٩) كتاب البر والصلة ، وكذا أحمد في مسنده (٢/ ٢٣٠، ٣٨٤ ، ٣٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره . قيل أفرأيتَ إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته » .

لا تسرق منهم ، وكما يُؤذيك الإثمُ كذلك يؤذيهم .

ثم يأخذنا الحق سبحانه إلى أدب آخر من آداب الأسرة ، فيقول سبحانه :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ﴾

نلحظ أن الأمر توجَّه أولاً لأزواج النبى ، ثم لبناته ﷺ ، وهذا يعنى أن رسول الله لا يأمر أمته بشىء هو عنه بنجوى ، إنما يأمرهم بشىء بدأ فيه بأهل بيته ، وهذا أدْعَى لقبول الأمر وتنفيذه ، فقبل أنْ آمركم أمرت نفسى فلم أتميز عنكم بشىء .

لذلك جاء فى سيرة القائد المسلم « طارق بن زياد »[1] أنه لما ذهب لفتح الأندلس وقف بجنوده على شاطىء البحر ، وأعداؤه على الشاطىء الآخر ، ثم قال للجنود : أيها الناس أنا لن آمركم بأمر أنا عنه بنجوى ، وإننى عند ملتقى القوم سابقكم ، فمبارز سيِّدَ القوم ، فإنْ قتلتُه فقد كُفيتم أمره ، وإنْ قتلنى فلن يعوزكم أمير بعدى .

أى : إننى سابقكم إلى القتال ، ولن أرسلكم وأجلس أتفرج وأرقب ما يحدث ، يعنى : أنا لا أتميز عنكم بشىء .

---

(١) طارق بن زياد الليثى بالولاء ، فاتح الأندلس ، أصله من البربر ، أسلم على يد موسى بن نصير ، ولى طارقاً ١٢ ألفاً معظمهم من البربر ، فنزل بهم البحر واستولى على الجبل (جبل طارق الذى سمى باسمه) ، وواصل فتوحه فى الأندلس مع موسى بن نصير ، مولده عام ٥٠ هـ ووفاته ١٠٢ هـ عن ٥٢ عاماً . [الأعلام للزركلى ٣/٢١٧] .

وبهذه المساواة أيضاً ساد عمر ـ رضى الله عنه ـ القوم وقاد العالم وهو يرتدى مُرقَّعته بالمدينة ؛ لذلك لما رآه رجل وهو نائم تحت شجرة كعامة الناس قال : حكمتَ فعدلتَ فأمنْتَ ، فنمتَ يا عمر .

وكان ـ رضى الله عنه ـ إذا أراد أنْ يأخذ قراراً فى أمر من أمور رعيته يعلم أن الفساد إنما يأتى أولاً من الحاشية والأقارب والأتباع ومن مراكز القوى التى تحيط به ؛ لذلك كان يجمع قرابته ويحذرهم : أنا اعتزمْتُ أنْ أصدر قراراً فى كذا وكذا ، فوالذى نفسى بيده مَنْ خالفنى منكم إلى شيء منه لجعلته نكالاً للمسلمين ، أيها القوم إياكم أنْ يدخل عليكم مَنْ يدَّعى صلته بى ، فتعطونه غير حق مَنْ لم يعرفنى ، والله إنْ فعلتُم لأجعلنكم نكالاً للمسلمين .

وورود النص القرآنى بلفظ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ .. (٥٩)﴾ [الأحزاب] دليل على أن سيدنا رسول الله كان ينقل النصَّ الذى جاءه ، والصيغة التى تكلَّم الله بها دون أنْ يُغيِّر فيها شيئاً ، وإلا فقد كان بإمكانه أن ينقل الأمر لأزواجه ، فيقول : يا أيها النبى أزواجك وبناتك يدنين عليهن من جلابيبهن . إنما نقل النص القرآنى كما أُنزل عليه ؛ ليعلم الجميع أن الأمر من الله ، وما محمد إلا مُبلِّغ عن الله ، فمَنْ أراد أنْ يناقش الأمر فليناقش صاحبه .

وأزواج النبى ﷺ ساعة نزلتْ عليه هذه الآية كُنَّ تسعة أزواج ، كرَّمهن الله وخيَّرهن فاخترْنَ رسول الله . كان منهن خمس من قريش هُنَّ : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وأم سلمة ، وسودة بنت زمعة ، وثلاث من سائر العرب هُنَّ : ميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت جحش ، وجُويرية بنت الحارث من بنى المصطلق ، وواحدة من نسل هارون أخى موسى ـ عليهما السلام ـ هى السيدة صفية بنت حيى بن أخطب .

أما بنات رسول الله ، فرسول الله أنجب البنين والبنات : البنون ماتوا جميعاً في الصِّغَر ، أما البنات فأبقاهُنَّ الله حتى تزوَّجْنَ جميعاً ، وهُنَّ : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم .

وأصغرهن فاطمة ، وهي الوحيدة التي بقيتْ بعد موت سيدنا رسول الله ، أما زينب ورقية وأم كلثوم فقد مُتْنَ في حياة رسول الله.

ولفاطمة قصة في الضحك والبكاء ؛ لذلك بعض العارفين كان يقول في قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣)﴾ [النجم] أن السيدة فاطمة حينما سُئلت ما الذي أبكاك وما الذي أضحكك ؟ قالت : لأنني لما دخلتُ على أبي وهو مريض قال لي : إن هذا هو مرض الموت يا فاطمة فبكيت ، ثم انصرفتُ فأشار إليَّ وقال لي : يا فاطمة ستكونين أول أهل بيتي لحوقاً بي فضحكت . لذلك لم تمكث فاطمة بعد رسول الله إلا ستة أشهر[1] .

وقد أخذ العلماء من هذا الحديث أن لقاء الأموات يكون بمجرد الموت ، وإلا لو كان اللقاء في البعث والقيامة لاستوى في ذلك مَنْ مات أولاً ، ومَنْ مات آخراً ، فدلَّ قوله : « ستكونين أول أهل بيتي لحوقاً بي » على أن لقاءه ﷺ بها سيكون بمجرد أنْ تموت .

الشاهد في هذه القصة أن أحدهم - أظنه الإمام علياً - قال لفاطمة : الله يقول ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣)﴾ [النجم] أما رسول الله فأبكاك أولاً ، ثم أضحكك حتى لا يكون أضحك وأبكى كربه .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٧٧ ، ٢٤٠) من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ دعا فاطمة ابنته فسارَّها فبكت ، ثم سارَّها فضحكت ، فقالت عائشة : فقلت لفاطمة : ما هذا الذي سارك به رسول الله ﷺ فبكيت ، ثم سارك فضحكت ؟ قالت : سارني فأخبرني بموته فبكيت ، ثم سارني فأخبرني أني أول من أتبعه من أهله فضحكت .

أما السيدة زينب[1] فتزوجت العاص بن الربيع[2] قبل أنْ يُحرَّم الزواج من الكفار ، وقد أُسر العاص في غزوة بدر ، فذهبتْ زينب لتفديه ، وقدمتْ قلادة كانت معها ، فلما رآها رسول الله وجد أنها قلادة خديجة ـ رضي الله عنها ـ قد وهبتْها لابنتها ، فقال : إنْ رأيتم أنْ تردوا لها قلادتها وتفكُّوا لها أسيرها فافعلوا ، فردَّ ﷺ الأمر إلى مَنْ ينتفع به ، فتنازلوا عن القلادة[3] .

أما رقية وأم كلثوم فلهما حوادث ، منها حوادث مؤسفة ، ومنها حوادث مبهجة ، أما المؤسف فإنَّ عتبة بن أبي لهب عقد على رقية ، وأخوه عتيبة عقد على أم كلثوم ، وكان هذا قبل بعثة رسول الله ﷺ ، فلما بُعث رسول الله وحدث ما حدث بينه وبين أبي لهب وأنزل الله تعالى:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) ﴾ [المسد]

قال لابنه عتبة : رأسي ورأسك عليَّ حرام حتى تُطلِّق رقية فطلَّقها ، بعدها مرَّ عتبة على رسول الله ، وفعل فَعْلةً فيها استهزاء برسول الله ، فقال له ﷺ : « أكلك كلب من كلاب الله »[4] .

---

(١) زينب بنت سيد البشر محمد بن عبد الله ، كبرى بناته ، تزوج بها ابن خالتها أبو العاص ابن الربيع ، ولدت له عليًا وأمامة ، فمات على صغيراً ، وبقيت أمامة فتزوجها على بن أبي طالب بعد موت فاطمة الزهراء . توفيت زينب عام ٨ هـ ، أي قبل وفاة رسول الله بعامين . [الأعلام للزركلي ٣/٦٧] .

(٢) هو : أبو العاص القاسم بن الربيع بن عبد العزى ، صحابي ، زوج زينب كبرى بنات النبي ﷺ ، تزوجها في الجاهلية بمكة وتأخر إسلامه ، فكانت عند أبيها بالمدينة وأسلم فأعيدت إليه . غلب عليه لقب (أبو العاص) وكان يلقب « جرو البطحاء » ويقال له «الأمين» توفى عام ١٢ هجرية . [الأعلام للزركلى ٥/١٧٦]

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١٠/٣١) ، أسره عبد الله بن جبير في بدر ، وجاء أخوه عمرو بن الربيع ليفتكيه ، وبعثت معه زينب بنت رسول الله ، وهي يومئذ بمكة بقلادة لها كانت لأمها خديجة ، كانت خديجة قد أدخلتها بها على أبي العاص حين تزوج بها .

(٤) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/٣٣٨ ، ٣٣٩) ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/١٩) وعزاه للطبراني مرسلاً وقال : « فيه زهير بن العلاء وهو ضعيف » وقد أخرجه الحاكم في مستدركه (٢/٥٣٩) من حديث أبي عقرب وصححه ، وحسَّنه ابن حجر في الفتح (٤/٣٩) .

أخبر عتبة أباه بما كان من دعاء رسول الله عليه ، وكان أبو لهب يعلم صِدْق رسول الله ، وأن دعاءه مستجاب لا يردُّ ، فخاف على ابنه ، وأخذ يحتاط له ، ويوصى به رفاقه فى رحلات تجارته - وعجيب أنه مع هذا كله لم يؤمن .

وفعلاً كان عتبة فى رحلات التجارة ينام فى وسط القوم ، وهم يحيطون به من كل جانب ، وفى إحدى الليالى جاءه أسد ، فأخذه من بين القوم ، ولم يَبْقَ منه إلا ما يُعرف به .

علَّق على هذه الحادثة أحد المغرضين فقال : إن رسول الله قال : « أكلك كلب » وهذا أسد ، فردَّ عليه أحد العارفين فقال : إذا نُسب الكلب إلى الله ، فلا بُدَّ أنْ يكون أسداً ، فرسول الله لم يقل - كلب من كلابكم ، إنما من كلاب الله[1] .

هذا ما كان من أمر عتبة ، أما عتيبة فقد طلَّق أم كلثوم ، لكنه لم يتعرض لرسول الله بإيذاء ، بل قالوا : إنه كان يستحى أنْ يواجه رسول الله ، لذلك لم يَدْعُ عليه رسول الله .

أما الحادث المبهج فى حياة رقية وأم كلثوم ، فقد أبدلهما الله خيراً من عتبة وعتيبة ، حيث تزوجت رقية من سيدنا عثمان ، فلما ماتت تزوج بعدها من أم كلثوم ؛ لذلك لُقِّب - رضى الله عنه - بذى النورين ، وكانت النساء يُغنين حين تزوج عثمان برقية :

أَحْسَنَ مَا رأى إنْسَانٌ ... رُقَيَّةُ وزوجُهَا عُثْمَانُ[2]

---

(١) الكلب : كل سبع عقور ، ومنه الأسد . قال ابن سيده : غلب الكلب على هذا النوع النابح ، وقد يكون التكليب واقعاً على الفهد وسباع الطير . وقال مالك فى الموطأ : كل ما عقر الناس وعدا عليهم وأخافهم مثل الأسد والنمر والفهد والذئب هو العقور . [انظر فتح البارى لابن حجر العسقلانى ٤/٣٩] .

(٢) لفظ تفسير القرطبى (٨/٥٥١٠) :

أحسنُ شخصين رأى إنسانٌ ... رقيةٌ وبعلُها عثمانُ

فانظر إلى عظم هذا العوض أنْ يُبدلَهُمَا الله بعتبة وعتيبة مَنْ ؟ عثمان ، نعم العوَض هذا ، والعوَض في مثل هذه المسائل إنما يتأتَّى بقبول القضاء في نظائره ، فإذا أُصيب الإنسان فاستسلم وسلَّم الأمر لله ؛ فقال كما علَّمنا رسول الله : « إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ، اللهم أجرْني في مصيبتي - أيًا كانت هذه المصيبة - واخْلُفني خَيْراً منها »[1] .

إذا قال ذلك وعلم أن لله حكمة في كل قضاء يقضيه لا بُدَّ أنْ يُعوِّضه الله خيراً ، وأظن أن قصة السيدة أم سلمة مشهورة في هذا المقام ، فلما توفي زوجها أبو سلمة حزنتْ عليه حزناً شديداً ، ولما جاءها النسوة يُعزِّينها في زوجها قالت إحداهن : يا أم سلمة ، قولي كما قال رسول الله : إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ، اللهم أأجرني في مصيبتي ، واخْلُفني خيراً منها ، فقالت : وهل هناك خير من أبي سلمة ، يعني : هو في نظرها أحسن الناس وخيرهم .

لكنها مع هذا رضيَتْ بقضاء الله فما انقضَتْ عدتُها حتى طرق عليها طارق يقول : يا أم سلمة ، إن رسول الله ﷺ يخطبك لنفسه ، فضحكتْ لأن الله عوَّضها بمَنْ هو خير من أبي سلمة[2] .

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه (٩١٨) كتاب الجنائز من حديث أم سلمة أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول : ما أمره الله : إنا لله وإنا إليه راجعون . اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها ، إلا أخلف الله له خيراً منها » وكذا أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٩/٦) .

(٢) أخرج ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨٧/١٠) من حديث أم سلمة أن أبا سلمة لما احتُضر قال : اللهم اخلفني في أهلي بخير ، فلما قبض قلت ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم عندك احتسبت مصيبتي فأجرني فيها ، وأردت أن أقول : وأبدلني بها خيراً منها ، فقلت : من خير من أبي سلمة ؟ فما زلت حتى قلتها . فلما انقضت عدتها خطبها أبو بكر فردته ، ثم خطبها عمر فردته ، فبعث إليها رسول الله ﷺ فقالت مرحباً برسول الله وبرسوله الحديث .

بعد أن أمر الحق سبحانه أزواج النبي وبناته أولاً بهذا الأدب ثنَّى بنساء المؤمنين ، فقال ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأحزاب] لأن أسرة رسول الله ليست أزواجه وبناته فحسب ، إنما العالم كله ، وكلمة (نساء) جمع ، لا واحد له من لفظه ، فمفرد أزواج زوج ، ومفرد بنات بنت ، أما (نساء) فمفردها من معناها ، لا من لفظها ، فتقول : امرأة ، واستُثْقِل جمع امرأة على امرأت فقالوا : نساء وأصلها في اللغة من النسيء ، قالوا : لأن المرأة أُجِّلَ خَلْقُها بعد خَلْق الرجل ، وفي اللغة : النَّسْء أي : التأخير والتأجيل ، فقالوا : نساء .

ثم يذكر سبحانه الأمر الذي وُجِّه إلى زوجات النبي ، وبناته ونساء المؤمنين جميعاً ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأحزاب] فالفعل ﴿ يُدْنِينَ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأحزاب] مجزوم في جواب الطلب (قُلْ) مثل : اسكُتْ تسلَم ، ذاكر تنجح ، وفي الآية شرط مُقدَّر : إنْ تَقُلْ لهُنَّ ادنين يُدنين .

كما في ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحج] لأن الخطاب هنا للمؤمنات ، وعلى رأسهن أزواج النبي وبناته ، وإنْ لم يستجب هؤلاء للأمر ، فقد اختلَّ فيهنَّ شرط الإيمان .

ومعنى : الإدناء : تقريب شيء من شيء ، ومن ذلك قوله تعالى في وصف ثمار الجنة ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحاقة] أي : قريبة التناول سَهْلَة الجَنْى ، والمراد : يُدنين جلابيبهن أي : من الأرض لتستر الجسم . وقوله : ﴿ عَلَيْهِنَّ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأحزاب] يدل على أنها تشمل الجسم كله ، وأنها ملفوفة حوله مسدولة حتى الأرض .

وكلمة ﴿ جَلابِيبِهِنَّ .. (٥٩) ﴾ [الأحزاب] مفردها جلباب ، وقد اختلفوا في تعريفه فقالوا : هو الثوب الذي يُلْبس فوق الثوب الداخلي ، فتحت الجلباب مثلاً (فانلة) أو قميص وسروال ، ويجوز أن تكون الملابس الداخلية قصيرة ، أما الجلباب فيجب أن يكون سابغاً طويلاً قريباً من الأرض[1] .

وقالوا : الجلباب هو الخمار الذي يغطي الرأس ، ويُضرب على الجيوب - أي فتحة الرقبة - لكن هذا غير كاف ، فلا بُدَّ أنْ يُسدل إلى الأرض ليستر المرأة كلها ؛ لأن جسم المرأة عورة ، ومن اللباس ما يكشف ، ومنه ما يصف ، ومنه ما يلفت النظر .

وشرط في لباس المرأة الشرعي ألاَّ يكون كاشفاً ، ولا واصفاً ، ولا مُلْفتاً للنظر ؛ لأن من النساء مَنْ ترتدي الجلباب الطويل السَّابغ الذي لاَ يكشف شيئاً من جسمها ، إلا أنه ضيِّق يصف الصَّدْر ، ويصف الأرداف ، ويُجسِّم المفاتن ، حتى تبدو وكأنها عارية[2] .

لذلك من التعبيرات الأدبية في هذه المسألة قَوْل أحدهم - وهو على حق - إنَّ مبالغة المرأة في تبرُّجها إلحاح منها في عَرْض نفسها على الرجل . يعني : تريد أنْ تُلفت نظره ، تريد أنْ تُنبِّه الغافل وكأنها تقول : نحن هنا . وإنْ تساهلنا في ذلك مع البنت التي لم تتزوج ،

(١) وهذا ما ذهب إليه القرطبي في تفسيره (٨/٥٥١١) قال : « الجلابيب جمع جلباب ، وهو ثوب أكبر من الخمار . وروى عن ابن عباس وابن مسعود أنه الرداء . وقد قيل : إنه القناع . والصحيح أنه الثوب الذي يستر جميع البدن » .

(٢) أخرج الحاكم في مستدركه (٤/١٨٧) من حديث دحية بن خليفة الكلبي أن رسول الله ﷺ حين بعثه إلى هرقل ، فلما رجع أعطاه رسول الله ﷺ قبطية (ثوب مصرى) فقال : اجعل صديعها (نصفها) قميصاً ، واعط صاحبتك (امرأتك) صديعاً تختمر به . فلما ولى قال : مرها تجعل تحتها شيئاً لئلا يصف . قال الحاكم : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . قال الذهبي : « فيه انقطاع » .

ربما كان لها عُذْر ، لكن ما عذر التى تزوجت ؟

ثم يُبيِّن الحق ـ تبارك وتعالى ـ الحكمة من هذا الأدب فى مسألة اللباس ، فيقول : ﴿ذَٰلِكَ .. (٥٩)﴾ [الأحزاب] أى : إدناء الجلباب إلى الأرض ، وستر الجسم ، وعدم إبداء الزينة ﴿أَدْنَىٰ .. (٥٩)﴾ [الأحزاب] أى : أقرب ﴿أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ .. (٥٩)﴾ [الأحزاب]

فالمرأة المسلمة تُعْرف بزيِّها وحِشْمتها ، فلا يجرؤ أحد على التعرض لها بسوء أو مضايقتها ، فلباسها ووقارها يقول لك : إنها ليست من هذا النوع الرخيص الذى ينتظر إشارة منك ، وليست ممَّنْ يَعْرض نفسه عَرْضاً مُهيِّجاً مستميلاً مُلْفتاً .

وقوله تعالى بعد ذلك وفى ختام الآية ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩)﴾ [الأحزاب] جاء وَصْف المغفرة والرحمة هنا ليشير إلى أن عقوبة الله ليست بأثر رجعى ، فما سبق هذا الأمر من تجاوزات مغفور معفوٌّ عنه برحمة الله ، والعبرة بسلوك المؤمنة بعد أنْ تسمع هذا الأمر بإدناء الجلباب والتستُّر .

والحق سبحانه بمثل هذا الأدب إنما يُؤمِّن حياة المرأة المسلمة ، كيف ؟ نقول : معنى التأمين أنْ نأخذ منك حال يُسْرك ، وحين تكون واجداً ، لنعطيك حينما تكون غير واجد .

كذلك الإسلام حين يستر جمال المرأة ومفاتنها حال شبابها ونضارتها يسترها حين تكبر ، وحين يتلاشى الجمال ، ويحلُّ محلَّه أمور تحرص المرأة على سترها ، فالإسلام فى هذه الحالة يحمى المرأة ويحفظ لها عِزَّتها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ(١) فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ ﴾

المتتبع لموكب الرسالات يجد أن الرسل واجهوا فى نشر رسالتهم ثلاثة أصناف من البشر : صنف آمن ، وصنف كفر ، وصنف وقف متردداً بين الكفر والإيمان ، وهؤلاء هم المنافقون .

ذلك ؛ لأن الرسول حين يُبعث إنما يُبعَث لتغيير وضع اجتماعى بلغ من السوء درجةً لا يحتملها الناس ، فالذى يعانى من هذا الوضع ينتظر هذا الرسول الجديد ، فما أنْ يُبعث حتى يبادر إلى الإيمان به ؛ لأنه جاء بمبادىء جديدة ، لا ظُلْم فيها ، ولا قهر ، ولا استبداد ، ولا رشوة ، ولا فساد .

إذن : مَنْ عضته هذه الأحداث ، وشقى بهذا الفساد سارع إلى الإيمان ، وكذلك آمن أهل مصر ، وما إنْ دخلها الإسلام حتى أسرعوا إليه ، لماذا ؟ لأنهم شَقُوا قبله بحكم الرومان ، وكذلك آمن الفُرْس بمجرد أنْ سمعوا بالإسلام ، ورأوا الأسوة الحسنة فى المسلمين بعد أنْ عَضَّهم فساد غير المسلمين .

ساعة يشْقَى الناسُ بفساد الأوضاع يتطلَّعون إلى منقذ ، فإنْ

(١) أرجف فى الناس أو فى المدينة : خاض فى الفتنة وأشاع الأخبار المقلقة السيئة التى توقع الناس فى الاضطراب . [القاموس القويم ١/٢٥٧] .

جاءهم اتبعوه ، خاصة إنْ كان منهم وله فيهم مَاضٍ مُشرِّف لم يُجربوا عليه كذباً ولا نقيصة .

وهذا ما رأيناه مثلاً في قصة إسلام سيدنا أبي بكر ، فما أنْ أعلن محمد أنه رسول الله حتى سارع إلى الإيمان به دون أنْ يسأله عن شيء ، لماذا ؟ لأنه عرف صِدْقه ، وعرف أمانته ، ووثق من ذلك .

ومثله كان إيمان السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ فما إنْ جاءها رسول الله مُضطرباً مما لاقى من نزول المَلَك عليه حتى احتضنته ، وهدأتْ من رَوْعه ، وانصفته ، وذهبتْ به إلى ورقة بن نوفل لتثبت له أنه على الحق ، وأن الله تعالى لن يُسلمه ولن يتخلى عنه .

وكان مما قالتْ : « والله إنك لتقري الضيف ، وتحمل الكلَّ ، وتُكسِب المعدوم ، وتعين على نوائب الدهر ... »[1] .

لذلك قال العلماء : إن السيدة خديجة كانت أول فقيهة في الإسلام قبل أنْ ينزل الإسلام .

وطبيعي أن يكون أهل الفساد والمستفيدون منه على النقيض ، فهم ينتفعون بالفساد والاستبداد ، ويريدون أن تظلَّ لهم سيادتهم ومكانتهم ، وأنْ يظل الناسُ عبيداً لهم ، يأكلون خيراتهم ويستذلونهم .

وهؤلاء الذين استعبدوا الناس ، وجعلوا من أنفسهم سادةً بل آلهة ، ويعلمون أن الرسول ما جاء إلا للقضاء على سيادتهم وألوهيتهم

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٣) وستة مواضع أخرى من صحيحه ، وأخرجه أيضاً مسلم في صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها .

ومعنى « تحمل الكل » أي . تعين المثقل ومنه الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال . و « تكسب المعدوم » أي : تستفيد المال المعدوم وقد كان النبي ﷺ محظوظاً في تجارته . « تقري الضيف » أي . تطعمه طعام الأضياف . و « نوائب الحق » حادثات الأيام . انظر : شرح النووي على مسلم (٢/٥٦١) ، وفتح الباري للعسقلاني (١/٢٤) .

الكاذبة ، هؤلاء لا بُدَّ أن يصادموا الدعوة ، لا بُدَّ أنْ يكفروا بها ، وأن يحاربوها ، حفاظاً على سيادتهم وسلطتهم الزمنية .

وعجيب أن نرى من عامة الناس مَنْ ألف هذه العبودية ، ورضي هذه المذلة ، واكتفى بأنْ يعيش في كَنَف هؤلاء السادة مهما كانت التبعاتُ ، هؤلاء وأمثالهم هم الذين قالوا : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف]

فبعد أنْ جاءهم الرسول المنقذ ما زالوا يتطلعون إلى عظيم يستعبدهم .

وكلٌّ من هذيْن الفريقين (المؤمن ، والكافر) كان منطقياً مع نفسه ، فالمؤمن آمن بقلبه ، ونطق بلسانه ، والكافر كفر بقلبه ، وكفر بلسانه ، لأنه لم ينطق بكلمة التوحيد ، والإنسان قلبٌ وقالبٌ ، ولا بُدَّ في الإيمان أنْ يوافق القالبُ ما في القلب .

أما الصنف الثالث وهو المنافق ، فليس منطقياً مع نفسه ، لأنه آمن بلسانه ، ولم يؤمن بقلبه ، فهو جبان يُظهر لك الحب ، ويُضمر الكره ؛ لذلك جعلهم الله في الدَّرْك الأسفل من النار .

لذلك ، فالعرب لما سألهم رسول الله أنْ يقولوا : لا إله إلا الله ، ليبطل بها سيادة زعماء الكفر أبوا أن يقولوها ، لماذا ؟ لأنهم يعلمون أنها ليست كلمة تُقال ، إنما لها تبعات ، ويترتب عليها مسئوليات لا يقدرون هم على القيام بها ، ولو أنها كلمة تُقَال لقالوها ، وانتهى العداء بينهم وبين رسول الله .

فمعنى لا إله إلا الله : لا عبوديةَ إلا لله ، ولا خضوعَ إلا لله ، ولا تشريعَ إلا لله ، ولا نافع إلا الله .... إلخ ، وكيف تستقيم هذه المعاني مع مَنْ ألف العبودية والخضوع لغير الله ؟

والحق ـ تبارك وتعالى ـ لما تكلَّم هنا عن المنافقين خَصَّ المدينة، فقال سبحانه ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ .. (٦٠)﴾ [الأحزاب] فالنفاق لم يظهر في مكة ، وهي مَعْقل الكفر والأصنام ، إنما ظهر في المدينة ، وهي التي آوَتْ مهاجري رسول الله ، وكان غالبية أهلها من أهل الكتاب ، وهم أقرب إلى الإيمان من الكفار ، فلماذا هذه الظاهرة ؟

قالوا : لأن الإسلام كان ضعيفاً في مكة ، وصار قوياً في المدينة ، فالنفاق ظاهرة صحية للإسلام ؛ لأنه لولا قوته ما نافقه المنافقون ، فظهور النفاق في المدينة دليل على قوة الإسلام فيها ، وأنه صارت له شوكة ، وصارت له سطوة ؛ لذلك نافق ضعافُ الإيمان ؛ ليأخذوا خير الإسلام ، وليحتموا بحماه ، وإلا فالضعيفُ لا يُنَافَق .

نعم ، ظهر النفاق في المدينة التي قال الله في حق أهلها : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا[1] الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. (٩)﴾ [الحشر]

ويقول عنها رسول الله ﷺ : « إن الإيمان ليأرز[2] إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جُحْرها »[3] .

---

(١) تبوأوا الدار : سكنوا دار الهجرة وهي المدينة أولاً ، وهم الأنصار . وعطف الإيمان على الدار كأنه منزل طيب يسكنه الإنسان ويستريح فيه . [القاموس القويم ١/٨٨] .

(٢) يأرز : أي ينضم ـ الإسلام إلى المدينة ـ ويجتمع بعضه إلى بعض فيها . [لسان العرب ـ مادة : أرز] .

(٣) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (١٨٧٦) ، وكذا مسلم في صحيحه (١٤٧) كتاب الإيمان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . ولفظ الحديث « إن الإيمان » .

وأيضاً القرآن هو الذى قال عن أهل المدينة : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا[1] عَلَى النِّفَاقِ .. (١٠١) ﴾ [التوبة] وهذا ليس استضعافاً للمدينة ، إنما إظهار لقوة الإسلام فيها ، بحيثُ أصبحتْ له سطوة وقوة تُنافق .

هنا قوله تعالى : ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ.. (٦٠) ﴾ [الأحزاب] ساعة تسمع ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ.. (٦٠) ﴾ [الأحزاب] فاعلم أن الله تعالى أقسم بشيء ، وهذا القول هو جواب القسم ، والحق سبحانه لا يُقسم إلا على الشيء العظيم ، ونحن البشر نُقسم لنؤكد كلامنا ، كما تقول : والله إنْ ما حدث من فلان كذا وكذا سأفعل كذا وكذا .

أما الحق سبحانه ، فكلامه صادق ونافذ دون قَسَم ، فما بالكَ إنْ أقسم ؟ لذلك يقول بعض العارفين إذ سمع الله تعالى يُقسم : مَنْ أغضب الكريم حتى ألجأه أن يقسم ؟

كلمة ﴿ الْمُنَافِقُونَ.. (٦٠) ﴾ [الأحزاب] مفردها منافق ، مأخوذ من نَافِقَاء اليربوع ، واليربوع حيوان صغير يشبه الفأر ، يعرفه أهل البادية ، يعيش في جحور ، فيترصدونه ليصطادوه ساعة يخرج من جُحْره ، لكن هذا الحيوان الصغير فيه لُؤْم ودهاء ، فماذا يفعل ؟ يجعل لجُحْره مدخلين ، واحد معروف ، والآخر مستتر بشيء ، فإذا أحس بالصياد على هذا المدخل ذهب إلى المدخل الآخر ؛ لذلك أشبه المنافق تماماً الذى له قلب كافر ولسان مؤمن .

ونلحظ أن المنافقين وصفهم الله هنا بصفات ثلاث ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ .. (٦٠) ﴾ [الأحزاب] فالعطف هنا لا يقتضي المغايرة ، إنما عطف صفات مختلفة لشيء

---

(١) مرد على الشيء : مرن عليه ومهر فيه ، وأكثر ما يُستعمل في الشر ، ومن ذلك قوله : ﴿ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ .. (١٠١) ﴾ [التوبة] . [القاموس القويم ٢/٢٢٢] .

واحد ، وجاءتْ هذه الصفات مستقلةً ؛ لأنها أصبحتْ من الوضوح فيهم ، بحيث تكاد تكون نوعاً منفرداً بذاته[1] .

وقد وصف القرآن في موضع آخر المنافقين بأن في قلوبهم مرضاً ، فقال سبحانه : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)﴾ [البقرة]

وفي هذا دليل على أن الواو هنا أفادت عطف صفة على صفة ، لا طائفة على طائفة ، ومثله العطف في قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ .. (٩)﴾ [الحشر] فالدار أي المدينة ، وكذلك الإيمان يُراد به المدينة أيضاً .

ومعنى ﴿الْمُرْجِفُونَ.. (٦٠)﴾ [الأحزاب] المرجف من الإرجاف ، وهو الهزة العنيفة التي تزلزل ، ومنه قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧)﴾ [النازعات] فالمرجفون هم الذين يحاولون زلزلة الشيء الثابت ، وزعزعة الكيان المستقر ، كذلك كان المنافقون كلما رأوا للإسلام قوةً حاولوا زعزعتها وهزّها لإضعافه والقضاء عليه .

وهؤلاء هم الذين نسميهم في التعبير السياسي الحديث (الطابور الخامس) ، وهم الجماعة الذين يُروِّجون الإشاعات ، ويذيعون الأباطيل التي تُضعف التيار العام وتهدد استقراره .

وكثيراً ما قعد المنافقون يقولون : إن قبيلة فلان وقبيلة فلان

---

(١) قال أبو رزين : هم شيء واحد ، يعني : أنهم قد جمعوا هذه الأشياء . وقيل : كان منهم - أي : من المنافقين - قوم يرجفون ، وقوم يتبعون النساء للريبة ، وقوم يشككون المسلمين . نقله القرطبي في تفسيره (٥٥١٢/٨) .

اجتمعوا للهجوم على المدينة والقضاء على محمد ورسالته ، وهدفهم من هذه الإشاعات إضعاف وهزيمة الروح المعنوية لدى المسلمين الجدد والمستضعفين منهم .

حتى على مستوى الأفراد ، كانوا يذهبون إلى مَنْ يفكر فى الإسلام ، أو يرون أنه ارتاح إليه ، فيقولون له : ألم تعلم أن فلاناً أخذه قومه ، أو أخذه سيده وعذَّبه حتى الموت لأنه اتبع محمداً ، ذلك ليصرفوا الناس عن دين الله .

إذن : المرجِفُ يعني الذي يمشي بالفتنة والأكاذيب : ليصرف أهل الحق عن حقهم ، بما يُشيع من بهتان وأباطيل .

لذلك يهددهم الحق سبحانه : لئن لم ينته هؤلاء المنافقون عن الإرجاف في المدينة وتضليل الناس لَيكُونَنَّ لنا معهم شأن آخر ، كان هذا وقت مهادنة ومعاهدة بين المسلمين واليهود وأتباعهم من المنافقين ، وكأن الله تعالى يقول : لقد سكتنا على جرائمهم إلى أنْ قويَتْ شوكة الإسلام ، أما وقد صار للإسلام شوكة فإنْ نقضوا عهدهم معنا فسوف نواجههم .

وعجيب من هؤلاء المرجفين أنْ يظنُّوا أن الله لا يعلم أباطيلهم ، ولا يعلمها رسوله ، والله تعالى يقول : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ۝٢٩ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ۝٣٠﴾ [محمد]

ومعنى لحن القول : أن يميلوا بالكلام عن غير معناه ، ومن ذلك قولهم فى السلام على رسول الله : السام عليكم ، والسام هو الموت ، وكما لووا ألسنتهم بكلمة (راعنا) فقالوا : راعونا يقصدون الرعونة .

وأغرب من ذلك ما حكاه القرآن عنهم : ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ..۝٨﴾ [المجادلة]

فهذا القول منهم دليل على غبائهم . أولاً : لأنهم يتمنَّونَ العذاب .

ثانياً : لأنهم قالوا ذلك في أنفسهم لم يقولوا للناس ، ولم يقولوا حتى لبعضهم البعض ؛ لأن (يقولون) جمع ، و (فى أنفسهم) جمع ، فكأن كلاً منهم كان يقول ذلك فى نفسه .

إذن : ألم يسأل واحد منهم نفسه . مَن الذى أعلم رسولَ الله بما فى نفسى ؟ ألاَ يدل ذلك على أن محمداً موصول بربه ، وأنه لا بُدَّ فاضحهم ، وكاشفٌ مكنونات صدورهم ، إذن : هذا غباء منهم .

والمتتبع لتاريخ اليهود والمنافقين فى المدينة يجد أن الإسلام لم يأخذهم على غرَّة ، إنما أعطاهم العهد وأمَّنهم ووسَّع لهم فى المسكن والمعيشة طالما لم يُؤذُوا المسلمين ، لكن بلغ رسول الله ﷺ أنهم يتناجوْنَ بالإثم والعدوان ، فبعث إليهم ونهاهم عن التناجي بالإثم والعدوان ، لكنهم عادوا مرة أخرى ، كما قال القرآن عنهم ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴿٨﴾﴾ [المجادلة]

إذن : لم يبْقَ إلا المواجهة على حدِّ قول الشاعر[1] :

أناةٌ فإنْ لَمْ تُغْنِ عقَّبَ بَعْدها ... وَعيداً فإنْ لم يُغْنِ أغنَتْ عَزَائمهُ[2]

لذلك يأتي جواب الشرط : ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ .. ﴿٦٠﴾﴾ [الأحزاب]

فجواب الشرط : ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ .. ﴿٦٠﴾﴾ [الأحزاب] من الإغراء ، وهو باب من أبواب الدراسات النحوية اسمه الإغراء ، ويقابله التحذير، الإغراء : أنْ تحمل المخاطب وتُحبِّبه فى أمر محبوب ليفعله ، كما تقول لولدك مثلاً : الاجتهادَ الاجتهادَ .

---

(١) الشاعر هو . إبراهيم بن العباس الصولي ، كاتب العراق في عصره ، أصله من خراسان ، نشأ في بغداد ، فكان كاتباً للمعتصم والواثق والمتوكل ، ولد ١٧٦ هـ وتوفى ٢٤٣ هـ ، وهو من شعراء العصر العباسى .

(٢) البيت من قصيدة له من بحر الطويل . وانظر الأغاني للأصفهاني والأوائل لأبي هلال العسكرى (ص٤١٩) .

أما التحذير فأنْ تُخوِّفه من أمر مكروه ليجتنبه ، كما تقول : الأسدَ الأسدَ ، أو الكسلَ الكسلَ .

فمعنى ﴿ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ .. ۝٦٠ ﴾ [الأحزاب] أى : نُسلِّطك عليهم ، ونُغريك بمواجهتهم والتصدِّى لهم ، فكأن هذه المواجهة صارتْ أمراً محبوباً يُغْرى به ؛ لأنها ستكون جزاءَ ما فزَّعوك وأقلقوك .

وما دمنا سنسلطك عليهم ، وما دمتم ستصيرون إلى قوة وشوكة تُغرى بعدوها ، فلن يستطيعوا البقاء معكم فى المدينة .

﴿ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً ۝٦٠ ﴾ [الأحزاب] أى : فى المدينة ، وكلمة ﴿ إِلاَّ قَلِيلاً ۝٦٠ ﴾ [الأحزاب] يمكن أنْ يكون المعنى : قليل منهم ، أو قليل من الزمن ريْثما يجدوا لهم مكاناً آخر ، يرحلون إليه مُشيَّعين بلعنة الله .

﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً ۝٦١ ﴾ [الأحزاب]

الملعون : المطرود من رحمة الله ، أو مطرودون من المدينة بعد أنْ كشف الله دخائلَ نفوسهم الخبيثة ؛ لذلك طردهم رسول الله من المسجد ؛ لأنهم كانوا من خُبْثهم ولُؤْمهم يدخلون المسجد ، بل ويُصلُّون فى الصف الأول ، يظنون أن ذلك يستر نفاقهم .

لكن رسول الله كان يطردهم بالاسم : يا فلان ، يا فلان[1] ، فكان ﷺ يعرفهم ، ولم لا وقد قال الله له : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ .. ۝٣٠ ﴾ [محمد]

(١) أورد القرطبى فى تفسيره (٥٥١٥/٨) أنه لما نزلت سورة « براءة » جمعوا ، فقال النبى ﷺ : « يا فلان قم فاخرج فإنك منافق ، ويا فلان قم » فقام إخوانهم من المسلمين وتولوا إخراجهم من المسجد . وانظر أيضاً (زاد المسير) لابن الجوزى (٤٩٢/٣) .

ومعنى ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوا .. (٦١)﴾ [الأحزاب] أى : وُجِدوا ﴿أُخِذُوا .. (٦١)﴾ [الأحزاب] أى : أُسِروا ﴿وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١)﴾ [الأحزاب] ولاحظ المبالغة فى ﴿وَقُتِّلُوا .. (٦١)﴾ [الأحزاب] والتوكيد فى ﴿تَقْتِيلاً (٦١)﴾ [الأحزاب] يعنى : اقتلوهم بعنف ، ولا تأخذكم فيهم رحمة جزاءَ ما ارتكبوه فى حق الإسلام والمسلمين .

ولأن المنافق الذى طُبِع على النفاق صارت طبيعته مسمومة مُلوَّثة لا تصفو أبداً ، فالنفاق فى دمه يلازمه أينما ذهب ، ولا بُدَّ أنْ ينتهى أمره إلى الطرد من أى مكان يحل فيه .

لذلك ، فمع أن الله تعالى قطَّعهم فى الأرض أمماً ، إلا أن كل قطعة منهم فى بلد من البلاد لها تماسك فيما بينها ، بحيث لا يذوبون فى المجتمعات الأخرى فتظل لهم أماكن خاصة تُعرف بهم ، وفى كل البلاد تعرف حارة اليهود ، لكن لابد أنْ يكتشف الناس فضائحهم ، وينتهى الأمر بطردهم وإبادتهم ، وآخر طرد لهم ما حدث مثلاً فى ألمانيا .

وصدق الله حين قال فيهم : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ (١٦٧)﴾ [الأعراف]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ
وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٦٢)﴾

بعد أن بيَّن الحق سبحانه نهاية أعدائه بالتقتيل وانتصار رسوله ﷺ ، أوضح أن هذا ليس شيئاً جديداً فى موكب الرسالات ، إنما هى

سنة مُتبعة ومتواترة ، وهل رأيتم فى موكب الرسالات رسولاً أرسله الله ، ثم خذله أو تخلى عنه ، وانتهى أمره بنصر أعدائه عليه ؟

والسنة : هى الطريقة الفطْرية الطبيعية المتواترة التى لا تتخلَّف أبداً ، فالأمر إذا حدث مرة أو مرتين لا يسمى سُنة ، فالسنة إذن لها رتابة واستدامة .

فالمراد بالسنة هنا غَلَبة الحق على الباطل ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا .. (٦٢)﴾ [الأحزاب] يعنى : الذين مَضَوْا من الأمم السابقة ، وما زالتْ سنة الله فى نصر الحق قائمة ، وستظل إلى قيام الساعة ؛ لأنها سنة .

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٦٢)﴾ [الأحزاب] نعم لا تتبدل ولا تتغير ؛ لأنها سنة مَنْ ؟ سنة الله ، والله سبحانه ليس له نظير ، وليس له شريك يُبدل عليه ، أو يستدرك على حكمه بشيء .

بعد ذلك أراد الحق سبحانه أنْ يخبرنا أن المنهج الذى جاء به رسول الله ﷺ من ربه وفيه أوامره ، وفيه نواهيه ، وفيه سبل الخلاص من الخصوم ، هذا المنهج لا بُدَّ أنْ يُحترمَ ؛ لأنه سيُسلم الناس جميعاً إلى حياة أخرى يُستقبلون فيها استقبالاً ، لا ينفعهم فيه إلا أعمالهم .

حياة أخرى يعيشون فيها مع المسبِّب سبحانه ، لا مع الأسباب فإياكم أنْ تظنوا أن الله خلقكم ورزقكم وتنعمتُمْ بنعمه فى الدنيا ، وانتهت المسألة ، وأفلت من عقابه مَنْ خرج على منهجه ، لا بل تذكروا دائماً أنكم راجعون إليه ، ولن تُفلتوا من يده .

﴿ يَسْأَلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ ﴾

سُئل رسول الله كثيراً عن الساعة ، والسؤال ظاهرة صحية إذا كان في الأمر التكليفي ؛ لأن السؤال عن التكاليف الشرعية دليل على أن السائل آمن برسول الله ، وأحبَّ التكليف ، فأراد أنْ يبني حركة حياته على أسس إسلامية من البداية .

فعلى فرض أن الإسلام جاء على أشياء كانت مُتوارثة من الجاهلية فأقرَّها الإسلام ، فيأتي مَنْ يسأل عن رأي الإسلام فيها حِرْصاً منه على سلامة دينه وحركة حياته .

لكن أراد الحق سبحانه أنْ يُهوِّن المسائل على الناس ، فقال سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ .. ﴿١٠١﴾ ﴾ [المائدة]

وقال رسول الله ﷺ : « دعوني ما تركتكم ، فإنما أُهلك مَنْ كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم »[1] .

إذن : السؤال المطلوب هو السؤال عن الأمور التكليفية التي تهم المسلم ، حتى وإنْ كانت من أمور الجاهلية ، وقد أقرَّ الإسلام كثيراً منها ، فالدية مثلاً في الإسلام جاءت من جذور كانت موجودة عند الجاهليين وأقرَّها الإسلام ، وقد أمر الله تعالى المسلم بأنْ يسأل عن

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٤٧) ، ومسلم في صحيحه (١٣٣٧) كتاب الحج ، وابن ماجه في سننه (٢) من حديث أبي هريرة ، ولفظ الحديث : « دروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فخذوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا » .

مثل هذه المسائل في قوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل]

أما السؤال عن الساعة ، فالساعة أمر غيبي لا يعلمه إلا الله ، فهو سؤال لا جدوى منه ، لذلك لما سُئل رسول الله : متى الساعة ؟ قال للسائل : « وماذا أعددتَ لها »[1] فأخذه إلى ما ينبغي له أنْ يسأل عنه ويهتمّ به .

وهذه الآية الكريمة ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ .. (٦٣) ﴾ [الأحزاب] جاءت بعد معركة الإيذاء لله تعالى ، والإيذاء لرسوله وللمؤمنين به ، هذا الإيذاء جاء ممَّنْ لا يُؤمنون بالسماء ، ولا يؤمنون بالله ، ولا يؤمنون بالبلاغ عن الله بواسطة رسوله .

وإيذاء هؤلاء لله تعالى هو في الحقيقة إيذاء لأنفسهم ؛ لأنه لا يصل إلى الله تعالى ، والله يريد لهم الخير ؛ لأنهم عباده وصَنْعته ، فحين يخرجون على منهجه فإنما يؤذون أنفسهم ، أما إيذاؤهم لرسول الله فقد آذوه ﷺ في أهله وفي نفسه ، فقد تعرَّضوا له ﷺ بما يتأبَّى عنه أيّ إنسان كريم ، آذوْه بالقول وبالفعل ، ومع ذلك صبر ﷺ ، وصبر أصحابه ، وقد أوذوا في أنفسهم وفي أموالهم .

والمتأمل يجد أن هذا الإيذاء مقصود وله فلسفة ، فقد أراده الله تعالى ليُمحِّص المؤمنين ، وليرى - وهو أعلم سبحانه - مَنْ يثبت على

---

(١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أعرابيا قال لرسول الله ﷺ متى الساعة ؟ قال له رسول الله ﷺ : « ما أعددت لها ؟ قال : حبُّ الله ورسوله . قال ﷺ : أنت مع من أحببت» أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٣٩) ، والبخاري في صحيحه (٦١٦٧ ، ٦١٧١) وفي لفظ عند البخاري أن الرجل قال : ما أعددتُ لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة ، ولكني أحب الله ورسوله . فقال ﷺ : « أنت مع من أحببت » .

الإيمان ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝ ﴾ [العنكبوت]

وسبق أن أوضحنا أن الإيمان ليس كلمة تُقال ، إنما الإيمان مسئولية وعمل ، ولهذا السبب امتنع كفار مكة عن النطق بكلمة الإيمان ؛ لأنهم يعلمون حقيقتها ، وهم أهل بيان وفَهْم للأساليب والمعانى .

وثبات سيدنا رسول الله وصبره هو والذين آمنوا معه دليل على أنهم أجروْا مقارنة بين هذا الإيذاء فى الدنيا من بشر له قدرة محدودة ، وإيذاء الله سبحانه في الآخرة ، وهذا إيذاء يناسب قدرته تعالى ، ولا يمكن أنْ يفرّ منه أحدٌ .

إذن : نقول : إن للإيذاء فلسفةً مقصودة ، وإلا فقد كان من الممكن أن يأخذ الله أعداء دينه أَخْذ عزيز مقتدر ، كما أخذ قوم نوح بالطوفان ، وقوم فرعون بالغرق ، وكما خسف بقارون الأرض ، لكن أراد سبحانه أن يعذب هؤلاء بأيدى المؤمنين وبأيدى رسول الله ، وربما لو نزلت بهم أخذة عامة لقالوا : آية كونية كالزلازل والبراكين مثلاً ؛ لذلك قال تعالى مخاطباً المؤمنين : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ .. ۝ ﴾ [التوبة]

ثم يُصبِّر الحق سبحانه نبيه ويُسلّيه : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝ ﴾ [غافر]

إذن : ردُّ الحق سبحانه على هذا الإيذاء جاء على نوعين : نوع فى الدنيا بأنْ ينصرَ اللهُ نبيَّه عليهم ، كما بشّره الله بقوله : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝ ﴾ [القمر]

والآخر رَدٌّ أخروى يوم القيامة ؛ لذلك قال تعالى : ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ .. (٦٣)﴾ [الأحزاب]

والسؤال الذى سُئِلَه رسول الله ﷺ كان متوجهاً إلى أمرين : الأول : إعجازى لأنهم كانوا يعلمون من كتبهم وأنبيائهم بعض الأمور ، فيريدون أنْ يُحرجوا بها رسول الله حين يسألونه عنها ، فلم يجدوا جواباً ، وهم يعرفون أن رسول الله أُمِّىٌّ لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يجلس أبداً إلى مُعلِّم ، لكن الحق سبحانه كان يُسعف رسوله ويُعلمه الجواب ، فيجيب عليهم الجواب الصحيح ، فيموتون غيظاً ، ويتمحكون فى أىِّ مسألة ليثبتوا لأنفسهم أن محمداً لا يعلمها .

من ذلك مثلاً سؤالهم عن أهل الكهف : كم لبثوا ؟ فأجابهم الله تعالى : ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥)﴾ [الكهف] فقالوا : نحن نعلم أنها ثلاثمائة ، فمن أين هذه الزيادة ؟ وجهلوا أن توقيت المناسك الإلهية فى الدين إنما يقوم على التقويم الهلالى لا على حركة الشمس ؛ لأن مُقْتضى ما تعطيه لنا الشمس أن نعلم بها بداية اليوم ونهايته ، لكن لا نعرف بها أول الشهر ولا آخره .

أما التوقيت العربى الهلالى ، فله علامة مميزة هى ظهور الهلال أول الشهر ، وإذا ما قارنْتَ بين التقويم الهلالى والتقويم الميلادى تجد أن كل سنة هجرية تنقص أحد عشر يوماً عن السنة الشمسية ، فالثلاثمائة سنة الميلادية تساوى فى السنة الهجرية ثلاثمائة وتسعة .

فكأنهم أرادوا تجهيل محمد ، فنبَّههم الله إلى أنهم هم الجهلة . وعجيب أن يعترض اليهود على هذا التوقيت ، مع أنه التوقيت العبادى لسيدنا موسى عليه السلام ، ألم يقل سبحانه : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ .. (١٤٢)﴾ [الأعراف]

إذن : فقوله تعالى : ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥)﴾ [الكهف] فيه إعجاز أدائي بليغ ، يدل على أنَّ التسْع سنين إنما جاءتْ زيادةً من داخل الثلاثمائة ، وليستْ خارجة عنها .

ثم سألوه ﷺ عن رجل جوَّال ، فأنزل الله : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ .. (٨٣)﴾ [الكهف]

فكان ينبغي أن يلفتهم ذلك إلى صدق محمد ﷺ ، وأن يسألوا أنفسهم : من أين له هذا العلم ، وهو الأميُّ الذي لم يجلس مرة إلى مُعلِّم ؟

لذلك قلنا : إن الأمية عَيْبٌ في كل إنسان ، إلا أنها كانت شرفاً وميزة في رسول الله بالذات ؛ لأنها تعني في حقِّ رسول الله أنه لم يُعلِّمه بشر كما اتهموه ، إنما علمه ربه .

كذلك كانت الأمة التي نزل فيها القرآن أمة أمية ، وهذا أيضاً شرف في حقها ، فلو أن هذه الأمة كانت أمةَ علم وثقافة لقالوا عن الإسلام : إنه قفزة حضارية ، لكنها كانت أمة أمية يسودها النظام القبلي ، فلكل قبيلة قانونها ونظامها ، ولكل قبيلة رئيسها ، ومع ذلك خرج منهم مَنْ جاء بنظام عام يصلح لسياسة الدنيا كلها ، إلى أنْ تقوم الساعة ، وهذا لا يتأتَّى إلا بمنهج إلهي .

إذن : الأمية في العرب شرف ، وعجزهم عن محاكاة القرآن ، والإتيان بمثله أيضاً شرف لهم ، فكوْن الحق سبحانه يتحدَّاهم بأسلوب القرآن دليل على عظمتهم في هذا المجال ، وإلا فأنت لا تتحدَّى الضعيف إنما تتحدَّى القوي في مجال التحدي ، فكان تحدِّي الله للعرب شهادة منه سبحانه بأنهم أفصح الخَلْق ؛ لذلك جاءهم بمعجزة من جنس ما نبغوا فيه .

ثم يسأل اليهود رسول الله عن الساعة ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ.. (٦٣)﴾ [الأحزاب] وهم يسألون عن الساعة يعني : عن يوم القيامة ؛ لأنهم ينكرونه ، ومن مصلحتهم ألاَّ يكون هذا اليوم ، حتى لا يقفوا موقف المساءلة والحساب على ما أجرموه في الدنيا من ظلم وشرك وعربدة وسَفْكٍ للدماء ، ولَغْو في أعراض الناس .

ولو بحث هؤلاء قضية القيامة والحساب بالعقل - لا بنصوص القرآن - لَوجدوا أنها أمر منطقي لا بُدَّ أنْ يحدث ، فمثلاً نحن عاصرنا الحزب الشيوعي في روسيا سنة ١٩١٧ ، ورأينا كيف أخذوا الإقطاعيين والرأسماليين وعذَّبوهم ، وفعلوا بهم الأفاعيل ، وصادروا ممتلكاتهم جزاءً لهم على ظلمهم للناس ، وكنا نقول لهم : نعم هذا أمر منطقي أنْ تقتصَّ من الظالم ، لكن ما بال كثير من الظَّلمة الذين ماتوا أو لم تدركوهم وأفلتوا من قبضتكم ؟

بالله ، لو جاء شخص ودلَّكم على مكان أحد الظلمة هؤلاء ، ألستم تحمدون له هذه المساعدة ؟ فكيف به لو قال : بل سأحضره وأحاسبه وأقتصّ منه ، أليست هذه إعانة لكم على مهمة الانتقام من الظالمين ؟

لذلك نقول : كان من الواجب أن يكون الشيوعيون أول الناس إيماناً بيوم القيامة وبالبعث والحساب ليتداركوا مَنْ أفلت من أيديهم .

شيء آخر : ألستم تضعون - في أيِّ نظام من أنظمتكم الوضعية - القوانين المنظمة ؟ ما معنى القانون : القانون قواعد تحدد للمواطن ما له وما عليه ، أليس في قوانينكم هذه مبدأ الثواب للمحسن ، والعقاب للمقصر ؟

إذن : كل مجتمع لا بُدَّ أن تكون فيه عناصر خارجة على نظامه ،

وتستحق العقوبة ، فمَن استطاع أنْ يُدلِّس على المجتمع ، وأنْ يداري جريمته ما حظه من العقوبة ، وقد استشرى فساده وكثُر ظلمه ؟

إذن : لا بُدَّ أنْ نؤمن بقدرة أخرى لا يَخْفَى عليها أحد ، ولا يُدلِّس عليها أحد ، ولا يهرب منها أحد ، قدرة تعرف الخفايا وتفضحها وتحاسب أصحابها . هذه القضية لا بُدَّ أنْ تسوقك إلى فطرية الإيمان بالله تعالى ، وأنه سبحانه خبير عالم ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي ..(٥٩)﴾ [الأنعام]

لماذا إذن تنكرون القيامة وأنتم في أنظمتكم الدنيوية تُجنِّدون الجواسيس والمخابرات ، وتُحْصُون هَمْسَ الناس لمعرفة الذين يحتالون في ألاّ يراهم القانون ؟ أليس من فضل الله عليكم أنه سبحانه يعلم ما خَفِي عليكم ويقتصّ لكم من خصومكم ؟

فقضية القيامة والحساب واضحة بالفطرة ؛ لذلك تجد أن المنكرين لها هم الذين أسرفوا على أنفسهم ويخافون ما ينتظرهم من العقاب في هذا اليوم ، ولا يملكون إلا إنكاره وعدم الاعتراف به ، وكأن هذا الهروب هو الحل .

وسورة الكهف تعطينا نموذجاً لهؤلاء ، وهو صاحب الجنة الذي قال : ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ..(٣٦)﴾ [الكهف] بعد أنْ أسرف على نفسه وجحد نعمة الله عليه ، ولما تنبَّه وراجع فطرته قال : ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً (٣٦)﴾ [الكهف]

فالتكذيب بيوم القيامة هو الأغلب والآكد والشكّ في ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي .. (٣٦)﴾ [الكهف] يعني : وعلى فرض أنّي رُدِدْتُ إلى ربي يوم القيامة فسوف يكون لي عنده أفضل مما أعطاني في الدنيا ، فكما أكرمني هنا سيكرمني هناك .

وهذا اعتقاد خاطىء وفَـهْم أحمق ، فالله تعالى لا يكرم فى الآخرة إلا مَنْ أكرم نفســه باتباع منهجه فى الدنيا ، ومَـنْ لم يكرم نفسه هنا بمنهج الله لا يكرمه الله فى الآخرة .

لذلك كـثيراً مـا نســمع : دَعوْتُ فلم يُستـجب لى ، خـصوصـاً السيدات ، جاءتنى إحداهن تشـتكى أنها توجهت إلى الله بالدعاء ، ومع ذلك البنت لم تتـزوج والولد كذا والزوج كذا . فكنـت أقول لها (كـتر خيرك) أولاً أنك عـرفت أن لك ربأ تفزعين إليه وقت الشدة كـما قال سبحانه : ﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا..(٤٣)﴾ [الأنعام]

إنما أسـألـك : هل أنت أجبت اللهَ أولاً فيمـا طلبه منك كى تنتظرى منه أنْ يُجيبك إلى ما طلبت ؟ أَأَجبت الله فى شعـرك هذا ؟ أأجبت الله فى (شفـايفك) وتغييـرك لخلْقة الله ؟ فكانت لا تجـد جواباً ، إلا أنْ تقول : والله أنا قلبى (صافى) ولا أؤذى أحداً ... إلخ .

إذن : أخذتم على الله أنكم دعـوتُم فلم يَستـجب لكم ، ولم تأخذوا على أنفسكم أنه سبحانه دعاكم أولاً ونـاداكم فلم تستجيبوا لندائه ، احرصوا أولاً على إجابة نداء الله ، وثقوا أنه سبحانه سيجيبكم .

نعـود إلى مـا كنا بصـدده من الحديث عن الســؤال فى القـرآن الكريم ، فسؤالهم عـن الساعة إمَّا ليتـأكد السائل أنها ستـحدث ، وإما لأنه يستبطئها ويريدها الآن .

ومادة السؤال جاءت كثيراً فى كتاب الله ؛ لأن القرآن لم ينزل على رسول الله جملةً واحدة ، إنمـا نزل مُنجَّماً حَسْب الأحداث ليعطيهم الفـرصـة للســؤال ، وجـاء الســؤال إمـا لتـحـدى رسـول الله ، وإمـا للاستزادة من أحكام الله التى أنزلهـا على رسوله ﷺ ، وهذا جاء ممَّنْ

عشقوا الإيمان ، فأحبوا أنْ تُبنى حركة حياتهم على هدى الإيمان .

حتى المسائل التى كانت لها جذور فى الجاهلية راحوا يسألون عنها ، لماذا ، مع أن الإسلام أقرها ؟ قالوا : لأنهم أرادوا أنْ يبْنوا أعمالهم على العبادة ، لا على العادة الجاهلية .

والقرآن حينما عرض لهذه الأسئلة قال مرة : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى .. (٢٢٢) ﴾ [البقرة] فرسول الله ﷺ حينما سُئِل هذا السؤال لم يَقُلْ : هو أذى ؛ لأن الجواب ليس من عنده ، إنما هو مُبلِّغ عن الله ، والله هو الذى يقول ، فقال ﴿ قُلْ هُوَ أَذًى .. (٢٢٢) ﴾ [البقرة] فكلمة قُلْ هذه من مقول الله تعالى ، وأنا أقولها كما هى .

لذلك نعجب مِمَّنْ ينادى بحذف كلمة (قُلْ) من القرآن ، بحجة أنها لا تضيف جديداً للمعنى ، فى حين أنها دليل على صدْق سيدنا رسول الله ﷺ ، ودليل على أن ما جاء به ليس من عنده ، إنما من عند الله ، وهو مُبلِّغ فحسب ، فربه قال له : قُلْ وهو يقولها كما هى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ .. (٢١٩) ﴾ [البقرة]

وفى موضع آخر : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ .. (٢١٥) ﴾ [البقرة]

لكن قُلْ تأتى مرة مقترنة بالفاء ، ومرة أخرى غير مقترنة بها ، فلماذا ؟ هذا ملْمح إعجازى فى أداء القرآن ؛ لأن الجواب بقُلْ يعنى أن السؤال قد حدث بالفعل ، مثل ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ..(١٨٩) ﴾ [الحج]

أما الجواب حين يقترن بالفاء ، فإنه يعنى وجودَ شرط ، فالسؤال لم يحدث بالفعل ، إنما سيحدث فى المستقبل ، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) ﴾ [طه]

والمعنى : إن سألوك في المستقبل عن الجبال فقُلْ ينسفها ربي نَسْفاً ، فالجواب مُعَدٌّ مسبقاً لسؤال لم يُسأل بَعْد ، لكنه لا بُدَّ أنْ يُسأل ، وأنْ يقع منهم ، وهذا وجه آخر من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم ، وإلا فقد كان بإمكانهم ألاَّ يسألوا ، لكن هيهات أنْ ينقض أحد كلام الله ، أو ينقض علمه تعالى .

ما دام الله قال فلا بُدَّ أنْ يقولوا ، وهذه المسألة أوضحناها في قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴾ [المسد]

فحكم الله تعالى على هذا الكافر العنيد أنه سيموت على كفره ، وسيكون مصيره وزوجته النار ، وقد سمع أبو لهب وامرأته هذه الآية ، وعرفوا صدْقها ، لكنه مع ذلك لم يؤمن ولو نفاقاً ، وقد آمن مَنْ هو أشدُّ منه كُفراً وعناداً ، أمثال : عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد وغيرهما .

لكن الذي حكم وأخبر أنه لن يؤمن يعلم أنه سينتهي إلى هذه النهاية مهما حذَّره وأنذره ؛ لذلك كان أبو لهب مثالاً لغباء الشرك ، فلو أنه جاء في مَحْفل من محافل قريش بعد نزول هذه السورة ، وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله لأحرجَ رسول الله وكذَّب القرآن ، لكن لم يحدث شيء من هذا ، وما كان ليحدث بعد أنْ قال الله ، مع أنه حُرٌّ مختار .

وفي آية واحدة من كتاب الله وردت الإجابة عن السؤال غير مُصدَّرة بـ (قُلْ) ولا (فقل) ، وهي قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ

عبادى عنّى فإنّى قريبٌ .. (١٨٦)﴾ [البقرة] ، لماذا ؟

قالوا : لأن السؤال هنا عن ذات الله تعالى ؛ لذلك جعل الجواب منه سبحانه مباشرة بلا واسطة ؛ لأن المقامَ مقامُ سؤال عن قريب مباشر لك ، كذلك جاءتْ الإجابة مباشرة .

هذا عن السؤال ، أما عن الساعة التى سألوا عنها ، فكلمة الساعة حين نطلقها فى هذا العصر نريد بها الآلة المعروفة التى تحدد أجزاء الوقت من ليل أو نهار بالسوية ، فليس هناك ساعة أكبر من ساعة .

والعرب حينما اخترعوا الساعة أو المزولة ، كانت ساعة دقّاقة بالماء ، وهى عبارة عن خزان يقطر منه الماء قطرةً قطرة ، وكلما نزلت قطرة الماء حركتْ عقارب الساعة بالتساوى ، وسُمّيت ساعة بالذات ؛ لأن الساعة هى أقرب أجزاء الوقت لليل أو للنهار ، وبعد ذلك عرفنا الدقيقة والثانية والجزء من الثانية .

وقد حرص العرب بالذات على حساب الوقت ، وفكّروا فى آلة تضبطه ؛ لأن الإسلام يقوم على عبادات موقوتة لا بُدَّ أنْ تُؤدَّى فى وقتها ، من هنا اخترعوا الساعة .

وكأن الحق سبحانه استعار فطرة البشر منهم ، حين سَمَّى القيامة (الساعة) فالساعة التى تنتظرونها هى آلة مواقيتكم فى الحركة ؛ لذلك قال شوقى رحمه الله :

دَقّاتُ قَلْبِ المَرْءِ قَائلةٌ لَهُ   إنَّ الحيَاةَ دَقَائقٌ وثَوانِ

والحق سبحانه يقول : ﴿ويوم تقوم السَّاعة .. (٥٥)﴾ [الروم] أى : القيامة ﴿يُقْسِمُ المُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥)﴾ [الروم] أى : ساعتكم وآلتكم التى تعارفتم عليها لضبط الوقت ، فجمع سبحانه بين

الساعة الفاصلة بالقيامة ، وبين الساعة التى هى جزء من الليل ، أو من النهار .

والمعنى : ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ .. (٦٣) ﴾ [الأحزاب] يعنى : أتوجد أم لا توجد ؟ وإذا كانت تُوجَد ، قالوا : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) ﴾ [الأعراف]

الحق سبحانه تكلَّم فى السؤال عن الساعة فى موضعين : هنا ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) ﴾ [الأحزاب]

وفى سورة الشورى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) ﴾ [الشورى]

ونلحظ أولاً أن كلمة (قريب) جاءت بدون تأنيث ، والساعة مؤنثة ، فلم يَقُلْ قريبة ، قالوا : لأن المراد وقت قيامها : وما يدريك لعل وقت قيامها قريب . وقال اللغويون[1] : إن (قريب) على وزن فعيل ، وهذا الوزن يستوى فيه المذكَّر والمؤنث ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) ﴾ [التحريم]

ثم فى الآية الأولى جاء بالفعل تكون ، فقال : ﴿ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) ﴾ [الأحزاب] وفى الأخرى قال : (قريب) لماذا ؟ قالوا : لأن السؤال مرة يكون عن أصل الوجود ، ومرة يكون عن شىء تابع لأصل الوجود ،

---

(١) قال ابن منظور فى (لسان العرب ـ مادة . قرب) : « الواحد والاثنان والجميع فى ذلك سواء . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) ﴾ [الشورى] ذكَّر قريباً لأن تأنيث الساعة غير حقيقى ، وقد يجوز أن يُذكَّر لأن الساعة فى معنى البعث . وقال ابن السكيت : تقول العرب هو قريب منى ، وهما قريب منى ، وهم قريب منى ، وكذلك المؤنث : هى قريب منى ، وهى بعيد منى ، وهما بعيد ، وهُنَّ بعيد منى » .

وفي الدراسات النحوية تُدرِّس للتلاميذ كان وأخواتها ، وهي فعل مَاضٍ ناقص ، يرفع المبتدأ وينصب الخبر ، وقد تأتي كان تامة تكتفي بفاعلها كما في ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ .. (٢٨٠) ﴾ [البقرة] يعني : إنْ وُجِد ذو عُسْرة .

إذن : إنْ أردتَ الوجود الأول فهي تامة ، وإنْ أردتَ وجوداً ثانياً طارئاً على الوجود الأول فهي ناقصة ، كما لو قُلْتَ : كان زيد مجتهداً ، فأنت لا تتكلم عن الوجود الأول لزيد ، إنما تتكلم عن شيء طرأ على وجوده ، وهو اجتهاده ، وهذه هي كان الناقصة ؛ لأن الفعل ينبغي أنْ يدلَّ على زمن وحدث ، والفعل كان دلَّ على زمن فقط ، فاحتاج إلى خبر ليدل على الحدث ، فكأنك قُلْتَ : اجتهد زيد .. في الزمن الماضي .

كذلك نقول في الوجود الأول وكان التامة : « كان الله ولا شيء معه »[1] هذا هو الوجود الأعلى ، فإنْ أردتَ شيئاً آخر مُتعلِّقاً بهذا الوجود الأول تقول : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً (١٥٢) ﴾ [النساء]

فالحق سبحانه في هاتين الآيتين يردُّ على الذين يسألون عن الساعة ، إما لأنهم ينكرونها وجوداً ، أو يؤمنون بها ، ويسألون عن وقتها ، فقال مرة ﴿ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً (٦٣) ﴾ [الأحزاب] ومرة ﴿ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) ﴾ [الشورى]

كلمة ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ .. (١٧) ﴾ [الشورى] معنى الدراية : الإعلام ، كما تقول : هل دريْتَ بالموضوع الفلاني ، يعني : علمتَ به .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٤٣١) ، والبخاري في صحيحه (٣١٩١) من حديث عمران بن حصين ، وتمامه : « كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السماوات والأرض » .